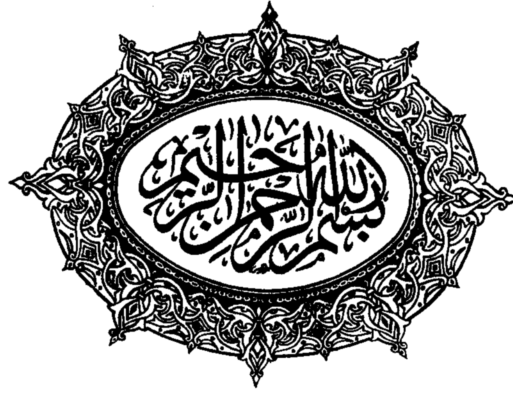
ايمن خليفه عليوى
خريج جامعة الأزهر الشريف

جامع النقول في أسباب النزول

وشرح آياتها

الجزء الأول

الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ


بسم الله الرحمن الرحيم

الجُزْءُ الأَوَّلُ

بسم الله الرحمن الرحيم

((المقـــدمة))

الحمد لله الملك القدوس السلام، ذى الجلال والإكرام، وذى الطول والانعام. لا إلـه إلاّ هو المتعالى العلاّم. الذي أنزل القرآن الكريم نوراً وهدى ورحمة بحسب الوقائع والمصالح منجّماً، وجعله بالتحميد مفتتحاً و بالاستعاذة مختتماً، وأوحاه على قسمين متشابهاً ومحكماً. نزل به جبريل الأمين على قلب سيد المرسلين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام الصادق الوعد الأمين. صلى الله عليه وعلى آله وخلفائه وجميع المهاجرين والأنصار، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعـــد :

فيقول العبد الفقير إلى ر به القدير (عليوى خليفه عليوى) القلعه حى مولداً: قلعة المضيق. محافظة حماه. الشافعى مذهباً. السوريُّ موطناً. لقد رأيت من تمام الفائدة لطلاب العلوم الشرعية أن أجمع لهم في كتاب واحد أقوال العلماء سلفاً وخلفاً في أسباب النزول إذ أن الجمع ذاته هو من مقاصد التأليف ولأنَّ من الواجب على كل مؤلف كتاباً ما في فن قد سُبق إليه أن لا يخلو كتابه من خمس فوائد:

أولاهـــا : استنباط شيىء كان مُعضلاً.

ثـانـيتها : أو جمعه إن كان متفرقاً.

ثـالـثتها : أو شرحُه إن كان غامضاً.

رابعتُها : أو حُسنُ نظم وتأليف.

خامستُها : أو إسقاط حشو وتطويل.

وإني لأ رجو العليَّ القدير أن لا يخلو كتابي هذا من هذه المقاصد التي ذكرتُ.

هذا : وقد ألّف أئمة الإسلام الأعلام في هذا الفن كُتباً كثيرة في معرفة أحكام القرآن وسبب نزوله. وكل بحسب ما قسم الله لهُ من العلم والفهم والمعرفة، وقد يسَّر الله لى أن أقتفي أثرهم، وأسلك طريقهم في نقل الأخبار الواردة في نزول القرآن الكريم رجاء أن يُضَمَّ اسمي إلى عقد ديوان أسمائهم، وأنال ثوابه في دار النعيم بما يُنعم به عليهم. وإني

لمتأكد أن الخوض في مثل هذا الشأن خطره كبير إذا لم أحسن التدبير والتعبير، كيف لا وقد قال البشير النذير صلى الله عليه وسلم: [من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ]* وقال: [من قال بالقرآن بغير علم فليتبوَّأ مقعده من النار]* وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حينما سُئل عن قوله تعالى: «**وفَاكِهَةً وأبًّا**» أيُّ سماء تظلني، وأي أرض تُقلُّني إذا قلت في كتاب الله تعالى مالا أعلم.

لذا فإني سأبتعد في كتابي هذا — إن شاء الله تعالى — عن كل قول لم يكن متابعاً، وسأبتعد مهما أمكنني — إن شاء الله تعالى — عن التفرُّد في المقال مهما كان راويه عدلاً، لأنَّ التفرُّد لا يخلو من مقال، وسأترك التطويل مهما أمكنني في الأسباب الواضحة، إلا أني قد أُطنب أحياناً في الروايات إن كان ما فيها مشوّقاً للأعمال والاقبال على الله تعالى، أو قد أذكر أقوالاً كثيرة إيضاحاً للمعنى المراد من نزول الآية* واقتداءً بسلفنا الأبرار من العلماء الأخيار، وتجديداً لما طال عهده وكاد يدرس رسمه، لقلّة التأليف فيه قمت بهذا الجهد المتواضع تنبيهاً للهمم وتحريضاً على العمل للمقصّرين من أمثالي عن بلوغ الأمل، والله تعالى أسأل التوفيق لإتمام ما قصدت، وإليه أرغب في تيسير ما أردت، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويتقبّله مني قبولاً حسناً، وهو حسبي ونعم الوكيل عليه توكلت وإليه المصير.

المؤلف

((معنى سبب النزول))

القرآن الكريم قسمان:

قسم نزل من الله تعالى ابتداء غير مرتبط بسبب من الأسباب الخاصّة، وإنما هو لمحض هداية الخلق إلى الحق جلّ جلاله. وهذا ظاهر لا يحتاج إلى بيان. والآيات في هذا الموضوع كثيرة مثل آيات النظر في النفس وفي الكون للوصول إلى إثبات وجود الخالق جل جلاله.

وقسم نزل مرتبطاً بأسباب خاصة — وهو موضوع بحث كتابي هذا الذي سميته (جامع النقول في أسباب النزول) وهو بيان ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه، أو مبينة لحكمة أيام وقوعه، وذلك بأن تقع حادثة في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، أو سؤال وجه إليه، فينزّل المولى جل جلاله الآية أو الآيات لتبين ما يتصل بتلك الحادثة، أو بجواب ذلك السؤال، سواء أكانت تلك الحادثة خصومة وقعت بين المسلمين، كالتي وقعت بين الأوس والخزرج بتحريض من اليهود حتى تنادوا: السّلاح السّلاح، فأنزل الله تعالى في ذلك الآيات الحكيمة في سورة آل عمران من قوله تعالى: **«يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنْ تُطيعُوا فَريقاً مِنَ الَّذينَ أُوتوا الكتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمَانِكُمْ كَافِرينَ*...»** إلى غيرها من الآيات بعدها وهي من أبلغ ما يُنَفِّرُ المؤمنين من طاعة أهل الكتاب فيما يأمرونهم من الانقسام والشقاق، وتدعوهم إلى المحبّة والوحدة والاتفاق* أم كانت تلك الحادثة خطأ فاحشاً ارتكب وذلك كالسكران الّذي أمَّ الناس وهو في نشوة سكره لا يدرى ولا يعي مايقول فقرأ بعد الفاتحة (قل يا أيُّها الكافرون أعْبُدُ ما تَعْبُدُن) وحذف لفظ (لا) من **«لاَ أعْبُدُ»** فنزلت الآية الكريمة في تلك الحادثة تنهى عن قربان الصلاة في حال السكر فقال تعالى: **«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ وأنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُون..»*** وسواء أكان ذلك السؤال المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم يتعلّقُ بأمر مضى مثل قوله تعالى: **«وَيَسْألُونَكَ عَنْ ذي الْقَرْنَيْنِ...»** الآيات* أم يتعلّق بحاضر مثل قوله تعالى: **«وَيَسْألُونك عَنِ الرُّوح قُل الرُّوحُ مِنْ أمْرِ رَبِّي ومَا أُوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَليلاً.»*** أم يتعلّقُ بمستقبل مثل قوله تعالى: **«يَسْألُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أيَّانَ مُرْساها..»** وسيأتيك بيان هذا مفصلاً في حينه إن شاء الله تعالى.

((فوائد معرفة أسباب النزول))

لأسباب النزول فوائد كثيرة أجملها فيما يلي:

الفائدة الأولى :

معرفة حكمة الله تعالى على التعيين فيما شرعه بالتنزيل، وهذه فائدة عظمى لأن فيها نفعاً عاماً للمؤمن وغير المؤمن، أمّا المؤمنُ فيزداد إيمانه، ويحرصُ على تنفيذ أحكام الله تعالى في الأرض. والعمل بكتابه لما ينكشف له من المصالح والمزايا التي نيطت بهذه الأحكام التي نزل من أجلها القرآن، وذلك كقوله تعالى: «**إنَّ اللهَ يَأمُرُ بالْعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتَاءِ ذي الْقُربى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنْكَرِ والبَغيِ يَعِظُكَمْ لَعلَّكُمْ تَذَكَّرُون**»* وأمّا الكافر فتهديه تلك الحكم الباهرة إلى الايمان بالله تعالى لما يعلم من أسرار التشريع الإسلاميِّ أنّه قائمٌ على أساس رعاية مصالح الإنسان لا على الإستبداد والتَّحكُّم والطغيان، وَحَسْبُكَ شاهداً على ذلك تحريم الربا والخمر والرشوة ونحوها من المفاسد لما فيها من ظلم الإنسان لنفسه، وظلم الإنسان لأخيه الإنسان.

الفائدة الثانية :

القدرة على فهم الآية، ودفع الغموض عنها لأنه لا يمكن معرفة تفسير الآية تفسيراً صحيحاً إلاّ بالوقوف على قصّتها، و بيان نزولها، وفي هذا المعنى قال ابن تيميّه رحمه الله: (معرفة سبب النزول يُعين على فهم الآية، فإن العلم بالسّبب يورث العلم بالمسبب) وذلك كقوله تعالى: «**ولله الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ فَأيْنَما تُوَلّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله إنَّ اللهَ واسِعٌ عَليمٌ**» فظاهر اللفظ الكريم يدلُّ على أنَّ للإنسان أن يُصَلِّيَ إلى أيَّةِ جهة شاء، ولا يجب عليه التوجُّه شطر البيْت الحرام لا في السفر ولا في الحضر. ولكن حينما يعلم أنَّ هذه الآية نازلة في نافلة السفر خاصة، أو فيمن صلَّى باجتهاده، ثم بان له خطَؤه تبيَّنَ له أن الظاهر غير مُراد، إنما المراد التَّخفيف على خصوص المسافر في صلاة النافلة، أو على المجتهد في القبلة إذا صلَّى وتبينَ له خطؤه. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: [إن هذه الآية نزلت في صلاة المسافر على الراحلة أينما توجّهتْ]* وقيل: عميت القبلةُ على قوم فصلّوا إلى أنحاء مختلفة، فلما أصبحوا تبيَّنوا خطأهم فَعُذِرُوا.. إلى آخر ما فيها من أقوال ستأتيك مفصلّة في حينها إن شاء الله تعالى.

الفائدة الثالثة :

دفع توهم الحصر عما يفيد ظاهره الحصر، وذلك كقوله تعالى: «**قُلْ لاَ أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَنْ يكون مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ..**»* فذهب الشافعي رضي الله عنه إلى أن الحصر في هذه المحرمات غير مراد بعينها ـ لأنها نزلت بسبب أولئك الكفار الذين أبوْا إلاَّ أن يُحرِّموا ما أحلَّ الله و يُحِلُّوا ما حرَّم الله عناداً منهم ومُحادّه لله ورسُوله. فنزلت الآية بهذا الحصر* نقل السبكي عن الشافعي قوله: إن الكفار لمّا حرَّموا ما أحلَّ الله، وأحلُّوا ما حرَّم الله، وكانوا على المضادّة والمخادعة جاءت الآية مناقضة لغرضهم، فكأنه قال: لا حلال إلا ما حرمتموه، ولا حرام إلاّ ما أحللتموه، نازلاً منزلة من يقول لك: لا تأكل اليومَ حلاوة فتقول: لا آكل اليوم إلا حلاوة، والغرض المضادةُ لا النّفي والاثبات على الحقيقة، فكأنه قال تعالى: لا حرامَ إلا ما أحْلَلْتُموه من الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به، ولم يقصد حِلَّ ما وراءه إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحلِّ* قال إمام الحرمين: وهذا في غاية الحسن. ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية.

الفائدة الرابعة :

تخصيص الحكم بالسبب عند من يرى أن العبرة بخصوص السبب لا بعموم اللفظ، وذلك كنزول أول سورة المجادلة، إذ أنَّ أوْس بنَ الصّامتِ ظاهَرَ من زوجته خَوْلَةَ بنت حكيم بن ثعلبة، والحكم الذي تضمَّنته الآياتُ خاصٌ بهما وحدهما (على هذا الرأى) أمّا غيرهما فيعلم بدليل آخر قياساً أو سواه.

الفائدة الخامسة :

معرفة أن سبب النزول غير خارج عن حكم الآية إذا ورد مخصِّصٌ لها، وذلك لقيام الإجماع على أن حكم السبب باق قطعاً، فيكون التخصيص قاصراً على ما سواه، فلو لم يعرف سبب النزول لجاز أن يفهم أنَّه ممَّا خرج بالتخصيص مع أنّه لا يجوز إخراجه قطعاً للإجماع المذكور.

قال الغزالى في المستصفى: (ولذلك يشير إلى امتناع إخراج السبب بحكم التخصيص بالاجتهاد) غلط أبوحنيفة رحمه الله في إخراج الأمَةِ المستفرشة من قوله عليه الصلاة

والسلام: [الولدُ لِلْفِراشِ] والخبر إنما في وليدة زَمْعَةَ إذْ قال عبدالله بن زمعة: هو أخي وابن وليـدةِ أبي وُلِدَ على فراشه. فقال عليه الصلاة والسلام: [الْوَلَدُ لِلْفِراشِ ولِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ] فأثبت للأمَة فراشاً، وأبوحنيفة لم يبلغه السّبب فأخرج الأمَة من العموم.

الفائـدة السادسة :

معرفة من نزلت فيه الآية على التّعيين حتى لا يشتبه بغيره فَيُتّهم البرىء و يُبرَّأ المُريب، ولهذا [ردّت عائشة على مروان حين اتّهم أخاها عبدالرحمن بن أبي بكر بأنَّهُ نزلت فيه آية: «**وَالَّذِى قَالَ لِوَالِدَيْه أُفٍّ لَكُمَا..**» وقالت: والله ما هو به ولو شئْتُ أنْ أُسَميه لَسَمَّيتُه..].

الفائـدة السابعة :

تيسير الحفظ، وتسهيل الفهم، وتثبيت الوحى في ذهن كل من يسمع الآية إذا عرف سبب نزولها وذلك لأن ربط الأسباب بالمسببات، والأحكام بالحوادث، والحوادث بالأشخاص، والأزمنة والأمكنة كُلُّ أولئك من دواعى تقرُّر الأشياء، وانتقاشها في الذهن، وهذه فوائد عظيمة نص عليها الأئمة في كتبهم.

((طريق معرفة سبب النزول))

لا طريق لذلك إلا النقلُ الصحيح إذ لا يحل القول في أسباب النزول إلا بالرواية والسماع ممّن شاهدوا التنزيل لِلْوعيد في ذلك، وعلى هذا فإذا رُوى سبب النزول عن صحابىّ فهو مقبول، وإن لم يُعزّز برواية أخرى تُقَوِّيه إذ قول الصحابى فيما لا مجال للإجتهاد فيه، فهو في حكم المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما يبعد كل البعد أن يكون الصحابي قال ذلك برأيه، أو من تلقاء نفسه، فخبر الصحابي لا مستند له إلاَّ السماع والنقل، أو المشاهدة والرؤية.

أما إذا رُوى سبب النزول بحديث مرسل، أي سقط من سنده الصحابيُّ، وانتهى إلى التابعى، فحكمه أنّه لا يقبل إلاَّ إذا صحّ واعْتَضَدَ بمرسل آخر، وكان الراوى له من أئمة التّفسير الآخذين عن الصحابة، كمجاهدٍ وعكرِمَةَ وسعيد بن جبير.

((التّعبيرُ عَنْ سَبب النُّزول))

قال الزرقاني: تختلف عبارات القوم في التّعبير عن سبب النزول، فتارة يُصرَّح فيها بلفظ السبب فيقال: (سبب نزول الآية كذا وكذا)، وهذه العبارة نصٌ في السببيّة لا تحتمل غيرها، وتارةً لا يُصرَّحُ بلفظ السبب، ولكن يُؤتى بفاء داخلة على مادة نزول الآية عقب سرْد حادثة، وهذه العبارة مثل تلك في الدلالة على السببيّة أيضاً.

قال : مثل ما أخرجه مسلم عن جابر قال: [كانت اليهود تقول: (مَنْ أتى امرأةً مِنْ دُبُرها (في قُبُلِها) جاء الولد أحْوَلَ) **فأنزل الله: «نِسَاؤكم حَرْثٌ لَكُمْ فأتُوا حَرثَكُمْ أنَّى شِئتُم وَقَدِّمُوا لأنْفُسِكُمْ واتقُوا الله واعلَمُوا أنكُم مُلا قُوهُ وَبَشِّر المؤْمِنِين»**]* وما أخرجه البخاري عن ابن عمر قال: [أنزلت : «**نِسَاؤُكُمْ حَرثٌ لَكُمْ**» في إتيان النساء في أدْبارهن أى على الكيفية التي تقدّمت.* وقال الزرقانيُّ: ومرَّةً يُسْألُ الرَّسُول فيُوحى إليه و يُجيب بما نزل عليه ولا يكون تعبيراً بلفظ سبب النزول. ولا تعبيراً بتلك الفاء ولكن السببية تفهم قطعاً من المقام كرواية ابن مسعود عندما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الروح* فأنزل الله تعالى: «**يَسْألُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ من أمْرِ رَبِّى..**»* قال: وحكم هذه أيضاً حكم ما هو نصٌّ في السببيّة* ومرّةً أخرى لا يُصرح بلفظ السبب ولا يؤتى بتلك الفاء، ولا بذلك الجواب المبنى على السؤال بل يُقال: نزلت هذه الآية في كذا (مثلاً)، وهذه العبارة ليست نصاً في السببيّة، بل تحتملها وتحتمل أمراً آخر هو بيان ما تضمَّنتْهُ الآية من الأحكام، والقرائنُ وحدها هي التي تُعيّن أحد هذين الاحتمالين أو تُرجحه. ومن هنا نعلم أنّه إذا وردت عبارتان في موضوع واحد، إحداهما نصٌ في السببية لنزول آية أو آيات، والثانية ليست نصاً في السببية لنزول تلك الآية أو الآيات، هنالك نأخذ في السببية بما هو نصٌ، ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية لأنَّ النّص أقوى في الدلالة من المحتمل.

((تعدُّد الأسبابِ والنازلُ واحدُ))

إذا وردت روايتان في نازل واحد من القرآن، وكانت كُلُّ رواية منها ذكرت سبباً صريحاً غير ما ذكرته الأخرى. فهنا ينظر فيهما، فإمَّا أن تكون إحداهما صحيحة والأخرى غير صحيحة، وإما أن تكون كلتاهما صحيحة ولكن لأحدهما مُرَجِّحٌ دون الأخرى،

وإمَّا أن تكون كلتاهما صحيحة ولا مرجّح لإحداهما على الأخرى، ولكن يمكن الأخذ بهما معاً. وإما أن تكون كلتاهما صحيحة ولا مرجّح، ولا يمكن الأخذ بهما معاً، فتلك صور أربع لكل منها حكم خاصٌّ نسوقُه إليك.

الصورة الأولى :

وهي ما صحت فيه إحدى الروايتين دون الأخرى، فحكمها الاعتماد على الصحيحة في بيان السبب، وردُّ الأخرى غير الصحيحة، مثال ذلك ما أخرجه الشيخان وغيرهما عن جُنْدُبٍ قال: [اشتكى النبيُّ صلى الله عليه وسلم فلم يَقُمْ ليلةً أو ليْلتين، فأتته امرأة فقالت: (يامحمد، ما أرى شيطانك إلاَّ قد تركك) فأنزل الله: «**وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ**»]. وأخرج الطبراني وابن أبي شيبة عن حفص بن ميسرة عن أمّه عن أمّها، وكانت خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أنَّ جَرْواً دخل بيتَ النبي صلى الله عليه وسلم فدخل تحت السَّرير فمات، فمكث النبي صلى الله عليه وسلم أربعة أيام لا ينزل عليه الوحيُ، فقال: يا خوْلَةُ ما حَدَثَ في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ جبريل لا يأتيني! فقلتُ في نفسي، لو هَيأتِ البيتَ وكَنَستِهِ فأهويتُ بالمِكْنَسَةِ تحتَ السَّرير فأخرجت الجرْوَ، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم تَرْعُدُ لحيتُهُ، وكان إذا نزل عليه أخَذَتْه الرِّعْدة فأنزل الله: «**وَالضُّحَىٰ**» إلى قوله فترضى]. قال الزرقاني: فنحن بين هاتين الروايتين نُقدِّم الرواية الأولى في بيان السبب لصحتها دون الثانية لأن في إسنادها من لا يُعرَف. قال ابن حجر: قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة. لكن كونها سبب نزل الآية غريب. وفي إسناده من لا يُعرف. فالمعتمد ما في الصحيح.

وأما الصورة الثانية :

وهي صحّة الروايتين كلتيْهما ولإحداهما مُرجِّح ــ فحكمها أن نأخذ في بيان السبب بالرَّاجحة دون المرجوحة. والمرجِّح أن تكون إحداهما أصح من الأخرى، أو أن يكون راوي إحداهما مشاهداً للقصة دون راوي الأخرى. مثال ذلك: ما أخرجه البخاري عن ابن مسعود قال: [كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يتوكَّأ على عَسِيبٍ، فمرَّ بنفر من اليهود، فقال بعضهم: لو سألتموه، فقالوا: حدِّثنا عن الرُّوح، فقام ساعةً ورفع رأسَهُ فعرفت أنَّهُ يُوحىٰ إليه، حتى صَعِد الوحي، ثمَّ قال: «**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ**

رَبّى ومـا أوتيتم مِنَ الْعِلْمِ إلاّ قَليلاً»]* وما أخرجه الترمذي وصححه عن ابن عباس قـال: [قالت قريشُ لليهودِ أعطونا شيئاً نسألُ هذا الرجل، فقالوا اسألوه عن الروح فسألوه فـأنزل الله: «و يَسْألونَكَ عن الرُّوح» الآية]* فهذا الخبر الثاني يدل على أنّها بمكة، وأن سبب نـزولها سؤال قريش إيّاهُ، أما الأول فصريح أنها نزلت بالمدينة بسبب سؤال اليهود إيّاه. وهو أرجح من وجهين:

احـداهما : أنـه روايـة الـبخـاري. (أمّـا الثاني) فإنه رواية الترمذي. ومن المقرر أن ماروٰه البخاري أصح مما رواه غيره.

ثـانيها : أن راوى الخبر الأول وهو ابن مسعود كان مشاهداً القصة من أولها إلى آخرها كما تدل على ذلك الرواية الأولى، بخلاف الخبر الثاني فإن راو ية ابن عباس، لا تدلُّ على أنـه كـان حـاضر الـقـصّة، ولا ريب أن للمشاهدة قوّةً في التّحمّل وفي الأداء وفي الاستيثاق لغير المشاهدة، ومن هنا أعملنا الرواية الأولى، وأهملنا الثانية.

وأمّا الصورة الثالثة :

وهـي مـا اسـتوت فيه الروايتان في الصّحة ولا مرجح لأحدهما لكن يمكن الجمع بأن كـلاً مـن السببيْن حصل. ونزلت الآية عقب حصُولِهما معاً لتقارب زمنيْهما ــ فحكم هذه الـصورة أن نحمل الأمر على تعدُّد السبب لأنه الظّاهر، ولا مانع يمنعه* قال ابن حجر: [لا مـانـع مـن تعدّد الأسباب] وقد مثل لذلك بما أخرجه البخاري من طريق عكرِمة عن ابن عبـاس: [أن هِـلال بـن أُمـيّـةَ قـذف امـرأتـه عند النبي صلى الله عليه وسلم بِشَرِيكِ بن سَـمْـحاءَ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (البيّنَةُ أوْحدٌّ في ظَهْـرِكَ) فقال يا رسول الله: إذا وجدَ أحـدُنَـا مـعَ امرأته رجلاً ينطلقُ يلتمسُ البيِّنَةَ ـ وفي رواية أنه قال: والذي بعثك بـالحقّ نـبـيـاً إنى لـصادقٌ وليُنْزلنَّ الله تعالى ما يُبرّئُ ظهرى من الحدّ، فنزل جبريل عليه السلام وأنزل عليه: «والّـذينَ يَرْمُونَ أزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إلاّ أنْفُسُهُمْ..» حتى بـلـغ «إنْ كَـانَ من الصَّادِقِينَ»* وأخرج الشيخان (واللفظ للبخاري) عن سهل بـن سـعـد: [أن عُـو يْـمـراً أتى عـاصـمَ بْنَ عدِيٍّ ـ وكان سيد بنى عجلان ـ فقال: كيف تـقُـولون في رَجُلٍ وجَدَ معَ امرأته رجُلاً أيَقْتُلُهُ فتقتُلُونَهُ، أم كيف يصنع؟ سلْ لى رسول الله صلى الله عـلـيـه وسلم عن ذلك، فأتى عاصم النبي صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله: (في روايـة مـسلم) فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم: فكره رسول الله صلى الله

عليه وسلم المسائلَ وعَابَها، فقال عويْمرٌ: والله لا أنتهي حتَّى أسألَ رسُول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فجاءَه عُويمرٌ فقال يا رسول الله: رجلٌ وجَدَ معَ امرأتِه رجُلاً أيقتله فتقتلونَه، أم كيف يصنع؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنزل الله القرآن فيك وفي صاحِبتِكَ، فأمرهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملاعنة بما سَمَّى الله في كتابهِ فلاعَنَها]. فهاتان الروايتان صحيحتان، ولا مرجّح لأحدهما على الأخرى. ومن السَّهل أن نأخذ بكلتيْهما لقرب زمانيْهما على اعتبار أن أوّل من سأل هو هلال بنُ أُميّة، ثم قفاه عُوَيْمرٌ قبل إجابته، فسأل بواسطة عاصم مرَّة، و بنفسه مرة أخرى، فأنزل الله الآية إجابة للحادثتين معاً. ولا ريب أن إعمال الروايتين بهذا الجمع أولى من إعمال احداهما وإهمال الأخرى، إذ لا مانع يَمْنَعُ الأخذ بهما على ذلك الوجه، ثم لا جائز أن نردَّهما معاً لأنهما صحيحتان، ولا تعارض بيْنهما، ولا جائز أيضاً أن نأخذ بواحدة ونردَّ الأخرى لأن ذلك ترجيح بلا مرجِّح، فتعيّن المصير إلى أن نأخذ بهما معاً، وإليه جنح النوويُّ وسبقه إليه الخطيب. فقال: (لعلَّهما اتَّفق لهما ذلك في وقتٍ واحدٍ).

وأما الصورة الرابعة :

وهي استواء الروايتين في الصحة دون مرجِّح لأحدهما، ودون إمكان للأخذ بهما معاً لبعد الزمان بين الأسباب — فحكمها أن نحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعدد أسباب النزول التي تحدثت عنها هاتان الروايتان، أو تلك الروايات — لأنه إعمال لكل رواية. ولا مانع منه. قال الزركشي في البرهان: وقد ينزل الشّيء تعظيماً لشأنه، وتذكيراً عند حدوث سببه خوفَ نسيانه. وقد مثل لذلك الزرقاني بما أخرجه البيهقي والبزَّار عن أبي هريرة [أن النبي صلى الله عليه وسلم وقفَ على حمزةَ حينَ اسْتُشهد وقد مُثِّلَ بهِ فقال: (لأمَثِّلَنَّ بسبعينَ منْهم مكانَك) فنزل جبريل — والنبي صلى الله عليه وسلم واقف — بخواتم سورةِ النَّحل: «**وَإِنْ عَاقَبْتُم فعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ**» إلى آخر السورة، وهن ثلاث آيات. وأخرج الترمذي والحاكم عن أُبيِّ بن كعب قال: [لمَّا كانَ يومُ أُحدٍ أُصيبَ منَ الأنْصارِ أرْبَعةٌ وستُّون، ومن المهاجرين ستةٌ منهم حمزةُ، فَمَثَّلوا به، فقالت الأنصار: لئنْ أصبنا منهم يوماً مثل هذا لَنَرْبِيَنَّ (أي لنزيدَنَّ) عليهم، فلما كان يومُ فتح مكّة أنزل الله: «**وإنْ عَاقَبْتُمْ..**» الآية.

فالرواية الأولى تفيد أن الآية نزلت في غزوة أحد، والثانية تفيد أنها نزلت يوم فتح مكة على حين أنَّ بين غزوة أُحد وغزوة الفتح الأعظم بضع سنين، فبَعُدَ أن يكون نزول الآية كان مرَّة واحدة عقبهما معاً. وإذن لا مناص لنا من القول بتعدُّد نزولها. مرَّة في أُحد ومرة يوم الفتح.

((تعدد النازلِ والسَّببُ واحدٌ))

قد يكون الأمر الواحد سبباً لنزول آيتين أو آيات متعدّدة: على عكس ما سبق. ولا مانع من ذلك عقلاً ولا شرعاً، لأنه لا ينافى الحكمة في اقناع الناس، وهداية الخلق، و بيان الحق عند الحاجة بل إنه قد يكون أبلغ في الاقناع وأظهر في البيان.

مثال السبب الواحد تنزل فيه آيتان ما أخرجه ابن جرير وابن مرْدَو يه عن ابن عباس قال [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً في ظلّ شجرةٍ فقال: (إنَّهُ سيأتيكمْ إنسانٌ ينظرُ إليكمْ بِعَيْنَىْ شيْطانٍ فإذا جاءَ فلا تكلِّموهُ، فَلَمْ يَلْبَثوا أَنْ طَلعَ رجُلٌ أزرق العينين، فدعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: عَلامَ تَشْتُمُنى أنْتَ وأصْحابُكَ؟ فانطلق الرَّجلُ فجاءَ بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا حتى تجاوز عنهم، فأنزل الله: **«يَحْلِفُونَ باللهِ ما قَالُوا ولَقَدْ قالُوا كَلِمةَ الكُفْرِ وكَفَروا بعْدَ إسْلامِهِمْ وهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنالُوا وما نَقَمُوا إلاَّ أَنْ أغْنَاهُمُ اللهُ ورَسُولُه من فَضْلِهِ فإنْ يتوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وإنْ يتوَلَّوْا يُعَذِّبْهم اللهُ عَذاباً أَلِيماً في الدُّنيا والآخِرةِ ومالَهُمْ في الأرض مِنْ ولِيٍّ ولاَ نَصيرٍ»** وأخرج الحاكم وأحمد هذا الحديث بهذا اللفظ وقالا: فأنزل الله: **«يَومَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَميعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلى شَيْىءٍ أَلاَ إنَّهُمْ هُمُ الكاذِبُونَ* اسْتَحْوذَ عَلَيْهِمُ الشّيْطَانُ فَأنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشّيطَانِ ألا إنَّ حِزْبَ الشّيطانِ هُمُ الْخاسِرُون»**

ومثال السبب الواحد ينزل فيه أكثر من آيتين ما أخرجه الحاكم والترمذي [عن أمّ سلمةَ أنّها قالت: يا رسول الله: لاَ أسمعُ اللهَ ذَكَرَ النِّساءَ في الهِجْرَةِ بشيء فأنزل الله: **«فَاسْتجابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أنّي لا أُضيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أوْ أنثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فالّذينَ هَاجَرُوا وأُخرجُوا مِنْ دِيارِهِم وأُذُوا في سَبيلِي وقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأكَفِرنَّ عَنْهُمْ سَيّآتِهِمْ ولأدْخِلَنَّهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ ثَواباً مِنْ عِنْدِ اللهِ**

والله عِنْدَهُ حُسْنُ الثواب»* وأخرج الحاكم أيضاً عنها أنها قالت: قُلتُ يارسول الله: تذكُرُ الرجال ولا تذكر النساءَ فأنزلت: «إنَّ الْمُسْلِمِينَ والْمُسْلِمَاتِ» وأُنزلت: «أنــِّي لا أُضيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أوْ أُنثَى»* وأخرج الحاكم أيضاً أنها قالت: تغْزُو الرِّجال ولا تغزُو النساءُ. وإنما لنا نصف الميراث، فأنزل الله: «ولاَ تتمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ» وأنزل: «إنَّ الْمُسْلِمينَ والْمُسْلِمَاتِ».

((القول في أوّل ما نزل من القرآن الكريم))

ورد في ذلك أقوال أربعــة :

القول الأول :

وهو أصحها، أنه صــدْرُ سورة «اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الّذي خَلَقَ» إلى قوله تعالى: «عَلَّمَ الإنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» وهو قول ابن عباس ومجاهد كما ذكره صاحب الكشاف (جـ ٤ ص ٢٧٠) وذكر أن أكثر المفسرين على أن أول سورة نزلت فاتحة الكتاب كذا قال* والذي ذهب أكثر الأئمة إليه هو الأول وأمّا الذي نسبه إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقلُّ من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول* ودليل القول الأول.

أولاً : روى البخاري ومسلم (واللفظ للبخاري) عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: [أَوّلُ مَا بُدِيء بِهِ رسول الله صلى الله عليه وسلم مِنَ الْوَحْيِ الرؤيا الصَّالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلاَّ جاءت مثل فَلَقِ الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاءُ، وكان يخلو بغار حِرَاءٍ فَيَتَحنَّثُ فيهِ (وهو التعبد) اللَّيالي ذوات الْعَدَدِ قبل أن يَنْزِعَ إلى أهله، و يَتزَوّدُ لذلك، ثم يَرْجِعُ إلى خديجة، فيتزود لمثلها حتى جاءَهُ الحقُّ، وهو في غار حراء، فجاءَهُ الملك فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فَغَطَّنِي حتى بَلَغَ منيَّ الجَهدُ، ثم أرْسَلنِي، فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني الثانية حتى بلغ منيَّ الجهدُ، ثم أرسلني فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: «اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الّـذِى خَلَقَ خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ* اقرأ وربُّكَ الأكْرَمُ...»* وفي بعض الروايات حتى بلغ «مَا لَمْ يعْلَمْ» فرجَعَ بها إلى خديجة يَرْجُفُ فؤادُهُ.. الحديث...] رواه البخاري عن يحيى بن بكير ومسلم عن محمد بن رافع كلاهما عن عبدالرزاق.

ثانياً: وصحح الحاكم في مستدركه، والبيهقي في دلائله عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: [أوَّلُ سورة نزلت من القرآن: «**اقرأ باسم ربك الّذى خَلَقَ**»].

ثالثاً: وصحح الطبراني في الكبير بسنده عن رجاء العطارديّ قال: [كَانَ أبو موسى يقرئنا فيُجلِسُنَا حِلَقاً، وعليه ثوبانِ أبيضان، فإذا تلا هذه السورة: «**اقْرأ باسْمِ ربّك الّذى خَلَقَ**» قال: هذه أول سورة نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم].

القول الثاني:

أنَّ أول ما نزل إطلاقاً «**يا أيُّها الْمُدَّثِّرُ**» قاله أبو سلمة بن عبدالرحمن فقد سُئل عن أيِّ القرآن أنزل قبلُ؟ قال: «**يا أيها الْمُدَّثِرُ**» (قلت) أيْ يحيى بن أبى كثير: أو «**اقرأ باسم ربك**»؟ قال: سألت جابر بن عبدالله الأنصارىّ. أيُّ القرآن أنزل قبلُ؟ قال: «**يا أيها المدَّثر**» قال: قلت: أو «**اقرأ باسم ربك**»؟ قال جابر: أحدثكم ما حدَّثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم [إنى جاورت بحراء شهْراً فلمّا قضيت جِوَارى نزلت فاسْتَبْطَنْتُ بطنَ الوادِى، فنوديتُ فنظرت أمامي وخلفي وعن يميني وعن شمالي. ثم نظرتُ إلى السماء، فإذا هو على العرش في الهواء — وفي رواية على عرش بين السماء والأرض — يعنى جبريل، فأخذتنى رجْفَةٌ فأتيت خديجة فأمرتُهم فَدَثّرونى، ثم صبوا عليَّ الماءَ فأنزل الله عليَّ: «**يا أيُّها الْمُدَّثِّرُ. قُمْ فَأَنْذِرْ**»] رواه مسلم عن زهير بن حرب عن الوليد بن مسلم عن الأوزعي* **والصحيح** أن المدثر نزلت بعد سورة اقرأ لأنَّ جابر رضي الله عنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم القصّة الأخيرة، ولم يسمع أوّلها وهي التي في غار حراء، فتوهم أن سورة المدثر أول ما نزل بدليل أنّه عليه الصلاة والسلام بعد خروجه من غار حراء، و بعد فترة الوحى قال: [فبينمَا أنَا أمْشِى سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّماءِ فَرفَعْت رأسى فإذا الْمَلَكُ الذي جاءنى بحراء جالساً على كُرْسِيٍّ بين السماء والأرض، فَجَثَثْت مِنْهُ رُعْباً فرجَعْتُ، فقُلت زمِّلُونى زمّلونى، فدثّرونى فأنزل الله: «**يا أيُّها الْمُدَّثِرُ**» رواه البخاري عن عبدالله بن محمد* وهذا مما يدل على أن هذه القصّة كانت بعد نزول «**اقْرأ**» قلت: وجَثِثْتُ على وزن فَرِحْتُ، معناه ثَقُلَ جسمى عن القيام، وسببه فزع الرسول وخوفه عليه الصلاة والسلام.

القول الثالث :

أن أول ما نزل هو سورة الفاتحة، وقد استدل أصحابه بحديث مرسل سقط من سنده الصحابيّ، فلا يقوى على معارضة حديث عائشة السابق في بدء الوحي. وهو مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ورواه الشيخان، إذن فبطل هذا القول الثالث كما بطل القول الثاني، وثبت الأول. والله أعلم.

القول الرابع :

أنَّ أول ما نزل هو «**بسم الله الرحمن الرحيم**» واستدل قائلوه بما أخرجه الواحديُّ بسنده عن عكرمة والحسن قالا: [أوّل ما نزل من القرآن «**بسم الله الرحمن الرحيم**» وأوّل سورة «**اقرأ**»]* وهذا الاستدلال مردود لسببين: **إحداهما :** أن الحديث مرسل فلا يناهض المرفوع **الثاني** أن البسملة كانت تنزل دائماً صدراً لكل سورة إلا ما استُثْنى في سورة براءة. إذن فهي نازلة مع ما نزل من صدر سورة اقرأ فلا يستقيم اعتبار الأولّية في نزولها قولاً مستقلاً برأسه.

((القولُ في آخر ما نزل من القرآن الكريم))

كثرت أقوال العلماء واختلفت في تعيين آخر ما نزل من القرآن على الإطلاق، واستند كل منهم إلى آثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وأصحها مايلي:

١ ــ آخر آية نزلت: «**يسْتَفْتُونَكَ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ في الكلالة..**» الآية. قال البخاري في كتاب التفسير: حدّثنا سليمانُ بنُ حرْبٍ حدَّثنا شعبة عن أبي اسحاق، سمعت البراءَ رضي الله تعالى عنه قال: [آخر سُورةٍ نَزَلتْ براءَةٌ وآخر آية نَزَلَتْ يَسْتَفْتونَكَ..]* وأخرجه مسلم في الفرائض عن أبي موسى و بندار، وأخرجه أبو داود فيه عن مسلم بن إبراهيم، وأخرجه النسائي فيها عن بندار وغيره* قُلت: وذكر البخاري في باب: «**واتَّقُوا يوْماً تُرجَعُون فيه إلى الله**» حدَّثَنا قَبيصَةُ بنُ عُقْبة حدَّثنا سفيانُ عَنْ عاصم عن الشّعبيِّ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [آخر آيةٍ نَزَلَتْ على النبي صلى الله عليه وسلم آيةُ الرِّبَا] وروى عن ابن عباس أيضاً من وجه آخر أنَّ آخر آية نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم: «**واتَّقوا يَوْماً تُرجَعُونَ فِيهِ إلى الله**»] أخرجه الطبريُّ من طُــرُقٍ عنهُ* قلت: ولعل البخاري أراد أن يجمع بين قولى ابن عباس فبوّب بها إشارةً

إليهما، فافهم هذا* ولفظ الطبرى: كان من آخر ما نزل من القرآن آيات الربا* هذا منقطع، لأنه مروى عن الشعبي عن عمر رضي الله تعالى عنه، والشعبي لم يلق عمر.

٢ ـــ قوله تعالى: «**واتّقوا يوْماً تُرجَعُونَ فيهِ إلى الله**» منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو قول الضحاك أيضاً كما في تفسير عبد بن حميد عن الضحاك. آخر آية نزلت «**واتّقوا يَوْماً تُرْجُعُونَ فيه إلى الله**»* وفي رواية أبي صالح عنه نزلت بمكة، وتوفى النبي صلى الله عليه وسلم بعدها بأحد وثمانين يوماً* وقيل: نزلت يوم النحر بمنًى في حجّة الوداع* وفي تفسير ابن أبى حاتم من حديث ابن لهيعة. حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال: [عاشَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية الكريمة تسع ليال]* وعند مقاتل سبع ليال، وهي آخر آية نزلت* وعند القرطبي ثلاث ليال* وقيل: ثلاث ساعات، وقال صلى الله عليه وسلم: [اجعلوها بين آية الربا وآية الدّين]* وقيل: إنَّه صلى الله عليه وسلم عاش بعدها أحد وعشرين يوماً* (فإن قلت) ما التوفيق بين قولَيْ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما؟ قُلت: طريق الجمع بينهما أنَّ هذه الآية هي ختام الآيات المنزلة في الربا، لأنها معطوفة عليها فتدخل في حكمها. (فإن قلت) رُوى عن البراء أنَّ آخر آية نزلت: «**يسْتَفْتُونَك قُلِ الله يُفْتِيكُمْ فى الْكَلاَلَه**» كما تقدّم في القول الأول فما الجمع بينهما؟ قُلتُ: قيل بأن الآيتين نزلتا جميعاً، فيصدق أن كُلاًّ منهما آخر بالنسبة لما عداهما وفيه تأمُّل* قُلت: إن الآخرية أمر نسبي كالأ وليّة فلا يخفى صدق الآخريّة على شيء بالنسبة إلى ما قبله. وكذا يُجاب عما قال ابيُّ بن كعب رضي الله عنه: آخر آية نزلت: «**لَقَدْ جَاءَكُمْ رسُولٌ مِنْ أنْفُسِكُمْ..**» الآية وهو القول الثالث. رواه الحاكم أبو عبدالله في صحيحه عن الأصمّ بن بكّار بن قُتيبة عن أبي عامر العقدىّ عن شعبة.

وفي بقية الأقوال قال القاضي أبو بكر في الانتصار: (هذه الأقوال ليس فيها شيء مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكُلٌّ قال بضربٍ من الإجتهاد وغلبة الظن، ويحتمل أنَّ كُلاًّ منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه، أو قبل مرضه بقليل، وغيرهُ سمع منه بعد ذلك وإن لم يسمعه هو* قُلتُ: وكأنه يشير إلى الجمع بين هذه الأقوال المتشعبة وهي:

القول الأول : أنَّ آخر ما نزل قول الله تعالى في سورة البقرة: «**واتّقُوا يوماً تُرجَعون فيه إلى الله ثمّ تُوفّى كُلُّ نَفْسٍ ما كسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**» أخرجه النسائي من طريق عكرمة عن ابن عباس.

القول الثاني : أنَّ آخر ما نزل قول الله تعالى في سورة البقرة: «**يا أيها الذين آمَنُوا اتّقُوا الله وذَرُوا ما بَقِيَ من الرِّبا إنْ كُنْتُمْ مُؤمنين**» أخرجه البخاري عن ابن عباس والبيهقي عن ابن عمر.

القول الثالث : أن آخر ما نزل قول الله تعالى في سورة البقرة: «**يا أيها الذين آمَنُوا إذَا تدايَنْتُم بِدَيْنٍ إلى أجلٍ مُسَمّىً فاكْتُبُوهُ**» إلى قوله سبحانه «**والله بِكُلِّ شيءٍ عَليمٌ**».

القول الرابع : أنَّ آخر القرآن نزولاً قول الله تعالى في سورة آل عمران: «**فاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهم أنّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ**» إلى آخرها.

القول الخامس : أنّه آية: «**ومَنْ يَقْتُلْ مُؤمِناً مُتعمِّداً فَجَزَاؤهُ جَهَنَّمُ خالِداً فِيها وغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وأعَدَّ لَهُ عَذَاباً عظيماً**».

القول السادس : أن آخر آية نزلت: «**يَسْتفْتُونَكَ قُلِ الله يُفْتِيكُمْ في الْكَلالَةِ**».

القول السابع : «**لَقَدْ جاءَكُم رسُولٌ مِنْ أنْفُسِكُمْ**» إلى آخر السورة.

القول الثامن : آخر ما نزل سورة المائدة.

القول التاسع : آخر سورة الكهف: «**فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَل عَمَلاً صَالِحاً ولا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ ربِّهِ أَحَداً**».

القول العاشر : آخر ما نزل هو سورة: «**إذَا جَاءَ نَصْرُ الله والْفَتْحُ**» رواهُ مسلمٌ عن ابن عباس* قال الزرقاني في مناهل العرفان: ولكنك تستطيع أن تحمل هذا الخبر على أنَّ هذه السورة آخر ما نزل مُشعراً بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم و يؤيده ما روى من أنّه صلى الله عليه وسلم قال: [حين نزلت: (نُعيَتْ إليَّ نَفْسي)] وكذلك فهم بعض كبار الصحابة كما ورد أنّ عمر رضي الله عنه بكى حين سمعها وقال: [الكمال دليل الزوال]* ويحتمل أيضاً أنّها آخر ما نزل من السور فقط، و يدل عليه رواية ابن عبّاس: [آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً «**إذَا جَاءَ نَصْرُ الله والْفَتْحُ**».

((اليوم الذي أنزل فيه القرآن))

هو يوم الإثنين، سئل رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: أرأيْتَ صَوْمَ يَومِ الا ثنين؟ قال: [فيه أنزل عليَّ القرآن]* وأول شهر أنزل فيه القرآن شهر رمضان. قال الله تعالى: «شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرآنُ»* وجاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نَزَلَتْ صُحُفُ إبراهِيمَ أوّلَ لَيْلَةٍ من رَمَضَانَ، وأُنْزِلَت التَّوارة لستٍّ مَضيْن من رَمَضَانَ وأُنْزِلَ الإنْجِيلُ لثلاث عشرة خَلَتْ مِنْ رمضان. وأنزل الزَّبُور لثمان عشرة خلت من رمضان. وأُنزل القرآن لأربعة وعشرين خلت من رمضان].

((بيان ما نزل بمكَّة وبالمدينة))

قال الإمام علاء الدين عليّ بن محمّد بن إبراهيم البغدادى المعروف بالخازن في تفسيره (جـ ١ ص ٨):

واعلم أنَّ الله تعالى أنزل القرآن المجيد من اللوح المحفوظ جملة واحدة إلى سماء الدنيا في شهر رمضان في ليلة القدر، ثم كان ينزله مفرقاً على لسان جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم مُدَّة رسالته نجوماً عند الحاجة، وحدوث ما يحدث على ما شاء الله تعالى. وترتيب نزول القرآن غير ترتيبه في التلاوة والمصحف. فأما ترتيب نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأول ما نزل من القرآن بمكة: اقرأ باسم ربّك الّذِي خَلَق* ثم نون والقلم* ثم يا أيها المزمّل* ثُمَّ المدثر* ثُمَّ تبَّتْ يَدا أبِي لَهَبٍ* ثُمَّ إذا الشمس كوّرت * ثُمَّ سبح اسْمَ ربك الأعلى * ثُمَّ والليل إذا يغشى * ثُمَّ والفجر * ثُمَّ والضحى * ثُمَّ ألم نشرح * ثُمَّ والعصر * ثُمَّ والعاديات * ثُمَّ إنَّا أعطيناك الكوثر * ثُمَّ الهاكم التكاثر * ثُمَّ أرأيت الذى * ثُمَّ قُل يا أيها الكافرون * ثُمَّ الفيل * ثُمَّ قُل هو الله أحد * ثُمَّ والنجم * ثُمَّ عبسَ * ثُمَّ سورة القدر * ثُمَّ سورة البروج * ثُمَّ التين * ثُمَّ لإيلاف قريش * ثُمَّ القارعة * ثُمَّ القيامة * ثُمَّ الهمزة * ثُمَّ المرسلات * ثُمَّ ق * ثُمَّ سورة البلد * ثُمَّ الطارق * ثُمَّ اقتربت الساعة * ثُمَّ ص * ثُمَّ الأعراف * ثُمَّ الجنّ * ثُمَّ يٰس * ثُمَّ الفرقان * ثُمَّ فاطر * ثُمَّ مريم * ثُمَّ طٰه * ثُمَّ الواقعة * ثُمَّ الشعراء * ثُمَّ النمل * ثُمَّ القصص * ثُمَّ سورة بنى اسرائيل * ثُمَّ يونس * ثُمَّ هود * ثُمَّ يوسف * ثُمَّ الحجر * ثُمَّ الأنعام * ثُمَّ والصافات * ثُمَّ لقمان * ثُمَّ سبأ * ثُمَّ الزمر * ثُمَّ المؤمن * ثُمَّ السجدة * ثُمَّ حٰم عسق

* ثُمَّ الزخرف * ثُمَّ الدخان * ثُمَّ الجاثية * ثُمَّ الأحقاف * ثُمَّ الذاريات * ثُمَّ الغاشية * ثُمَّ الكهف * ثُمَّ النّحل * ثُمَّ نوح * ثُمَّ ابراهيم * ثُمَّ الأنبياء * ثُمَّ قد أفلح المؤمنون * ثُمَّ تنزيل السجدة * ثُمَّ الطور * ثُمَّ الملك * ثُمَّ الحاقة * ثُمَّ سأل سائل * ثُمَّ عم يتساءلون * ثُمَّ النازعات * ثُمَّ إذا السماء انفطرت * ثُمَّ إذا السماء انشقت * ثُمَّ الروم * ثُمَّ العنكبوت.

قال الخازن : واختلفوا في آخر ما نزل بمكة: فقال ابن عباس: العنكبوت. وقال الضحاك وعطاء: المؤمنون. وقال مجاهد: و يل للمطففين: فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بمكة فذلك ثلاث وثمانون سورة على ما استقرّت عليه روايات الثقات.

وأما ما نزل بالمدينة فأحد وثلاثون سورة، فأول ما نزل بها سورة البقرة * ثُمَّ الأنفال * ثُمَّ آل عمران * ثُمَّ الأحزاب * ثُمَّ الممتحنة * ثُمَّ النساء * ثُمَّ إذا زلزلت الأرض * ثُمَّ الحديد * ثُمَّ سورة محمد صلى الله عليه وسلم * ثُمَّ الرعد * ثُمَّ سورة الرحمن * ثُمَّ هل أتى على الإنسان * ثُمَّ الطلاق * ثُمَّ لم يكن * ثُمَّ الحشر * ثُمَّ الفلق * ثُمَّ النّاس * ثُمَّ إذا جاء نصر الله والفتح * ثُمَّ النُّور * ثُمَّ الحج * ثُمَّ إذا جاءك المنافقون * ثُمَّ المجادلة * ثُمَّ الحجرات * ثُمَّ التّحريم * ثُمَّ الصّف * ثُمَّ الجمعة * ثُمَّ التّغابن * ثُمَّ الفتح * ثُمَّ التوبة * ثُمَّ المائدة. قال الخازن: ومنهم من يقدّم المائدة على التوبة. فهذا ترتيب ما نزل من القرآن بالمدينة. واختلفوا في الشورى، فقيل نزلت بمكّة وقيل نزلت بالمدينة * (من الخازن وغيره).

((القول في التَّسْمية))

«بسم الله الرحمن الرحيم»

أدبٌ حسنٌ أدَّب الله به نبيَّهُ الكريم محمداً عليه الصلاة والسلام بتعليمه تقديم ذكر اسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله، وجعل ذلك سنةً حسنةً يَسْتَنُّ بها المسلمون، وسبيلاً يتّبعونه عليها في افتتاح أوائل منطقهم، وصدور رسائلهم وكتبهم وحاجاتهم، حتى أغنت دلالة ما ظهر من قول القائل **«بسم الله الرحمن الرحيم»** على ما بطن من مراده فالتّالى للقرآن الكريم يفتتح: **«بسم الله الرحمن الرحيم»** أي أبدأ (بسم الله) أو (بسم الله) أبدأ أو أقرأ، وعند النهوض إلى القيام أنهض قائماً (بسم الله) أو (بسم الله) أنهض قائماً. وكذا عند قعوده وسائر أفعاله يُنبىء عن مراده. وهو معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما فيما رواه أبو روق عن الضحاك عنه [قال: إنَّ أوَّل ما نزل به جبْريل على محمد صلى الله عليه

وسلم قال: يا محمد قل أستعيذُ بالسّميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم. قال: قال له جبريلُ: قُل بسم الله يامحمد. يقولُ اقرأ بذكر الله رَبّك، وقُمْ واقْعُدْ بذكر الله].

وقد اختلف العلماء في كون البسملة من الفاتحة وغيرها من السور سوى سورة براءة أم لا* فـذهب الشافعي وجماعة من العلماء إلى أنها آية من الفاتحة، ومن كُلّ سورة ذكرت في أوّلها سوى براءة* وهو قول ابن عباس وابن عمر وأبي هريرة وسعيد بن جبير وعطاء وابن المبارك وأحمد في إحدى الروايتين عنه* و يدل على ما ذهب إليه هؤلاء الأعلام:

١ ــ اجماع الصحابة ومن بعدهم على إثباتها في المصحف أوّل كل سورة سوى سورة براءة مع الأمر بتجريد القرآن من كل ما ليس منه، ومن ثَمَّ لم يكتبوا (آمين) في آخر الفاتحة.

٢ ــ أخرج مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أنه قال: [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أُنزلت عليَّ آنفاً سُورة فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم]* وروى أبو داود والحاكم بسند صحيح عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يعرف انقضاء السُّورة حتى ينزل عليه «**بسم الله الرحمن الرحيم**»* وروى الدارقطني عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [إذا قرأتم الحمد لله فاقرؤا بسم الله الرحمن الرحيم فإنها أمُّ القرآن والسبع المثاني، و بسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها].

٣ ــ أجمع المسلمون على أنّ ما بين الدفتين كلام الله تعالى. والبسملة بينهما فوجب جعلها منه* ولهم أدلة كثيرة غير ما ذكرت.

وذهب الأوزاعيُّ ومالك وأبوحنيفة إلى أن البسملة ليست بآية من الفاتحة. زاد أبو داود: ولا من غيرها من السُّور، وإنما هي بعض آية في سورة النمل، وإنما كتبت للفصل والتبرك. قال مالك: ولا يستفتح بها في الصلاة المفروضة.

وللشافعي قول أنها ليست من أوائل السور مع القطع بأنها من الفاتحة* وحجة من منع كون البسملة آية من الفاتحة ومن غيرها:

١ ــ حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم يفتتح الصلاة بالتكبير والقراءة بالحمد لله رب العالمين.

٢ ــ وأن أول ما نزل به جبريل اقرأ بسم ربّك الذي خلق، ولم يذكر البسملة في أوّلها

فدلّ على أنها ليست منها.

٣ ـ وأن محل القرآن لا يثبت إلا بالتواتر والاستفاضة، ولأن الصحابة أجمعوا على عدد كثير من السور منها سورة الملك ثلا ثون آية، وسورة الكوثر ثلاث آيات، وسورة الإخلاص أربع آيات، فلو كانت البسملة منها لكانت خمساً.

و يرجح ما ذهب إليه أصحاب القول الأ ول بما أخرج مسلم في افراده عن أنس قال: [بَيْنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بَيْنَ أظهرنا إذ غَفَا غفوة، ثُمَّ رفع رأسَهُ مبتسّماً فقُلنا: ما أضحك يا رسول الله؟ قال: (أُنزلتْ عليَّ آنفاً سورة فقرأ: «**بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر.**.»)] الحديث.

من أجل هذا الحديث، قال البيهقيُّ: هذا أحسن ما احتج به أصحابنا في أن بسم الله الرحمن الرحيم من القرآن، وأنها من فواتح السُّور سوى براءة. ما رو يناهُ في جمع الصحابة كتاب الله عز وجل في المصاحف، وأنهم كتبوا فيها «**بسم الله الرحمن الرحيم**» على رأس كل سورة سوى سورة براءة، فكيف يتوهم متوهم أنهم كتبوا فيها مائة وثلاث عشرة آية ليست من القرآن، قال: وقد علمنا بالروايات الصحيحة عن ابن عباس أنّه كان يعدُّ «**بسم الله الرحمن الرحيم**» آية من الفاتحة، وروى الشافعي بسنده عن ابن عمر أنّه كان لا يدع «**بسم الله الرحمن الرحيم**» لام القرآن، والسورة التي بعدها، زاد غيره عنه: أنه كان يقول: لمّا كُتبت في المصحف لِمَ لَمْ تُقرأ!، وروى الشافعي عن ابن عبَّاس أنّه كان يفعله و يقول انتزع الشيطان منهم خير آية في القرآن، وفي افراد البخاري من حديث أنس أنه سئل كيف كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ [قال: كانت مدّاً. ثم قرأ «**بسم الله الرحمن الرحيم**» يمدُّ الله، ويمدُّ الرحمن، ويمد الرحيم]، فقد ثبت بهذه الأدلة الصحيحة الواضحة أن البسملة من الفاتحة، ومن كل موضع ذكرت فيه، وانظر في هذا الشأن تفسير الخازن (جـ ١ ص ١٣) وتفسير المراغى (جـ ١ ص ٢٦) وتفسير الطبرى (جـ ١ ص ٣٨) وتفسير الكشاف للزمخشرى (جـ ١ ص ٢٤) وفيه عن ابن عباس: [من تركها فقد ترك مائة وأربع عشرة آية من كتاب الله تعالى]، والظاهر ثلاث عشرة لخلو براءة عن التسمية. أو أنه كان يعتقد بوجود التسمية في براءة، أو أنه أضاف إليها التي في النحل في قوله تعالى: «**إنَّه من سُليمان وإنَّهُ بسم الله الرحمن الرحيم**» والله أعلم.

(٣٠) النمل ٦

((القَوْلُ في سورة الفاتحة))

ذهب أكثر العلماء إلى أنها مكيّة، ومن أوائل ما نزل من القرآن لما روى البيهقي في دلائله بسنده عن أبي ميسرة: عمر بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة: [(إنّي إذا خلوْتُ وَحْدِي سمعتُ نِداءً فقدْ والله خشيتُ على نفسي أن يكون هذا أمْراً) قالت: معاذَ الله، ما كانَ الله ليفعلَ بك، إنّكَ لتؤدّى الأمانةَ وتصلُ الرَّحمَ، وتصدق] الحديث، فلمّا دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه لَهُ، وقالت: إذهب مع محمد إلى ورقة، فانطلقا فقصّا عليه فقال: [إذا خلوْتُ وحدِي سمعتُ نِداءً خلفي يا مُحمَّدُ يا مُحمَّدُ، فأنْطَلِقُ هارباً في الأفق] فقال: لا تفعل إذا أتاك فاثبُتْ حتى تسمعَ ما يقولُ، ثم ائتني فأخبرْني، فلمَّا خلا ناداهُ يا مُحمَّدُ قل: «**بِسْم اللهِ الرحْمنِ الرّحِيمِ* الْحَمْدُ للهِ ربِّ الْعَالمين**» حتى بلغ «**ولاَ الضَّالِّينَ**»* وهذا دليل على أنّها مكيّةٌ، ومن أوائل ما نزل من القرآن، إلا أنّه لا يصلح للاحتجاج به على أوليّة ما نزل مطلقاً وذلك من وجهين:

الوجه الأول :

أنه لا يفهم من هذه الرواية أنّ الفاتحة التي سمعها الرسول صلى الله عليه وسلم كانت في فجر النبوَّة: أوّلُ عهده بالوحى الجليّ وهو في غار حراء. بل يفهم منها أنّ الفاتحة كان نزولها بعد ذلك العهد، و بعد أن أتى الرسول إلى ورقة. وذلك بعد نزول سورة (اقرأ) في غار حراء.

الوجه الثاني :

أن الحديث مرسل سقط من سنده الصحابى، فلا يقوى على معارضة حديث عائشة في بدء الوحى، وهو مرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم* وليس كلامنا فيه هنا إنما كلامنا هنا في إثبات أن الفاتحة مكيّة. وهو منقول عن ابن عباس قال: [قام النبيُّ صلى الله عليه وسلم بمكّة فقال: «**بسم الله الرحمن الرحيم* الحمد لله ربّ العالمين**» فقالت قريش: رضّ الله فاك* وقاله الحسن وقتادة.

وقال مجاهد: إن الفاتحة مدنيّةٌ. وعدَّها الحسن بن الفضل من هفوات مجاهد* فقال: لكل عالم هفوة، وهذه بادرة من مجاهد لأنّه تفرّد في هذا القول. وللتفرّد مقال* وقطعاً أن الفاتحة مكيّة لقوله تعالى: «**ولَقَدْ آتيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ الْمثَاني والْقُرْآنَ الْعَظِيمَ**» قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [والذي نفسى بيده ما أنزل الله في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها إنها السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيتُه] وهذه

الآيـة مـن سـورة الحـجر، وهي مكيّة بلا خلاف، والمقصود بالسّبع المثاني: الفاتحة، فدل على ما قُلناهُ. والله أعلم.

((القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:))
((الـم * ذلك الكتابُ...))

قـال الواحدي في أسباب النزول: (ص ١٢) أخبرنا أبوعثمان الزعفراني قال: أخبرنا أبوعـمـر بن مطر قال: أخبرنا جعفر بن محمد بن الليث قال أخبرنا أبوحذيفة قال: حدثنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قال: أربع آيات من أوّل هذه السورة ــ أي البقرة ــ نـزلـت في المـؤمـنين ــ أي قـولـه تـعـالى: ((الـــم * ذَلِـكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُـتَّـقِـينَ * الَّــذِيـنَ يُـؤمِنُونَ بِالْغَيْبِ ويُقِيمُونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * والَّـذِينَ يُؤمِنُونَ بِـمَا أُنْزِلَ إلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلى هُـدًى مِنْ رَبِّهِمْ وأولئكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ *)) قال: وآيتان بَعْدهَا نزلتا في الكافرين ــ أي: ((إنَّ الَّــذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أأنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ * خَتَمَ الله على قُــلُوبِهِمْ وعَلَى سَمْعِهِمْ وعَلَى أبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ولَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ)) قال: وثَلاثَ عـشـرة بـعـدها نَزَلَتْ في الْمنَافقين. أي من قوله تعالى: ((وَمِنَ النّاسِ من يَقُولُ آمَـنَّـا بـالله وَبـالْـيَـوْمِ الآخِـرِ وَمَـاهُـمْ بِـمُـؤمِـنِـينَ * يُخَادِعُونَ الله والَّـذِينَ آمَنُوا ومَا يَـخْـدَعُـونَ إلاَّ أنْفُـسَـهُمْ وما يَشْعُرُون * في قُـلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ الله مَرَضاً وَلَهُمْ عَـذَابٌ ألِـيمٌ بِمَا كَانُوا يكْذِبُون * وَإذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قَالُوا إنَّـمَا نـحْـنُ مُصْلِحُونَ * ألا إنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَـكِنْ لاَ يَشْعُرُنَ * وإذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَـمَـا آمَـنَ الـنَّـاسُ قالُوا أنُـؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ ألا إنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ ولَكِنْ لاَ يَـعْلَمُونَ * وإذَا لَقُوا الَّـذينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وإذَا خَلَوْا إلىَ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إنَّا مَعَكُمْ إنَّـمَـا نَـحْـنُ مُـسْتَهْزِؤنَ * الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يعْمَهُونَ * أُولَئِكَ الـذيـن اشْـتَـرَوُا الضَّلالَةَ بالهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتَهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ * مَثَلُهُمْ كَـمَـثَـلِ الَّـذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ الله بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ * أوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّماءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ والله مُـحِـيـطٌ بـالْـكَافِرِينَ *)) إلى قوله تعالى: ((يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أضَاءَ

لَهُمْ مَشَوْ فيهِ وإذَا أظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وأبْصَارِهِمْ إنَّ اللهَ على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» صدق الله العظيم* ولكن قال الضحاك في قوله تعالى: «إنَّ الَّـذِينَ كَفَرُوا..» الآية نزلت في أبي جهل، وخمسة من أهل بيته* وقال الكلبي: يعني اليهود. (من الواحدى صـ١٣)* وفي القرطبي[١]: وقال ابن عباس والكلبي: نزلت في رؤساء اليهود: منهم حُيَيٌّ بن أخطب وكعب ابن الأشرف ونظراؤهما* وقال الربيع بن أنس نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب. وصحح القرطبيُّ ما قالَهُ ابن عباس والكلبيّ.

وفي الطبرى[٢] (جـ ١ ص ٨٤) وكان ابن عباس يرى أن هذه الآية نزلت في اليهود الذين كانُوا بنواحى المدينة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم توبيخاً لَهُمْ في جحودهم نبوّة محمد صلى الله عليه وسلّم وتكذيبهم به مع علمهم به ومعرفتهم بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم وإلى الناس كافةً* قال أبو جعفر: وروى عن ابن عبّاس في تأويل ذلك قول آخر وهو ما حدَّثنا به المثنَّى بن ابراهيم قال: حدَّثنا عبدالله بن صالح عن عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس — في — قوله: «إنّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أأنْذَرْتَهُمْ أمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُون» قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يحرص على أن يؤمن جميع النّاس و يُتَابعوه على الهدى فأخبره جلّ ثناؤه أنّه لا يُؤمِنُ إلاّ مَنْ سَبَقَ لَهُ من الله السعادة في الذكر الأوّل، ولا يضلُ إلا منْ سبق له من الله الشقاء في الذكر الأوّل* قال أبو جعفر وأولى هذه التأويلات تأويل ابن عباس رضي الله عنهما وسيأتيك المزيد من الإيضاح فيما بعد إن شاء الله تعالى.

---

(١) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرْح الأنصاريّ الخزرجي الأندلسّي. المفسّر العالم العابد العارف المتوفي في التاسع من شوال سنة ٦٧١هـ.

(٢) هو إمام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفي سنة ٣١٠هـ.

((تفسير الآيات))

« ألـــم » قـد اختلف المفسرون في الحروف المقطعة التي في أوائل السُّور، فمنهم من قـال: هـي ممّا اسْتأثر الله بعلمه: فردُّوا علمها إلى الله تعالى حكاه القرطبي في تفسيره عن أبي بـكـر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود رضى الله عنهم أجمعين. وقاله أيضاً عامر الشعبي وسـفـيـان الـثـورى والـربـيـع بـن خـيثم. واختاره أبو حاتم بن حبان* ومنهم من فسّرها* واختلف هؤلاء في معناها* فقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم: إنما هي أسماء للسُّوَر* قال أبـو الـقـاسم محمود بن عمر الزمخشري في تفسيره الكشاف (جـ١ ص٨٣): وعليه إطباق الأكثر* ونُـقِـلَ عـن سـيـبو يه أنّه نص عليه. و يعتضد لهذا بما ورد في الصحيحين عن أبي هـريـرة [أن رسـول الله صلى الله عـلـيه وسلم كان يقرأ في صلاة الصبح يوم الجمعة ألـم* الـسـجـدة. وهل أتى على الإنسان]* وقال سفيان الثوريّ عن ابن أبي نجيح عن مجاهد أنه قال: ألـم * وحـم * وألـمـص * وص . فواتح افتتح الله بها القرآن.

قـلـت : والـقـول الـذي ترتاح إليه النفس أن حروف الهجاء في أوائل السُّور هي من الـمـتـشـابـه الذي استأثره الله بعلمه. وهي سرُّ الله في القرآن. فنحن نؤمن بظاهرها ونكل الـعـلم فيها إلى الله تعالى. وفائدة ذكرها طلب الايمان بها* قال أبو بكر الصديق رضي الله عـنـه: [في كـل كـتـاب سـرٌّ وسرُّ الله في القرآن أوائل السُّور]* وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عـنـه: [إن لـكـل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التّهجّى]* وأورد على هذا القول بأنه لا يجوز أن يخاطب الله عباده بما لا يعلمون* وأجيب عنه: بأنّه يجوز أن يـكـلـف الله عباده بما لا يعقل معناه كرمى الجمار فإنّه مما لا يعقل معناهُ. والحكمة فيه هو كمال الإنقياد والطاعة، فكذلك هذه الحروف يجب الإيمان بها ولا يلزم البحث عنها.

وقـال آخرون من أهل العلم: هي معروفةُ المعانى. ثم اختلفوا فيها* فقيل: كل حرف منـهـا مـفـتـاح اسم مـن أسماء الله تـعـالى. فالألف مفتاح اسمه الله، واللام مفتاح اسمه لـطـيـف، والميم مـفـتـاح اسـمـه مجيد* وقيل الألف آلاءُ الله. واللام لُطْفُه. والميم ملكه. و يؤيد هذا أن العرب تذكر حرفاً تريد كلها، قال الراجز:

قُـلْـتُ لـهَـا قِـفِـى فـقَـالَـتْ قـاف   لا تحـسِبِى أنـا نـسـيـنـا الإيجـاف

قـولها قـاف أي وقـفـتُ، فـاكـتـفـت بجزء الكلمة. عن كلها. والإيجاف الإسراع في الـسير* قـال ابـن عـبـاس: [الٓمٓ. أنا الله أعلم]* وقيل: هي أسماء مقطّعة لو علم الناسُ

تـألـيـفـها لعلموا اسم الله الأعظم. ألا ترى أنك تقول: الـر، وحـم، ون، فيكون مجموعها الـرحمن وكذلك سائرها ولكن لم يتهيأ تأليفها جميعاً* وقال ابن عباس: [هي أقسام فقيل أقْسَمَ الله بهـذه الحـروف لـشـرفـهـا وفـضلها. لأنها مبانى كتبه المنزلة، وأسمائه الحسنى، وصـفـاتـه الـعـلـيـا، وإنمـا اقتصر على بعضها. وإن كان المراد كلها. فهو كما تقول: قرأتُ الْـحَـمْـدَ لله. وتـريـد أنـك قـرأتَ السورة بكمالها. فكأنه تعالى أقسم بهذه الحروف أن هذا الكتاب هو الكتاب المثبت في اللوح المحفوظ.

وقـيل إنَّ الله تعالى لما تحدَّاهم بقوله: «**فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**» وفي آية بعشر سور مثله فـعـجـزوا عنه. أنزل هذه الأحرف. ومعناه أن القرآن ليس هو إلا من هذه الحروف وأنْتُم قـادرون عليها فكان يجب أن تأتوا بمثله، فلمَّا عجزتُم عنه دلَّ ذلك على أنّه من عند الله لا مـن عـنـد الـبشر*(١) وقيل: إنهم لمَّا أعرضوا عن سماع القرآن، وأراد الله صلاح بعضهم أنـزل هـذه الأحـرف. فـكانُوا إذا سمعوها قالوا: كالمتعجّبين اسمعوا إلى ما يجيء به محمد فـإذا أصـغوا إليه وسمعوه، رسخ في قلوبهم، فكان ذلك سبباً لإيمانهم* وقيل: إن الله تعالى حيّـر عـقـول الخـلـق في ابـتـداء خـطـابـه لـيعلموا أن لا سبيل لأحد إلى معرفة خطابه إلا باعترافهم بالعجز عن معرفة كنه حقيقة خطابه.

واعـلـم أن مجموع الأحرف المنزل في أوائل السور. أربعة عشر حرفاً في تسع وعشرين سـورة. وهـي الألـف والـلام والميم والـصـاد والـراء والـكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون* وهي نصف حروف المعجم [الخازن (جـ١ ص١٩)].

قـولـه تـعـالى: «**ذَٰلِكَ الْـكِـتَابُ**» أي هذا الكتاب هو القرآن* وقيل: فيه إضمار. والمـعنى هـذا الـكـتـاب الـذي وعدتك به، وكان الله قد وعد نبيَّهُ صلى الله عليه وسلم أن يـنـزّل عـليه كتاباً لا يمحوه الماء، ولا يخلق على كثرة الرَّد، فلما نزل القرآن قال هذا: ذلك الـكتاب الذي وعدتُكَ به* وقيل: إن الله وعد بنى إسرائيل أن ينزل كتاباً و يرسل رسولاً مـن ولـد إسـمـاعـيـل، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة وبها من اليهود خـلـق كـثير أنزل الله تعالى هذه الآية: «**الٓمٓ* ذَٰلِكَ الْكِتَابُ**» أي هذا الكتاب الذي وعـدتُ بـه على لـسـان موسى أن أنـزله على النبيِّ الذي هو من ولد إسماعيل* «**ذلك**»

(١) انـظـر تـفـسير الخـازن (جـ١ ص١٩) وتـفـسير ابـن كـثير (جـ١ ص٣٦) وتـفـسير الطبري (جـ١ ص٧٢) والكشاف (جـ١ ص٧٦) وتفسير المراغى (ج١ ص٣٩)

بمعنى هذا قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن جبير وغيرهم والكتاب: مصدر بمعنى المكتوب. وهو النقوش والرقوم الدالة على المعاني. والمراد به الكتاب المعروف الذي سمّاه الله قرآناً، وأنزله على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم للتّعبد بتلاوته، والعمل بأحكامه، وللإعجاز بسورة منه* وفي أبي السعود: «**ذَلِكَ الْكِتَابُ**» ذا اسم اشارة، واللام عماد جيء به للدلالة على بُعْد المشار إليه، والكاف للخطاب. والمشار إليه هو المسمّى، فإنّه منزّل منزلة المشاهد بالحسّ البصرى. وما فيه من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار إليه للإيذان بعلو شأنه، وكونه في الغاية القاصية من الفضل، والشرف إثْرَ تنويهه بذكر اسمه* أي هذا بيان لحاله في نفس الأمر، وأنه قريب لحضوره. وهذا لا ينافي بعده رتبةً «**لاَ رَيْبَ فِيهِ**» الريب: الشك مع تهمة وحقيقتهُ على ما قاله الزمخشري في الكشاف (جـ١ ص١١٣)* قلق النفس، واضطرابها. ومنه الحديث: دع ما يريبك: أي ذاهباً إلى ما يطمئن به قلبك، فإن كون الشيء في نفسه مشكوكاً فيه غير صحيح مما تقلق له النفس الزكية وتضطرب معه. وكونه صحيحاً صادقاً مما تطمئن له، أي إذا وجدت نفسك مضطربة في أمر فدعه، وإذا وجدتها مطمئنة فيه فاستمتسك به لأن اضطراب قلب المؤمن في شيء علامة كونه باطلاً محلاً لأن يشك فيه، وطمأنينتُه فيه علامة كونه حقاً وصدقاً* أي لا شك فيه أنه من عند الله، وأنّه الحق والصدق* وقيل هو خبر بمعنى النهي. أي لا ترتابوا فيه. وفي الخازن: فإن قُلتَ قد ارتاب فيه قوم فما معنى لا ريب فيه؟ قلتُ: معناه أنّه في نفسه حقٌ وصدق فمن حقق النظر عرف حقيقة ذلك.

والمعنى : إنّ هذا الكتاب لا يعتريه ريب في كونه من عند الله، ولا في هدايته وإرشاده، ولا في أسلوبه وبلاغته، فلا يستطيع أحدٌ أن يأتي بكلام يقرب منه بلاغة وفصاحة ـــ وإلى هذا أشار بقوله: «**وإنْ كُنْتُم فِي رَيْبٍ مِمَّا نزَّلنَا على عَبْدِنَا فَأتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ**» وارتياب كثير من النّاس فيه إنما نشأ عن جهل بحقيقته، أو عن عمى بصيرتهم، أو عن التّعنّت عناداً واستكباراً، واتبّاعاً للهوى، أو تقليداً لسواهم. كذا ذكره المراغي في تفسيره (جـ١ ص٤٠).

«**هُدًى لِلْمُتّقِينَ**» الهُدى عبارة عن الدلالة* وقيل: دلالة بلطف، وقيل: الهدايةُ: الإرشاد* والمعنى: هو هدى للمتقين إلى الصراط المستقيم، مع المعونة والتوفيق للعمل بأحكامه، إذ هم قد اقتبسوا من أنواره، وجنَوْا من ثماره، وهو لغيرهم هُدى، ودلالة على الخير، وإن لم يأخذوا بهديه، و ينتفعُوا بإرشاده، وكون بعض النّاس لم يهتدُوا بهديه لا

يخرجه عن كونه هُدى، فالشّمسُ وإن لم يرها الأعمى، والعسل عسلٌ وإن لم يجد طعمه ذو الْمِرَّة* والمتق: اسم فاعل من وقاه فاتّق، والتقوى جعل النفس في وقاية مما يخاف* وقيل: التقوى في عرف الشرع حفظ النفس مما يؤثم، وذلك بترك المحظور، و بعض المباحات* قال ابن عباس رضي الله عنهما: [المتق من يتق الشرك والكبائر والفواحش]* وهو مأخوذ من الإتقاء، وأصله الحجز بين الشّيْئيْن، يقال اتق بترسه إذا جعله حاجزاً بينه و بيْن ما يقصده* وفي الحديث: [كنا إذا اشتد البأس اتقيْنا برسول الله صلى الله عليه وسلم]* معناه: إنا كنا إذا اشتد الحربُ جعلنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجزاً بيننا و بين العدوّ، فكأنَّ المتق يجعل امتثال أوامر الله وإجتناب نواهيه حاجزاً بينه و بين النار* وقيل: المتق هو من لا يرى نفسه خيْراً من أحد* وقيل التقوى ترك ما حرّم الله وأداء ما افترض* وقيل: التقوى ترك الإصرار على المعصية وترك الإغترار بالطاعة* وقيل التقوى: أن لا يراك مولاك حيث نهاك* وقيل: التقوى الاقتداء بالنبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه* وفي الحديث: [جماع التقوى في قوله تعالى: «**إنّ الله يَأمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإحْسَانِ وَإيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى و يَنْهَىَ عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكرِ**»]..* وخص المتقين بالذكر تشريفاً لهم، لأن مقام التقوى مقام شريف عزيز، ولأنهم هم المنتفعون بالهداية، ولو لم يكن للمتقين فضل إلا قوله تعالى: «**هُدًى لِلْمُتَّقِينَ**» لكفاهم* قال الخازن: فإن قُلت كيف قال هدى للمتقين، والمتقون هم المهتدون؟ قُلتُ: هو كقولك للعزيز الكريم: أعزّك الله وأكرمك، تريد طلب الزيادة له إلى ما هو ثابت فيه كقوله تعالى: «**اهْدِنَا الصّراطَ الْمُسْتَقِيمَ**»* أي أن المتقين في هذه الآية هُمُ الذين سَمَتْ نفوسهم فأصابت ضرباً من الهداية، واستعداداً لتلق نور الحقّ، والسعى في مرضاة الله بقدر ما يتّصل إليه إدراكهم و يبلغ إليه اجتهادهم، ولأنهم اتقوا الشرك و برؤا من النفاق، وركوب الفواحش التي حرَّمها الله جلّ ثناؤه* روى الترمذي وابن ماجه من رواية أبي عقيل عبدالله بن عقيل عن عبدالله بن يزيد، عن ربيعة بن يزيد وعطية بن قيس، عن عطية السعدى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا يبلغ الْعَبْدُ أن يكون من المتقين حتى يدع ما لاَ بأسَ به حذراً ممّا به بأسٌ] ثم قال الترمذي حَسَنٌ غريب* وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا عبدالله بن عمران، عن إسحاق بن سليمان، يعنى الرازى، عن المغيرة بن مسلم عن ميمون أبي حمزة قال: كنتُ جالساً عند أبي وائل فدخل علينا رجل يقال له: أبوعفيف من أصحاب معاذ، فقال له شقيقُ بنُ سلمة: يا أبا عفيف، ألا تحدّثنا عن معاذ

بن جبل؟ قال: بلى. سمعتُه يقول: يُحبسُ النّاسُ يوم القيامة في بقيعٍ واحدٍ، فينادى منادٍ أين المتَّقُون؟ فيقومون في كَنَفٍ منَ الرحْمٰنِ لا يحتجب الله منهم ولا يستتر، قُلتُ: مَنِ المتقون؟ قال قوم اتقوا الشرك وعبادةَ الأ وثان وأخلصوا لله العبادةَ فيمرُّون إلى الجنة* (انظر تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٠) والطبري (جـ ١ ص ٧٧) والخازن (جـ ١ ص ٢١) والمراغى (جـ ١ ص ٤٠) والكشاف (جـ ١ ص ١١٦) والفتوحات الإلٰهية لعمر العجيلى الشافعي الشهير بالجمل (جـ ١ ص ١١).

«الذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ» أي الذين يصدّقون قاله ابن عباس: فقد فسّر الإيمان بالتصديق* وقال الربيع: يؤمنون: يخشون* ومعنى الإيمان عند العرب التصديق فيدعى المصدق بالشيء قولاً مؤمناً به كما تقول: أنا مؤمنٌ بقولك أي مصدق بقولك، وعليه قول الله تعالى: **«ومَا أنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا ولَوْ كُنَّا صَادِقِينَ»** يعنى: وما أنت بمصدق لنا في قولنا، وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان الذي هو تصديق القول بالعمل* والإيمان في لسان الشرع: عبارة عن التصديق بالقلب والاقرار باللسان والعمل بالأ ركان، و يصدّقه قوله عليه الصلاة والسلام: [ليس الإيمانُ بالتمنّي ولا بالتحلي ولكنْ ما وقَرَ بالْقَلْبِ وصدَّقَهُ العملُ]* وإذا فسر الإيمان بما ذكرتُ في لسان الشرع. فإنه يزيد و ينقص، وهو مذهب أهل السنة من أهل الحديث وغيرهم. وعلى الأ ول لا يزيد ولا ينقص لأن التصديق لا يتجزّأ حتى يتصوّر كماله مرّة ونقصانه أخرى، وفائدة هذا الخلاف تظهر في مسألة، وهى أنّ المصدّق بقلبه إذا لم يجمع إلى تصديقه العمل بموجب الإيمان من الصّلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك من أركان الدين، هل يُسمّى مؤمناً أم لا؟ فيه خلاف. والمختار عند أهل السنة لا يُسمّى مؤمناً لقوله عليه الصلاة والسلام: [لا يزنى الزاني حين يزني وهو مؤمن] فنفى عنه اسم الإيمان، أو كمال الإيمان* وأنكر أكثر المتكلمين زيادة الإيمان ونقصانه. وقالُوا متى قبل الزيادة والنقص كان ذلك شكاً وكفراً.

وقال المحققون من متكلّمى أهل السنّة: أنَّ نفس التّصديق لا يزيد ولا ينقص. والإيمانُ الشرعى يزيد و ينقُص بزيادة الأعمال ونقصانها* قال الخازن: وبهذا أمكن الجمع بين ظواهر نصوص الكتاب والسنّة التي جاءت بزيادة الإيمان ونقصانه، و بين أصله من اللغة* وقال بعض المحقّقين: إنّ نفس التصديق قد يزيد و ينقص بكثرة النظر في الأدلَة والبراهين، وقلّة إمعان النظر في ذلك، ولهذا يكون إيمان الصدّيقين أقوى وأثبت من إيمان غيرهم، لأنهم لا تعتريهم شبهة في إيمانهم ولا تُزلزل، وأما غيرهم من آحاد النّاس

فليس كذلك إذ لا يشك عاقل أن نفس تصديق أبي بكر رضي الله عنه لا يساو يه تصديق غيره من آحاد الأمة* والدليل على أن الأعمال من الإيمان ما روى عن أبي هريرة قال: [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الإيمانُ بِضْعٌ وسبعُونَ شعبةً أفضلها قول لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريقِ والحياءُ شعبةٌ من الإيمان] أخرجاه في الصحيحين.

(البِضْعُ) بكسر الباء ما بيْن الثلاثة إلى العشرة، (والشُعبة) القطعة من الشيء. (وإماطة الأذى عن الطريق) هو عزل الحجر والشوك ونحو ذلك عنه. (والحياء) بالمدّ: هو انقباضُ النفس عن فعل القبيح، وإنما جعل الحياء من الإيمان، وهو اكتسابٌ لأن المستحي ينزجر باستحيائه عن المعاصي، فصار من الإيمان.

قوله تعالى: «**بِالْغَيْبِ**» (الغيب) هنا مصدر وضع موضع الاسم. فقيل للغائب غيْب. وهو ما كان مغيباً عن العيون* قال ابن عباس: الغيب هنا كل ما أُمرتَ بالإيمان به ممَّا غابَ عن بصرك من الملائكة والبعث والجنّةِ والنّار والصراط والميزان* وقال عبدالرحمن بن يزيد عند عبدالله بن مسعود، فذكرنا أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما سبقونا به: فقال عبدالله بن مسعود: إنّ أمر محمد صلى الله عليه وسلم كان بْيننا لمنْ رآهُ، والذى لا إلٰه غيره: ما آمنَ أحَدٌ قطّ أفضل مِنْ إيمانٍ بغيْب، ثُمَّ قرأ: «**الم * ذلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ**» إلى قوله: «**وأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**»* وقال قتادة: في قوله تعالى: «**الّذينَ يُؤْمِنُونَ بالْغيْبِ**» اقال: آمنوا بالجنّة والنّار، والبعث بعد الموت، و بيوم القيامة وكل هذا غيب* وقال الربيع بن أنس: الذين يؤمنون بالغيب، آمنوا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر وجنّته وناره ولقائه، وآمنوا بالحياة بعد الموت فهذا كله غيب* «**وَيُقيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**» يقيمون الصّلاة: أي يداومون عليها في مواقيتها بحدودها وإتمام أركانها، وحفظها من أن يقع فيها خلل في فرائضها، وسننها وآدابها، يقال قام بالأمر، وأقام الأمر إذا أتى به معطى حقوقه، والمراد به الصلوات الخمس* والصلاة في اللغة: الدعاء والرحمة، ومنه قوله تعالى: «**وَصَلِّ عَلَيْهِمْ**» أي أدعُ لهم، وأصله من صليتُ العودَ إذا ليّنْته. فكأن المصلى يَلين ويخشَع* وفي الشرع: اسمٌ لأفعال مخصوصة من قيام وركوع وسُجودٍ وقعود ودعاء مع النيّة* قال ابن عبّاس: «**و يقيمون الصَّلاةَ**» أي يقيمون الصلاة بفروضها* وقال قتادة: إقامة الصلاة: المحافظةُ على مواقيتها، ووضوئها وركوعها وسجودها* وقال مقاتل بن حيان: إقامتها المحافظة على

مواقيتها وإسباغ الطهور بها، وتمام ركوعها وسجودها، وتلاوة القرآن فيها والتّشهد والصلاة على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فهذا إقامتها. (الخازن جـ ١ ص ٢٣) و(ابن كثير جـ ١ ص ٤٢) و(الطبرى جـ ١ ص ٨٠)* وقال: وأرى أنّ الصلاة المفروضة سُمّيت صلاةَ لأن المصلى متعرّض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله مع ما يَسْأل ربَّهُ فيها من حاجاته، تَعَرُّضُ الداعى بدعائه ربَّهُ استنجاح حاجاته وسؤله* ولما للصلاة من خطر في تهذيب النفوس والسُّموِّ بها إلى الملكوت الأعْلىَ أبانَ الله تعالى عظيم آثارها بقوله: «**إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ والْمُنْكَر**» وجعلها النبيُّ صلى الله عليه وسلم عماد الدِّين فقال: [الصلاةُ عمادُ الدِّينِ والزَّكَاةُ قَنْطَرةُ الإِسْلامِ]* وقد أمر الله بإقامتها بقوله: «**وأَقِيمُوا الصَّلاةَ**»، و بالمحافظة عليها وإدامتها بقوله: «**الَّذينَ هُمْ عَلَى صَلاتِهِمْ دائمُونَ**» و بأدائها في أوقاتها بقوله: «**إنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤمِنِينَ كتاباً مَوْقُوتاً**» و بأدائها في جماعة بقوله: «**وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ**» و بالخشوع فيها بقوله: «**الَّذينَ هُمْ فى صَلاتِهِمْ خاشِعُونَ**»* قوله تعالى: «**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**» الرزق في اللغة العطاء، ثم شاع استعماله فيما ينتفع به الحيوان، وجمهرة المسلمين على أنّ كل ما يُنْتفَعُ به حلالاً كانَ أو حراماً فهو رزق، وخصه جماعة بالحلال فقط، كما هو مذهب القدرية، ولذا قال الزمخشريُّ في الكشاف (جـ ١ ص ١٣٢): أضاف الرزق إلى نفسه للإعلام بأنّهم إنما ينفقُون من الحلال الطلق... الخ* وقد ردّ عليه الإمام ناصر الدين أحمد بن محمد ابن المنيّر الإسكندري المالكي في كتاب (الإنصاف فيما تضمنَّه الكشاف من الإعتزال) بقوله: فهذه بدعة قدرية، فإنهم يرون أنّ الله تعالى لا يرزق إلا الحلال، وأمَّا الحرام فالعبدُ يرزقه لنفسه، حتى يقسِّمُوا الأرزاق قسمين: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائه، وإذا أثبتُوا خالقاً غير الله فلا يأنفون عن إثبات رازق غيرهُ، أمَّا أهْلُ السُّنَّةِ فلاَ خالق ولا رازق في عقدهم إلاَّ الله سبحانه تصديقاً بقوله تعالى: «**هَلْ مِنْ خالِقٍ غيرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤفَكُونَ**» أيها القدرية* وقوله (يُنفقُونَ) أي يخرجون و يتصَدَّقُون في طاعة الله تعالى وسبيله، و يدخُل فيه انفاق الواجب كالزكاة والنذر والإنفاق على النفس، وعلى من تجب نفقتُه عليه، والإنفاق في الجهاد إذا وجب عليه، والإنفاق في المندوب. وهو صدقة التطوّع، ومواساة الفقراء، وهذه كلها مما يُمدحُ بها. وأصل «**مِمَّا**» من ما. ومن للتبعيض فأدخلها على الإنفاق صيانةً لهم وكفاً عن السّرف والتبذير المنهيّ عنها في الانفاق.

وفي الطبرى عن الضحاك في قوله: «**وَمِمّا رزقْنَاهُمْ ينفقون**» قال: كانت النفقات قربات يتقرَّبون بها إلى الله تعالى على قدر ميسورهم وجهدهم حتّى نزلت فرائض الصدقات سبع آيات في سورة براءة مما يذكر فيهنّ الصدقات، هنّ المثبتات النّاسخات* وفيه عن ابن مسعود. وعن ناس من أصْحَاب النبي صلى الله عليه وسلم «**ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون**» هي نفقة الرجل على أهله، وهذا قبل أن تنزل الزكاة* والأ وْلى أن تكون الآية عامة في الصدقات الواجبة والمندوبة لورود النفقة بصيغة المضارع دلالة على دوام استمرارها في كل وقت الحصاد وفي كل عام، في الأموال الزكويّة، وفي النفقات الواجبة، والمندوبة، وهواختيار ابن جرير الطبرى فإنه قال: وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم أن يكونُوا لجميع اللاّزم لهم في أمْوالهم مؤدين ــ زكاةً كانت ذلك أو نفقة مَــنْ لزمتْهُ نفقته من أهل أوْ عيال، وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك، لأن الله تعالى عمَّ وصفهم ومدحهم بذلك، وكل من الإنفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه* وقال ابن كثير تعقيباً على الطبرى بقوله: كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والانفاق من الأموال، فإن الصلاة حقٌ الله تعالى وعبادته، وهي مشتملةٌ على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدّى إليهم، وأولى النّاس بذلك القربات والأهلون والمماليك، ثم الأجانب، فكل من النفقات الواجبة، والزكاة المفروضة داخل في قوله تعالى: «**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**»* وقوله تعالى: «**والّذِينَ يُؤمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ**» أي يصدقون بالقرآن المنزل عليك، و بالكتب المنزلة على الأنبياء من قبل كالتَّوراة والإنجيل والزَّبور وصُحُف الأنبياء كلها فيجب الإيمان بذلك كله* قال ابن عباس: «**والذين يُؤمنون بما أُنْزل إليْك وَما أُنْـزِلَ مِنْ قَبْلِكَ**» أي يُصدّقون بما جئت بهِ من الله، وما جاء به منْ قبلك من المرسلين، لا يُفرقون بينهم ولا يجحَدُونَ ما جَاؤهم بهِ من ربهم* وفي الطبرى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم «**والّـذِينَ يُؤمِنُون بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُ وما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبالآخرَةِ هُمْ يُوقِنُون**» هؤلاء المؤمنون من أهل الكتاب* ونقله السُّدى في تفسيره عن ابن عباس، وابن مسعود وأناس من الصحابة، واختاره ابن جرير رحمه الله* و يُستشهد لما قاله بقوله تعالى: «**وإنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَاب لَمَنْ يُؤمِنُ بالله وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وما أُنْزِلَ إليْهِمْ خاشِعِينَ لله**» الآية و بقوله تعالى: «**الّذِينَ آتيْنَاهُمُ الكِتَابَ مِنْ قبْلِهِ هُمْ به يُؤمِنُون * وإذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ**

قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» * وبما ثبت في الصحيحين من حديث الشعبي عن أبي بردة عن أبي موسى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [ثَلاثةٌ يُؤْتَوْنَ أجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أهْلِ الكتاب آمن بنبيّه وآمنَ بي. ورَجُلٌ مملوكٌ أدَّى حقَّ الله، وحقَّ مواليه. ورَجُلٌ أدَّبَ جاريتَه فأحسن تأديبها، ثُمَّ أعْتَقَها وتزوَّجها] * وقوله تعالى: «**وبالآخِرةِ**» يعني: و بالدَّار الآخرة. سُمّيتْ آخرة لتأخرُّها عن الدنيا وكونها بعدها * قال أبوجعفر: أمَّا الآخرة فإنها صفة للدار كما قال جلَّ ثناؤه «**وإنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**» وإنما وصفت بذلك لمصيرها آخرة لأ ولى كانت قبلها كما تقول للرجل أنعمتُ عليكَ مرَّةً بعْدَ أخرى فلم تشكر لي الأ ولى ولا الآخرة، وإنما صارت الآخرة آخرة للأولى لتقدم الأ ولى أمامها فكذلك الآخرة سُمِّيتْ آخرةً لتقدّم الدار الأ ولى أمامها، فصارت التاليةُ لها آخرةً. قال: وقدْ يجوز أن تكون سمِّيتْ آخرة لتأخرها عن الخلق كما سُمّيت الدنيا دنيا لدنوها من الخلق * وقوله تعالى: «**هُمْ يُوقِنُونَ**» من الإيقان واليقين: هو التّصديق الجازم الذي لا شبهة فيه ولا تردّد، و يعرف اليقين بالله واليوم الآخر بآثاره في الأعمال، فمن يشهد الزور، أو يشرب الخمر، أو يأكل حقوق النّاس يكنْ إيمانه بهما خيالاً يلوح في الذهن لا إيماناً يقوم على اليقين. والمعنى أنهم يستيقنون و يعلمون علم اليقين أنها كائنة * وفي الطبرى عن ابن عبّاس: و بالآخرة هُمْ يُوقنون. أي بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان. أي لا هؤلاء الذين يزعمون أنهم آمنوا بما كان قبلك، و يكفرون بما جاءك من ربّكَ * قال أبو جعفر الطبرى: وهذا التأو يل من ابن عبّاس. قد صرّح عن أن السورة من أوّلها وإن كانت الآيات التي في أوّلها من نعت المؤمنين تعريض من الله عز وجل بذم الكفّار أهل الكتاب الذين يزعمون أنهم بما جاءت به رسُل الله عز وجل الذين كانُوا قبل محمد صلوات الله وسلامه عليهم وعليه مصدقون. وهم بمحمّد عليه السلام مكذبون، ولمّا جاء به من التوحيد جاحدون. و يدّعون مع جحودهم ذلك أنهم مهتدون، وأنه لن يدخل الجنة إلاَّ من كانَ هوداً أو نصارى. فأكذب الله جلَّ ثناؤُهُ ذلك من قبلهم بقوله: «**ألم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ و يُقيمُونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * والَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وبِالآخِرةِ هُمْ يُوقِنُونَ**» وأخبر جلَّ ثناؤه عبَادَهُ أنَّ هذا الكتاب هُدى لأهل الإيمان

بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به المصدّيقين بما أُنزل إليه، وإلى من قبله من رسله من البينات والهدى خاصةً دون من كذّب بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به. وادَّعى أنَّه مصدّق بمن قبل محمد عليه السلام من الرسل. وبما جاء به من الكتب، ثم أكّد جلَّ ثناؤه أمر المؤمنين من العرب، ومن أهل الكتاب المصدقين بمحمد عليه السلام، وبما أنزل إليه، وإلى من قبله من الرسل بقوله: «**أُولَئِكَ عَلَى هُدَى مِنْ رَبِّهِمْ وأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُون**» أولئك: أي الذين هذه صفتهم «**على هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ**» أي على رشاد ونور من ربّهم، وقيل على استقامة «**وأولئك هُمْ الْمُفْلِحُونَ**» أي الناجحون الفائزون. نجوْا من النار. وفازوا بالجنة. والمفلح الظافر بالمطلوب أي الذي انفتحت لَهَ وجوه الظفر، ولم تستغلق عليه. وعن ابن عبّاس: «**وأُولئِكَ هُمُ الْمفلِحُون**» أي الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هر بواء وفي تفسير ابن كثير (جـ ١ ص ٤٤) وقد نقل عن مجاهد وأبي العالية والربيع بن أنس، وقتادة رحمهم الله. وقال ابن أبي حاتم: حدَّثنا أبي، حدَّثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى. حدَّثنا أبي حدَّثنا ابن لهيعة، حدَّثني عبيد الله بن المغيرة عن أبي الهيثم ــ واسمه سليمان بن عبدالله عن عبدالله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قيل لهُ يا رسول الله: إنّا نقرأ من القرآن فنرجو، ونقرأ من القرآن فنكادُ أنْ نيأس، أو كما قال؟ قال: [أفلاَ أُخبرُكُمْ عنْ أهل الجنة وأهل النار؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**ألم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فيهِ هدى للمتقين**» إلى قوله تعالى: «**المفلحون**» هؤلاء أهْلُ الجنَّة. قالوا إنَّا نرجو أن نكون هؤلاء. ثم قال: «**إنّ الذينَ كفَروا سَواءٌ عَلَيْهِمْ**» إلى قوله: «**عظيم**» هؤلاء أهل النار. قالوا لسنا هم يا رسولَ الله؟ قال: أجل]ء وقوله تعالى: «**إنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِمْ أأنْذَرْتَهُمْ أمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤمِنُونَ**» تقدم معنا أنَّ الله عزّ وجل صدّر هذه السُّورة بأربع آيات أنزلها في المؤمنين. و بآيتين أنزلها في الكافرين. و بثلاث عشرة آية أنزلها في المنافقين. فأما التي في الكفار فقوله تعالى: «**إنَّ الَّذين كَفَرُوا**» أي جحدوا وأنكروا، وأصل الكفر في اللغة الستر والتغطية، ومنه سميّ الليل كافراً لأنه يستر الأشياء بظلمته. قال الشاعر: في ليلة كفر النجومَ غَمَامُها. (أي سترها)ء وقال الخازن في تفسيره (جـ ١ ص ٢٤) والكفر على أربعة أضرب. كفر إنكار: وهو أن لا يعرف الله أصلاً ككفر فرعون وهو قوله: «**مَاعَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إلَـٰهٍ غيْرِى**»ء وكفر جحود: وهو أن يعرف الله بقلبه ولا يقرّ بلسانه ككفر إبليسء وكفر عناد: وهو أن يعرف الله بقلبة و يقرّ بلسانه ولا يدين به ككفر أُميَّة بن أبي الصلت وأبي طالب حيث يقول في شعر لَهُ:

ولقد علمتُ بأنّ دينَ محمّدٍ من خيرِ أديانِ البريّة دينا
لولا الملامةُ أو حذار مَسبّة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

وكفر نفاق: وهو أن يقرَّ بلسانه ولا يعتقد صحة ذلك بقلبه. فجميع هذه الأنواع كفر. وحاصله أن من جحد الله، أو أنكر وحدانيته، أو أنكر شيئاً ممّا أنزله على رسوله. أو أنكر نبوَّة محمد صلى الله عليه وسلم. أو أحداً من الرسل فهو كافر. فإن مات على ذلك فهو في النار خالداً فيها، ولا مفرَّ لَهُ.

وقال الخازن: نزلت في مشركى العرب. وقيل في اليهود. والمعنى «**إنّ الّذينَ كفَرُوا**» أي غطوا الحقَّ وستروه بما كتب عليهم في الأزل أنهم «**سَوَاءٌ عليهم أأنذرْتَهم**» أي سواء عليهم إنذارك وعدمه «**أمْ لَمْ تُنْذِرْهم لاَ يؤمنونَ**» بما جئتهم به، كما قال تعالى: «**إنّ الّذينَ حَقّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبّكَ لاَ يُؤمِنُون ولَو جَاءتْهُم كُلُّ آيَةٍ حَتّى يَرَوا الْعَذَابَ الأليمَ**» وقال تعالى في حق المعاندين من أهل الكتاب: «**وَلَئِنْ أتَيْتَ الّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلّ آيَـةٍ ما تَبِعُوا قِبلَتَكَ**» الآية. قال ابن كثير في التفسير (جـ ١ ص ٤٥): أي إنّ من كتبَ الله عليه الشقاوة فلا مسعد له ومن أضله فلا هاديَ له، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، و بلغهم الرسالة، فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر، ومن تولى فلا تحزنْ عليهم ولا يهمنك ذلك: «**فَإنّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وعَلَيْنَا الْحِسَابُ * إنّمَا أنت نَذِيرٌ والله على كُلّ شيءٍ وَكيلٌ**» وقال عليُّ بنُ أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: «**إنّ الّذينَ كفَرُوا سَواءٌ عَلَيْهِم أأنْذَرتَهُمْ أمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤمِنُون**» قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص أن يؤمن جميع النّاس و يُتابعوه على الهدى فأخبره الله تعالى أنّه لا يؤمن إلاّ من سبق له من الله السعادة في الذكر الأول، ولا يضلُّ إلاّ من سبق له من الله الشقاوة في الذكر الأول. و بذا يعلم أنّ هذه الآية في أقوام حقّتْ عليهم كلمة العذاب في سابق علم الله الأزليّ أنّهم لا يؤمنون. ثم ذكر سبب تركهم الايمان: فقال تعالى: «**خَتَمَ الله على قُلُوبُهم**» أي طبع الله عليها، فلا تعي خيراً ولا تفهمه، وأصل الختم التغطية، وحقيقتُه الاستيثاقُ من الشيّ لكى لا يخرجُ منه ما حصل فيه، ولا يدخله ماخرج منه، ومنه ختم الكتاب. قال أهل السنة: ختم الله على قلوبهم بالكفر لما سبق في علمه الأزلى فيهم، وإنما خص القلب بالختم لأنه محل الفهم والعلم. «**وَعَلَى سَمْعِهِمْ**» أي وختم على موضع سمعهم، فلا يسمعون الحقَّ ولا ينتفعون به لأنها تمجُّه وتَنْبُو عن الاصغاء إليه كأنها مستوثق منها بالختم أيضاً. وذكر السمع بلفظ التوحيد،

ومعناهُ الجمع، قيل إنما وحد السمع لأنه مصدر والمصدر لايُثَنّى ولا يجمع* **«وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ»** الغشاوة: الغطاء، ومنه غاشية السَّرْج. أي وجعل على أبصارهم غشاوة، فلا يرون الحق، وهي غطاء التعامى عن آيات الله ودلائل توحيده* **«وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»** يعنى في الآخرة. وقيل الأسر والقتل في الدنيا. والعذاب الدائم في العقبى، وحقيقة العذاب هو كل ما يؤلم الإنسانَ و يُعيبُه و يُشقُ عليه* وقيل: هو الإيجاع الشديد* وقيل: هو ما يمنع الإنسان من مراده، ومنه الماء العذب لأنه يمنع العطش، والعظيم ضد الحقير. (ذكره الخازن في تفسيره جـ ١ ص ٢٥)* وقال السدى: ختم الله: أي طبع الله* وقال قتادة في هذه الآية: استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه، فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم غشاوة فهم لا يبصرون هدى، ولا يسمعون ولا يفقهون ولا يعقلون* وقال الأعمش: أرانا مجاهد بيده فقال: كانو يروْن أنَّ القلب في مثل هذه، يعنى الكف، فإذا أذنب العبد ذنباً ضُم منه، وقال بأصبعه الخنصر هكذا، فإذا أذنب ضم، وقال بإصبع أخرى، فإذا أذنب ضم، وقال بإصبع أخرى هكذا حتى ضم أصابعه كلها، ثم قال: يطبع بطابع* قال القرطبيُّ: وأجمعت الأمّةُ على أنّ الله عز وجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال: **«بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْها بِكُفْرِهم»**.

وفي الطبري قال مجاهد: نُبِّئْتُ أنّ الذنوب على القلب تُحفُّ به من نواحيه حتى تلتقى عليه، فالتقاؤها عليه. الطبع والطبع الختم* وفيه عن الربيع بن أنس قال: هاتان الآيتان إلى **«وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظيمٌ»** هُمُ الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلُّوا قومهم دار البوار، وهم الذين قُتلوا يوم بدر، فلم يدخل من القادة أحدٌ في الإسلام إلا رجلان أبوسفيان بن حرب وأحكم بن أبي العاص* وَمِنْ قوله عز وجلّ: **«وَمِنَ النَّاسِ من يقُول آمَنَّا بالله»** إلى قوله تعالى: **«إنَّ الله على كُلّ شيء قديرٌ»** نزلت في المنافقين عبدالله بن أُبيّ ابن سلول، ومعتب بن قشير، وَجَدُّ بن قيس وأصحابهم، وذلك أنهم أظهروا كلمة الإسلام ليَسْلَمُوا بها من النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وَأَسَرُّوا الكفر واعتقدوه، وأكثرهُمْ من اليهود* وفي الخازن: وصفةُ المنافق. أن يعترف بلسانه بالايمان و يُقرُّبه، و ينكره بقلبه، و يصبح على حال ويمسى على غيرها* وقد علمت أن الله سبحانه وتعالى افتتح سورة البقرة بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه قلوبهم أَلْسِنَتَهُمْ، ووافق سرُّهم علنهم، وفعلهم قولهم، ثم ثنى بالذين محضوا الكفر ظاهراً و باطناً قلوباً وألسنةً، ثم ثلَّث بالذين آمنوا

بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وبطنوا خلاف ما أظهروا، وهم الذين قال فيهم: «**مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لاَ إِلَى هَؤُلاَءِ ولاَ إِلَى هَؤُلاَءِ**» وسمَّاهُم المنافقين، وكانوا أخبث الكفرة، وأبغضهم إليه، وأمقتهم عنده لأنهم خلطوا بالكفر تموهاً وتدليساً. وبالشرك استهزاءً وخداعاً. ولذلك أنزل فيهم: «**إِنَّ الْمنَافقينَ فِى الدَّرْكِ الأسفلِ مِنَ النَّارِ**» ووصف حال الذين كفروا في آيتين، وحال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خُبثهم ومكرهم وفضحهم وسفّههم واستجهلهم. واستهزأ بهم وتهكم بفعلهم، وسجَّل بطغيانهم وعمههم. ودعاهم صماً بكماً عمياً، وضرب لهم الأمثال الشنيعة.

والناس: جمع إنسان سُمّى به لأنه عُهِدَ إليه فنسى قال الشاعر: وسُمِّيتَ إنساناً لأنَكَ ناسي* وقيل: سمى إنساناً لأنه يستأنس بمثله. (الكشّاف جـ ١ ص ١٦٥) والمراغى (جـ ١ ص ٤٨) والخازن (جـ ١ ص ٢٥) وفي الطبري (جـ ١ ص ٩٠)* وأجمع أهل التأويل على أنَّ الآية نزلت في قوم من أهل النفاق. وأن هذه الصفة صفتهم* وروى عن ابن عباس: «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَا باللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وما هُمْ بِمُؤمِنينَ**» يعنى المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم* وعن قتادة في قوله: «**وَمِنَ النّاسِ مَنْ يقُول آمنَّا باللهِ وبِالْيَوْمِ الآخِرِ وما هُمْ بِمُؤمِنينَ**» حتى بلغ: «**فَما رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**» قال: هذه في المنافقين* وعن مجاهد قال: هذه الآية إلى ثلاث عشرة في نعت المنافقين* وعن ابن جريج في قوله: «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولَ آمَنَّا باللهِ...**» الآية قال: هذا المنافق يخالف قوله فعله. وسِرُّهُ علانيته، ومدخله مخرجه، ومشهده مغيبه* قال الطبرى: وتأويل ذلك أنَّ الله جلَّ ثناؤه لما جمع لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم أمره في دار هجرته، واستقرَّ بها قراره، وأظهر الله بها كلمته، وفشا فى دور أهلها الإسلام، قهر بها المسلمون من فيها من أهل الشرك من عبدة الأوثان، وذلَّ بها من فيها من أهل الكتاب أظهر أحبار يهودها لرسول الله صلى الله عليه وسلم الضغائن، وأبدُوا له العداوة والشنآن حسداً وبغياً، إلاَّ نفراً منهم هداهم الله للإسلام فأسلموا كما قال جل ثناؤه: «**ودَّ كثيرٌ من أهْلِ الْكِتَاب لَوْيَرَدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْد أنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحقُّ**» وطابقهم سرّاً على معادة النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه. وبغيهم الغوائلَ قوم من أراهط الأنصار الذين آووا رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم ونصروه، كانوا قد عتوا في شركهم وجاهليتهم قد سُمُّوا لنا بأسمائهم كرهنا تطويل الكتاب بذكر أسمائهم، وركوناً إلى اليهود لما هم عليه من الشرك، وسوء البصيرة

بالإسلام، فكانُوا إذا لقوا رسُولَ الله صلى الله عليه وسلم وأهل الإيمان به من أصحابه، قالوا لهم: حذراً على أنفسهم إنا مؤمنون بالله و برسوله و بالبعث، وأعطوهم بألسنتهم كلمة الحق ليدرؤا عن أنفسهم حكم الله فيمن اعتقد ما هم عليه، مقيمون من الشرك لو أظهروا بألسنتهم ما هُم معتقدوه من شركهم، وإذا لقوا إخوانهم من اليهود وأهل الشرك والتكذيب بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به فَخَلَوْا بهم قالوا: **«إنا معكم إنما نحن مستهزؤن»** فإياهم عنَى جلَّ ذكره بقوله: **«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وبِالْيَومِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤمِنِينَ»**؛ نفى عنهم الايمان بالكليَّة. أي وما هم بداخلين في عداد المؤمنين الصادقين الذي يشعرون بعظيم سلطان الله، و يعلمون أنّه مطلع على سرّهم ونجواهم، إذْ هم كانُوا يكتفُون ببعض ظواهر العبادات ظنًّا منهم أن ذلك يرضى ربهم، ثم هم بعد ذلك منغمسون في الشرور والمآثم من كذب وغشّ ومراء ومخاتلة وخيانة وطمع إلى غير ذلك من صفاتهم البشعة التي نقلها عنهم الرواة؛ **«يُخَادِعُونَ اللهَ والَّذِينَ آمَنُوا»** أي يخالفون الله. والخديعة: الحيلة والمكر، وأصله في اللغة: الإخفاء. والمخادع يظهر ضد ما يضمر ليتخلَّص، فهو بمنزلة المنافق؛ و يقال: خدع الضَّبُّ إذا توارى في جحره، وضبٌّ خادع إذا أوهم حارسه الإقبال عليه، ثم خرج من باب آخر. والخدع هنا من جانب المنافقين لله والمؤمنين، والتعبير بصيغة المخادعة للدلالة على المبالغة في حصول الفعل وهو الخدع، أو للدلالة على حصوله مرَّة بعد أخرى، وخداعهم للمؤمنين بإظهار الايمان، وإخفاء الكفر للإطلاع على أسرارهم، وإذاعتها إلى أعدائهم من المشركين واليهود، والله خادعهم أي يظهر لهم نعيم الدنيا و يُعجّله لهم بخلاف ما يغيب عنهم من عذاب الآخرة، والمخادعة هنا عبارة عن فعل الواحد، والله تعالى منزّه عن أن يكون منه خِداع. وإنما ذكر الله نفسه وأراد به رسُولَه صلى الله عليه وسلم، وذلك تفخيم لأمره وتعظيم لشأنه؛ وقيل: أراد به المؤمنين، وإذا خادعوا المؤمنين فكأنهم خادعوا الله تعالى، وذلك أنهم ظنُّوا أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم والمؤمنين لم يعلموا حالهم، ولتجرى عليهم أحكام الإسلام في الظاهر، وهم على خلافه في الباطن، و بذا يعلم أن الخداع مذموم إلا أنّه يكون حسناً إذا كان الغرض منه استدارج الغير من الضلال إلى الرشد حُسْبةً لله تعالى ومن ذلك استدراجات التنزيل ولطائفه على لسان الرسل في دعوة الأمم، كذا ما معناه في تفسير الكرخي قاله الطيبي. وقوله تعالى: **«وَمَا يخْدَعُونَ إلاّ أَنْفُسَهُمْ»** أي ضرر عملهم لاحقٌ

بهم، فهم يَغرُّون أنفسهم بالأكاذيب والرياء و يلقونها في مهاوى الهلاك والردى، وسيجازيهم على ذلك و يعاقبهم عليه، فلا يكونون في الحقيقة إلاَّ خادعين أنفسهم* **«وَمَا يَشْعُرُونَ»** أي لا يعلمون أنَّ و بال خداعهم راجع عليهم غير شاعرين بذلك، والشُعُورُ إدراك الشيء من وجه يدق ويختفي. مشتق من الشّعْر لدقته* وقيل: هو الادراك بالحاسّة. مشتقّ من الشّعار، وهو ثوب يلي الجسد، ومنه مشاعر الإنسان؟ أي حواسه الخمس التي يشعر بها* وقد نفى الله عزّ وجلّ الشعور عنهم في مخادعتهم لله، لأنهم لم يحاسبُوا أنفسهم على أقوالهم، ولم يراقبوه في أفعالهم، ولم يفكروا فيما يرضيه، بل جروْا في ريائهم على ما أَلِفوا، وتعوّدُوا فهم يعملون عمل المخادعين. وما يشعرون. فإذا عرض لهم زاجر من الدين يحول بينهم و بين ما يشتهون وجدوا لهم من المعاذير ما يسهل أمره، إما بأمل في المغفرة، أو تحريف في أوامر الكتاب، لما رسخ في نفوسهم من عقائد الزيغ التي يُسمّونها إيماناً، وهم في الحقيقة مخدوعون، وعن الصراط السويّ ناكبون. ذكره المراغي في تفسيره (جـ ١ ص ٥٠)* وقوله تعالى: **«فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»** هذه الجملة مقررة لما يفيده قوله: **«وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ»** من استمرار عدم إيمانهم، أو تعليل لَهُ كأنّه قيل: ما لهم لا يؤمنون؟ فقيل: فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يمنعه. والمرض حقيقة فيما يعرض للبدن فيخرجه عن الإعتدال اللائق به. و يوجب الخلل في أفعاله، وقد يؤدّى إلى الموت. استعير هنا لما في قلوبهم من الجهل وسوء العقيدة، وعداوة النبيّ صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك من فنون الكفر المؤدية إلى الهلاك الروحاني، والآية تحتملها، فإنّ قلوبهم كانت متألمة تحرُّقاً على ما فاتهم من الرياسة، وحسداً على ما يرون من ثبات أمر الرسول واستعلاء شأنه يوماً فيوماً، والتّنكير **«مَرَضٌ»** للدلالة على كونه نوعاً مبهماً غير ما يتعارفه النّاس من الأمراض* نقله الْجَمَلُ من البيضاوى وأبي السعود (جـ ١ ص ١٧)* وقال الجلال: مَرَضٌ. شُكٌّ ونفاقٌ فهو يمرض قلوبهم. أي يُضعفها* هذا إشارة إلى المعنى المجازى. وقوله: فهو يمرض قلوبهم.. الخ.. هذا إشارة إلى المعنى الحقيقي، وسُمى الشّكُ في الدين والنفاق مرضاً لأنه يضعف الدين كالمرض يضعف البدن* وعن ابن عباس: **«فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»** قال: شكٌ. وهو قول مجاهد وعكرمة والحسن البصرى وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة* وعن عكرمة وطاوس: **«فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ»** يعنى الرياء* **«فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً»** يعنى أن الآيات كانت تنزل تترى. أيْ آية بعد آية، فكلما كفروا بآياته إزدادوا بعد ذلك كفراً

ونفاقاً، أو بأن طبع على قلوبهم لعلمه تعالى بأنه لا يؤثر فيهم التذكير والإنذار* وقيل: زادهم كفراً بزيادة التكاليف الشرعية لأنهم كانُوا كلما إزدادت التكاليف بنزول الوحي يزدادون كفراً، كالذي قال جلَّ جلاله في تنزيله: **«وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زادتْهُ هَذهِ إيماناً فأمَّا الّذِينَ آمَنُوا فَزَادتْهُمْ إيماناً وَهُمْ يَسْتَبْشرُونَ * وأمَّا الّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إلىَ رِجْسِهِمْ وماتُوا وَهُمْ كافرُونَ»***

فالزيادة التي زيدها المنافقون من الرجاسة إلى رجاستهم، هوما وُصفوا به من النفاق والرياء والمخادعة..الخ. وفي رِجْساً إلى رِجْسِهِمْ هنا قال ابن زيد: شرًّا إلى إلى شرِّهم، وضلالةً إلى ضلالتهم* قوله تعالى: **«وَلَهُمْ عذابٌ أليمٌ»** أي مؤلَمٌ. بفتح اللاَّم على طريق الإسناد المجازى حيث أسند الألم للعذاب. وهو في الحقيقة إنما يسند إلى الشخص المعذَّبِ* وعن الضحاك قال: هو العذاب الموجع، وكل شيء في القرآن من الأليم فهو الموجع* والمراد أنه مُؤْلِمٌ يخلُص وجعه إلى قلوبهم* **«بِمَا كَانُوا يكْذِبُونَ»** أي بتكذيبهم الله ورسُولَهُ في السِّرِّ، فإنهم كان كذبةً ما كرين مخادعينَ* سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفِّه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم؟* ذكروا أجوبةً عن ذلك، منها ما ثبت في الصحيحين أنه صلى الله عليه وسلم قال لعمر رضي الله عنه: [أكْرَهُ أنْ يَتَحدَّثَ الْعَرَبُ أنَّ مُحمَّداً يَقْتُلُ أصحابَه]* ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تأخير لكثير من الأعراب عن الدخول في الإسلام، ولا يعلمون حكمة قتله لهم، وأنّ قتله إيَّاهم إنما هو على الكفر فإنهم إنما يأخذونه بمجرّد ما يظهر لهم. فيقولون: إن محمداً يقتُل أصحابه* قال القرطبي: وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يُعطى المؤلفة مع علمه بسوء اعتقادهم* قال ابن عطية: وهي طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضي اسماعيل والأبهرى* وعن ابن الماجشون. ومنها: ما قال مالك إنما كف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن المنافقين ليُبيِّن لأمّته أن الحاكم لا يحكم بعلمه* قال القرطبيّ: وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه وإن اختلفوا في سائر الأحكام، قال: ومنها ما قال الشافعي: إنما منع رسول الله صلى الله عليه وسلم من قتل المنافقين ما كانُوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم لأن ما يُظهرونه يجبُّ ما قبله* و يؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرهما: [أُمِرْتُ أنْ أُقاتلَ النَّاسَ حتّى يقُولوا لا إلَهَ إلاَّ الله،

فـإذا قـالـوهـا عَصَمُوا مني دماءَهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عزّ وجلّ]ه ومعنى هـذا أنّ مـن قـالها جَرتْ عليه أحكام الإسلام ظاهراً، فإن كان يعتقدُها وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة، وإن لم يعتقدها لم ينفعه جريان الحكم عليه في الدنيا، وكونه كان خليط أهـل الإيمـان: «**يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ**» الآيةه فهم يخالطونهم في بـعـض الحشر، فإذا حقت الحقوقيّة تميّزُوا منهم وتخلّفُوا بعدهم: «**وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ**» ولم يمكنهـم أن يَسْجُدُوا معهم كما نطقت بذلك الأحاديثه ومنها ما قاله بعضهم: أنّه إنما لم يقتلهم لأنه كان يخاف من شرِّهم مع وجوده عليه الصلاة والسلام بين أظـهرهـم يـتـلـو عليهـم آيـات الله مـبينات فأمّا بعده فَيُقتلون إذا أظهرُوا النفاق، وعلمه المسلمونه قال مالك: المنافِقُ في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزنديق اليومه قال ابن كثير: وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لاَ؟ أو يفرق بين أن يكـون داعية أم لا؟ أو يتكرّر منه ارتداده أم لا؟ أو يكون إسلامه ورجوعه من تـلـقـاء نفسه، أو بعد أن ظهر عليه؟ على أقوال متعدّدة موضع بحثها وتقريرها وعزوها كتاب الأحكامه قُلتُ: الـزنـديـق في اللغة القائل ببقاء الدهر. فارسي معرّب، وهو بالفارسيّة: زَنْدِكِرايْ. يقول بدوام بقاء الدهر. والزندقة الضيقه وقيل: الزنديق منه لأنّه ضيّق على نفسهه (التهذيب) الزنديق معروف وزنْدَقَتُهُ أنَّهُ لا يؤمنُ بالآخرة ووَحْدانية الخالق. وليس في كلام العرب زِنْدِيقٌ، وإنّما تقول العرب رَجُلٌ زَنْدَقَ وَزَنْدَقيّ إذا كان شديد البخل، فإذا أرادت العرب معنًى ما تقول العامةُ قالوا: مُلْحِدٌ ودهرِيٌّ، فإذا أرادُوا معنى السِّنِّ قالُوا: دهريٌّ (اللسان جـ ١٠ ص ١٤٧)ه وقول من قال كانَ عليه الصلاة والسّلام يعلم أعيان بعض المنافقين إنّما مستَنده حديث حذيفة بن اليمان في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقاً في غزوة تبوك الذين هَمُّوا أن يفتكُوا برسُول الله صلى الله عليه وسلم في ظلماءِ الليل عند عقبة هناك عزموا على أن يُنفّرُوا به النّاقة ليسقط عنها، فأوحى الله إليه أمرهـم، فـاطلع على ذلك حذيفةه قال ابن كثير: ولعلَّ الكف عن قتلهم كان لمدرك من هـذه المدارك أو لـغـيـرهـاه وقـوله تعالى: «**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**» يعني المنافقين. وقيل اليهود، والمعنى إذا قال لَهُم المؤمنُون: «**لَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ**» أي بالكفر وتعويق النّاس عن الإيمان بالله تعالى، وعن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم و بالقرآن «**قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ**

مُـصْلِحُونَ» يعني يقولونه كذباً، لأنّ الفساد نقيض الصلاح والمفسدة خلاف المصلحة. **«وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ»*** قال السُّديُّ في تفسيره عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عبّاس، وعن مُرَّة الطيب الهمداني عن ابن مسعود، وعن أُناس من أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم: **«وإذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ قَالُوا إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ»** قال: هُم المنافقون. أمَّا لا تُفسِدُوا في الأرْضِ قال الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية* وقال أبو جعفر في تفسيره (جـ ١ ص ٩٧) عن الربيع: **«وَإذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ»** يقول لا تعصوا في الأرض. قال فكان فسادهم على أنفسهم ذلك معصية الله جلّ ثَناؤه لأنَّ من عصى الله في الأرض، أو أمر بمعصيته فقد أفسد في الأرض لأن إصلاح الأرض والسماء بالطاعة* قال: وأولى التأويلين بالآية من قال: إن قول الله تبارك اسمه: **«وَإذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفسِدُوا فِى الأَرْضِ قَالُوا إنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ»** نزلت في المنافقين الذين كانُوا على عهْدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإن كان معنياً بها كل من كان يمثل صفتهم من المنافقين بعدهم إلى يوم القيامة* قال: هذا لاجماع الحجة من أهل التأويل على أنّ ذلك صفة من كان بيْن ظهراني أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين، وإنَّ هذه الآيات فيهم نزلت* وما ذكر شاهده قول الله جلَّ ثناؤه في كتابه مخبراً عن قيل ملائكته: **«قَالُوا أتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدّماءَ»** يعنُونَ بذلك أتجعل في الأرض من يعصيك ويخالف أمرك، فكذلك صفة أهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم فيها وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه وشكهم في دين الله الذي لا يقبل من أحد عملاً إلاَّ بالتصديق به والايقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ما هم عليه مقيمون من الشّك والريب، وبمظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فذلك إفساد المنافقين في أرض الله، وهم يحسبُون أنّهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها، فلم يسقط الله جلَّ ثناؤهُ عنهم عقوبتَه في الدنيا، وهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النّار، ولن تجد لهم نصيراً* (ألاَ) كلمة تنبيه ينبّه بها المخاطب **«إنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ»** يعنى في الأرض بالكفر، وهو أشدُّ الفساد **«وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُنَ»** وهذا القول من الله جلَّ ثناؤه تكذيب للمنافقين في دعواهم إذْ أُمِرُوا بطاعة الله فيما أمرهم الله به، ونهوا عن معصية الله فيما نهاهم الله عنه. قالوا إنما نَحْنُ مصلحون لا

مـفسـدون، ونحـن على رشـد وهُـدًى فيما أنـكرتموهُ علينا دونكم لا ضالون، فكذبهم الله عزّ وجلّ في ذلـك من قيلهم، فقال ألا إنّهم هم المفسدون المخالفون أمر الله عز وجلّ المتعدُّون حـدوده الـراكـبون معصيته. التاركون فروضه وهم لا يشعرُون. وذلك لأنهم يظنون أنَّ ما هُـم عـليـه من النفاق وإبطان الكفر صلاح، وهو عين الفساد. وقيل: لا يشعُرُونَ ما أعدَّ الله لهـم مـن الـعـذاب، أو لأن الإفـسـاد أصبح غريزة في طباعهم بما تمكّن فيها من الشبّه بـتـقـليـدهـم أحبارهم الذين أُشْربتْ قُلُوبُهم تعظيمهم والثقة بآرائهم؞ وقد بين سبحانه وتـعـالى حـالهـم بـقـولـه: «**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ**» يعنى المنافقين وقيل اليهود «**آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّـاسُ**» يـعنى المـهـاجـريـن والأنصار، وقيل عبدالله بن سلام وأصحابه من مؤمنى أهل الـكـتـاب. والمـعنى أخْـلِصُـوا في إيمانكم كما أخلص هؤلاء في إيمانهم لأن المنافقين كانُوا يُـظـهـرُون الإيمـان «**قَـالُـوا أَنُـؤْمِـنُ كما آمَنَ السُّفَهَاءُ**» أي الجهال؞ وفي الخازن (جـ ١ ص ٢٧) فـإن قـلـتَ كـيـف يـصـح الـنـفـاق مـع المجاهـرة بـقولهم: «**أَنُـؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ**» قُلتُ: كانوا يُظهرون هذا القول فيما بينهم لا عند المؤمنين، فأخبر الله نبيَّه صلى الله عـليه وسلم بذلك فردَّ الله ذلك عليهم بقوله: «**أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفهاءُ**» يعنى الجهال. وأصـل الـسـفـه خـفة العقل. ورقة العلم، وإنما سمى الله المنافقين سفهاء لأنهم كانُوا عند أنفسهم عقلاء رؤساء، فقلب ذلك عليهم وسمَّاهم سفهاء «**وَلَكِنْ لاَ يعْلَمُونَ**» يعنى إنهم كـذلـك؞ قـلـتُ: والسَّفَهُ في اللغة: خِفَّة الحِلْمِ. وأصله الخفة والحركة. وقيل: الجهل وهو قـريـبٌ بـعـضـه مـن بعض. وفي التنزيل: «**إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ**» أي إلاَّ من سَفِهَ الحقَّ؞ وقـال أبـو عـبيد: معنى سَفِهَ نَفْسه. أهلك نفسه وأو بقها؞ وفي الحديث الثابت المرفوع حين سُـئل النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن الكِبْر فقال: [الْكِبْرُ أَنْ تُسْفَهَ الحقّ، وتغْمِطَ النَّاس] فـجـعـل سفه واقعاً معناهُ أنْ تجْهَلَ الحقَّ فلا تراهُ حقاً؞ وقال بعض أهل اللغة: والسَّفَهُ في الأصـل الخِفَّةُ والطيْشُ. وفي قوله تعالى: «**وَلاَ تُـؤْتُوا السُّفَهاءَ أَمْوَالَكُمْ الَّتِى جَعَلَ الله لَـكُـم قِـيَـاماً**» قـال اللحياني: بلغنا أَنَّهم النّساءُ والصبيانُ الصّغار، لأنهم جُهَالٌ بموضع الـنـفـقـة. وروى عن ابن عباس أنّه قال: النّساءُ أسْفَهُ السُّفهاء؞ والأنثى سفيهة، والجمع سفيهات وسفائه وسُفَّهٌ وسِفَاهٌ؞ وفي التهذيب: «**ولا تُـؤْتُوا السُّفَهاءَ أمْوالَكُمْ**» يعنى المرأة والولد، وسمّيتْ سفيهةً لضعف عقلها، ولأنها لا تُحْسِنُ سياسة مالها، وكذلك الأولاد ما لم يُـؤنَـس رُشْـدُهُـم. وقـولـه تـعـالى: «**فإن كان الّـذي عليْه الحقُّ سَفِيهاً أو ضَعيفاً**»

السفيه: الخفيف العقل من قولهم: تَسَفَّهَتِ الرِّياحُ الشيء إذا استخفّتهُ فحركتْهُ. وقال مجاهد: السفيهُ الجاهل والضّعيف الأحمق* وفي أبي السعود «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا...» أي قيل لهم من قبل المؤمنين بطريق الأمر بالمعروف إثر نهيهم عن المنكر إتماماً للنصح وإكمالاً للإرشادِ.

الخلاصــة :

إنَّ الْـمـؤمنين نَصَحُوا المنافقين من وجْهين: **أحدهما :** النهيُ عن الإفساد، وهو عبارة عن التّخلّي عن الرذائل. **وثانيها :** الأمر بالإيمان، وهو عبارة عن التحلي بالفضائل* ولا يخفى أن اللام في الناس للجنس. والمراد به الكاملون في الإنسانيّة العاملون بقضيّة العقل. أو للعهد الخارجي العلميّ. والمراد به الرسُولُ ومن معه. والمعنى آمنوا إيماناً مقروناً بالإخلاص متمحّضاً عن شوائب النفاق مماثلاً لإيمانهم. وقد أشار الجلال إلى الإحتمال الثاني بقوله: أصحاب النبيِّ. على تفسير من قال «**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ**» أرادوا بالسفهاء أتباع النبيّ صلى الله عليه وسلم. أمّا المهاجرون منهم فلأنّهم عادَوْا قوْمَهم وأقَاربهم وهجروا أوطانهم وتركوُا ديارهم ليتّبعُوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم و يسيروا على هديه. وأما الأنصار فلأنهم شاركُوا المهاجرينَ في ديارهم وأموالهم. وهذا لا يُستبعد ممن استباح المحرمات وانهمك في الصفاهات والغوايات والضلالات أن يسمى الهدى سفهاً وضلالاً* «**أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفهاءُ**» وحدهم دون من عرَّضُوا بهم ونسبوهم إلى السفه* «**وَلَكِنْ لا يَعْلَمُونَ**» ما الايمان وما حقيقته، حتّى يعلموا أن المؤمنين سفهاء أو عقلاء، وقد ختمت هذه الآية بـ(لا يعلمون) وسابقتها بـ(لا يشعُرُونَ) لأن الإيمان لا يتمُّ إلاَّ بالعلم اليقيني. والفائدةُ المرجوَّةُ منه. وهي السعادة في المعاش والمعاد لا يدركها إلا من يعلم حقيقتَه، و يدرك كنهه، فهم أخطأوا في إدْراك مصلحتهم ومصلحة غيرهم، أما نفاقهم وإفسادهم في الأرض فقد بلغ من الوضوح مبلغ الأمور المحسوسة. التي تصل إلى الحواس والمشاعر، ولكن لا حسَّ لهم حتى يُدركوه* (اقتباساً من المراغى تارة ونصاً أحياناً وذلك في جـ ١ ص ٥٤)* قوله تعالى: «**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا**» يعنى هؤلاء المنافقين إذا لقُوا المهاجرينَ والأنصار (قالُوا آمَنّا) كإيمانكم «**وإِذَا خَلَوْا**» أي رجعوا، وقيل هو من الخلوة «**إِلَى**» قيل بمعنى الباء أي بـ«**شَيَاطِينِهِمْ**» وقيل بمعنى مع أي مع شياطِينهم، والمراد بشياطينهم رؤساؤهم وكهنتُهُم*

قال ابن عباس: وهم خمسة نفر: كعب بن الأشرف من اليهود بالمدينة، وأبو بردة في بني أسلم، وعبدالدّار في جهيْنَةَ، وعوف بن عامر في بني أسد، وعبدالله بن السَّواد بالشام ولا يكون كاهن إلا ومعَه شيطان تابع له* وقيل: هُم رؤساؤهم الذين شابَهُوا الشّياطينَ في تمردهم. كذا ذكره الخازن في تفسيره (جـ ١ ص ٢٧)* «**قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ**» أي عَلَى دينكم «**إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**» أي بمحمد وأصحابه بما نظهر لهم من الإسلام لنأمن من شرِّهم، ونقف على سِرِّهم ونأخذ من غنائمهم وصدقاتهم* قال ابن عبّاس: نزلت هذه الآية في عبدالله بن أُبيّ وأصْحابه. وذلك أنَّهم خرجُوا ذات يوم فاستقبلهم نفرٌ من أصحاب رسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، فقال عبدالله بن أبيٍّ لأصحابه: انْظروا كيف أردُّ هؤلاء السفهاء عنكم فذهب فأخَذَ بيد أبي بكر الصدّيق فقال: مرحباً بالصديق سيّد بني تيمْ وشيخ الإسلام، وثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار. الباذل نفسه ومالَهُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ بيد عمر فقال: مَرْحباً بسيِّد بني عديٍّ بن كعب الفاروق القويّ في دين الله الباذل نفسه ومالَهُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثُمَّ أخذ بيد عليٍّ فقال: مرحباً بابن عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه وسيِّد بني هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له عليٌّ: اتّقِ الله ياعبدالله ولاَ تُنافق، فإنَّ المنافقين شرُّ خليقة الله تعالى، فقال: مهلاً يا أبا الحسن إنى لا أقول هذا نفاقاً، والله إن إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم، ثم تفرَّقُوا، فقال عبدالله لأصحابه: كيف رأيتُموني فعلت؟ فأثنوا عليه خيراً* وفي رواية زيادة بعد فأثْنُوا عليه خيراً، وقالوا: لم نزل بخير ما عِشْتَ فينا. فرجع المسلمون إلى النبي وأخبروه بذلك فنزلت* قال السدّى عن أبي مالك: خَلَوْا: يعنى مَضَوا. وشياطِينهم سَادَتُهم وكبراؤهم ورؤساؤهم من أحبار اليهود. ورؤس المشركين والمنافقين* وقال الضحاك عن ابن عباس: وإذا خلوا إلى أصحابهم، وهم شياطينهم* وفي رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس: «**وإِذَا خَلَوْا إِلَىَ شَيَاطِينِهِمْ**» من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب، وخلاف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم* وقال مجاهد: «**وإذا خَلَوْا إلىَ شَيَاطِينِهِمْ**» إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين* وقال قتادة: «**وإذَا خَلَوا إلى شَيَاطِينِهِمْ**» إلى رؤسهم وقادتهم في الشرك والشرّ* و بنحو ذلك فسّرهُ أبومالك وأبوالعالية والسدّى والربيع بن أنس* قال ابن جرير: وشياطين كُلّ شيء مردتُه، و يكون الشيطانُ من الإنس والجنّ كما قال تعالى: «**وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ**

«عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإنْسِ والْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُروراً» كذا في ابن كثير (جـ ١ ص ٥١) وأورد ما في المسند عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نَعُوذُ بالله مِنْ شياطين الإنْسِ والجنّ، فَقُلْتُ يارسول الله، أوَ للإنس شياطين؟ قال: نعم]* **«الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ»** أي يجازيهم جزاء استهزائهم بالمؤمنين، فسمّى الجزاء باسمه لأنه في مقابلته* قال ابن عباس: يفتح لهم باب الجنّة، فإذا انتهوا إليه سُدَّ عنهم، وَرُدوا إلى النار* **«وَيَمُدُّهُمْ»** أي يتركهم ويمهلهم. والمدّ والإمداد واحد. وأصله الزيادة. وأكثر ما يأتي المدُّ في الشرِّ، والإمداد في الخير* **«في طغيانِهِمْ»** أي في ضلالهم. وأصل الطغيان مجاوزة الحد* **«يَعْمَهُونَ»** أي يتردّدون في الضلالة متحيرين* وفي الكرخي تعليقاً على قول الجلال: **«الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ»** يجازيهم باستهزائهم. أي عليه وهذا جواب عما يقال كيف وُصِفَ الله تعالى بأنه يستهزئُ، وقد ثبت أن الاستهزاء من باب العبث والسخرية وذلك قبيح على الله تعالى ومنزّهٌ عنه. وإيضاً فيه أنّه سمّى جزاء الاستهزاء استهزاء مشاكلة في اللفظ، ومنه **«وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثْلُها»**، **«فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُم فاعْتَدُوا عَلَيْهِ»** ولم يقل الله مستهزىء بهم قصداً إلى استمرار الاستهزاء وتجدّده وقتاً فوقتاً كما كانت نكايات الله فيهم، ومنه: **«أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فى كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أو مرّتَيْنِ»** ولأن التعبير بالفعل المضارع يفيد التكرير والإستمرار* وقال آخرون: قوله تعالى: **«إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُون * الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ»** وقوله: **«يُخادِعُونَ الله وهُوَ خَادِعُهُمْ»** وقوله: **«فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ الله مِنْهُمْ»** وقوله: **«نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ»** وما أشبه ذلك إخبارٌ من الله تعالى أنّه مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ، وإن اختلف المعنيان كما قال تعالى: **«وجَزَاءُ سيئةٍ سيّئةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وأصْلَحَ فأجْرُهُ عَلى الله»** وقوله تعالى: **«فَمَنِ اعْتَدىَ عَلَيْكُمْ فاعْتَدُوا عَلَيه»** فالأول ظلم، والثاني عدل، فهما وإن اتفق لفظهما فقد اختلف معناها* وإلى هذا المعنى وجّهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك. لأن الاستهزاء والمكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله تعالى بالإجماع. وأما على وجه الإنتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك* وروى الضحاك عن ابن عبّاس في قوله تعالى: **«الله يسْتَهْزِئُ بِهِمْ»** قال: يسخر بهم للنقمة منهم* فقد أوّلَ الاستهزاء بالسخرية التي عبّر عنها بالنقمة

منهم، والنقمة في اللغة: المكافأة بالعقوبة؞ قال الليث: يقال لَمْ أرْضَ مِنْهُ حتّى نَعِمْتَ وانْتَقَمْتَ إذا كافأهُ عُقوبةً بما صنع؞ وفي قوله تعالى: «وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَانِهِمْ يعْمَهُونَ» قال السدى: عن أبي مالك، وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مرّة الهدانى عن ابن مسعودٍ وعن أناسٍ من أصحاب النبيِّ صلى الله عليه وسلم: يَمُدُّهُمْ: يُملى لهم؞ وقال مجاهد: يزيدهم؞ وقال الضحاك: عن ابن عباس: «في طغيانهم يَعْمَهُونَ» في كفرهم يترَدَّدُونَ؞ وكذا فسّره السُّدى بسنده عن الصحابة، وبه يقول أبوالعالية وقتادة والربيع بن أنس ومجاهد وأبومالك وعبدالرحمن بن زيد: في كفرهم وضلالتهم؞ وفي (اللسان) قال ابن سيده: طَغَى يطغى طغياً ويطْغُو طغياناً جاوز القدْرَ وارتفع وغلا في الكفر؞ وفي حديث وَهْبٍ: [إنَّ لِلْعِلْمِ طُغْياناً كطُغْيانِ المال] أي يحمل صاحِبَهُ على التَّرَخُّصِ بما اشتُبه مِنْهُ إلى مَالا يَحِلُّ لَهُ، ويترفّعُ بِهِ على مَنْ دُونَهُ، ولا يُعْطى حَقَّهُ بالعملِ بِهِ كما يَفْعَلُ ربُّ المال. وَكُلُّ مُجاوِزٍ حدَّهُ في العصيانِ طاغٍ؞ وباختصار: كلُّ شيءٍ جَاوَزَ الْقَدْر فَقَدْ طَغَى كما طغى الماءُ على قوم نوحٍ، وكما طغتِ الصيحةُ على ثمود. كما في قوله تعالى: «فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بالطَّاغية» قال الزجاج: الطاغية طُغْيانُهم، وقال قتادة: بعث الله عليهم صيْحةً. وقيل: أُهلِكُوا بالطاغية أي بصيحة العذاب؞ والْعَمَهُ في اللغة: التَّحَيُّرَ والتَّرَدُّدُ؞ وقيل: العمهُ التردُّدُ في الضلالة والتحيّر في منازعة أو طريق؞ قال ثعلب: هو أن لا يعرف الحجّة؞ وقال اللحياني: هو تردّده لا يدرى أين يتوجّه؞ وقال ابن الأثير: الْعَمَهُ في البصيرة كالعمى في البصر؞ وقال بعضهم: العمى في العين، والْعَمَه في القلب، وقد يُستَعْمَلُ العمى في القلب أيضاً قال الله تعالى: «فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلِكنْ تَعْمَى الْقُلوبُ التى فِى الصُّدُورِ».

وإذا كان الْعَمَه التردُّد. فهذا يعنى أنهم يترددون في البقاء على الكفر وتركه إلى الإيمان، وترددهم في الكفر لا ينافي كونهم في الباطن عليه المقتضى لجزمهم به لأن بعضهم كان شاكاً في حقيقة الإسلام، وباقيهم كان عليه أمارة الشك لما يشاهده من الآيات الباهرة، فهم وإن أصرُّوا على الكفر إنما إصراراهم تجلُّدٌ وعناد؞ وقوله تعالى: «أُولئِكَ» يعنى المنافقين الموصوفين بالصفات السابقة من قوله: «وَمِنَ النَّاس مَنْ يقُولُ..» إلى هنا: «الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى» أي استبدلوا الكفر بالإيمان. وإنما أخرجه بلفظ الشراء والتجارة توسعاً على سبيل الاستعارة لأن الشراء فيه إعطاءُ بدلٍ وأخذ آخر؞

في الخازن: فإن قُلتَ كيف قال اشتروا الضلالة بالهدى. وما كانوا على هدى؟ قُلت: جعلوا لتمكنهم منه كأنه في أيديهم، فإذا تركوه إلى الضلالة فقد عطلُّوه، واستبدلوه بها. والضلالة الجور عن القصد وفقد الاهتداء* قلت: كل إنسان مفطورٌ على الهدى أصلاً لقوله عليه الصلاة والسلام: [(كل مَولُودٍ يولد على الفطرة) أي على الإسلام (فأبواه يهودانه، أو يمصرانه أو يمجسانه)] فكانت الهداية في أيديهم حقاً، فاختاروا الضلالة بدل الهدى الذي كله نورٌ وخير و بركة. و باختيارهم الضلالة «**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ**» أي ماربحوا في تجارتهم، والربح الفضل عن رأس المال، وأضاف الربح إلى التجارة لأن الربح فيها يكون* «**وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**» أي مصيبين في تجارتهم لأن رأس المال هو الإيمان، فلمَّا أضاعُوه، واعتقدُوا الضلالة فقد ضَلُّوا عن الهدى* قيل: وما كانوا مهتدين في ضلالتهم* كذا في الخازن (جـ ١ ص ٢٨)* وعبارة السمين «**اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى**» الشراء هنا مجاز عن الاستبدال بمعنى أنّهم لمَّا تركوا الهدى. وآثروا الضَّلالة جُعلوا بمنزلة المشترين لها بالهدى، ثم رشح هذا المجاز بقوله: «**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ**» فأسند الربح إلى التجارة. والمعنى فما ربحوا في تجارتهم* والباء هنا: «**بِالْهُدَى**» للعوض والمقابلة وهي تدخُل على المتروك أبداً كما هنا، والتجارة صناعة التجّار، وهى التّصدّى للبيع والشراء لتحصيل الربح، وهو الفضل على رأس المال. وهؤلاء ما كانوا مهتدين لطرق التجارة، فإن المقصود منها سلامة رأس المال والربح، وهؤلاء قد أضاعوا الطلبَين لأن رأس مالهم الفطرة السليمة، والعقل الصرف، وهما قيمة الإنسانية في الحياة، فلما دنّسُوهما باتباع الأهواء والشهوات، واعتقدوا هذه الضلالات بطل استعدادهم واختل عقلهم، ولم يبق لهم رأس مال يتوصلون به إلى إدْراك الحقّ ونيل الكمال، فبقوا خاسرين من الربح فاقدين للأصل* والضلال والضلالةُ في اللغة: ضدُّ الهدى والرشاد* وقال أبو منصور: والإضلالُ في كلام العرب ضد الهداية والإرشاد يقال: أضْلَلْتَ فلاناً إذا وجّهته للضلال عن الطريق. وإياه أراد لبيد:

مَنْ هَدَاه سبل الخير اهتدى   ناعِمَ البالِ، ومن شاءَ أضلّ

قال لبيد: هذا في جاهليته. فوافق التنزيل العزيز: «**يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**»* وضللت الدار، والمسجد والطريق وكلّ شيء مقيم ثابت لا تهتدى له، يعنى أن المكان لا يضلُّ وإنما أنت تضلُّ عنه.

ومن رحمة الله بهم أن بعث النبي محمداً صلى الله عليه وسلم هادياً لهم إلى الصراط

المستقيم فلم يهتدوا باقتفاء أثره فأضلوا السبيل. فاشتروا الضَّلالة بالهُدى: «**وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ**» أي يذهب كيدهم باطلاً ويحيق بهم ما يريده الله تعالى، وضلَّ الشيء يضِلُّ ضلالاً أي ضاع وهَلَكَ* والهدى في اللغة: ضد الضلال. وهو الرشادُ والدلالة. ولفظه يذكر و يؤنث فيقال: هذه هدى مستقيمة وذُكِّرَ في قوله تعالى: «**قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى**» أي الصراط المستقيم الذي دعا إليه، هو طريق الحق. وقوله تعالى: «**إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى**» أي إن علينا أن نبين طريق الهدى من طريق الضلال كما في قوله تعالى: «**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ**» أي بينا لهم طريق الهدى وطريق الضلالة «**فَاسْتَحَبُّوا**» أي آثروا الضلالة على الهدى. وقوله تعالى: «**أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ**» أي أو لم يبين لهم* وفي الحديث: [أنّه قال لعليٍّ (سَلِ اللهَ الْهُدَى) وفي رواية: (قل اللهم اهْدني وسَدِّدني واذكر بالهدى هدايتك الطريق و بالسداد تسديدك السَّهم]* والمعنى إذا سألت الله الهدى فأخطر بقلبك هداية الطريق، وسلِ الله الاستقامة فيه كما تتحرَّاه في سلوك الطريق، لأن سالك الفلاة يلزم الجادة، ولا يُفارقُها خوفاً من الضلال، وكذلك الرامى إذا رمى شيئاً سدد السهم نحوه ليصيبه، فأخطر ذلك بقلبك ليكون ما تنو يه من الدعاء على شاكلة ما تستعمله في الرمى* ومن أسماء الله تعالى (الهادي) أي الذي بصَّر عباده، وعرفهم طريق معرفته حتى أقروا بر بو بيته وهدى كل مخلوق إلا ما لابُدَّ له منه في بقائه، ودوام وجوده فمن أقام على الإيمان فقد اهتدى. ومن ضلَّ فلا هادى له من دون الله قال الله تعالى: «**إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ يُضِلُّ**» أي يريد لا يهتدى* وهَدَى: بمعنى بَيَّنَ في لغة أهل الغورْ. يقولون: هديت لك بمعنى بَيَّنْتُ لك. و يقال بلغتهم نزلت (أَوَ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ) ومن معانى الهدى: النهار قال ابن مقبل:

حتى استبنت الهدى والبيد هاجمة يخشعن فى الآلِ غُلْفاً أويُصلِّينا

والهدى أيضاً الطاعة والورع واتباع السيرة* في الحديث: [واهدوا بِهَدْيِ عمَّار] أي سيروا بسيرته في طاعته وورعه وتهيأوا بهيئته، وما أحسن هديه. أي سمته وسكونه، وفلان حسنُ الهدى والهدية أي الطريقة والسيرة* وفي حديث عبدالله بن مسعود: [إنَّ أحسن الهدى هديُ محمدٍ] أي أحسن الطريق والهداية والطريقة والنحو والهيئة* وفي حديثه الآخر: [كُنَّا ننظر إلى هَدْيِهِ ودَلِّهِ]* وفي الحديث: [الهدى الصالحُ والسَّمتُ الصالح جزءٌ من خمسة وعشرين جزءاً من النبوة] ومعنى الحديث: أن هذه الحال من شمائل الأنبياء، من جملة خصالهم وأنها جزء معلوم من أجزاء أفعالهم، وليس المعنى أن

النبوة تتجزأ، ولا أنَّ من جمع هذه الخِلال كان فيه جزء من النبوة، فإن النبوة غير مكتسبة ولا مجتلبة بالأسباب، وإنما هى كرامة من الله تعالى، والمراد جزء من خمسة وعشرين جزءاً مما جاءت به النبوة ودعت إليه، وتخصيص هذا العدد مما يستأثر النبي صلى الله عليه وسلم بمعرفته* وفي الطبرى (جـ ١ ص ١٧) والذى هو أولى عندى بتأويل الآية ما روينا عن ابن عباس وابن مسعود من تأويلهما قوله: «**اشْتَرَوا الضَّلالَةَ بالْهُدَى**» أخذوا الضلالة وتركوا الهدى، وذلك أنَّ كل كافر بالله فإنه مستبدل بالإيمان كفراً باكتسابه الكفر الذي وجد منه بدلاً من الإيمان الذي أمر به، أوَمَا تسمعُ الله جلّ ثناؤه يقولُ فيمن اكتسب كفراً به مكان الإيمان به وبرسوله: «**وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بالإيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيل**» وذلك هو معنى الشراء لأنَّ كل مُشترٍ شيئاً فإنما يستبدل مكان الذى يؤخذ منه من البدل آخر بدلاً منه. فكذلك المنافق والكافر استبدلا بالهدى الضلالة، والنفاق، فأضلهما الله وسلبهما نور الهدى، فترك جميعهم في ظلمات لا يبصرون* وقال أبوجعفر في تأويل قوله: «**فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ**» وتأويل ذلك أن المنافقين بشرائهم الضلالة بالهدى خسروا ولم يربحوا لأن الرابح من التجار المستبدل من سلعته المملوكة عليه بدلاً هو أنفس من سلعته أو أفضل من ثمنها الذي يبتاعها به، فأما المستبدل من سلعته بدلاً دونها ودون الثمن الذي يبتاعها به فهو الخاسر في تجارته لا شك. فكذلك الكافر والمنافق لأنَّهما اختارا الحيرة والعمى على الرشاد والهدى. والخوف والرعب على الحفظ والأمن فاستبدلا في العاجل بالرشاد الحيرة، وبالهدى الضلالة، وبالحفظ الخوف، وبالأمن الرعب، مع ما قد أعدَّ لهما في الآجل من أليم العقاب، وشديد العذاب، فخابا وخسرا ذلك هو الخسران المبين* وروى عن قتادة: «**فما رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ ومَا كانُوا مُهْتَدِينَ**» قد والله رأيتُموهُم خرجوا من الهدى إلى الضلالة، ومن الجماعة إلى الفرقة، ومن الأمن إلى الخوف، ومن السنَّة إلى البدعة* وقوله تعالى: «**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّذِى اسْتَوْقَدَ ناراً**» المثل عبارة عن قول يشبه ذلك القول قولاً آخر بينهما مشابهة ليبين أحدهما الآخر ويُصوِّره، ولهذا ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه وهو أحد أقسام القرآن السبعة، ولما ذكر الله تعالى حقيقة وصف المنافقين عقبه بضرب المثل زيادة في الكشف والبيان لأنّه يؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه ولأن المثل تشبيه الشيء الخفيّ بالجليّ، فيتأكد الوقوف على ما هيته، وذلك هو النهاية في الإيضاح، وشرطه أن يكون قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه كمثل الذى استوقد ناراً لينتفع بها* «**فَلَمَّا أَضَاءَتْ**» يعنى النار «**مَا حَوْلَهُ**»

يعنى حول المستوقد «ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ» قال الخازن: فإن قُلت كيف وحّدَ أولاً (الَّذِى) ثم جمع ثانياً؟ قُلتُ: يجوز وضع الذى موضع الذين كقوله: «وَخُضْتُمْ كالَّذِى خَاضُوا» وقيل إنما شبَّه قصتهم بقصة المستوقد، وقيل: معناه مثل الواحد منهم كمثل الذى استوقد ناراً «وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ» قال ابن عباس نزلت في المنافقين. يقول مثلهم في نفاقهم كمثل رَجُلٍ أوقد ناراً في ليلة مظلمة في مفازة، فاستدفأ ورأى ما حوله فاتقى مما يخاف، فبينما هو كذلك أذ طفئتْ ناره فبقى في ظلمة حائراً متخوفاً، فكذلك حال المنافقين أظهروا كلمة الايمان فأمّنوا بها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وتزوّجوا من المسلمين[1] وقاسمُوهم في الغنائم، فذلك نورهم، فلما ماتوا عادوا إلى الظُّلمة والخوف* الخازن (جـ ١ ص ٢٩) وقال: فإن قُلتَ ما وجه تشبيه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة؟ قُلتُ: وجه تشبيه الايمان بالنور أن النور أبلغ الأشياء في الهداية إلى المحجة القُصوى، وإلى الطريق المستقيم وإزالة الحيرة، وكذلك الايمان هو الطريق الواضح إلى الله تعالى، وإلى جنابه، وشبَّه الكفر بالظلمة لأن الضّال عن الطريق المسلوكة في الظلمة لا يزدادُ إلا حيرةً وكذلك الكفر لا يزداد صاحبه في الآخرة إلاّ حيرةً* وقال: وفي ضرب المثل للمنافقين بالنّار ثلاث حِكَم:

احداها : أن المستضيء بالنار مُستضيء بنور غيره، فإذا ذهب ذلك بقى هو في ظلمته، فكأنهم لمَّا أقروا بالإيمان من غير اعتقاد قلوبهم كان إيمانهم كالمستعار.

الثانية : أنّ النار تحتاج في دوامها إلى مادة الحطب لتدوم فكذلك الإيمان يحتاج إلى مادة الاعتقاد ليدوم.

الثالثة : أن الظلمة الحادثة بعد الضوء أشد على الإنسان من ظلمة لم يجد قبلها ضياء، فشبّه حالهم بذلك.

ثمَّ وصفهم الله تعالى فقال: «صُمٌّ» أي عن سماع الحق لأنهم لا يقبلونه، وإذا لم يقبلوه فكأنهم لم يسمعوه «بُكْمٌ» أي خرس عن النطق بالحق فهم لا يقولونه «عُمْىٌ» أي لا بصائر لهم يميزون بها بين الحق والباطل ومن لا بصيرة له كمن لا بصر له فهو أعمى*

---

(١) عبارة الخازن: وناكحوا المسلمون فالتعيين بما ذكرتُ أبلغ في المعنى، ولعلها فيناكحهم المسلمون كما في الطبرى (جـ ١ ص ١١٠) وسيأتى ذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

«**فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ**» أي عن ضلالتهم ونفاقهم* وقال ابن كثير في التفسير (جـ ١ ص ٣٥) نقلاً عن الرازي: «**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذى اسْتَوْقَدَ نَاراً..**» الآية. يقال: مَثَلٌ ومِثْلٌ ومثيل أيضاً والجمع أمثال قال الله تعالى: «**وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا للنَّاسِ ومَا يعقلها إلاَّ الْعَالِمونَ**» وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم في اشترائهم الضلالة بالهدى وصيرورتهم بعد البصيرة العمى، بمن استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله وتأنس بها فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع هذا أصم لا يسمع، أبكم لا ينطق أعمى لو كان ضياءً لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك، فكذلك هؤلاء المنافقون في استبدالهم الضلالة عوضاً عن الهدى واستحبابهم الغيَّ على الرشد. وفي هذا المثل دلالة على أنَّهم آمنو ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم فى غير هذا الموضع* أي قوله تعالى: «**ذلِكَ بأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كفَروا فطُبعَ على قلوبهم فَهُمْ لاَ يفْقَهُون**» وهو الصواب، لا فتتاح ضرب المثل بالاضاءة المقابلة للإيمان، واختتامه بالظلمة المقابلة للكفر، وهو خلاف ما ذهب إليه ابن جرير رحمه الله إذ زعم أن المضروب لهم المثل ههُنا لم يؤمنوا في وقت من الأوقات، واحتج بقوله تعالى: «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمنَّا باللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَماهُمْ بِمؤْمِنينَ**»* قال ابن كثير: والصواب أن هذه الآية إخبار عنهم في حال نفاقهم وكفرهم وهذا لا ينفى أنَّه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك، ثم سُلبوه، وطبع على قلوبهم، ولم يستحضر ابن جرير هذه الآية ههُنا، وهي قوله تعالى: «**ذَلِكَ بأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَـرُوا..**» وقد استدل لما ذهب إليه بما رواه السُّديُّ في تفسيره عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة في قوله تعالى: «**فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ**» زعم أنَّ ناساً دخلوا في الإسلام مقدم نبي الله صلى الله عليه وسلم المدينة، ثم إنهم نافقوا، وكان مثلهم كمثل رجل كان في ظلمة فأوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله من قذى، أو أذى فأبصر حتى عرف ما يتقى منه فبينا هو كذلك إذ كفر فصار لا يعرف الحلال من الحرام، ولا الخير من الشر* وقال العوفى عن ابن عباس في هذه الآية قال: أمَّا النور فهو إيمانهم الذي كانوا يتكلمون به، وأما الظلمة فهي ضلالتهم وكفرهم الذي كانُوا يتكلمون به وهم قوم كانوا على هدى ثم نُزع منهم فعتوا بعد ذلك* وهذان الدليلان يؤيدان ما ذهب إليه وكذا ما روى الطبرى في تفسيره (جـ ١ ص ١١٠) عن ابن عباس قال: ضرب الله للمنافقين مثلاً فقال:

«مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذى اسْتَوْقَدَ ناراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ ما حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وتَرَكَهُمْ فِى ظُلُماتٍ لا يُبْصِرُونَ» أي يُبصرون الحقَّ و يقولونَ به حتى إذا خرجُوا به من ظلمة الكفر أطفؤه بِكُفْرِهِمْ به، ونفاقهم فيه، فتركهم في ظلمات الكفر، فهم لا يبصرون هدى ولا يستقيمون على حق. وعنه أيضاً قال: هذا مثل ضرب به الله للمنافقين أنَّهم كانُوا يغترُّون بالإسلام، فيناكحهم المسلمون، و يوارثونهم، و يقاسمونهم الفيء، فلما ماتُوا سلبهم الله ذلك العزَّ كما سلب صاحب النار ضوْأَهُ، وتركهم في ظلمات يقول في عذاب. وقال قتادة: «مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ ما حَوْلَهُ» هي لا إله إلاَّ الله أضاءت لهم فأكلُوا بها وشربُوا، وآمنُوا في الدنيا ونكحوا النساء، وحقَنُوا بها دماءهم حتّى إذا ماتُوا ذهب الله بنورهم، وتركهم في ظلمات لا يبصرون. وقال مجاهد: أمَّا إضاءة النار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى، وذهاب نورهم إقبالهم إلى الكافرين والضلالة. وأعجبني قول الربيع بن أنس قال: ضرب مثل أهل النفاق فقال: «**مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً**» قال: إنما ضوء النار ونورها ما أوقدتها، فإذا خمدت ذهب نورها، كذلك المنافق كلما تكلّم بكلمة الإخلاص أضاء له فإذا شكَّ وقع في الظلمة. وهذا يفيد أن الإخلاص نور والشك ظلمة، بل هو أشدُّ الكفر. قال عبدالرحمن بن زيد: هذه صفة المنافقين كانوا قد آمنُوا حتى أضاء الإيمان في قلوبهم كما أضاءت النَّار لهؤلاء الذين استوقدوا، ثم كفرُوا، فذهب الله بنورهم، فانتزعه كما ذُهِبَ بضوء هذه النار، فتركُهُمْ في ظلماتِ لا يُبصرونَ. والصَّم في اللغة: انسداد الأذن وثقلُ السَّمع. وفي حديث الإيمان: [الصُّمَّ الْبُكْمَ رُؤوسَ النّاس] الصمَّ البكمَ بالنصب مفعول بالفعل قبله، وهو كما في النهاية:: [وأن تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الصُّمَّ البكْمَ..]..الخ. جمع الأصم وهو الذى لا يسمع، وأراد به الذي لا يهتدى، ولا يقبل الحق. وهنا من صمم العقل لا صمم الأذن، أنشد ثعلب:

قُلْ مابَدا لكَ من زورٍ ومن كذبٍ حلمي أصمُّ وأذْنى غير صمَّاءِ

استعار الصَّم للحلم، وليس بحقيقة. وقال الليث: الصمم في الأذن ذهاب سمعها، وفي القناة اكتناز جوفها، وفي الحجر صلابته، وفي الأمر شدّته. والبكمُ: الخرسُ مع عى و بَلَه، وقيل: هو الخرس ما كان. وقال ثعلب: البكم: أن يولد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر. وقال الأزهرى: بين الأخرس والأبكم فرق في كلام العرب.

فالأخرس الذي خُلقَ ولا نطقَ له كالبهيمة العجماءِ، والأ بكم الذي للسانه نطقٌ وهو لا يعقل الجواب، ولا يُحسنُ وجه الكلام. والعمى معروف* قوله تعالى في صفة الكفار: «**صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ..**» كانُوا يسمعون و ينطقون و يُبصرون. ولكنهم لا يعون ما أنزل الله، ولا يتكلمون بما أُمروا به، فهم بمنزلة الصم البكم العمى* و يقال: إنَّ سمعهم لما لم ينفعهم لأنهم لم يعُوا به ما سَمِعوا، و بَصَرَهُم لما لم يجد عليهم لأنهم لم يعتبروا بما عاينوه من قدرة الله وخلقه الدَّال على أنه واحد لا شريك له، ونطقهم لمّا لم يُغن عنهم شيئاً إذ لم يؤمنوا به إيماناً ينفعهم. كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يُبصر ولا يعى ونحو منه قول الشاعر: أصمُّ عمَّا ساءَهُ سميعُ* يقول: يتصامم عما يسُوءُهُ وإنْ سمعه فكان كأنه لم يسمع فهو سميع ذو سمعٍ، أصمُّ في تغابيه عمَّا أريد به. ورفعت الثلاثة (صمٌّ بكمٌ عمّى) على إضمار مبتدأ. وهى أخبار متباينة لفظاً ومعنى، لكنها في معنى خبر واحد، لأن مالها إلى عدم قبول الحق. مع كونهم سمع الآذان صماءُ الألسُن. بُصَراءُ الأعين، فليس المراد نفى الحواس الظاهرة* وقوله تعالى: «**أَوْ كَصَيِّبٍ**» أي كأصحاب صيّب وهو المطر وكل مانزل من الأعلى إلى الأسفل فهو صيِّبٌ: «**مِنَ السَّمَاءِ**» أي من السَّحاب. لأنَّ كُلٍ ما علاك فأظلَّكَ فهو سماء. ومنه قيل لسقف البيت سماء. وقيل: من السماء بعينها، وإنما ذكر الله تعالى السماء وإن كان المطر لا ينزل إلا منها ليرد على من زعم أن المطر ينعقد من أبخرة الأ رض، فأبطل مذهب الحكماء بقوله من السماء ليعلم أن المطر ليس من أبخرة الأ رض بطبعها كما زعم الحكماء، وإنما هو بتأليف الله عزَّ وجلَّ «**فِيهِ**» أي الصَّيب «**ظُلُمَاتٌ**» جمع ظلمة «**وَرَعْدٌ**» هو الصوتُ الذي يسمع من السحاب «**وبَرْقٌ**» يعنى النّار التي تخرج من السحاب، وقد أوضحت هذه الآثار الإلٰهية في كتابى (سبعون برهاناً علميًّا على وجود الذات الإلٰهية) وأقمتها دلائل علمية على وجود الصانع جلّ وعلا. وهى مما ينبغى على كل مسلم الوقوف على ما فيها لمقارعة الخصم بالحجة البيّنة* «**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّواعِقِ**» جمع صاعقة، وهي الصيحة التي يموت كل من يسمعها، أو يُغشى عليه «**حَذَرَ الْمَوْتِ**» أي مخافة الهلاك «**واللهُ مُحيطٌ بالْكَافِرِينَ**» أي عالم بحالهم. في كلمة (أو) في قوله تعالى: «**أَوْ كَصَيِّبٍ**» خمسةُ أقوال أظهرها أنها للتفصيل بمعنى أنّ النَّاظرين في حال هؤلاء منهم من يشبّههم بحال المستوقد الذي هذه صفته، ومنهم من يشبههم بأصحاب صيّب هذه صفته* والثاني: أنها للإبهام أي إن الله

تعالى أبهم على عباده تشبيههم بهؤلاء وبهؤلاء* الثالث: أنها للشك بمعنى أنَّ الناظر يشكُّ في تشبيههم* الرابع: أنهاللإباحة في تطبيق أي المثلين عليهم فهو أبلغ في البيان، وكافٍ في وصف حالهم ومآلهم* والخامس: أنها للتَّخيير. أي أبيح للناس أن يشبهوهم بكذا أو كذا، أو خُيِّروا في ذلك* وزاد الكوفيون فيها معنيين آخرين: أحدهما: بمعنى الواو* والثاني: كونها بمعنى بل* والصَّيبُ في اللغة: نزول المطر. قال أبو اسحاق «**أو كصيِّبٍ مِنَ السَّماءِ**» الصيّب هنا المطر. وهذا مثل ضرب به الله تعالى للمنافقين. كأنّ المعنى: أَو كأصحاب صيِّب، فجعل دين الإسلام لهم مثلاً فيما ينالهم فيه من الخوفِ والشدائد، وجَعَلَ ما يستضيئُون به من البرق مثلاً لما يستضيئون به من الإسلام، وما ينالهم من الخوف في البرق، بمنزلة ما يخافونه من القتل. قال: والدليل على ذلك قوله تعالى: «**يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ**» وكُلُّ نازلٍ من عُلوٍ إلى سُفلٍ فقد صاب يصُوب وأنشد:

كأنهم صابتْ عليهم سحابةٌ صواعقها لطيرهن دَبيبُ

وقال الليث: الصَّوبُ: المطر. وصاب الغيث بمكان كذا وكذا، وصابت السَّماءُ الأرضَ: جادتْها* والرَّعْدُ: الصوت الذى يسمع من السحاب. وأرعَدَ القوم وأبرقوا أصابهم رعدٌ و برقٌ* وفي المثل: (رُبَّ صَلَفٍ تحت الراعِدَة) يضرب للذى يكثر الكلام ولا خير عنده. وسحابة رعادة: كثيرة الرَّعد وقوله تعالى: «**و يُسبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِه وَالْملائكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**»* قال الزجّاج: جاء في التفسير أنّه مَلَكٌ يَزْجُر السَّحابَ* وقال ابن عباس: الرعْدُ مَلَكٌ يُسُوق السَّحاب كما يَسُوق الحادى الإبل بحدائه* وسئل وهب بن منبّه عن الرعد، فقال: الله أعلم* وقيل: الرعد صوت السَّحاب، والبرق ضوءٌ ونورٌ يكونان مع السَّحاب. قالوا: وذكر الملائكة بعد الرعد في قوله عز وجلَّ: «**و يُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِه والملائكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**» يدل على أن الرعد ليس بملك. وقال الذين قالُوا الرعد ملك: ذكر الملائكة بعد الرعد، وهو من الملائكة كما يذكر الجنس بعد النوع* وسُئل عليٌّ رضي الله عنه عن الرعد، فقال: مَلَكٌ. وعن البرق فقال: مخاريقٌ بأيدى الملائكة من حديد* وقال الليث: الرعد ملك اسمه الرعد يسوق السحاب بالتَّسبيح، قال: ومن صوته اشتق فعل رَعَدَ يَرْعُدُ، ومنه الرِّعْدَة والارتعاد* وقال الأخفش: أهل البادية يزعمون أنّ الرعد هو صوتُ السَّحاب، والفقهاء يزعمون أنَّه ملك* قلتُ: وأحيل القارىء الكريم إلى كتابى (سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلٰهية) الجزء الأول البرهان الخامس

والعشرون: [إرسال الصواعق من السَّحاب تبصرة لأولى الألباب (ص ٢٠٩)] إذ ستجد فيه ما يشرح صدرك للإسلام، و يُطمئن نفسك بالإيمان* وفي البرق قال ابن عباس: البرق سُوط من نور يَزْجِرُ به الْمَلَكُ السَّحاب* والبرق الذي يلمع في الغيم، وجمعه بُروق (والبرق) هو ما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان: ولهذا قال تعالى: «**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذانِهِم مِنَ الصواعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ والله مُحيطٌ بالكافِرِينَ**» أي ولا يُجدى عنهم حذر شيئاً لأنَّ الله محيطٌ بهم بقدرته، وهم تحت مشيئته، وإرادته كما قال: «**هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وثمودَ بل الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تكْذِيبٍ وَالله مِنْ ورائِهِمْ مُحيطٌ**» بهم، ثم قال: «**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ**» أي لشدته وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان* قال عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس: «**يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ**» يقول: يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين* وفي رواية عنه: لشدَّة ضوء الحق كلما أضاء لهُم مشوْا فيه، وإذا أظلم عليهم قامُوا، أي كلما ظهر لهم من الايمان شيء استأنَسُوا به واتّبعُوهُ وتارة تُعرض لهم الشكوك، أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين* وعنه أيضاً: «**كُلَّمَا أضاءَ لَهُمْ مَشَوْا فيهِ**» يقول: كُلَّمَا أصَابَ المنافقين من عز الإسلام اطمأنوا إليه، وإذا أصاب الإسلام نكبة قاموا ليرجعوا إلى الكفر كقوله تعالى: «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله عَلى حَرْفٍ فإن أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمأنَّ به**» وروى عن ابن عمر أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع صوتَ الرعد والصواعق. قال: [اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك] أخرجه الترمذي وقال حديث غريب. «**حَذَرَ الْمَوتِ**» أي مخافة الهلاك «**والله مُحيطٌ بالْكافِرِينَ**» أي عالم بحالهم* وقيل يجمعهم و يعذبهم «**يكَادُ الْبَرْقُ**» أي يقربُ، يقال كاد يفعل ولم يفعل «**يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ**» أي يختلسها، والخطف استلاب الشيء بسرعة. «**كُلَّمَا**» أي متى جاء «**أضاءَ لَهُمْ**» يعني البرق «**مَشَوْا فِيهِ**» أي في إضاءته ونُوره «**وإذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا**» أي وقفوا متحيرينَ* قال الخازن: وهذا مثل آخر ضربه الله تعالى للمنافقين، ووجه التمثيل أنَّ الله عز وجلَّ شبههم في كفرهم ونفاقهم بقوم كانوا في مفازة في ليلة مظلمة أصابهم مطر فيه ظلمات، وهي ظلمة الليل وظلمة المطر، وظلمة السحاب، من صفة تلك الظلمات، أنَّ السارى لا يمكنه المشي فيها، ورعدٌ من صفته أن يضم سامعوه أصابعهم إلى آذانهم من

هوله. و برق من صفته أن يخطف أبصارهم، و يعميها من شدته، فهذا مثل ضر به الله تعالى للقرآن، وصنيع الكافرين والمنافقين مَعَهُ، فالمطر هو القرآن لأنه حياة القلوب، كما أنَّ المطر حياة الأ رض، والظلمات ما في القرآن من ذكر الكفر والشرك والنفاق، والرعد ما خوّفوا به من الوعيد، وذكر النّار والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنّة. فالكافرون والمنافقون يسُدُّون آذانهم عند قراءة القرآن وسماعه مخافة أن تميل قلوبهم إليه. لأن الإيمان به عندهم كفرٌ والكفر موت.

وقيل : **هذا مثلٌ ضر به الله تعالى للإسلام، فالمطر هو الإسلام، والظلمات ما فيه من** البلاء والمحن، والرعد ما فيه من ذكر الوعيد والمخاوف في الآخرة، والبرق ما فيه من الوعد. يجعلون أصابعهم في آذانِهم. يعنى المنافقين إذا رأوْا في الإسلام بلاءً وشدّةً هربُوا حذاراً من الهلاك «**والله مُحيطٌ بالكافرين**» يعنى لا ينفعهم الهرب لأنَّ الله من ورائهم يجمعُهم و يعذّبهم «**يكاد البرق**» يعنى دلائل الإسلام تزعجهم إلى النظر لولا ما سبق لهم من الشقاوة، كلّمَا أضاء لَهُمْ يعنى المنافقين، وإضاءته لهم هو تركهم بلا ابتلاء ولا امتحان مشوا فيه، يعنى على المسالمة بإظهار كلمة الإيمان» وقيل: كلما نالُوا غنيمة وراحةً في الإسلام ثبتُوا، وقالُوا إنا معكم، وإذا أظلم عليهم قامُوا يعنى إذا رأوْا شدّةً و بلاءً تأخروا «**وَلَوْ شَاءَ الله لذهب بسَمْعِهِم**» أي بصوت الرعد «**وأبْصَارهِم**» بوميض البرق، وقيل: لذهب بأسماعهم وأبصارهم الظاهرة كما أذهب أسماعهم وأبصارهم الباطنة» «**إن الله عَلى كل شَيءٍ قَدِيرٌ**» أي هو الفاعل لما يشاء لا منازع لَهُ فيه. (الخازن جـ١ ص ٣١) وقوله تعالى: «**يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم**» أي أناملها فهو من أنواع المجاز اللغوى، وهو إطلاق الكل على الجزء، ونكتته التَّعبير عنها بالأصابع، الإشارة إلى إدخالها على غير المعتاد مبالغة في الفرار من شدّة الصوت، فكأنهم جعلُوا الأصابع جميعها، والظاهر أن التَمْثيلين من جملة التمْثيلات المؤلفة وهو أن تشبّه كيفيّةً منتزعةً من مجموعٍ تضامَنَتْ أجزاؤه وتلاصقت حتّى صارتْ شيْئاً واحداً بأخرى مثلها، فالغرض تمثيل حال المنافقين في ضلالتهم وما خبّطوا فيه من الحيرة والدهشة، شُبِّهت حيرتهم، وشدّة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت نارُهُ بعد إبقاءها في ظلمة الليل، وكذلك من أخذته السّماء في الليلة المظلمة مع رعد و برق وخوف من الصواعق.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«يا أيها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذى خَلَقَكُمْ والَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّـذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً والسَّماءَ بِنَاءً وأَنْزَلَ من السَّماءِ مَاءً فأخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمراتِ رزقاً لَكُمْ فَلاَ تجْعَلُوا لله أنْدَاداً وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» سورة البقرة (آية: ٢١، ٢٢) إلى قوله: «**وبَشر الذين آمنوا..**» العبادة: الطاعة(١). أو قل: خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود. أوْ وَحِّدُوا ربّكم الذي خلقكم ولم تكونوا شيئاً* والربُّ: هو الذي يسُوسُ من يُربّيهِ و يُدبّر شئونه* والنّد: الشريك والكفء، يقال فلان ندُّ فلان إذا كان مماثلاً له في بعض الشئون. وسيأتيك المزيد من الإيضاح فيما بعد إن شاء الله تعالى* قال الواحدي في أسباب نزوله(ص ١٣) أخبرنا سعيد بن محمد الزاهد، قال أخبرنا أبوعلى بن أحمد الفقيه، قال أخبرنا أبوذر القهستانى، قال حدثنا عبدالرحمن بن بشر قال: حدَّثنا روح قال حدَّثنا شعبة عن سفيان الثورى عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة قال: كل شيء نزل فيه «**يا أيُّها النَّاسُ**» فهو مكيٌّ، و«**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا**» فهو مدنيٌّ* يعنى أن يا أيها الناس خطاب لأهل مكة، و يا أيها الذين آمنوا خطاب لأهل المدينة حيثما ورد الخطابان. وقوله: «**يا أيُّها النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ..**» خطاب لمشركي مكة إلى قوله: «**وبشِّر الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**» وهذه الآية نزلت في المؤمنين، وذلك أن الله تعالى لمَّا ذكر جزاء الكافرين بقوله: «**فاتَّقُوا النَّار الّتى وقُودُهَا النَّاسُ والْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ للكافِرِينَ**» ذكر خبر المؤمنين «**وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحات..**»* قال القرطبيُّ: وهذا يردُّهُ. أي ما ذكر من الخطابين أن هذه السورة والنساء والحجرات مدنيّتان باتفاق، وفيهما «**يا أيها النَّاسُ**» وأمّا قوله: أي مجاهد وعلقمة في «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا**» فصحيح* وقال عروة بن الزبير: ما كانَ من حدٍّ، أو فريضةٍ فإنّه نزل في المدينة، وما كان من ذكر الأمم والعذاب فإنه نزل بمكة* قلتُ: ولعل هذا التعريف أوضح من (يا أيها الناس — و— يا أيها الَّذِينَ آمنوا) لأنه ليس كل آية فيها كذلك* ونقل القرطبي في تفسيره عن ابن عباس: «**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ**» وحدوا ربكم. أي أفردوا

---

(١) أصل العبادة الخضوع والتذلّل والطاعة. والتعبُّد التَّنَسُّكُ. والمقصود بها توحيد الله تعالى. والتزام شرائع دينه، والعمل بها أو الخضوع لله تعالى بالطاعة، والتَّذَلُّلِ له بالاستكانة. (المؤلف).

الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه. ونقل عنه أيضاً «**يا أَيُّها النَّاسُ أعبُدُوا رَبَّكُمْ**» للفريقين جميعاً من الكفار والمنافقين، أي وحدُوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم* وفي معنى «**اعْبُدُوا رَبَّكُمْ**» قال الخطيب الشربيني في تفسيره: تحريكاً للسَّامع، وتنشيطاً له، واهتماماً بأمر العبادة، وتفخيماً لشأنها، وجبراً لمشقَّة العبادة بلذة المخاطبة* والصحيح أن لفظ الخطاب* بصيغة (النّاس) يعم جميع الموجودين وقت النزول لفظاً، ومن سيوجد بعدهم إلى يوم القيامة، تنزيلاً للمعدوم منزلة الموجود.

قال الخطيب: وذلك لما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام أنَّ مقتضى خطابه وأحكامه شامل للقبيلين، ثابت إلى قيام السَّاعة إلا ما خصّه الدليل* وفي الخازن (جـ ١ ص ٣١) «**يا أيها النّاسُ اعْبُدُوا ربّكم**» قال ابن عباس: (يا أيها الناس) خطاب لأهل مكة و(يا أيها الذين آمنوا) خطاب لأهل المدينة. قال الخازن: وهو هنا خطاب عام لسائر المكلفين. (اعبدوا ربكم) قال ابن عباس: وحدوا ربكم... وكل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناه التوحيد، وأصل العبودية التذلل، والعبادة غاية التذلل ولا يستحقها إلاّ من له غاية الافضال والإنعام، وهو الله تعالى: «**الَّذِى خَلَقَكُمْ**» أي ابتدع خلقكم على غير مثال سبق. «**والَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ**» أي وخلق الذين من قبلكم. «**لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**» لعلَّ وعسى حرفا ترجٍّ، وهما أي كل منها من الله واجب «**تَتَّقُونَ**» أي لكي تنجوا من العذاب، وقيل: معناه تكونُوا على رجاء التقوى بأن تصيروا في ستر ووقاية من عذاب الله، وحكم الله من ورائكم يفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد «**الَّذِى جَعَلَ لَكُم الأرض فِراشاً**» أي خلق لكم الأرض بساطاً ووطاءً مذللةً، ولم يجعلها حزنةً لا يمكن القرارعليها، والحزن ما غلظ من الأرض «**والسَّماء بِنَاءً**» أي سقفاً مُرْفوعاً، والمتفكر في العالم يجده كالبَيْتِ المعمور فيه كل ما يحتاج إليه، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض مفروشة كالبساط، والنجوم كالمصابيح، والإنسان كمالك البيت وفيه ضروب النبات المهيأة لمنافعه، وأصناف الحيوان مصروفة في مصالحه، فيجب على الإنسان المسخر له هذه الأشياء شكر الله تعالى عليها «**وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ**» يعنى السحاب «**مَاءً**» يعنى المطر «**فأَخْرَجَ بِهِ**» أي بذلك الماء «**مِنَ الثَّمراتِ**» يعنى من ألوان الثمرات، وأصناف النبات «**رِزْقاً لَكُمْ**» أي وعلفاً لدوابكم «**فَلاَ تَجْعَلُوا لله أنْداداً**» يعنى أمثالاً تعبدونهم كعبادته، والنّد المثل «**وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**» أي بعقولكم أن هذه

الأشياء والأمثال لا يصح جعلها أنداداً لله. وأنه واحدٌ خالق لجميع الأشياء. وأنَّهُ لا مثل له ولا ضدّ له...

واعلم أنَّ النداء في اللغة على سبع مراتب:

الأول : نداء مدح كقوله تعالى: «يا أيُّها النبى» «يا أيها الرسول».

الثاني : نداء ذمّ كقوله تعالى: «يا أيها الذين هادُوا» «يا أيها الذين كفروا».

الثالث : نداء تنبيه كقوله تعالى: «يا أيها الإنسان» «يا أيها الناس».

الرابع : نداء إضافة كقوله تعالى: «ياعبادى».

الخامس: نداء نسبة كقوله تعالى: «يا بنى آدم» «يا بنى إسرائيل».

السادس: نداء تسمية كقوله تعالى: «يا داود» «يا إبراهيم».

السابع : نداء تضْييف كقوله تعالى: «يا أهل الكتاب».

و يا حرف وُضع في أصله لنداء البعيد، صوتٌ يهتف به الرجل بمن يناديه. والنداء في الأصل طلب الإقبال، والمراد به هنا التنبيه، وأي مبنيٌّ على الضمّ في محل نصب، والهاء للتنبيه، والناس نعت لأى على اللفظ، وحركته اعرابية، وحركة أي بنائية* وفي قوله تعالى: «**فلاَ تجْعَلُوا لله أنْداداً وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ**» جاء في الصحيحين عن ابن مسعود قال: [قُلتُ يارسول الله: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل له نداً وهو خلقك] الحديث* وروى يزيد بن الأصم عن ابن عباس قال: [قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلَّم: ما شاء الله وما شئت، فقال: أجعلتني لله نداً؟ قُلْ ما شاء الله وحده] رواه بن مردو يه. وأخرجه النسائي وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح به* وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد والعقيدة من الشرك الأكبر والعياذ بالله، أي لا تشركوا بالله غيره من الأنداد التي لا تنفع ولا تضرُّ وأنتم تعلمون أنه لا ربَّ لكم يرزقكم غيره، وقد علمتُم أن الذى يدعوكم إليه الرسول صلى الله عليه وسلَّم من التوحيد هو الحق الذي لا شكَّ فيه، هكذا قاله قتادة وابن عباس رضي الله عنهم* وروى عكرمة عن ابن عباس: «**فَلاَ تَجْعَلُوا لله أنْدَاداً**» قال الأنداد: هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، وهو أن يقول والله وحياتك يافلان وحياتي، و يقول لولا كَلْبَتهُ هذا لأتانا اللصوص البارحة، ولولا البط في الدّار لأتى اللصوص، وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل لولا الله وفلان لا تجعل فيها فلان. هذا كله به

شرك* وفي الحديث: [نِعمَ القومُ أنتمُ لولا أنكم تُندِّدون. تقولون ما شاء الله وشاء فلان]* وقال أبو العيالة: فلا تجعلوا لله أنداداً أي عدلاء. شركاء، وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبومالك وإسماعيل بن أبي خالد* وقال مجاهد: (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون) قال تعلمون أنَّه إلـٰهٌ واحدٌ في التوارة والإنجيل كذا في ابن كثير في التفسير (جـ ١ ص ٥٧)* وقال أبوجعفر في تفسيره (جـ ١ ص ١٢٦) والأنداد جمع ند. والند العدل والمِثْل، كما قال حسان بن ثابت:

اتَهْجُوهُ ولستَ له بندٍ فَشَرُّكما لخيركما الفداء

يعني بقوله: ولست له بندٍّ. لست له بمثل. ولا عدل، وكل شيء كان نظيراً لشيء وشبيهاً فهو له ندٌّ* قال تعالى: «**ليس كمثلِهِ شيءٌ**»* وعن ابن مسعود: (فلا تجعلوا لله أنداداً) قال: أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله* وقال ابن زيد: الأنداد: الآلهة التى جعلوها معه، وجعلوا لها مِثْلَ ما جعَلُوا له* وعن عكرمة (فلا تجعلوا لله أنداداً) أي تقولوا لولاَ كلبنا لدخل علينا اللصُّ الدَّار، لولا كلبنا صاح في الدار، ونحو ذلك، فنهاهم الله تعالى أن يشركوا به شيئاً، وأن يعبدوا غيره، أو يتّخذوا له نداً وعدلاً في الطاعة، فقال: كما لا شريك لى في خلقكم وفي رزقكم الذي أرزقكم، وملكى إيَّاكم، ونعمتى التي أنعمتها عليكم فكذلك، فأفردوا إلىّ الطاعة وأخلصوا لى العبادة، ولا تجعلوا لى شريكاً ونداً من خلق، فإنكم تعملون أنَّ كل نعمة عليكم منّى* وقوله تعالى: «**وَإِنْ كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ التى وقُودُها النَّاسُ والحِجَارةُ أُعِدَّتْ للكافرين**» (آية ٢٣، ٢٤)* قال القتيبي: الريبة والريب الشك. وقوله تعالى: (لا ريب فيه) لا شك فيه. والسورة: قطعة من القرآن الكريم لها أوّلٌ وآخر. أقلها ثلاث آيات كما في الكوثر، والآية طائفة من السورة، متميّزة بفصل، يسمى الفاصلة، والسورة إن جَعَلْتَ واوها أصلية منقولة من سور المدينة، لأنها محيطة بطائفة من القرآن معزرة محوزة على حيالها، أو محتوية على أنواع من العلم، أو من السورة التى هي الرتبة. لأنّ السور كالمنازل والمراتب يرتقى فيها القارىء. أُولاها: مراتب الطول والقصر والفضل والشرف، وثواب القراءة... وإن جعلت الواو مبدلة من الهمزة: فمن السؤرة التي هي البقية، والقطعة من الشيء، والحكمة في تقطيع القرآن سوراً لإفراد الأنواع، وتلاحق

الأشكال، وتناسب النظم، وتنشيط القارىء، وتسهيل الحفظ والترّغيب فيه، فإنه إذا ختَمَ سورة نفَّسَ ذلك عنه بعض كربة، كالمسافر إذا علم أنَّه قطع ميلاً، أو طوى بريداً، والحافظ متى حفظها اعتقد أنه أخذ من القرآن حظاً تاماً، وفاز بطائفة محدودة مستقلة، فَعَظُمَ ذلك عنده، وابتهج به إلى غير ذلك من الفوائد، أي وإن كنتم في شك، لأن الله تعالى عليمٌ أنهم شاكون **«مما نزلنا على عبدنا»** أي محمد صلى الله عليه وسلَّم لما تقرّر إثبات الربوبية لله سبحانه وتعالى. وأنَّه الواحد الخالق، وأنه لا ضد له ولا ند، أتْبَعه بإقامة الحجة على إثبات نبوَّة نبينا محمد صلى الله عليه وسلَّم، وما يدحض الشبهة في كون القرآن معجزة، وأنَّه من عند الله تعالى لا من عند نفسه، كما تدّعون فيه، وقوله: **«على عبدنا»** إضافة تشريف لمحمد صلى الله عليه وسلَّم، وأن القرآن مُنَّزل عليه من عند الله سبحانه وتعالى. **«فأتوا»** أمر تعجيز **«بسورةٍ من مِثْلِهِ»** أي من مثل نظم القرآن. ومن حيث الفصاحة والبلاغة، والايجاز والإطالة والأحكام التشريعية والأخبار المغيبة، وهذا مما يدل على كون القرآن معجز، فتارة يأتى القصَّة باللفظ الطّويل، ثم يعيدها باللفظ الوجيز، ولا يخلُّ بالمقصود الأوّل، وأنه فارقت أساليبه أساليب الكلام، وأوزانه أوزان الأشعار، والخطب والرسائل، ولهذا تحدَّى العرب به فعجزوا عنه، وتحيَّروا فيه، واعترفوا بفضله، وهم معدن البلاغة، وفرسان الفصاحة، ولهم النَّظم من النثر ومن الأشعار، والخطب والرسائل، حتى قال الوليد بن المغيرة في وصف القرآن: والله إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوةً، وإنَّ أصله لمغدق وأنَّ أعلاه لمثمر* فإن قلتَ: وما مثله حتى يأتوا بسورة من ذلك المِثْل؟ معناه فأتوا بسورة مما هو على صفته في البيان الغريب، وعلوِّ الطبقة في حسن النظم، أو فأتوا ممن هو على حاله من كونه بشراً عربياًو أو أُمِّياً لم يقرأ الكتب، ولم يأخذ من العلماء، ولا قصدَ إلى مثلٍ ونظير هنالك. **«وادعوا شهداءكم من دون الله»** أي استعينوا بآلهتكم التي تعبدونها من دون الله، والمعنى أن الأمر كما تقولون أنها تستحقُّ العبادة. فاجعلوا الاستعانة بها في دفع ما نزل بكم من أمر محمد صلى الله عليه وسلَّم، وإلا فاعلمُوا أنكم مبطلون في دعواكم أنها آلهة* وقيل معناه وادعوا أناساً يشهدون لكم **«إن كنتم صادقين»** أن محمداً صلى الله عليه وسلَّم يقُولُه من تلقاء نفسه* **«فإن لم تفعلوا»** أي فيما مضى **«ولن تفعلوا»** فيما بقي، وهذه الآية دالة على عجزهم، وأنَّهم لم يأتوا بمثله ولا بمثل شيء منه أبداً، وذلك أنّ النفوس الأ بيّة إذا قُرعت بمثل هذا التقريع استفرغت

الوسع في الإتيان بمثل القرآن، أو بمثل سورة منه، ولو قدروا على ذلك لأ توا به، فحيث لم يأتُوا بشيء ظهرت المعجزة للنبيِّ صلى الله عليه وسلَّم، و بان عجزهم، وهم أهل الفصاحة والبلاغة، والقرآن من جنس كلامهم، وكانُوا حُرّاصاً على إطفاء نوره، وإبطال أمره، ثم مع هذا الحرص الشديد لم تُوجد المعارضة من أحدهم، ورضوا بسبي الذراري وأخذ الأموال والقتل، وإذا ظهر عجزهم عن المعارضة صحَّ صدق رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، وإذا كان الأمر كذلك، وجب ترك العناد وهو قوله تعالى: «**فاتقوا النار**» أي فآمنوا واتقوا بالإيمان النار «**التي وقودها**» أي حطبها «**الناس والحجارة**»* قال ابن عباس: يعني حجارة الكبريت، لأنها أكثر التهاباً* وقيل جميع الحجارة، وقيل الأصنام لقوله تعالى: «**إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ**» أي حطبها، ولذا قرن الناس مع الحجارة لأنهم كانوا يعبدونها معتقدين فيها النفع والضرّ والشفاعة لهم، فجعلها الله عذابهم في نار جهنّم التي «**أُعِدَّتْ**» أي هُيِّئَتْ «**للكافرين**» خالدين فيها، أبداً و بئس المصير. وفي البيضاوي: «**وادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ**» الشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر، أو القائم بالشهادة أو الناصر، أو الإمام، وكأنه سُمِّي به لأنَّه يحضر المجالس، وتُبرم بمحضره الأمور. ومعنى «**دون**» أدنى مكان من الشيء، ومنه تدو ين الكتب لأنَّه أدناه البعض من البعض، ودونك هذا أي خذه من أدنى مكان منك، ثم استعير للتفاوت في الرتب، فقيل زيد دون عمرو أي في الشرف، ومنه الشيء الدون، ثم اتّسع فيه فاستعمل في كُلِّ تجاوز حدٍّ إلى حدٍّ، وتخطى أمر إلى أمر. قال الله تعالى: «**لا يَتَّخِذِ المؤْمِنُونَ الكافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنينَ**» أي لا يتجاوزوا ولاية المؤمنين إلى ولاية الكافرين، «**ومن**» متعلقة بادعو، والمعنى: وادعوا إلى المعارضة من حضركم، أو رجوتم معونته من إنسكم وجنّكم وآلهتكم غير الله، فإنه لا يقدر على أنْ يأتي بمثله إلاّ الله* «**إن كنتم صادقين**» شرط حُذفَ جوابه. وقدره الجلال: في أنَّ محمداً قاله من عند نفسه فافعلوا ذلك، فإنكم عر بيون فصحاء مثله، وكذلك نصَّ غيره كالسمين والبيضاوى على أنه شرط حذف جوابه، لكن يعكر عليه القاعدة المشهورة من أنه إذا اجتمع شرطان، وتوسَّط الجزاء بينهما يكون الأ ول قيد في الثاني، و يكون الجواب المذكور جواباً عنه* ويمكن تصو يب ما ذكروه من أن معنى الجوابين مُتّحدٌ لأن فأتوا بسورة أو فافعلوا إن كنتم صادقين، كالجواب الواحد* وقوله: «**فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا**» إنْ الشرطية داخلة على

جملة لم تفعلوا. وتفعلوا مجزور بلم فتكون في محلّ جزم بها، وقوله: «**فاتقوا**» جواب الشرط، و يكون قوله: «**ولن تفعلوا**» جملة معترضة بين الشرط وجزائه، ومعنى الاعتراض في الغالب التوكيد ويجيء لغيره، بحسب المقام، وعبر (بِلَنْ) دون لا لأنها أبلغ منها في نفي المستقبل واستمراره. «**فاتقوا النار**» جواب الشرط على أن اتقاء النار كناية عن الاحتراز من الفساد، إذ بذلك يتحقق تسببه عنه، وترتب عليه، كأنه قيل فإذا عجزتُم عن الإتيان بمثله كما هو المقرّر، فاحترزوا من إنكار كونه منزلاً من عند الله سبحانه، فإنه مستوجب للعقاب بالنار* (والوقود) بفتح الواو أي ما توقد به، وأمَّا بضمها فهو المصدر، هذه التفرقة على المشهور في أن المفتوح اسم للآلة، والمضموم مصدر، و بعضهم قال: كل من الفتح والضمِّ يجرى في الآلة والمصدر، فما توقد به النار يقال له وُقُود بالفتح والضمّ، وإيقادها كذلك، وكذا يقال في الوضوء والسحور والطهور، ونحو ذلك* وقوله: «**أُعدتْ للكافرين**» أُعدتْ: يقال أعد له كذا هيَّأهُ له فدل على أنها مخلوقة إذ الأخبار عن اعدادها للكافرين، والاخبار عن ذلك بلفظ الماضى دليل على وجودها، ودل على ذلك قوله تعالى في حق آل فرعون: «**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوًّا وعَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ ادْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أشدَّ العذابِ**» فما زعمته المعتزلة من أنها تُخلَقُ يوم الجزاء افتراء وهُزاء، وما أوهى حجتُهم إذ قالوا: إن خلقها قبله عبث لا فائة فيه، فلا يليق بالحكيم* وهو مردود بالضرورة لما تقرر عند أهل السنَّة والجماعة من بطلان القول بتعليل أفعاله تعالى بالفوائد لا يسئل عما يفعل سبحانه. وتأو يلهم بأنه يعبر عن المستقبل بالماضى لتحقق الوقوع، ومثله كثير في القرآن. وهو مدفوع بأنه خلاف الظاهر، ولا يصار إليه إلا بقرينة، وهي غير موجودة، ومخالف للدّلائل القاطعة من القرآن والسنَّة كقوله تعالى: «**وسَارِعُوا إلى مَغْفِرةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰواتُ والأَرْضُ أُعِدَّت للمُتَّقِين**» وقوله عليه الصلاة والسلام في أرواح الشهداء: [بأنها في حواصل طير خُضْرٍ تسرح في الجنَّة» وفي قوله تعالى: «**فَأْتُوا بسُورةٍ مِنْ مِثْلِه**» يعنى مثل القرآن، قاله مجاهد وقتادة، واختاره ابن جرير والطبرى والزمخشرى والرازى ونقله عن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن البصرى، وأكثر المحققين، ورجح ذلك بوجوه من أحسنها أنَّه تحدّاهم كلهم متفرقين ومجتمعين، سواء في ذلك أميُّهم وكتابيهم، وذلك أكمل في التّحدِّى، وأشمل من أن يتحدّى آحادهم الأميين ممن لا يكتب، ولا يُعانى شيئاً من العلوم. و بدليل قوله تعالى:

«**فأتوا بعشر سُوَرٍ مِثْلِه**» وقوله تعالى: «**قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والْجِنُّ على أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقرآنِ لا يأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بعضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهيراً**»* وقال بعضهم: من مثل محمد صلى الله عليه وسلَّم. يعنى من رجل أمى مثله، والصحيح الأ ول لأن التحدى عام لهم كلهم مع أنَّهم أفصح الأمم، وقد تحدّاهم بهذا في مكة، والمدينة مرّات عديدة مع شدة عداوتهم له. و بغضهم لدينه، ومع هذا عجزُوا عن ذلك ولهذا قال تعالى: «**فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا**» لن لنفى التأبيد في المستقبل، أي ولن تفعلوا ذلك أبداً، وهذه أيضاً معجزة أخرى، وهو أنه أخبر خبراً جازماً قاطعاً مقدّماً غير خائف. ولا مُشْفقٍ أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين، ودهر الداهرين، وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه إلى زماننا هذا، ولا يمكن وأنى يتأتى ذلك لأحد! والقرآن كلام الله خالق كُلّ شيء، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين، ومن تدبَّر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنوناً ظاهرةً وخَفيَّة من حيْث اللفظ، ومن جهة المعنى قال الله تعالى: «**ألر* كِتَابٌ أُحْكِمتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**» (ابن كثير جـ ١ ص ٦٠)* وفي الطبرى (جـ ١ ص ١٢٨)عن قتادة: «**فأتوا بسورة من مثله**» يعنى من مثل هذا القرآن حقاً وصدقاً لا باطل فيه ولا كذب* وكذا عن مجاهد قال أبوجعفر: وما قاله مجاهد وقتادة هو التأو يل الصحيح لأن الله جل ثناؤه قال في سورة أخرى: «**أمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورةٍ مِثْلِه**» ومعلوم أن السورة ليست لمحمد بنظير ولا شبيه* فلا يجوز أن يقال فأتوا بسورة من مثل محمد* وفي قوله: «**وادعوا شهداؤكم من دون الله**» قال ابن عباس: يعنى أعوانكم على ما أنتم عليه إن كنتُم صادقين* وعن مجاهد «**وادعوا شهداءَكُمْ**» ناس يشهدون، وفي رواية قال: قومٌ يشهدون لكم* وفي قوله تعالى: «**فاتقوا النار التي وقودها الناسُ والحجارة**» فعن عبدالله ابن عمر قال: هي حجارة من كبيرت خلقها الله يوم خَلَقَ السموات والأ رض في السماء الدنيا يُعدّها للكافرين* ولعله يقصد بذلك حجارة تشبه الشهب، والله أعلم* وعن ابن مسعود قال: حجارة الكبريت جعلها الله كما شاء* وعنه وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلَّم (اتَّقوا النار التى وقودها الناسُ والحجارة» أمَّا الحجارة فهى حجارة في النار من كبريت أسود يُعذَّبون به مع النار* وكذا عن ابن جريج قال: وقال لى عمرو بن دينار: حجارة أصلب من هذه وأعظم* وعن ابن مسعود قال أيضاً: حجارة من الكبريت خلقها الله

عنده كيف شاء كما شاء. الطبرى (جـ ١ ص ١٣١).

والخلاصـــة :

فإن لم تفعلوا ما أمرتم به من الإتيان بالمثل بعد أن بذلتُم الجهد، ولن تفعلوه فليس في استطاعتكم إذن فاحذروا من العناد، واعترفوا بكونه منزلاً من عند الله لئلا تكونُوا أنتُمْ وأصنامكم وقوداً للنار التي أعدت لأمثالكم من الكافرين.

((القول في تأويل قوله تعالى :))

«إنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحيِي أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحقُّ مِنْ ربِّهِمْ وأمَّا الَّذِينَ كفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إلاّ الفاسقينَ» سورة البقرة آية (٢٦)

ذكر الواحدى في أسباب النزول (ص ١٤):

عن ابن عباس من رواية ابى صالح قال: لمَّا ضرب الله سبحانه وتعالى هذين المثلْين للمنافقين، يعنى قوله: «**مثلهم كمثل الذى استوقد ناراً**» وقوله: «**أو كصيبٍ من السماء**» قالوا: الله أجلُّ وأعلى من أن يضرب الأمثال، فأنزل الله هذه الآية. وقال الحسن وقتادة: لما ذكر الله الذُّباب والعنكبوت في كتابه وضرب للمشركين المثل، ضحكت اليهود، وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله الآية. وعن ابن عباس في قوله: «**إنَّ الله لا يستحى أن يضرب مثلاً**» قال: وذلك أنَّ الله ذكر آلهة المشركين فقال: «**وإنْ يَسْلُبُهُمُ الذُّبابُ شيئاً**» وذكر كيد الآلهة، فجعله كبيت العنكبوت، فقالوا: أرأيْتُم حيثُ ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد، أيُّ شيء يصنع بهذا؟ فأنزل الله الآية. وفي الطبرى (جـ ١ ص ١٣٨) عن الربيع بن أنس في قوله: «**إنَّ اللهَ لا يَسْتَحِى أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا**» قال: هذا مثل ضربه الله للدنيا أنَّ البعوضة تحيا ما جاعت، فإذا سمنت ماتت، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب الله لهم هذا المثل في القرآن إذا امتلؤا من الدنيا يأخُذْهُمْ الله عند ذلك، قال ثم تلا «**فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أبوابَ كُلِّ شيء**» الآية. وفي رواية زاد: فإذا خلَى آجالُهُم، وانقطعت مدتُهم صاروا كالبعوضة تحيا ما جاعت، وتموتُ إذا

رُو يت، فكذلك هؤلاء الذين ضرب الله لهم هذا المثل إذا امتلؤا من الدّنيا يأخُذْهُمُ الله، فأهلكهم، فذلك قولُه: «**حتَّى إذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فإذَا هُمْ مُبْلِسُونَ**» وقد رجّح الطبرى ما ذهب إليه ابن مسعود وابن عبَّاس. وذلك أنَّ الله جلَّ ذكره أخبر عباده أنَّه لا يستحى أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها عقيب أمثال قد تقدَّمت في هذ السورة ضربها للمنافقين دون الأمثال التى ضربها في سائر السور غيرها والأولى أن يقال إنَّه تعالى لا يستحى أن يضرب في الحقّ من الأمثال صغيرها وكبيرها ابتلاءً بذلك عباده، واختباراً منه لهم ليميّزَ به أهل الايمان والتَّصديق به من أهل الضلال، والكفر به، إضلالاً منه به لقوم، وهدايةً منه به لآخرين كما نقل الطبرى عن مجاهد في قوله: «**مَثَلاً مَا بَعُوضَةً**» يعنى الأمثالُ صغيرها وكبيرها يؤمنُ بها المؤمنون، و يعلمون أنها الحق من ربِّهم، ويهديهم الله بها، و يُضلُّ بها الفاسقين، يقولُ يعرفُه المؤمنون، فيؤمنون به، و يعرفه الفاسقون فيكفرون به ونقل عن مجاهد مثله. ونقل عن ابن جريج بنحوه، خصها الله بالذكر في القلّة، فأخبر أنَّه لا يستحى أن يضرب أقلَّ الأمثالِ في الحق، وأحقرها، وأعلاها، إلى غير نهاية في الإرتفاع جواباً منه جل ذكره لمنْ أنكر من منافق خلقه ما ضرب لهم من المثل بموقد النار والصيب من السماء على ما نعتها به من نعمتها ودليل ما ذكر عجز الآية «**فأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الحقُّ مِنْ رَبِّهِمْ * وأمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذا أرادَ الله بِهَذَا مَثَلاً**» وقوله تعالى: «**إنَّ الله لا يَسْتَحي أن يَضرِبَ مَثَلاً...**» الحياء تغير وانكسار يعترى الإنسان من خوف ما يُعاب به و يذمّ عليه وقيل: هو انقباض النفس عن القبائح. هذا أصله في وصف الإنسان، والله تعالى منزه عن ذلك كله، فإذا وُصف الله تعالى به يكون معناه الترك، وذلك لأن لكل فعْلٍ بدايةً، فبداية الحياء هو التغير الذي يلحق الإنسان من خوف أن ينسب إليه ذلك الفعل القبيح، ونهايته ترك ذلك الفعل القبيح، فإذا ورد وصف الحياء في حقّ الله تعالى، فليس المراد منه بدايته وهو التغير والخوف، بل المراد منه ترك الفعل الذي هو نهاية الحياء وغايته، فيكون معنى «**إنَّ الله لا يَسْتَحْيِ أنْ يَضْرِبَ مَثَلاً**» أي لا يترك المثل لقول الكفار واليهود ما قيل و(ما) صِلَة فيكون المعنى أن يضرب مثلاً بعوضة، وقيل: ليس هي بصلة بل هي للإبهام والبعوض: صغار البق، و يطلق بالاشتراك على شيْئيْن أحدهما البقُّ المعروف بمصر، وهو حيوان صغير شديد اللّسْع منتن الرائحة، والآخر النّاموس الذي

يطير، وعبارة القاموس: البقّةُ البعوضة دو يبة حمراء منتنة، والمراد به هنا الناموس كما ذكره المفسرون؛ وعبارة الخازن (جـ ١ ص ٣٦) والبعوض صغار البقّ، وهو من عجيب خلق الله تعالى، فإنه في غاية الصغر، وله خرطوم مجوّف، وهو مع صغره (وهو أضعف الخلق) يغُوص خرطومه في جلد الفيل والجاموس والجمل، فيبلغُ مِنْهُ الغاية، حتّى إن الجمل يموت من قرصة؛ **«ما بَعُوضَة فمَا فَوْقَهَا»** يعني الذباب والعنكبوت، وما هو أعظمُ منها في الجثة؛ وقيل: معناهُ فادونها وأصغر منها. وهذا القول أشبه بالآية لأنَّ الغرض بيان أنَّ الله تعالى لا يمتنع من التمثيل بالشيء الصغير الحقير، وقد ضرب النبيُّ صلى الله عليه وسلّم مثلاً للدنيا بجناح البعوضة، وهو أصغر منها، وقد ضربت العرب المثل بالمحقرات، فقيل هو أحقر من ذرّةٍ، وأجمع من نملة، وأطيش من ذبابة.

«فأمّا الّـذِينَ آمَنُوا» يَعْني بمحمد صلى الله عليه وسلّم والقرآن **«فَيعْلَمُونَ أنَّه»** يعني ضرب المثل **«الْحَقُّ»** يعني الصدق، **«منْ رَبِّهِمْ»** الثابت الذي لا يجوز إنكاره. لأن ضرب المثل من الأمور المستحسنة في العقل وعند العرب؛ **«وأمّا الّذِينَ كفروا فيقُولونَ ماذَا أرَادَ الله بِهذَا مَثَلاً»** أي بهذا المثل **«يُضلُّ بهِ كثيراً»** أي من الكفار، وذلك أنهم يكذبونه فيزدادون به ضلالاً **«وَيَهْدِى بِهِ كثيراً»** يعني المؤمنين، يُصدقونه و يعلمون أنه الحق، **وما يُضِلُّ به إلاّ الْفَاسِقينَ»** يعني الكافرين. وقيل المنافقين: وقيل: اليهود؛ والفسق الخروج عن طاعة الله وطاعة رسوله، والفاسقين مفعول ليضل، وإلاّ استثناء مفرغ، ويجوز عند الفراء أن يكون منصوباً على الإستثناء، والمستثنى منه محذوف. تقدير وما يُضِلُّ به أحداً إلا الفاسقين؛ وقد وصفهم الله بقوله: **«الّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله»** صفة للفاسقين ذكرت للذّم وتقرير للفسق. والنقض فك التركيب، وأصله فك طاقات الحبل، واستعماله في إبطال العهد من حيث أن العهد يستعار لَهُ الحبل لما فيه من ربط أحد المتعاهدين بالآخر، فإنْ أطلق مع لفظ الحبل كان ترشيحاً للمجاز، وإن ذكر مع العهد كان رمزاً إلى شيء هو من روادفه، وهو أن العهد حبل في إثبات الوصلة بين المتعاهدين، والعهد الموثق، ووصفه لما من شأنه أن يُراعى و يتعهد كالوصيّة واليمين، وهذا العهد إما العهد المأخوذ بالعقل وهو الحجج القائمة على عباده الدّالة على توحيده، ووجوب وجوده وصدق رسله، وعليه حُمل قوله تعالى: **«وأشْهَدهم عَلَى أنفُسِهِمْ»** أو المأخوذ من الرُّسل على الأمم إذا بعث إليهم رسولُ مُصدّق بالمعجزات صدقُوهُ واتَّبعُوهُ ولم يكتموا أمره

ولم يخالفوا حكمه، وإليه أشار بقوله تعالى: «**وإذْ أخَذَ الله ميثَاقَ الّـَذِينَ أوْتُوا الْكِتَابَ**» ونظائره* وقيل: عهودُ الله ثلاثة: عهدٌ أخَذَهُ على جميع ذرّية آدم بأن يُقرُّوا بربوبيته* وعهدٌ أخَذَهُ عَلى النبيِّنَ بأن يقيمُوا الدِّينَ ولا يتفرَّقوا فيهِ* وعَهْدٌ أخذَهُ على العلماء بأن يُبيِّنُوا الحقَّ ولا يكتموه (البيضاوى)* «**من بَعْدِ ميثاقِهِ و يقْطَعُونَ مَا أمَرَ الله بِهِ أنْ يُوصَلَ**» وفي البيضاوى: أي من كل قطيعة لا يرضاها الله كقطع الرحم والاعراض عن موالاة المؤمنين، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام، والكتب في التصديق، وترك الجماعات المفروضة، وسائر ما فيه رفض خير، أو تعاطي شرّ، فإنَّه يقطع الوصلة بين الله و بين العبد المقصود بالذات من كل وصل وفصل* والأمْرُ: هو القولُ الطالب للفعل وقيل مع العلو، وقيل: مع الاستعلاء و به سمى الأمر الذي هو أحدُ الأمور تسمية للمفعول به بالمصدر، فإنَّه مما يؤمَر به* «**وَ يُفْسِدُونَ فِي الأرْضِ**» بالمعاصى والتعويق عن الإيمان* «**أولَـئِكَ**» الموصوفون بما ذكر «**هُمُ الْخَاسِرُونَ**» لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم، أي بإهمال العقل عن النظر في المخلوقات المؤدية إلى الإيمان به تعالى* والخاسر من خسر أحد أمور ثلاث (المال، والبدن، والعقل) وهؤلاء من الثالث* وفي الخازن «**من بَعْدِ ميثَاقِهِ**» أي من بعد عقده وتوكيده، وفي معنى هذا العهد. أقوال:

أحدها : أنَّه الذي أخذه عليهم يوم الميثاق وهو قوله تعالى: «**ألستُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى**».

الثاني : المراد به الذي أخذه على أحبار اليهود في التوراة أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلَّم، و يبيِّنوا نعتَهُ وصفته.

الثالث : المراد به الكفار والمنافقون الذين نقضوا عهداً أبرمه الله تعالى، وأحكمه بما أنزل في كتابه من الآيات الدالة على توحيده.

وذكر ابن كثير في التفسير (جـ ١ ص ٦٤) قال السُّدى في تفسيره عن أبى مالك، وعن أبى صالح عن ابن عباس، وعن مُرَّةَ عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة: لمَّا ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعنى قوله تعالى: «**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الّـَذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً**» وقوله: «**أوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ**» الآيات الثلاث. قال المنافقون: الله أعْلَى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال فأنزل الله هذه الآية إلى قوله هم الخاسرون* ونقل السُّدىُّ في تفسيره عن ابن مسعود، وعن ناس من الصحابة «**يضلُّ به كثيراً**» يعنى به المنافقين

«**ويهدي به كثيراً**» يعنى به المؤمنين، فيزيد هؤلاء ضلالةً إلى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموهُ حقاً يقيناً من المثل الذي ضربه الله بما ضربهم، وأنّه لِمَا ضُرب له موافق، فذلك إضلال الله إيّاهم به، ويهدي به يعنى المثل كثيراً من أهل الايمان والتّصديق، فيزيدهم هُدًى إلى هُداهم، وإيماناً إلى إيمانهم لتصديقهم بما قد علموه حقاً يقيناً أنّه موافق لما ضربه الله له مثلاً، وإقرارهم به، وذلك هداية من الله لهم به* «**وَمَا يُضِلُّ به إلا الْفَاسِقينَ**» قال: هم المنافقون وكذا أبوالعالية، والربيع بن أنس* وعن سعد «**يُضلُّ بِهِ كَثِيراً**» يعني الخوارج* وعن مصعب بن سعد قال: سألتُ أبي: فقُلْت قوله تعالى: «**الّذِينَ ينقضُون عَهْدَ الله مِنْ بعْدِ ميثاقِهِ**» إلى آخر الآية، فقال: هم الحروريّة* قال ابن كثير: وهذا الاسناد وإن صح عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فهو تفسير على المعنى. لا أنّ الآية أريد منها التّنصيص على الخوارج الذين خرجُوا على عليٍّ بالنهروان فإن أولئك لم يكونوا حال نزول الآية، وإنما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل لأنهم سُمُّوا خوارج لخروجهم عن طاعة الإمام، والقائم بشرائع الإسلام* وفي قوله تعالى: «**الّذِينَ ينقضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بَعْدِ ميثاقِهِ وَ يَقْطَعُونَ ما أمَرَ الله بِهِ أنْ يُوصَلَ..**» الآية* قال ابن كثير: اختلف أهْلُ التفسير في معنى العهد. الذى وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه، فقال بعضهم: هو وصيّة الله إلى خلقه، وأمره إياهُم بما أمرهم به من طاعته ونهيه إيّاهُمْ عمّا نهاهم عنه من معصيته في كتبه، وعلى لسان رُسُلِه ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به* وقال آخرون: بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق، وعَهْدُه إلى جميعهم في توحيده ما وضع لهم من الأدلَّة الدَّالة على ربُوبيته، وعهده إليهم في أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التي لا يقدر أحدٌ من الناس غيرهم أن يأتى بمثله، الشاهدة لهم على صِدْقهمْ* قالوا: ونقضهم ذلك تركهم الاقرار بما قد تبيَّنَتْ لهم صحته بالأدلة وتكذيبهم الرُّسُل والكتب مع علمهم أنّ ما أتوْا به حق* وقال ابن كثير: وروى عن مقاتل بن حيان أيضاً نحو هذا. وهو حسن* وقال أبوجعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية في قوله تعالى: «**الّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بعد ميثاقه**» إلى قوله: «**أُولئكَ هُمُ الْخَاسِرُون**» قال: هي ستُّ خصال من المنافقين إذا كانت فيهم، الظهرة على النّاس، أظهروا هذه الخصال: إذا حدّثوا كذَبُوا، وإذا وعدُوا أخلفوا، وإذا اؤتمنُوا خانُوا، ونقضُوا عَهْدَ الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمَرَ الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض* وإذا

كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث: إذا حدَّثوا كذبوا، وإذا وعَدوا أخلفوا، وإذا اؤتمنوا خانوا* وفي قوله تعالى: «**ويَقْطَعُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ**» قيل المراد به صلة الأرحام والقرابات كما فسّره قتادة كقوله تعالى: «**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِى الأَرْضِ وتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ**» ورجحه ابن جرير* وفي قوله تعالى: «**أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**» قال مقاتل بن حيان: في الآخرة وهذا كما قال تعالى: «**أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ولَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**»* وقال الضحاك عن ابن عباس: كل شيء نسبه الله إلى غير أهل الإسلام من اسم مثل خاسرٍ، فإنما يعنى به الكفر، وما نسبه إلى أهل الإسلام فإنما يعنى به الذنب.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ»

سورة البقرة (آية : ٤٤) جاء في أسباب النزول للواحدى (ص ١٤) قال ابن عباس في رواية الكلبي عن أبي حاتم: نزلت في يهود المدينة، كان الرجل منهم يقول لصهره ولذوى قرابته، ولمن بينهم رضاع، و بين رضاع من المسلمين. أتيْت على الدين الذي أنت عليه، وما يأمرك به، وهذا الرجل يعنون محمداً صلى الله عليه وسلّم فإنّ أمره حق، فكانوا يأمرون الناس بذلك ولا يفعلون* وفي القرطبي: وعن ابن عباس أيضاً: كان الأحبار يأمرون مقلديهم وأتباعهم باتباع التوراة، وكانوا يخالفونها* وقال فرقة: كانُوا يحضون على الصدقة و يبخلُون* قُلتُ وفى حديث الإسراء: روى حماد بن سلمة عن عليّ بن زيد عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم ليلةَ أُسرىَ بى: [مررتُ على ناسٍ تقرضُ شِفَاهُهُمْ بمقاريض من نار، فقلت ياجبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الخطباء من أهل الدنيا يأمرون الناس بالبر و ينسون أنفسهم، وهُمْ يتلُون الكتاب فلا يعقلون]* رواه الإمام أحمد في مسنده (جـ١ ص ١٢٠) ورواه الرازى في تفسيره (جـ١ ص ٤٩٦)* وفي صحيح مسلم عن أسامة بن زيد قال: [سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلّم يقول: يؤتى بالرّجل يوم القيامة فيُلق في النار فتندلق أقتابُ بطنِهِ، فيدور بها كما يدور الْحِمارُ بالرحى، فيجتمعُ إليه الناسُ، فيقولون يا فلان: مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟! فيقول: بَلَى، كنت آمر بالمعروف ولا آتية، وأنهى عن المنكر وآتيه]* وفي تفسير الطبرى (جـ١ ص ٢٠٤) قال ابن جريج: «**أتأمرون النَّاسَ بالبّرِ**» أهل الكتاب

والمنافقون، كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة، و يدعون العمل بما يأمرون به النَّاسَ، فعيَّرهم الله بذلك، فمَنْ أمر بخير فليكن أشدُّ النّاسِ فيه مُسَارعةً* وقال ابن زيد: هؤلاء اليهود كان إذا جاء الرجل يَسألُهُمْ ما ليس فيه حق ولا رشوة ولا شيء أمروه بالحق. فقال الله لهم: **«أتَأمُـرُونَ النَّاسَ بالبرِّ وتنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وأنْتُم تتْلُونَ الكتابَ أفَلاَ تعْقِلونَ»*** يقول الله تعالى فيما معناه: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبِّر (وهو جماع الخير)، أن تنْسَوْا أنفسكم، فلا تأمرونها بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على من قصَّرَ في أوامر الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفُسِكم؟ فَتنتبهوا من رقدتكم، وتتبصَّروا من عمايتكم، والغرض أنَّ الله تعالى ذمَّهم على هذا الصنيع، ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له فإنَّ الأمر بالمعروف وهو واجب على العَالِمْ، ولكن الواجب والأ ولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلَّف عنهم كما قال شعيب عليه السلام: **«ومَا أُرِيدُ أنْ أُخَالِفَكُمْ إلى مَا أنْهَاكُمْ عنْهُ إنْ أرِيدُ إلاَّ الإصْلاَحَ ما اسْتَطَعْتُ ومَا توفيق إلاَّ بالله عَلَيْهِ تَوكَّلْتُ وإلَيْهِ أُنِيبُ»** فكلٌّ من الأمر بالمعروف وفعله واجبٌ، ولا يَسْقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف* روى أبو القاسم الطبراني في المعجم الكبير عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: [مثلُ العَالِمِ الَّذِى يُعلِّم الناس الخير لا يعمل به كمثل السِّراج يُضيءُ للنَّاس ويحرق نفسه»)* قال ابن كثير: هذا حديث غريب من هذا الوجه* وقد ورد في بعض الآثار (أنَّه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ليس من يعلم كمن لا يعلم)* وروى الضحاك عن ابن عباس: [قال: جاءه رجلٌ فقال يا ابن عباس: إنى أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال: أبلغتَ ذلك؟ قال: أرجو، قال: إن لم تخش أن تفضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل، قال: وما هُنَّ؟ قال: قوله تعالى: **«أتَأمُـرُونَ النَّاسَ بالْبرِّ وتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ»** أحكمتَ هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني؟ قال: قوله تعالى: **«لِمَ تَقُولُونَ ما لا تفْعَلُون * كَبُرَ مقْتاً عِنْدَ الله أنْ تقُولُوا ما لاَ تَفْعَلُونَ»** أحكمتَ هذه؟ قال: لا، قال: فالحرف الثالث؟ قال قول العبد الصالح: شعيب عليه السلام: **«وَمَا أُرِيدُ أنْ أُخَالِفَكُمْ إلى ما أنْهَاكُمْ عنه إنْ أُرِيدُ إلاَّ الإصْلاَحَ»** أحكمت هذه؟ قال: لا، قال:

فـابـدأ بـنفسك] رواه ابن مردو يه في تفسيره* وقال الخطيب الشر بيني في تفسيره: والآية نـاعيـة على مـن يـعـظ غـيـره ولا يـتّعظ بنفسه بسوء صنيعه، وخبث نفْسه، وإنَّ فعله فعل الجاهل بالشَّرع، أو الأحمق الخالى عن العقل، فإن الجامع بين العلم والعقل يأبى عن كونه واعـظاً غير مـتـعـظ نـفـسـه* والمـراد بهـا حـثُّ الواعظ على تزكية النفس والإقبال عليها. بـالـتكـمـيـل لها ليقوِّم نَفْسَه، ثم يُقوِّم غيره، لا منع الفاسق عن الوعظ، فإن الإخلال بأحدِ الأمـريـن المـأمـور بهما لا يـوجـب الإخـلال بالآخر* وقوله تعالى: «بالْبرِّ» هو اسم جامع لجـمـيـع أنواع الخير والطاعات، وتفسيره بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلَّم لأنَّه المراد في هـذا المـقـام، ولأن الإيمـان بنبيِّنَا محمد صلى الله عليه وسلَّم أصلُ كلّ برٍّ* والبر أيضاً سعة الخير مـن الـصلة والطاعة، والفعل منه برَّيبرُّ كعلم يعْلَمُ. والبَرُّ بالفتح الاجلال والتعظيم، ومـنـه ولـدٌ بَـرٌّ بوالديه أي يُعظمهما، والله تعالى بَـرٌّ لسعة خيره على خلقه* وفي البيضاوى: الـبِـرُّ: بـالـكسر الـتَّوسُّع في الخير مأخُوذ من البَرِّ بالفتح وهو الفضاءُ الواسع، والبِرُّ بالكسر ثـلاثة أقسام* برٌّ في عبادة الله* و برٌّ في مراعاة الأقارب* و برٌّ في معاملة الأجانب* وقوله تـعـالى: «وتَـنْـسَوْنَ أنْفُسَكُمْ» أي تتركونها بالنسيان لأن نسيان الشيء يلزمه تركُهُ، فهو مـن اسـتـعـمـال الملزوم في اللازم، أو السبب في المسبَّب، وسرُّ هذا التجوُّز الإشارة إلى أن تـرك مـا ذكـر لا ينبغى أن يصدر عن العاقل إلا نسياناً* قوله: «وَأنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ» الـتوراة حـال والـعـامـل فيهـا تـنـسـون، تبكيت وتقريع كقوله: «وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ» وكذا الإسـتـفـهـام في قـولـه: «أتَـأْمُـرُونَ النَّاسَ بالْبِرِّ» فهو للتقرير مع التقريع والتّعجب من حالهم.

وفي الخـازن (جـ ١ ص ٤٦) **في سـبـب الـنـزول:** وقـيـل إن جمـاعـة مـن اليهود قالُوا لمـشـركـى الـعـرب: إنَّ رسُولاً سـيـظـهر منكم، و يدعوكم إلى الحقّ، وكانُوا يُرغبونهم في اتـبـاعـه، فـلـمَّـا بـعـث الله محـمـداً صلى الله عليه وسلَّم حَسَدُوهُ وكفروا به، فبكّتهم الله، وو بـخـهـم بـذلـك حـيـث إنهـم كـانُـوا يأمرون الناس باتباعه قبل ظهوره فلما ظهر تركوهُ وأعـرضـوا عـنـه، فـنزلت الآية* وقوله تعالى: «أفَلاَ تَعْقِلُونَ» ما ذكر في التوراة من نعت محـمـد صلى الله عـليه وسلَّم فتتبعُونَهُ؟* والعقل قُوة تُهيء قبول العلم، و يقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل، ومنه قول عليٍّ بن أبى طالب رضي الله عنه:

وإنَّ الْـعـقـلَ عـقـلان فـمـطـبـوعٌ ومَـسـمـوعٌ

ولا ينفعُ مَطبوعٌ إذا لم يكُ مسموعٌ
كما لا تنفَعُ الشَّمس وضوءُ الْعَينِ ممنوعٌ

وأصل العقل الإمساك لأنه مأخوذ من عقال الدابة، كعقل البعير بالعقال ليمنعه من الشُّرُودِ، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود، والأفعال القبيحة، قيل: من وعظ بقوله أي بدون فعله ضاع كلامه، ومن وعظ بفعله نفذت سهامُه، وقال بعضهم:

ابدأ بنفسِكَ فانهها عن غيِّها فإذا انتهت عنهُ فأنت حكيمُ
فهناكَ يُسمعُ ما تقول ويُقتدى بالقول منكَ ويُنفَعُ التَّعْلِيمُ

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«واسْتَعِينُوا بَالصَّبْرِ والصَّلاَةِ وَإنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وأَنَّهُمْ إلَيْهِ رَاجِعُونَ» سورة البقرة (آية: ٤٥، ٤٦)

قال الواحدي في أسباب النزول (ص ١٤): عند أكثر أهل العلم أنَّ هذا الخطاب لأهل الكتاب، وهو مع ذلك أدبٌ لجميع العباد. وقال بعضهم: هو خطاب للمسلمين قال: والأول أظْهَرُ* ومعنى الآية على ما ذكر: واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس انفسكم على طاعة الله وكفها عن معاصي الله، و باقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر، المقربة من مرضاة الله العظيمة إقامتها* والأولى أن يقال إن الخطاب للمسلمين لا الكافرين لأنَّ من ينكر الصلاة والصبر على دين محمدٍ صلى الله عليه وسلَّم لا يُقالُ له: اسْتَعِنْ بالصبر والصلاة، فوجب صرفه إلى من صدَّق محمداً صلى الله عليه وسلَّم وآمن به* قال الخازن في تفسيره (جـ١ ص٤٧) وقيل يحتمل أن يكون الخطاب لبني إسرائيل لأنَّ صرف الخطاب إلى غيرهم يوجب تفكيك نظم القرآن، ولأنَّ اليهود لم ينكروا أصْل الصلاة والصبر لكن صلاتهم غير صلاة المؤمنين، فعلى هذا القول: إنَّ الله تعالى لمَّا أمرهم بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلَّم والتزام شريعته، وترك الرياسة، وحب الجاه والمال قال لهم: استعينوا بالصبر: أي بحبس النفس عن اللذات، وإن صمَّمْتُم إلى إقام الصلاة هان عليكم ترك ما أنتُم فيه من حبّ الرياسة والجاه والمال* وعلى القول الأول يكون معنى الآية: واستعينوا على حوائجكم إلى الله، وقيل: على ما يشغلكم من أنواع البلاء، وقيل: على طلب الآخرة بالصبر، وهو حبس النفس عن اللذات وترك المعاصي، وقيل: بالصبر على أداء الفرائض، وقيل: الصبر هو الصوم، لأن

فيه حبس النفس عن المفطرات وعن سائر اللذات، وفيه انكسار النفس بالصلاة، أي إجمعوا بين الصبر والصلاة، وقيل: معناه واستعينوا بالصبر على الصلاة وعلى ما يجب فيها من تصحيح النيّة، وإحضار القلب، ومراعاة الأركان والآداب مع الخشوع والخشية، فإنَّ من اشتغل بالصلاة ترك ما سِوَاها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلَّم إذا حزَّبه أمرٌ فزع إلى الصلاة. أي إذا أهمَّه أمرٌ لجأ إلى الصلاة* وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه نُعي له أخوه قُثم وهو في سفر، فاسترجع، ثم تنحَّى عن الطريق فصلى ركعتين أطال فيهما السجود، ثم قام إلى راحلته، وهو يقول: استعينوا بالصبر والصَّلاة* وهذا يدل على أن الخطاب للمسلمين لا إلى اليهود كما ذهب إليه الواحدى، والصبر الحقيقيُّ إنما يكون بتذكر وعد الله بحسن الجزاء لمن صبر عن الشهوات المحرمة التي تميل إليها النفس، وعمل أنواع الطاعات التي تشق عليها، والتفكر في أن المصاب بقضاء الله وقدره، فيجب الخضوع له والتسليم لأمره، والاستعانة بالصبر تكون باتباع الأوامر واجتناب النواهي بقمع النفس عن شهواتها، وحرمانها لذاتها، وتكون بالصلاة لما فيها من النهى عن الفحشاء والمنكر، ولما فيها من مراقبة الله في السّر والنجوى، وناهيك بعبادة يناجي فيها العبد ربَّهُ في اليوم خمس مرات* **«وإنَّهَا»** يعنى الصلاة، وقيل الاستعانة والأول أظهر ذكره الجلال. جرياً على قاعدة عود الضمير للأقرب* وقيل: للأمور التي أُمر بها بنو اسرائيل، ونُهوا عنها من قوله: **«اذكُروا نعمتى»** إلى قوله: **«واستعينوا»*** **«لكبيرَةٌ»** أي ثقيلة، شاقة كقوله تعالى: **«كَبُرَ عَلى الْمُشْرِكينَ ما تَدْعُوهُمْ إلَيهِ»*** **«إلاَّ عَلى الْخَاشِعِينَ»** يعنى المؤمنين، ولم تثقل عليهم كثقلها على غيرهم لأنَّ نُفوسَهم مُرْتاضة بأمثالها متوقعة في مقابلتها الثواب الذي يستحقر لأجله مشاقّها، و يستلذُّ بسببه متاعبها، ومن ثمَّ قال صلى الله عليه وسلَّم: [وجُعلتُ قُرَّة عينى في الصلاةِ] * البيضاوى.

وقيل: الخاشعين : الخائفين، وقيل: المطيعين المتواضعين لله، وأصل الخشوع السكون. فالخاشع ساكن إلى الطاعة، وقيل الخشوع الضراعة، وأكثر ما تستعمل في الجوارح. والاستثناء **«إلاَّ على الخاشِعين»** مفرَّغ وشرطه أن يُسبق بنفى فيؤوّل الكلام هنا بالنفى أي وإنها لا تُخفَّفُ ولا تُسهّل إلاَّ على الخاشعين* **«الَّذِينَ يَظُنُّونَ»** أي يسْتَيقِنُونَ وقيل يعلمون **«أنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ»** يعنى في الآخرة ــ وفيه دليل على ثبوت رؤية الله تعالى في الآخرة، لأن اللّقاء لا يتحقق إلا بالرؤية إنها رؤية تليق به جل جلاله.

وقيل: ملاقوا ثواب ربِّهم* «**وأنَّهُمْ إليْهِ راجِعُونَ**» يعنى بعد الموت فيجازيهم بأعمالهم* وفي الصحيح: [أنَّ الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ألَمْ أُزَوِّجْكَ؟ ألَمْ أُكْرِمْكَ؟ ألَمْ أسخر لك الخيل والإبل وأذَرْكَ ترأسَ وترتع؟ فيقول: بَلَى، فيقول الله تعالى: أظَنَنْتَ أنك مُلاَقيَّ؟ فيقول: لا، فيقول الله: اليوم أنساك كما نَسِيتني] وهذا كقوله تعالى: «**نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ**»* وفي الخطيب: «**واستعينوا بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ**» أفردها بالذكر ــ أي دون غيرها من الأركان ــ تعظيماً لشأنها، فإنها جامعة لأنواع العبادات النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة، وصرف المال فيها، والتوجه إلى الكعبة، والعكوف للعبادة، وإظهار الخشوع بالجوارح، وإخلاص النيَّة بالقلب، ومجاهدة الشيطان، ومناجات الرحمن، وقراءة القرآن، والتَّكلم بالشهادتين، وكف النفس عن الأطيبيْنِ (وهما الأكل والجماع)* وعن الضحاك في قوله تعالى: «**وإنَّها لَكَبِيرةٌ إلاَّ عَلى الخاشعينَ**» قال: إنها لثقيلة، و يعنى بقوله: «**إلاَّ عَلى الْخَاشِعِينَ**» إلا على الخاضعين لطاعته. الخائفين سطواته المصدقين بوعده ووعيده* وعن مجاهد قال: «**إلاَّ عَلى الخاشِعينَ**» المؤمنين حقّاً* وقال ابن زيد: الخشوع الخوف والخشية لله. وقرأ قول الله: «**خاشِعينَ مِنْ الذُّل**» قال: قد أذلَّهُم الخوف الذي نزل بهم وخشعُوا له* وإن قال قائل: وكيف أخبر الله جلَّ ثناؤه عمَّن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة أنَّه يظنُّ أنَّهُ ملاقيه أي «**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمُ**» والظنُّ شك. والشاك في لقاء الله كافر؟ قيل له: إن العرب قد تُسمِّى اليقين ظنًّا، والشَّك ظنًّا، نظير تسميتهم الظلمة سدفة والضياء سدفة، والمغيث صارخاً والمستغيث صارخاً، وما أشبه ذلك من الأسماء التى تُسمَّى بها الشيء وضدَّهُ، ومما يدل على أنَّهُ يُسمى به اليقين قول دريد بن الصمّة:

فَقُلتُ لَهُمْ ظُنُّوا بألفَى مُدَجَّجٍ   سُراتُهم في الفارسِّ المسردَّ

يعنى بذلك تَيَقَّنُوا ألفىْ مدجج تأتيكم* وقول عمير بن طارق:

بأن يعْتزُّوا قومى وأقْعُدُ فيكُمْ   وأجْعَلُ منى الظَّنَّ غَيْباً مُرَجَّماً

يعنى وأجعل منى اليقين غيباً مرجماً، ومما يدل عليه قوله تعالى: «**ورأى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أنَّهُم مواقِعُوها**» أي فتيقَّنُواأنهم واقعون فيها.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا والنَّصارَىَ والصَّابئِينَ مَنْ آمَنَ بِالله والْيَوْمِ الآخرِ وعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ ربِّهِمْ ولاَ خَوْفٌ عَلَيهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» سورة البقرة (آية: ٦٢).

ذكر الواحدى في أسباب النزول (ص ١٥) عن مجاهد قوله: لمَّا قصَّ سلمان ـ أي الفارسُّ ـ على النبي صلى الله عليه وسلَّم قصة أصحاب الديْر. قال: هم في النّار، قال سلمان: فأظلمتْ على الأرض. فنزلت **«إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هادُوا»** إلى قوله: **«يَحْزَنُونَ»** قال: فكأنما كشف عنى جبل* وعن السُّدىّ قال: نزلت في أصحاب سلمان الفارسّ لمَّا قدم سلمان على رسول الله صلى الله عليه وسلَّم جعل يخبر عن عبادة أصحابه، واجتهادهم، وقال يارسول الله كان يُصلُّون، و يؤمنون بك، و يَشْهَدُونَ أنَّكَ تبعث نبياً، فلّما فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال: رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: [يا سَلْمَانُ هم من أهل النار] فأنزل الله: **«إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا»** الآية نزلت في سلمان الفارسى، وكان من أهل جندى سابور من أشرافهم، وما بعد هذه الآية نزلت في اليهود* والمراد بالذين آمنوا هم المصدقون رسول الله فيا أتاهُمْ به من الحقّ من عند الله **«والَّذِينَ هَادُوا»** يعنى اليهود، سُمُّوا بذلك لقولهم **«إنَّا هُدْنَا إلَيْكَ»** أي ملنا إليك* وقيل: هادوا أي تابُوا عن عبادة العجل* وقيل: إنَّهُم مالُوا عن دين الإسلام ودين موسى عليه السلام (الخازن جـ ١ ص ٥٤)* و يقال هادُوا وتهوَّدُوا إذَا دخَلَ في اليهوديّة، ويهود إمَّا عربّى من هاد إذا تاب سُمُّوا بذلك لمَّا تابوا من عبادة العجل، وإما معرب يهوذا، وكأنَّهم سُمُّوا باسم أكبر أولاد يعقوب عليه السلام (البيضاوى)* **«والنَّصارَىَ»** جمع نصرانى كالندمى والياء في النصرانى للمبالغة كما في أحمر سمُّوا بذلك لأنهم نصروا المسيح أو لأنهم كانُوا مَعَهُ في قرية يقال لها نصران، فسمُّوا باسمها، أو باسم من أسسها (البيضاوى)* **«والصَّابِئينَ»** أصله من صبأ إذا خرج من دين إلى دين آخر سُمُّوا بذلك لخروجهم من الدين* قال عمر وابن عباس: هُمْ قوم من أهل الكتاب. قال عمر: ذبائحهم ذبائح أهل الكتاب* وقال ابن عباس: لا تحلُّ ذَبَائحهُمْ ولاَ مُنَاكحتهم* وقيل: هم قوم بيْن اليهود والمجوس لا تحلُّ ذبائحهم ولا مناكحتهم، وقيل: هُمْ بين اليهود والنَّصارى يحلقُون أوساط رؤسهم، وقيل: هُمْ قومٌ يقرُّون بالله، و يقرؤن الزَّبُور، و يعبدُون الملائكة، و يُصلُّون إلى

الكعبة، أخذُوا من كل دين شيئاً* والأقرب أنهم قوم يعبُدُون الكواكب، وذلك أنهم يعتقدون أنَّ الله تعالى خلق هذا العالم، وجعل الكواكب مدبِّرة له فيجب على البشر عبادتُها وتعظيمها، وأنها هي التي تقرب إلى الله* و يقال إنهم على دين صابىء بن شيص بن آدم* وقال مجاهد: الصابئون: قوم بيْنَ المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين* وعن اسحاق بن راهو يه: الصابئون: فرقة من أهل الكتاب يقرؤن الزَّبُور، ولهذا قال أبو حنيفة وإسحاق: لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم* وكان الحسن يقول: في الصابئين إنهم كالمجوس* وروى عنه أنهم قوم يعبدون الملائكة* وعن الحسن قال: أخبر زياد أن الصابئين يصلُّون إلى القبلة، و يصلون الخمس، قال: فأراد أن يضع عنهم الجزية قال: فأخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة، وقال أبو جعفر الرازى: بلغنى أنَّ الصابئين قوم يعبدون الملائكة و يقرؤن الزبور، و يُصلُّون للقبلة، وكذا قال سعيد بن أبي عروبة عن قتادة. وأخبر ابن أبي الزناد عن أبيه قال: الصَّابئُونَ قوم مما يلي العراق وهم بكوثَى، وهم يؤمنون بالنبيين كلهم و يصومون من كل سنة ثلاثين يوماً، و يصلُّون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات* وسئل وهب بن منبّه عن الصابئين: فقال: الذي يعرف الله وحده، وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفراً* وقال عبدالرحمن بن زيد: الصابئون: أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون لا إله إلا الله، وليس لهم عمل ولا كتاب، ولا نبيٌّ إلا قول لا إله إلا الله، قال: ولم يؤمنوا برسولٍ، فمن أجل ذلك كان المشركون يقولن للنبيِّ صلى الله عليه وسلَّم وأصحابه هؤلاء الصابئون يشبِّهونهم بهم يعني في قول: لا إله إلا الله* وقال الخليل: هم قوم يشبه دينهم دين النصارى، إلاَّ أن قبلتهم نحو مهبِّ الجنوب، يزعمون أنَّهم على دين نوح عليه السلام* وحكى القرطبيُّ عن مجاهد والحسن وابن أبي نجيح: أنهم قوم تركَّبَ دينهم بين اليهود والمجوس ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم* قال القرطبيُّ: والذى تحصَّل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنَّهم موحدون و يعتقدون تأثير النجوم وأنها فاعلة، ولهذا أفتى أبو سعيد الاصطخرى: بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم* واختار الرازى: أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى أن الله جعلها قبلة للعباد والدعاء، أو بمعنى أنَّ الله فوَّض تدبير أمر هذا العالم إليها، قال: وهذا القول هو المنسوب إلى الكشرانيين الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام، ردًّا عليهم ومبطلاً لقولهم* قال ابن كثير: وأظهر الأقوال ــ والله أعلم ــ قول مجاهد ومتابعيه، ووهب بن منبّه، أنهم قوم

ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين، وإنما هم قوم باقُون على فطرتهم، ولا دين مقرر لهم يتّبعونه و يقتفونه، ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابىء، أي أنّه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذ ذاك* وقال بعض العلماء: الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبيّ* قلتُ: وصبأ في اللغة: تطلق على الذي خرج من الدين، و يُتَحتّم أنهم قوم عدلوا عن دين اليهودية والنصرانية وعبدوا الملائكة* **«مَنْ آمَنَ بِاللّٰه وَالْيوم الآخرِ»** من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً، ودخل في ملّة الإسلام دخولاً أصْليًّا **«وعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أجْرُهُمْ»** الذي يستوجبونه بإيمانهم وعملهم* قال الخازن (في جـ ١ ص ٥٤) فإن قُلتَ: كيف قال في أوّل الآية **«إنَّ الّذِينَ آمَنُوا»** وقال في آخرها **«مَنْ آمَنَ باللّٰه»** فما فائدة التّعميم، أولاً، ثم التخصيص آخراً؟ قُلتُ: اختلف العلماء في حكم الآية فلهم فيه طريقان:

أحدهما : إنه أراد أن الذين آمنوا على التحقيق، ثم اختلفوا فيهم، فقيل هم الذين آمنو في زمن الفترة وهم طلاب الدين مثل حبيب النّجار، وقس بن ساعدة و ورقة بن نوفل، وبحيرا الراهب، وأبى ذرّ الغفارى، وسلمان الفارسى، فنهم من أدرك النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم وتابعه، ومنهم من لم يدركه، فكأنه تعالى قال: إنَّ الذين آمنوا بالله واليوم الآخر، وبمحمد صلى الله عليه وسلَّم فلهم أجرهم عند ربهم* وقيل: هم المؤمنون من الأمم الماضية* وقيل: هم المؤمنون من هذه الأمة **«والذين هادُوا»** يعنى الذين كانوا على دين موسى ولم يبدّلُوا **«والنَّصارى»** الذين كانوا على دين عيسى، ولم يُغيّروا **«والصابئين»** يعنى في زمن استقامة أمرهم* من آمن منهم» ومات وهو مؤمن. لأن حقيقة الإيمان تكون بالوفاة.

وأمّا الطريقة الثانية: فقالُوا إن المذكورين بالإيمان في أول الآية إنما على طريق المجاز دون الحقيقة، وهم الذين آمنوا بالأنبياء الماضين ولم يؤمنوا بك* وقيل: هم المنافقون الذين آمنوا بألسنتهم ولم يؤمنوا بقلوبهم، واليهود والنصارى والصابئين، فكأنه تعالى قال: هؤلاء المبطلون. كل من آمن منهم الإيمان الحقيقيَّ صار مؤمناً عند الله* وقيل: إن المراد من قوله: **«إنَّ الّذِينَ»** يعنى بمحمد صلى الله عليه وسلَّم في الحقيقة حين الماضى، وثبتُوا على ذلك في المستقبل وهو المراد من قوله تعالى: **«مَنْ آمَنَ بالله واليومِ الآخر وَعَمِلَ صَالِحاً»** أي في إيمانه **«فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبّهِمْ ولا خَوْف عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزنُون»**

أي في الآخرة أي حين يخاف الكفار من العقاب ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتفويت الثواب* الأجر في الأصل مصدر. يقال أجره الله يأجره أجراً من بابي ضرب وقتل، وقد يعبّر به عن نفس الشيء الْمُجَازَىَ به، والآية الكريمة تحتمل المعنيين. أي فلهم أجرهم ثابتاً عند ربهم، والعندية مجاز لتعاليه جلّ جلاله عن الجهة، وقد تخرج إلى ظرف الزمان إذا كان مظروفها معنى، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: [إنَّما الصبرُ عند الصَّدمة الأولى]* (قصة سلمان) ذكر الطبريُّ في تفسيره (جـ١ ص ٥٤) عن السُّدِّى «**إنَّ الَّـذِينَ آمَنُوا والَّـذِينَ هَادُوا..**» الآية قال نزلت هذه الآية في أصحاب سلمان الفارسيّ. وكان سلمان من جند يسابور، وكان من أشرافهم، وكانَ ابن الملك صَديقاً له مؤاخياً، لا يقضي واحد منهما أمْراً دون صاحبه، وكانا يركبان إلى الصيد جميعاً فبينما هما في الصيد إذ رفع لهما بيْتٌ من خَباء فأتياه فإذا هما فيه برجل بين يديه مصحف يقرأ فيه. وهو يبكي فسألاه ما هذا؟ فقال الذي يريد أن يعلم هذا لا يقف موقفكما فإن كنتما تُريدان أن تعلما ما فيه فانزلا حتى أعلمكما، فنزلا إليه، فقال لهما: هذا كتابٌ جاء من عند الله أمر فيه بطاعته ونهى عن معصيته، فيه ألاَّ تزنى ولا تسرق، ولا تأخذ أموال النَّاس بالباطل فقصَّ عليهما ما فيه، وهو الانجيل الذي أنزلَهُ الله على عيسى، فوقع في قلوبهما وتابعاه فأسلما، وقال لهما: إن ذبيحة قومكما عليكما حرام، فلم يزالا معهُ كذلك يتعلَّمان منه حتى كان عيدٌ للملك فجعل طعاماً، ثم جمع الناس والأشراف، وأرسل إلى ابن الملك، فدعاه إلى صنيعه ليأكل مع الناس، فأبى الفتى، وقال: إنى عنك مشغول. فكُلْ أنْتَ وأصحابك، فلمَّا أكثر عليه من الرسل أخبرهم أنَّه لا يأكل من طعامهم، فبعث الْمِلِكُ إلى ابنه فدعاهُ، وقال: ما أمرك هذا؟ قال: إنَّا لا نأكل من ذبائحكم إنكم كُفَّارٌ لا تحلُّ ذبائحكم. فقال له الملك: من أمرك بهذا، فأخبره أنَّ الراهب أمره بذلك، فدعا الراهب، فقال: ماذا يقول ابنى؟ قال: صدق ابنك، قال له: لولا أن الدم فينا عظيم لقتلتُك، ولكن اخرج من أرضنا، فأجَّلَه أجلاً فقال سلمان: فقمنا نبكى عليه، فقال لهما: إن كنتما صادقين، فأنا في بيعة بالموصل مع ستين رجلاً نعبُد الله فيها فأتُونا فيها، فخرج الراهب، و بقى سلمان وابن الملك، فجعل يقول لابن عبدالملك: انطلق بنا وابن الملك يقول نعم، وجعل ابن الملك يبيع متاعه يريد الجهاز، فلمَّا أبطأ على سلمان خرج سلمانُ حتى أتاهم، فنزل على صاحبه وهو ربُّ البيعة، وكان أهْلُ تلك البيعة من أفضل الرهبان، فكان

سلمان معهم يجتهد في العبادة و يتعب نفسه، فقال له الشيخ: إنك غلام حدث تتكلف من العبادة ما لا تطيق، وأنا خائف أن تفتر وتعجز فارفق بنفسك وخفف عليها، فقال له سلمان: أرأيت الذي تأمرني به أهو أفضل، أو الذي أصنع؟ قال: بل الذي تصنع، قال: فخلِّ عنّي، ثم إنَّ صاحب البيعة دعاه، فقال: أتعلمُ أنّ هذه البيعة لي، وأنا أحقُّ الناس بها، ولو شئت أن أخرج هؤلاء منها لفعلت ولكني رجُلٌ أضعف عن عبادة هؤلاء، وأنا أريد أن أتحوَّل من هذه البيعة إلى بيعة أخرى هم أهون عبادة من هؤلاء، فإن شئت أن تقيم ههنا فأقمْ، وإن شئت أن تنطلق معي فانطلق. قال له سلمان: أيُّ البيْعَتينِ أفضَلُ أهلاً؟ قال: هذه. قال سلمانُ: فأنا أكون في هذه، فأقام سلمان بها، وأوصى صاحب البيعة عالم البيعة بسلمان، فكان سلمان يتعبَّدُ معهم، ثم إنَّ الشيخ العالم أراد أن يأتي بيت المقدس فقال لسلمان: إن أردت أن تنطلق معي فانطلق، وإن شئت أن تقيم فأقم، فقال له سلمان: أيهما أفضل أنطلق معك أم أقيم؟ قال: لا، بل تنطلق معي، فانطلق معَهُ، فمرُّوا بمُقْعَدٍ على ظهر الطريق ملقى، فلمَّا رآهما نادى: يا سيِّد الرهبان. ارحمني يرحمْك الله، فلم يكلِّمه، ولم ينظر إليه، وانطلقا حتى أتيا بيت المقدس، فقال الشيخ لسلمان: اخرج فاطلب العلم، فإنَّه يحضرُ هذا المسجد علماءُ أهل الأرض، فخرج سلمان يسمع منهم، فرجع يوماً حزيناً، فقال له الشيخ: مالك يا سلمان؟ قال: أرى الخير كله قد ذهب به من كان قبلنا من الأنبياء وأتباعهم، فقال له الشيخ: يا سلمانُ. لا تحزن فإنه قد بقي نبيٌّ ليس من نبيٍّ بأفضل تبعاً منه، وهذا زمانه الذي يخرج فيه، ولا أراني أن أدركه، وأما أنت فشابٌّ لعلك أن تدركه، وهو يخرج في أرض العرب، فإن أدركته فآمن به واتبعه، فقال له سلمان: فأخبرني عن علامته بشيء؟ قال: نعم، هو مختم في ظهره بخاتم النبوَّة، وهو يأكل الهديّة ولا يأكل الصَّدقة، ثم رجعا حتى بلغا مكان الْمُقْعَد، فناداهما فقال: يا سيد الرُّهبان ارحمني يرحمك الله، فعطف إليه حماره، فأخذ بيده فرفعه فضرب به الأرض ودعا له، وقال: قُمْ بإذن الله، فقام صحيحاً يشتدُّ، فجعل سلمان يتعجب وهو ينظر إليه يشتدُّ، وسارَ الرَّاهب فتغيب عن سلمان، ولا يعلم سلمانُ، ثم إن سلمان فزع، فطلب الراهب، فلقيه رجلان من العرب من كلب فسألهما: هل رأيْتما الرَّاهب؟ فأناخ أحدهما راحلته: قال: نعم، راعي الصرمة هذا، فحمله فانطلق به إلى المدينة، قال سلمان: فأصابني من الحزن شيء لم يصبني مثله قطُّ، فاشترته امرأة من جهينة، فكان

يـرعى عليها هو وغلامٌ لها يتراوحان الغنم هذا يوماً وهذا يوماً، فكان سلمان يجمع الدراهم ينتظر خروج محمد صلى الله عليه وسلَّم، فبينما هو يوماً يرعى إذ أتاهُ صاحبه الذي يعْقُبُه، فقال: أشعرت أنَّه قد قدم اليوم المدينة رجلٌ يزعم أنَّه نبيٌّ، فقال له سلمان: أقم في الغنم حتى آتيك، فهبط سلمانُ المدينة، فنظر إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم ودار حوْلَهْ، فلما رآه النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم عرف ما يريد، فأرسل ثوبه حتى خرج خاتمَهُ، فلما رآه أتاهُ وكلَّمه، ثم انطلق، فاشترى بدينار، ببعضه شاة، و ببعضه خبزاً، ثُمَّ أتاهُ به فقال ما هذا؟ قال سلمان: هذه صدقة، قال لا حاجة لى بها، فاخرجْهَا فليأكلها المسلمون، ثُمَّ انطلق، فاشتر بدينار آخر خبزاً ولحماً، فأتى به النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم فقال: ما هذا؟ قال: هذه هدَّية، قال: فاقعُد، فقعد فأكلا جميعاً منها، فبينا هو يحدّثه إذ ذكر أصحابه، فأخبره خبرهم، فقال: كانوا يصومون و يُصلُّون و يؤمنون بك، و يشهدون أنك ستُبعثُ نبياً، فلمَّا فرغ سلمان من ثنائه عليهم، قال له النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم: يا سلمان، هم من أهل النّار فاشتد ذلك على سلمان. وقد كان قال له سلمان: لوْ أدركوك صدَّقوك واتّبَعُوك، فأنزل الله هذه الآية: «**إنَّ الّـذِينَ آمَنُوا والّذِينَ هَادُوا والنَّصَارَى والصَّابِئينَ مَنْ آمَنَ باللهِ واليوم الآخر..**» الآية. فكان إيمان اليهود أنَّه من تمسّك بالتوارة وسنة موسى حتى جاء عيسى، فلما جاء عيسى كان من تمسَّك بالتوراة، وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكاً، وإيمان النصارى أنَّه من تمسك بالإنجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمناً مقبولاً منه، حتى جاء محمد صلى الله عليه وسلَّم فمن لم يتبع محمداً صلى الله عليه وسلَّم منهم، و يدع ما كان عليه من سُنَّة عيسى والإنجيل كان هالكاً* وروى الطبرى عن مجاهد قوله: «**إنَّ الّذِينَ آمَنُوا والّذِينَ هَادُوا..**» الآية قال سلمان الفارسى للنبيِّ صلى الله عليه وسلَّم عن أولئك النّصارى وما رأى من أعمالهم: قال: لم يموتوا على الإسلام، قال سلمانُ: فأظْلَمْت على الأرْض، وذكر اجتهادهم فنزلت هذه الآية، فدعا سلمان، فقال: نزلت هذ الآية في أصحابك، ثم قال النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم: [من مات على دين عيسى، ومات على الإسلام قبل أن يسمع بى فهو على خير، ومن سمع بي اليوم ولَم يؤمن بى فقدْ هلك] وروى ابن عبّاس قوله: «**إنَّ الّذِينَ آمَنُوا والّذِينَ هَادُوا والنَّصارى والصَّابِئينَ**» إلى قوله: «**ولا هُمْ يَحْزَنُون**» فأنزل الله تعالى بعد هذا: «**ومَنْ يَبتَّغ غَيْرَ الإسْلامِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ في الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرينَ**» وفي الطبرى

(جـ ١ ص ٢٥٤): وهـذا الخبر يـدلُّ على أنَّ ابن عباس كان يَرَى أن الله جلَّ ثناؤهُ كان قـد وعَـدَ مـن عـمـل صالحاً من اليهود والنصارى والصابئين على عمله في الآخرة الجنَّة، ثم نُـسخ ذلـك بقوله: «**وَمَنْ يبتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ ديناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ**» الآية* وقد صرَّح ابن عـبـاس بـالـنسخ فيما رواه الـقـرطـبـيُّ في تفسيره عنه قال: «**إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا..**» الآيـة منسوخٌ بقوله تعالى: «**وَمَنْ يَبْتَغِ غيرَ الإسلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِـى الآخِـرَةِ مِـنَ الْـخَاسِرِينَ**»* وقال غيره: ليست بمنسوخة وهي فيمن ثبت على إيمانه مـن المؤمـنين بالنبي صلى الله عليه وسلَّم* وفي تفسير الخطيب: وقال أبوعمرو بن العلاء: سُـمُّـوا اليهود يهوداً لأنَّـهـم يـتـهَّـودون. أي يـتـحـرَّكُـونَ عند قراءة التوْراةِ، و يقولونَ: إن السَّمٰوات والأرض تحرّكتْ حين أتى الله موسى التوراة.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«فَـوَيْـلٌ لِلَّـذِيـنَ يَـكْـتُـبُـونَ الْـكِتَابَ بأيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِـهِ ثـمـنـاً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» سورة البقرة (آية: ٧٩)

ذكـر الـواحـدى في أسـبـاب النزول (ص ١٥) قوله: نزلت هذه الآية في الذين غيّرُوا صـفـة الـنـبيِّ صلى الله عليه وسلَّم، و بدَّلُوا نعمته* وقال الكلبيُّ: إنهم غيَّروا صفة رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في كتابهم، وجعلوه آدَمَ سَبْطاً طو يلاً، وكان ر بعة أسْمَرَ صلى الله عـلـيـه وسـلَّـم، وقـالُـوا لأصحـابهم وأتباعهم: انظروا إلى صفة النبيِّ الذي يُبعثُ في آخر الـزمـان ليس يُشبه نعت هذا، وكانت للأحبار والعلماء مأكلة من سائر اليهود، فخافوا أن يُـذْهـبُـوا مـأكـلـتَـهـم إن بيَّنُوا الصِّفة، فمن ثم غيَّروا* وفي لباب النقول في أسباب النزول لـلـسـيـوطي: وأخرج ابن أبى حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: نزلت في أحبار اليهود، وجَدُوا صفة النبيّ صلى الله عليه وسلَّم مكتوبة في التَّوراة: أكحل أعينَ ر بعة جعْدَ الـشَّـعـر حسنَ الوجه، فمَحَوه حَسَداً و بغياً، وقالُوا: نجدهُ طو يلاً أزرق سبطَ الشَّعر* وهذه الآية تحدَّثت عن صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزُّور والكذب على الله، وأكـل أمـوال الناس بالباطل* «**فَوَيْلٌ**» الهلاك والدَّمار: وهى كلمة تقولها العرب لكل مـن وقـع في هلكة. وأصلها في اللغة: العذاب والهلاك، وحلول الشرِّ، والو يلةُ: الفضيحة والـبليَّةُ. وقيل: هو تفجُّعٌ، وإذا قال القائل: واو يْلتاهُ! فإنَّما يعنى وافضيحتاهُ، وفي حديث

أبي هريرة: [إذا قرأ ابن آدم السَّجدةَ فَسَجَدَ اعتزل الشيطن يبكى يقول: يا و يْلَهُ] الْوَ يْلُ: الحُزنُ والهلاك والمشقة من العذاب. وكل من وقع في هلكة دعا بالو يل* وفي الحديث عن أبى سعيد الخدرى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: [الوْ يل وادٍ في جهنَّم يهوى فيه الكافرُ أر بعين خريفاً لو أرسلت فيه الجبال لَمَاعَتْ من حره قبل أن تبلغ قعره، والصُّعُودُ جبلٌ من نار يصَّعَّدُ فيه سبعين خريفاً ثم يهوى كذلك] أخرجه الترمذي. وقال: حديث حسن غريب. الخريف سنة. والرواية التي ذكرتها من (اللّسان) (جـ ١١ ص ٧٣٨)* قوله: «لِلَّـذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بأَيْدِهِمْ» تأكيد للكتابة لأنه يحتمل أن يأمر غيره بأن يكتب فقال: بأيديهم لنفى هذ الشُّبهة، والمراد بالذين يكتبون الكتاب. اليهود وذلك أن رؤساء اليهود خافوا ذهاب مآكلهم وزوال رياستهم حين قدم النبي صلى الله عليه وسلَّم المدينة، فاحتالُوا في تعو يق سِفْلَتِهم عن الإيمان به، فعمدوا إلى صفته في التوارة، فغيَّروها، وكانت صفتُه فيها (حسنَ الوجه حسنَ الشعر أكحل العينين ر بعة) كما تقدم وإنما أعدتُها تلذذاً بذكر هذ الصفات الْخَلْقية النبوَّ ية المباركة — وكتبوا مكانه — عليهم اللّعنة — طوال أزرق العينين سسبط الشعر* وليس من سلالة العرب من هو أزرق العينين. قاتلهم الله أنى يؤفكون. فكانوا إذا سألتهم سفلتهم عن ذلك قرأوا عليهم ما كتبُوا «ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ» يعنى هذه الصفة التى كتبوها، فإذا نظروا إلى النبيّ صلى الله عليه وسلَّم وإلى تلك الصفة وجدوه مخالفاً لها، فيكذبونه، و يقولون إنَّه ليس به* ذكر ابن كثير في التفسير(جـ ١ ص ١١٧). قال السُّديُّ: كان ناسٌ من اليهود كتبوا كتاباً من عندهم يبيعونه من العرب، ويحدّثونهم أنَّه من عند الله، فيأخذوا به ثمناً قليلاً* وفيه. قال الزُّهريُّ: أخبرنى عبيد الله بن عبدالله عن ابن عباس أنَّه قال: [يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابُ الله الذي أنزله علي نبيِّه أحدث أخبار الله تقرؤنه غضاً لم يشب، وقد حدَّثكم الله تعالى أنَّ أهل الكتاب قد بدلُّوا كتاب الله وغيروه، وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم، ولا والله مارأينا منهم أحداً قطُّ سألكم عن الذي أنزل عليكم] رواه البخاريُّ من طريق عن الزُّهرى* وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: الثَّمنُ القليل: الدنيا بحذافيرها: أي فو يل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء، وو يل لهم مما أكلوا به من السُّحْت* «لِيَشْتَرُوا بِهِ» أي بما كتبوا

«ثمناً قَليلاً» أي المآكل والرشا التي كانوا يأخذونها من سفلتهم، قال الله تعالى: «فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ» من الرُّشا، أو من المعاصي* وإنما كرر الويل ليفيد أن الهلاك مرتّب على كل واحد من الفعلين على حدته لا على مجموع الأمرين، والرُّشا بضم الراء وكسرها جمع رشوة بتثليثها: وهي ما يدفع إلى الحاكم ليحكم بحقٍ، أو ليمتنع من ظلم* وفي الطبرى (جـ ١ ص ٢٩٩) «فَوَيْلٌ لَهُمْ» قال ابن عباس: فالعذاب عليهم* فقد أوّل الويل بالعذاب، وذكر عن زياد بن فياض قال سمعتُ أبا عياض يقول: الويل: ما يسيل من صديد في أصل جهنّم* وروى عن عثمان بن عفان عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال: [الويْلُ جبلٌ في النار]* قال أبوجعفر فمعنى الآية على ما روى عمن ذكرت قوله في تأويل «وَيْلٌ» فالعذاب الذي هو شراب صديد أهل جهنّم في أسفل الجحيم لليهود الذين يكتبون الباطل بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله* وفي قوله تعالى: «لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بأيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُوا بِهِ ثمناً قَلِيلاً» قال: يعني بذلك الذين حرَّفوا كتاب الله من يهود بني اسرائيل، وكتبوا كتاباً على ما تأوّلوه من تأويلاتهم مخالفاً لما أنزل الله على نبيّه موسى عليه السلام، ثم باعُوه من قوم لا علم لهم بها، ولا بما في التوراة، جهال بما في كتب الله لطلب عرض من الدنيا خسيس، فقال الله لهم: «فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ»* عن ابن عباس قال: الأميُّون قوم لم يصدّقوا رسولاً أرسله الله، ولا كتاباً أنزله الله، فكتبوا كتاباً بأيديهم، ثم قالوا لقوم سفلة جهال: هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلاً، قال عرضاً من عرض الدنيا، وعن مجاهد قال: هؤلاء الذين عرفوا أنّه من عند الله يحرِّفونه.

القول في تأويل قوله تعالى:

«وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أيّاماً مَعْدُودةً قُلْ أتَّخَذْتُمْ عِنْدَ الله عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ الله عَهْدَهُ أمْ تَقُولُونَ عَلى الله مَا لا تعلمون * بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وأحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فأولئكَ أصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُنَ» سورة البقرة (آية ٨٠، ٨١)

جاء في أسباب النزول في الواحدى (ص ١٦) قدم رسول الله صلى الله عليه وسلّم المدينة، ويهود تقول: إنما هذه الدنيا سبعة آلاف سنة إنما يُعذَّبُ الناس في النار لكل ألف سنة من أيام الدنيا يوم واحدٌ في النار من أيام الآخرة، وإنما هى سبعة أيام، ثم ينقطع

العذاب فأنزل الله تعالى في ذلك: «**وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً...**»
وروى الضحاك عن ابن عبّاس أنّه قال: وجد أهل الكتاب في التوراة مابين طرفي جهنم مسيرة أربعين، قالوا: لن نعذب في النار إلاَّ ما وجدناه في التوراة، فإذا كان يوم القيامة اقتحموا في النار فساروا في العذاب حتى انتهوا إلى سقر، وفيها شجرة الزقوم، إلى آخر يوم من الأيام المعدودة، فقال لهم خزنة النار: يا أعداء الله زعمتم أنكم لن تُعذَّبوا في النار إلاَّ أياماً معدودات، فقد انقطع العدد وبقي الأمد* وفي لباب السيوطي: وأخرج ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس أن اليهود قالوا: لن ندخل النار إلا تحلّة القسم: الأيام التي عبدنا فيها العجل أربعين ليلة، فإذا انقضت انقطع العذاب، فنزلت الآية* وفي تفسير الطبرى (جـ١ ص ٣٠) حدَّث أسباط عن السُّدى «**وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً...**» قال: قالت اليهود: إن الله يُدخلنا النار فنمكث فيها أربعين ليلةً حتى إذا أكلت النَّارُ خطايانا واسْتَنْقَتْنَا نادى مُناد: أخرجوا كل مختون من ولد بنى إسرائيل: فلذلك أُمرنا أن نختتن. قالوا: فلا يدعونَ منا في النار أحداً إلاَّ أخرجوه* وعن أبى العالية قال: قالت اليهود: إن ربنا عقب علينا في أمرنا، فأقسم ليعذبنا أربعين ليلة، ثم يخرجنا فأكذبهم الله* وقال عكرمة: خاصمت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلَّم فقالوا: لن ندخل النار إلا أربعين ليلة، وسيخلفنا فيها قوم آخرون يعنون محمداً وأصحابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم بيده على رؤوسهم [بل أنتُم فيها خالدون لا يخلفكم فيها أحدٌ] فأنزل الله جل ثناؤه: «**وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً**»* وقال عكرمة: اجتمعت يهود يوماً تخاصم النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم فقالوا «**لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّاماً مَعْدُودَةً**» وسمُّوا أربعين يوماً، ثم يخلفنا أو يلحقنا فيها أناسٌ، فأشاروا إلى النبي صلى الله عليه وسلَّم وأصحابه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: [كذبتم، بل فيها خالدون مخلدون، لا نلحقكم ولا نخلفكم فيها إن شاء الله أبداً]* وقال الطبرى: حدَّثني يونس، قال أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي أن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم قال لهم [أنشُدُكم بالله، وبالتوارة التي أنزلها الله على موسى يوم طور سيناء، مَنْ أهْلُ النار الذين أنزل الله في التوراة؟] قالوا: إن ربَّهم غضب عليهم غضبة فنمكث في النار أربعين ليلة، ثم نخرج فتخلفوننا فيها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: [كذبتم، والله لا نخلفكم فيها أبداً] فنزل القرآن تصديقاً لقول النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم وتكذيباً لهم

«وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أيَّاماً مَعْدُودةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ الله عَهْداً» إلى قوله: «هُمْ فيها خالِدُنَ» «وَقَالُوا» أي اليهود «لَنْ تَمَسَّنَا» أي لن تُصيب أجسامنا «النَّارُ إلاَّ أيَّاماً مَعْدُودةً» أي قدراً ثم يزول عنَّا العذاب و«إلاَّ أيَّاماً» استثناء مفرغ، وأياماً منصوب على الظرف بالفعل قبله، والتقدير لن تمسَّنا النار أبداً إلاَّ في أيام قلائل يحصرها العدُّ، لأن العدَّ يحصر القليل. ومعدودة يضبطها العدُّ، و يلزمها في العادة القلّة فهى قليلة من باب التفسير باللازم «قُلْ» يا محمد لليهود «اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ الله عَهْداً» أي مَوْثقاً أن لا يعذبكم إلا هذه المدة. «فَلَنْ يُخْلِفَ الله عَهْدَهُ» أي وعده، هذا جواب الاستفهام المتقدّم في قوله: «اتَّخَذْتُمْ» وهل هذا بطريق تضمين الاستفهام معنى الشرط، أو بطريق إضمار الشرط بعد الاستفهام وأخواته؟ قولان، واختار الزمخشرى القول الثاني فإنه قال: لن يخلف متعلق بمحذوف تقديره إن اتخذتُم عند الله عهداً فلن يخلف الله عهده* وقال ابن عطية: فلن يخلف الله عهده، اعتراض بين أثناء الكلام. كأنه يعنى بذلك أن قوله: أم تقولون معادل لقوله: «اتَّخذتُمْ» فوقعت هذ الجملة بين المتعادلين معترضة. والتقدير أيُّ هذين واقعٌ؟ اتخاذكم العهد، أم قولكم بغير علم. فعلى هذا لا محلَّ لها من الاعراب وعلى الأ ول محلها الجزم «أمْ تقُولُونَ على الله مَا لاَ تعْلَمونَ * بَلَى» تمسكم وتخلدون فيها. وهو إثبات لما بعد حرف النفى وهوقوله: «لَنْ تمسَّنا النَّارُ» والجواب: بَلَى تمسُّكُم النَّارُ أبداً، وأم هنا يحتمل أن تكون متصلةً، وهى التي يطلب بها. و بالهمزة التَّعيين، وحينئذٍ فالاستفهام للتقرير المؤدى إلى التبكيت لتحقّق العلم بالشق الأخير، كأنه قيل: أم لم تتخذوه بل تقولون..الخ* ويحتمل أن تكون منقطعة، وهى التى بمعنى بل، والاستفهام لإنكار الإتخاذ ونفيه، ومعنى «بل» الاضراب والانتقال من التوبيخ بالإنكار على اتخاذ العهد إلى ما تفيدُهُ همزتها من التوبيخ على القول* وقوله: «بَلَى» حرف جواب كنعم وجير وأجل وأى، إلاَّ أنَّ بَلَى جواب لنفى متقدم أي إبطال ونقض وإيجاب له، سواء دخله استفهام أم لا، فتكون إيجاباً له نحو قول القائل. ما قام زيد؟ فتقول: بَلَى. أي قدم قام، وقوله أليس زيدٌ قائماً؟ فتقول: بَلَى. أي هو قائم. قال تعالى: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى»* و يروى عن ابن عباس أنَّهم لو قالُوا نعم لكفروا* «مَنْ كَسَبَ سَيِّئةً» في الطبرى (جـ١ ص ٣٠٤) عن ابن عباس: «بَلَى مَنْ كَسَبَ سيِّئةً وأحَاطَتْ بِهِ خَطِيئتُهُ» أي من عَمِلَ مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتُم به حتى يُحيط كفره بمَالَهُ من

حسنة، فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون* قال: وأمّا «**بَلَى**» فإنها اقرار في كل كلام في أوله جحد، كما نعم اقرار في الاستفهام الذي لا جحد فيه، وأصلها بل التي هى رجوع عن الجحد المحض في قولك: ما قام عمرو بلْ زيْدٌ، فزيدتْ فيها الياء ليصلح عليها الوقُوف إذا كانت بل لا يصلح عليها الوقوف إذ كانت عطفاً ورجوعاً عن الجحد، ولتكون أعنى «**بَلَى**» رجوعاً عن الجحد فقط، واقرار بالفعل الذي بعد الجحد، فدلّت الياء منها على معنى الاقرار والانعام ــ أي الزيادة والمبالغة يُقالُ فعل كذا، ونعم أي زاد و بالغ، ودلّ لفظ بل على الرجوع عن الجحد* وقال السّديُّ: «**بَلَى مَنْ كَسَبَ سيّئةً**» أمّا السيّئة فهى الذنوب التي وعد عليها النار «**وَأحَاطتْ بِهِ خَطِيئتُهُ**» اجتمعت عليه فمات عليها، قبل الانابة والتوبة منها* وأصل الاحاطة بالشيء الاحداقُ به بمنزلة الحائط الذي تحاط به الدار، فَـتُحـدّق به، ومنه قول الله جلّ ثناؤه «**نَاراً أحَاطَ بِهِمْ سُرادِقُها**» فتأو يل الآية* من أشرك بالله واقترف ذنوباً جمّةً فمات عليها قبل الإنابة والتوبة، فأولئك أصحاب النّار هُمْ فيها مخلّدون أبداً، و بنحوما قال الطبرى قال الضحاك في «**وَأحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**» مات بذنبه* وعن ابن عباس: «**وأحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**» قال يُحيط كفرُهُ بمَالَهُ منْ حسنةٍ* وعن مجاهد: «**وأحَاطَتْ بِهِ خطَيئَتُهُ**» قال: ما أوْجَبَ الله فيه النّار* وعن قتادة «**وأحَاطَتْ به خَطِيئَتُهُ**» قال أمّا الخطيئة، فالكبيرة الموجبة* وعن قتادة: قال: الخطيئة الكبائر* وسأل رجُلٌ الحسن عن قوله: «**وَأحَاطَتْ بهِ خطِيئَتُهَ**» فقال: ما ندرى ما الخطيئة يا بنيَّ، اتْلُ القرآن فكُلُّ آية وعَدَ الله عليها النار فهي الخطيئة* وعن ابن جريج قال: قلتُ لعطاء «**وأحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**» قال الشرك، ثم تلا «**وَمَنْ جَاءَ بالسَّيِّئَةِ فكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ في النار**» أخذه مما بعده، وقد صرّح به الجلال في تقريره، وهذا ما عليه إجماع المفسرين من أنَّ السيئة الشرك كما قاله الواحدى* قُلتُ: وهومذهب أهل السُّنة لقوله: «**فأولئكَ أصحابُ النَّارِ هُمْ فيهَا خَالِدُون**» فإنّ الخلود في النار هو للكفار والمشركين. وأيضاً قوله تعالى: «**مَنْ كَسَبَ سَيّئةً..**» فى معنى التّعليل لما أفادته بل. ومَنْ تحتمل الشرطية والموصوليّة، والأنسب بقوله في الآية التى تليها «**والّذِينَ آمَنُوا وعَمَلوا الصَّالِحاتِ..**» هو الثاني: وأتى بالفاء في الشق الأ ول دون الثاني إيذاناً بتسبب الخلود في النار عن الشرك، وعدم تسبب الخلود في الجنة عن الإيمان بل هو بمحض فضل الله تعالى، وسمى جلّ جلاله أهل النار. أصحاب النار لمصاحبتهم الذنوب في

الدنيا، وهي التى أوردتهم النار، والمراد بالخلود الإقامة الدائمة التى لا نهاية لها. لقوله تعالى: «**خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً**».

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» سورة البقرة (آية: ٧٥).

ذكر الواحدى في أسباب النزول (ص ١٦) عن ابن عباس ومقاتل قالا: نزلت في السبعين الذين اختارهم موسى ليذهبُوا معه إلى الله تعالى، فلمّا ذهبوا معه سمعوا كلام الله تعالى، وهو يأمر و ينهى، ثم رجعُوا إلى قومهم، فأمّا الصادقون فأدُّوا ما سمعوا، وقالت طائفة منهم: سمعنا الله من لفظ كلامهم يقول: إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا، وإن شئتم فلا تفعلوا، ولا بأس* وعند أكثر المفسرين نزلت الآية في الذين غيروا آية الرجم، وصفة النبىّ محمد صلى الله عليه وسلّم* وكذا في البيضاوى، وفي الطبرى (جـ١ ص ٢٩١) قال حدّثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمةُ عن ابن اسحق في قوله: «**وَقَد كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ..**» الآية قال: ليس قوله يسمعون كلام الله. يسمعون التوراة، كلهم قد سمعها، ولكنّهم الذين سألوا موسى رؤية ربّهم، فأخذتهم الصاعقة فيها* وذكر عن محمد بن اسحاق قال: بلغنى عن بعض أهل العلم أنّهم قالوا لموسى: ياموسى، قد حيل بيننا و بين رؤية الله عز وجل، فأسمعنا كلامه حين يكلمك، فطلب ذلك موسى إلى ربه، فقال: نعم ، فأمرهم، فليتطهروا وليطهروا ثيابهم، و يصوموا، ففعلوا، ثم خرج بهم حتى أتى الطور، فلمّا غشيتهم الغمام أمرهم موسى عليه السلام فوقعوا سجوداً، وكلمه ربُّه، فسمعوا كلامه يأمرهم و ينهاهم حتى عقلوا ما سمعوا، ثم انصرف بهم إلى بنى إسرائيل، فلمّا جاؤهم حرّف فريق منهم ما أمرهم به، وقالوا حين قال موسى لبنى إسرائيل إن الله قد أمركم بكذا وكذا، قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله إنما قال كذا وكذا خلافاً لما قال الله عزّ وجلّ لهم فهم الذين عنى الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلّم* قال أبو جعفر الطبرى: وأولى التأو يلين اللذين ذكرت بالآية وأشبههما بما دلّ عليه ظاهر التلاوة، ما قاله الربيع بن أنس، والذي حكاه ابن اسحاق عن بعض أهل العلم من أن الله تعالى ذكره، إنّما عنى بذلك من سمع كلامه من بنى إسرائيل سماع موسى إيّاه منه، ثم حرّف ذلك و بدّل من بعد سماعه وعلمه به وفهمه إيّاه، وذلك أنّ الله جل ثناؤه

إنما أخبر أن التحريف كان من فريق منهم كانو يسمعون كلام الله عز وجل استعظاماً من الله لِـمَا كانوا من البهتان بعد توكيد الحجّة عليهم والبرهان، وإيذاناً منه تعالى ذكره عباده المؤمنين. وقطع أطماعهم من إيمان بقايا نسلهم بما أتاهم به محمدٌ من الحق والنور والهدى، فقال لهم: كيف تطمعون في تصديق هؤلاء اليهود إياكم، وإنما تخبرونهم بالذي تخبرونهم من الأنباء عن الله عز وجل عن غيب لم يشاهدوه، ولم يعاينوه، وقد كان بعضهم يسمع من الله كلامه، وأمره ونهيه، ثم يبدله ويحرّفه ويجحده، فهؤلاء الذين بين أظهركم من بقايا نسلهم أحرى أن يجحدوا ما أتيتموهم به من الحق، وهم لا يسمعونَه من الله وإنما يسمعونه منكم، وأقرب إلى أن يحرّفوا ما في كتبهم من صفة نبيكُمْ محمد صلى الله عليه وسلّم ونعته، و يبدِّلُوهُ وهم به عالمون فيجحدوه، و يكذبوا من أوائلهم الذين باشروا كلام الله من الله جلَّ ثناؤه ثم حرفوهُ من بعد ما عقلوهُ وعلموه متعمدِّين التحريف.

وقوله تعالى: **«أَفَتَطْمَعُونَ»** خطاب للنبي صلى الله عليه وسلّم لأنه هو الدّاعى إلى الإيمان، وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً له* وقيل: هوخطاب للنبيِّ صلى الله عليه وسلَّم وأصحابه لأنهم كانوا يدعونهم إلى الإيمان أيضاً، ومعنى أفتطمعون: أفترجون، الهمزة للاستفهام، وتدخل على ثلاثة من حروف العطف، الفاء كما هنا، والواو كقوله تعالى: **«أولا يعلمون»** وثم كقوله: **«اثُمَّ إذا مـا وقع آمنتُم به»** واختلف في مثل هذه التراكيب، فذهب الجمهور إلى أن الهمزة مقدمة من تأخير لأنَّ لها الصَّدر. ولا حذف في الكلام والتقدير: فأتطمعون. وألا تعلمون. وثم أإذا ما وقع* وذهب الزمخشري إلى أنها داخلة على محذوف دل عليه سياق الكلام. والتقدير هنا: أتسمعون أخبارهم، وتعلمون أحوالهم فتطمعون **«أنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ»** أي يصدّقكم اليهود بما تخبرونهم* وقيل: معناه أفتطمعون أن يؤمنوا لكم أي ينقادوا لكم مع أنهم لم يؤمنوا بموسى عليه السلام، وكان هو السبب في خلاصهم من الذُّلّ، وظهور المعجزات على يده **«وَقَدْ كَانَ فَرِيق مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كلامَ الله»** وقد كان. الواو للحال. والتقدير أفتطمعون في إيمانهم، والحال أنهم كاذبون مُحرّفون لكلام الله تعالى، وقد مقرّبة للماضي من الاستقبال سوّغت وقوعه حالاً، و يسمعون خبر كان. والفريق اسم جمع لا واحد له من لفظه كرهط وقوم* قيل: المراد بالفريق هم الذين كانوا مع موسى يوم الميقات، وهم الذين سمعوا كلام الله تعالى* وقيل: المراد بهم الذين كانوا في زمن النبيِّ صلى الله عليه وسلّم وهو الأقرب لأن الضمير

راجع إليهم في أفتطمعون أن يؤمنوا لكم، فعلى هذا يكون معنى يسمعون كلام الله يعنى التوراة، لأنه يصح أن يقال لمن سمع التوراة يسمع كلام الله* ولم يرض الطبرى هذا القول من الخازن فقال: ولو كان تأويل الآية على ما قاله الذين زعموا أنَّه عنى بقوله يسمعون كلام الله يسمعون التوراة، لم يكن لذكر قوله: يسمعون كلام الله معنًى مفهوم لأن ذلك قد سمعه المحرِّف منهم وغير المحرّف، فخصوص المحرّف منهم بأنَّه كان يسمع كلام الله إن كان التأويل على ما قاله الذين ذكرنا قولهم دون غيرهم ممن كان يسمع ذلك سماعهم لا معنى لَهُ، فإن ظنَّ ظانٌّ إنما صلح أن يقال ذلك لقوله يُحرِّفونه فقد أغفل وجه الصَّواب في ذلك، وذلك أنَّ ذلك لو كان كذلك لقيل أفتطمعُون أن يؤمِنُوا لكم، وقد كان فريق منهم يحرفون كلام الله من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، ولكنه جلَّ ثناؤه أخبر عن خاصٍّ من اليهود كانُوا أعطوا من مباشرتهم سماع كلام الله ما لم يعطه أحد غير الأنبياء والرسل، ثم بدَّلُوا وتحرَّفوا ما سمعوا من ذلك، فلذلك وصفهم بما وصفهم به للخصوص الذي كان خُصَّ به هؤلاء الفريق الذي ذكرهم في كتابه تعالى ذكره ...
وذلك إخبار من الله جلَّ ثناؤه عن اقدامهم على البهت ومناجتهم العداوة لَهُ ولرسوله موسى عليه السلام، وأن بقاياهم من مناجتهم العداوة لله ولرسوله محمد صلى الله عليه وسلَّم بغياً وحسداً على مثل الذي كان عليه أوائلهم من ذلك في عصر موسى عليه الصلاة والسلام*
«يُحرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ» (من بعد ما عقلوه) متعلق بيحرِّفونه. والتحريف الإمالة والتحويل، والضمير في عقلوه يعود على الكلام، أي من بعد تعقلهم إيَّاهُ. وعقلوه: فهموه بعقولهم، ولم يبق لهم في مضمونه، ولا في كونه كلام ربّ العزة ريبة أصلاً. **«وَهُمْ يعْلَمُونَ»** جملة حالية، وفي العامل فيها قولان: أحدهما عقلوه، ولكن يلزم منه أن تكون حالاً مؤكدة لأن معناها قد فهم من قوله عقلُوهُ، والثاني وهو الظاهر أنَّه حال علمهم بذلك. أي فساد مخالفته، و يعلمون أيضاً أنهم كاذبون.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصدِّق لِمَا مَعَهُمْ وكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ ما عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ على الكافرينَ»
سورة البقرة (آية: ٨٩)

ذكر الوحدى في أسباب النزول قال ابن عباس: كان يهود خيبر تقاتلُ غطفان، فكلما

التقوا هزمت يهود خيبر، فعاذت اليهود بهذا الدعاء. وقالتْ: اللهمَّ إنّا نسألك بحقِّ النبيِّ الأمّى الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا نصرتنا عليهم، قال: فكانُوا إذا التقوا دعوا بهذا الدُّعاء فهَزمُوا غطفان، فلمَّا بعث النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم كفروا به، فأنزل الله تعالى: «**وكانُوا مِنْ قبْلُ يستفتحونَ عَلى الَّذِينَ كفَرُوا**» أي بك يا محمد إلى قوله: «**فلعنةُ الله عَلَى الكافرينَ**» ومثل هذا في القرطبي* وقال السُّدىّ: كانت العرب تمرُّ بيهود، فتلقى اليهود منهم أذىً، وكانت اليهود تجد نعت محمد في التوراة أن يبعثه الله فيقاتلون معه العرب. فلمَّا جاءهم محمدٌ صلى الله عليه وسلَّم كفَرُوا به حسداً وقالوا: إنما كانت الرسلُ من بنى إسرائيل، فما بال هذا من بنى إسماعيل* وفي لباب السيوطي: وأخرج ابن أبى حاتم، من طريق سعيد، أوعكرمة عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله صلى الله عليه وسلَّم قبل مبعثه. فلمَّا بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانُوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل و بِشر بن البراء وداود بن سلمة: يا معشر يهود اتَّقوا الله وأسلمُوا، فقد كنتُم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم: أحد بنى النضير ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هوبالذي كنا نذكر لكم، فأنزل الله تعالى: «**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قبْلُ يستفتحون على الَّذِينَ كفَرُوا..**» الآية* وفي الطبرى (جـ ١ ص ٣٢٥) حدّث عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم، قالوا: فينا والله وفيهم يعنى في الأنصار وفي اليهود الذين كانُوا جيرانهم نزلت هذه القصّة، يعنى «**ولمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحونَ عَلَى الَّذِينَ كفَرُوا**» قالوا: كنا قد علوناهم دهراً في الجاهلية ونحن أهل الشرك. وهم أهل الكتاب. فكانوا يقولون إنَّ نبيًّا الآن مبعثه قد أظلَّ زمانه يقتلكم قتل عادٍ وإرم، فلمّا بعث الله تعالى ذكره رسولَه من قريش، واتبعنّاه كفروا به، يقول الله: «**فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرفوُا كفَرُوا به..**»* وعن ابن عباس «**وكانُوا من قبل يَسْتفتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كفَرُوا**» يقول يستنصرون بخروج محمد صلى الله عليه وسلَّم على مشركى العرب يعنى بذلك أهل الكتاب، فلمَّا بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلَّم ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه* وعن على الأزدى في قوله تعالى: «**وكانُوا مِنْ قبل يستفتحون على الذين كفَرُوا**» قال: اليهود كانوا يقولون: اللهمَّ ابعث لنا هذا النبيَّ

يحكم بيننا و بين النّاس، يستفتحون: يستنصرون به على الناس* «**وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ**» يعني القرآن «**مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ**» يعني التوراة، وهذا التصديق في صحة نبوَّة محمد صلى الله عليه وسلَّم لأن نبوَّته وصفته ثابتة في التوراة «**وَكَانُوا**» يعني اليهود «**مِنْ قَبْلُ**» أي من قبل مبعث النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم «**يَسْتَفْتِحُونَ**» أي يستنصرون به «**على الَّذِينَ كَفَرُوا**» يعني مشركي العرب، وذلك أنَّهم كانوا إذا أحزنهم أمرٌ ودهمهم عدوٌّ يقولون: اللهمَّ انصرنا بالنبيّ المبعوث في آخر الزمان الذي نجد صفته في التوراة، فكانوا يُنصرون، وكانُوا يقولون لأعدائهم من المشركين: قد أظَّل زمان نبيٍّ يخرج بتصديق ما قُلنا فنقتلكم معه قتل عادٍ وإرم، الخازن (جـ١ ص ٦٤)* وفي المصباح: فتح الله على نبيّه: نصره، واستفتحت: استنصرت* وفي المختار: والاستفتاح: الاستنصار، والفتح: النصر* «**فَلَماَّ جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا**» أي الذي عرفوه، يعني محمداً صلى الله عليه وسلَّم عرفوا نعته وصفته وأنَّه من غير بني اسرائيل «**كَفَرُوا بِهِ**» أي جحدوه وأنكروه بغياً وحسداً* «**فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكافرين**» جملة من مبتدأ وخبر، متسببة عما تقدَّم والمصدر هنا مضاف للفاعل، وأتى بعلى تنبيهاً على أنَّ اللعنة قد استعلت عليهم وشملتهم، وقال على الكافرين، ولم يقل عليهم إقامة للظاهر مقام المضمر لينبّه على السبب المقتضى لذلك وهو الكفر* قال الضحاك عن ابن عباس في قوله: «**وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا**» قال: يستنصرون يقُولون نحنُ نُعين محمداً عليهم، وليسُوا كذلك بل يكذبون* والآية التي تليها تتعلَّق بها وهي قولُهُ تعالى: «**بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْياً أَن يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاؤا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ**» سورة البقرة (آية: ٩٠) أي بئس شيء اشتروا به أنفسهم حين استبدلُوا الباطل بالحقٍّ، واشتروا بمعنى باعُوا، والباء في به داخله على المأخوذ والمعنى: بئس ما باعُوا به حظّ أنفسهم «**أن يكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ**» يعني القرآن «**بغياً**» أي حسداً، مفعول لهُ ليكفروا أي حسداً على «**أن يُنَزِّلَ اللهُ**» وقدرتُ على ليفيد أنَّه على إسقاط الخافض لا أنَّه مفعول من أجله «**مِنْ فَضْلِهِ**» يعني الكتاب والنبوَّة «**عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**» يعني محمداً صلى الله عليه وسلَّم «**فَبَاؤا**» أي فرجعوا «**بِغَضَبٍ على غَضَبٍ**» أي مع غضب قال ابن عباس: الغضب الأ ول بتضييعهم التَّوراة وتبديلها، والثاني: بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلَّم* وقيل الأ ول:

بكفرهم بعيسى والإنجيل، والثاني: بمحمد صلى الله عليه وسلّم والقرآن* وقيل الأول بعبادتهم العجل. والثاني بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلّم* فيكون معنى «بَآؤا» هنا استوجبوا واستحقُّوا واستقرُّوا بغضب على غضب، وقال أبو العالية: غضبُ الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلّم وبالقرآن* وعن عكرمة وقتادة مثله، قال السّدىّ: أمَّا الغضبُ الأوّل فهو حين غضب عليهم حين كفرُوا بمحمد صلى الله عليه وسلّم* وعن ابن عباس مثله* «**وَلِلْكَافِرِينَ**» يعني الجاحدين بنبوَّة محمد صلى الله عليه وسلّم من النَّاس كلهم* والكفر في اللغة نقيض الإيمان، آمنَّا بالله وكفرنا بالطاغوت. والكُفْرُ: كُفْرُ النعمة، وهو نقيض الشكر، والكفر: جُحودُ النعمة، وهو ضدُّ الشّكرِ، وقوله تعالى: «**إنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ**» أي جاحدون. وكافره حَقَّهُ: جحده، ورَجُلٌ مُكَفَّرٌ مجحود النعمة مع إحسانه، ورجل كافر: جاحِدٌ لأنْعُمِ الله، مشتق من السَّتْرِ، وقيل: لأنَّه مُغَطَّى على قلبه* قال بعض أهل العلم: الكفر على أربعة أنحاء* كفر إنكار بأن لا يعرف الله أصلاً ولا يعترف به* والعياذ بالله وكفر جحود* والعياذ بالله وكفر معاندة* والعياذ بالله ـ وكفر نفاق* والعياذ بالله من لقي ربَّهُ بشيء من ذلك لم يغفر له، و يغفر ما دون ذلك لمن يشاءُ. فأما كفر الإنكار، فهو أن يكفرَ بقلبه ولسانه، ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد، وكذلك روى في قوله تعالى: «**سَوَاءٌ عَلَيْهِم أأَنْذَرْتَهُمْ أمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يؤمِنُون**» أي وهم هؤلاء الذين كفروا بتوحيد الله، وأما كفر الجحود فأن يعترف بقلبه ولا يقرُّ بلسانه فهو كافرجاحدٌ ككفرإبليس، وكفر أُمَيَّة بن أبي الصَّلتِ، ومنه قوله تعالى: «**فَلَمَّا جَاءَهُمْ ماعَرَفُوا كفرُوا بِهِ**» يعني كفر الجحود: وأما كفر المعاندة فهو أن يعرف الله بقلبه، و يُقرُّ بلسانه ولا يدين به، حسداً و بغياً ككفــر أبي جهل وأضرابه* وفي التهذيب: يعترف بقلبه، و يُقِرُّ بلسانه و يأبى أن يقبل كأبي طالب حيث يقول:

وَلـقـد عَـلِـمـتُ بـأنَّ دين محمدٍ   مـن خير أديـان الـبـريَّـة دِيـنَـا

لـولا المـلامـةُ أوْ حِـذارُ مَـسَـبَّـةٍ   لَـوَجَـدْتَنِي سَـمْـحاً بذاك مُبـيـنَـا

وأمَّا كفْرُ النِّفاقِ، فأن يُقرَّ بلسانه، و يكْفُرَ بقلبه ولا يعتقد بقلبه* قال الهرويُّ: سئل الأزهريُّ عمن يقُول بخلق القرآن أنسَمِّيه كافراً؟ فقال: الذي يقوله كفْرٌ، فأعيد عليه السؤال ثلاثاً، و يقولُ ما قال: ثم قال في الآخر: قد يقولُ المسلمُ كفراً* روى عن النبيّ

صلى الله عليه وسلّم أنه قال: [قِتَالُ الْمُسْلِمِ كَفْرٌ، وسِبَابُهُ فِسْق، ومن رَغِبَ عَنْ أبيهِ فقدْ كَفَرَ]* قال شُمّر: والكفر أيضاً بمعنى البراءة كقوله تعالى حكاية عن الشيطان في خطيئته إذا دخل النار: «**إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمونِي مِنْ قَبْلُ**» أي تبرأتُ* وكتب عبدالملك إلى سعيد بن جُبيْر يسأله عن الكفر فقال: الكفر على وجوه: فكفرٌ هو شرك يتّخذ مع الله إلهاً آخر، وكفرٌ بكتاب الله ورسُوله: وكفرٌ بادّعاء ولدٍ لله، وكفر مدعى الإسلام، وهو أن يعمل أعمالاً بغير ما أنزل الله و يسعى في الأرض فساداً، و يقتل نفساً محرَّمةً بغير حقٍّ، ثم نحو ذلك من الأعمال كفرانِ: أحدهما: كفر نعمة الله، والآخر: التكذيب بالله* وفي التنزيل العزيز: «**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا، ثم ازدادُوا كفراً لَمْ يكُنِ الله ليغْفِرَ لَهُمْ**» قال بعضهم: يعني اليهود لأنَّهم آمنوا بموسى عليه السلام، ثم كفروا بعزير، ثم ازدادُوا كفراً بمحمد صلى الله عليه وسلّم* وقال تعالى: «**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فأولئِكَ هُمُ الكافِرُونَ**» معناه أنَّ من زعم أن حكماً من أحكام الله الذي أتت به الأنبياء عليه السلام باطل فهو كافر، وفي حديث ابن عبّاس: قيل له: «**وَمَنْ لَمْ يحكُمْ بما أنزل الله فأولئكُ هُمُ الكافرون**» وليسوا كمن كفر بالله واليوم الآخر* وقد أجمع الفقهاء أنَّ من قال: إنَّ المحصَنَيْن لا يجب أنْ يرجما إذا زنيا وكانا حريْن، كافر، وإنما كفر من ردَّ حكماً من أحكام النبيِّ صلى الله عليه وسلّم، لأنَّه مكذّبُ لَهُ، ومن كذَّب بالنبيِّ صلى الله عليه وسلّم فهو كافرٌ* وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: [إذا قال الرَّجُلُ للرجل أنت لى عدُوٌ، فقدْ كفر أحدهما باللإسلام]* أراد كفر النعمة لأن الله عزّ وجلَّ ألَّف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً، فمن لم يعرفها فقد كفرها* وفي الحديث: [من ترك قَتْلَ الحيَّاتِ خشية النّار فقد كَفَر» أي كفر النعمة. وكذلك حكم الحديث الآخر: [مَنْ أتى حائضاً فقد كفر] وحديث الأنواء [إن الله لينزّلُ الغيْثَ فيُصْبِحُ قوْمٌ بِهِ كافِرينَ، يقولُونَ: مُطرنا بنَوْءِ كذا وكذا] أي كافرين بذلك دون غيره حيث ينسبون المطر إلى النوْء دون الله* ومنه الحديث: [فرأيْتُ أكثر أهلها النّساءُ لكفرهنّ. قيل أيكفرن بالله؟ قال: لا ولكن يكفرن الإحسانَ و يكفرنَ العشير]* أي يجحدن إحسان أزواجهن. وفي الحديث الآخر: [سباب المسلم فسوق وقتالُهُ كفرٌ] والأحاديث من هذا النوع كثيرة تحتاج إلى جمع في مؤلّف ولا تخلو من فوائد كثيرة* والكفر في اللغة أيضاً: التغطية، والكافر ذو كفر. أي ذو تغطية لقلبه بكفره، كما يقال للابس السّلاح كافر، وهو الذي غطّاه السلاح، وذلك

أن الكافر لمَّا دعاه الله إلى توحيده فقد دعاه إلى نعمة، وأحبُّها لَهُ إذا أجابَهُ إلى ما دعاه إليه، فلمَّا أبى ما دعاه إليه من توحيده كان كافراً نعمة الله، أي مغطياً لها بإبائه، حاجباً له عنه. وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم قال في حجة الوداع: [ألا لا تَرْجِعُنَّ بَعْدي كفَّاراً يضرِبُ بعضكم رقاب بعض]* وفي قوله عليه الصلاة والسلام كفَّاراً قولان: أحدهما: لابسين السِّلاح متُهيئين للقتال. كأنه أراد بذلك النهى عن الحرب، والقول الثاني: أنه يُكفِّرُ النَّاسَ فَيَكْفُرُ كما تَفْعَلُ الخوارجُ إذا استعرضوا الناس فيكفرونهم، وهو كقوله عليه الصلاة والسلام: [من قال لأخيه ياكافر فقد باء به أحدهما» لأنَّه إمَّا أن يَصْدُقَ عليه أو يكذب، فإن صدقه فهو كافر، وإن كذب عاد الكفر إليه بتكفيره أخاهُ المسلم* وكفَّرَ الرَّجلَ: نَسَبَهُ إلى الكفر. وكل من ستر شيئاً فقد كفرهُ وكفَّرَهُ، والكافِرُ: الزرَّاعُ لسترهِ البذور بالتُّراب، والكفَّارُ: الزُّراعُ ومنه قوله تعالى: «**كَمَثَلِ غَيْثٍ أعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ**» أي أعجب الزُّراع نباتُه* وقد قيل: الكفار في هذه الآية الكفار بالله، وهم أشدُّ إعجاباً بزينة الدنيا وحرثها من المؤمنين، والكافِر: اللّيل. وفي الصحاح: الليل المظلم لأنه يستر بظلمته كل شيء.. والبحث يطول شرحه جداً وتقدم طرفاً منه قوله: «**عَذَابٌ مُهِينٌ**» أي يهانون فيه. وهو صفة لعذاب، وأصله مهون لأنه من الهوان، وهو اسم فاعل من أهان يهين إهانةً، مثل أقام يقيم إقامة. فنقلت كسرة الواو إلى الساكن قبلها، فسكنت الواو بعد كسرة فقلبت ياءً، والإهانة الإذلالُ والخزىُ، وقال: وللكافرين. ولم يقل ولهم تنبيهاً على الْعِلَّة المقتضية للعذاب المهين* قال الجلال: ذو إهانة. أي وإذلال لَهُم لما أنَّ كفرهم بما أنزل عليه صلى الله عليه وسلَّم، بخلاف عذاب العاصى إذ هو مطهر له فقط، ولما كان كفرهم سببه البغى والحسد ومنشأ ذلك التكبر قوبلُوا بالإهانة والصغار في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: «**إنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخرِينَ**» أي صاغرين حقيرين ذليلين راغمين* أخرج الإمام أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم قال: [يُحشَرُ المتكبِّرونَ يَوْمَ القيامة أمْثَالَ الذَّر في صور النَّاس يعْلُوهم كل شيء من الصغار حتّى يَدْخُلُوا سِجْناً في جَهَنَّمَ يُقالُ لَهُ بُولس تعْلُوهُمْ نارُ الأنيارِ يُسْقَوْن من طينة الخبال، عُصَارةُ أهل النَّار.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ * مَنْ كَانَ عَدُوًّا للهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ» سورة البقرة (آية: ٩٧، ٩٨)

جاء في أسباب النزول للواحدى (ص ١٧) عن ابن عباس قال: أقبلت اليهودُ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلَّم فقالوا: يا أبا القاسم، نسْألُكَ عَنْ أشْياءَ فإن أجبتنا فيها اتبعناك، أخبرنا من الذى يأتيك من الملائكة؟ قال: جبريل، قالوا: ذاك الذي ينزل بالحروب والقتال، ذاك عدُّونا، لو قُلتَ ميكائيل الذي ينزل بالمطر والرحمة اتّبعناك، فأنزل الله تعالى: **«قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لجبْريلَ فإنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ..»** إلى قوله: **«فإنَّ اللهَ عَدُوٌّ للكافرينَ»*** وفي لباب السيوطي وأخرج ابن اسحاق بن راهو يه في مسنده، وابن جرير من طريق الشّعْبي أنَّ عمر كانَ يأتي اليهودَ فيسْمَعُ من التَّوراة، فيتعجَّب كيف تُصدِّقُ ما في القرآن، قال: فمرَّ بهم النبيُّ صلى الله عليه وسلَّم، فقلت: نشدتكُم بالله أتعلمون أنَّهُ رسُولُ الله؟ فقال عالمهم: نعم، نعلم أنّه رسول الله، قُلتُ: فَلِمَ لا تتّبعونه؟ قالوا: سألناه من يأتيه بنُبوَّته، فقال: عدوُّنا جبريل لأنّه ينزل بالغلظة والشدّة والحروب والهلاك، قُلتُ: فمن رُسُلكم من الملائكة؟ قالوا: ميكائيل ينزل بالقطر والرحمة، قُلتُ: وكيف منزلتهما من ربِّهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه، والآخر عن الجانب الآخر، قلتُ: فإنَّه لا يحلُّ لجبريل أن يعادى ميكائيل، ولا يحلُّ لميكائيل أن يُسالم عدوَّ الله جبريل، وإننى أشهدُ أنّهما وربَّهما سلْم لمن سالموا، وحرب لمن حاربُوا، ثُمَّ أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم، وأنا أريدُ أن أخبره، فلما لقيته قال: ألا أخبرك بآيات نزلت عليَّ؟ فقُلتُ: بَلَى يا رسول الله فقرأ: **«مَنْ كَانَ عَدُوًّا لجبْريل»** حتى بلغ **«للكَافِرِينَ»** قُلتُ يا رسول الله: والله ما قُمتُ من عند اليهود إلاَّ إليك لأخبرك بما قالوا لى، وقُلْتُ لهم: فوجدت الله سبقنى* وإسناده صحيح إلى الشعبىّ، لكنه لم يدرك عمر، إنّ الحديث منقطع، وله طرق أخرى عن الشعبي والسّدى عن عمر وهما منقطعان، وكذا رواه القرطبيُّ في تفسيره* قال الطبرى في تفسيره (جـ١ ص ٣٤١) أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً على أنَّ هذه الآية نزلت جواباً لليهود من بنى إسرائيل إذْ زعموا أنّ جبريل عدوٌّ لهم، وأنَّ ميكائيل ولىٌّ لهم، ثم اختلفوا في السبب الذي من أجله قالوا ذلك، فقال بعضهم: إنما كان سبب قيلهم ذلك

من أجل مناظرة جرت بيْنهم و بينَ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في أمر نُبوَّته، ثم ذكر عن ابن عباس أنَّه قال: [حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلَّم، فقالوا يا أبا القاسم: حدثنا عن خلال نسألك عنهنَّ لا يعلمهُنَّ إلاَّ نبى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: سلونى عمَّا شئتُم فقالوا: أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهُنَّ، أخبرنا عن أيِّ الطعام حرَّم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزَّل التوارة، وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل، وكيف يكون الذكر منه والأنثى، وأخبرنا بهذا النبيِّ الأميِّ في النوم ومن وليّه من الملائكة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعنّى، فأعطوه ماشاء من عهد وميثاق، فقال نشدتكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض مرضاً شديداً، فطال سقمه منْهُ فنذر نذراً لئن عافاهُ الله من سقمه ليُحرِّمنَّ أحبَّ الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحم الإبل (قال أبو جعفر فيما أرى) وأحبّ ألبانها؟ فقالوا: اللهم نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلَّم: أشهد الله عليكم وأنشدكم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق؟ فأيها علا كان له الولد والشبه بإذن الله، فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله؟ قالوا: اللهم نعم، قال: اللهمَّ اشهد، قال: وأنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أنَّ هذا النبيَّ الأمِّيَّ تنام عيناهُ ولا ينامُ قلبه؟ قالُوا: اللهمَّ نعم، قال: اللهمَّ اشهد. قالوا: أنت الآن تحدثنا عن وليِّك من الملائكة، فعندها نتبعك، أو نفارقك، قال فإنَّ وليّ جبريلُ، ولم يبعث الله نبيًّا قط إلاَّ وهو وليُّه، قالوا: فعندها نفارقك، لو كان وليُّك سواهُ من الملائكة تابعناك وصدّقناك، قال: فما يمنعكم أن تُصدِّقوه؟ قالوا: إنَّه عدوُّنا فأنزل الله عزّ وجلَّ: **«مَنْ كان عدُوًّا لجبريل فإنَّه نَزَّلَهُ على قلبك بإذن الله»** إلى قوله: **«كأنَّهم لا يَعْلمون»** فعندها بأوُا بغَضَب على غضب و بقيّة الآيات على هذا القول هي: **«وَلَقَدْ أنْزَلْنَا إلَيْكَ آياتٍ بَيِّنَاتٍ وما يكْفُرُ بِهَا إلاَّ الْفَاسِقُونَ * أوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيق مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كتابَ الله وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كأنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ*»** سورة البقرة (آية: ٩٩، ١٠٠، ١٠١).

ذكر عن الشعبيّ: قال: نزل عمر الروحاء، فرأى رجالاً يبتدرون أحجاراً يُصلّون إليها، فقال: ما هؤلاء؟ قالُوا: يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلّى ههنا، فكرّه ذلك، وقال: إنما رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أدركته الصلاة بوادٍ، فصَلى، ثم ارتحل فتركه، ثم أنشأ يحدثهم، فقال: كنت أشهد اليهود يوم مدارسهم، فأعجب من التوراة كيف تُصدّق الفرقان، ومن الفرقان كيف يصدّق التوراة، فبينا أنا عندهم ذات يوم، قالوا: يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك، قلتُ: وَلِمَ ذلك؟ قالوا: إنك تغشانا وتأتينا، قال: قلتُ: إني آتيكم، فأعجب من الفرقان كيف يُصدّق التوراة ومن التوراة كيف تُصدّق الفرقان، قال: ومرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به، قال فقلت لهم عند ذلك أنشدكم بالله الذي لا إلـٰـه إلاَّ هو، وما استرعاكم من حقّه واستودعكم من كتابه، أتعلمون أنَّهُ رسولُ الله؟ قال: فَسَكتوا قال: فقال عالمهم وكبيرهم: إنَّهُ قد عظم عليكم فأجيبُوهُ، قالوا أنت عالمنا وسيّدنا فأجبه أنت، قال: أمَّا إذا أنشدتنا به، فإنا نعلم أنَّـهُ رسُولُ الله، قال: قلتُ ويحكم أي هلكتم، قالوا: إنا لم نهلك، قال: قلتُ كيف ذلك، وأنتُم تعلمون أنَّهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لا تتبعونه ولا تُصدِّقونه، قالوا: إن لنا عدُواً من الملائكة وسلماً من الملائكة، وأنَّه قرن به عدوَّنا من الملائكة، قال: قلتُ ومن عدّوكم؟ ومن سلمكم؟ قالُوا: عدُّونا جبريل، وسلمنا ميكائيل. قال: قلت وفيمَ عاديتُم جبريل، وفيمَ سالمتُم ميكائيل؟ قالوا: إنَّ جبريلَ مَلَكُ الفظاظة والغلظة والاعسار الشّديد، والعذاب ونحو هذا، وإن ميكائيل مَلَكُ الرأفة والرحمة والتّخفيف ونحو هذا، قال: قلتُ وما منزلتها من ربّهما؟ قالوا: أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره. قال: قُلتُ فوالله الذي لا إله إلاّ هو إنهما والذي بينهما لعدوٌّ لمن عاداهما، وسلمٌ لمن سالمهما. ماينبغي لجبريل أن يُسالم عدوّ ميكائيل، ولا لميكائيل أن يسالم عدوّ جبريل، قال: ثم قمتُ فاتبعت النبيَّ صلى الله عليه وسلم فلحقتُه، وهو خارج من خرفة لبني فلان، فقال لي: يا ابن الخطاب ألا أُقرئك آياتٍ نزلن فقرأ عليَّ: «**قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لجبريل فإنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بإذنِ الله مُصدِّقاً لما بيْن يديْه**» حتى قرأ الآيات. قال: قلتُ بأبي وأمي يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لَقدْ جئتُ، وأنا أريد أن أخبرك الخبر، فأسمع اللّطيف الخبير، قد سبقني إليك بالخبر. والأقرب في سبب عداوة اليهود لجبريل عليه السلام لأنَّه كان ينزل بالقرآن على محمد

صلى الله عليه وسلم كما يشعر بذلك قولُه «**فإِنَّهُ نَزَّلَهُ..**» أي إن عاداهُ أحد، فالسبب في عداوته أنَّهُ نزل عليك القرآن مُصدِّقاً لكتابهم وموافقاً له، وهم كارهون للقرآن ولموافقته لكتابهم، ولذلك كانُوا يُحرفونه ويجحدون موافقته له، كقولك إن عاداك فلانٌ فقد آذنتُه وأسأتُ إليه، وإن عادى جبريل أحدٌ من أهل الكتاب فلا وجه لمعاداته حيث نزل كتاباً مُصدِّقاً للكتب بين يديه، فلو أنصفوا لأحبُّوه وشكروا له صنيعَهُ في النزول بما ينفعهم و يصحح المنَزّل عليهم، ويمكن أن يتوجّه الجزاء إلى قوله: «**بإِذن الله**» إلى آخره. أي إن عاداهُ أحدٌ فلا وجه لعداوته لأنه لم ينزل بالقرآن من تلقاء نفسه، و باختياره، وإنما جاء بإذن الله، وأمره الذي لا محيص عنْهُ، ولا سبيل إلى مخالفته، وجاء به مُصدِّقاً هادياً مُبشراً، فهو من حيث إنه مأمور وجب أن يكون معذوراً، ومن حيث أنه أتى بالهداية والبشارة يلزم أن يكون مشكوراً، فعداوته من هذا السبيل عداوة لله تعالى، ولو أنَّه تعالى أمر ميكائيل بذلك لانقاد لأمره أيضاً لا محالة، ولتوجه الإشكال عليه، فما الوجه في تخصيص جبريل بالعداوة* روى الطبرى عن قتادة قال: ذكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود، فلما ابصروه رحبوا به، فقال لهم عمر أما والله ما جئتُ لحبكم ولا للرغبة فيكم، ولكن جئت لأسمع منكم فسألهم وسألوه، فقالوا: من صاحب صاحبكم؟ فقال لهم جبريل، فقالوا: ذاك عدونا من أهل السماء، يُطلِعُ محمداً على سرنا، وإذا جاء جاء بالحرب والسَّنة، ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل، وكان إذا جاء جاء بالخصب و بالسِّلم، فقال لهم عمر: أفتعرفون جبريل، وتنكرون محمداً، ففارقهم عمر عند ذلك، وتوجَّه نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ليحدثه حديثهم، فوجده قد أنزل عليه هذه الآية: «**قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لجبريلَ فإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبِكَ بإِذْنِ الله**»* وروى عن السّدىّ: «**قُلْ مَنْ كانَ عَدُواً لجبريلَ فإِنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بإِذْنِ الله مُصَدِّقاً لِمَا بيْنَ يَدَيْهِ**» قال: كان لعمر بن الخطاب أرض بأعلى المدينة، فكان يأتيها، وكان ممّره على طريق مدارس اليهود، وكان كلما دخل عليهم سمع منهم، وأنه دخل عليهم ذات يوم، فقالوا يا عمر: ما في أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم أحدٌ أحبُّ إلينا منك إنَّهم يمرون بنا، فيؤذوننا، وتمرُّ بنا فلا تؤذينا، وإنَّا لنطمعُ فيك، فقال لهم عمر: أيُّ يمينٍ فيكم أعظم؟ قالوا: الرحمـٰنُ الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء، فقال لهم عمر: فأنشدكم بالرحمن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أتجدون محمداً صلى الله عليه وسلم

عندكم؟ فأسْكِتُوا! فقال: تكلموا، ما شأنكم؟ فوالله ما سألتكم وأنا شاكٌّ في شيء من ديني، فنظر بعضهم إلى بعض، فقام رجلٌ منهم، فقال: أخبروا الرجل لتخبرنَّه أولأخبرنَّهُ؟ قالوا: نعم إنَّا نجده مكتوباً عندنا، ولكن صاحبه من الملائكة الذي يأتيه بالوحي هو جبريل، وجبريل عدوُّنا، وهو صاحب كل عذاب أو قتال، أو خسف، ولو أنَّه كان وليُّه ميكائيل إذاً لآمنَّا به، فإنَّ ميكائيل صاحب كل رحمة وكل غيث، فقال لهم عمر: فأنشدكم بالرَّحمٰن الذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء أين مكان جبريل من الله؟ قالوا: جبريل عن يمينه وميكائيلُ عن يساره، قال عمر: فأشهدكم أنَّ الذي هو عَدوٌّ للذي عن يمينه عدوٌّ للذي هو عن يساره، والذي هو عَدو للذي هو عن يساره عدو للذي هو عن يمينه، وأنَّه من كان عدوهما فإنه عدو لله، ثم رجع عمر ليخبر النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فوجد جبريل قد سبقه بالوحى، فدعاه النبي صلى الله عليه وسلم فقرأهُ عليه، فقال عمر: والذي بعثك بالحق لقد جئتُكَ وما أريد إلاَّ أن أخبرك. وكذا رواية الشعبي وفي آخرها: وقد أنزل عليه **«من كانَ عدُوًّا لجبريل فإنَّهُ نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بإذْنِ الله»** إلى قوله: **«فإنَّ الله عَدوٌّ للكافرين»**. وفي الخازن (جـ ١ ص ٦٦) **«قُلْ من كَانَ عَدُوًّا لجبريلَ»** قال ابن عباس: نزول هذه الآية أن عبدالله بن صوريا: حبر من أحبار اليهود، قال للنبيَّ صلى الله عليه وسلم أي مَلَكٍ يأتيك من السماء؟ قال: جبريل. قال: ذلك عدونا، ولو كان ميكائيل لآمنا بك، إنَّ جبريل ينزل بالعذاب والشدة والخسف، وأنَّه عادانا مراراً، وأشد ذلك علينا، إنَّ الله أنزل على نبيِّنا أن بيت المقدس سيخرب على يد رَجلٍ يقال له: بختنصّر، فلمَّا كان زمنه بعثنا من يقتله، فلقيه ببابل غلاماً مسكيناً فأخذه ليقتله، فدفع عنه جبريل، وقال: إن الله أمره بهلاككم فلن تُسلط عليه، وإن لم يكن هو فعلى أيِّ حق تقتُلُه، فلمَّا كبر ذلك الغلام، وقوى غزانا، وخرب بيْت المقدس، فلهذا نتَّخذُه عدواً، فأنزل الله هذه الآية. وقيل: قالوا إن الله أمره أنْ يجعل النبوة فينا فجعلها في غيرنا فاتّخذناه عدواً. وأخرج الإمام أحمد عن ابن عبَّاس قال: أقبلت يهود على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا عن خمسة أشياء فإن أنبأتنا بهنَّ عرفنا أنَّك نبيٌّ واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ اسرائيل على بنيه إذ قال: والله على ما نقول وكيل. قال هاتُوا، قالوا: فأخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه، قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكَّرُ؟ قال: يلتقى الماءان فإذا علا ماء الرجل

مـاء المرأة أذكرت، وإذا علا ماءُ المرأة ماء الرجل أنثت قالوا: أخبرنا ما حرَّم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يشتكي عرق النساء، فلم يجد شيئاً يلائمه إلا ألبان كذا ــ قال أحمد: قال بعضهم: يعني الإبل ــ فحرَّم لحومها. قالوا: صَدَقت، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة الله عزَّ وجل موكل بالسحاب بيده مخراقٌ من نار يزجر به السَّحاب، يسوقه حيث أمره الله تعالى، قالوا: فما هذا الصوت الذي نَسْمَعُ؟ قال: صوته. قالوا: صدقت. قالوا: إنما بقيت واحدة، وهي التي نتابعك إن أخبرتنا بها. إنَّه ليس من نبي إلاَّ وله ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل عليه السلام. قالوا: جبريل ذاك الذي ينزل بالحرب، والقتال والعذاب عدوُّنا، لو قُلتَ ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان. فأنزل الله تعالى: **«قُلْ من كانَ عَدُواً لجبْريلَ فإنَّهُ نزَّلَهُ على قلبك بإذن الله»** إلى آخر الآية» ورواه الترمذي والنسائي من حديث عبدالله بن الوليد. وقال الترمذي حسن غريب» قال البخاري قوله تعالى: **«مَنْ كَانَ عَدُواً لجبريل»** قال عكرمة: جبراً وميكا وإسراف عبد. وإيل: الله» وعن أنس بن مالك قال: سمع عبدالله بن سلام بمقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو في أرض يخترف فأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يَعْلَمهن إلاَّ نبيٌّ: ما أول أشراط الساعة؟ وما أوَّل طعام أهل الجنَّة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه أو إلى أمِّه؟ قال: أخبرني بهذا جبرائيل آنفاً. قال: جبريل؟ قال: نعم، قال: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقرأ هذه الآية **«مَنْ كانَ عدواً لجبْريلَ فإنَّهُ نزَّلَهُ عَلَى قلبك»** وأما أول أشراط الساعة فنارٌ تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأمَّا أول طعام يأكله أهلُ الجنَّة، فزيادة كبد الحوت، وإذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نزع الولد، وإذا سبق ماءُ المرأة نزعتْ. قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنَّك رسول الله. يا رسول الله إنَّ اليهود قوم بهت، وإنَّهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني، فجاءتِ اليهود، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي رجلٍ عبدالله بن سلام فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيّدنا. قال: أرأيتم إن أسلَمَ؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبدالله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، فقالوا: هو شرُّنا وابن شرِّنا، وانتقصوه، فقال: هذا الذي كنتُ أخاف يا رسول الله» انفرد به البخاري من هذا الوجه وليس فيه ذكر جبريل عليه السلام» وقوله تعالى: **«فإنَّهُ نزَّلَهُ»** يعني جبريل نزل بالقرآن **«عَلَى قَلْبِكَ»**

يا محمد، وإنما خصّه بالذكر لأنه خزانة الحفظ، وأضافه إلى ضمير المخاطب دون ياء المتكلم، وإن كانَ ظاهر الكلام، يقتضي أن يكون على قلبي، إما مراعاة لحال الآمر بالقول فيردُّ لفظه بالخطاب، وإما لأنَّ ثم قولاً آخر مضمراً بعد قل: والتَّقدير: قل يا محمد قال الله من كان عدواً لجبريل* «**بِإِذْنِ اللهِ**» أي بأمره، فيه تلويح بكمال توجه جبريل عليه السلام إلى تنزيله وصدق عزيمته عليه، وهو حال من فاعل نزَّله* قال ابن الخطيب: تفسير الإذن هنا بالأمر أي بأمر الله أولى من تفسيره بالعلم لأن الإذن حقيقة في الأمر مجاز في العلم، ويجب الحمل على الحقيقة ما أمكن. «**مُصَدِّقاً**» أي موافقاً. أحوال من مفعول نزَّله، وفي ذكر الأخيرين تنبيه على أن القرآن مشتمل على بيان ما وقع به التّكليف من أفعال القلوب والجوارح* «**لِمَا بيْنَ يَدَيْهِ**» أي لما قبله من الكتب السمٰوية السابقة المنزلة: «**وَهُدَى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمنِينَ**» أي في القرآن هداية للمؤمنين إلى الأعمال الصالحة التي يترتب عليها الثّواب، و بشرى لهم بثوابها إذا أتوابها، والمفهوم المخالف، أي وعذاباً وشدَّةً على الكافرين* «**مَنْ كَانَ عَدُواً لله وَمَلائكَتِهِ وَرُسُلِهِ وجِبْرِيلَ وَمِيكال**» قال الخازن في تفسيره (جـ ١ ص ٦٦) لمَّا بيَّن في الآية الأولى أنَّ من كان عدوًّاً لجبريل لأجل أنَّه نزل بالقرآن على قلب محمد صلى الله عليه وسلم، وجب أن يكون عدواً لله، لأنَّ الله تعالى هو الذي نزَّله على محمد، بيَّن في هذه الآية أنَّ كل من كان عدواً لأحد هؤلاء، فإنَّه عدوٌّ لجميعهم، و بيَّن أنَّ الله عَدُوّهُ بقوله: «**فإنَّ الله عَدُوٌّ للكافرين**»* وعبارة البيضاوي: وأفرد المكان بالذكر للتنبيه على أن معاداة الواحد، والكل سواء في الكفر، واستجلاب العداوة من الله تعالى، وأن من عادى أحدهم، فكأنَّه عادى الجميع، إذ الموجب لمحبتهم وعداوتهم على الحقيقة واحد. ولأنَّ المحاجة كانت فيهما* وأمَّا عداوتهم لله فإنها لا تضُرهُ ولا تؤثر، وعداوته لهم تؤديهم إلى العذاب الدائم الذي لا ضرر أعظم منه* وقيل: المراد من عداوتهم لله عداوتهم لأوليائه، وأهل طاعته فهو كقوله: «**إنَّما جَزَاءُ الَّذينَ يُحاربُونَ اللهَ ورسُولَهُ**» أي يحاربون أولياء الله، وأهل طاعته* وقدّم جبريل على ميكائيل لفضله عليه، لأنَّ جبريل ينزل بالوحي الذي هو غذاء الأرواح، وميكائيل ينزل بالمطر الذي هو سبب غذاء الأبدان، وجبريل وميكائيل اسمان أعجميان. ومعناهما عَبْدُ الله، لأنَّ جبر وميك بالسريانيّة هو العبد وإيل هو الله* وقوله: «**وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إلَيْكَ آياتٍ بيِّناتٍ**» في الخازن. قال ابن عباس: هذا جواب لابن صوريا حيث قال لرسول الله صلى

الله عليه وسلم: يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل عليك من آية بيّنه فنتّبعك بها، فأنزل الله هذه الآيات* ومعنى بيّنات واضحات مفصلات بالحلال والحرام والحدود والأحكام* «**وَمَا يَكْفُرُ بِهَا**» أي وما يجحدُ بهذه الآيات «**إلاَّ الْفَاسِقُونَ**» أي الخارجون عن طاعتنا وما أمروا به، واللام للعهد، أي الفاسقون المعهودون، وهم أهل الكتاب المحرفون لكتابهم الخارجون عن دينهم، أو للجنس، وهم داخلون فيه دخولاً أوليًا.

القــول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ»

سورة البقرة (آية: ١٠١)

في الخازن (جـ١ ص٦٧) قال ابن عباس لما ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أخذ عليهم من العهود في محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يؤمنوا به قال مالك بن الصيف: والله ما عُهد إلينا في محمدٍ عهداً، فأنزل الله هذه الآية* أوكلما: استفهام إنكاري، عاهدوا عهداً: هو قولهم: إنَّه قد أظل زمان نبي مبعوث، وأنَّه في كتابنا، وقيل: إنهم عاهدوا الله عهوداً كثيرة ثم نقضوها. «**نَبَذَهُ**» أي طرح العهد ونقضه «**فَرِيقٌ مِنْهُمْ**» يعنى اليهود «**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**» يعنى كفر فريق منهم بنقض العهد، وكفر فريق منهم بالجحد للحق* قال الحسن البصرى: في قوله تعالى: «**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**» قال: نعم ليس في الأرض عهد يعاهدون عليه إلاَّ نقضوه، ونبذوه يُعاهدون اليوم و ينقضون غداً* وقال السدي: لا يؤمنون بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم* وقال ابن جرير: أصل النبذ الطّرح والإلقاء، ومنه سُمى اللقيط منبوذاً، ومنه سُمى النبيذ، وهو التمر والزبيب إذا طُرحا في الماء* وقال ابن كثير في التفسير (جـ١ ص ١٣٤): فالقوم ذمَّهم الله بنبذهم العهود التي تقدَّم الله إليهم في التَّمسك بها، والقيام بحقّها، ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسُول المبعوث إليهم وإلى النَّاس كافة الذي في كتبهم نعْتُه وصفته، وأخبارُهُ، وقد أمروا فيها باتباعه وموازرته ونصرته كما قال تعالى: «**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النبيَّ الأمِيَّ الَّذِى يجِدُونَهُ مكْتُوباً عِنْدَهُمْ في التوْرَاةِ والإنجِيل..**» الآية وقال ههنا: «**وَلَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ**» الآية. أي طرح طائفة منهم كتاب الله الذي بأيديهم ممَّا فيه البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وراء ظهورهم، أي تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها، وأقبلوا على تعلمّ

السحر واتباعه، ولهذا أرادوا كيداً برسول الله صلى الله عليه وسلم وسحروه في مشطٍ ومشاقة وجفّ طلعة. ذكر تحت راعونة ببئر أزْوان، وكان الذي تولّى ذلك منهم رجل يقال له لبيد بن الأعصم لعنه الله وقبحّه، فأطلع الله على ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم، وشفاهُ منْهُ، وأنقذه كما ثبت ذلك مبسوطاً في الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها. وقال السدى: **«وَلَمَّا جَاءَهُمْ رسُولٌ مِنْ عِنْدِ الله مُصدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ»** قال: لما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم عارضوا بالتوراة، فخاصموه بها، فاتفقت التوراة والقرآن. فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف، وسحر هاروت وماروت، فلم يوافق القرآن، فذلك قوله: **«كأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»**. قال قتادة: إن القوم كانوا يعلمون، ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه وجحدوا به. وإنما حملهم على ذلك عداوة النبيّ صلى الله عليه وسلم وهم علماء اليهود الذين كانُوا في زمن النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وكتموا أمره، وكان أولئك النفرُ قليلاً. وهي جملة في محل نصب على الحال، وصاحبها فريق. وإن كان نكرة لتخصيصه بالوصف، والعامل فيها نبذ. والتقدير مشبَّهينَ بالجهال، ومتعلق العلم محذوف تقديره إنَّه كتاب الله مع أنَّهم لا يُداخلهم فيه شك، والمعنى أنهم كفروا عناداً. واعلم أنَّه تعالى دلَّ بالآيتين على أن حال اليهود أربــع:

فرقة آمنوا بالتوراة وقاموا بحقوقها كمؤمني أهل الكتاب، وهم الأقلون المدلول عليهم بمفهوم قوله: **«بل أكثرهم لا يؤمنون»**.

وفرقة جاهروا بنبذ عهودها وتخطّى حدودها تمرداً وفسوقاً، وهم المعنيون بقوله: **«نبذه فريق منهم»**.

وفرقة لم يجاهروا بنبذها ولكن نبذوا لجهلهم، وهم الأكثرون المدلول عليهم بمنطوق قوله: **«بَلْ أكْثَرُهُمْ لا يؤمِنُونَ»**.

وفرقة تمسكون بها ظاهراً ونبذوها خفية عالمين بالحال بغياً وعناداً، وهم المتجاهلون المدلول عليهم بقوله: **«كأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ»** (البيضاوي).

القــول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«واتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ ومَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَروا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ومَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ ومارُوتَ ومَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتَّى يقُولاَ إنَّما نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ

بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِه ومـا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ بِإِذْنِ الله و يتعلَّمونَ مـا يضُـرُّهُمْ ولا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فى الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئسَ مـا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» سورة البقرة (آية: ١٠٢)

جاء في أسباب النزول للواحدى (ص ٢٠) عن عمران بن الحارث قال: بينما نحن عند ابن عبّاس إذ قال: إن الشياطين كانُوا يسترقون السمع من السماء، فيجيء أحدهم بكلمة حق فإذا جُرِّب من أحدهم الصدق كذب معها سبعين، فيُشربها قلوب النَّاس، فأطلع على ذلك سليمان، فأخذها فدفنها تحت الكرسي، فلمَّا مات سليمان، قام شيطان في الطريق، فقال: ألا أدلكم على كنز سليمان المنيع الذي لا كنز مثله؟ قالوا: نعم، قال: تحت الكرسي، فأخرجوه، فقالوا: هذا سحر سليمان سحر به الأمم. فأنزل الله «**واتَّبَعُوا مـا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ..**» الآية* وقال الكلبيُّ: إن الشياطن كتبوا السحر والنار نيجات على لسانِ آصف. هذا ما علَّمَ آصف بن برخيا الملكَ، ثم دفنوها تحت مصلاه حين نزع الله ملكه، ولم يشعر بذلك سليمان، ولما مات سليمان استخرجوه من تحت مصلاّه، وقالوا للناس: إنما ملككم سليمان بهذا فتعلموه، فلمَّا علم علماء بنى اسرائيل قالوا: معاذ الله أن يكون هذا علم عَلِمَ سليمان، وإنما القلّة، فقالوا: هذا عِلْمُ سليمان، وأقبلوا علي تعلُّمه، ورفضوا كتب أنبيائهم ففشت الملامة لسليمان، فلم تزل هذه حالهم حتى بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عذر سليمان على لسانه، ونزل براءته ممارُمى به، فقال: «**واتَّبَعُوا مـا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ**» الآية* وقال السديُّ: إن الناس في زمن سليمان كتبوا السحر فاشتغلوا بتعلُّمه، فأخذ سليمان تلك الكتب فدفنها تحت كرسيِّه ونهاهم عن ذلك. ولما مات سليمان، وذهب به كانُوا يعرفون دفن الكتب، فتمثَّل شيطان على صورة إنسان، فأتى نفراً من بنى اسرائيل وقال: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي فحفروا فوجدوا تلك الكتب، فلمَّا أخرجوها قال الشيطان: إنَّ سليمان ضبط الجن والإنس والشياطين والطيور بهذا، فأخذ بنو اسرائيل تلك الكتب، فلذلك أكثر ما يوجد السحر في اليهود، فبرَّأ الله عزَّ وجل سليمانَ من ذلك، وأنزل الآية: «**واتَّبَعُوا مـا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ..**»* وفي لباب السيوطى: أخرج ابن جرير عن شهر ابن حوشب قال: قالت اليهود: انظروا محمداً يخلط الحق بالباطل، يذكر سليمان مع الأنبياء، أفما كان ساحراً

يركب الريح؟!! فأنزل الله تعالى: «وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ..» الآية» وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية أنَّ اليهود سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم زماناً عن أمور من التوراة لا يسألونه عن شيء من ذلك إلا أنزل الله عليه ما سألوه عنه فيخصمهم، فلمّا رأوا ذلك قالوا: هذا أعلم بما أُنزل إلينا منّا، وأنهم سألوه عن السِّحر وخاصموه به، فأنزل الله «وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ..»» وفي الخطيب: قال السدى: كانت الشياطين تسترق السمع فيستمعون كلام الملائكة فيما يكون في الأرض من موت وغيره، فيأتون الكهنة، ويخلطون بما يسمعون في كل كلمة سبعين كذبة، ويخبرونهم بها، فاكتتب الناس ذلك، وفشا في بنى اسرائيل أنَّ الجن تعلم الغيب، فبعث سليمان في الناس، وجمع تلك الكتب فجعلها في صندوق، ودفنها تحت كرسيّه، وقال: لا أسمع أن أحداً يقول إنَّ الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه، فلمّا مات سليمان، وذهب العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان، ودفنه الكتب، وخلف من بعدهم خلف تمثَّل الشيطان على صورة إنسان، فأتى نفراً من بنى اسرائيل، فقال: هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً؟ قالوا: نعم، قال: فاحفروا تحت الكرسي وذهب معهم، فأراهم المكان. وأقام ناحيةً، فقال: ادن، فقال: لا، ولكنّي هَهُنا، فإن لم تجدوه فاقتلوني، وذلك أنَّه لم يكن أحدٌ من الشياطين يدنو من الكرسي إلا احترق، فحفروا وأخرجوا تلك الكتب، وقال الشيطان: إن سليمان كان يضبط الجنَّ والإنس والشياطين والطير بهذا، ثم طار الشيطان، وفشا في الناس أن سليمان كان ساحراً، وأخذ بنو اسرائيل تلك الكتب فلذلك أكثر ما يوجد السحر في اليهود، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم برّأ الله سليمان من ذلك وأنزل تكذيباً لمن زعم ذلك «وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ...»» قال أبو جعفر الطبرى في تفسيره (جـ ١ ص ٣٥٢) يعنى بقوله: «وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ» الفريق أحبار اليهود وعلمائها الذين وصفهم جلَّ ثناؤه بأنهم نبذوا كتابه الذي أنزله على موسى وراء ظهورهم تجاهلاً منهم، وكفراً بما هم به عالمون كأنهم لا يعلمون، فأخبر عنهم أنهم رفضوا كتابه الذي يعلمون أنَّه منزل من عنده على نبيه صلى الله عليه وسلم، ونقضوا عهده الذي أخذه عليهم في العمل بما فيه، وآثروا السِّحر الذي تلته الشياطين في ملك سليمان بن داود، فاتبعوه وذلك هو الخسران والضلال المبين» وفي ابن كثير (جـ ١ ص ١٣٤) وكان حين ذهب ملك سليمان ارتدَّ فئام من الجن والانس، واتبعوا الشهوات، فلما أرجع الله إلى

سليمان ملكه، وقام الناس على الدين كما كان، وإن سليمان ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيِّه، وتوفي سليمان عليه السلام، فظهر الانس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان، وقالوا: هذا كتاب من الله نزل على سليمان، فأخفاه عنّا، فأخذوا به فجعلوه ديناً فأنزل الله تعالى: «**وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ**» الآية، واتبعوا الشهوات التي كانت تتلو الشياطين، وهي المعازف واللعب وكل شيء يصد عن ذكر الله* وذكر ابن كثير عن ابن عباس قال: كانَ آصفُ كاتب سليمان، وكان يعلم الاسم الأعظم، وكان يكتب كل شيء بأمر سليمان، و يدفنه تحت كرسيّه، فلمّا مات سليمان أخرجته الشياطين، فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً، وقالوا: هذا الذي كان سليمان يعمل بها، قال: فأكفره جهال النّاس وسبُّوه، ووقف علماء النّاس. فلم يزل جهال الناس يسبُّونه حتى أنزل الله على محمد صلى الله عليه وسلم: «**واتَّبَعُوا ما تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمانَ وما كَفَرَ سُلَيْمَانَ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا..**»* أي يعني اليهود نبذوا كتاب الله، واتبعوا كتب السحر. والأ ولى أن تكون هذه الجملة معطوفة على مجموع الجملة السابقة من قوله: «**وَلَمَّا جاءَهُمْ..**» إلى آخرها لأن عطفها على نبذ يقتضي كونها جواباً لقوله: «**وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ**» واتّباعهم لما تتلو الشياطين ليس مترتباً على مجيء الرسُولِ، بل كان اتباعهم لذلك قبله. وما موصولة، وعائدُها محذُوف. التقدير تتلُوهُ* ومعنى تتلوا تقرأ من التلاوة، وقيل معناه تفترى وتكذب، أي تلت. أي قرأت، أو افترت وكذبت* «**عَلى مُلْكِ سُليمانَ**» فيه قولان: **أحدهما**: أن على بمعنى في أي في زمن ملكه، **والثاني**: أن يُضمنّ تتلو معنى تتقوّل. أي فتتقوّلُ على ملك سليمان، وتقوّل يتعدّى بعلى قال تعالى: «**وَلَو تقوَّلَ عَلينَا بَعْضَ الأَقَاويلِ**» وهذا الثاني أولى، فإن التجوز في الأفعال أولى من التجوز في الحروف وهومذهب البصريين، وإنما أحوج إلى هذين التأو يلين، أن تلا إذا تعدى بعلى كان المجرور بعلى شيئاً يصح أن يتلى عليه، نحو تلوتُ على زيد القرآن، والملك ليس كذلك. والتلاوة الا تباع أو القراءة وهو قريب منه، وسليمان، علمٌ أعجمى فذلك لم ينصرف* وقال أبو البقاء: فيه ثلا ثة أسباب (العجمة والتعريف والألف والنون) وهذا إنما يثبتُ بعد دخول الاشتقاق فيه والتصريف حتى تعرف زيادتها، وأنها لا يدخلان في الأسماء الأعجمية* وكرر جلّ جلاله «**وما كَفَرَ سُلَيْمَانُ**» فذكره ظاهراً تفخيماً له وتعظيما* يعني بالسحر، ولم يعمل

به، وفيه تنزيه سليمان عليه السلام عن السحر، وذلك أنَّ اليهود أنكروا نبوة سليمان. قالوا: إنما حصل له ذلك الملك وسخرت الجن والإنس له بسبب السحر. الخ. ما تقدم* «**وَلَكِنَّ الشَّياطِينَ كَفَروا**» يعني الذين اتخذوا السحر لأنفسهم هم الذين كفروا، ثم بين سبب كفرهم فقال تعالى: «**يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**» يعني ما كتب لهم الشياطين من كتب السحر، وقيل: يحتمل أن يكون يُعَلِّمُونَ. اليهود الذين عُنُوا بقوله «**واتَّبَعُوا**»* وسمى السحر سحراً لخفاء سببه، فلا يفعل إلا في خفية، وقيل: معنى السحر الإزالة وصرف الشيء عن وجهه تقول العرب ما أسحرك عن كذا! أي ما صرفك عنه، فكأن الساحر لمَّا رأى الباطل في صورة الحق فقد سحر الشيء عن وجهه، أي صرفه. هذا أصله في اللغة، وأما حقيقته فقد قيل: إنَّه عبارة عن التمو يه والتّخييل.

ومذهب أهل السنة أنَّ له وجوداً وحقيقة، والعمل به كفر، وذلك إذا اعتقد أن الكواكب هي المؤثرة في قلب الأعيان* وروى عن الشافعي أنَّه قال: السحر يخبل ويمرض، وقد يقتل، حتى أوجب القصاصا على من قَتَلَ به* وقيل: إن السحر يؤثر في قلب الأعيان، فيجعل الإنسان على صورة حمار، والحمار على صورة الكلب، وقد يطير الساحر في الهواء، وهذا القول ضعيف (عند أهل السنة) لأنهم قالوا: إنَّ الله تعالى هو الخالق الفاعلُ لهذه الأشياء عند عمل الساحر لذلك، لا أنَّ الساحر هو الفاعل لها المؤثر فيها (الخازن جـ ١ ص ٦٨)* وقال: والأصح أن السحر يخبل و يؤثر في الأ بدان بالأمراض والجنون والموت. يدل على ذلك أنَّ للكلام تأثيراً في الطباع. فقد يسمع الإنسان ما يكره فيُحمُّ، وقد مات قوم بكلام سمعوه. فالسحر بمنزلة العلل في الأ بدان* وقال الخازن: وأما حكمه فإنه من الكبائر التي نهى عنها، ويحرم تعلُّمه لما روى عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [اجتنبوا السبع المُوبقات. قيل يا رسول الله، وما هُنَّ؟ قال: الإشراكُ بالله والسحر، وقتلُ النفسِ التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، والزّنا والتّولي يومَ الزَّحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات] أخرجاه في الصحيحين* فعدَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم السِّحر من الكبائر، وثناه بالشرك، وأمرنا باجتنابه* وقوله: [الموبقات] يعني: المهلكات. والسِّحر على قسمين:

أحدهما: يكفر به صاحبه، وهو أن يعتقد أن القدرة لنفسه في ذلك وهو المؤثر، أو يعتقد أن الكواكب هي المؤثرة الفعَّالة، فإذا انتهى به السِّحر إلى هذه الغاية صار كافراً

بالله تعالى ويجب قتله، لما روى عن جندب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [حدُّ السَّاحِرِ ضَربُهُ بالسَّيف] أخرجه الترمذي.

والقسم الثاني من السحر: وهو التخييل الذي يشاكل اليرنجيات والشعبذة، ولا يعتقد صاحبه لنفسه فيه قدرة، ولا أنَّ الكواب هي المؤثرة، و يعتقد أن القدرة لله تعالى، وأنَّهُ سبحانه هو المؤثر فهذا القدر لا يكفَّرُ به صاحبه، ولكنه معصية وهو من الكبائر ويحرم فعله، فإن قتل بسحره قُتل قصاصاً لما روى عن مالك أنَّه بلغه أن حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قتلت جاريةً لها سحرتها، وقد كانت دبَّرتْها، فأمرت بها فقُتلت. أخرجه في الموطأ. وفي المراغى (جـ ١ ص ١٨٠) وقد روى المؤرخون أن سحرة فرعون استعانوا بالزئبق على إظهار الحبال والعصى بصور الحيَّات والثَّعابين حتى خُيِّلَ إلى الناس أنها تسعى، وقد اعتاد الذين اتخذوه صناعة للمعاش أن يتكلّموا بأسماءٍ غريبة وألفاظ مبهمة، اشتهر بها الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجنّ، ليوهموا أنّ الجنَّ يستجيبُون دعاءهم، و يُسخَّرُون لهم، وهذا هو منشأ اعتقاد العامة أن السِّحر عمل يُستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب، ولمثل هذا تأثير في إثارة الوهم، دلَّتْ التجربة على وجوده، وهو يُغنى منتحل السِّحر عن توجيه همّته وتأثير إرادته فيمن يُعمل لَهُ السحر. وقال الغزالى في الإحياء مَا نصه: السحر نوع يستفاد من العلم بخواصّ الجواهر، و بأمور حسابيّة في مطالع النجوم، فيُتَّخذ من تلك الخواص هيكل على صورة الشخص المسحور و يترصَّدُ له وقت مخصوص من المطالع، وتقرن به كلمات يتلفَّظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع. و يتوصل بسببها إلى الإستعانة بالشياطين، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور. وفي تفسير ابن كثير (جـ ١ ص ١٣٦) وقول الحسن البصرى رحمه الله: وكان السّحر قبل زمان سليمان بن داود صحيح لا شكَّ فيه لأن السحرة كانوا في زمان موسى عليه السلام، وسليمان بن داود بعده كما قال تعالى: «**أَلَمْ تَرَ إلى الْمَلأ من بَنى إسْرائيلَ مِنْ بعْدِ مُوسَى**» الآية، ثم ذكر القصّة بعدها وفيها «**إنَّما أنت مِنَ المسحَّرين**» أي المسحورين على المشهور. وفي تفسير غرائب القرآن ورغائب العرفان لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابورى (جـ ١ ص ٣٤٨) الموضوع على هامش تفسير الطبرى قال: ثم السحرُ على أقسام: منها سحر الكلدانيين الذين كانوا في قديم الدهر، وهم قوم يعبدون الكواكب، و يزعمون أنها هي

المدبرة لهذا العالم، ومنها تصدُرُ الخيرات والشرور والسعادة والنحوسة، و يستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السّماو ية بالقوى الأ رضيّة، وهم الذين بعث الله تعالى إبراهيم عليه السلام مبطلاً لمقالتهم ورداً عليهم مذاهبهم* ومنها سحر أصحاب الأ وهام والنفوس القوية بدليل أن الجذع الذي يتمكن الإنسان من المشى عليه لو كان موضوعاً على الأ رض لا يمكنه المشى عليه لو كان كالجسر، وما ذلك إلاَّ لأنَّ تخيُّل السقوط متى قوىَ أوجبه، وقد أجمعت الأطباء على نهى المرعوف عن النظر إلى الأشياء الحمر، والمصروع عن النظر إلى الأشياء القويّة اللمعان، أو الدوران، وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام* وحكى في الشفاء عن أرسطو. أن الدّجاجة إذا تشبّهت كثيراً بالديكة في الصوت وفي الحراب مع الديكة نبت علي ساقها مثل الشيء النّابت على ساق الديك* وهذا يدلُّ على أنَّ الأحوال الجسمانية تابعة للأحوال النفسانية* وأجمعت الأمم على أن الدعاء مظنّة الإجابة، وأن الدعاء باللسان من غير طلب نفساني قليلُ الأ ثر* يحكى أن بعض الملوك عرض له فالج، فدخل عليه بعض الحذاق من الأطباء على حين غفلة منه، وشافهه بالشّتم والقدح في العرض، فاشتد غضب الملك، وقفز من مرقده قفزة اضطرارية وزالت تلك العلّة المزمنةُ* والاصابةُ بالعين مما اتفق عليه العقلاء. والتّحقيق فيه أنَّ النفسَ إذا كانت مستعلية على البدن شديدة الانجذاب إلى عالم السموات كانت كأنها روح من الأ رواح السماو يّة، وكانت قو ية التأثير في مواد هذا العالم، أمّا إذا كانت ضعيفة شديدة التّعلّق بهذه اللذات البدنية فحينئذٍ لا يكون لها تصّرف البتّة إلا في هذا البدن، فإذا أراد أن يتعدى تأثيرها إلى بدن آخر اتّخذ تمثال ذلك الغير، ووضعه عند الحسّ، فاشتغل الحسُّ به، وتبعه الخيال عليه، وأقلبت النفس الناطقة بالكلّية على ذلك فقو يت التأثيرات النفسانية والتصرُّفات الروحانية، و يعضدُهُ الانقطاع عن المألوفات والمشتهيات، وتقليل الغذاء والاعتزال عن النّاس، ثم إن كانت النفس مناسبة لهذا الأمر بحسب ما هيتها وخاصّيتها عظم التأثير* وأما الرُّقَىَ فإن كانت بألفاظ معلومةٍ فالأمر فيها ظاهر لأنَّ الغرض منها أن حسَّ البصر كما اشتغل بالأمور المناسبة للغرَض، فحسُّ السّمع أيضاً يشتغل بها، فإنَّ الحواس متى تطابقت متوجهة إلى الغرض الواحد كان توجّه النفس إليه أقوى، وإن كانت بألفاظ غير معلومة حصلت للنفس هناك حالة شبيهة بالحيرة والدّهشة، ويحصل لها إذ ذاك انجذاب وانقطاع عن المحسوسات وإقبال على ذلك الفعل

فيقوى التأثير النفساني فيحصل الغرض. وهكذا القول في الدخن. قالوا: فثبت أن هذا القدر من القوّة النفسانيّة مستقل بالتأثير، فإن انضم إليه الاستعانة بالقسم الأول. وهو تأثيرات الكواكب قوى الأثر جدًّا لا سيا إن حصل لهذه النفس مدد من النفوس المفارقة المشابهة لها، أو من الأنوار الفائضة من النفوس الفلكية* ومنها سحر من يستعين بالأرواح الأرضية وهو المسمَّى بالعزائم وتسخير الجنّ، ومنها التخييلات الآخذه بالعيون وتسمَّى الشعوذة، وذلك أنَّ أغلاط البصر كثيرة فإن راكب السفينة إذا نظر إلى الشط رأى السفينة واقفة، والشطَّ متحركاً، والقطرة النازلة ترى خطاً مستقيماً، والعنبة ترى في الماء كالزجاجة، و يرى العظيم من البعيد صغيراً، وقد لا تقف القوة الباصرة على المحسوس وقوفاً تاماً إذا أدركت المحسوس في زمان صغير جداً، فيخلط البعض بالبعض، ولا يتميّز، فإنَّ الرحى إذا أخرجت من مركزها إلى محيطها خطوطاً كثيرة بألوان مختلفة، ثُمَّ أديرت فإن البصر يرى لوناً واحداً كأنَّه مركب من كل تلك الألوان* وأيضاً النفس إذا كانت مشغولة بشيء فربما حضر عند الحسّ شيء آخر، فلا يشعرُ الحسُّ به البتة، كما أن الإنسان عند دخوله على السلطان قد يلقاه إنسان و يتكلم معه فلا يعرفه، ولا يفهم كلامه لما أن قلبه مشغول بشيء آخر، وكذا الناظر في المرآة ربما قصد أن يرى سطح المرآة، هل هو مستوٍ أم لا، فلا يرى شيئاً مما في المرآة، فالمشعوذ الحاذق يُظهر عمل شيء يشغل أذهان الناظرين به، و يأخذ عيونهم إليه، حتى إذا استقربهم الشغل بذلك الشيء والتحديق نحوه عمل شيئاً آخر عملاً بسرعة، فيبقى ذلك العمل خفياً لتعاون الشيْئين اشتغالهم بالأول، وسرعة إتيانه بالثاني* ومنها الأعمال العجيبة التي تظهر من الآلات المركبة على النّسب الهندسية، أو لضروب الخيلاء كفارسين يقتتلان، فَيقتل أحدهما الآخر* ومنه الصُّور التي يُصورها الروم والهند، حتى لا يفرق النّاظر بينها و بين الإنسان، وقد يُصورنها ضاحكة أو باكية، وقد يُفرق بين ضحك السرور وضحك الخجل، ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات، وعلم جرّ الأثقال، وهذا لا يعد من السحر عرفاً لأن لها أسباباً معلومة يقينية* ومنها الاستعانة بخواص الأدو ية والأحجار* ومنها تعليق القلب وهو أن يدعى الساحر أنَّه قد عرف الاسم الأعظم، وأنَّ الجنَّ ينقادون له في أكثر الأمور، فإذا اتفق أن كان السامع ضعيف القلب قليل التميز اعتقد أنَّه حقّ وتعلّق قلبه بذلك، وحصل في قلبه نوع من الرعب، وحينئذٍ تضعف القوى الحسّاسة، فيتمكن الساحر من أن يفعل فيه ما شاء، وإن

من جــرّب الأمـور وعـرف أحـوال النّـاس عـلـم أن لتعليق القلب أثراً عظيماً في تنفيذ الأعمال وإخفاء الأسرار. ومنها السعي بالنّميمة والتضريب من وجه خفيّة لطيفة، وذلك شـائع في النّاس فهذه جملة الكلام في أقسام السحر. وعند المسلمين كلها مستندة إلى قدرة الله تـعـالى، فـإنه لا يمتنع وقوع هذه الخوارق بإجراء العادة عند سحر السحرة، واتّفقوا على أن الـعلم به ليس بقبيح ولا محظور لأنَّ العلم لذاته شريف ولعموم قوله تعالى: **«قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّـذِينَ يَعْلَمُونَ والَّـذِينَ لا يعْلَمُونَ»** ولأن الفرق بينه و بين المعجزة يمكن به، إلاَّ أنَّ اجـتـنـابه أقرب إلى السَّلامة، واتفقت المعتزلة على تكفير من يجوِّز ذلك، قالوا: لأنه مع هذا الاعتقاد لا يمكنه أن يعرف الأنبياء والرسل. وزُيِّف بأنَّ الانسان لو ادعى النبوّة وكـان كـاذبـاً في دعـواه فـإنـه لا يجـوز مـن الله تـعـالى اظهار الخوارق على يده لئلا يحصل التّـلـبيس، أمّا إذا لم يدع النبوّة فظهرت الخوارق على يده لم يفض ذلك إلى التّلبيس، فإن المحق يـتـميز عـن المـبـطل بما أنَّ المحق تحصل له هذه الأشياء مع ادعاء النبوة، والمبطل لا تحـصل له هذه الأشياء مع ادعاء النبوة، وإن حصلت لم يتم، فصولة الباطل كنار العرفج. وعن أبي حنيفة أنّه قال: يقتل الساحر إذا علم أنّه ساحر ولا يستتاب، ولا يقبل قوله: إني أتـرك الـسـحـر، وأتـوب منه، فإذا أقرَّ أنه ساحر فقد حلَّ دمه، وإن شهد شاهدان على أنّه سـاحر، أو وصفوه بصفة يعلم أنّه ساحر قُتل، ولا يستتاب، وإن أقرَّ بأني كنت أسحر مرّة وقـد تـركـت ذلك منذ زمان قبل منه ولم يقتل. قوله تعالى: **«ومَا أُنْـزِلَ عَلَى الْمَلكَيْنِ»** قـال الخـازن: (جـ ١ ص ٦٨) أي و يـعلمون الذي أنزل على الملكين، والإنزال هنا بمعنى الإلهـام والـتـعـليم، أي مـا أُلهما وعُـلِّـمَا. وقرىء في الشّاذ الملِكيْن بكسر اللام. قال: هما رجـلان سـاحـران كـانـا بـبـابـل، وقـيـل عـلـجـان. ووجـهـه أن المـلائـكـة لا يعلمون السحر، والقراءة المشهورة بفتح اللام، فإن قُلتَ كيف يجوز أن يضاف إلى الله تـعـالى إنـزال ذلـك على المـلائـكـة، وكيف يجوز للملائكة تعليم السحر؟. قال ابن جرير الـطـبـري: إنَّ الله تـعـالى عـرَّف عباده جميع ما أمرهم به، وجميع ما نهاهم عنه، ثم أمرهم ونـهـاهـم بـعد العلم منهم بما يؤمرون به، و ينهون عنه، ولو كان الأمر على غير ذلك لما كان للأمر والنهي معنًى مفهوم، والسحر مما نهى عباده من بني آدم عنه، فغير منكر أن يكون الله تـعـالى عـلَّـمَـهُ المـلكين اللذين سمَّاهما في تنزيله وجعلهما فتنة لعباده من بني آدم كما أخبر عنهما أنهما يقولان لمن جاء يتعلَّمُ ذلك منهما: إنما نحن فتنةٌ فلا تكفر، ليختبر بهما عبادَهُ الذين نهـاهـم عـن الـسحر وعن التفريق بين المرء وزوجه، فيتمحض المؤمن بتركه التعليم منهما،

ويجرى للكافر بتعلمه الكفر والسحر منهما، و يكون الملكان في تعليمهما ما علما من ذلك مطيعين لله تعالى. إذ كان عن إذن الله تعالى لهما بتعليم ذلك، وغير ضارهما سحر من سحر ممن تعلم ذلك منهما بعد نهيهما إياهُ عنه بقولهما «**إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ**» إذا كانا قد أديا ما أُمرا به* وقال غيره: إنهما لا يتعمَّدان ذلك بل يصفان السحرة و يذكران بطلانه. و يأمران باجتنابه، فالشقيُّ من ترك نصحهما وتعلم السحر من وصفهما، والسعيد من قبل نصحهما، وترك تعلم السحر منهما* وقيل إن الله تعالى امتحن الناس بهما في ذلك الزمان، فالشقيُّ من تعلم السحر منهما، فيكفر به، والسعيد من تركه فيبقى على إيمانه، ولله تعالى أن يمتحن عباده بما شاء، كما امتحن بنى إسرائيل بنهر طالوت بقوله: «**فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي**» وقوله: «**يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ**» الناس مفعول أول والسحر مفعول ثان. واختلفوا في هذه الجملة على خمسة أقوال:

أحدها: أنها حال من فاعل كفروا، أي كفروا معلمين.

الثاني: أنها حال من الشياطين. وردَّه أبو البقاء، بأن لكنَّ لا تعمل في الحال، وليس بشيء. فإن لكنَّ فيها رائحة الفعل.

الثالث: أنها في محل رفع على أنها خبر ثانٍ للشياطين.

الرابع: أنها بدل من كفروا، أبدل الفعل من الفعل.

الخامس: أنها استئنافيةٌ أخبر عنهم بذلك، هذا إذا أعدنا الضمير من يعلمون على الشياطين. أما إذا أعدناهُ على الذين اتبعوا ما تتلوا الشياطين فتكون حالاً من فاعل اتبعوا، أو استئنافية فقط.

قوله: «**بِبَابِلَ**» قيل: هي بابل العراق بأرض الكوفة، سميت بذلك لتبلبل الألسنة بها عند سقوط صرح نمرود* وقيل: إنها بابل نهاوند. والأول أصح وأشهر* و بابل متعلق بأنزل، والباء بمعنى في أي في بابل ويجوز أن تكون في محل نصف على الحال من الملكين، أو من الضمير في «**أُنْزِلَ**» فيتعلّق بمحذوف ذكر هذين الوجهين أبو البقاء* و بابل لا ينصرف للعجمة والعلميّة، فإنها اسم أرض، وإن شئت قلت للتأنيث والعلمية* قوله: «**هَارُوتَ وَمَارُوتَ**» اسمان سريانيان.

قصّة الآية على ما ذكر ابن عباس وغيره، قالوا: إنَّ الملائكة لما رأوْا ما يصعد إلى السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة في زمن إدريس عليه السلام عيَّروهم، وقالوا: هؤلاء

الـذيـن جـعـلتهـم في الأ رض، واختـرتهـم وهم يعصونك، فقال الله تعالى: لَوْ أنزلتكم إلى الأ رض وركّبْـتُ فـيـكـم ما ركبتُ فيهم لركبتُم مثل ما ركبُوا. قالوا: سبحانك ما كان يـنـبـغـى لـنـا أن نـعـصـيـك، قـال الله تـعالى: فاختاروا ملكين من خياركم أهبطهما إلى الأ رض، فـأخـتـاروا هاروت وماروت وكانا من أصلح الملائكة، وأعبدهم، وكان اسم هـاروت عـزا، ومـاروت عـزايـا فَغُيِّـر اسمها لمَّا قارفا الذنب، ورَكَّب الله فيهما الشهوة وأهبطهما إلى الأ رض، وأمرهما أن يحكما بين الناس بالحق، ونهاهما عن الشرك والقتل بغير الحق والـزنـا وشـرب الخـمـر فـكـانـا يقضيان بين النَّاس يومهما فإذا أمسيا ذكرا اسم الله الأعـظـم وصـعـدا إلى الـسماء فـما مرَّ عليهما شهر حتَّى افتتنا، وقيل: بل افتتنا في أول يوم، وذلـك أنَّـه اخـتـصـم إليهما امرأة يـقـال لها الزُّهرة، وكانت من أجمل أهل فارس، وقيل: كـانـت مـلـكـة، فلمَّا رأياها أخذت بقلوبهما، فقال أحدهما لصاحبه، هل سقط في نفسك مـثـل الذي سقط في نفسي؟ قال: نعم، فراوداها عن نفسها، فأبت وانصرفت، ثم عادت في الـيـوم الـثـاني فـفـعـلا مثل ذلك فأبت وقالت: لا، إلا أن تعبدا هذا الصَّنم وتقتلا النَّفس وتـشـربا الخمر، فقالا: لا سبيل إلى هذه الأشياء، فإن الله تعالى قد نهانا عنها، فانصرفت ثم عادت في اليوم الثالث ومعها قدح خمر، وفي أنفسهما من الميل إليها ما فيها، فراوداها عن نـفـسـهـا، فـعـرضت عليهما ما قالت بالأمس. فقالا: الصَّلاةُ لغير الله عظيم، وقتل النَّفس عـظيم، وأهـون الـثلاث شرب الخمر فشربا، فلمَّا انتشيا وقعا بالمرأة فزنيا بها فرآهما إنسان فـقتلاهُ خوف الفضيحة. وقيل إنهما سجدا للصنم، وقيل: جاءتْهُما امرأة من أحسن الناس تخاصـم زوجـهـا، فـقال أحدهما للآخر: هل سقط في نفسك مثل الذي سقط في نفسي؟ قـال: نـعـم، قـال: هل لك أن تقضي على زوجها؟ فقال له صاحبُه: أما تعلم ما عند الله مـن الـعـقـوبة والعذاب؟ فقال له صاحبه: أما تعلم ما عند الله من العفو والرحمة فسألاها نـفـسـها فقالت: لا، إلا أن تقضيا لى على زوجى، فقضيا، ثم سألاها نفسها، فقالت: لا، إلا أن تـقـتـلاهُ، فقال أحدهما لصاحبه: أما تعلم ما عند الله من العقوبة والعذاب؟ فقال له صاحبه: أما تعلم ما عند الله من العفو والرحمة. فقتلاه، ثم سألاها نفسها. فقالت: لا، إلا أن لى صـنـمـاً أعـبـده. إن أنـتُما صلَّيتا معى عنده فعلتُ، فقال أحدهما لصاحبه: مثل الـقـول الأ ول فـردّ عليه مثله. فصليا معها عنده فسخت شهاباً. والحق أنه لا تعويل على مـثـل هـذه الـروايات لما أن مدارها على روايات اليهود مع ما فيها من المخالفة لأدلة العقل

والنقل (من أبي السعود والخازن جـ ١ ص ٦٩)* وفيه روايات أخرى أضربتُ عن ذكرها للعلة التي ذكرت* وقد قام إجماع المسلمين على أنَّ الملائكة معصومون، فضلاء أنهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون ولا يتناسلون ... وأن حكم الرسل من الملائكة حكم النبيّين في العصمة في باب البلاغ عن الله عز وجل، وفي كل شيء ثبتت فيه عصمة الأنبياء فكذلك الملائكة، وأنهم مع الأنبياء في التّبليغ إليهم كالأنبياء مع أممهم، وقد كان أشدُّ الناس افتراء على الملائكة والأنبياء بنى اسرائيل، وقد ذكر الله عز وجل في هذه الآيات افتراء اليهود على سليمان أولاً، ثم عطف على ذلك قصة هاروت وماروت ثانياً. لأن معنى الآية، وما كفر سليمان، يعنى بالسحر الذي افتعله عليه الشياطين، واتّبعتهم في ذلك اليهود، فأخبر عن افترائهم وكذبهم* وقد ذكر المعتزلة وغيرهم في إبطال هذه القصة وجوهاً :

الوجه الأول : أنَّ في القصة أن الله تعالى، قال للملائكة: لو ابتليتم بما ابتليتُ به بنوا آدم لعصيتموني، قالوا: سبحانك ما كان ينبغى لنا أن نعصيك. وفيه ردٌّ على الله تعالى، وذلك كفر، وقد ثبت أنهم كانوا معصومين قبل ذلك فلا يقع هذا منهم.

الوجه الثاني : أنهما خُيّرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة وذلك فاسد لأن الله تعالى لا يُخيِّر من أشرك، وإن كان قد صحت توبتها فلا عقوبة عليهما.

الوجه الثالث : أن المرأة لما فجرت فكيف يعقل أنها صعدت إلى السماء وصارت كوكباً، وعظَّمَ الله قدرها بحيث أقسم بها في قوله: «**فَلاَ أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ الْجَوارِى الْكُنَّس**».

فبان بهذه الوجوه ركة هذه القصة. لذا قال أبوالسعود: لما أنَّ مداره رواية اليهود يقضى أن هذه القصة غير صحيحة، وأنها لم تثبت بنقل معتبر، وتبع في ذلك البيضاوى، التابع في ذلك للفخر الرازى، والسعد التفتازاني وغيرهما ممن أطال في ردّها* «**وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حتى يَقُولاَ**» يعنى وما يعلمان أحداً حتى ينصحاهُ أولاً و يقولا «**إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ**» أي ابتلاء ومحنة* قوله: «**وَمَا يُعَلِّمانِ مِنْ أَحَدٍ**» هذه الجملة عطف على ما قبلها، والضمير في يعلمان فيه قولان: أحدهما: أنَّه يعود على هاروت وماروت. والثاني: أنّه عائد على الملكين. و يؤيده قراءة أُبَيٍّ بإظهار الفاعل وما يعلم الملكان. والأول هو الأصح، وذلك أن الاعتماد إنما هوعلى البدل دون المبدل منه، فإنَّه في حكم الطرح،

قراءاته أولى و(أحد) هنا الظاهر أنّه الملازم للنفي، وأنّه الذي همزته أصل بنفسها، وأجاز أبو البقاء أنَّ يكون بمعنى واحد فتكون همزتُه بدلاً من واو. «فَلاَ تَكْفُرْ» أي لا تتعلم السحر، فتعمل به فتكفر، قيل: يقولان إنما نحن فتنة فلا تكفر سبع مرات، فإن أبى قبول نُصحهما وصمَّمَ على التّعليم يقولان له: ائت هذا الرماد فبل عليه، فإذا فعل ذلك خرج منه نورٌ ساطع في السماء، فذلك الإيمان والمعرفة، و ينزل شيء أسود مثل الدخان حتى يدخل مسامعه وذلك غضب الله تعالى ــ والعياذ بالله* الفتنة: الاختبار والإمتحان وافرادها مع تعدُّدهما لكونها مصدراً وحملها عليهما حمل مواطأة للمبالغة كأنها نفس الفتنة، والقصر لبيان أنهما ليس لهما فيما يتعاطيانه شأن سواهما لينصرف النَّاسُ عن تعلُّمه، أي وما يعلمان ما أنزل عليهما من السّحر أحداً من طالبيه حتى ينصحاه قبل التعليم، و يقولا له: إنَّما نحن فتنة وابتلاء من الله عز وجلّ، فمن عمل بما تعلَّم منا واعتقد حقيقته كفر، ومن توقّى عن العمل به، أو اتَّخذه ذريعة للاتقاء عن الاغترار بمثله بقي على الإيمان فلا تكفر باعتقاد حقيقته وجواز العمل به* «فيتعَلَّمُونَ مِنْهُمَا» يعني من الملكين «مَا يُفرِّقُونَ بِهِ بيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ» أي علم السِّحر الذي يكون سبباً في التفريق بين الزوجين كالتمويه والتخييل والنّفث في العقد، ونحو ذلك مما يحدث عند البغضاء والنُّشوز، والخلاف بين الزوجين ابتلاءً من الله تعالى لا أنَّ السحر له تأثير في نفسه بدليل «وما هُمْ» يعنى السحرة «بِضَارِّينَ بِهِ» أي بالسحر «مِنْ أَحَدٍ» أي أحداً «إلاَّ بإذْنِ الله» أي بعلمه وقضائه وتكوينه، فالساحر يسحر، والله تعالى يقدر، و يكون ذلك بقضائه تعالى وقدرته ومشيئته «و يتعلَّمونَ ما يَضُرُّهُمْ ولا ينْفَعُهُمْ» يعنى السحر لأنهم يقصدون به الشَّرَّ، أي لأنهم يقصدون به العمل، أو لأنَّ العلم يجر إلى العمل غالباً* وقوله: «ولا يَنْفَعُهُمْ» صرَّح بذلك إيذاناً بأنَّه ليس من الأمور المشوبة بالنفع والضرر، بل هو شرٌّ محض لأنهم لا يقصدون به التخلص عن الاغترار بفعل من يدعى النبوة من السحرة، أو تخليص الناس منه حتى يكون فيه نفع في الجملة وفيه أن الاجتناب عمَّا لا تُؤمن غوائله خير كتعلُّم الفلسفة التي لا يؤمن أن تجرَّ إلى الغواية* «وَلَقَدْ عَلِمُوا» راجع في المعنى لقوله: «واتَّبعُوا..» فهو معطوف عليه، والضمير في علموا فيه خمسة أقوال: أحدها: أنَّه ضمير اليهود الذين في عهد النبي صلى الله عليه وسلم. والثاني: أنه ضمير اليهود الذين في عهد سليمان عليه السلام. الثالث: أنَّه ضمير جميع اليهود. الرابع: أنَّه ضمير الشياطين.

الخامس: أنَّه ضمير الملكين عند من يرى أن الا ثنين جمع. «**لَمَنِ اشْتَرَاهُ**» أي اختار السحر، أو دفع مالاً للسحرة ليسحروا له فهو بمثابة الشراء «**مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**» يعني ما له نصيب في الجنة، ومن موصولة في محل رفع بالابتداء، واشتراه صلتها، وقوله ما له في الآخرة من خلاقٍ، جملة من مبتدأ وخبر، ومن مزيدة في المبتدأ، وفي الآخرة متعلق بمحذوف وقع حالاً منه، ولو أُخّرَ عنه لكان صفة له، والتقدير ما له خلاق في الآخرة، وهذه الجملة في محل الرفع على أنها خبر للموصول، والجملة في حيز النصب سادة مسدَّ مفعولى علموا إن جعل متعدياً إلى اثنين، أو مفعول له الواحد إن جعل متعدّياً للواحد. «**وَلَبِئْسَ مَا شَرَوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ**» أي باعوا حظ أنفسهم حيث اختاروا السحر والكفر على الدين والحق، اللاّم جواب قسم محذوف، والمخصوص بالذّم محذوف أي و بالله لبئس ما باعوا به أنفسهم السحر، أو الكفر، وفيه إيذان بأنهم حيث نبذُوا كتاب الله وراء ظهورهم فقد عـرَّضوا أنفسهم للهلاك و باعوها بما لا يزيدهم إلا تباراً. «**لَوْ كَانُوا يعْلَمُون**» فإن قلت كيف أثبت لهم العلم أولا في قوله: «**ولَقَدْ عَلِمُوا**» على التوكيد القسمى، ثم نفاهُ عنهم آخراً في قوله: «**لَوْ كَانُوا يعْلَمُونَ**» قال الخازن: قد علموا أنَّ من اشترى السحر ما له في الآخرة من خلاق، ثم مع هذا العلم خالفوا واشتغلوا بالسحر، وتركوا العمل بكتاب الله تعالى. وما جاءت به الرسل عناداً منهم و بغياً، وذلك على معرفة منهم بما لمن فعل ذلك منهم من العقاب، فكأنهم حين لم يعلموا بعلمهم كانُوا منسلخين منه. «**وَلَوْ أَنَّهُمْ**» يعني اليهود «**آمَنُوا**» بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن «**واتَّقُوا**» يعني اليهودية والسحر وما يؤثمهم «**لَمثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ**» أي لكان ثواب الله إياهم «**خيْرٌ**» لهم يعني هذا الثواب «**لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**» أنَّه خير لما آثروا السحر على الثواب.

القــول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وقُولُوا انْظُرْنَا واسْمَعُوا ولِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ» سورة البقرة (آية: ١٠٤)

ذكر الواحدى في أسباب النزول : (ص ٢١) قال ابن عباس في رواية عطاء: وذلك أنَّ العرب كانو يتكلمون بها ـــ أي رَاعِنَا ـــ فلمَّا سمعتهم اليهود يقولونها للنبي صلى الله عليه وسلم أعجبهم ذلك، وكان (رَاعِنَا) في كلام اليهود سبّاً قبيحاً، فقالوا: إنَّا كنا نسب

محمداً سراً، فالآن أعلنوا السبَّ لمحمد فإنه من كلامه، فكانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيقولون: يامحمد راعنا و يضحكون، ففطن بها رجلٌ من الأنصار، وهو سعد بن عبادة، وكان عارفاً بلغة اليهود، وقال: يا أعداء الله! عليكم لعنة الله، والذي نفس محمد بيده لئن سمعتُها من رجُل منكم لأضربنَّ عنقه، فقالوا: ألستُمْ تقولونها؟ فأنزل الله تعالى: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا...**» الآية وكذلك في تفسير الخطيب الشربيني* وفي ابن كثير (جـ ١ ص ١٤٨) قال الضحاك عن ابن عباس: «**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا...**» قال كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم أرْعِنَا سمعك* وإنَّما راعِنا كقولك عاطنا* وعن قتادة نحو ذلك، وقال مجاهد: «**لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا...**» لا تقولوا خلافاً* وفي رواية: لا تقولوا اسمع منا ونسمع منك* وقال عطاء: لا تقولوا (راعنا) كانت لغة تقولها الأنصار فنهى الله عنها* وقال الحسن: (لا تقُولُوا راعِنَا) قال: الراعن من القول السخرى منه نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد صلى الله عليه وسلم، وما يدْعوهم إليه من الإسلام* وكذا روى عن ابن جريج أنَّه قال مثله. وقال أبوصخر «**لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وقُولُوا انْظُرْنَا**» قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فيقول أرعنا سمعك، فأعظم الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقال ذلك له* وقال السدى: كان رجل من اليهود من بنى قينقاع يدعى رفاعة بن زيْد يأتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم فإذا لقيه فكلمه قال: ارْعنِي سمعك، واسْمَع غير مُسمَعٍ، وكان المسلمون يحسبون أنَّ الأنبياء كانت تفخم بهذا فكان ناس منهم يقولون: اسمع غير مسمع غير صاغر — وهى كالتى في سورة النساء — فتقدّم الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا راعِنا* قال ابن جرير: والصواب من القول في ذلك عندنا أنَّ الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم راعنا. لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولها لنبيه صلى الله عليه وسلم، نظير الذي ذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه قال: [لا تقولوا للعنب الكرم، ولكن قولوا الحبلة، ولا تقولوا عبدى، ولكن قولوا فتاى]* وفي تفسير الزمخشرى (جـ ١ ص ٣٠٢) كان المسلمون يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ألقى عليهم شيئاً من العلم: راعنا يا رسول الله: أي راقبنا وانتظرنا وتأنَّ بنا حتى نفهمه ونحفظه، وكانت لليهود كِلمة يتسابون بها عبرانية، أو سريانية، وهي راعنا، فلما سمعوا بقول المؤمنين راعنا افترصوه وخاطبوا به الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم يعنون بها تلك

المسبّة، فنهى المؤمنون عنها وأمروا بما هو في معناه وهو (انظرنا) من نظره إذا إنتظره... وقرأ عبدالله بن مسعود راعونا على أنهم كانو يخاطبونه بلفظ الجمع للتوقير. وقرأ الحسن: رَاعِناً، بالتنوين من الرعن وهو الهوج: أي لا تقولوا قولاً راعناً منسوباً إلى الرعن بمعنى رِعنياً.

والمعنى «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وقُولُوا انْظُرْنَا واسْمَعُوا» نهى سبحانه الصحابة عن كلمة، كانت تدور على ألسنتهم حين خاطبهم النبي صلى الله عليه وسلم وهى كلمة (راعنا) ومعناها راعنا سمعك: أي اسمع لنا ما نريد أن نسألك عنه ونراجعك القول لنفهمه عنك، وانظرنا: أى راقبنا، وانتظر ما يكون من شأننا في حفظ ما تُلقيه علينا وفهمه، وسبب نهيهم عنها أنَّ اليهود لما سمعوها افترصوها وصاروا يخاطبون بها النبي صلى الله عليه وسلم لاوين بها ألسنتهم لموافقة جرْسها العربى لكلمة (راعينُو) العبرية التي معناها (شرير) فأرشد الله نبيه الكريم لذلك، وأمر أصحابه أن يقولوا (انظرنا) وهي خير منها وأخف لفظاً، وتفيد معنى الإنظار والإمهال كما تفيد معنى المراقبة التي تُستفاد من النظر بالعين، إذ تقول: نظرت الشيء ونظرت إليه إذا وجهت إليه بصرك ورأيته (المراغى جـ١ ص ١٨٤)* «ولِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي لليهود الذين توسلوا بقولكم المذكور إلى كفرياتهم، وجعلوه سبباً للتهاون برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كفر لا شك فيه لأن من يصف النبي صلى الله عليه وسلم بأنَّه شرير، فقد أنكر نبوَّته، وأنَّه موحى إليه من قبل ربه، ومتى فعل ذلك فقد كفر واستحق العذاب المؤلم* وفي الطبرى غير ما ذكر (جـ١ ص ٣٧٤) قال ابن زيد في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وقُولُوا انْظُرْنَا» قال: راعنا القول الذي قاله القوم. قالوا: سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليًّا بألسنتهم وطعناً في الدين، قال: قال هذا الراعن، والراعنُ الخطَّاءُ، قال: فقال للمؤمنين: لا تقولوا خطاءً كما قال القوم، وقولوا انظرنا واسمعوا، قال: كانوا ينظرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم و يكلمونه، و يسمع منهم و يسألونه ويجيبهم* وفي الخازن (جـ١ ص ٧١) في قوله: «واسْمَعُوا» أي ما تؤمرون به وأطيعوا، نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يقولوا لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم راعنا لئلا يتطرق أحد إلى شتمه، وأمرهم بتوقيره وتعظيمه، وأن يتخيَّروا لخطابه صلى الله عليه وسلم من الألفاظ أحسنها، ومن المعانى أدقها، وإن سألوه يسألوه بتبجيل وتعظيم ولين، ولا يخاطبوه بما يسرُّ اليهود* إن هذا التأديب ليس خاصاً بمن كان في عصره من المؤمنين بل يعمُّ ما جاء بعدهم أيضاً إلى

يوم الدين. فهذا كتاب الله الذي كان يتلوه عليهم، وكان يجب عليهم الاستماع له والانصات لتدبره ـــ هو الذي يتلى علينا بعينه لم يذهب منه شيء، وهو كلام الله الذي به كانَ الرسول رسولاً تجب طاعته والاهتداء بهديه ـــ فما هذا الأدب الذي يقابله به الأكثرون؟ إنهم يلغطون في مجلس القرآن، فلا يستمعون ولا ينصتُون، ومن أنْصت واستمع فإنما ينصُتُ طرباً بالصوت واستلذاذاً بتوقيع نغمات القارىء، وإنهم ليقولون في استحسان ذلك واستجادته ما يقولون في مجلس الغناء، ويهتزون للتلاوة و يصوّتون بأصواتٍ مخصوصة، كما يفعلون عند سماع الغناء بلا فرق، ولا يلتفتون إلى شيء من معانيه، إلا ما يرونه مدْعاةً لسرورهم من مثل قصة يوسف عليه السلام مع الغفلة عمّا فيها من العبرة، وإعلاء شأن الفضيلة. ولا سيما العفة والأمانة، أليس هذا أقرب إلى الاستهانة بالقرآن منه بالأدب اللائق الذي ترشد إليه هذه الآية الكريمة وأمثالها؟ «**أَفَلَمْ يَدَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جاءَهُمْ مَالَمْ يأتِ آباءَهُمُ الأَوّلينَ * أمْ لَمْ يَعْرِفُوا رسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ**» كذا قاله الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسير المراغى (جـ١ ص ١٨٥).

القـــول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كفَرُوا مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكينَ أنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خيْرٍ مِنْ ربِّكُمْ واللهُ يخْتصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» سورة البقرة (آية: ١٠٥)

جـــاء في أسباب النزول للواحدى (ص ٢١): قال المفسرون ـــ في سبب نزول هذه الآية ـــ إنَّ المسلمين كانوا إذا قالوا لحلفائهم من اليهود: آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، قالوا: هذا الذي تدعوننا إليه ليس بخير مما نحن عليه، ولوددنا لو كان خيراً. فأنزل الله تعالى تكذيباً لهم «**مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كفَرُوا مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ...**» الآية. قال أبوجعفر الطبرى في تفسيره (جـ١ ص ٣٧٧): فتأو يل الكلام، ما يُحِبُّ الكافرون من أهل الكتاب أن لا ينزّل الله عليهم الفرقان. وما أوحاهُ إلى محمد صلى الله عليه وسلم من حكمه وآياته، وإنما أحبت اليهود وأتباعهم من المشركين ذلك حسداً و بغياً منهم على المؤمنين، قال: وفي هذه الآية دلالة بيّنة على أن الله تبارك وتعالى نهى المؤمنين عن الركون إلى أعدائهم من أهل الكتاب والمشركين والاستماع من قولهم، وقبول شيء ممّا يأتُونهم به على وجه النصيحة لهم منهم باطلاعه جل ثناؤه إيَّاهم على ما يستبطنُه لهم أهل الكتاب

والمشركين من الضغن والحسد، وإن أظهروا بألسنتهم خلاف ما هم مُسْتَبطنون» «**مَا يَوَدُّ**» أي ما يحب «**الَّذِينَ كفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**» يعني اليهود «**وَلاَ الْمُشْرِكِينَ**» يعني عبدة الأوثان لأن الكفر اسم جنس تحته نوعان: أهل كتاب، وهم الذين بدَّلوا كتابهم وكذّبُوا الرسل. وعبدة الأوثان، وهم من عبدوا غير الله «**أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خيْـرٍ مِنْ رَبِّكُمْ**» يعني ما أنزل الله عزَّ وجل على نبيه صلى الله عليه وسلم من الوحي والنبوَّة «**أَنْ يُنَزِّلَ**» ناصب ومنصوب في تأويل مصدر مفعول بيود. أي ما يودُّون إنزال خير، و بني الفعل للمفعول للعلم بالفاعل وللتصريح به في قوله «**مِنْ رَبِّكُمْ**» وأتى بما في النفي دون غيرها لأنها لنفي الحال، وهُمْ كانوا متلبّسين بذلك. وقوله «**مِنْ خيْرٍ**» وحي، وهو القائم مقام الفاعل. ومن زائدة أي أن ينزّل خيرٌ من ربكم، وحسن زيادتها هنا، وإن كان ينزل لم يباشره حرف النفي انسحاب النفي عليه من حيث المعنى لأنه إذا نفيت الودادة انتفى متعلقها، وهذا له نظائر في كلامهم نحو. ما أظنُّ أحداً يقول ذلك إلا زيدٌ. برفع زيد بدل من فاعل يقــول. وإن لم يباشر النفي لكنَّهُ في قوة ما يقول أحدٌ ذلك إلا زيد. وهذا على رأى سيبو يه وأتباعه، وأمَّا الكوفيُّون والأخفش فلا يحتاجون إلى شيء من هذا. وقوله: «**والله يخْتصُّ**» يستعمل متعدِّياً ولازماً، فعلى الأول: فاعله ضمير مستتر فيه، والموصول بصلته في محل النصب على المفعولية. والمعنى والله يخصُّ...الخ. وعلى الثاني: الفاعل هو الموصُول بصلته. والمعنى: يتميزُ برحمته من يشاءُ الله تمييزه، أي يختص بنبوته ورسالته من يشاء من عباده، و يتفضل بالايمان والهداية على من أحبَّ من خلقه رحمة منه لهم. «**والله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**» يعني أن كل خير ناله عباده في دينهم ودنياهم فإنه منه ابتداءً وتفضلاً عليهم من غير استحقاق أحد منهم لذلك بل له الفضل والمنَّة على خلقه، (الخازن جـ١ ص ٧١). وقال ابن كثير (جـ١ ص ١٤٩): يبين بذلك تعالى شدَّة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذّر الله تعالى من بهتهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم و بينهم، ونبَّه تعالى على ما أنعم الله به على المؤمنين من الشرع التَّام الكامل الذي شرعه لنبيِّهم محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول تعالى: «**والله يخْتصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ والله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**» ولذا وجب على المؤمنين أن يشكروا الله تعالى على ما تفضّل به عليهم من البعثة المحمدية والرسالة الإسلامية، وهدايتهم إلى الايمان به والعمل بشريعته فضلاً من الله ونعمة.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«مَـا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أونُنْسِهَا نَأتِ بِخَيْرٍ مِنْها أوْمِثْلِهَا ألَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ»

جـــاء في أسباب النزول للواحدى (ص ٢١) قال المفسرون: إن المشركين قالوا: أترون محمداً يأمُر أصحابه بأمرٍ ثم ينهاهم عنه، و يأمرهم بخلافه، و يقول اليوم قولاً و يرجع عنه غداً، ما هذا في القرآن إلا كلام محمد يقوله من تلقاء نفسه، وهو كلام يناقض بعضه بعضاً فأنزل الله: **«وَإذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَه..»** الآية، وأنزل إيضاحاً **«مَـا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أونُنْسِهَا نَأتِ بِخَيْرٍ مِنْها...»** الآية* وفي الخازن (جـ ١ ص ٧١) نفس الرواية زاد بعد ما يقوله إلا من تلقاء نفسه كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: **«وإذَا بدَّلْنَا آيةً مَكانَ آيةٍ واللهُ أعْلَمُ بما يُنَزِّلُ قَالُوا إنَّمَا أنْتَ مُفْتَرٍ»** فأنزل **«مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ..»** فبين بهذه الآية وجه الحكمة في النسخ، وأنَّه من عنده لا من عند محمد صلى الله عليه وسلم* قال البهنسى: لمَّا حرَّم الله سبحانه وتعالى قولهم راعنا بعد حِلِّه وكان ذلك من باب النسخ، قال: ما ننسخ بغير عطف لشدَّة ارتباطه بما قبله* وفي أبى السعود ما نصَّه: وهذا كلام مستأنف مسوق لبيان سرِّ النسخ الذي هو فردٌ من أفراد تنزيل الوحى. وإبطال مقالة الطاعنين فيه إثر تحقيق حقيقة الوحى. وردّ كلام الكارهين له. وقُرىء ما نَنْسَخ من آية. وما نُنْسِخْ: بضم النون من أنسخ أو ننسها، وقرىء نَنْسِها ونُنَسِّها بالتشديد، وتنسها على خطاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرأ عبدالله: ما نُنْسِكْ من آية أو نَنْسَخها* وقرأ حذيفة ما ننسخ من آية أو نُنْسِكها. ونسخ الآية إزالتها بإبدال أخرى مكانها، وإنساخها الأمر بنسخها، وهو أن يأمر جبريل عليه السلام بأن يجعلها منسوخة بالإعلام بنسخها. ونَسْؤُها تأخيرها وإذهابها لا إلى بدل. وإنساؤها أن يذهب بحفظها عن القلوب. والمعنى: أن كل آية يُذهب بها على ما توجبه المصلحة من إزالة لفظها وحكمها معاً، أو من إزالة أحدهما إلى بدل أو غير بدل* جاء في تفسير الطبرى (جـ ١ ص ٣٧٩) عن قتادة قوله **«مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أونُنْسِهَا نَأتِ بِخَيْرٍ مِنْها أوْمِثْلِهَا»** كان ينسخ الآية بالآية بعدها، و يقرأ نبي الله صلى الله عليه وسلم الآية أو أكثر من ذلك، ثم تنسى وترفع* وعنه قال: كان الله تعالى ذكره يُنسى نبيَّه صلى الله عليه وسلم ما شاء و ينسخ ما شاء. وعن مجاهد قال: كان عبيد بن عمير يقول: ننسها نرفعها من عندكم*

وعن الحسن قال في قوله تعالى: «**أو نُنْسِهَا**» قال: إن نبيكم صلى الله عليه وسلم أقرىء قرآناً نسيه، وكذلك كان سعد بن أبي وقَّاص يتأوّل الآية إلا أنَّه كان يقرؤها أو نُنسها بمعنى الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم كأنَّه عنى أو تنسها أنت يا محمد* ولكن قوله جل شأنه: «**ولئن شِئنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ**» ما ينبيء عن أن الله تعالى ذكره لم يُنْسِ نبيَّه شيئاً ما آتاهُ من العلم، ومال الطبرى إلى الأ ول وقال وأما قوله: «**وَلَئِنْ شئنَا لَنَذْهَبَنَّ بالَّذِى أَوْحيْنَا إليْكَ**» لم يخبر أنَّه لا يذهب بشيء منه، وإنما أخبر أنه لو شاء لذهب بجميعه فلم يذهب به والحمد لله، بل ذهب بما لا حاجة بهم إليه منه. وذلك أن ما نسخ منه فلا حاجة بالعباد إليه، وقد قال تعالى ذكره: «**سنقرئُكَ فَلاَ تَنْسَى * إلا ما شاء الله**» فأخبر أنَّه يُنسي نبيَّه منه ما شاء.

وأصل النسخ في اللغة يكون بمعنى النقل والتحو يل. ومنه نسخ الكتاب، وهو أن ينقل من كتاب إلى كتاب آخر، وذلك لا يقتضي إزالة الصورة الأ ولى بل يقتضى إثبات مثله في كتاب آخر. فعلى هذا المعنى يكون القرآن الكريم كله منسوخاً، وذلك أنه نسخ من اللوح المحفوظ، ونزل جملة واحدة إلى سماء الدنيا، وقد يكون النسخ بمعنى الرفع والازالة، وهو إزالة شيء بشيء يعقبه كنسخ الشمس الظّل، والشيب الشباب، فعلى هذا المعنى يكون بعض القرآن منسوخاً، و بعضه ناسخاً، وهو المراد من حكم هذ الآية وهو إزالة الحكم بحكم يعقبه.

وفي اصطلاح علماء الشرع. عبارة عن رفع الحكم الشرعى بدليل شرعيّ متأخر عنه* أو قل: بيان انتهاء الحكم المستفاد من الآية المتلوة. وحكمتُه أن الأحكام ما شرعت إلاّ لمصلحة الناس، وهي تختلف باختلاف المكان والزمان، فإذا شرع حكم في وقت كانت الحاجة إليه ماسَّة، ثم زالت الحاجة فمن الحكمة نسخه وتبديله بحكم يوافق الوقت الآخر فيكون خيراً من الأ ول، أو مثله في فائدته للعباد، وما مثل ذلك إلا مثل الطبيب الذي يغيّر الأغذية والأدو ية باختلاف الأ زمنة والأمزجة، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم هم مصلحوا النفوس، يغيّرون الأعمال الشرعية، والأحكام الخلقيَّة، التي هي للنفوس بمثابة العقاقير والأدو ية للأ بدان، فما يكون منها مصلحة فى وقت قد يكون مفسدة في وقت آخر* وخلاصة المعنى: ما نغيّر حكم آية أو ننسيكه إلا أتينا بما هو خير منه لمصلحة العباد بكثرة الثواب، أو مثله فيه (الخازن جـ ١ ص ٧١ والمراغى جـ ١ ص ١٨٧) وفيه وقال

الأستاذ الإمام أى محمد عبده: والمعنى الصحيح الذي يلتئم مع السياق. أنَّ الآية هنا ما يؤيد الله تعالى به الأنبياء من الدلائل على نبوتهم، أي ما ننسخ من آية نقيمها دليلاً على نبوة نبيّ من الأنبياء أي نزيلها ونترك تأييد نبي آخر بها، أو ننسها الناس لطول العهد بمن جاء بها، فإنا بما لنا من القدرة الكاملة والتصرف في الملك نأتى بخير منها في قوة الاقناع وإثبات النبوة. أو مثلها في ذلك، ومن كان هذا شأنه في قدرته وسعة ملكه فلا يتقيّد بآية مخصوصة يمنحها جميع أنبيائه* وقد سبقه إلى مثله محي الدين بن عربي في تفسيره. وفي تفسير الخطيب: وهو أي النسخ على وجوه:

أحدها : أن تثبت التلاوة و ينسخ الحكم كآية الوصيّة للأقارب، وآية عدّة الوفاة بالحول.

الثاني : أن ترفع التلاوة و يبقى الحكم كآية الرجم ــ الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتَّةَ.

الثالث : أن يرفع الحكم والتلاوة كما روى أ قوماً من الصحابة قامُوا ليلة ليقرؤا سورة، فلم يذكروا منها إلاَّ بسم الله الرحمن الرحيم. فغدوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال عليه الصلاة والسلام: [تلك سورة رفعت بتلاوتها وأحكامها]. قيل كانت سورة الأحزاب مثل سورة البقرة، فرفع أكثرها تلاوة وحكماً. ثم من نسخ الحكم ما يرفع و يقام غيره مقامه: كما أن القبلة نسخت من بيت المقدس إلى الكعبة، والوصية للآقارب نسخت بالميراث، وعدّة الوفاة من الحول إلى أر بعة أشهر وعشر، ومصابرة الواحد للعشرة بمصابرة للإثنين* قال البغوى: والنسخ إنما يعترض على الأ وامر والنواهى دون الأخبار* والنسخ جائز عقلاً وواقع سمعاً خلافاً لليهود، فإن منهم من ينكره عقلاً لكنَّه منعه سمعاً، وشذّت طائفة قليلة من المسلمين فأنكرت النسخ* احتج الجمهور من المسلمين على جواز النسخ ووقوعه بأن الدلائل قد دلّتْ على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، ونبوّته لا تصِحُّ إلا مع القول بالنسخ، وهونسخ شرع من قبله، فوجب القطع بالنَّسخ، ولنا على اليهود إلزامات. ومنها أنَّ الله تعالى حرَّم عليهم العمل يوم السبت. ولم يحرّمه على من كان قبلهم* ومنها أنّه قد جاء في التوراة أن الله تعالى قال لنوح عليه الصلاة والسلام: عند خروجه من الفلك: إنى جعلتُ كُلَّ دابةٍ مأكولاً لك ولذريتك، وأطلقت ذلك لكم، ثم إنه تعالى حرم على موسى عليه الصلاة والسلام وعلى بنى إسرائيل كثيراً من الحيوانات*

ومنها أن آدم عليه السلام كان يزوّج الأخ للأخت، وقد حرَّمه على من بعده. وعلى موسى عليه الصلاة والسلام، فثبت بهذا جواز النسخ، وحيثُ ثبتَ جواز النسخ فقد اختلفوا فيه على وجوه:

أحدها: أن القرآن نسخ جميع الشرائع والكتب القديمة كالتوراة والانجيل وغيرهما.

الوجه الثاني: المراد من النسخ هو نسخ القرآن ونقله من اللَّوح المحفوظ إلى سماء الدنيا.

الوجه الثالث: وهو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء أن المراد من النسخ هو رفع حكم بعض الآيات. بدليل آخر. وهو المراد بقوله تعالى: **«مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنْسِهَا نَأتِ بِخَيْرٍ مِنْها أوْ مِثْلِهَا»** لأن الآية إذا أطلقت، فالمراد بها آيات القرآن لأنه هو المعهود عندنا. الخازن (جـ ١ ص ٧٢) وقال: (مسئلة) قال الشافعى رضي الله عنه: الكتاب لا ينسخ بالسنة المتواترة. واستدل بهذه الآية وهو أنَّه تعالى قال: **«مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أو نُنْسِهَا نَأتِ بِخَيْرٍ مِنْها أوْ مِثْلِهَا»** وذلك يفيد أنَّه تعالى هو الآتى، والمأتى به هو من جنس القرآن، وما كان من جنس القرآن فهو قرآن، وقوله: **«نأت بخير منها»** يفيد أنه هو المنفرد بالاتيان بذلك الخير وهو القرآن الذي هو كلام الله دون السنّة، ولأن السنة لا تكون خيراً من القرآن ولا مثله. واحتج الجمهور على جواز نسخ الكتاب بالسنة بأن آية الوصيّة للأقربين منسوخة بقوله صلى الله عليه وسلم: [لا وصيّة لوارث] أجاب الشافعى رضي الله عنه بأن هذا ضعيف لأن كون الميراث حقاً للوارث يمنع من صرفه إلى الوصيّة، فثبت أنَّ آية الميراث مانعة من الوصية. وتقرير هذا و بسطُهُ معروف في أصول الفقه. وقوله تعالى: **«نأت بخَيْرٍ»** أي بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم، وأكثر لأجوركم، وليس معناه أنَّ آية خير من آية لأن كلام الله تعالى كله واحد **«أوْ مِثْلِهَا»** أي في المنفعة والثواب، فما نسخ إلى الأ يسر كان أسهل في العمل كالذي كان على المؤمنين من فرض قيام الليل، ثم نسخ ذلك فكان خيراً لهم في عاجلهم لسقوط التعب والمشَّقة عليهم، وما نسخ إلى الأشق كان أكمل في الثَّواب كالذى كان عليهم من صيام أيام معدودات في السنة نُسخ ذلك وفرض صيام شهر رمضان، فكان صوم شهر كامل في كل سنةٍ أثقل على الأ بدان، وأشق من صيام أيَّام معدودات، فكان ثوابه أكمل وأكثر. أما المثل، فكنسخ التوجّه إلى بيت المقدس وصرفه إلى المسجد الحرام، واستواء الأحر في ذلك لأن على

المصلى التوجّه إلى حيث أمره الله تعالى: «**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ على كُلِّ شيءٍ قدير**» أي على النسخ والتبديل، والمعنى ألم تعلم يا محمد أنى قادرٌ على تعويضك ممَّا نسختُ من أحكامي، وغيرته من فرائضي التي كنت أفترضتها عليك ما أشاء مما هو خيرٌ لك ولعبادى المؤمنين، وانفع لك ولهم عاجلاً وآجلاً. (الخازن جـ ١ ص ٧٣)* والخطاب في «**أَلَمْ تَعْلَمْ**» للنبي صلى الله عليه وسلم. والمراد منه هو وأمته لقوله تعالى في الآية التي بعدها: «**وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصير**» وأول الآية «**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰواتِ والأَرْضِ وَمَا لَكُمْ...**» الآية* يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنَّه المتصرِّف في خلقه بما يشاء، فله الخلق والأمر، فكما خلقهم كما يشاء يسعد من يشاء و يشقى من يشاء و يصح من يشاء ويمرض من يشاء و يوفق من يشاء ويخذل من يشاء، كذلك يحكم في عباده بما يشاء ليحل ما يشاء ويحرِّمْ ما يشاء، و يبيح ما يشاء، ويحظر ما يشاء، وهو الذي يحكم ما يريد لا معقب لحكمه، ولا يسئل عما يفعل وَهُمْ يسئلون، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ، فيأمر بالشيء لما فيه من المصلحة التي يعلمها تعالى، ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى، فالطاعة كل الطاعة في امتثال أمره واتباع رسله في تصديق ما أخبروا وامتثال ما أمروا، وترك ما عنه زجروا وفي هذا المقام ردٌّ عظيم و بيانٌ بليغ لكفر اليهود. وتزييف شبهتهم لعنهم الله في دعوى استحالة النسخ إما عقلاً كما زعمه بعضهم جهلاً وكفراً، وإما نقلاً تخرَّصه آخرون منهم افتراءً وإفكاً.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«**أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَبَدَّلَ الْكُفْرَ بالإِيمانِ فَقَدْ ضلَّ سَواءَ السَّبِيلِ**» سورة البقرة (آية: ١٠٨)

جاء في أسباب النزول للواحدى (ص ٢٢): قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبي كعب ورهط من قريش، قالوا: يامحمد اجعل لنا الصفا ذهباً، ووسع لنا أرض مكة، وفجر الأنهار خلالها تفجيراً نؤمن بك. فأنزل الله تعالى هذه الآية* وقال المفسرون أيضاً: إن اليهود وغيرهم من المشركين تمنَّعوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فن قائل يقول: يأتينا بكتاب من السَّماء جملة واحدة كما أتى موسى بالتوراة، ومن قائل يقول: وهو عبدالله بن أبي أمية المخزومى، ائتنى بكتاب من السماء فيه من رب العالمين إلى إبن أبي أميَّة اعلم أنى قد أرسلت محمداً إلى الناس، ومن قائل يقول: لن نؤمن

لك أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً، فأنزل الله تعالى الآية* وفي لباب السيوطي: وأخرج عن أبي العالية قال: قال رجلٌ يا رسول الله لو كانت كفارتنا ككفارات بني إسرائيل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما أعطاكم الله خيرٌ، كانت بنو إسرائيل إذا أصابَ أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتُها، فإن كفّرها كانت له خزياً في الدنيا، وإن لم يكفرها كانت له خزياً في الآخرة، وقد أعطاكم خيراً من ذلك قال تعالى: **«وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثم يَسْتَغْفِرِ الله يَجِدِ الله غفوراً رَحِيماً»** والصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفَّارات لما بينهن فأنزل الله **«أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ...»** الآية* وفي الخازن (جـ١ ص٧٣) وقيل إنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا لن نؤمن لك حتى تأتيَ بالله والملائكة قبيلاً كما سأل قوم موسى موسى فقالوا أرنا الله جهرة، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الطبرى (جـ١ ص٣٨٥) زيادة على ما تقدم عن السدى **«أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ»** أن يريهم الله جهرة، فسألت العرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بالله فيروه جهرة* وعن مجاهد قال: فسألت قريش محمداً صلى الله عليه وسلم أن يجعل الله لهم الصفا ذهباً، قال: نعم، وهو لكم كمائدة بني إسرائيل إن كفرتم فأبوا ورجعوا. فأنزل الله **«أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ...»** الآية* والمراد أن الله تعالى ذمَّ من سأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن شيء على وجه التعنت والاقتراح كما سألت بنوا اسرائيل موسى عليه السلام تعنتاً وتكذيباً وعناداً. وقد نهى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبي صلى الله عليه وسلم عن الأشياء قبل كونها كما قال تعالى: **«يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبدَ لَكُمْ تسُؤْكُمْ وإِنْ تَسْأَلُوا عنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ القُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ»** أي وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم، ولا تسألوا عن الشيء قبل كونه، فلعله أن يحرم من أجل تلك المسئلة، ولهذا جاء في الصحيح [إنَّ أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يُحرَّم فحرّم من أجل مسئلته] ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يجدُ مع امرأته رجلاً فإن تكلَّم تكلَّم بأمرٍ عظيم، وإن سكت سكت على مثل ذلك فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم المسائل وعابَها، ثم أنزل الله حكم الملاعنة* ولهذا ثبت في الصحيحين من حديث المغيرة بن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كان ينهى عن قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال]* وفي صحيح

مسلم [ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم، وإن نهيتكم عن شيء فاجتنبوه]* وقد امتثل الصحابة أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتحلّوا بذالك الخلق العظيم قال أنس بن مالك رضي الله عنه: [نهينا أن نسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شيء، فكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع]* وعن ابن عباس قال: ما رأيْتُ قوماً خيراً من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ما سألوه إلاَّ عن اثنتى عشرة مسئلة كلها في القرآن (يسألُونَكَ عَنَ الْخَمْرِ والْمَيْسِرِ ـــ و ـــ يسألونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الحرام ـــ و يَسْأَلُونَكَ عن اليتامى) يعنى هذا وأشباهه* واختلف أهل العربية في معنى (أَمْ) التي في قوله: «أَمْ تُرِيدُونَ» فقال بعض البصريين هي بمعنى الاستفهام، وتأويل الكلام، أتريدون أن تسألوا رسُولكُمْ. وقال آخرون منهم: هي بمعنى استفهام مستقبل منقطع من الكلام، وجرى الجلال على أنها بمعنى بل فيكون التقدير أم بل أتريدون. وهو يشير إلى أن أم هنا منقطعة، مقدرة ببل والهمزة وهو الظاهر، و يكون اضراب انتقال من قصّة لا إضراب إبطال، ولم تجعل أم متصلة لفقد شرطها، وهو تقدُّم همزة الاستفهام، أو التسوية، وليست هي معادلة للهمزة المذكورة في قوله: «أَلَمْ تَعْلَمْ» وأصل تريدون: ترودون لأنه من راد يرود فنقلت حركة الواو على الراء فسكنت الواو بعد كسرة فقلبت ياءً «أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ» ناصب ومنصوب في محل نصب مفعول به لقوله: تريدُون : أي أتريدون سؤال رسولكم؟ «كَمَا سُئِلَ مُوسَى» الكاف منصوبة محلاً صفة مصدر محذوف، وما مصدري، وكما في محل المفعول المطلق. أي سؤالاً مثل سؤال موسى. «مِنْ قَبْلُ» أي من قبل رسولكم، ومن قبل زمانكم، وذلك أن موسى سأله قومه، فقالوا: أرنا الله جهرة. في الآية منعهم ونهيهم عن السؤالات المقترحة بعد ظهور الدلالات والمعجزات وثبوت الحجج والبراهين على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم «وَمَنْ يَتَبَدَّلَ» أي يستبدل «الْكُفْرَ بالإيمانِ فَقَدْ ضلَّ سَواءَ السَّبِيلِ». والأظهر أنه خطاب للمؤمنين أعلمهم أن اليهود أهل غش وحسد، وأنَّهم يتمنون للمؤمنين المكاره، فنهاهم الله تعالى أن يقبلوا من اليهود شيئاً ينصحونهم به في الظاهر، وأخبرهم أنَّ من ارتدَّ عن دينه فقد أخطأ قصد السبيل* وفي الكشاف (جـ ١ ص ٣٠٣) «وَمَنْ يَتَبَدَّلَ الْكُفْرَ بالإيمانِ» ومن ترك الثقة بالآيات المنزلة وشك فيها واقترح غيرها «فَقَدْ ضلَّ سَواءَ السَّبِيلِ»* وفي المراغى

(جـ ١ ص ١٨٩) أي ومن يترك الثقة بالآيات البيّنة المنزلة بحسب المصالح، و يطلب غيرها تعنّتاً وعناداً للنبي صلى الله عليه وسلم فقد اختار الكفر على الإيمان، واستحبّ العمى على الهدى، و بعد عن الحق والخير، ومن حاد عن الحق وقع في الضلال. **«فَمَاذا بَعْدَ الْحَقِّ إلاّ الضَّلالُ»**.

قال: وسبب نزول الآية أن رافع بن خزيمة، ووهب بن زيد قالا للنبي صلى الله عليه وسلم: ائتنا بكتاب من السماء نقرؤه، وفجر الأنهار نتبعك، وقد تقدم نحو هذا. وسواء السبيل. أي أخطأ الطريق الحق. والسواء في الأصل الوسط أي الطريق المستقيم وهو من إضافة الصفة للموصوف* وفي ابن كثير (جـ ١ ص ١٥٢) **«ومَنْ يَتَبَدَّلَ الْكُفْرَ بالإيمانِ»** أي من يشتر الكفر بالإيمان **«فَقَدْ ضلَّ سَواءَ السَّبِيلِ»** أي فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال، وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء وأتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم، والاقتراح عليهم بالأسئلة التي لا يحتاجون إليها على وجه التعنّت والكفر كما قال تعالى: **«أَلَمْ تَرَ إلى الّذِينَ بَدَّلُوا نِعمَةَ الله كُفْراً وأحلُّوا قوْمَهُمْ دارَ الْبَوارِ* جَهَنَّمَ يَصْلونَهَا وَبِئسَ الْقَرَارِ»*** وقال أبو العالية: يتبدَّل الشدة بالرخاء وأصل الضلال عن الشيء الذهاب عنه والحيد. أي حاد عن سواء السبيل أي الصراط المستقيم وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده، وجعله لهم طريقاً يسلكونه إلى رضاه، وسبيلاً يركبونها إلى محبته والفوز بجنانه، فجعل جلّ ثناؤه الطريق الذي إذا ركب محجّته السائر فيه، ولزم وسطه المجتاز فيه نجا و بلغ حاجتَه، وأدرَكَ طلبته لدينه الذي دعا إليه عباده مثلاً لإدراكهم بلزومه، واتباعه إدراكهم طلباتهم في آخرتهم، كالذي يدرك اللازم محجة السبيل بلزومه إياها طلبته من النجاة منها، والوصول إلى الموضع الذي أمَّه وقصده. وجعل مثل الحائد عن دينه والحائد عن اتباع ما دعاه إليه من عبادته من حرمانه ما رجا أن يدركه بعمله في آخرته، و ينال به في معاده وذهابه عمّا أمَّل من ثواب عمله، و بعده به من ربه مثل الحائد عن منهج الطريق وقصد السبيل الذي لا يزداد وغولاً في الوجه الذي سلكه إلا إزداد من موضع حاجته بُعداً، وعن المكان الذي أمَّهُ وأراده نأياً (الطبرى جـ ١ ص ٣٨٨) وقال: وهذه السبيل التي أخبر الله عنها أنَّ من يتبدّل الكفر بالإيمان فقد ضلّ سواءها: هي الصراط المستقيم الذي أمرنا بمسئلته الهداية له بقوله: **«اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الّذِينَ أنْعمتَ عَلَيْهِمْ»**.

القولُ في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«ودَّ كَثيرٌ مِنْ أهْلِ الْكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا واصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأمْرِهِ إنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ» سورة البقرة (آية: ١٠٩)

جاء في أسباب النزول للواحدى: قال ابن عباس: نزلت فى نفر من اليهود، قالُوا للمسلمين بعد وقعة أحد: ألم تروا إلى ما أصابكم؟ ولَوْ كنتُم على الحقّ ما هَزمْتُم، فارجعوا إلى ديننا فهو خيرٌ لكم وذكر أن كعب بن الأشرف اليهودى كان شاعراً، وكان يهجُو النبيَّ صلَّى الله عليه وسلم ويحرّض كفار قريش فى شعره، وكان المشركون واليهود فى المدينة حين قدمها رسُولُ الله عليه وسلَّم يؤذُون النبيَّ صلى الله عليه وسلَّم وأصحابَهُ أشدَّ الأذى، فأمر الله تعالى نبيَّهُ بالصبر على ذلك والعفو عنهم، وفيهم أنزلت: **«ودَّ كَثيرٌ مِنْ أهْلِ الْكِتابِ»** إلى قوله: **«فاعْفُوا واصْفَحُوا..»** والتحقيق أن العفو والصفح عنهم كان قبل نزول آية القتال، ولهذا قال **«حتّى يأتىَ اللهُ بأمْرِهِ»** فيهم من القتال، وقد أذن الله تعالى بعد ذلك فى قتالهم، وضرب الجزية عليهم. إذاً فهذه الآية منسوخةٌ بقوله تعالى: **«قَاتِلُوا الّذِينَ لا يؤمِنُونَ باللهِ وَلاَ بالْيَوْمِ الآخِرِ ولاَ يدِينُونَ دِينَ الْحَقِ مِنَ الّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ حَتّى يُعطوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وهُمْ صَاغِرُون»** و بقوله تعالى: **«قَاتِلُوا الْمُشْرِكينَ حَيْثُ وَجَدْتُموهُمْ»** وفي الخطيب: وأبى النسخ جماعة من المفسّرين والفقهاء. واحتجُّوا بأنَّ الله تعالى لم يأمر بالعفو والصفح مطلقاً، وإنما أمر به إلى غايةٍ، وما بعد الغاية يخالف ما قبلها. وما هذا سبيله لا يكون من باب النسخ، بل يكون الأوّل قد انقضت مُدَّتُه، والآخر يحتاج إلى حكم آخر. وفي الخازن (ج١ ص٧٣) نزلت هذه الآية فى نفر من اليهود، وذلك أنّهم قالُوا لحذيفة بن اليمان، وعمَّار بن ياسر بعد وقعة أحُدٍ لَوْ كنتُم على الحَقِ ما هزمتمُ فارجعا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلاً منكم، فقال عمَّار بن ياسر: كيف نقضُ العهد فيكم؟ قالُوا: شديد. قال: إنى عاهدت أن لا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلَّم ما عِشْتُ، قالت اليهود: أمَّا هذا فقد صبأ، وقال حذيفةُ: أمَّا أنا فقد رضيتُ بالله ربّاً وبمحمدٍ رسولاً و بالاسلام ديناً، و بالقرآن إماماً و بالكعبة قبلة و بالمؤمنين إخواناً، ثم أنهما أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه بذلك، فقال: أصبتما الخير، وأفلحتما فأنزل الله تعالى: «وَدَّ» أي تمنَّى **«كَثيرٌ مِنْ أهْلِ الْكِتابِ»**

يعني اليهود «لَوْ يَرُدُّونَكُمْ» أي يا معشر المؤمنين «مِنْ بَعْدِ إيمانِكُم كُفَّاراً» أي ترجعون إلى ما كنتم عليه من الكفر «حَسَداً» أي يحسدونكم حسداً وأصل الحسد: تمنى زوال النعمة عمن يستحقها، وربما يكون مع ذلك سعْي فى إزالتها، والحسدُ مذمُوم لما روى عن أبى هريرة أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: إياكم والحسد فإنَّ الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النَّارُ الحطب، أو قال: العُشب. أخرجه أبوداود فإذا أنعم الله على عبده نعمة فتمنى آخر زوالها عنه فهذا هو الحسد، وهو حرام، فإن استعان بتلك النعمة على الكفر والمعاصى، فتمنَّى آخر زوالها عنه فليس بحسد، ولا يحرم ذلك لأنَّهُ لم يحسده على تلك النعمة من حيث أنها نعمة بل من حيث أنَّه يتوصَّل بتلك النعمة إلى الشَّرَ والفساد «مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ» أي من تلقاء أنفسهم لم يأمرهم الله بذلك «مِنْ بَعْدِ ما تَبيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ» يعني في التوراة. أنَّ قول محمد صلى الله عليه وسلّم ودينه حقٌّ لا يشكون فيه، فكفَرُوا به حسَداً و بغياً «فاعْفُوا واصْفَحُوا» أي فتجاوزوا عما كان منهم من إساءة وحَسَدٍ. وكان هذا الأمر بالعفو والصفح قبل أن يؤمر بالقتال «حَتَّى يأتِيَ الله بأمْرِهِ» أي بعذابه، وهو القتل والسبيُ لبنى قريظة، والاجْلاء والنفي لبني النضير، قال ابن عباس: هو أمْرُ الله لَهُ بقتالهمْ في قوله « قاتِلُوا الّذِينَ لايُؤمِنُون بالله ولاَ بالْيَوْمِ الآخِرِ...» الآية كما تقدم «إنَّ الله عَلى كُلِّ شَيْء قدِيرٌ» فيه وعيد وتهديد لهم * وفي الطبري (ج١ ص٣٨٨) عن ابن عباس قال: كان حُييْ بن أخطب، وأبو ياسر بن أخطب من أشد يهود للعرب حسداً إذ خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم، وكانا جاهدين في رد الناس عن الاسلام بما استطاعا، فأنزل الله فيهما: «ودَّ كثيرٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونكُمْ..» الآية * والعفو والصفح متقاربان ففي المصباح: عفا الله عنك أي محا ذنوبك، وعفوت عن الحق أسقطته كأنك محوته عن الذى هو عليه، وعافاه الله محا عنه الأسقام * وفيه أيضاً: صفحت عن الذنب صفحاً من باب نفع. عفوت عنه وصفحت عن الأمر. أعرضت عنه وتركته * فعلى هذا يكون العطف في الآية للتأكيد، وحسنه تغاير اللفظين. وقال بعضهم: العفو ترك العقوبة على الذنب، والصفح ترك اللوم والعتاب عليه * وعبارة البيضاوى في قوله تعالى «حتَّى يأتِيَ الله بأمْرِهِ» الذى هو الاذن فى قتالهم، وضرب الجزية عليهم، أو قتل قريظة، وإجلاء بنى النضير * وهذا كله يقتضى أن هذه الآية نزلت قبل الأمر بالقتال. و ينافيه ما تقدم عن الخازن وغيره فى سبب نزولها بعد أحدٍ، وقد كان الأمر بالقتال قد نزل وحصل

القتال بالفعل، إلا أن يقال الذى كان قد حصل إنما كان فى قتال العرب، وأمَّا قتال بنى إسرائيل من اليهود والنصارى فقد تأخر الأمر به. والإذن فيه عن غزوة الأحزاب، أو قبلها بيسير* وفى ابن كثير (جـ ١ص١٥٣)عن عروة بن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله، و يصبرون على الأذى قال الله «**فاعْفُوا واصْفَحُوا حتّى يَأْتِيَ اللهُ بأمْرِهِ إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ**» وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول من العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بالقتل، فقتل الله به من قتل صناديد قريش* قال ابن كثير: هذا إسناده صحيح. ولم أره في الكتب الستة، ولكن له أصل في الصحيحين عن أسامة بن زيد. وفى أمره تعالى لهم بالعفو والصفح إشارة إلى أن المؤمنين على قلّتهم هم أصحابُ القدرة والشّوكةو لأن الصفح لا يكون إلا من القادر، فكأنه يقول لهم: لا تغرنكم كثرة أهل الكتاب مع باطلهم، فأنتم على قلتكم أقوى منهم بما أنتم عليه من الحق، وأهل الحق مؤيدون بعناية الله، ولهم العزّة ما ثبتوا عليه، ثم أكد الوعد السابق بالنصرة بقوله: «**إنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شيءٍ قَديرٌ**» أي فالله هو القادر على أن يهبكم من القوة ما تتضاءل دونه جميع القوى، و يثبتكم بما أنتم عليه من الحق فتتغلبوا على من يناوئكم و يظهر لكم العدوان اغتراراً بكثرته، واعتزازاً بقوته «**وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**» المراغى (جـ ١ ص١٩١).

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلى شيءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شيءٍ وهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يوْمَ الْقِيَامَةِ فيمَا كَانُوا فيهِ يَخْتَلِفُونَ»

فى الواحدى والقرطبي: نزلت في يهود أهل المدينة، ونصارى أهل نجران وذلك أن وفد نجران لما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم أحبار اليهود فتناظروا حتى ارتفعت أصواتهم، فقالت اليهود: ما أنتم على شيء من الدين، وكفروا بعيسى والانجيل، وقالت لهم النصارى: ما أنتم على شيء من الدين، فكفروا بموسى والتوراة فأنزل الله تعالى هذه الآية* وكذا فى الخازن (جـ ١ ص٧٤) وقال مجاهد: فى تفسير هذه الآية: قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شيء* وقال قتادة: «**وقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارى عَلى**

شَيْءٍ» قال: بل قد كانت أوائل النصارى على شيء، ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا* وعن أبي العالية والربيع بن أنس قالا: هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوعلى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم* وهذا القول يقتضي أن كلاًّ من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى. ولكن ظاهر سياق الآية يقتضي ذمهم فيما قالوه من علمهم بخلاف ذلك، ولهذا قال تعالى: «**وَهُمْ يتْلُونَ الْكِتَابَ**» أي وهم يعلمون شريعة التوراة والانجيل كل منهما قد كانت مشروعة في وقت، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عناداً وكفراً، ومقابلة للفاسد بالفاسد لإبطال العمل بالشرائع السابقة بشريعة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. وقد صَّرح ابن اسحاق بالسّماع عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة، أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله عليه وسلم فأتتهم أحبار يهود، فتنازعوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رافع بن حرملة: ما أنتم على شيء وكفر بعيسى والانجيل، وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود: ما أنتم على شيء، وجحد نبوّة موسى وكفر بالتوراة فأنزل الله في ذلك من قولهما «**وقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النّصَارى عَلَى شيء وقَالَتِ النّصَارىَ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شيءٍ وهُمْ يتْلُونَ الْكِتَابَ**» قال: إن كلا يتلو في كتابه تصديق من كفر به أن يكفر اليهود بعيسى، وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى وفي الانجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى، وما جاء من التوراة من عند الله، وكل يكفر بما في يد صاحبه* وفى الخازن (جـ١ ص٧٤) «**وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ**» يعنى وكلا الفريقين يقرؤن الكتاب، وليس في كتابهم هذا الاختلاف، فدلت تلاوتهم الكتاب ومخالفتهم لما فيه على كفرهم، وكونهم على الباطل* وقيل: إن الانجيل الذى تدين بصحته النصارى يحقق ما في التوراة من نبوة موسى وما فرض الله فيها على بنى إسرائيل من الفرائض، وأن التوراة التى تدين بصحتها اليهود تحقق نبوة عيسى، وما جاء به من عند ربّه من الأحكام، ثم كلا الفريقين قالوا: ما أخبر الله عنهم بقوله: «**وقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارى عَلى شْيءٍ وقَالَتِ النَّصَارىَ ليْسَتِ الْيَهُودُ عَلى شيء**» مع علم كل واحد من الفريقين ببطلان ما قاله. وفي اللسان (جـ٣ ص٤٣٩) ويهود: اسم قبيلة. قال: أولَئكَ أوْلَى مِنْ يَهُودَ بِمَدْحِهِ. إذَا أنْتَ يوْماً قُلْتَها لم تُؤنّب وقيل: إنما اسم هذه القبيلة يهوذ. فعّرب بقلب الذال دالاً، قال ابن سيده: وليس هذا بقويّ، وقالو: اليهود فأدخلوا الألف واللام فيها على إرادة

النسب يريدون اليهوديين ... وسميت اليهود اشتقاقاً من هادُوا. أي تابوُ* قلت وفي التنزيل: **«إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ»** أي تبنا إليك. وهو قول مجاهد وسعيد بن جبير. قاله ابن سيده: عدّاهُ بإلى لأن فيه معنى رجعنا، وقيل: معناه تبنا إليك ورجعنا وقربنا من المغفرة، وكذلك قوله تعالى **« فَتُوبُوا إِلَى بارِئِكُمْ»** وقال تعالى: **«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا والَّذِينَ هَادُوا»** والتهوُّد: التوبةُ والعمل الصالح. وقال الجوهريُّ: ونصران قرية بالشام ينسب إليها النصارى. و يقال: ناصرة. والتَّنصُّرُ: الدخول في النصرانية* قلت: واسم القرية نَصُورِيَّة وهي من قرى الشام. والنَّصَارى منسوبون إليها، ولكن قال ابن سيده: هذا قول أهل اللغة، وهو ضعيف إلا أن نادر النسب يسعه وقال بعضهم: سموا نصارى. لقول **«عيسى ابنُ مَرْيَمَ لِلْحَوارِيّينَ مِنْ أَنْصَارِي إلى الله قَالَ الْحَوارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ الله»** والحواريُّون أصفياء عيسى، وهم أول من آمن به، وكانوا أثني عشر رجلاً. من الحور وهو البياض الخالص. قيل كانو قصارين يحورون الثياب. يبيضونها* وقوله **«من أنصَارِي إلىَ الله»** ظاهرة أن النصرة له، وهذا لا يلائم جوابهم بقولهم **«نَحْنُ أَنْصَارُ الله»** فجعلوا النصرة لله، وقد أشار الجلال إلى أن الإضافة من إضافة أحد المتشاركين إلى الآخر لما بينها من الاختصاص بقوله: أي من الأنصار الذين يكونون معى أي مصاحبين لى. وأشار إلى أن قوله **«إلى الله»**متعلّق بمحذوف هو حال حيث قال متوجهاً إلى نصرة الله. وقال الزمخشرى في الكشاف (جـ ٤ ص١٠١) فان قلت: ما معنى قوله من أنصارى إلى الله، قلت: يجب أن يكون معناه مطابقاً لجواب الحوارِيِّين **«نَحْنُ أَنْصَار الله»** والذى يطابقه أن يكون المعنى من جندى متوجهاً إلى نصرة الله، وإضافة أنصارى خلاف إضافة أنصار الله، فان معنى نحن أنصار الله نحن الذين ينصرون الله، ومعنى من أنصارى من الأنصار الذين يختصمون بى يكونون معى في نصرة الله، ولا يصح أن يكون معناه من ينصرنى مع الله لأنه لا يطابق الجواب. قال: والدليل عليه قراءة من قرأ من أنصار الله. والحواريون أصفياؤه الخ ماذكره الجلال* قلت: يعنى أن بعضهم يدّعى أن الى بمعنى مع أي من أنصارى مع الله. وقوله: قراءة من قرأ أنصار الله. أي لو كانت بمعنى مع لما صح سقوطها في هذه القراءة، وهذا غير لازم، لأن كل قراءة لها معنى يخصها إلا أن الأولى توافق القراءتين. وقوله **«نحن أنصَارُ الله»** من إضافة الوصف إلى مفعوله أي نحن الذين ننصر الله أي ننصر دينه* وقوله تعالى: **«كَذلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ»** يعنى مشركى

العرب، قالوا في نبيّهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه أنهم ليسوا على شيء «**مِثْلَ قَوْلِهِمْ**» يعني مثل قول اليهود للنصارى، والنصارى لليهود، وقيل: أممٌ كانت قبل اليهود والنصارى مثل قوم نوحٍ وهود وصالح ولوط وشعيب... الخ. الأقوام قالوا في أنبيائهم ليسُوا على شيء لأن قوله: «**كذلِكَ**» أي مثل ذلك الذي سمعت من قوله. والكاف في محل نصب إما على أنها نعت لمصدر محذوف قُدم على عامله لافادة الحصر أي قولاً مثل ذلك القول بعينه لا قولاً مغايراً له «**فَاللهُ يَحْكُمُ**» أي يقضي. رجع في الكشاف الضمير إلى الفريقين وقبله البيضاوى. وقضيّةُ اللفظ أن يقال بين الْفِرَق أي فرقة اليهود، وفرقة النصارى، وفرقة الذين لا يعلمون، لكنه خص الأ ولين بالذكر لأن المراد توبيخهما حيث نظما أنفسهما مع علمهما في سلك من لا يعلم. ورجّعه البغوى إلى المبطل والمحق، وهو شامل للفرق المذكورة (كرخى)* «**بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» يعنى بين الفرق، أو بين المحق والمبطل «**فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**» يعنى من أمر الدين، فيدخِلُ المحق الجنّة والمبطل النار* وأما القيامة: فهي مصدر من قول القائل: قُمت قياماً وقيامةً كما يقال عدتُ فلاناً عيادةً، وصنتُ هذا الأمر صيانة، وإنما عنى جلَّ جلاله بالقيامة قيامُ الخلق من قبورهم لربهم، فمعنى يوم القيامة. يوم قيام الخلائق من قبورهم لمحشرهم.

القول في تأويل قولـه تعالى :

«وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ» سورة البقرة (آية: ١١٤)

جـــاء في أسباب النزول للواحدى (ص ٢٢): قال ابن عباس: نزلت الآية في ططلوس الرومى وأصحابه من النصارى، وذلك أنهم غزوا بنى إسرائيل فقتلوا مقاتلتهم، وسبُوا ذراريهم، وحرقُوا التوراة، وخربُوا بيْت المقدس، وقَذَفُوا فيه الجيف* وقال قتادة: هو بختنصر وأصحابه، غزوا اليهود، وخرَّبوا بيْت المقدس، وأعانتهم على ذلك النّصارى من أهل الروم* وفي رواية عن ابن عبَّاس قال: نزلت في مشركى أهل مكة، ومنعهم المسلمين من ذكر الله تعالى في المسجد الحرام* وكذا في القرطبي. وفيه: والمعنى كيف تدعون أيها النّصارى أنكم من أهل الجنة، وقد خرَّبتمْ بيْتَ المقدس، ومنعتم المصلين من الصلاة فيه...؟!* وروى سعيد عن قتادة قال: أولئك أعداءُ الله النّصارى حملهم

إبغاض اليهود على أن أعانوا بُخْتَنَصَّر البابلي المجوسي على تخريب بيت المقدس* قلتُ: ويجوز أن يكون الحكم عاماً وإن كان السبب خاصاً كما تقول لمن آذى صالحاً واحداً، ومن أظلم ممن آذى الصالحين؟! أي لا أحد أظلم منه. لأن مَنْ استفهام في محل رفع بالابتداء. وأظلم أفعل تفضيل خبره. ومعنى الاستفهام هنا النفي أي لا أحد أظلم منه. ولما كان المعنى على ذلك أورد بعض الناس سؤالاً وهو أنَّ هذه الصيغة قد تكرر في القرآن **«ومَنْ أظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى»** **«وَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ ربِّه»** **«فَمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللهِ»** وكل واحدة منها تقتضي أنَّ المذكور فيها لا يكون أحد أظلم منه. فكيف يوصف غيره بذلك؟ وفي ذلك جوابان:

أحدهما : أن يختص كل واحد بمعنى صلته، كأنَّه قال: لا أحد من المانعين أظلم من منع مساجد الله، ولا أحد من المفترين أظلم ممن افترى على الله، ولا أحد من الكذَّابين أظلم ممن كذب على الله تعالى، وهكذا كل ما جاء منه.

الثاني : أنَّ هذا نفي للأظلميّة ونفي الأظلمية لا يستدعي نفي الظالميّة لأن نفي المقيّد لا يدل على نفي المطلق، وإذا لم يدل على نفي الظالميّة لا يكون تناقضاً لأنَّ فيها إثبات التسوية في الأظلمية وإذا ثبتت التسوية في الأظلمية لم يكن أحدٌ ممن وصف بذلك يزيد على الآخر لأنهم متساوون في ذلك. وصار المعنى، ولا أحد أظلم ممن منع، وممن افترى وممن ذكر.

ولا إشكال في تساوى هؤلاء في الأظلمية، ولا يدل ذلك على أنَّ أحدَ هؤلاء يزيد على الآخر في الظلم، كما أنك إذا قلت: لا أحد أفْقَهُ من زيد و بكر وخالدٍ لا يدل على أن أحدهم أفقهُ من الآخر بل نفيت أن يكون واحد أفقه منهم* وقولُه: **«مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ»** الممنوع في الحقيقة هو النّاس، وإنما أوقع المنع على مساجد لما أن فعلهم من طرح الأذى والتخريب ونحوهما متعلّق بالمسجد لا بالناس، والممنوع بيت المقدس على قول، أو المسجد الحرام على قول. ومن خرَّب مسجداً من هذين فقد خرَّب مساجد كثيرة بالقوة لأنها أفضل المساجد على الإطلاق. **«أنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ»** بالصلاة والتّسبيح **«وسَعَى فِي خَرَابِهَا»** بالهدم والتعطيل. قال الجلال: نزلت إخباراً عن الروم الذين خرَّبوا بيت المقدس، أو في المشركين لمَّا صَدُّوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم عام الحديبية عن البيْتِ* وفي أبي السعود فقد روى أنَّ النَّصارى كانوا يطرحُون في بيت المقدس

الأذى، ويمنعون النَّاس أن يصلُّوا فيه، وأنَّ الروم غزوا أهله فخرّبوه وأحرقوا التوراة، وقتلوا وسَبُوا. وقد نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن فلطيوس الرومى ملك النصارى وأصحابه غزوا بنى إسرائيل، فقتلوا مقاتلتهم، وسبُوا ذراريهم، وأحرقوا التوراة، وخربوا بيت المقدس، وقذفوا فيه الجيف، وذبحوا فيه الخنازير، ولم يزل خرباً حتى بناهُ المسلمون في عهد عمر رضي الله عنه* وقيل: إنَّ بختنَصَّر المجوسى من أهل بابل هو الذي غزا بنى إسرائيل، وخرَّب بيت المقدس، وأعانه على ذلك النصارى من أجل أن اليهود قتلُوا يحى بن زكريا عليه السلام. قاله السدى كما في الطبرى (جـ ١ ص ٣٩٧) وفيه قال ابن زيد في قوله: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وسَعَى فِى خَرَابِهَا**» قال هؤلاء المشركون حين حالوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية، و بين أن يدخل مكة حتى نحرى هَدْيَهُ بذى طوى، وهادنهم، وقال لهم: ما كان أحدٌ يُرَدُّ عن هذا البيت، وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه أو أخيه فيه فما يصدُّهُ، وقالُوا لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدرٍ وفينا باقٍ* ورجح الطبرى قول من قال: هم النصارى الذين سعوا في خراب بيت المقدس... الخ* وفي تفسير نظام الدين النيسابورى[1] (جـ ١ ص ٣٧٤) وعن الحسن وقتادة والسدى: نزلت في بختنصَّر حيث خرّب بيت المقدس، وأعانه على ذلك بعض النصارى* ورُدَّ بأن بختنصّر كان قبل مولد المسيح بزمان وفيه. وقيل: نزلت في مشركى العرب الذين منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء إلى الله بمكة، وألجؤه إلى الهجرة فصارُوا مانعين له ولأصحابه أن يذكروا الله في المسجد الحرام* وقد تقدم أنَّه قد يجىء الحكم عاماً وإن كان السبب خاصاً. ومثله «**وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة**» والمنزول فيه الأخنس بن شريق كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى. وقال نظام الدين النيسابورى: في قوله: «**وَمَنْ أَظْلَمُ..**» استعمال لفظ الظلم في هذا المعنى في غاية الحسن. لأن المسجد موضوع لذكر الله تعالى فيه، فالمانعُ من ذلك واضع للشيء في غير موضعه، وأمّا أنّه لا أظلم منه فلأنَّه إن كان مشركاً فقد جمع مع شركه هذه الخصلة الشنعاء فلا أظلم منه، وإن كان يدعى الإسلام ففعله مناقض لقوله لأن من اعتقد أنَّ له

(١) أي تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للعلامه نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابورى الموضوع على هامش تفسير الطبرى.

معبوداً عرف وجوب عبادته له عقلاً أو شرعاً، والعبادة تستدعى متعبَّداً لا محالة، فتخريب المتعبَّد ينبئُ عن إنكار العبادة، وإنكار العبادة يستلزم إنكار المعبود، فهذا الشخص لا يكون في الحقيقة مسلماً، وإنما هو منخرط في سلك أهل النفاق، والمنافق كافرٌ أسوأ حالاً من الكافر الأصلى بالا تفاق« **«أُولِئكَ»** المانعون **«مَا كَانَ لَهُمْ»** أي ما ينبغى لهم **«أَنْ يَدْخُلُوهَا»** في حالٍ من الأحوال **«إِلاَّ خَائِفِينَ»** على حال التهيّب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم، فضلاً أن يستولوا عليها و يلوها، ويمنعوا المؤمنين منها. والمعنى: ما كان الحق الواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وعتوهم، وقيل: هذه بشارة للمؤمنين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام، وعلى سائر المساجد، وأنه يُذِلُّ المشركين لهم حتى لا يدخلوا المسجد الحرام إلا خائفين من أن يُعاقَبُوا أو يقَتَّلُوا إن لم يُسْلِمُوا، وقد أنجز الله هذا الوعد، فنعهم من دخول المسجد الحرام، ونادى فيهم عام حجَّ أبو بكر: ألا لا يَحُجَّنَّ بعد العام مشركٌ. وأمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بإخراج اليهود من جزيرة العرب، وصار بيت المقدس في أيدى المسلمين. **«لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ»** ذِلٌّ بمنعهم المسلمون من دخول المساجد: أو بالجزية في حق أهل الذمَّة، و بالسَّبى والقتل في حق أهل الحرب، وفيه ردعٌ لهم عن ثباتهم على الكفر، وقيل: الخزى فتح مدائنهم قسطنطينية وعموريّة وروميّة...الخ. **«وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ»** والعذاب العظيم يناسب الظلم العظيم فخزى الدنيا بما يعقبه الظلم من الفساد المؤدى إلى الذل والهوان. ولا ظلم أكبر من إبطال العبادة من المساجد والسعى في خرابها، وقد تحقق ما أوعد به الله، فحلَّ بالرُّومانيين الخزى في الدنيا، فتقسَّمت دولتهم، وتشتت ملكهم ولحقهم الذل والهوان على يد غيرهم من الأمم القوية الفاتحة، ومنها الأمَّة الإسلامية. وعذاب الآخرة هو ما أعدّه الله للفجار في جهنم و بئس القرار« روى الطبرى في تفسيره (جـ ١ ص ٣٩٨) عن السدى **«أُولِئكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ»** قال: فليس في الأرض رومى يدخلها اليوم إلا وهو خائف أن تضرب عنقه وقد أُخيف بأداء الجزية« وعن الحسن في قوله: **« لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ»** قال يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون« وعن السدى: **«وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ»** قال: وأما العذاب العظيم، فإنَّه عذاب جهنَّم الذي لا يخفف عن أهله، ولا يقضى عليهم فيها فيموتوا« وهذه الجملة، وما بعدها لا محلَّ لها لاستئنافها عما قبلها، ولا يجوز أن تكون حالاً لأن خزيهم ثابت على كل حال لا يتقيد بحال دخول المساجد خاصة.

هـذا: وقـد جوَّز أبوحنيفه دخول المساجد كلها لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قدم عليه وفد ثقيف فأنزلهم المسجد. وأجيب بأنَّه في أول الإسلام. ثم نسخ. وقد ورد الحديث بـالاستـعاذة من خزى الدنيا وعذاب الآخرة. أخرج الإمام أحمد عن بشر بن أرطاة قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو [اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة] وهو حديث حسن.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«وَلله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله إنَّ الله وَاسِعٌ عَليمٌ» سورة البقرة (آية: ١١٥)

روى الواحدى في أسباب النزول عن جابر بن عبدالله قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سَرِيَّة كنْتُ فيها، فأصابتنا ظلمة، فلم نعرف القبلة، فقالت طائفة منَّا: قد عرفنا القبلة هى ها هنا قِبل الشّمال، فصلُّوا وخطُّوا خطوطاً وقال بعضنا: القبلة ها هنا قِبلَ الجنوب وخطُّوا خطوطاً، فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة، فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن ذلك فسكت، فأنزل الله تعالى: **«وَلله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله...»** الآية. وذهب ابن عمر رضي الله عنه أنَّ الآية نازلة في التّطوع بالنافلة. فقال: صلِّ حيث توجّهت بك راحِلتُكَ في التطوع* وروى عطاء عن ابن عباس قال: إن النجاشي لما توفى قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم إنَّ النجاشي توفى فصلِ عليه ــ أي صلاة الغائب ــ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصْحَابَه أن يحضُرُوا وصفهم، ثم تقدَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم: إنَّ الله أمرني أن أُصَلِّيَ على النجاشي، وقد توفى فصلُّوا عليه، فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنفسهم. كيف نصلي على رجل مات وهو يُصلى على غير قبلتنا؟ وكان النجاشي يصلي إلى بيت المقدس حتى مات، وقد صرفت القبلة إلى الكعبة: فأنزل الله تعالى: **«فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله...»*** وقال ابن عباس: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: **«وحيْثُ ما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وجُوهَكُمْ شَطْرَهُ»** فهذا قول ابن عباس عند عطاء الخرساني. وقال: أوّلُ ما نسخ من القرآن شيئان: القبلة، قال الله تعالى: **«فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله»** قال فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نحو بيت المقدس، وترك البيت العتيق، ثم صرفه الله إلى البيت

العتيق* وفي رواية أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس قال: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لما جاهر إلى المدينة، وكان أكثر أهلها اليهود، أمره الله أن يستقبل بيت المقدس، ففرحت اليهود، فاستقبلها بضعة عشر شهراً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبُّ قبلة ابراهيم، فلمَّا صرفه الله تعالى إليها ارتابَ من ذلك اليهود وقالوا: «**ما ولاّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ التى كانُوا عَلَيْهَا؟**» فأنزل الله تعالى: «**فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله**» وفي تفسير القرطبي: اختلف العلماء في المعنى الذي نزل فيه «**فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله**» على خمسة أقوال: فقال عبدالله بن عامر بن ربيعة: نزلت فيمن صلى إلى غير القبلة في ليلة مظلمة* أخرجه الترمذى عنه عن أبيه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفرٍ في ليلة مظلمة، فلم ندر أينَ القبلة، فصلى كل رجُلٍ منا على حياله، فلمَّا أصبحنا ذكرنا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت «**فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله**» وضعف الحديث لوجود أشعث السَّمان في سنده. لكنه قال: وقد ذهب أكثر أهل العلم إلى هذا وقالوا: إذا صلى في الغيم لغير جهة القبلة، ثم استبان له بعد ذلك أنَّه صلى لغير القبلة فإن صلاته جائزة، و به يقول سفيان وابن المبارك وأحمد وإسحاق، وهوقول أبي حنيفة ومالك. غير أن مالكاً قال: تستحب له الإعادة في الوقت* وقال المغيرة والشافعيُّ: لا يجزيه لأن القبلة شرط من شروط الصلاة* قال القرطبي: وما قاله مالك أصَحُّ لأن القبلة تبيح الضرورة تركها في المحاربة، وتبيحها أيضاً الرُّخصة حالة السفر* وقال ابن عمر: نزلت في المسافر ينتقل حيثما توجهت به راحلته* أخرجه مسلم عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى وهومقبلٌ من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت «**فأيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله**» قلتُ: ولا خلاف بين العلماء في جواز النافلة على الراحلة لهذا الحديث* وقال قتادة: نزلت في النجاشي..الخ. ما تقدم* وقال ابن زيد: كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس. وقالوا: ما هتدى إلاَّ بنا، فلما حُوّل إلى الكعبة قالت اليهود: «**ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليه**» فنزلت «**وَلله الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...**» الآية والقول الخامس: أن الآية منسوخة كما نقلته لك عن ابن عباس رضي الله عنهما. قال القرطبي: فكأنَّه كان أي ابن عباس يجوّز في الابتداء أن يصلى المرء كيف شاء، ثم نسخ ذلك، وقال قتادة: الناسخ قوله تعالى: «**فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**» أي تلقاءه، حكاه أبوعيسى الترمذي. وقول سادس:

روى عن مجاهد والضحاك أنها محكمة المعنى: أينما كنتم من شرق وغرب، فثم وجه الله الذي أمرنا باستقباله وهو الكعبة. وعن مجاهد أيضاً وابن جبير لمَّا نزلت «**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**» قالوا إلى أين؟ فنزلت «**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**» وتجد هذه الأقوال ونحوها في تفسير الطبرى (جـ١ ص ٤٠٠)* وفي غرائب القرآن قول لأبى مسلم: أن كلا من اليهود والنصارى زعمت أن الجنة لهم وحدهم فردَّ الله عليهم وذلك أن اليهود إنما استقبلوا بيت المقدس لإعتقادهم أنه تعالى صعد إلى السماء من الصخرة، والنصارى استقبلوا المشرق لأن عيسى ولد هناك «**إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكاناً شَرْقِياً**» فكل منهما وصف معبوده بالحلول في الأماكن، ومن كان هكذا فهو مخلوق لا خالق فكيف تخلص لهم الجنة، وهم لا يفرقون بين المخلوق والخالق* وفي قول لعليّ بن عيسى: أنه خطاب للمسليمن. أي لا يمنعكم تخريب من خرَّب مساجد الله عن ذكره حيث كنتم من أرضه فلله بلاد المشرق والمغرب والجهات كلها ففي أي مكان فعلتم التولية التي أمرتهم بدليل قوله: «**فَوَلِّ وجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرام**» «**فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**» قلت: وفي السّمين: «**وَللهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ**» جملة مرتبطة بقوله: «**مَنَعَ مَساجِدَ اللهِ وسَعَى في خَرابِها**» يعنى أنَّه إن سعى ساعٍ في المنع من ذكره تعالى، وفي خراب بيوته فليس لك مانعاً من أداء العبادة في غيرها لأن المشرق والمغرب وما بينهما له تعالى، والتنصيص على ذكر المشرق والمغرب دون غيرهما لوجهين:

أحدها : لشرفهما حيث جُعلا لله تعالى.

والثاني : أن يكون من حذف المعطوف للعلم به، أي لله المشرق والمغرب وما بينهما. كقوله: «**تَقِيكُمُ الحرَّ**» أي والبرد.

وفي المشرق والمغرب قولان: أحدهما : أنهما اسما مكان الشروق والغروب. والثاني: أنهما اسما مصدر أي الإشراق والإغراب، والمعنى لله تولّى إشراق الشمس من مشرقها واغرابها من مغربها، وجاء المشارق والمغارب باعتبار وقوعهما في كل يوم، والمشرقين والمغربين باعتبار مشرقى الشتاء والصيف ومغربيهما* وفي تفسير النسفي في قوله: «**فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ**» أي جهته التى أمر بها ورضيها، والمعنى إنكم إذا منعتُم أن تُصلُّوا في المسجد الحرام أو في بيت المقدس، فقد جعلت لكم الأرض مسجداً، فصلوا في أي بقعة شئتُم من بقاعها، وافعلوا التولية فيها فإنَّ التولية ممكنةٌ في كل مكان* قلت وهذا بالتأكيد منسوخ

بقوله تعالى: «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ» لأن التوجه إلى الكعبة فرض في الفريضة على خلاف في نافلة السفر كما علمت. وإنَّ على جميعهم طاعته فيما أمرهم به ونهاهم عنه، فما أمرهم باستقباله فهو القبلة فإن القبلة ليست قبلة لذاتها بل لأن الله تعالى جعلها قبلةً وأمر بالتوجه إليها «فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وحَيْثُ مَا كنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شطْرَهُ» فهو قبلة الله التى وجهكم إليها. وقوله: «فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ» أي وجه الله تعالى بعلمه وقدرته، والوجه صفة ثابتة لله تعالى لا من حيث الصورة، وقيل: فثم رضا الله أي يريدون بالتوجه إليه رضاهُ «إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ» من السَّعة، وهو الغنى أي يسع خلقه كلهم بالكفاية والافضال والجود والتدبير وقيل: واسع المغفرة «عَليمٌ» أي بأعمالكم ونياتكم حيثما تصلُّوا وتدعوا، لا يغيب عنه منها شيء.

مَسْئلةٌ تتعلّق بحكم الآية :

قال الخازن في تفسيرة (جـ ١ ص ٧٦): وهي أن المسافر إذا كان في مفازة أو بلاد شرك، واشتبهت عليه القبلة، فإنه يجتهد في طلبها بنوع من الدلائل، و يصلى إلى الجهة التى أدى إليها اجتهاده ولا إعادة عليه، وإن لم يصادف القبلة، فإن جهة الاجتهاد قبلته، وكذا الغريق في البحر إذا بقى على اللوح فإنَّه يصلى على حسب حاله، وتصح صلا ته، وكذلك المشدود على جذع بحيث لا يمكنه الاستقبال.

القول في تأويل قولــه تعالى :

«وقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فى السَّموٰاتِ والأرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ۞ بَديعُ السَّمٰواتِ والأرْضِ وإذَا قَضَى أمْراً فَإنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»
سورة البقرة (آية: ١١٦، ١١٧)

قال الواحدى في أسباب النزول: نزلت في اليهود قالوا: عزيزٌ ابن الله، وفي نصارى نجران حيث قالوا: المسيح ابن الله، وفي مشركى العرب قالوا: الملائكة بنات الله۞ وكذا في تفسير الخطيب. وفي القرطبي. خرَّج البخارى عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [قال الله تعالى: كذَّبنى ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبُهُ إيَّاىَ فزعم أنّى لا أقدرُ أن أعيده كما كان، وأمّا شتمه إيّاىَ فقوله لى ولد، فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولداً]۞ وقوله: «اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً» بمعنى صنع، فيعدّى لواحد، أو بمعنى صيَّر، والمفعوا الأ ول محذوف أي صيَّر بعض مخلوقاته ولداً إلا أنَّه مع كثرة

وورود هـذا التركيب لم يذكر معه إلا مفعول واحد مثل «**وقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَداً**» «**ما اتّخذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ**» «**وما يَنْبغِي للرَّحمنِ أنْ يتّخِذَ ولَداً**»* «**سُبْحَانَهُ!**» تنزيها له عن الاتخاذ لأن اتخاذ الولد لبقاء النوع، والله منزه عن الفناء والزوال. «**بَلْ لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ والأرْضِ**» ملكاً وخلقاً وعبداً، والملكية تنافى الولادة، وعبَّر بما تغليباً لمَا لا يعقل، أي التي لغير أولى العلم مع قوله قانِتُونَ. تغليباً لما لا يعقل أي للإعلام بأنهم في غاية من القصور عن فهم معنى الرُّبوبية. وفي نهاية من النزول إلى معنى العبودية إهانةً لهم، وتنبيهاً على إثبات مجانستهم بالمخلوقات المنافية للألوهية* وقيل: إنَّ الولد إنما اتخذ للحاجة إليه والانتفاع به عند عجز الوالد وكبره، والله تعالى منزه عن ذلك كله، فإضافة الولد إليه محال. «**كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ***» يعنى أن أهل السموات والأرض مطيعون لله ومقرون له بالعبودية، وأصل القنوت لزوم الطاعة مع الخضوع* وفي اللسان (جـ ٢ ص ٧٣) القنوت: الامساكُ عن الكلام. وقيل: الدعاء في الصلاة. والقنوتُ: الخشوع والاقرار بالعبودية، والقيام بالطاعة التي ليس معها معصيةٌ. وقيل: القيامُ وزعم ثعلبٌ أنَّه الأصل. وقيل: إطالة القيام. وفي التنزيل العزيز «**وقُومُوا لله قَانِتِينَ**» قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت: وقوموا لله قانتينَ، فأمرنا بالسكوت، ونهينا عن الكلام، فأمسكنا عن الكلام فالقنوت: هٰهنا: الإمساك عن الكلام في الصلاة. وفي القيام حديث جابر قال: سُئل النبي صلى الله عليه وسلم أي الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت، يريد طول القيام، وقد تكرر ذكر القنوت في الحديث وورد بمعان متعددة، كالطاعة والخشوع، والصلاة، والدعاء، والعبادة، والقيام، وطول القيام، والسكوت وقال ابن الأنبارى: القنوت على أربعة أقسام: الصلاة، وطول القيام، وإقامة الطاعة والسكوت* وقال ابن سيده: القنوت الطاعة. هذا هو الأصل. ومنه قوله تعالى: «**والقَانِتينَ والْقَانِتَاتِ**» وقوله تعالى: «**كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ**» أي مطيعون، ومعنى الطاعة ههنا: أنّ من في السَّمٰوات مخلقون لا يقدر أحدٌ على تغيير الخِلْقة، ولا مَلَكٌ مقرب، فآثار الصنيعة والخلقة تدل على الطاعة، وليس يعنى بها طاعة العبادة، لأن فيهما مطيعاً وغير مطيع، وإنما هى طاعة الإرادة والمشيئة، أي التصرُّف المطلق بمن فيهما، وما عليهما* وقد دلت الآية على نوع آخر من قبائح أفعال اليهود والنَّصارى والمشركين جميعاً فقد مرَّ ذكرهم في قوله: «**كَذٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلِ قَوْلِهِمْ**» وفي قوله: «**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ**

«مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ..» والضمير يصلح للعود إليهم كما تقدم فاليهود قالوا عزير ابن الله، والنَّصارى قالوا المسيح ابن الله، والمشركون من العرب قالوا الملائكة بنات الله، وقد نـزَّه المولى جلَّ وعلا ذاته العليّة، و برهن على ذلك بأن له كل ما في السمٰوات والأرض ملكاً وخلقاً وإبداعاً وصنعاً، ومن جملتهم الملائكة والمسيح وعزير، والولد لابد أن يكون من جنس الوالد، ومن أين المناسبة بين واجب الوجود لذاته، وممكن الوجود لذاته، اللهمَّ إلا في مطلق الوجود، وذلك لا يقتضي شركة في الحقيقة الخاصّية بكل منهما، بل الملائكة وعزير والمسيح عابدون له مقرون بر بو بيته، منكرون لما أضافوا إليهم من الولدية، يحكى أنَّ عليَّ بن أبي طالب كرَّم الله وجهه قال لبعض النصارى: لولا تمرُّدُ عيسى عن عبادة الله تعالى لصرتُ على دينه، فقال النصرانيُّ: كيفَ يجوزُ أن ينسب ذلك إلى عيسى مع جدّه في طاعة الله، فقال عليٌّ: إن كان عيسى إلهاً فالإلٰه كيف يَعبُدُ غيره، وإنما العبد هو الذي يليق به العبادة، فانقطع النصرانيُّ وبهت* وقوله: **«بَدِيعُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ»** أي خالقها ومبدعها ومنشئها على غير مثالٍ سبق، والمشهور رفع بديع على أنَّه خبر مبتدأ محذوف أي هو بديع، وقرىء بالجرِّ على أنّه بدل من الضمير في لَهُ، وقرىء بالنصب على المدح، و بديع السَّمٰوات من باب الصفة المشبّهة أضيفت إلى منصوبها الذي كان فاعلاً في الأصل، والأصل بديعٌ سمٰواتُه وأرضه أي بدعت لمجيئها على شكل فائق حسن غريب، ثم شبّهت هذه الصّفة باسم الفاعل، فنصبت ما كان فاعلاً، ثم أضيفت إليه تخفيفاً، وهكذا كل ما جاء من نظائره، فالإضافة لابد وأن تكون من نصب لئلا يلزم إضافة الصفة إلى فاعلها، وهو لا يجوز، كما لا يجوز في اسم الفاعل الذي هو الأصل (من السمين والكشاف جـ ١ ص ٣٠٧)* **«وَإِذَا قَضَى أَمْراً»** أي قدّره. وأراد خلقه، وأهل القضاء الحكم والفراغ. والقضاء في اللّغة: على وجوه كلها ترجع إلى انقطاع الشيء وتمامه والفراغ منه. فيقال: قضى القاضي بهذا إذا فصل الدعوى، وانقضى الشيء انقطع، وقضى حاجته قطعها عن المحتاج، وقضى الأمر إذا أتّمَّهُ وأحكمه لأن إتمام العمل قطع له، وقضى دينَهُ أدّاهُ لأنَّهُ انقطع كل منهما عن صاحبه، ومعنى قضى أمراً. أتمه، أو حكم بأنه يفعله **«فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»** أي وإذا أراد إحداث أمر وإيجاده، فإنما يأمره أن يكون موجوداً فيكون، والكلام تمثيل وتشبيه لتعلّق إرادته بإيجاد الشيء فيعقبُه وجودهُ، بأمرٍ يصْدُرُ فيعقبه الامتثال. والإيجاد والتكو ين من أسرار الألوهية، عبّر عنها بما

يقرِّبها من الفهم، وهو أن يقول للشيء كن فيكون. وهو كناية عن سرعة الإيجاد و يكون من كان التامة بمعنى أحدث فيحدُث، وليس المراد به حقيقة أمر وامتثال بل تمثيلُ حصُول ما تعلَّقتْ به إرادته بلا مهلة بطاعة المأمور المطيع بلا توقُّف (البيضاوي)* وفي الشهاب تعليقاً على قوله: بَلْ تمثيلُ حصُول ما تعلَّقت به إرادتُه...الخ. قال: بأن شُبّهت الحال التي تتصوَّر من تعلُّقِ إرادته تعالى بشيء من المكوِّنات وسرعة إيجاده إيَّاهُ بحالة أمر الآمر النافذ تصرفُه في المأمور المطيع الذي لا يتوقَّف في الإمتثال فأطلق على هذه الحالة ما كان يستعمل في تلك من غير أن يكون هناك أمرٌ وقولٌ* قلتُ: وقد أكّدَ جل جلاله بهذا استبعاد الولادة لأن من كان يتصف بهذه الصفة العظيمة من القدرة وسرعة الإيجاد كانت حالته تقتضي مباينتُه لأحوال الأجسام في توالدها، فهي مخلوقة، والمخلوق مفعول لا فاعل. فالصفتان متباينتان في الفاعلية والمفعولية، والله خَالِق كُلِّ شيء وهو على كل شيء قدير. فيكون قد قرر تعالى في هذه الآيات الكريمة أنَّه السيد العظيم الذي لا نظير له، ولا شبيه له، وأن جميع الأشياء مخلوقة له مربوبة، فكيف يكون له منها ولدٌ؟ كما نبّه تعالى أنّ خلق عيسى بكلمة كن فكان قال تعالى: **«إنَّ مَثَلَ عيسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فيكُونُ»**.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«إنَّـا أرْسَلْنَاكَ بالْحَقِّ بَشيراً ونَذيراً ولاَ تُسْألُ عَنْ أصْحَابِ الْجَحِيمِ»

سورة البقرة (آية: ١١٩)

جـــاء في أسباب النزول للواحدى : قال ابن عبَّاس: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم: [ليت شعرى ما فعل أبواى؟] فنزلت هذه الآية. لكن ضعفه الخطيب. وقال مقاتل: إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: لو أنزل الله بأسه باليهود لآمنوا فأنزل الله تعالى: **«ولاَ تُسْألُ عَنْ أصْحَابِ الْجَحِيمِ»*** وفي الخطيب والمختار أنها نزلت في كفار أهل الكتاب. وفي ابن كثير (جـ ١ ص ١٦٢) عن محمد بن كعب القرظى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ليت شعرى ما فعل أبواى. ليت شعرى ما فعل أبواى؟] فنزلت **«ولاَ تُسْألُ عَنْ أصْحَابِ الْجَحِيمِ»** فما ذكرها حتى توفاه الله عز وجل. ورواه ابن جرير عن أبى كريب، عن وكيع عن موسى بن عبيده. وقد تكلَّمُوا فيه، وقد حكاه القرطبي عن ابن عبَّاس، ومحمد بن كعب، قال القرطبي: وهذا كما يقال لا تسأل

عن فلان. أي قد بلغ فوق ما تحسب وقد ذكرنا في التذكرة أنَّ الله أحيى له أبو يه حتى آمنا به. قال ابن كثير: والحديث المروى في حياة أبو يه عليه السلام ليس في شيء من الكتب الستة ولا غيرها، وإسناده ضعيف* لمَّا بين تعالى غاية إصرارهم على العناد، وتصميمهم على الكفر بعد نزول ما يكفى في باب الإقتداء والإهتداء من الآيات البينات أراد أن يُسلِّيَ و يُسرّى عن رسُوله لئلا يضيق صَدْرُه فقال: إنا أرسلناك يا محمد بالحق بالصواب حسب ما تقتضيه الحكمة، وهو أن لا يكون ذلك أن تجبرهم على الإيمان، بل لا يتجاوز حالك عن أن تكون بشيراً لمن اتبعك بكل خيرٍ ونذيراً لمن خالفك بكل سوء، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات فإنك غير مسئول عن أصحاب الجحيم، وهو من أسماء النار، وكل نار عظيمة في مهواة فهي جحيم من قوله تعالى: «**قالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ**» والجاحم المكان الشديد الحر، وهذا كقوله: «**فإنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**»* وفي الخازن (جـ١ ص٧٧) «**إنَّا أرْسَلْنَاكَ بالْحَقِّ**» أي بالصدق، وقال ابن عباس: بالقرآن* وقيل: بالإسلام. وقيل معناه: إنَّا لم نرسلك عبثاً بل أرسلناك «**بالحقِّ بَشيراً**» أي مبشراً لأ وليائى، وأهل طاعتى بالثواب العظيم «**وَنَذيراً**» أي منذراً ومخوّفاً لأعدائى وأهل معصيتى بالعذاب الأليم* وأخرج البخارى عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبدالله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، فقال: أجل، والله إنَّه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: يا أيُّها النَّبيُّ إنَّا أرسَلْنَاكَ شَاهِداً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل، لا فظّ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق، ولا يَدْفعُ بالسيئة السيئة ولكن يعفو، و يغفر ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملَّة العوجاء، بأن يقولوا لا إله إلاَّ الله، فيفتح به أعيناً عُمياً، وآذاناً صُمّاً، وقُلُوباً غُلْفاً* «**ولاَ تُسْألُ عَنْ أصْحَابِ الْجَحِيمِ**» أي فلا يضرنك تكذيب المكذبين الذين يساقون بجحودهم إلى الجحيم، فأنت لم تبعث ملزِماً ولا جبَّاراً، بل بُعثت معلماً وهادياً بالدعوة وحسن الأسوة.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَلَنْ تَرضَى عَنْكَ الْيَهُودُ ولاَ النَّصارَى حتَّى تَتَّبعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إنَّ هُدَى الله هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مالَكَ مِنَ الله مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ» سورة البقرة (آية: ١٢٠)

في الواحدى. قال المفسرون: إنهم كانوا يسألون النبي صلى الله عليه وسلم الهدنة، و يطمعون أنه إذا هادنهم وأمهلهم اتبعوه و وافقوه. فأنزل الله تعالى هذه الآية* وقال ابن عباس: هذا في القبلة، وذلك أن يهود المدينة ونصارى نجران كانوا يرجون أن يصلى النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى قبلتهم، فلمّا صرف الله القبلة إلى الكعبة شُقّ ذلك عليهم، فيئسوا منه أن يوافقهم على دينهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية* أي ولن ترضى عنك اليهود إلا باليهودية ولا النصارى إلا بالنصرانية. قال الخطيب: وفي هذا مبالغة في إقناطه صلى الله عليه وسلم عن إسلامهم، وذلك أنهم كانُوا يسألونه الهدنة، و يطمعونه أنه إن أمهلهم اتّبعوه فأنزل الله تعالى هذه الآية* فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم فكيف يتبعون ملّته؟. وفي القرطبي نحو هذا. وعبارته أنهم كانوا يسألونه المسالمة والهدنة و يَعدون النبي صلى الله عليه وسلم بالإسلام، فأعلمه الله أنهم لن يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم وأمره بجهادهم* «**قُلْ**» تعليماً للجواب «**إِنَّ هُدَى اللهِ**» أي دين الإسلام «**هُوَ الْهُدَى**» أي هو الذي يصح أن يُسمّى هُدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى، وما يدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو أهواء ألا ترى إلى قوله تعالى: «**وَلَئِنْ**» اللام الموطئة للقسم «**اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ**» أي آراءهم الزائفة التي يدعونك إليها «**بَعْدَ الَّذِى جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**» أي من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة «**مَالَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ**» يحفظك «**وَلاَ نَصِيرٍ**» يمنعك منه. وقد أفادت الآية أن الكفر كله ملّة واحدة لقوله تعالى: «**مِلَّتَهُمْ**» فوحد الملة، وهو مذهب أبي حنيفة والشافعي وداود وأحمد بن حنبل، وفي رواية لأحمد ومالك أن الكفر مِلَلٌ، فلا يرث اليهوديُّ النصرانيَّ، ولا يرثان المجوسيَّ، وعلى القول الأول يرث كل واحد منهما الآخر. وقيل: في قوله تعالى: «**وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ**» أنه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، والمراد به أمّته، والمعنى إيّاكم أخاطبُ، ولكن أؤدب وأنهى، فقد علمتم أن محمداً صلى الله عليه وسلم قد جاءكم بالحق والصدق، وقد عَصَمْتُه، فلا تتبعوا أنتم أهواء الكافرين، ولئن اتّبعتُم أهواءهم بعد الذي جاءكم من العلم والبينات مالكم من الله من وليّ ولا نصير* وفي هذا تهديد و وعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنّصارى بعد ما علموا من القرآن والسنّة عياذاً بالله من أنهم يحرفون كلام الله عن مواضعه بتأو يلاتهم الفاسدة، وأنهم نسوا حظاً مما ذكّرُوا به من صفات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل إلى آخر ما ذكره تعالى من صفاتهم السيئة في القرآن

الكريم من قتلهم الأنبياء بغير حق، وإنكارهم لشرائعهم التي جاؤهم بها، وأكلهم الرشا وأموال الناس بالباطل وغير ذلك من الصفات الذميمة، وهذا القول جار على مجرى العرف في خطاب الملوك، أن يقال لِلْمَلِكِ: إذا فعلت كذا كانت العاقبة كذا، و يُرادُ إذا فعلته دولتُك، أو أمتُكَ. والكلام هنا جاء على هذا الأسلوب ليرشد من يأتي بعده أن يصدع بالحق، و ينتصر له، ولا يبالى بمن خالفه مهما قوى واشتد أمره، فمن عرف الحق، وعرف أنَّ الله وليُّ أمره وناصره لا يخاف في تأييده لوم اللائمين، ولا إنكار المعاندين.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِه أُلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فأولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ» سورة البقرة (آية: ١٢١)

ذكر الواحدى في أسباب النزول عدة أقوال في أسباب نزول هذه الآية منها: قال ابن عباس في رواية عطاء والكلبي: نزلت في أصحاب السفينة الذين أقبلوا مع جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة كانوا أربعين رجلاً من الحبشة وأهل الشام* وقال الضحاك: نزلت فيمن آمن من اليهود* وقال قتادة وعكرمة: نزلت في محمد صلى الله عليه وسلم* وعبارة الخطيب تشير إلى أنها نزلت في اليهود فقال: **«الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِه»** أي يعرفونه كما أنزل لا يحرفونه، ولا يُغيرِّون ما فيه من نعت محمد صلى الله عليه وسلم **«أُولئكَ يُؤمِنُونَ بِهِ»** أي بكتابهم دون المحرّفين **«وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ»** أي بالكتاب المؤتى بأن يُحرِّفَهُ **«فأولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ»** لمصيرهم إلى النَّار* وفي القرطبي: قال قتادة: هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم. فالكتاب على هذا التأويل القرآن. وقال ابن زيد: هم ممن أسلم من بنى إسرائيل. فالكتاب على هذا التأويل التوراة. والآية تعمُّ الكتابين وأهليهما. واختلفوا في معنى **«يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِه»** فقيل: يتَّبعونه حق اتباعه باتباع أوامره ويجتنبون نواهيه، ويحلُّون حلاله ويحرِّمون حرامه، و يعملون بما تضمنه. وفي هذا قال عكرمة: أما سمعت قول الله تعالى: **«والْقَمَرِ إذَا تلاهَا»** أي اتبعها، وهو معنى قول ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم. وروى نصر بن عيسى عن مالك، عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله **«يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِه»** قال: يتبعُونه حق اتباعه. لكن في إسناده مجاهيل. وأن معناه صحيح. قال أبوموسى الأشعرى: من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة* وعن عمر بن الخطاب رضي الله

عنه: هُمُ الذين إذا مرُّوا بآية رحمة سألوها من الله، وإذا مرُّوا بآية عذاب تعوَّذُوا* وقال الحسن: هم الذين يعلمون بمحكمه و يؤمنون بمتشابهه، و يكلون ما أشكل عليهم إلى عالمهم* وقيل: يقرؤنه حقّ قراءته* قال القرطبي: وفيه بعد إلا أن يكون المعنى يرتلون ألفاظه، و يفهمون معانيه، فإنَّ بفهم المعاني يكون الاتباع لمن وفّق* زاد الخازن (جـ ١ ص ٧٨) في رواية ابن عباس وهي قوله: أن الآية نزلت في أهل السفينة الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب، قال: وكانوا أربعين رجلاً: إثنان وثلاثون رجلاً من الحبشة، وثمانية من رهبان الشام منهم بحيرا الراهب* وقيل: هم مؤمنوا أهل الكتاب مثل عبدالله بن سلام وأصحابه* وقيل هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خاصة* وقيل: هم المؤمنون عامة* وفي ابن كثير (جـ ١ ص ١٦٣) وقال أبو العالية: قال ابن مسعود: والذي نفسي بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه، و يقرأه كما أنزله الله، ولا يحرف الكلم عن مواضعه، ولا يتأوّل شيئاً على غير تأويله* وهذا القول هو الصحيح لأن الكتاب الذي يمدح على تلاوته هو القرآن الكريم المحفوظ من التحريف أو التبديل. ففي الطبرى (جـ ١ ص ٤١١) عن قتادة في قوله: «**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ**» قال: هؤلاء أصحاب نبيّ الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بكتاب الله وصدّقوا به* «**أُولئِكَ**» يعنى الذين يتلونه حق تلاوته «**يُؤْمِنُونَ بِهِ**» أي يصدقون به «**وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ**» أي يجحد ما فيه من فرائض الله ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم «**فأولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**» أي خسروا أنفسهم حيث استبدلوا الكفر بالإيمان.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«أم كُنْتُمْ شُهَداءَ إذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْت إذْ قَالَ لِبَنيهِ ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدي قَالُوا نَعْبُدُ إلهَكَ وإلَهَ آبَائِكَ إبْراهِيمَ وإسْمَاعِيلَ وإسْحَاقَ إلٰهاً وَاحِداً ونَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ»البقرة آية (١٣٣) فى الواحدى نزلت الآية فى اليهود حين قالوا للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: ألست تعلم أن يعقوب يوم مات أوصى بنيه باليهودية؟* وفى القرطبي: والخطاب لليهود والنصارى الذين ينسبون إلى دين إبراهيم ما يُعص به نبيَّهُ، وأنهم على اليهودية والنصرانية، فرد الله عليهم قولهم وكذبهم* وفى الطبرى (جـ ١ ص ٤٣٩) عن الربيع قوله «**أَمْ كُنْتُم شُهَداءَ**» يعنى أهل الكتاب* وشهداء، جمع شاهد أو شهيد. بمعنى الحاضر. أي ما كنتم حاضرين. و يعنى تعالى ذكره بقوله: «**أم كنتُم شُهَداءَ**»

أكنتم، ولكنه استفهم بأم إذ كان استفهاماً مستأنفاً على كلام قد سبقه كما قيل «ألـم. تنزيلُ الكِتابِ لا رَيْبَ فيهِ مِنْ ربِّ الْعَالَمِينَ. أمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ» وكذلك تفعل العرب فى كل استفهام ابتدأته بعد كلام قد سبقه، تَسْتَفْهِمُ فيه بأم» وفى الكشاف (جـ ١ ص ٣١٣) هى أم المنقطعة، ومعنى الهمزة فيها للإنكار، وردّ الزمخشرى الخطاب فيه للمؤمنين. بمعنى ما شاهدتم. قال ابن المنير: رحمه الله. وإنما اختار على هذا التفسير أن تكون متصلة، لأنه لو جعلها منقطعة كالأول لكان مضمون الكلام نفى شهود المخاطبين، وهم اليهود على هذا التفسير الثانى لوفاة يعقوب والوصّية بالإسلام، وحينئذ يكون ذلك كاقامة حجتهم على جحد الاسلام، وإنكار أن يكون الأنبياء مسلمين، والغرض ضدّ ذلك، وإنما كان الكلام يقتضى النفى حينئذ لأن الاستفهام من الله تعالى على ظاهره، فتعيَّن صرفه إلى الانكار لأن السياق يقتضيه، ولهذا كان نفياً لشهود المسلمين، وفاة يعقوب ووصيَّتُه على التفسير الأول لا سيا والمعتاد خطاب اليهود المعاصرين للنبىّ عليه الصلاة والسلام بما يخاطب به أوائلهم، وتنزيلاً لعلمهم ورضاهم منزلة حضورهم وتعاطيهم كقوله تعالى: «وإذْ قَتَلْتُم نَفْساً ــ وإذْ قُلْتُم يامُوسَى» إلى أشباه ذلك، فإذا كانت أم متصلة والخطاب لليهود فقد جرى الأمر فى خطابهم على المعتاد، وإذا كانت منقطعة انعكس الأمر» وقد جرى المفسرون على أنه خطاب لأهل الكتاب. أي كان يهودياً أو نصرانياً، لما روى من أن اليهود قالوا للنبىّ صلى الله عليه وسلم: ألست تعلم أن يعقوب أوصى بنيه باليهودية. وخلاصة ذلك. أنتم يا معشر اليهود لم تحضروا ذلك إذ قال يقوب لبنيه حين حضرته الوفاة « مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي؟» ومراده من هذا السؤال أخذ الميثاق عليهم بثباتهم على الاسلام والتوحيد، وأن يكون مقصدهم فى جميع أعمالهم وجه الله ومرضاته، وإبعادهم عن عبادةِ الأصنام والأوثان، فلا تدَّعوا الأباطيل وتنسبُوهُ إلى اليهودية أو النصرانية، فإنى ما أرسلتُ إبراهيم و بنيه إلا بالحنيفية المسلمة، وبها وصوا بنيهم وعهدوا إلى أولادهم من بعدهم. «قَالُوا نَعْبُدُ إلٰهَكَ وإلٰهَ آبائكَ إبْراهِيمَ وإسْمَاعِيلَ وإسْحَاقَ إلٰـهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» أي قالوا: نعبد الإله الذى قامت الأدلة العقلية والحسَّيةُ على وجوده، ووجوب عبادته لا نشرك به سواه، ونحن له منقادون خاضعون، معترفون له بالعبودية، متوجهون إليه عند الملمات» وكان سبب هذا السؤال خوف يعقوب على بنيه من عبادة غير الله حيث كانوا فى عصر فشت فيه عبادة الأصنام

والكواكب والحيوان وغيرها وهذا السرُّ فى قول إبراهيم عليه السلام « **واجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أنْ نَعْبُدُ الأصْنَامَ**» وقد جعلوا إسماعيل (وهوعمُّه) أباً تشبيهاً له بالأب. روى الشيخان قوله عليه الصلاة والسلام: [عَمُّ الرَّجلِ صنْوُ أبيهِ] وقد أرشدت الآية الكريمة إلى أن دين الله واحد فى كل أمة، وعلى لسان كل نبيّ، وروحه التوحيد والاستسلام لله ربّ العالمين، والاذعان لهدى الأنبياء المرسلين، وبهذا كان يوصي النّبيون أممهم كما قال: « **شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وصَّىَ بِهِ نوحاً والَّذِى أوْحَينا إلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا به إبْراهِيمَ ومُوسَى وَعيسَى أنْ أقِيمُوا الدِّينَ ولاَ تَتَفَرَّقُوا فيهِ**»* قال المراغى فى تفسيره: (ج١ ص٢٢٢) فالقرآن يحثُّ النَّاسَ على الاتفاق فى الدين الذى أساسه أمران: أولهما التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه. وثانيهما الاستسلام لله والخضوع له فى جميع الأعمال، فمن لم يتصف بذلك فليس بالمسلم. أي على الدين القيّم الذى كان عليه الأنبياء. قال: والناس يطلقون الإسلام اليوم لقباً على طوائف من الناس لهم ميزات دينية، وعادات تميزهم من سائر الناس الذين يلقبون بألقاب دينية أخرى، وقد يكون من بعض أهله من لم يكن مستسلماً مخلصاً لله فى أعماله، بل قد يكون مبتدعاً ما ليس منه، أو فاسقاً قد اتخذ إلهه هواهُ. والإسلام الذى دعا إليه القرآن هو الذى دعا إليه النبيُّ صلى الله عليه وسلم، ولم يدع إلى الإسلام بمعنى ذلك اللقب المعروف اليوم* قلتُ: وهناك بون شاسع بين ما جاء به الإسلام من الأخلاق القويمة و بين ما عليه غالب المسلمين اليوم من المفاسد الخلقية الذميمة، فالمسلم الكامل بإسلامه هو كالدُّرة النقية أو الجوهرة الثمينة التى لا تقوم بأثمان الدنيا كلها لَمّا انطبعت عليه نفسه الزكية من الايمان الصادق، والإخلاص فى جميع أعماله مبتغيا بها وجه الله العظيم، فأينما يتوجه يتوجه بخير ولا يأتى إلا بخير. سبحان الله!! كل أمره حسن. وقوله «**إذْ حَضَرَ**» إذ منصوب بشهداء على أنه ظرف لا مفعول به. أي أكنتم شهداء وقت حضور الموت إياه، وحضور الموت كناية عن حضور أسبابه ومقدماته (وقوله: يَعْقوبَ) سُمّى بذلك لأنه هو وأخوه العيص كانا توأمين فى بطن واحد، فتقدم العيص وقت الولادة فى الخروج مسابقةً ليعقوب، فتأخر يعقوب عنه ونزل على إثره، وعقبه فى الخروج ذكره الخازن فى تفسيره (ج١ ص٨٥) قال ابن عباس* وقيل: سُمِّى يعقوب لكثرة عقبه، وكان له من الولد اثناعشر، وهم روبيل وشمعون ولاوى ويهوذا، وعبالون و يشجر ودان وتفتالى، وجاء وآشر و يوسف و بنيامين. وقوله «**إذْ قَالَ**»

أي يعقوب «لِبَنِيهِ» لأولاده الاثنى عشر «مَا تَعْبُدُونَ» ما اسم استفهام فى محل نصب لأنه مفعول مقدم لتعبدون، وهو واجب التقديم لأن له صدر الكلام. أي أيُّ شيىء تعبدونه. وأتى جلّ جلاله بلفظ «مَا» دونَ مَنْ، لأن المعبودات ذلك الوقت كانت غير عقلاء كالأوثان والأصنام والشمس والقمر، فاستفهم بما التى لغير العاقل، فعرف بنوه ما أراد. فأجابوه بالحق إذ الجواب على وفق السؤال قوله «مِنْ بَعْدِى» قيل: إن الله تعالى لم يقبض نبيا حتى يخيره بين الحياة والموت، فلما خير يعقوب، وكا قد رأى أهل مصر يعبدون الأوثان والنيران، فقال: انظرنى حتى أسأل ولدى، وأوصيهم، فأمهله فجمع ولده، وَوُلْدَ ولَدِه، وقال لهم: قد حضر أجلى «ما تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى؟» وهو قول عطاء «قَالُوا نَعْبُدُ إلٰـهَكَ وَإلٰهَ آبائِكَ إبْراهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ وَإسْحَاقَ» إنما قدم اسماعيل لأنه كان أكبر من إسحاق(١) وأدخله فى جملة الآباء، وإن كان عماً لهم لأن العرب تسمى العم أبا قال عليه الصلاة والسلام فى عمه العباس: ردوا على أبى. وذلك فى فتح مكة «إلَٰهاً وَاحِداً» لا شريك له لا فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله: «قُلْ هُوَ الله أحَدُ* الله الصَّمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أحَدٌ» «وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون» أى مخلصون له بالعبودية والطاعة، مستقيمين على المِلّة الحنيفية التى جاء بها ابراهيم عليه السلام. وهى جملة حالية من فاعل نعبُد. أى نعبده حال كوننا مسلمين، أو جملة معطوفة على نعبد وهى أبلغ، أو جملة اعتراضية مؤكدة. والآية التى تليها متعلقة بها وهى «تِلْكَ» إشارة إلى الأمة المذكورة التى هى ابراهيم و يعقوب و بنوهما الموحدون «أمَّةٌ قَدْ خَلَت» مضتْ «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ» أي إن أحداً لا ينفعه كسب غيره متقدّماً كان أو متأخراً، فكما أن أولئك لا ينفعهم إلا ما اكتسبوا، فكذلك أنتم لا ينفعكم إلا ما كسبتم وذلك لافتخارهم بآبائهم «ولاَ تُسْئلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» ولا تؤاخذون بسيآتهم. والخطاب لأهل الكتاب. أى يا معشر اليهود والنصارى دعوا ذكر إبراهيم وإسماعيل وإسحاق و يعقوب والمسلمين من أولادهم بغير ما هم أهله، ولا تنحلوهم كفر اليهودية والنصرانية، فان اليهودية لم تأت إلا بعد موسى والنصرانية لم تأت إلا بعد عيسى، فلا تفتروا على الله الكذب فتضيفونها إليهم، فانهم أمة موحدة مسلمة غير مشركة بالله شيئاً، وفى هذا تعريض

(١) وقد أقمت البرهان على ذلك من التوراة والقرآن، وذلك فى كتابى صحيح السيره. (جـ١) أنه أسبق منه فى الولادة بأربع عشرة سنة وأنه جدُّ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. وهو بحث نفيس جداً جداً.

باليهود والنصارى المعاصرين لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم تركوا عقيدة التوحيد التى جاء بها أنبياؤهم إلى عقيدة الشرك وعبادة العجل والأصنام والأوثان، فضلاً عن ادعاء اليهود بأن عزيزاً ابن الله، والنصارى بأن عيسى ابن الله. قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

القول فى تأويل قوله تعالى :

«وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أوْ نَصَارى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»

سورة البقرة آية (١٣٥)

جاء فى أسباب النزول للواحدى: قال ابن عباس: نزلت فى رؤوس يهود المدينة: كعب الأشرف، ومالك بن الصَّيْف، وأبى ياسر ابن أخطب، وفى نصارى أهل نجران، وذلك أنهم خاصموا المسلمين فى الدين كل فرقة تزعم أنها أحق بدين الله تعالى من غيرها. فقالت اليهود: نبيُّنا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفرت بعيسى والانجيل ومحمد والقرآن. وقال كل واحدٍ من الفريقين للمؤمنين: كونوا على ديننا، فلا دين إلا ذلك، ودعوهم إلى دينهم* وفى القرطبى: دعت كل فرقة إلى ما هى عليه، فردَّ الله ذلك عليهم فقال: **«بَلْ مِلَّةَ ابْرَاهِيمَ حَنِيفاً»** أى قل يا محمد لهم: بل نتبع ملة أى شريعة ابراهيم حنيفاً لأنه حنف إلى دين الله وهو الإسلام. والحنف: الميل. ومنه رِجْلٌ حَنْفاء، ورجل أحنف وهو الذى تميل قدماه كل واحدة منها إلى أختها بأصابعها. والملة فى اللغة: الشريعة والدين. وفى الحديث [لا يتوارثُ أهْلُ مِلَّتيْن] المّلة: الدين كملّة الإسلام والنصرانية واليهودية، وقيل: هى معظم الدين، وجملة ما يجيء به الرُّسل.. قال أبواسحاق: الملة فى اللغة سنّتُهم وطريقهم، ومن هذا أخذ المَّلة أى الموضع الذى يختبر فيه لأنه يؤثر فى مكانها يؤثر فى الطريق وفى الخازن (ج١ ص٨٦) قال ابن عباس الحنيف المائل عن الأديان كلها إلى دين الإسلام قال الشاعر:

وَلكَنَّا خُلِقْنَا إذْ خُلِقْنَا حَنيفاً دِينُنَا عَنْ كُلِّ دِينِ

والعرب تسمى كل من حج أو اختتن حنيفاً تنبيها على أنه على دين ابراهيم عليه السلام. وقيل: الحنيفية الختان، وإقامة المناسك، وحنيفاً حال من المضاف إليه نحو رأيت وجه هِنْدٍ قائمة وقوله **«وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكينَ»** يعنى ابراهيم عليه السلام، وفيه تعريضٌ باليهود والنصارى ومشركى العرب حيث ادعوا أنهم على ملة ابراهيم مع أنه لم يكن

مشركاوهم مشركون، وقد كان الناس من مضر يحجون البيت فى الجاهلية يسمون حنفاء فأنزل الله تعالى ذكره «حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ»* وفي ابن كثير(جـ ١ ص١٨٦) وقال أبوالعالية: الحنيف الذى يستقبل البيت بصلاته، و يرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلاً* وقال أبوقلابه: الحنيف الذى يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم* وقال قتادة: الحنيفية شهادة أن لا إله إلا الله، يدخل فيه تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات، وما حرم الله عز وجل والختان* وعلى كل فاليهود والنصارى ليسوا من ملة ابراهيم بدليل قوله «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» لكون النصارى قائلين بالتثليث، واليهود بالتشبيه، وأيضاً قالوا عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، فليسوا من ملة ابراهيم التى هى محض التوحيد، ولهذا أعقب الله تعالى هذه الآية بتعليم المؤمنين طرائق الإيمان فقال تعالى «قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ» يعنى قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لكم كونوا هوداً أونصارى تهتدوا آمنا بالله وصدقنا بأنه واحد أحد فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ»[1] «وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا» يعنى القرآن «وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ» يعنى وآمنا بما أنزل إلى ابراهيم وهو عشر صحائف، وإنما قدم جلّ جلال الإيمان به لأن معرفة النبي والكتاب متوقفة على معرفته، وفيه إبطال ما ذهب إليه التعليمية والمقلّدة من أن طريق معرفة الله الكتاب والسّنة «وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ» وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر، وأحدهم سبط وكانوا أنبياء، وقيل السبط هو ولد الولد، وهو الحاقد، ومنه قيل للحسن والحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأسباط فى بنى اسرائيل كالقبائل فى العرب من بنى اسماعيل، وكان فى الأسباط أنبياء (الخازن جـ ١ ص٨٧) وكذا فى غرائب القرآن (جـ ١ ص٤٣٨)* أى فهم حفدة يعقوب لأنهم أولاد أولاده، أو ذرارى أبنائه الاثنى عشر. عدد بعض الأنبياء لتقدمهم وشرفهم، ثم عم لتعذر التفضيل. وفى قوله تعالى «وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ» أعاد الموصول «وما» لئلايتوهم من إسقاطه اتحاد المنزّل مع أنه ليس كذلك، وذكر اسماعيل وما بعده لكونهم مروّجين ومقرّرين لما أنزل على إبراهيم فكأنه منزل عليهم أيضاً، وإلا فليسوا منزّلاً عليهم فى الحقيقة. وهكذا قل فى

---

(١) وقد بيّنتُ أطرافاً كثيرة من تشبيهات أهل الكتاب فى كتابى (عقيدة السلف والخلف فى ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله)

كل ما ورد بنحوه فى القرآن الكريم «**وما أوتىَ موسَى**» من التوراة «**وَعِيسى**» من الانجيل «**وَما أُوتىَ النَّبيُّون مِنْ رَبِّهِمْ**» من الكتب والآيات عبر بالا تيان دون الإنزال كسابقه فراراً من التكرار الصورى الموجب للنقل في العبارة. وقوله: «**وَعِيسَى**» لم يعد الموصول بأن يقولُ: وما أوتىَ عيسى. إشارة إلى اتحاد المنزَّل عليه مع المنزَّل على موسى، فإن الانجيل مقرر للتوراة، ولم يخالفها إلا فى قدر يسير فيه تسهيل كما قال تعالى: «**وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ**» والمعنى آمنّا أيضاً بالتوراة والانجيل والكتب التى أوتى جميع النبيّن وصدقنا أن ذلك كله حق وهدى ونورٌ، وأن الجميع من عند الله، وأن جميع ما ذكر الله من أنبيائه كانو على هُدىً وحقٍ «**لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ**» أى لا نؤمن ببعض الأنبياء، وكما تبرأت النصارى من محمد صلى الله عليه وسلم، وأقرّت ببعض الأنبياء بل نؤمن بكل الأنبياء بلا استثناء، وإن كنا لا نفرق بينهم بالإيمان إلا أنا نفرق بينهم فى الأفضلية. لما ورد به الدليل. وطريق معرفة نبّوة الأنبياء ظهور المعجزة على أيديهم، ولما ظهر المعجز على يد نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم وجب الاعتراف بنبوّته، والإيمان به، وبما أنزل عليه كما اعترفوا بنبوّة ابراهيم وموسى وعيسى، فإن تخصيص البعض بالقبول، وتخصيص البعض بالردّ يوجب المناقضة فى الدليل، وهذا مما يدل عقلاً ونقلاً على أن المسلمين على دين الله الحق، وما عداهم على الباطل والضلال ولهذا قال تعالى «**فإنْ آمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ فَقِدِ اهْتَدُوا**» أى بما آمنتم به. ومثل صلة فهو كقوله «**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيىءٌ**» أى ليس مثله شيىء، وقيل: فإن أتوا بإيمان كإيمانكم وتوحيد كتوحيدكم «**فَقَدِ اهْتَدُوا**» والمعنى حصلوا دينا آخر يساوى هذا الدين فى الصحة والسداد، فقد اهتدوا، ولكن لما استحال أن يوجد دين آخر يساوى هذا الدين فى الصحة والسداد استحال الاهتداء بغيره، لأن هذا الدين مبناهُ على التوحيد، والاقرار بكل الأنبياء، وما أنزل إليهم، وقيل: معناه فإن آمنوا بكتابهم كما آمنتم بكتابهم فقد اهتدوا، ولعلّ ما ذهب إليه الجلال هو الصحيح إذ قال « **بِمْثلِ ما آمَنْتُمْ بِهِ**» وقرأ أبيٌّ «**بالَّذى آمنْتُم بِهِ**» «**وَإِنْ تَوَلَّوْا**» عما تقولون لهم، ولم ينصفوا فما هم إلا «**فى شِقَاقٍ**» أى فى مناوأة ومعاندة لا غير وليسوا من طلاب الحقّ بشيء، أو وإن تولوا عن الشهادة والدخول فى الإيمان بها «**فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ**» ضمان من الله لإظهار رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم وقد أنجز وعده بقتل قريظة وسبيهم، وإجلاء بنى النضير، ومعنى السين

أن ذلك كائن لا محالة وإن تأخر إلى حين «**وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**» وعيدٌ لهم: أى يسمع ما ينطقون، و يعلم ما يضمرون من الحسد والغل، وهو معاقبتهم عليه.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ**» سورة البقرة (آية: ١٣٨)

جاء في أسباب النزول للواحدى. قال ابن عباس: إن النصارى كان إذا ولد لأحدهم ولدٌ، فأتى عليه سبعة أيام صبغوه في ماء لهم يقال له المعمودى ليطهروه بذلك، و يقولون هذا طهور مكان الختان، فإذا فعلوا ذلك صار نصرانياً حقاً، فأنزل الله الآية* وفي الخازن (ج١ ص٨٧) قال ابن عباس. «**صِبْغَةَ اللهِ**» دين الله، وهو مصدر مؤكد منتصب عن قوله آمنّا بالله، وهى فعلة من صبغ كالجلسة من جلس، وهى الحالة التى يقع عليها الصبغ، والمعنى تطهير الله لأن الإيمان يطهر النفوس* وقال البغوى فى تقريرها، ثم إن إطلاق مادة لفظ الصبغ على التطهير مجاز تشبيهى، وذلك أنه شبّه التطهير من الكفر بالإيمان بصبغ المغموس فى الصبغ الحسى، ووجه الشبه ظهور أثر كُلٍّ منهما على ظاهر صاحبه، فيظهر أثر التطهير على المؤمن حسّاً ومعنى بالعمل الصالح، والأخلاق الطيّبة كما يظهر أثر الصّبغ على الثوب، ولا ينافى ذلك كونه مشاكلة* أي كقولك لمن يغرس الأشجار اغرس كما يغرس فلان تريد رجلاً يصطنع الكرام* وحاصله أنَّ الصبغ ليس بمذكور لا فى كلام الله ولا فى كلام النّصارى، ولكن غمسهم الأولاد عبارة عن الصبغ، وإن لم يتكلموا به، والآية نازلة فى سياق هذا فكأن لفظ الصبغ مذكور* وفى ابن كثير (ج١ ص١٨٨) عن ابن عباس أن نبىّ الله صلى الله عليه وسلم قال: إن بنى إسرائيل قالوا: يارسول الله هل يصبغ ربك؟ فقال: اتقوا الله، فناداه ربه: يا موسى سألوك هل يصبغ ربك؟ فقل نعم: أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغى، وأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم «**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً**» قال ابن كثير: كذا وقع فى رواية ابن مردويه مرفوعاً، وهو فى رواية ابن أبى حاتم موقوف، وهو أشبه إن صح إسناده والله أعلم. وفى الكشاف (ج١ ص٣١٦) والأصل فيه أن النصارى كانوا يغمسون أولادهم فى ماء أصفر يسمُّونه المعموديّة، و يقولون: هو تطهير لهم، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال: الآن صار نصرانياً حقاً، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم: ــ قُولُوا آمَنَّا بالله ــ وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل

صبغتنا، وطهرنا به تطهيراً لا مثل تطهيرنا، أو يقول المسلمون: صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم» وفى الطبرى (ج١ ص٤٤٤) عن قتادة **(صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً)** أن اليهود تصبغ أبناءها يهودَ، والنصارى تصبغ أبناءها نصارى. وأن صبغة الله الإسلام، فلا صبغة أحسن من الإسلام ولا أطهر، وهو دين الله الذى بعث به نوحاً والأنبياء بعْدَهُ» وعن أبى العالية **«وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً»** ومن أحسن من الله ديناً» وهو قول السدى وابن عباس وابن زيد. وفى الخطيب **«صِبْغَةَ اللهِ»** أي دينه الذى فطر الناس عليه بظهور أثره على صاحبه. كالصبغ للثوب، وأورد السبب الذى أورده الواحدى، والعبارات التى ذكرها الزمخشرى. وفى القرطبى: **«صِبْغَةَ اللهِ»** غُسْلُ الله، أى اغتسلوا عند إسلامكم الغسل الذى أوجبه الله عليكم، قال: وبهذا المعنى جاءت السُّنَّةُ الثابتة فى قيس بن عاصم وثُمامة بن أثَال حين أسلما، روى أبو حاتم البُسْتِى فى صحيح مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن ثُمامة الحنفى — أى ابن أثال — فرَّ به النبى صلى الله عليه وسلم يوماً فأسْلَمَ، فبعث به إلى حائط أبى طلحة — بستان من النخيل إذا كان عليه جدار — فأمره أن يغتسل فاغتسل وصلى ركعتين، فقال رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: (حَسُنَ إسلام صاحبكم» قلتُ: وهو بعيد الاستدلال عما نحن بصدده، ولعله أراد أن ذلك بمنزلة غسل الإسلام والجنابة لأهل الإسلام فتكون الدلالة قريبة المعنى والله أعلم **«وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُون»** مطيعون: معطوف على آمنا، فهو داخل معه تحت الأمر. أى وقولوا: ونَحْنُ الخ.. وقوله **«صِبْغَةَ اللهِ»** الخ... معترض بين قولوا آمنا ونحن له عابدون. قوله **«وَمَن أَحْسَنُ»** مبتدأ وخبر، وهذا استفهام معناه النفى، أى لا أحد، وأحسن هنا فيها احتمالان: أحدهما أنها ليست للتفضيل إذ صبغة غير الله منتف عنها الحسن. الثانى أن يراد التفضيل باعتبار من يبصر أن فى صبغة غير الله حسناً لا عن ذلك بالنسبة إلى حقيقة الشيء، ومن الله متعلق بأحسن فهو فى محل نصب، وصبغةً نصب على التميز من أحسن، وهو من التميز المنقول من المبتدأ، والتقدير، ومن صبغته أحسن من صبغة الله، فالتفضيل إنما يجرى بين الصبغتين لا بين الصابغين، وهذا غريب أعنى كون التميز منقولاً من المبتدأ» يعنى أنه يصبغ عباده بالإيمان و يطهرهم به من أوضار الكفر، فلا صبغة أحسن من صبغته، وتقدَّم أن **«وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُون»** عطف على آمنا. وهذا العطف يردُّ قول من زعم أنّ صبغة الله بدل من ملّة إبراهيم، أو نصب على الاغراء بمعنى عليكم صبغة الله لما

فيه من فك النظم، وإخراج الكلام عن التآمه واتّساقه. وانتصابها على أنها مصدر مؤكد هو الذى ذكره سيبويه* (من السمين والكشاف ج١ ص٣١٦)

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«قُلْ أَتُحاجُّونَنا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنا وَرَبُّكُمْ ولَنا أَعْمالُنا وَلَكُمْ أَعْمالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخلِصُونَ» سورة البقرة آية (١٣٩)

جاء فى تفسير الخطيب: ولما قالت اليهود للمسلمين نحن أهل الكتاب الأول، وقبلتنا أقدمُ، ولم تكن الأنبياء من العرب لأنهم عبدة الأوثان، ولو كان محمَّدٌ نبيّاً لكان منّا لأنّا أهل الكتاب. نزل (قُلْ) لهم (أتُحاجُونَنَا) أى اتجادلوننا وتخاصموننا (فى الله) أى فى شأنه أن اصطفى النبيَّ صلى الله عليه وسلم من دونكم، و يقولون لو أنزل الله على أحدٍ لأنزل علينا، وترون أنكم أحقٌّ بالنبّوة منا «**وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ**» نشترك جميعا فى أننا عباده، وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده، لا يخص به عجميٌّ دون عربيّ إذا كان أهلاً للكرامة «**وَلَنَا أَعْمَالُنَا**» نجازى بها «**وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ**» تجازون بها، أى كما أن لكم اعمالاً يعتبرها الله فى إعطاء الكرامة ومنعها، فنحن كذلك، فالعمل هو أساس الأمر، و به العبرة «**وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ**» فى الدين والعمل دونكم، فنحن أولى بالاصطفاء فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل إخلاصه لكرامته بالنبوّة. والهمزة للانكار، والجمل الثلاث أحوال* وفى القرطبي: قال الحسن: كانت المحاجة أن قالوا: نحن أولى بالله منكم لأنَّا أبناء الله وأحباؤه* وقيل: لتقدم آبائنا وكتبنا، ولأنَّا لَمْ نعبد الأوثان. فمعنى الآية: قل لهم: يا محمد أى قل لهؤلاء اليهود، والنصارى الذين زعموا أنهم أبناءُ الله وأحباؤه، وادعوا أنهم أولى بالله منكم لقدم آبائهم وكتبهم «**أتحاجُّونَنَا**» أى أتجاذبوننا الحجة على دعواكم والربُّ واحد، وكل مجازى بعمله، **فأيُّ** تأثير لقدم الدين. ومعنى «**فى الله**» أى فى دينه، والقرب منه والحظوة لَهُ «**وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصونَ**» أى مخلصون له العبادة دلَّ المفهوم المخالف على التوبيخ لأهل الكتاب. أى ولم تخلصوا له أنتم، فكيف تدعون ما نحن أولى به منكم. إننا لا نشرك به شيئاً، ولا نعبد غيره أحداً كما عبد أهل الأوثان معه الأوثان، وأصحاب العجل معه العجل، فكيف تخاصموننا فى الله وتجادلوننا فيه؟! والاخلاص أن يخلص العبد دينه وعمله لله تعالى فلا يشرك فى دينه، ولا يُرائى بعمله. قال الفضيل بن عياض: ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شركٌ،

والإخلاصُ أن يعافيك الله منها وهذه الآية منسوخة بآية السيف. وقوله: « **أتحاجُّونَنَا**» هذه الجملة في محل نصب بالقول قبلها، والضمير في قل يحتمل أن يكون للنبي صلى الله عليه وسلم، أو لكل من صلح للخطاب، والضمير المرفوع في أتحاجوننا لليهود والنصارى، أو لمشركي العرب، والمحاجَّةُ مفاعلةٌ من حَجَّهُ يُحجّهُ «**في الله**» لا بد من حذف مضاف أى في شأن الله، أو في دين الله. والمعنى: أي اتخاصموننا في اصطفاء الله نبيّاً منّا، ولا ينبغي هذا منكم، والحالُ أنه ربنا وربكم، فله أن يجعل النبوة فيمن شاء بمحض الفضل، وإن توهمتم أن النبوة مرتبة على العمل فلا ينبغي أيضاً منكم ما ذكر لأن لنا عملاً كما لكم عملٌ، فللهِ أن يرتب النبوة على عملنا كما له أن يرتبها على عملكم بل نحن أولى منكم بها لأنا مخلصون في عملنا دونكم. وعبارة البيضاوى في قوله «**وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ**» ـــ فله أن يصطفي من عباده من يشاء ـــ أي بمحض الفضل بما نستحق به الإكرام* أى عمل نستحق الإكرام بسببه بأن يرتب عليه النبوة، فكأنه ألزمهم على كل مذهب يقصدونه و يقيمون عليه افحاماً وتبكيتاً، فإن كرامة النبوة إما تفضل من الله تعالى على من يشاء من عباده، والكل فيه سواء. وإما إفاضة حق على المستعدين لها بالمواظبة على الطاعة والتحلي بالإخلاص، فكما أن لكم أعمالاً ربما يعتبرها الله في إعطائها فلنا أيضا أعمال.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

« سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمْ* وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ومَا جَعَلْنَا القِبْلَةَ الَّتِى كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرةً إلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ ومَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ» سورة البقرة (الآية: ١٤٢، ١٤٣)

ذكر الواحدى في أسباب النزول أن الآية نزلت في تحويل القبلة، وذلك لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة فصلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبُّ أن يتوجه نحو الكعبة، فأنزل الله تعالى: «**قد نَرى تَقَلُّبَ وجْهِكَ في السَّماءِ**» إلى آخر الآية. فقال السُّفهاء من الناس:

وهم اليهود، ما ولاَّهُمْ عن قبلتهم التى كانوا عليها؟ قال الله تعالى: «**قُلْ للهِ الْمَشْرِقُ والْمَغْرِبُ**» إلى آخر الآية. رواه البخارى عن عبدالله بن رجاء. قلت: ورواية أبى ذرّ فى البخارى من قوله تعالى: «**وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ...**» إلى آخر الآية، وروى الآية الأولى إلى «**مَا ولاَّهُمْ عن قِبْلَتِهِمْ...**» ورواية البخارى عن البراء رضى الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى إلى بيت المقدس ستة عشرة شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أو صلاها صلاة العصر، وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه، فمرّ على أهل المسجد، وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع النبى صلى الله عليه وسلم قِبل مكة فداروا كما هم قبل البيت، وكان الذى مات على القبلة قبل أن تحول قِبل البيت رجال قتلوا لم ندر ما نقول فيهم فأنزل الله «**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إنَّ اللهَ بالنَّاسِ لرؤف رَحِيمٌ**» «**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ**» أى الجهال من الناس، والسفه خفة فى النفس لنقصان العقل فى الأمور الدينية والدنيوية، ولا شك أن ذلك فى باب الدين أعظم لأن العادل عن الأمر الواضح فى أمر دنياه يعد سفيهاً. فمن كان كذلك فى أمر دينه كان أولى بهذا الإسم، فلا كافر إلا وهو سفيه، ولهذا كان اليهود والمشركون والمنافقون سفهاء لنزول الآية فيهم. وفى التنزيل: «**إلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ**» قال الزجاج: القول الجيد عندى فى هذا أن سَفِهَ* فى موضع جَهِلَ، والمعنى والله أعلم. إلا من جهل نفسه. أى لم يفكر فى نفسه. فوضع سَفِهَ فى موضع جهل، وفى الحديث المرفوع حين سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الكبر فقال: الكِبْرُ أن تسفه الحق، وتَغْمِطَ الناس* فجعل سفه واقعاً معناه أن تجهل الحق فلا تراه حقاً. فيكون معنى السفهاء فى الآية: الجهلاء الذين يجهلون ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من الحق لقصور علومهم وخفة عقولهم. روى ثعلب عن ابن الأعرابى أنه قال: الزَّامِهُ: السَّرابُ، والسَّافِهُ: الأحمق* وفى قوله تعالى: «**ولاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أمْوَالَكُمُ الَّتِى جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِياماً**» قال اللحيانى: بلغنا أنهم النساء والصبيان الصغار لأنهم جهال بموضع الثقة. قال: وروى عن ابن عباس أنه قال: النساء أسفه السفهاء* وفى التهذيب: وسّميت - أى المرأة - سفيهة لضعف عقلها. ولأنها لا تحسن سياسة مالها. وكذلك الأولاد ما لم يؤنس رشدهم، وقول المشركين للنبى صلى الله عليه وسلم: أتُسَفِّهُ أحلامنا؟.* معناه أتجهل أحلامنا. وقوله تعالى: «**فإنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً أوْ ضَعِيفاً**» السفيه:

هنا. الخفيف العقل من قولهم: تسفهت الرياح الشيء إذا استخفته فحركته* وقيل: نزلت الآية فى مشركى مكة خاصة، وذلك أنهم قالوا قد تردد على محمد أمره، واشتاق مولده، وقد توجه إلى نحو بلدكم، فلعله يرجع إلى دينكم. وقيل: نزلت فى المنافقين، وإنما قالوا ذلك استهزاء بالإسلام. والأولى أن يقال: إن لفظ السفهاء فى الآية عام فيدخل فيه جميع الكفار والمنافقين واليهود. لاحتمال وقوع الكلام المذكور فى الآية من كلهم. إذ لا فائدة فى التخصيص. ولأن الأعداء يبالغون فى الطعن والقدح فإذا وجدوا مقالاً قالوا أو مجالاً جالُوا. قلت: وقد أجمع الأمة على أن هذه الآية دليل واضح على النسخ فى أحكام الله تعالى. وأجمع العلماء على أن القبلة أول ما نسخ من القرآن، ودلت على جواز نسخ السنة بالقرآن وذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس، وليس فى ذلك قرآن، فلم يكن الحكم إلا من جهة السنة، ثم نسخ ذلك بالقرآن، وفيها دليل على جواز القطع بخبر الواحد، وذلك أن استقبال بيت المقدس كان مقطوعاً به من الشريعة عندهم، ثم أنَّ أهل قباء لما أتاهم الآتى، وأخبرهم أن القبلة تحولت إلى المسجد الحرام، قبلوا قوله، واستداروا نحو الكعبة، فتركوا المتواتر بخبر الواحد، وهو مظنون* وفى الطبرى (ج٢ ص٣) عن ابن عباس قال: لما صرفت القبلة عن الشام إلى الكعبة، وصرفت فى رجب على رأس سبعة عشر شهراً من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو، وكعب بن الأشرف ونافع بن أبى نافع هكذا قال ابن حميد: وقال أبو كريب، ورافع بن أبى رافع، والحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف، والربيع بن الربيع بن الحقيق، وكنانة بن أبى الحقيق. فقالوا: يا محمد ما ولاك عن قبلتك التى كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة ابراهيم ودينه، أرجع إلى قبلتك التى كنت عليها نتبعك ونصدقك، وإنما يريدون فتنته عن دينه، فأنزل الله فيهم: «**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا**» ــ إلى قوله ــ «**إلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**» ثم ذكر عدة روايات فى نفس المعنى و بألفاظ متقاربة لما ذكرت* وقوله تعالى «**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ**» أتى بالسين مع ما مضى القول المذكور لاستمرارهم عليه. بناء على أن الآية متقدمة فى نظم القرآن متأخرة فى النزول عن آية «**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى السَّمَاءِ**» كما ذكره ابن عباس وغيره. فعنى سيقول السفها أنهم يستمرون على هذا القول، وإن

كـانـوا قـد قـالوه، وحكمة الاستقبال أنهم كما قالوا ذلك فى الماضى منهم أيضاً من يقوله فى المستقبل وقوله «**مِنَ النّاسِ**» فى محل نصب على الحال من السفهاء، والعامل فيه سيقول، وهى حال مبينة فإن السفه كما يوصف به الناس يوصف به غيرهم من الحيوان والجماد، وكما ينسب القول إليهم حقيقة ينسب لغيرهم مجازاً، فرفع المجاز بقوله من الناس. «**مـا وَلاّهُمْ**» أى أىُّ شىء صرفهم «**عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِى كَانُوا عَلَيْهَا**» فما هنا استفهامية، والجملة بعدها خبرها، وهى مع خبرها فى محل نصب بالقول، والاستفهام للانكار. أى أىُّ شَىْءٍ، وأىُّ سبب اقتضى انصرافهم عن قبلتهم التى كانوا عليها. أى لأى سبب يقتضى ذلك، وإنما هو من تشهيهم وتصرفهم برأيهم، ومحصل الجواب المذكور بقوله «**قُلْ للهِ الْمَشرِقُ والْمَغْرِبُ**» بيان السبب المقتضى لذلك، وهو إرادة المالك المختار. والقبلة هى التى يستقبلها الإنسان، وإنما سمِّيَتْ قبلة لأن المصلى يقابلها وتقابله، ولما قال السفهاء ذلك رد الله تعالى عليهم بقوله: «**قُلْ**» يا محمد «**للهِ الْمَشْرِقُ والْمغرِبُ**» يعنى أن له قطرى المشرق والمغرب، وما بينهما ملكا، فلا يستحق شيىء أن يكون لذاته قبلة لأن الجهات كلها شيىء واحدٌ، وإنما تصير قبلة لأن الله تعالى هو الذى جعلها قبلة فلا اعتراض عليه، و بعبارة أخرى فيأمر بالتوجه إلى أى جهة شاء. أى لا يختص به مكان دون مكان لخاصة ذاتية تمنع إقامة غيره مقامه، وإنما العبرة بارتسام امره أى امتثاله لا بخصوص المكان، وتخصيص هاتين الجهتين بالذكر لمزيد ظهورهما حيث كان أحدهما مطلع الأنوار والاصباح والآخر مغربا، ولكثرة توجه الناس إليهما لتحقيق الأوقات لتحصيل المقاصد والمهمات «**يَهْدِي مَنْ يَشاءُ**» هدايته من عباده بالتوجه إليها. «**إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**» يعنى إلى جهة الكعبة، وهى قبلة ابراهيم عليه السلام «**وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أمَّةً وَسَطاً**» الكاف فى قوله: وكذلك. كاف التشبيه جاء لمشبه به، وفيه وجوهٌ؛ أحدها إنه معطوف على ما تقدم من قوله فى حق إبراهيم «**وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الْدنْيا ــ وَكَذِلكَ جَعَلْنَاكُمْ أمَّةً وَسَطَاً**»؛ الثانى: أنه معطوف على قوله «**يهْدِى مَنْ يشَاءُ إلىَ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**» وَكَذلِكَ هَدَيناكُمْ وَجَعْلنَاكُمْ أمَّةً وَسَطاً؛ الثالث: قيل: معناه كما جعلنا قبلتكم وسطاً بين المشرق والمغرب ــ كذلك جعلناكم أمة وسطاً. يعنى عدولاً خياراً. أى مزكين بالعلم والعمل أى ممدوحين بهما لأن الوسط مستلزم للخيار والعدول. وأصل الوسط مكان تستوى إليه المساحة من سائر الجوانب، ثم استعير للخصال

المحمودة، ثم اطلق على المتصف بها، والآية دلت على أن الاجماع حجة إذ لو كان فيما اتفقوا عليه باطل لانْثَلَمتْ به عدالتهم. أى اختلت. «**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**» وذلك أن الله تعالى يجمع الأولين والآخرين فى صعيد واحد، ثم يقول لكفار الأمم: ألم يأتكم نذيرٌ؟ فينكرون و يقولون ما جاءنا من نذير، فيسأل الله الأنبياء عن ذلك، فيقولون كذبوا، قد بلغنا فسألهم البينة ــ وهو أعلم بهم ــ إقامة الحجة، فيقولون: أمة محمد صلى الله عليه وسلم تشهد لنا، فيؤتى بأمة محمد عليه الصلاة والسلام، فيشهدون لهم أنهم قد بلغوا، فتقول الأمم الماضية: من أين علموا، وإنما كانوا بعدنا؟ فيسأل الله تعالى هذه الأمة: فيقولون: أرسلت إليهم رسولاً، وأنزلت علينا كتاباً أخبرتنا فيه بتبليغ الرسل، وأنت صادق فيما أخبرت، ثم يؤتى بمحمد صلى الله عليه وسلم فيسأل عن حال أمته فيزكيهم و يشهد بصدقهم. (الخازن ج١ ص٨٩)* «**وَمَا جَعَلْنَا**» صيّرنا «**الْقِبْلَةَ**» لك الآن الجهة «**الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا**» أولاً، وهى الكعبة، وكان صلى الله عليه وسلم يصلى إليها، فلما هاجر أمر باستقبال بيت المقدس تألفاً لليهود، فصلى إليها ستة أو سبعة عشر شهراً، ثم حول... «**إِلاَّ لِنَعْلَمَ**» علم ظهور. وهو استثناء مفرغ من أعم العلل. أى وما جعلنا ذلك لشيىء من الأشياء إلا لنمتحن الناس. أى نعاملهم معاملة من يمتحنهم، فنعلم حينئذ من يتبع الرسول فى التوجه إلى ما أمر به من الدين أو القبلة. والالتفات إلى الغيبة مع إيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان الرسالة للإشعار بعلة الاتباع* (أبو السعود)* وقوله، علم ظهور. جواب عما يفهم من الآية من حدوث العلم، فأجاب بأن المراد إلا ليظهر علمنا من يتبع الخ.. فالّذى يتجدد ظهور العلم لا نفسه.. وفى الحقيقة الذى يحدث متعلق العلم وهو إيمان بعض وكفر بعض* (وفى الخازن) والمعنى. لنعلم العلم الذى يستحق العامل عليه الثواب والعقاب. وقيل: العلم هنا بمعنى الرؤية أى لنرى ونميز من يتبع الرسول فى القبلة ممن ينقلب على عقبيه، وقيل: معناه إلا لتعلم رسلى وحزبى وأوليائى من المؤمنين من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه، وكا من شأن العرب إضافة ما فعله الأتباع إلى الكبير كقولهم: فتح عمر العراق، وجبى خراجها، وإنما فعل ذلك أتباعه عن أمره. وقيل: إنما قال إلا لنعلم، وهو بذلك عالم قبل كونه على وجه الرفق بعباده ومعناه إلا لتعلموا أنتم إذ كنتم جهالاً به قبل كونه، فاضافة العلم إلى نفسه رفقا بعباده المخاطبين. وقيل: معناه لعلمنا لأنه تعالى سبق فى علمه أن تحو يل القبلة سبب لهداية قوم وضلالة

آخرين. ومعنى من يتبع الرسول أى يطيعه فى امر القبلة وتحويلها «**مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**» أى يرجع إلى ما كان عليه من الكفر فيرتد. وفى الحديث أنه لما تحولت القبلة إلى الكعبة ارتد قوم إلى اليهودية، وقالوا: رجع محمد إلى دين آبائه. «**وإنْ كَانَتْ لَكَبيرةً إلاَّ عَلىَ الذينَ هَدَى اللهُ**» أى وكانت القبلة المحولة شاقة ثقيلة على من ألف التوجه إلى القبلة الأولى، فإن الانسان ألوف لِمَا يتعوده، وثقل عليه الانتقال منه، إلا على الذين هداهم الله بمعرفة أحكام دينه وسر تشريعه، فعلموا أن التعبد باستقبالها إنما يكون بطاعة الله بها، لا بسرٍّ فى ذاتها أومكانها، وأن الحكمة فى اختيار قبلة ما هو اجتماع الأمة عليها، وهو من أسباب اتحادهم وجمع كلمتهم.

«**وما كانَ اللهُ ليُضيع إيمانكُمْ**» يعنى صلاتكم إلى بيت المقدس، وذلك أن حُيى بن أخطب وأصحابه من اليهود قالُوا للمسلمين، أخبرونا عن صلاتكم إلى بيت المقدس، إن كانت على هدى فقد تحوَّلتم عنه وإن كانت على ضلالة فقد دنتم الله بها مدة، ومن مات عليها فقد مات على ضلالة. فقال المسلمون: إنما الهدى فيما أمر الله به، والضلالة فيما نهى الله عنه. قالوا: فما شهادتكم على من مات منكم على قبلتنا، وكان قد مات قبل تحول القبلة إلى الكعبة، أسعد بن زرارة من بنى النجار، والبراء بن معرور من بنى سلمة وكانا من النقباء، ورجالٌ آخرون، فانطلق عشائرهم إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله: قد صرفك الله إلى قبلة إبراهيم، فكيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس فأنزل الله تعالى «**وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمَانكُمْ**» يعنى صلاتكم إلى بيت المقدس. «**إنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرؤفٌ رحيمٌ**» يعنى لا يضيع أجورهم، والرأفة أخصُّ من الرحمة، وأرق، وقيل: الرأفة الرحمة، وقيل: الفرق بين الرأفة والرحمة، أنَّ الرأفة مبالغة في رحمة خاصة وهى دفع المكروه، وإزالة الضرر، وأمَّا الرحمة فإنها اسم جامع يدخل في ذلك المعنى، و يدخل فيه أيضاً جميع الافضال والانعام فذكر الله الرأفة أولاً بمعنى أنَّه لا يُضيع أعمالهم، ثم ذكر الرحمة ثانياً لأنَّها أعمُّ وأشمل (الخازن جـ ١ ص ٩٠)* وفي الخطيب «**وما كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إيمَانكُمْ**» ثباتكم على الإيمان، وأنكم لم تُزلزلُوا ولم ترتابُوا بل شكر سعيكم، وأعدَّ لكم الثواب العظيم. أو صلاتكم إلى بيت المقدس، بل يثيبكم عليها لأن سبب نزولها أن حيى بن أخطب وأصحابه من اليهود قالوا: للمسلمين: أخبرونا عن صلاتكم نحو بيت المقدس إلى آخر ما تقدم* وفي القرطبي:

«وما كان الله ليضيعَ إيمَانكُمْ» اتفق العلماء على أنها نزلت فيمن مات وهو يصلى إلى بيت المقدس كما ثبت في البخارى من حديث البراء بن عازب ـ كما تقدّم ـ والمراد بالإيمان الصلاة، وقد تظاهرت الروايات عليها. وإضافة الإيمان إلى الأحياء «إيمَانكُمْ» من باب الاشفاق على أنفسهم خشية إحباط ثواب صلاتهم أيضاً نحو بيت المقدس، لذا وجّه الخطاب إلى الأحياء ودخل فيهم الموتى منهم وفي قوله: «وَمَا كَانَ الله لِيُضِيعَ» في هذا التركيب وما أشبهه محاورة في القرآن وغيره نحو «وَمَا كَانَ الله لِيُطْلِعَكُمْ» «مَا كَانَ الله لِيَذَرَ» قولان: أحدهما قول البصريين، وهو أن خبر كان محذوف، وهذه اللام تُسمَّى لام الجحود ينتصب الفعل بعدها بإضمار أن وجوباً فينسبك منها ومن الفعل مصدر منجرٌّ بهذه اللام، وتتعلق هذه اللام بذلك الخبر المحذوف والتقدير، وما كان الله مريداً لاضاعة إيمانكم، وشرط لام الجحود عندهم أن يتقدّمها كون منفيٌّ، واشترط بعضهم مع ذلك أن يكون كوناً ماضياً، و يفرق بينها و بين لام كى ما ذكرنا من اشتراط تقدُّم كون منفى، و يدل على هذا مذهب البصريين التّصريح بالخبر المحذوف في قوله: سَمَوتَ ولَمْ تكُنْ أهْلاً لِتَسْمُو» والقول الثاني: للكوفيين، وهو أن اللام وما بعدها في محل الخبر، ولا يقدّرون شيئاً، وإن اللام للتوكيد. (سمين) وقوله: «إنَّ الله بالنَّاسِ» تعليل لما قبله.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«الَّذِينَ آتيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَه كَمَا يَعْرِفُونَ أبْنَاءَهُمْ وإنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحقَّ وهُمْ يَعْلَمُونَ * الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» سورة البقرة (آية: ١٤٦، ١٤٧)

قال الواحدى في أسباب النزول: نزلت في مؤمنى أهل الكتاب: عبدالله بن سَلاَمٍ، وأصحابه كانُوا يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بنعته وصفته و بعثه في كتابهم، كما يعرف أحدهم ولده إذا رآه مع الغلمان، قال عبدالله بن سَلاَمٍ: لأنا أشدُّ معرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم منّى بابنى، فقال له عمر بن الخطاب: كيف ذَاكَ يا ابن سلام؟ قال: لأنى أشهد أن محمداً رسول الله حقاً يقيناً، وأنا لا أشهد بذلك على ابنى لأنى لا أدرى ما أحدث النّساء، فقال عمر: وفقك الله يا ابن سلام» وفى القرطبي: وروى أن عمر قال لعبد الله بن سَلاَم ـ بفتح السين واللام ـ أتعرف محمداً صلى الله عليه وسلم كما تعرف ابنك؟ فقال: نعم، وأكثر، بعث الله أمينه في سمائه إلى أمينه في أرضه بنعته

فعرفته، وإني لا أدرى ما كنا من أُمُّه» وقيل: «يَعْرِفُونَه كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ» أي البيت الحرام هو القبلة. ولا يخفى بعده بل يحمل الأمر على العموم في قوله: «لَيَكْتُمونَ الْحقَّ» وذلك الحقُّ هو القبلة التي وجَّه الله عز وجل إليها نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فكتمتها اليهود والنصارى وكتموا كذلك أمر محمد صلى الله عليه وسلم وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، فأطلع الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم وأمَّتَهُ على خيانتهم بكتمان ذلك، وذلك قوله تعالى: «لَيَكْتُمونَ الْحقَّ وهُمْ يَعْلَمُونَ» أن كتمان الحق معصية «الْحَقُّ» أي الذين يكتمونه هو الحقُّ «مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» أي من الشَّاكين في أن الذين تقدَّم ذكرهم علموا صحة نبوَّتك، وقيل: يرجع إلى أمر القبلة، المعنى أن بعضهم عاند وكتم الحق فلا تشك في ذلك، قال الخازن: فإن قُلتَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم لم يمتر ولم يشك فما معنى هذا النهي؟ قُلتُ: هذا الخطاب وإن كان للنبيّ صلى الله عليه وسلم، ولكنَّ المراد غيره، والمعنى فلا تشكُّوا أنتم أيها المؤمنون» قلتُ: وهم غير راسخي الإيمان من أمَّته، ممن يُخشى عليهم أن يغترُّوا بزخرف القول من أولئك المخادعين الذين جعلوا همَّهم إشعال نار الفتنة بين المؤمنين، وفي الطبرى (جـ ٢ ص ١٧) أوقع الشك على القبلة فعن الربيع قال: قال الله تعالى ذكره لنبيه عليه السلام: «الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» يقول: لا تكن في شكٍ أنها قبلتك وقبلة الأنبياء من قبلك وكذا قال ابن زيد» ولعلَّه لا يخلوا من الصحة والله أعلم. قال أبوجعفر الطبرى: فإن قال لنا قائل: أو كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم شاكاً في أن الحقَّ من ربه، أو في أنَّ القبلة التي وجهه الله إليها حقٌّ من الله تعالى ذكره حتى نهى عن الشك في ذلك، فقيل له: «فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ» قيل: ذلك من الكلام الذي تخرجه العرب مخرج الأمر للنبيِّ صلى الله عليه وسلم والنهى له، والمراد به أصحابه المؤمنون به.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ الله أَمْواتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ» سورة البقرة (آية: ١٥٤)

ذكر الواحدى في أسباب النزول : أنها نزلت في قتلى بدر، وكانُوا بضعة عشر رجلاً، ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين، وذلك أنَّ الناس كانوا يقولون للرجل يقتل في

سبيـل الله مـات فلان، وذهب عنه نعيم الدنيا ولذتُّها، فأنزل الله هذه الآية. وهذا تنبيه على أن حيـاتهم ليست بالجسد ولا من جنس ما يُحَسُّ به من الحيوانات، وإنما هي أمرٌ لا يُـدْرك بـالعقل، بل بالوحى كذا قاله البيضاوى. وقال الخطيب في تفسيره: وهذا ما عليه أكثر المفسرين. قال ابن عادل: و يُحتمل أن حياتهم بالجسد وإن لم تُشاهد. و يؤيد بأن الروح ثابتة لجميع الأموات بالاتفاق، فلو لم تكن حياة الشهيد بالجسد لاستوى هو وغيره، ولم تكن له مزيّه، ويمكن اعتماده بأن الأرض لا تبلى أجسامهم وأن أرْواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة، وتأوى إلى قناديل تحت العرش، كما ورد به الخبر الصحيح، ولذا فإنهم فضِّلوا على غيرهم بأنهم يرزقون من مطاعم الجنَّة ومآكلها، وغيرهم من المؤمنين منعمون بما دون ذلك. وعن الحسن أن الشهداء أحياء عند الله تعرض أرزاقهم على أرواحهم، فيصل إليهم الرَّوْحُ، أي الاستراحة، والتلذذ والتّنعم والفرح كما تعرض النار على أرواح فرعون غدُّواً وعشياً، فيصل إليهم الوجع والغم، بينما الشهداء لهم مزيد انعام من الله تعالى كل يوم بكرة وعشيّاً. والأرواح جواهر قائمة بأنفسها تبقى بعد الموت داركة، وهو قول جمهور الصحابة والتابعين، ونطقت به الآيات والسُّنن. وفي لباب السيوطي: عن عباس قال: قتل تيم بن الحمام ببدر، وفيه وفي غيره نزلت **«وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ»** الآية، قال أبونعيم: اتفقوا على أنه عمير بن الحمام. وأنَّ السديَّ صحفه. وفي الخازن (جـ ١ ص ٩٥) نزلت فيمن قتل ببدر من المسلمين وكانوا أربعة عشر رجلاً ستة من المهاجرين، وهم عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، وعمير بن أبي وقاص بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة الزهرى أخو ابن أبى وقاص، وذو الشمالين: واسمه عمير بن عبد عمروا بن العاص بن نضلة بن عمرو بن خزاعة، ثم بنى غبشان، وعاقل بن البكير من بنى سعد بن ليث بن كنانة، ومهجع مولّى لعمر بن الخطاب، وصفوان بن بيضاء من بنى الحارث بن فهر، ومن الأنصار ثمانية، وهم سعد بن خيثمة ومبشر بن عبد بن المنذر، و يزيد بن الحارث بن قيس بن فسحم، وعمير بن الحمام، ورافع بن المعلى، وحارثةُ بن سُراقة، وعوف ومعوّذ ابنا الحارث بن رفاعة بن سواد، وهما ابنا عفراء، وهي أمهما كان الناسُ يقولون لمن قتل في سبيل الله مات فلانٌ، وذهب عنه نعيم الدنيا ولذاتها، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: إن الكفار والمنافقين قالوا: إن الناس يقتُلُون أنفسهم ظلماً لمرضاة محمد من غير فائدة فنزلة هذه الآية، وأخبر أن

من قتل في سبيل الله فإنّه حيٌّ* وفي غرائب القرآن لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمى النيسابور: قال: إن أكثر المفسرين على أنهم أحياء في الحال، فمن الجائز أن يجمع الله تعالى من أجزاء الشهيد جملة فيحيها و يوصل إليها النعيم، وإن كانت في حجم الذرّة فيرى معظم جسد الشهيد ميتاً، فلا يحسُّ بحياته، وإليه الإشارة بقوله: «**وَلَكِنْ لا تَشْعُرونَ**» ومما يؤيّد هذا القول الآيات الدالة على إثبات عذاب القبر «**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدُوّاً وعَشِيّاً**» أي **غرِقُوا فأُدْخِلُوا النار** والفاء للتعقيب، وقال صلى الله عليه وسلم: [القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران]* وقيل المعنى لا تُسمُّوهم بالأموات وقولوا لهم الشهداء الأحياء، أو المراد قولوا هم أحياء في الدين وأنهم على هدى ونور من ربهم لا كما يزعم المشركون أنهم ليسوا من الدين في شيء* والمعنى: ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله هو ميت، فإن الميت من الخلق من سلبته حياته، وأعدمتُه حواسه، فلا يلتذُّ لذة ولا يدرك نعيماً، فإن من قتل منكم ومن سائر خلق في سبيلى أحياءٌ عندى في حياة ونعيم وعيش هنى ورزق سنيّ، فرحين بما آتيتهم من فضلى وحبوتهم به من كرامتى* وعن مجاهد في قوله تعالى: «**بَلْ أَحْيَاءٌ عند ربّهم يرزقون**» من ثمر الجنة، ويجدون ريحها، وليسوا فيها* وعن قتادة قوله: «**وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لاَ تَشْعُرُونَ**» كما يحدث أن أرواح الشهداء تعارف في طير بيض يأكلن من ثمار الجنة، وإن مساكنهم سدرة المنتهى، وإن للمجاهدين في سبيل الله ثلاث خصال من الخير من قُتِلَ في سبيل الله منهم صار مرزوقاً، ومن غلبَ آتاهُ الله أجراً عظيماً، ومن مات رزقه الله رزقاً حسناً* وقد تظاهرت هذه الدلائل على أن الشهداء مرزوقون من مآكل الجنة ومطاعمها في برزخهم قبل بعثهم، ومنعمون بالذى ينعم به داخلوها بعد البعث من سائر البشر من لذيذ مطاعمها الذي لم يطعمها الله أحداً غيرهم في برزخه قبل بعثه فبها كانوا أحياء يرزقون، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الشهداء على بارق نهر بباب الجنّة في قبة خضراء، أو قال قبة في روضة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً* وقوله: أرواحهم في حواصل طيور خضر تسرح في الجنة حيث شاءت. بمعنى أن الطيور للأرواح كالهوادج للجالس فيها، وهذا مما يدل على أن حياتهم ليست بالجسد، ولا من جنس ما يحس من الحيوانات، وإنما هى أمر لا يدرك إلا بالكشف والوحى. هذا ما عليه أكثر المفسرين. والله أعلم. والأصح أن نؤمن بذلك،

ولا نبحث عنه لأنه من عالم الغيب، فنفوّض الأمر إلى الله.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«إِنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شعائِرِ الله فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تطوَّع خيْراً فإِنَّ الله شاكِرٌ عَلِيمٌ» سورة البقرة (آية: ١٥٨)

روى الواحدى عن عائشة رضي الله عنها: [قالت نزلت هذه الآية في الأنصار، كانُوا يحجُّون لمناة، وكانت مناة حذو قُدَد، وكانُوا يتحرَّجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلمَّا جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك فأنزل الله تعالى هذه الآية] رواه البخاري عن عبدالله بن يوسف عن مالك* وروى البخارى عن عاصم بن سليمان قال: سألت أنسَ بن مالك رضى الله عنه عن الصفا والمروة، فقال: كُنَّا نرى أنَّهما من أمر الجاهلية، فلما كان الإسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله تعالى: **«إِنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شعائِرِ الله فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ»*** وقال عمرو بن الحسين: سألت ابن عمر عن هذه الآية فقال: انطلق إلى ابن عبَّاس فسله، فإنه أعلم من بقى بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم فأتيتُه فسألتُه، فقال: كان على الصفا صنم على صورة رجل يقال له إساف، وعلى المروة صنم على صورة امرأة تدعى نائلة، زعم أهل الكتاب أنهما زنيا في الكعبة فمسخهما الله تعالى حجرين، ووضعهما على الصفا والمروة ليعتبر بهما، فلمَّا طالت المدة عبدا من دون الله تعالى، فكان أهل الجاهلية إذا طافوا بينهما مسحُوا الوثنين، فلما جاء الإسلام، وكسرت الأصنام كره المسلمون الطواف لأجل الصَّنمين، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وفي القرطبي: وذكر الصفا لأنَّ آدم وقف عليه، وأنّث المروة لأن حواء وقفت عليها* **«مِنْ شعائِرِ الله»** أي أعلام دينه، جمع شعيرة، وهي العلامة، أي من أعلام مناسكه ومتعبّداته... وفيه أيضاً. وعن ابن عباس قال: كان في الجاهلية شياطين تعزف الليل كله بين الصفا والمروة، وكان بينهما آلهة، فلما ظهر الإسلام قال المسلمون: يا رسول الله لا نطوف بين الصفا والمروة فإنهما شرك. فنزلت. وكذا في الطبرى (جـ ٢ ص ٢٨)* وفيه قال ابن زيد في قوله: **«فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا»** قال: كان أهل الجاهلية قد وضعوا على كل واحد منهما صنماً يعظمونها فلمّا أسلم المسلمون كرهوا الطواف بالصفا والمروة لمكان الصنمين. فقال الله تعالى: **«إِنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شعائِرِ الله فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا»** وقرأ

«**ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب**» وسنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بهما» وعن قتادة قوله: «**إنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شعائِرِ الله**» الآية. فكان حيٌّ من تهامة في الجاهلية لا يسعون بينهما فأخبرهم الله إن الصفا والمروة من شعائر الله، وكان من سُنّة إبراهيم وإسماعيل الطواف بينهما» والصفا جمع صفاة، وهى الصخرة الصلبة الملساء، وقيل هي الحجارة الصافية، وفي اللسان قال ابن السكيت: الصفا العريض من الحجارة الأملس: جمع صفاةٍ يكتَبُ بالألف. فإذا ثنّى قيل صفوان، وهو الصَّفواء أيضاً، ومنه الصفا والمروة، هما جبلان بين بطحاء مكة والمسجد. والمروة الحجر الرخو، وجمعها مرو ومروات، وهذان أصلها في اللغة، وإنما عنى الله بهما الجبلين المعروفين بمكة في طرفى المسعى بينهما من المسافة مقدار (٧٦٠ ذراعاً) والصفا تجاه البت الحرام، والآن عليتهما المبانى وصار بينهما سوقاً. ولذلك أدخل فيهما الألف واللام، وكل ما كان معلماً لقربان يتقرَّب به إلى الله تعالى من صلاة ودعاء وذبيحة فهو شعيرة من شعائر الله، ومشاعر الحج معالمه الظاهرة للحواس، و يقال شعائر الحج، فالمطاف والموقف والمنحر كلها شعائر، والمراد بالشعائر هنا المناسك التي جعلها لله أعلاماً لطاعته، فالصفا والمروة منها حيث يُسعى بينهما وقوله: «**مِنْ شعائِرِ الله**» أي لا من شعائر الجاهلية كما كان كذلك أولاً: «**فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ**» أي قصد البيت، هذا أصله في اللغة، وفي الشرع عبارة عن أفعال مخصوصة لاقامة المناسك، من شرطية في محل رفع بالابتداء، وحج في محل جزم بالشرط والبيت نصب على المفعول به لا على الظرف، والجواب قوله فلا جناح «**أنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**» أي يدور بهما و يسعى بينهما. وفي الخازن (جـ١ ص٩٧) اختلف العلماء في حكم (السعى) بين الصفا والمروة في الحج والعمرة. فذهب جماعة إلى وجوبه وهو قول ابن عمر وجابر وعائشة و به قال الحسن، وإليه ذهب مالك والشافعى، وذهب قوم إلى أنّه تطوّع، وهو قول ابن عباس، و به قال ابن سيرين، وذهب الثوريُّ وأبوحنيفة إلى أنه ليس بركن، وعلى من تركه دم، وروى عن ابن الزبير ومجاهد وعطاء أنَّ من تركه فلا شيء عليه، واختلفت الرواية عن أحمد في ذلك فروى عنه أنَّ من ترك السَّعى بين الصفا والمروة لم يجزه حجُّه، وروى عنه أنّه لا شيء في تركه عمداً ولا سهواً، ولا ينبغى أن يتركه، ونقل الجمهور عنه أنّه تطوّع. وسبب هذا الإختلاف أن قوله تعالى: «**فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا**» يصدق عليه أنه لا إثم عليه في فعله فدخل تحته الواجبُ والمندوب والمباح،

فظاهر هذه الآية لا يدل على أنَّ السَّعى بين الصَّفا والمروة واجب، أو ليس بواجب لأنَّ اللفظ الدَّال على القدر المشترك بين الأقسام الثلاثة لا دلالة فيه علي خصوصية أحدهما فإذاً لابُدَّ من دليل خارج يدل على أنَّ السعى واجب، أو غير واجب. فحجّة الشافعى، ومن وافقه في أن السعى بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج والعمرة ماروى الشافعى بسنده عن صفيّة بنت شيبة قالت: أخبرتنى بنت أبى تُجْزاة، واسمها حبيبة: احدى نساء بنى عبد الدَّار، قالت: دخلت مع نسوة من قريش دار آلِ أبى حُسَيْن ننظر إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يسعى بين الصفا والمروة، فرأيته يَسعى، وصححه الدار قطنى* وروى الشيخان عن عروة بن الزبير قال: قلت لعائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أرأيت قول الله: **«إنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شعائـرِ الله فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا»** فما أرى على أحدٍ شيئاً أن لا يطوَّف بها. فقالت عائشة: كلاَّ، لو كان كما تقول كانت فلا جناح عليه أن لا يطَّوَّف بهما إنما أنزلت هذه الآية في الأنصار كانُوا يهلُّون لمناة، وكانت مناة حَذْوَ قَدَدٍ، وكانوا يتحرَّجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة، فلمَّا جاء الإسلام سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى **«إنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شعائرِ الله...»** الآية. وروى مسلم عن جابر في حديثه الطويل في صفة حجة الوداع، قال: ثم خرج من الباب إلى الصفا، فلما دنا من الصفا قرأ إنَّ الصفا والمروة من شعائر الله، أبدؤا بما بدأ الله به، فبدأ بالصَّفا: الحديث. فإذا ثبت أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم سعىَ وجب علينا السعى لقوله تعالى: **«فاتّبعُوهُ»** ولقوله صلى الله عليه وسلم: [خذُوا عنى مناسككم] والأمر للوجوب. ومن القياس أن السَّعى أشواط شرعت في بقعة من بقاع الحرم، و يؤتى به في إحرام كامل، فكان ركناً كطواف الزيارة* واحتجَّ أبو حنيفة، ومن لا يرى وجوب السعى بقوله: **«فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا»** وهذا لا يُقال في الواجبات، ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله **«وَمَنْ تطوَّع خيْراً»** فبيَّن أنَّه تطوع وليس بواجب* وأجيب عن الأول بأن قوله تعالى: **«فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ»** ليس فيه إلا أنه لا إثم على فاعله، وهذا القدر مشترك بين الواجب وغيره، فلا يكون فيه دلالة على نفى الوجوب، وعن الثانى وهو التمسك بقوله تعالى: **«وَمَنْ تطوَّع خيْراً»** فضعيف لأن هذا لا يقضى أن يكون المراد من هذا التطوع هو الطواف المذكور أولا، بل يجوز أن يكون المقصود منه شيئاً آخر يدل على ذلك قول الحسن أن المراد بقوله: **«وَمَنْ**

تطوّع خيْراً» جميع الطاعات في الدين، يعنى فعل فعلاً زائداً على ما افترض عليه من صلاة وصدقة وصيام وحج وعمرة وطواف وغير ذلك من أنواع الطاعات؛ وقال مجاهد: **«وَمَنْ تطوَّع خيْراً»** بالطواف بها، وهذا على قول من لا يرى الطواف بها فرضاً؛ وقيل معناه: ومن تطوع خيرا فزاد في الطواف بعد الواجب، والقول الأول أولى للعموم انتهى الخازن؛ قلتُ وفي الصحيحين قالت عائشة رضي الله عنها: ثم قد سنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الطواف بها فليس لأحدٍ أن يدع الطواف بها. ذكره ابن كثير في التفسير(جـ ١ ص ١٩٩) وفيه: وقال آخرون من الأنصار: إنما أُمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى: **«إنَّ الصَّفَا والْمَرْوَةَ مِنْ شعائِرِ الله»** قال أبو بكر بن عبدالرحمن فلعلّها نزلت في هؤلاء وهؤلاء؛ وروى الإمام أحمد عن صفية بن شيبة أن امرأة أخْبرتها أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الصفا والمروة يقول: [كتب عليكم السعى فاسعوا] وهو دليل الشافعى ومن وافقه لأن فاسعوا أمر، والأمر يقتضى الوجوب، وعلى الأخص إذا حفَّت به قرينة وهو فعل النبي صلى الله عليه وسلم له؛ وقيل: إنه واجب وليس بركن فإن تركه عمداً أو سهواً جبره بدم وهو رواية عن أحمد و به يقول طائفة، وقال ابن كثير: والقول الأول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينها وقال: خذوا عني مناسككم، فكل ما فعله في حجته تلك واجب لابدَّ من فعله في الحج إلا ما خرج بدليل، والله أعلم. و ينبغى على الساعى بينها ـــ اقتداءً بأم اسماعيل هاجر زوج الخليل ابراهيم عليه السلام ـــ أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه، وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجىء إلى الله عز وجل لتفريج ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم، وأن يثبته عليه إلى مماته، أون يحوّله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصى إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام **«وَمَنْ تطوَّع خيْراً فإنَّ الله شاكِرٌ عَلِيمٌ»** شاكرٌ لعلمه بالإثابة عليه **«عليمٌ»** بنيته. قال الخطيب في تفسيره: الشكر من الله أن يعطى العبد فوق ما يستحقه، فإنه يشكر اليسير، و يعطى الكثير؛ وفي الخازن (جـ ١ ص ٩٨) **«فإنَّ الله شاكِرٌ عَلِيمٌ»** أي مجازٍ على الطاعة **«عَلِيمٌ»** أي بنيته. وحقيقة الشاكر في اللغة: هو المظهر للإنعام عليه، والشكر هو تصور النعمة، وإظهارها، والله تعالى لا يوصف بذلك لأنه لا يلحقه المنافع والمضار، فالشاكر في صفة الله تعالى مجاز، فإذا وصف به أريد به أنَّه المجازى على

الطاعة بالثواب، إلا أنَّ اللفظ خرج مخرج التلطف للعباد مظاهرة في الإحسان إليهم* وفيه إشارة إلى الوثوق بوعده، وعظيم إحسانه، وفي غرائب القرآن: وعن النبي صلى الله عليه وسلم: [من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر] وقال يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين. و يؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له أترضى أن نجزيك كما جزينا الشاكر، فيقول نعم يارب، فيقول تعالى: لقد أنعمتُ عليك فشكرت، وابتليتك فصبرت لأضَعِفَنَّ لك الأجر، فيعطى أضعاف جزاء الشاكرين* فيكون معنى «**شاكِرٌ**» أي مجازيهم على الطاعة، سمى الطاعة شكراً تشبيهاً بجزاء النعمة، وفيه تلطف للعباد كما تقدم مثل «**مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً**». كأنه يقول إنى وإن كنت غنياً عن طاعتك إلاَّ أنى أجعل لها من الموقع ما لوصح عليَّ أن انتفع بها لما ازداد وقعه على ما حصل. عليم بالسرائر فيوفى كل ذى حق حقه وهو وعدٌ ليناسب قرينة الشكر، وإن كان أيضاً يحتمل التحذير من الاخلال بوظائف الاخلاص في العبادة.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ والْهُدَى مِنْ بَعْدِ ما بَيَّنَّاهُ للناس فِى الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَ يَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ» سورة البقرة (آية: ١٥٩)

في الواحدى: نزلت في علماء أهل الكتاب لكتمانهم آية الرجم، وأمر محمد صلى الله عليه وسلم* وفي لباب السيوطى عن ابن عباس قال: سأل معاذٌ بن جبل، وسعد بن معاذ، وخارجة بن زيد نفراً من أحبار اليهود عن بعض ما في التوراة، فكتموها إيَّاهم، وأبوا أن يخبروهم، فأنزل الله فيهم «**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ والهدى..**» الآية* وفي الخطيب: تنبيهان: أحدهما، اختلف في هؤلاء اللاعنين، فقال ابن عباس رضي الله عنهما جميع الخلائق إلا الجن والإنس* وقال عطاء: هم الجن والإنس، وقال الحسن: هم جميع عباد الله* وقال مجاهد: البهائم تلعن عصاة بنى آدم إذا أمسك المطر، وتقول هذه من شؤم ذنوب بنى آدم، ووردت مثل هذا الأخبار الكثيرة* ثانيهما: هذه الآية توجب إظهار علوم الدين منصوصة ومستنبطة، وتدل على امتناع أخذ الأجرة على ذلك، وقد روى الأعرج عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه أنَّه قال: إنكم تقولون أكْثَرَ أبوهريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأيم الله لولا آية في كتاب الله ما حدَّثتُ أحداً بشيء أبداً، وتلا «**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ...**» الآية* وفي القرطبي:

واختلفوا من المراد بذلك «إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ والْهُدَىَ» فقيل أحبـار اليهود، ورهبان النّصارى... وقيل: المراد كل من كتم الحق، فهى عامة في كل من كتم علماً من دين الله يحتاج إلى بثّه، وذلك مفسرٌ في قوله عليه الصلاة والسلام: [من سئل عن علم ـــ يعلمه ـــ فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار] أخرجه ابن ماجه عن أبي هريرة، وعمرو بن العاص، لكن قال القرطبي: و يعارضه قول عبدالله بن مسعود: ما أنت بمحدّث قوماً حديثاً لا تبلغُه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة؞ وقال عليه الصلاة والسلام: [حدثوا الناس بما يفهمون، أتحبُّون أن يُكذّب الله ورسوله] قال: وهذا محمول على بعض العلوم كعلم الكلام، أو ما لا يستوى فى فهمه جميع العلوم، فحكم العالم أن يحدّث بما يفهم عنه، و ينزل كل إنسان منزلته؞ وتحقيق الآي هو أن العالم إذا قصد كتمان العلم عصى، وإذا لم يقصده لم يلزم التبليغ إذا عرفه أنه مع غيره، وأما من سُئل فقد وجب عليه التبلغ لهذه الآية وللحديث؞ وكذا قاله القرطبي، وقال: ولا يجوز تعليم الكافر القرآن والعلم حتى يسلم، وكذلك لا يجوز تعليم المبتدع الجدال والحجاج ليجادل به أهل الحق، ولا يُعلّم الخصم على خصمه حجة يقطع بها ماله، ولا للسلطان تأو يلاً يتطرق به إلى مكاره الرعية، ولا ينشر الرُّخص في السفهاء فيجعل ذلك طريقاً لارتكاب المحظورات، وترك الواجبات ونحو ذلك، يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموهم، ولا تضعوها في غير أهلها فتظلموها] وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لا تعلقوا الدر في أعناق الخنازير] يريد تعليم الفقه من ليس أهله؞ ودليل الكتمان لمن يفتتن به قول أبي هريرة رضي الله عنه قال: تحفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعائين، فأمّا أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قطع هذا البلعوم. أخرجه البخارى؞ وفسّر العلماء قوله هذا بأن الذي لم يبثه يتعلّق بأمر الفتن، والنص على أعيان المرتدين والمنافقين. وهذا مما لا يتعلق بالبينات والهدى. وقوله: «يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ» قال: دواب الأرض لما رواه البراء بن عازب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أخرجه ابن ماجه عن محمد بن الصباح وإسناده حسن. وقال البراء بن عازب وابن عباس «اللاَّعِنُونَ» كل المخلوقات ما عدا الثقلين: الجن والإنس، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [الكافر إذا ضرب في قبره فصاح، سمعه الكل إلا الثقلين ولعنه كل سامع] وقال ابن مسعود والسُّدى: هو الرجل يلعن

صاحبه فترتفع اللعنة إلى السماء، ثم تنحدر فلا تجد صاحبها الذي قيلت فيه آهلاً لذلك، فترجع إلى الذي تكلم بها فلا تجده أهلاً، فتنطلق فتقع على اليهود الذين كتموا ما أنزل الله تعالى فهو قوله: «وَ يَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ» فمن مات منهم ارتفعت اللعنة عنه، فكانت فيمن بقي من اليهود» والكتمان: تارة يكون بستر الشيء وإخفائه، وتارة أخرى بإزالته، ووضع آخر مكانه، واليهود فعلوا في التوراة كليهما، فقد أخفوا حكم رجم الزانى، وأنكروا بشارة التوراة بمحمد صلى الله عليه وسلم، وتعسَّفوا في تأويل ما ورد فيها من ذلك على وجه لا ينطبق على محمد صلى الله عليه وسلم، وكذلك فعلوا بالدلائل الدالة على نبوة عيسى عليه السلام وزعموا أنها لغيره، وأنهم لا يزالون إلى الآن ينتظرونه، والبينات: هى الأدلة الواضحة الدالة على أمر محمد صلى الله عليه وسلم وعلى الرجم، وتحويل القبلة، والهُدى: هو ضروب الإرشاد التي فيها، والكتاب يراد به الكتب المنزلة جميعاً. واللَّعن: الابعاد والطرد. قال أبو العالية: نزلت في أهل الكتاب كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شيء على صنيعهم ذلك، فكما أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في الماء، والطير في الهواء فهؤلاء بخلاف العلماء فيلعنُهُم الله و يلعنُهُمُ اللاعنون: أي الملائكة والمؤمنون على الصحيح لأنهم هم المؤهلون لذلك غضباً لله تعالى. إذ لا خلاف في جواز لعن الكفار. وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن بعده من الأئمة يلعنون الكفرة في القنوت وغيره. فأما الكافر المعيَّن فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لا يلعن لأنَّا لا ندرى بما يختم الله له. والدليل على الأول قوله تعالى: «**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ والملائكة والناس أجمعين**» فالكاتمون من غير المؤمنين كافرون وهم الملعونون. وأتى بصلة الذين فعلاً مضارعاً. وكذلك بفعل اللعنة دلالة على التجدد والحدوث، وأن هذا يتجدد وقتاً فوقتاً، وكررت اللعنة تأكيداً في ذمهم.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ * إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأرضِ واخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ التى تجرى فى الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ والأرضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»

سورة البقرة (آية: ١٦٣، ١٦٤)

ذكر الواحدى في أسباب النزول عن عطاء: قال أنزلت بالمدينة على النبي صلى الله عليه وسلم «**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ**» فقالت كفار قريش بمكة كيف يسع الناس إله واحدٌ؟ فأنزل الله تعالى: «**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**» حتى بلغ «**لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**» وفي رواية عن أبي الضُّحى قال: لمَّا نزلت هذه الآية «**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ...**» تعجب المشركون وقالوا: إلــه واحدٌ!! إن كان صادقاً فليأتنا بآية فأنزل الله تعالى «**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...**» إلى آخر الآية «**يعقِلُونَ**» وكذا في الخازن (جـ١ ص ٩٩) وفيه في قوله عز وجل «**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**» سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا: يامحمد صف لنا ربك وانسبه، فأنزل الله هذه الآية وسورة الإخلاص، ومعنى الوحدة: الانفراد، وحقيقة الواحد هو الشيء الذي لا يتبعَّض، ولا ينقسم، والواحد في صفات الله أنَّه واحدٌ لا نظير له، وليس كمثله شيء، وقيل: واحد في ألوهيته، وربوبيته، ليس له شريك لأن المشركين أشركوا معه الآلهة فكذبهم الله تعالى بقوله وإلهكم إله واحدٌ، يعنى لا شريك له في ألوهيته ولا نظير له في الربوبية. والتوحيد هو نفي الشريك والقسيم والشبيه، فالله تعالى واحدٌ في أفعاله لا شريك له يُشاركه في مصنوعاته، وواحد في ذاته لا قسم له، وواحد في صفاته لا يُشبِهُهُ شيء من خلقه* وأمَّا أنه واحدٌ في أفعاله فلأن ما سواه ممكن الوجود لذاته، وبقدر البون بين الواجب للذات، والممكن للذات يوجد التفاوت بين فعليهما إن فرض للممكن فعل من نفسه قال تعالى: «**اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**» ثم أنه تعالى خصَّ الموضع بذكر الرحمن الرحيم، لأنَّ ذكر الألٰهيّة والفردانية. يفيد القهر والعلو. فعقبها بذكر الصّفتين ترويحاً للقلوب عن هيبة الإلٰهيّة، وعزّة الفردانية، وإشعاراً بأنه ما خلق الخلق إلا للرحمة والإحسان* وأمَّا أنه واحد في ذاته فلأنه لو شاركه غيره في حقيقته لزم تركيبه ممَّا به الإشتراك وما به الإمتياز، وكل مركب مفتقر وكل مفتقر ممكن* وأمَّا أنه واحدٌ في صفاته فلأن صفات غيره من غيره، وصفاته من نفسه، ولأن صفات غيره زمانية دون صفاته، ولأن صفات غيره متناهية، وصفاته غير متناهية كعلمه مثلاً فإن له معلومات غير متناهية، بل له في كل معلوم علومٌ غير متناهية بحسب أحياز ذلك المعلوم وأوقاته وسائر أحواله، ولأن موصوفية ذاته بالصفات ليست

بمعنى كونها حالة في ذاته، وكون ذاته محلاً لها، ولا بمعنى أن ذاته تُستكمل بها لأن ذاته كالمبدأ لتلك الصفات، ولن يستكمل المبدأ بما عن المبدأ بل ذاته مستكملة بذاته، ومن لوازم ذلك الاستكمال الذاتي تحقق صفات الكمال، وقد يفضي التقرير هنا إلى حيث تقصر العبارة عن الوفاء به، وذلك أنه لا خبر عند العقول من صفاته كما أنَّه لا خبر عندها من ذاته، فإنه لا نعرف من علمه إلا أنَّه الأمر الذي لأجله ظهر الأحكام والاتقان في المخلوقات، كما أنا لا نعلم من ذاته إلا أنَّه مبدأ جميع الممكنات. مَنْ طُبعَ على قلبه ــ والعياذ بالله ــ مني بالخذلان. ومن كشف له الغطاء ــ برحمة من الله ــ صار حيران. فلا إحاطة لذرَّة الماء بكرة الماء ولا ظهور لضوء السهى عند حلول الشمس كبد السماء. قال أحد العارفين في هذا المعنى:

أشْتَاقُه فإذَا بَدا	أطْرَقْتُ من إجْلالِه
لا خيفةً بَلْ هيْبةً	وصيانةً لجمالِه
فالْموْتُ في ادْبارِه	والْعَيْشُ فى إقبالِه
وأصدُّ عنْه إذا بَدا	وأرُوم طيف خيالِه

«لا تُدْرِكُه الأ بْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأ بْصارَ وهُوَ اللَّطِيفُ الْخبِيرُ»* وقوله «لاَ إلٰهَ إلاَّ هُوَ» تقرير للوحدانية بنفي غيره من الألوهية، وإثباتُها له سبحانه وتعالى «الرحْمٰنُ الرَّحِيمُ» يعنى أنَّه المولى لجميع النعم وأصولها وفروعها فلا شيء سواهُ بهذه الصفة لأن كل ما سواه إمَّا بنعمة وإمَّا منعم عليه. وهو المنعم على خلقه الرحيم بهم* وعن أسماء بن يزيد قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين «وَإلَهُكُمْ إلٰهٌ وَاحِدٌ لاَ إلٰهَ إلاَّ هُوَ الرحْمٰنُ الرَّحِيمُ» وفاتحة آل عمران «الٓمٓ * اللهُ لاَ إلٰهَ إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»] أخرجه أبو داود والترمذي وقال: حديث صحيح* وفي الطبرى (جـ ٢ ص ٣٧) عن سعيد قال: سألت قريش اليهود، فقالوا حدَّثونا عما جاءكم به موسى من الآيات، فحدَّثوهم بالعصا، و بيده البيضاء للناظرين، وسألوا النصارى عما جاء به عيسى من الآيات، فأخبروهم أنه كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله، فقالت قريش عند ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم: ادع الله أن يجعل لنا الصفا ذهباً، فنزداد يقيناً، ونتقوى به على عدوِّنا، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم ربَّه فأوحى إليه أنى معطيهم، فأجعل لهم الصفا ذهباً، ولكن إن كذَّبوا عذبتُهم

عذاباً لم أعذبه أحداً من العالمين. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ذرني وقومي فأدعوهم يوماً بيوم. فأنزل الله تعالى «**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ...**» الآية أنَّ في ذلك لآية لهم إن كانوا إنما يريدون أن جعل لهم الصفا ذهباً، فخلق الله السموات والأرض واختلاف الليل والنهار أعظم من أن أجعل لهم الصفا ذهباً ليزدادوا يقيناً* وعن السدى «**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**» فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: غير لنا الصفا ذهباً إن كنت صادقاً أنه منه، فقال الله إنَّ هذه الآيات لآيات لقوم يعقلون. وقال: قد سأل الآيات قومٌ قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين.

«**خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ**» جمع السموات. وأفرد الأرض. قال البيضاوى: بأنَّ السمٰوات طبقات متفاصلة بالذات، مختلفة بالحقيقة بخلاف الأرضين* وقال الخطيب: وهذا إنما يأتى على قول بعض الحكماء أن المراد بالأرضين. الأقاليم* والأولى ما أجاب به البغوى. من أنَّ كلاً منها جنسٌ آخر. والأرضون كلها من جنس واحد وهو التراب. أي فهى طبقات كالسمٰوات، والآية في السمٰوات: سمكها وارتفاعها من غير عمد ولا علاقة، وما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم وغير ذلك، والآية في الأرض مدها و بسطها وسعتها، وما يرى فيها من الأشجار والأنهار والجبال والبحار، والجواهر والنبات وغير ذلك (الخطيب)* وفى الخازن (جـ ١ ص ٩٩) «**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ**» وعَلَّمه كيفية الاستدلال على وحدانية الصانع، وردَّهم إلى التفكر في آياته والنظر في عجائب مصنوعاته، وإتقان أفعاله، ففي ذلك دليل على وحدانيته، إذ لو كان في الوجود صانعان لهذه الأفعال لاستحال اتفاقهما على أمر واحد، ولا امتنع في أفعالهما التساوى في صفة الكمال، فيثبت بذلك أنَّ خالق هذا العالم والمدبر له واحدٌ قادرٌ مختار* فبين سبحانه وتعالى من عجائب مخلوقاته ثمانية أنواع:

أولها: قوله: «**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ**» وإنما جمع السموات لأنها من أجناس مختلفة، كل سماء من جنس غير جنس الآخرى، ووحدّ الأرض لأنها جنس واحد وهو التراب[1] والآية في السماء هي سمكها وارتفاعها بغير عمد ولا علاقة وما يرى فيها من الشمس والقمر والنجوم. والآية في الأرض مدّها و بسطها على الماء، وما يرى

---

(١) وقد برهنتُ في كتابى سبعون برهاناً علمياً على وجود الذات الإلٰهية. الجزء الأول. أن الأرض سبع طبقات كما أن للسموات كذلك فمن أراد الوقوف عليها فليرجع إليه فهوا بحث نفيس جداً جداً. (المؤلف).

فيها من الجبال والبحار والمعادن والجواهر والأنهار والأشجار والثمار والنبات. (وقد برهنت في كتابي سبعون برهاناً علميا على وجود الذات الإلٰهية أنها جميعاً من خلق الله، وأظهرت ما فيها من أسرار إلٰهية دالة على الحضرة الربانية) المؤلف.

النوع الثاني : قوله تعالى: «**وَاختِلافِ اللَّيلِ والنَّهارِ**» أي تعاقبهما في المجيء والذهاب وقيل اختلافهما في الطول والقصر والزيادة والنقصان والنور والظلمة، وإنما قدّم الليل على النهار، لأن الظلمة أقدم، والآية في الليل والنهار أن انتظام أحوال العباد سبب طلب الكسب والمعيشة يكون في النهار، وطلب النوم والراحة يكون في الليل، فاختلاف الليل والنهار إنما هو لتحصيل مصالح العباد.

النوع الثالث : قوله تعالى: «**وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ**» أي السفن. واحده. وجمعه سواء. وسمى البحر بحراً لاتساعه وانبساطه، والآية في الفلك تسخيرها وجريانها على وجه الماء، وهي موقرة بالأثقال والرجال فلا ترسب، وجريانها بالريح مقبلة ومدبرة وتسخير البحر لحمل الفلك مع قوة سلطان الماء وهيجان البحر، فلا ينجى منه إلا الله تعالى.

النوع الرابع : قوله تعالى: «**بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ**» يعني ركوبها، والحمل عليها في التجارات لطلب الأرباح، والآية في ذلك أن الله تعالى لو لم يقوِّ قلب من يركب هذه السفن لما تم الغرض في تجاراتهم ومنافعهم، وأيضاً فإن الله تعالى خصَّ كل قطر من أقطار العالم بشيء معين، وأحوج الكل إلى الكل، فصار ذلك سبباً يدعوهم إلى اقتحام الأخطار في الأسفار من ركوب السفن وخوض البحر وغير ذلك، فالحامل ينتفع لأنه يربح والمحمول إليه ينتفع بما حمل إليه.

النوع الخامس : قوله تعالى: «**وما أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ مَاءٍ**» يعني المطر: قيل أراد بالسماء السحاب سمى سماء لأن كل ما علاك فأظلك فهو سماء، خلق الله الماء في السحاب، ومنه ينزل إلى الأرض، وقيل: أراد السماء بعينها، خلق الله الماء في السماء، ومنه ينزل السَّحابُ، ثم منه إلى الأرض. «**فأَحْيَا بِهِ**» أي بالماء «**الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**» أي يبسها وجدبها، سماه موتاً مجازاً لأنها إذا لم تنبت شيئاً ولم يصبها المطر فهي كالميتة. والآية في إنزال المطر، وإحياء الأرض به. إنَّ الله تعالى جعله سبباً لاحياء الجميع من حيوان ونبات، ونزوله عند وقت الحاجة إليه بمقدار المنفعة، وعند الاستسقاء والدعاء، وإنزاله بمكان دون مكان.

النوع السادس : قوله تعالى: «**وَبَثَّ**» أي فرق «**فِيهَا**» أي في الأرض «**مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ**» قال ابن عباس: يريد كل مادبَّ على وجه الأرض من جميع المخلوقات من الناس وغيرهم. والآية في ذلك أن جنس الإنسان يرجع إلى أصل واحد وهو آدم ثم ما فيهم من الاختلاف في الصور والأشكال والألوان والألسنة والطبائع والأخلاق. والأوصاف إلى غير ذلك، ثم يقاس على بني آدم سائر الحيوان ـ أي أن كل نوع يرجع إلى أصل واحد وما فيه من الاختلاف في الألوان والطبائع، وقد أكد هذا العلم الحديث أن بني الإنسان يعودون إلى أصل واحد هو الإنسان القديم، أي آدم عليه السلام. وقد أقمت البرهان على ذلك في كل من كتابيَّ سبعون برهاناً علمياً... والحجج العصماء في نقض نظرية داروين في النّشوء والارتقاء (المؤلف).

النوع السابع : قوله تعالى: «**وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ**» يعني في مهابها قبولاً ودبوراً وشمالاً وجنوباً. ونكباء وهي الريح التي تأتي من غير مهبّ صحيح، فكل ريح تختلف مهابها تسمى نكباء، وقيل تصريفها في أحوال مهابها ليّنة وعاصفة وحارة و باردة، وسمّيتْ ريحاً لأنها تريح. قال ابن عباس: أعظم جنود الله الريح* وقيل: ما هبّت ريحٌ إلاّ لشفاء سقيم. أو ضدهُ، وقيل البشارة في ثلاث رياح الصَّبا والشمال والجنوب. والدبور وهي الريح العقيم التي أهلكت بها عادٌ، فلا بشارة فيها، والآية في الريح أنها جسم لطيف لا يُمسَكُ ولا يُرى، وهي ذلك في غاية القوة، تقلع الأشجار والصخر، وتُخرِّبُ البنيان العظيم، وهي مع ذلك حياة الوجود، فلو أمسكت طرفة عين لمَات الإنسان وكل ذي روح، وأنتن ما على وجه الأرض.

النوع الثامن : قوله تعالى: «**والسَّحَابِ المُسَخَّرِ بينَ السماء والأرض**» أي الغيم المذلل. سمي سحاباً لسرعة سيره كأنه يُسْحَبُ. والآية في ذلك أنَّ السحاب مع ما فيه من المياه العظيمة التي تسيل منها الأودية العظيمة، يبقى مُعلقاً بين السماء والأرض.

ففي هذه الأنواع الثمانية المذكورة في هذه الآية دلالة عظيمة على وجود الصانع القادر المختار، وأنه الواحد في ملكه، فلا شريك له ولا نظير وهو المراد من قوله: «**وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ واحدٌ لاَ إِلَـهَ إِلاَّ هُو..**»* «**لآيات**» جمع آية وهي الدلالة على وحدانية الصانع جل جلاله، وإنما جاء لفظ الآيات بصيغة الجمع لأن في كل واحد مما ذكر من هذه الأنواع آيات كثيرة تدل على أنَّ لها خالقاً مدبراً مختاراً «**لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**» ينظرون بصفاء عقولهم،

و يتفكرون بقلوبهم فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقاً مدبراً مختاراً وصانعاً قادراً على ما يريد* قال البيضاوى: وفي الآية تنبيه على شرف علم الكلام وأهله، وحث على البحث والنظر فيه* وتعلم أن الشافعى رحمه الله قد ذم علم الكلام واشتهر قوله فيه: لأن يلقى العبد ربَّه بكل ذنب ما عدا الشرك خير له من أن يلقاهُ بعلم الكلام* وحمله العلماء على التوغل فيه فيصير الباحث فلسفيًّا. قلت: وفي الرياح. روى أبوداود عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [الريح من روح الله تأتى بالرحمة، وتأتى بالعذاب، فإذا رأيتموها فلا تسبُّوها، واسألوا الله خيرها، واستعيذوا بالله من شرها] كذا ورد في سنن أبى داود، وأخرجه أيضاً ابن ماجه فى سننه. وفي القرطبى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تَسُبُّوا الريح فإنها من روح الله تأتى بالرحمة والعذاب، ولكن سَلوا الله من خيرها وتعوّذُوا من شرها]* وفي صحيح مسلم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [نُصِرتُ بالصَّبا وأُهلكت عادٌ بالدَّبور] وفي التنزيل في غزوة الأحزاب قال الله تعالى فى حق الكافرين ونصرة المؤمنين **«فأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا»** وهى ريح الصبا* وقوله: **«لآَ إِلٰه إِلاَّ هُوَ»** تقرير للوحدانية. لأن الاستثناء هنا إثبات من نفى، فهوبمنزلة البدل، والبدل هو المقصود بالنسبة، وإزاحة لأن يتوهم أن في الوجود إلهاً، ولكن لا يستحق منهم العبادة* وقوله: **«إِلاَّ هُوَ»** رفع على أنه بدل من إسم لا على المحل، إذ محله الرفع على الابتداء، أو هو بدل من لا وما عملت فيه لأنها وما بعدها في محل رفع بالابتداء، أي بدل من الضمير المستكن في الخبر أي لا إله كائن، أو موجود إلا الله. وقوله **«الرَّحْمٰنُ الرَّحِيمُ»** خبر مبتدأ محذوف أي هو الرحمن الرحيم كما قدره الجلال. وقوله **«إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوات والأَرْض»** الخلق. هنا بمعنى المخلوق إذ الآيات التي تشاهد إنما هي في المخلوق الذي هو السموات والأرض، وحينئذٍ فالاضافة بيانيّة* والليل: اسم جنس يفرق بينه و بين واحده بالتاء، فيقال ليل وليلة كتمر وتمرة، والصحيح أنّه مفردٌ، ولا يحفظ له جمع، ولذلك خطأ الناس من زعم أن الليالى جمع ليل بل الليالى جمع ليلة. وقدم الليل على النهار كما تقدم لأنه سابقُه قال تعالى: **«وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهارَ»** وهذا أصح القولين: وقيل: النور سابق الظلمة* وقوله: **«مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ»** من الأولى معناها ابتداء الغاية أي إنزاله من جهة السَّماءِ، وأما الثانية فتُحتملُ ثلاثة أوجه. أحدها أن تكون

لبيان الجنس، فإن المنزّل من السماء ماء وغيره، والثاني أن تكون للتّبعيض فإن المنزل منه بعض لا كل، والثالث أن تكون هى وما بعدها بدلاً من قوله: «**مِنَ السَّمَاءِ**» بدل اشتمال بتكرير العامل، وكل من الأولى والثانية متعلق بأنزل. قوله: «**فأَحْيَا بِهِ**» أي أظهر نضارتها وحسنها وقوله: «**مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ**» كل مفعول به لبثّ، ومن زائدة على مذهب الأخفش أو تبعيضيّة. وزيادتها أصح وذلك تأكيداً في مبالغة الخلق والبث. ولا يستقيم معنى البعضية إذ يصير المعنى و بث فيها بعض الدواب فيكون البعض الآخر مبثوث من نفسه بنفسه، قوله: «**وتَصْرِيفِ الرِّياح**» مصدر صَرَفَ ويجوز أن يكون مضافاً للفاعل والمفعول محذوف. أي وتصريف الرياح السَّحاب، فإنها تسوق السحاب. وأن يكون مضافاً للمفعول، والفاعل محذوف أي وتصريف الله الرياح ... «**والسَّحاب**» مشتق من السحب لجرّ بعضه بعضاً «**بيْن السَّماءِ**» في بين قولان: أحدهما أنّه منصوب بقوله: المسخر بين فيكون ظرفاً للتّسخير. والثاني يكون حالاً من الضمير المستتر في اسم المفعول فيتعلق بمحذوف أي كائناً بين السماء* وفي الحديث: [وَ يْلٌ لِمنْ قرأ هذه الآية فمَجَّ بِهَا] المجُّ قذف الريق ونحوه من الفم. والمراد عدم الاعتبار والاعتداد بها، إذ من تفكر فيها فكأنه حفظها ولم يلقها من فيه، وقال بعض العلماء: إن لله كتابين: كتاباً مخلوقاً هو الكون. وكتاباً منزلاً هو القرآن. و يرشدنا هذا إلى طرق العلم بذاك. بما أوتيناهُ من العقل، فمن اعتبر بهما وأوصله اعتباره إلى الإيمان بالمبدع الحيّ القيوم فقد فاز، ومن أعرض عنهما فقد هلك وخاب وخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«يـٰأَيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّباً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إنَّهُ لكم عَدُوٌّ مُبِينٌ * إنَّما يأمُرُكُمْ بالسُّوءِ والفحشاءِ وأنْ تقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ» سورة البقرة (آية: ١٦٨، ١٦٩)

جاء في أسباب النزول للواحدى قول الكلبي: أنها نزلت في ثقيف وخزاعة، وعامر بن صعصعة، حرَّموا على أنفسهم من الحرث والأنعام، حرّموا البحيرة والسائبة، والوصيلة والحامى* وفي الخطيب قال البيضاوى: نزلت في قوم حرّموا على أنفسهم رفيع الأطعمة والملابس* وقول الكلبي كتفسير لما أبهم في قول البيضاوى أي حرَّموا على أنفسهم ذلك على وجه التورّع كما تفعله الصوفية. قال الخطيب: وما قاله ــ أي البيضاوى ــ مرجوح

كما قاله شيخنا زكريا، ثم قال: والمشهور أنها نزلت فيهم آية المائدة. أي «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ ما أحَلَّ اللهُ لَكُمْ..**» وأمّا هذه الآية نزلت في الكفار الذين حرَّموا البحائر والسوائب والوصائل ونحوها. ومن ثم عبّر هنا بيا أيها الناس، وثم بيا أيها الذين آمنوا* والمعنى يا أيها الناس كلوا مما أحللتُ لكم من الأطعمة على لسان رسُولى صلى الله عليه وسلم، فطيبته لكم مما تحرمونه على أنفسكم من البحائر والسوائب والوصائل، وما أشبه ذلك مما لم أحرمه عليكم دون ما حرمته عليكم من المطاعم والمآكل من ميتة ودم ولحم خنزير، وما أهل به لغيرى، ودعوا خطوات الشيطان الذي يوبقكم فيهلككم و يردكم موارد العطب، ويحرّم عليكم أموالكم فلا تتبعوها ولا تعملوا بها، إن الشيطان لكم أيها الناس عدوٌّ مبين. قد أبان لكم عداوته بإبائه عن السجود لأ بيكم وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة، واستزله بالخطيئة، وأكل من الشجرة، التزموا طاعتى فيما أمرتكم به، ونهيتكم عنه مما أحللته لكم، وحرّمته عليكم دون ما حرّمتموه أنتم على أنفسكم وحللتُموه طاعة منكم للشيطان، واتباعاً لأمره قال السدي «**إنَّما يأمُرُكُمْ بالسُّوءِ والْفَحْشَاءِ**»: أما السوء فالمعصية، وأما الفحشاء فالزنا* «**وأن تقولُوا عَلى اللهِ ما لا تَعْلَمُونَ**» فهو ما كانوا يحرمونه من البحائر والسوائب والوصائل والحوامي و يزعمون أن الله حرَّم ذلك فردَّ الله عليهم بقوله: «**ما جَعَلَ اللهُ مِنْ بَحيرةٍ وَلاَ سَائبَةٍ ولاَ وَصِيلَةٍ ولاَ حَامٍ ولكنَّ الَّذِينَ كَفَروا يَفْتَرُونَ على اللهِ الْكَذِبَ وأكثرهُمْ لا يَعْقِلُونَ**» فأخبرهم تعالى في هذه الآية أن قولهم: إن الله حرَّم هذا من الكذب الذي يأمرهم به الشيطان. فهم مطيعون له، متبعون خُطواته، مقتفون آثار أسلافهم الضلال وآبائهم الجهال. وهذا معنى الآية التالية للآيتين السابقتين «**وَإذَا قِيلَ لَهُمَ اتّبِعُوا ما أنْزَلَ اللهُ قالُوا بَلْ نَتّبِعُ ما ألْفَيْنَ عَلَيهِ آبائَنا أوَلَوْ كَانَ آبَاؤهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً ولا يَهْتَدُونَ**» سورة البقرة (آية: ١٧٠). وفي الطبرى (جـ ٢ ص ٤٦) عن ابن عباس «**ولا تتبِعُوا خُطُواتِ الشيْطانِ**» يقول عمله* وعن مجاهد قال: خطيئته وعن السدى «**خطوات الشيطان**» يقول طاعته* وقال آخرون (النذور في المعاصى) قاله أبومجلز* غير أن حقيقة تأويل الكلمة هو ما بيَّنت من أنها بعد ما بين قدميه، ثم تستعمل في جميع آثاره وطرقه، إذ الخطوات واحدها خطوة (بالضم) وهى ما بين قدمى الماشي. يقال اتبّع خطواته، ووطىء على عقبه إذا اقتدى به واستن بسنته، ومُبينٌ: أي ظاهر العداوة لذوى البصائر، والسوء ما

يسوءك وقوعه أو عاقبته. والفحشاء لفظ عام، وهو كل ما يفحش قبحه في أعين الناس من المعاصي والآثام، وهي أقبح وأشد من السوء، و يأمركم أي يوسوس لكم و يتسلط عليكم كأنه آمرٌ مطاع، وأنتم في انقيادكم له، كأنكم مأمورون «**أَلْفَيْنَا**» وجدنا. وعقل الشيء عرفه بدليل، وفهمه بأسبابه ونتائجه* وفي الخازن (جـ١ ص ١٠١) والحلال: المباح الذي أحله الشرع، وانحلت عقدة الخطر عنه، وأصله من الحل الذي هو نقيض العقد. والطَّيب: ما يستلَذُّ، والمسلم لا يستطيب إلا الحلال، و يعاف الحرام، وقيل: الطيب هو الطاهر. لأن النّجس تكرهه النفس وتعافه* وحلالاً حال من ما «**طيباً**» صفة مؤكدة أي فيكون معنى الطيب هو معنى الحلال ــ وإن لم يستلذ كالأدو ية، وعلى هذا فيكون الطيب أخصُّ من الحلال «**ومن**» في قوله: «**مِمَّا فِي الأَرْضِ**» تبعيضية في موضع مفعول كلوا أي كُلُوا بعض ما في الأرض إذ لا يؤكل كُل ما في الأرض* وقوله: «**إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ**» ...الخ. تعليل للنهي عن الاتباع* وقوله: «**إِنَّمَا يأمُرُكُمْ**» ...الخ. بيان لعداوته، ووجوب التحرّز عن متابعته، واستعير الأمر لتزيينه، و بعثه لهم على الشر تسفيهاً لرأيهم وتحقيراً لشأنهم (البيضاوى)* وفي سبب نزول قوله تعالى: «**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ...**» الآية* في الخازن (جـ١ ص ١٠٢) قال ابن عباس: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهود إلى الإسلام، فقال رافع بن خارجة ومالك بن عوف «**بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**» كانُوا خيراً منَّا وأعلم منا، فأنزل الله هذه الآية* وقيل: إن الآية متصلة بما قبلها، والضمير في هم يعود إلى قوله «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَاداً**» قبل هذه الآيات. وهم مشركوا العرب «**قالوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**» يعنى من عبادة الأصنام، وقيل: بل الضمير في هم يعود على قوله: «**يا أَيُّها النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ**» والمعنى: وإذا قيل لَهم اتبعوا ما أنزل الله يعنى في تحليل ما حرَّموا على أنفسهم «**قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا**» يعنى وَجَدْنا «**عَلَيْه آبَاءَنَا**» من التحريم والتحليل قال الله تعالى: «**أَوَلَوا كَانَ آبَاؤُهُمْ**» يعنى الذين يتبعونهم «**لاَ يَعْقِلُونَ شيْئاً**» يعنى لا يعلمون شيئاً من أمر الدين. لفظه عام ومعناه خاص، وذلك أنَّهم كانوا يعقلون أمر الدنيا. «**ولا يَهْتَدُونَ**» أي إلى الصواب* وقوله تعالى «**بَلْ نَتَّبِعُ**» بل هنا للإضراب عن الأوّل. أي لا نتَّبعُ ما أنزل الله، وليس إضراب خروج قصة من قصة، بل إنَّه إضراب إبطال لا إضراب انتقال، وعلى هذا فيقال: كل إضراب في القرآن فالمراد

به الانتقال من قصّة إلى قصّة إلاّ في هذه الآية، وإلا في قوله: «**أمْ يقُولُونَ افْتَراهُ بَلْ هُوَ الحقُ**» فإنَّه محتمل للأمرين، فإن اعتبرت قوله: أم يقولون افتراه كان إضراب انتقال. وإن اعتبرت افتراه وحده كان اضراب ابطال.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«إنَّ الَّذِينَ يَكْتَمُونَ ما أنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قليلاً أوْلَئكَ ما يأكُلُونَ في بُطُونِهِمْ إلاّ النّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يُوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ ألِيمٌ * أولَئكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى والْعَذَابَ بالْمَغْفِرَةِ فَمَا أصْبرهُمُ عَلَى النَّارِ» سورة البقرة (آية: ١٧٤، ١٧٥)

ذكر الواحدى فى أسباب النزول قول الكلبىّ عن ابن عباس قال: نزلت فى رؤساء اليهود. وعلمائهم، كانوا يصيبون من سفلتهم الهدايا وكانوا يرجون أن يكون المبعوث منهم، فلما بعث من غيرهم خافوا ذهاب مأكلتهم، وزوال رياستهم، فعمدوا إلى صفة محمد صلى الله عليه وسلم فغيروها، ثم أخرجوها إليهم، وقالوا: هذا نعت محمد الذى يخرج فى آخر الزمان لايشبه نعت هذا النبى الذى بمكة، فإذا نظرت السفلة إلى النعت المتغير وجدوه مخالفاً لصفة محمد صلى الله عليه وسلم فلا يتبعونه* وفى القرطبى نحو هذا. وعبارته «**إنّ الّذينَ يكتُمونَ ما أنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتاب**» يعنى علماء اليهود، كتموا ما أنزل الله فى التوراة من صفة محمد صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته* وهذه الآية وإن كانت فى الإخبار عن اليهود وكتمانهم للحق فإنها تتناول من المسلمين من يكتم الحق منهم مختالاً لذلك بسبب دنيا يصيبها* وما ذكر فى القرطبى هو نفسه مذكور فى الطبرى وابن كثير (جـ٢ ص٥٣) و(جـ١ ص٢٠٦) وكذا فى الخازن (جـ١ ص١٠٤) وهو قول المفسرين، ولكن قال الإمام الرازى: وعند المتكلمين هذا ممتنع لأن التوراة والانجيل قد بلغا من الشهرة والتواتر إلى حيث تعذّر ذلك فيهما بل كانوا يكتمون التأويل لأنه قد كان منهم من يعرف الآيات الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم، فهذا هو المراد بالكتمان فيصير المعنى إن الذين يكتمون معانى ما أنزل الله من الكتاب «**ويَشْتَرُونَ بِهِ**» أى بالكتمان، وقيل يعود الضمير إلى ما أنزل الله من الكتاب. ومن فى من الكتاب للبيان، وهى حال من العائد على الموصول تقديره أنزله الله حال كونه من الكتاب، والعامل فيه أنزل، أو حال من الموصول نفسه، فالعامل فى الحال يكتمون، ويجوز أن تكون

من بمعنى فى. والكتاب هو التوراة. «**ثمناً قَلِيلاً**» أى عوضاً يسيراً وهى المآكل التى كانوا يأخذونها من سفلتهم «**أولَئِكَ مَا يأكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إلاَّ النَّارَ**» إستثناء مفرغ لأن قبله عاملاً يطلبه، وهذا من مجاز الكلام، جعل ما هو سبب للنار ناراً لقولهم: أكل فلان الدَّم يريدون الدية التى سببها الدم. يعنى ما يأكلون فى بطونهم إلا ما يؤديهم إلى النار، وهو الرشا والحرام، فلما كان يفضى بهم ذلك إلى النار، فكأنهم أكلوها أو أنهم يأكلونها حقيقة «**وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامةِ**» أى كلام رحمة وما يسرهم، بل يكلمهم بالتوبيخ لقوله تعالى: «**اخْسَئُوا فِيهَا ولاَ تكَلِّمُون**» ذلك لكتمانهم كلامه فى الدنيا، وقيل: أراد به الغضب، يقال فلان لا يكلم فلاناً إذا غضب عليه. وفى التنزيل أيضاً «**فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أجْمعِينَ**» والسؤال كلام. والمراد من الآية والله أعلم أنه تعالى لا يكلمهم بتحية وسلام وخير، وإنما يكلمهم بما تعظم به الحسرة والغمّ عند المناقشة والمساءلة «**وَلاَ يُزَكِّيهِمْ**» أى لا ينسبهم إلى التزكية، ولا يثنى عليهم، ولا يقبل أعمالهم كما يقبل أعمال الأزكياء، أو لا ينزلهم منازل الأزكياء. أو لا يطهرهم من دنس الذنوب. «**وَلَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ**» أى مؤلم يصل ألمه إلى قلوبهم وإلى كل ذرة فى أجسامهم. «**أولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلالَةَ بالْهُدَى والْعَذَابَ بالْمَغْفِرة**» أى أولئك الموصوفون بالصفات الستة من قوله «**إنَّ الَّذِينَ يكْتُمونَ...**» إلى هنا، وهذا بيان لحالهم فى الدنيا بعد أن بين حالهم فى الآخرة. والمعنى أنهم اختاروا الضلالة على الهدى، واختاروا العذاب على المغفرة لانهم كانوا عالمين بالحق، ولكن كتموه وأخفوه، وكان فى إظهاره الهدى والمغفرة، وفى كتمانه الضلالة والعذاب فلما أقدموا على إخفاء الحق وكتمانه كانوا بائعين الهدى بالضلالة والمغفرة بالعذاب «**فَمَا أصْبَرهُمْ عَلَى النَّارِ!!**» ما استفهامية صحبها معنى التعجب مثل كيف تكفرون. أو أنها موصولة. أى ما الذى صبرهم، وأى شيء جسرهم على النار حتى تركوا الحق، واتبعوا الباطل! وفى الطبرى فى «**فَمَا أصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ**» قال: اختلف أهل التأويل فى تأويل ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك فما أجرأهم على العمل الذى يقربهم إلى النار، وأسند هذا القول إلى قتادة والحسن* وعن مجاهد «**فَمَا أصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ**» قال: ما أعملهم بالباطل* وفى رواية عنه: ما أعملهم بأعمال أهل النار* وهو قول الحسن وقتادة أيضاً، والمعنى أنهم فى عذاب شديد عظيم هائل يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال عياذا بالله من ذلك.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«لَيْسَ الْبَّر أنْ تُولّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ والْمَغرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ والْيَوْمِ ألآخِرِ والْمَلائِكِةِ وألْكِتَابِ والنَّبِيّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَى والْيَتَامَى والْمَسَاكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ والسَّائلينَ وَفي الرِّقَابِ وأقَامَ الصَّلاةَ وآتَى الزَّكَاةَ والْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ فى الْبَأْسَاءِ والضَّراءِ وَحِينَ الْبَأسِ أولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأولئِكَ هُمُ الْمُتقُّونَ» سورة البقرة (آية: ١٧٧)

فى الواحدى. قال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً سأل نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم عن البر فأنزل الله تعالى هذه الآية قال: وذكر لنا أن نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم دعا الرجل فتلاها عليه وقد كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، ثم مات على ذلك وجبت له الجنة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكذا قوله فى الطبرى (ج٢ ص٥٦) لكن بدل وجبت له الجنة. يرجى له، و يطمع له فى خير فأنزل الله **«ليْسَ الْبَر أن تُولّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ والْمَغرِبِ»** وكانت اليهود توجهت قبل المغرب والنصارى قبل المشرق **«ولكنّ البّرمَنْ آمن باللهِ والْيَوْم الآخِرِ..»** الآية وفيه. عن الربيع بن أنس قال: كانت اليهود تصلى قبل المغرب والنصارى قبل المشرق فنزلت ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب* وعن ابن عباس قوله « **لَيْسَ البَّر أن تُولّوا وُجُوهَكَمْ قِبلَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ»** يعنى الصلاة. يقول ليس البر أن تصلوا ولا تملوا، فهذا منذ تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض، وحدَّ الحدود فأمر الله بالفرائض والعمل بها* وعن مجاهد **«لَيْسَ البرَّ أنْ تَوَلّوا وُجُوهَكُمُ قِبَلَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ»** وأنّ البرّ ما ثبت فى القلوب من طاعة الله* و يرجح قول من قال عنى الله بذلك اليهود والنصارى، وذلك أن اليهود تصلى فتوجه قبل المغرب، والنصارى تصلى فتوجه قبل المشرق فأنزل الله فيهم هذه الآية يخبرهم فيها أن البر غير العمل الذى يعملونه ولكنه ما بيناه فى هذه الآية وهوقول قتادة والربيع بن أنس، و يرجح ذلك أن الآيات قبلها مضت بتوبيخهم ولومهم والخبر عنهم، وعما أعد لهم من أليم العذاب. وهذا فى سياق ما قبله* وقال الخطيب فى تفسيره: **«أنْ تَوَلّوا وجُوهَكُمْ»** أى فى الصلاة **«قِبَلَ الْمَشْرِقِ والْمَغرِبِ»** على قولين. أحدهما أنهم المسلمون. والثانى أهل الكتابين. فعلى الأول معناه ليس البر كله فى الصلاة، ولكن البر ما فى هذه الآية. قاله ابن عباس ومجاهد

وعطاء. وعلى الثانى ليس البر صلاة اليهود إلى المغرب، وصلاة النصارى إلى المشرق، فإنهم أكثروا الخوض فى أمر القبلة حين حولت. وادعى كل طائفة أن البر هو التوجه إلى قبلته، فرد الله تعالى عليهم وقال: ليس البر ما أنتم عليه فإنه منسوخٌ ولكن البر ما فى هذه الآية و يعكر عليه أن قبلة اليهود بيت المقدس، وهو للشمال بالنسبة للكعبة، والله أعلم بأسرار كتابه ومراده وقال قوم: هو عام لهم وللمسلمين. أى ليس البر مقصوراً بأمر القبلة* والبر: لغة التوسع فى الخير، وأصله من البر المقابل للبحر. وفى لسان الشرع كل ما يتقرب به إلى الله من الإيمان به وصالح الأعمال وفاضل الخير، أو قل: البر. كل فعل مرضى عند الله تعالى. أو قل: هو اسمٌ جامع لكل الطاعات، وأعمال الخير المقربة إلى الله تعالى الموجبة للثواب والمؤدية إلى الجنة، ثم بين تعالى فى هذه الآية خصالاً من البر فقال: «**مَنْ آمَنَ بِاللهِ**» أي ولكن البر من آمن بالله، فكان المراد بالبر هنا الإيمان بالله، وهو أعظم البر إذ به يُخلّص الانسان نفسه من النار، فهو فى الحقيقة إحسان إلى النفس ذاتها بدليل «**وَالْيَوْمِ الآخِرِ**» أى ومن البر أيضاً الإيمان باليوم الآخر، وإنما ذكر الإيمان باليوم الآخر لأن عبدة الأوثان كانوا ينكرون البعث بعد الموت «**وَالْمَلائِكَةِ**» أى ومن البر الإيمان بالملائكة كلهم لأن اليهود قالوا: إن جبريل عدونا «**وَالْكِتَابِ**» الظاهر أراد به القرآن. لأن اليهود والنصارى ومن على شاكلتهم ينكرونه. وقيل: جميع الكتب المنزلة لسياق ما بعده وهو قول «**وَالنَّبِيِينَ**» يعنى أجمع. وإنما خصَّ الإيمان بهذه الأمور الخمسة لأنه يدخل تحت كل واحد منها أشياء كثيرة مما يلزم المؤمن أن يصدق بها. فن قوله: ليس البر الخ .. نصف السورة السابق كان متعلقاً بأصول الدين، و بقبائح بنى اسرائيل، وهذا النصف غالبه متعلق بالأحكام الفرعية تفصيلاً ليعمل بها المؤمنون «**وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ**» يعنى من أعمال إيتاء المال على حبه أى حب الله، أو على حبه المال. وهو فى محل نصب على المال. والعامل فيه آتى. أى آتى المال حال محبته له، واختياره إياه روى الشيخان عن أبى هريرة قال: جاء رجل إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله. أىُّ الصدقة أعظم أجراً؟ قال: [أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا، وقد كان لفلان]* قوله حتى إذا بلغت الحلقوم أى الروح ولفلان كذا. كناية عن الموصى له. وقد كان لفلان كناية عن الوارث «**ذَوِى الْقُرْبَى**» أى القرابة فنى الخطيب قال عليه الصلاة والسلام: [الصدقة

على المسكين صدقة، وعلى ذى الرحم ثنتان] لأنها صدقة وصلة* ولا شك أن القرابة أحق الناس بالبر إذ المركوز فى الفطرة أن الإنسان يألم لفاقة ذوى رحمه وعدمهم أشد مما يألم لغيرهم، فهو يرى أن هوانه بهوانهم، وعزه بعزهم، فمن قطع رحمه وامتنع عن مساعدتهم، وهم بائسون وهو فى نعمة من الله وفضل، فقد بعد عن الدين والفطرة (المراغى ج٢ ص٥٦)* وفى ابن كثير (ج؟ ص٢٠٧) عن أبى ذر أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما الإيمان؟ فتلا عليه «**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ**» إلى آخر الآية، ثم سأله أيضاً فتلاها عليه، ثم سأله فقال: [إذا عملتَ حسنةً أحبَّهَا قَلْبَكَ وإذا عَمِلْتَ سيِّئةً أبْغضهَا قَلْبَكَ] لكنه منقطع كما قال ابن كثير لأن مجاهداً لم يدرك أبا ذر فإنه مات قديماً* وقال ابن كثير: وأما الكلام على تفسيره هذه الآية فإن الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس، ثم حولهم إلى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب و بعض المسلمين ــ فقد جرى على القول بالعموم ــ فأنزل الله تعالى بيان حكمته فى ذلك وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل، وامتثال أوامره والتوجه حيثما وجه، واتباع ما شرع فهذا هو البر والتقوى والإيمان الكامل، وليس فى لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولا طاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ولهذا قال: «**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ والْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ**» الآية كما قال فى الأضاحى والهدايا «**لَنْ يَنَالَ اللهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَاؤهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ**» سورة الحج آية (٣٧) «**والْيَتَامىَ**» اليتيم هو الذى لا أب له مع الصغر، وقيل: يقع على الصغير والبالغ. أى يريد المحاو يج منهم والمراد إيتاء أوليائهم لأن الإيتاء لليتامى لا يصح، وهذا مع الصغر لعدم إدراكهم لذلك. «**والْمَسَاكِينَ**» جمع مسكين. سُمّىَ بذلك لأنه دائم السكون إلى الناس لأنه لا شيء له، أو لأن الحاجة أسكتته، والعجز قد أقعده عن طلب ما يكفيه. قال أبو إسحاق: المسكين الذى أسكنه الفقر أى قلل حركته* وهو بعيد لأن مسكينا فى معنى فاعل. وقوله الذى أسكنه الفقر يخرجه إلى معنى مفعول. فيكون فقيراً لإيقاع الفقر عليه. والفقير فى اللغة هو الذى له بعض ما يقيمه. والمسكين أسوأ حالاً من الفقير. وهو قول ابن السكيت، قال يونس: وقلت لأعرابىّ: أفقيرٌ أنت أم مسكين؟ فقال: لا والله بل مسكين، فأعلم أنه أسوأ حالاً من الفقير. واحتجوا على أن المسكين أسوأ حالاً من الفقير بقول الراعى:

أمّا الفقير الذى كانت حلوبته وفق العيال فلم يترك له سبد

فأثبت أن للفقير حلوبة، وجعلها وفقاً لعياله، قال: وقول مالك فى هذا كقول يونس. وروى عن الأصمعى أنه قال: المسكين أحسن حالاً من الفقير، وإليه ذهب أحمد بن عبيد. قال: وهو الصحيح عندنا لأن الله تعالى قال: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ» فأخبر أنهم مساكين وأن لهم سفينة تساوى جملة. أى من المال. وقال: « لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً...» فهذه الحال التى أخبر بها عن الفقراء هى دون الحال التى أخبر بها عن المساكين. قال ابن برّى: وإلى هذا القول ذهب على بن حمزة الأصبهانى اللّغوى، و يرى أن الصواب. وما سواه خطأ، واستدل على ذلك بقوله تعالى: «مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ» فأكد عز وجل سُوء حاله بصفة الفقر لأن المتربة الفقر، ولا يؤكد الشىء إلا بما هو أوكد منه. واستدل على ذلك بقوله عزّ وجَلّ: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ» فأثبت أن لهم سفينة يعملون عليها فى البحر، واستدل أيضاً بقول الراجز:

قل لك فى أجر عظيم تؤجره تغيث مسكيناً قليلاً عسكره

عشر شياه سمعه وبصره قد حدث النفس بمصر يحضره

فأثبت أن له عشر شياه، وأراد بقوله عسكره غنمه وأنها قليلة. واستدل أيضاً ببيت الراعى. وزعم أنه أعدل شاهد على صحة ذلك، وهو قوله: أما الفقير الذى كانت حلوبته... الخ. لأنه قال: أمّا الفقير الذي كانت حَلوبته، ولم يقل الذي حلوبته وقال: فلم يترك له سبد. فأعلمك أنه كانت له حلوبة تقوت عياله، ومن كانت هذه حاله فليس بفقير ولكن مسكين، ثم أعلمك أنها أُخذت منه فصار إذ ذاك فقيراً. يعنى ابن حمزة بهذا القول أنَّ الشاعر لم يثبت أنَّ للفقير حلوبة لأنه قال: الذي كانت حلوبته. أي فيما مضى. ولم يقول الذي حلوبته فثبت ملكيته لها. وهذا كما تقول: أما الفقير الذي كان له مالٌ وثروة فإنه لم يترك له سبدٌ، أي و بر. وقيل: الشعر. والعرب تقول: ماله سبدٌ ولا لبدٌ، أي ماله ذو وَبرٍ ولا صوف متلبد يكنى بها عن الإبل والغنم، و يدخل في الغنم المعز لأن الشعر له. وأراد أنه إذا لم يكن فقيراً، فهوا إمّا غنيٌّ وإمّا مسكين، ومن له حلوبة واحدة فليس بغنى، وإذا لم يكن غنياً لم يبق إلا أن يكون فقيراً أو مسكيناً، ولا يصح أن

يكون فقيراً على ما تقدم ذكره، فلم يبق أن يكون إلاّ مسكيناً، فثبت بهذا أن المسكين أصلح حالا من الفقير قال عليُّ بن حمزة: ولذلك بدأ الله تعالى بالفقير قبل من يستحق الصدقة من المسكين وغيره، وأنت إذا تأملت قوله تعالى: **«إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينَ»** وجدته سبحانه قد رتبهم فجعل الثاني أصلح حالاً من الأول. والثالث أصلح حالاً من الثاني. وكذلك الرابع والخامس والسادس والسابع والثامن (اللسان جـ١٣ ص ٢١٦ وجـ٣ ص ٢٠٢) مع زيادة عليها بغية الإيضاح* **«وَابْنِ السَّبِيلِ»** هو المسافر البعيد عن ماله ولا يمكنه الإتصال بأهل أو بذى قرابة، وسُمّى ابن السبيل أي الطريق لملازمته إياها في السفر، أو لأنَّ الطريق تبرزه فكأنها ولدته (كرخى)* والسّبيل في اللغة: الطريق وما وَضَحَ منه يذكّر و يُؤنث. وسبيل الله: طريق الهدى الذي دعا إليه، وابن السبيل المسافر الكثير السفر، سُمى ابناً لها لملازمته إياها، وفي الحديث: [حريم البئر أربعون ذِراعاً من حواليها، لأعْطَانِ الإبل والغنم، وابن السبيل أوْلَى شارب منها] أي عابر السبيل المجتاز بالبئر أو الماء أحقُّ به من المقيم عليه، يمكّن من الورد والشرب، ثم يدعه للمقيم عليه: والمراد من الآية أن المسافر الذي انقطع به وهو يريد الرُّجوع إلى بلده، ولا يجد ما يتبلغ به فله في الصَّدقات نصيب* قال الشافعي: وابن السبيل عندى: ابن السبيل هو من أهل الصدقة الذي يريد البلد غير بلده لأمر يلزمه. و يُعطى ابن السبيل قدر ما يبلغه البلد الذي يريده في نفقته وحمولته* وفي الخازن (جـ١ ص ١٠٥) وقيل: هو الضيف ينزل بالرجل لأنه إنما وصل إليه من السبيل، وهو الطريق، والأول أشبه لأن ابن السبيل اسمٌ جامع للمسافر* وفي الطبرى (جـ٢ ص ٥٧) عن قتادة **«وَابْنِ السَّبِيلِ»** قال: هو الضيف، قال: قد ذكر لنا أنَّ نبى الله صلى الله عليه وسلم كا يقول: [من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت]. قال: وكان يقول: [حق الضيافة ثلاث ليال، فكل شيء أضافه بعد ذلك صدقة]. وهو بعيد النجعة لأنه لا ارتباط بين اسمى ابن السبيل والضيف لغة ومعنى فكيف يُتأوّل أحدهما بالآخر* **«وَالسَّائِلِينَ»** يعنى الطالبين المستطعمين، عن على ابن أبى طالب كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [للسائل حق ولو جاء على فرس] أخرجه أبوداود. وكذا أخرجه مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم. وعن أم نجيد قالت: قلت يا رسول الله إنَّ المسكين ليقوم على بابى فلم أجد شيئاً أعطيه إيَّاه، قال: [إن لم تجدي إلاّ ظِلفاً مُحرَّقاً فادفعيه إليه في يده]

أخرجه أبوداود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح* قوله: ولو كان ظلفاً: هو خف الشاة، وفي كونه محرَّقاً مبالغة في قلة ما يُعطى. قوله: «**وفِي الرِّقَابِ**» معطوف على المفعول الأول، وهو ذوى. أي وآتى المال في الرقاب. أي دفعه في فكها. أي لأجله و بسببه، و يشمل ذلك ابتياع الأرقاء وعتقهم، ومساعدة الأسرى على الإفتداء، وإعانة المكاتبين على أداء نجومهم (المكاتب هو الرقيق يشترى نفسه من مولاه بثمن يجعله نجوماً - أقساطاً) وفي جعل هذا نوعاً من البذل واجباً على المسلمين، دليل على رغبة الشارع في فك الرقاب، واعتباره أن الإنسان خلق ليكون حُراً إلا في أحوال عارضة تقضى المصلحة العامة فيها أن يكون الأسير رقيقاً. والبذل لهذه الأصناف لا يتقيد بزمن معيَّن، ولا بامتلاك نصاب محدود من المال. ولا بتقدير المال المبذول بمقدار معيَّن كالزكاة الواجبة، بل هو موكول إلى سخاء المُعْطِي وحال المعطَى. وقد أغفل الناسُ أداء هذه الحقوق التي حثَّ عليها الكتاب الكريم، مع ما فيها من التكافل العام بين المسلمين، ولو أدوها لكانوا في معايشهم من خير الأمم، ولدخل كثير من الناس في الإسلام، لما يرون فيه من جميل العناية بالفقراء، وأنَّ لهم حقوقاً في أموال الأغنياء* «**وأقَامَ الصَّلاةَ**» المفروضة، فأداها على أقوم وجه في أول أوقاتها، ولا يتحقق ذلك بأداء أفعال الصلاة وأقوالها فحسب بل إنما يكون بوجود سرِّ الصلاة وروحها، ومن آثاره تحلى المصلى بالأخلاق الفاضلة، وتباعده من الرذائل، فلا يفعل فاحشة ولا منكراً كما قال تعالى مبيَّناً فوائدها: «**إنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ**» ولا يكون هلوعاً جزوعاً إذا مسَّه الضر، ولا بخيلاً منوعاً إذا ناله الخير كما قال جلّ اسمه «**إنَّ الإنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً * إذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً * وإذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً * إلاَّ الْمُصَلِّينَ**» كما لا يخشى في الله لومة اللائمين، ولا يُبالى في سبيل الله ما يلقى من الشدائد. ولا بما ينفق من فضله ابتغاء مرضاته (المراغى جـ ٢ ص ٥٧)* «**وآتَى الزَّكَاةَ**» يعنى الواجبة قال: وقلما تجيء الصلاة في القرآن الكريم إلا وهى مقترنة بالزكاة، ذاك أن الصلاة تهذب الروح، والمال قرين الروح، فبذله ركن عظيم من أعمال البر، ومن ثَمَّ أجمع الصحابة على محاربة مانعى الزكاة من العرب بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن مانعها يهدم ركناً من أركان الإسلام، و ينقض أساس الإيمان* «**والمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ**» يعنى ما أخذه الله من العهود على عباده بالقيام بحدوده، والعمل بطاعته. وقيل: أراد بالعهد ما يجعله الإنسان على نفسه ابتداء من نذر

وغيـره، وقيل: العهد الذي كان بينه و بين النَّاس، مثل الوفاء بالمواعيد، وأداء الأمانات (الخازن جـ ١ ص ١٠٦)* ومثل العهود العقود، فيجب علينا الوفاء بها ما لم تكن مخالفة لقواعد الدين العامة، وفي الوفاء بالعهود والعقود حفظ كيان المجتمع من أن ينفرط عقده كما أن الغدر والاخلاف فيها هادم للنظام، مفسدٌ للعمران، فما من أمة فقدت الوفاء بالعهد (وهو ركن الأمانة وقوام الصدق) إلا حلَّ بها العقاب الإلٰهي، فانتزعت الثقة من بين أفرادها حتى بين الأهل والعيال، فيعيشون متخاذلين وكأنهم وحوش مفترسة، ينتظر كل واحد وثبة الآخر عليه، إذا أمكن يده أن تصل إليه، ومن ثمَّ يضطر أفرادها إلى الاستيثاق في عقودهم بكل ما يقدرون عليه، ويحترس كل منهم من غدر الآخر، فلا يكون هناك تعاون ولا تناصر، بل تباغُضٌ وتحاسد، ولا سيما بين الأقارب، ولو شمل الناس الوفاء لسلموا من هذا البلاء. **«إِذَا عَاهَدُوا»** يعني إذا وعدوا أنجزوا، وإذا نذروا أوفوا، وإذا حلفوا بروا في أيمانهم، وإذا قالوا صدقوا في أقوالهم، وإذا ائتمنوا أدوا **«والصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ»** أي في الشدة والفقر والفاقة **«والضَّراءِ»** أي المرض والزمانه **«وَحِينَ الْبَأْسِ»** يعني القتال والحرب في سبيل الله، وسمى الحرب بأساً لما فيه من الشدة، روى الشيخان عن البراء قال: كنَّا والله إذا احمرَّ البأس نتقي به وأن الشجاع منا الذي يحاذى به. يعني النبي صلى الله عليه وسلم. احمرَّ البأس: أي اشتد الحرب، ونتقي به: أي نجعله وقاية لنا من العدو. وخُصَّ هذه المواطن الثلاثة مع أن الصبر المحمود في جميع الأحوال، لأنَّ من صبر فيها كان في غيرها أصبر، فالفقر إذا اشتدّت وطأته ضاق الصدر، وكان يفضى إلى الكفر، والضُّرُّ إذا برَّح بالبدن أضعف الأخلاق والهمم، وفي الحرب التعرض للهلاك بخوض غمرات المنية، والظفر مقرون بالصبر، و بالصبر يحفظ الحق الذي يناضل صاحبه دونه، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن الفِرار من الزَّحف من أكبر الكبائر. و باتباع هذه الأوامر كانت الأمة الإسلامية أعظم أمة حربيّة في العالم، قوله: **«والصَّابرين»** نصب على المدح، أي ليس المراد أنّه يقدر عامل من مادة المدح بل المراد أنّه معمول لفعل محذوف كأخصُّ، أو أذكر هكذا صرَّحوا به. وعبارة أبي السعود: نصب على الاختصاص، ولم يدرج في سلك ما قبله بأن يقال: والصَّابرون تنبيهاً على فضيلة الصبر (ولفت النظر إليه، والتّفكر فيه وفي نتائجه) وهو في الحقيقة معطوف على ما قبله من حيث المعنى. قال أبوعلي: إذا ذُكرت صفات للمدح، أو للذم، وخولف

الأعـارب في بـعضها فذلك تفنُّنٌ، و يسمى قطعاً لأن تغيير المألوف يدل على زيادة ترغيب في اسـتـمـاع المـذكـور، ومزيد اهتمام بشأنه، وقد قُرىء والصَّابرون: كما قرىء والموفين* وعـبـارة الكرخى: ولم يعطف لمزيد شرف الصبر. قال الراغب: ولمَّا كان الصبر من وجه مـبـدأً للفضائل، ومن وجهٍ جامعاً للفضائل إذ لا فضيلة إلاَّ وللصبر فيها أثر بليغ غير إعرابه تـنـبيهاً على هـذا المـقـصود* وهذا كلام حسن. فالآية جامعة لمجامع الكمالات الإنسانية، وهـي صحة الاعتقاد، وحسن المعاشرة، وتهذيب النفس* **«أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا»** في دعـواهـم الإيمـان. دون الـذيـن قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم. قال الواقدى رحمه الله تـعـالى: إنَّ الواوات في هذه الأ وصاف تدل على أنَّ من شرائط البر استكمالها وجمعها، فمن قـام بواحد منها لا يستحق الوصف بالبّر، فلا ينبغى إذا اظلم إنساناً وأوفى بعهده أن يكون مـن جملـة من قام بالبر، وكذا الصابر في البأساء لا يكون قائماً بالبر إلا عند استجماع هذه الخـصـال. ولـذلـك قال بعضهم: هذه الصفات خاصة بالأنبياء لأنَّ غيرهم لا تجتمع فيه هـذه الأ وصـاف* وقـال آخرون: هي عامة في جميع المؤمنين* **«وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ»** أي وأولـئـك هـم الذين جعلوا بينهم و بين سخط الله وقاية بالبعد عن المعاصى التي توجب خذلان الله في الدنيا. وعذابه في الآخرة، وعبارة أبى السعود: **«وأولَئِكَ هُمُ المتَّقُونَ»** الله أي عـن الـكـفـر وسـائـر الـرذائـل. وتكرير الإشارة لزيادة تنو يه شأنهم. وتوسيط الضمير للإشارة إلى انحصار التقوى فيهم.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«يـا أيُّـهـا الَّـذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمَ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُـرُّ بالْحُـرِّ والْعَبْدُ بـالْـعَـبْـدِ والأنْثَى بالأنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ منْ أخِيهِ شيءٌ فَاتِّبَاعٌ بالْمَعْروف وَأدَاءٌ إلَيْهِ بإحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكم وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ ألِيمٌ * وَلَـكُـمْ فى الْـقِـصَـاصِ حَـيَـاةٌ يَـا أُولِـى الألْـبَـابِ لَـعَـلَّـكُـمْ تَـتَّـقُـون*»

سورة البقرة (آية: ١٧٨، ١٧٩)

في الـواحـدى : قـال الـشعبي : كان بين حيَّيْن من أحياء العرب قتال. وكان لأحد الحيين طـول على الآخر، فقالوا نقتل بالعبد منا الحر منكم، و بالمرأة الرجل فنزلت هذه الآية* قلت: وأخرج البخارى في كتاب التفسير: عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كـان في بنى إسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدية، فقال الله تعالى لهذه الأمة: **«كُتِبَ**

عَلَيْكُمَ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بالْحُرِّ والعَبْدُ بالعَبْدِ والأُنْثَى بالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شيءٌ» فالعفو أن يقبل الدِّية في العمد. فاتباع بالمعروف. وأداءٌ إليه بإحسان. يتبع بالمعروف و يؤدى بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة مما كُتب على من كان قبلكم فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم، قتل بعد قبول التوبة. هذا هو لفظ البخارى بعينه متناً وشرحاً، وهو من تفسير ابن عباس رضي الله عنهما. والحديث أخرجه البخارى أيضاً في الديات عن قتيبة، وأخرجه النسائى في التفسير عن عبدالجبار، وفي القصاص عن الحارث بن مسكين. قوله: «فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شيءٌ» معناه قبول الدية في العمد، وقيل فيمن قتل وله وليّان فعفا أحدهما، فللآخر أن يأخذ مقدار حقّيه من الدية. وقال الخطابى: العفو في الآية يحتاج إلى تفسير، وذلك أن ظاهر العفو يوجب أن لا تبعة لأحدهما على الآخر؛ فما معنى الاتباع والإعفاء؟ فمعناه أن من عُفِي عنه الدم بالديه فعلى صاحب الدية اتباع أي مطالبة بالدية، وعلى القاتل آداء الدية إليه. ومعنى كلام الزمخشرى في الكشّاف (جـ ١ ص ٣٣١) أن معنى أخوه هو وليُّ المقتول، وقيل له أخوه لأنه لابسه من قبل أنه ولى الدم، ومطالبه به. أو ذكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بذكر ما هو ثابت بينهما من الجنسية والإسلام. قوله: «شيءٌ» أي من العفو. إنما قيل ذلك للاشعار بأن بعض العفو عن الدم، أو عفو بعض الورثة يسقط القصاص، ولم يجب إلا الدية. قوله: «فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ» أي فليكن اتباع، أو فالأمر اتباع «ذَلِكَ» أي الحكم المذكور من العفو والدية لأن أهل التوراة كتب عليهم القصاص البتة، وحرم عليهم العفو وأخذ الدية، وعلى أهل الانجيل العفو وحرم القصاص والدية، خيرت هذه الأمة بين الثلاث القصاص والدية والعفو توسعة عليهم وتيسيراً «كَمَا كُتِبَ» على من كان قبلكم: هم أهل التوراة والإنجيل. قوله: «فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ» أي بعد التخفيف. وتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل، أو القتل بعد أخذ الدية. وهو معنى قوله: قُتل بعد قبول الدية. وهو على صيغة المعلوم من الماضى. وقيل: تفسيراً لقوله فمن اعتدى قوله: «فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ» نوع من العذاب شديد الألم في الآخرة. وفى القرطبي: بعد أن ذكر حديث البخارى قال: هو أن القاتل فرض عليه إذا أراد الوليُّ القتل الإستسلام لأمر الله والإنقياد لقصاصه المشروع. وأنَّ الوليَّ فرض عليه الوقوف عند قاتل وليّه، وترك التعدّى على غيره كما كانت العرب تتعدى فتقتل غير القاتل وهو معنى قوله

عليه الصلاة والسلام: [إنَّ من اعتى الناس على الله يوم القيامة ثلاثة: رجل قتل غير قاتله، ورجل قتل في الحرم، ورجل أُخذ بذحُول الجاهليّة] الذَّحْل بفتح السكون. قيل: العداوة والحقد. وقيل: الثأر وطلب المكافأة بجناية جنيت عليه من قتل أو جرح ونحو ذلك* وفي القرطبي: قال الشعبي وقتادة وغيرهما: إنَّ أهل الجاهلية كان فيهم بغيٌ، وطاعة للشيطان، فكان الحيُّ إذا كان فيه عزٌّ ومنعة فقُتل لهم عبد، قتله عبد قومٍ آخرين، قالوا لا نقتل به إلا حراً، وإذا قُتل منهم امرأة، قالوا لا نقتل بها إلا رجلاً، وإذا قُتل لهم رضيع قالوا لا نقتل به إلا شريفاً، و يقولون: (القتلُ أوْقَى للقتل) ــ بالواو والقاف، و يروى (أبْقى) بالباء والقاف، و يروى (أنفى) بالنون والفاء ــ فنهاهم الله عن البغي فقال: «**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ ...**» الآية. وقال: «**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**» و بين الكلامين في الفصاحة والجزل بونٌ عظيم* أي أعلمهم الله تعالى أن الذي فرض لهم من القصاص أن يقتلوا بالرجل الرجل القاتل دون غيره، و بالأنثى الأنثى القاتلة دون غيرها من الرجال، و بالعبد العبد القاتل دون غيره من الأحرار. فنهاهم أن يتعدُّوا القاتل إلى غيره في القصاص. وهو قول الشعبي كما في الطبرى (جـ ٢ ص ٦٠) نزلت في قبيلتين من قبائل العرب اقتتلتا قتال عمِّية فقالوا: نقتلُ بعبدنا فلان بن فلان، و بفلانة فلان بن فلان فأنزل الله «**الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى**» وفي الطبرى عن السدى قوله «**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى**» قال: اقتتل أهل ملَّتين من العرب أحدهما مسلم والآخر معاهد في بعض ما يكون بيْن العرب من الأمر فأصلح بينهم النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كانوا قتلوا الأحرار والعبيد والنساء على أن يؤدى الحر دية الحر، والعبد دية العبد، والأنثى دية الأنثى فقاصّهم بعضهم من بعض فنزلت الآية* وعن السدى عن أبى مالك قال: كان بين حيين من الأنصار قتال كان لأحدهما على الآخر الطول، فكأنهم طلبوا الفضل، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم ليصلح بينهم فنزلت الآية «**الْحُرُّ بِالْحُرِّ..**» الآية فجعل النبي صلى الله عليه وسلم الحر بالحر والعبد بالعبد، والأنثى بالأنثى* وقد لا يكون الأمر بعيداً أن تكرر نزول الآية بعدد أسباب النزول التي تحدَّثت عنها هذه الروايات. ولا يخفى أنَّ ما في الصحيح أصح. وهى الراجحة وما عداها مرجوحة قطعاً* وفي الطبرى (جـ ٢ ص ٦١) عن ابن أبي جعفر عن أبيه عن

الربيع قوله: «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمَ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى**» الآية. قال: حدَّثنا عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنَّه كان يقول: أيُّمَا حر قتل عبداً فهو قود به، فإن شاء مولى العبد أن يقتلوا الحر قتلوه وقاصُّوهم بثمن العبد من دية الحر، وأدُّوا إلى أولياء الحر بقية ديته، وإن عبد قتل حراً فهوا به قود، فإن شاء أولياء الحر قتلوا العبد وقاصُّوهم بثمن العبد وأخذوا بقية دية الحر، وإن شاؤا أخذوا الدية كلها، واستحيوا العبد، وأي حر قتل امرأة فهو بها قود، فإن شاء أولياء المرأة قتلوه وأدوا نصف الدية إلى أولياء الحر، وإن امرأة قتلت حراً فهي به قود، فإن شاء أولياء الحر قتلوها وأخذوا نصف الدية، وإن شاؤا أخذوا الدية كلها، واستحيوها وإن شاؤا عفوا* وعن الحسن أن علياً قال في رجل قتل امرأته: قال: إن شاؤا قتلوه وغرموا نصف الدية* وعن الحسن قال: لا يقتل الرجل بالمرأة حتى يعطوا نصف الدية* وعن ابن عباس قوله «**والأُنْثَى بالأُنْثَى**» وذلك أنهم كانوا لا يقتلون الرجل بالمرأة ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة، فأنزل الله تعالى «**النّفْسُ بالنَّفْسِ**» فجعل الأحرار في القصاص سواء فيا بينهم في العمد رجالهم ونساؤهم في النفس وما دون النفس، وجعل العبيد مستوين فيا بينهم في العمد في النفس، وما دون النَّفس رجالهم ونساؤهم* قلتُ: وأخرج البخارى في كتاب التفسير عن أنس أن الرُّبَيِّع عمته كسرت ثنية جارية فطلبوا إليها العفوا فأبوا فعرضوا الأَرْشَ فأبوا فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوا إلاَّ القصاص. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصاص، فقال أنس بن النضر: يا رسول الله أتكسر ثنية الرُّبَيِّع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أنس كتابُ الله القصاص فرضى القوم فعفوا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ من عباد الله مَنْ لو أقسم على الله لأ بَرَّهُ* الرُّبيع بضم الراء مصغر الربيع ضد الخريف. وهي بنت النضر: عمَّه أنس. والجارية الشابة. وأنس بن النَّضر. بفتح النون وسكون الضاد المعجمة هو أخو الربيع، قوله: [لأ بره] أي جَعله باراً في قسمه، وفعل ما أراده. قيل: كيف يصح القصاص في الكسر وهو غير مضبوط؟ وأجيب بأن المراد بالكسر القلع أو كان كسراً مضبوطاً* قلتُ: في الجواب نظرٌ، والصواب أن يقال أراد بالكسر الكسر الذي يمكن فيه المماثلة. والله أعلم* وفي الخازن (جـ ١ ص ١٠٦) بعض الإيضاح لما تقدَّم ذكره «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمَ الْقِصَاصُ فِى الْقَتْلَى**» قال: نزلت في حيَّيْن من أحياء

العرب اقتتلوا في الجاهلية بسبب قتيل، فكانت بينهم قتلى وحروب وجراحات كثيرة، ولم يأخذ بعضهم من بعض حتى جاء الإسلام. وقيل: نزلت في الأوس والخزرج، وكان لأحد الحيين طول على الآخر في الكثرة والشرف، وكانوا ينكحون نساءهم بغير مهر، وأقسموا لنقتلنَّ بالعبد منا الحر منهم، و بالمرأة منا الرجل منهم، و بالرجل منا الرجلين، وجعلوا جراحاتهم ضعفي جراحات أولئك، فرفعوا أمرهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله هذه الآية، وأمره بالمساواة فرضوا وسلّموا. وقيل: إنما نزلت هذه الآية لإزالة الأحكام التي كانت قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك أن اليهود كانوا يوجبون القتل فقط بلا عفو، والنصارى يوجبون العفو بلا قتل، والعرب في الجاهلية كانو يوجبون القتل تارة، و يوجبون أخذ الدية تارة، وكانوا يتعدون في الحكمين، فإن وقع القتل على الشريف قتلوا به عدداً، و يأخذون دية الشريف أضعاف دية الخسيس، فلما بُعثَ محمد صلى الله عليه وسلم أوجب الله رعاية العدل، وسوى بين عباده في حكم القصاص. فأنزل الله تعالى: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمَ الْقِصَاصُ**» أي فرض عليكم القصاص في القتلى. وقال الخازن: فإن قُلتَ: كيف يكون القصاص فرضاً، والوليُّ مخير فيه بين العفو والقصاص وأخذ الدية؟ قُلتُ: إن القصاص فرض على القاتل للولى لا على الولى. وقيل: إذا أردتم القصاص فقد فرض عليكم. والقصاص: المساوة والمماثلة في القتل والدية والجراح. من قصّ الأثر: إذا اتَّبعه، فالمفعول به يتبع ما فعل فيفعل به مثل ذلك، فلو قتل رجل رجلاً بعصاً، أو خنقَه، أو شدخَ رأسه بحجر فمات فيُقتل القاتلُ بمثل الذي قُتل به، وهو قول مالك والشافعى، وإحدى الروايتين عن أحمد، وقيل يُقتل بالسيف، وهو قول أبي حنيفة والرواية الثانية عن أحمد. ومن العجيب أنى رأيت في الكشّاف للزمخشرى (جـ١ ص ٣٣١) قولاً له وهو قال محمود — أي ابن عمر الزمخشرى — : مذهب مالك والشافعى رضي الله عنهما أنَّ الحر لا يقتل بالعبد، والذكر لا يقتل بالأنثى...الخ. قال أحمد الاسكندري (في كتابه الإنصاف فيما تضمَّنه الكشاف): وهذا من الزمخشرى وهم على الإمامين فإنها يقتصان من الذكر للأنثى بلا خلاف عنهما. وأما الحر والعبد عندهما. فهو الذى وهم الزمخشرى عنهما. قُلتُ: وفي الخازن (جـ١ ص ١٠٦) في «**الْحُرُّ بالْحُرِّ والْعَبْدُ بالْعَبْدِ والأُنْثَى بالأُنْثَى**» ومعناه أنّه إذا تكافأ الدمان من الأحرار المسلمين، أو العبيد من المسلمين، أو الأحرار من المعاهدين، أو العبيد منهم،

فيقتل كل صنف إذا قتل بمثله الذكر بالذكر والأنثى بالأنثى و بالذكر، ولا يقتل مؤمن بكافر، ولا حر بعبد، ولا والدٌ بولد، و يقتل الذميُّ بالمسلم والعبد بالحر والولد بالوالد. قال هذا مذهب مالك والشافعي وأحمد. و يدلُّ عليه ما روى البخارى في صحيحه عن أبي جحيفة قال: سألت علياً: هل عندكم من النبي صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن؟ قال: لا. والذي فلق الحبة و برأ النسمة إلاَّ أن يؤتى الله عبداً فهْماً في القرآن. وما في هذه الصَّحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفك الأسير، وأن لا يقتل مؤمن بكافر* وقد أخرج مسلم عن على نحو هذا من غير رواية أبى جحيفة. العقل هنا هو الدية، والعاقلة: الجماعة من أولياء القاتل الذين يعقلون* عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [لا تقام الحدود في المساجد ولا يقتل الوالد بالولد] أخرجه الترمذى* وذهب أصحاب الرأى إلى أن المسلم يقتل بالذميّ، والحر بالعبد. وهذه الآية مع الأحاديث حجَّة لمذهب الشافعي ومن وافقه، و يقولون: هي مفسرة لما أبهم في قوله: «**النَّفس بالنَّفس..**» وأن تلك واردة لحكاية ما كتب على بنى إسرائيل في التوراة، وهذه الآية خطاب للمسلمين بما كتب عليهم* وذهب أصحاب الرأى إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله «**النفس بالنَّفس**» وتقتل الجماعة بالواحد، و يدل عليه ما روى البخارى في صحيحه عن ابن عمر أن غلاماً قُتِلَ غِيلةً، فقال عمر: لو اشترك فيه أهل صنعاء لقتلتهم به* قال البخاري: وقال مغيرة بن حكيم عن أبيه: أن أربعة قتلوا صبياً فقال عمر مثله. وروى مالك في الموطأ عن ابن المسيَّب أن عمر قتل نفراً خمسة أو سبعة برجل واحد قتلوه غيلة، وقال: لوتمَالأ عليه أهلُ صنعاء لقتلتهم جميعاً* الغيلة: أن يقتل الرجل خديعة ومكراً من غير أن يعلم ما يراد به — وقوله: (لوْتمالأ) أي تعاونوا واجتمعوا عليه* والخلاصة أن القصاص على القاتل أيًا كان لا على أحدٍ من قبيلته، ولا فرد من أفراد عشيرته، وقد جرى العمل من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتل الرجل بالمرأة، والحر بالعبد، إذا لم يكن سيده، فإن كان هوعُزّر بشدّة تمنع أمثاله هذا الاعتداء، ولا يقتل الوالد بولده لأن المقصد من القصاص ردع الجانى عن الإستمرار في مثل هذ الجناية. والوالد بفطرته مجبول على الشفقة على ولده حتى ليبذل ماله وروحه في سبيله، وقلّما يقسوا عليه، ولكن كثيراً ما يقسُوا الولد على والده، وللحاكم أن يعزّر قاتلَ ولده بما يراه زاجراً لأمثاله، ومربياً لهم* كذا ذكره المراغى في تفسيره (جـ ٢

ص ٦٢) وهو مخالف لما عليه الجمهور. وما ذكره المراغي هو مذهب الكوفيين والثورى وأبى حنيفة وغيرهم. ففي القرطبى تحت تنبيهات:

أولاها : أن القصاص موكل إلى أولى الأمر لأن الله تعالى خاطب جميع الأفراد المؤمنين بالقصاص، واجتماعهم على إقامته محال، وبما أنهم أنابُوا السلطان عنهم في إقامة الحدود، فهو الذي يتولى تنفيذه إذا لم يكن دية أو عفو من الأ ولياء.

ثانيتها : ذهب الكوفيُّون والثورى على أن الحرَّ يقتل بالعبد، والمسلم بالذمىّ. وذهب أبوحنيفة وأصحابه والثورى وابن أبى ليلى على أن الحرَّ يقتل بالعبد كما يقتل العبد به. وهو قول داود، وروى ذلك عن على، وابن مسعود رضي الله عنهما. و به قال سعيد بن المسيِّب، وقتادة وإبراهيم النخعى والحكم بن عُيينه. والجمهور من العلماء لا يقتلون الحر بالعبد للتوسيع والتقسيم في الآية. فأفاد كلام القرطبى هذا أنَّه لا مساواة بين الحر والعبد.

ثالثتها : لا يُقتل مسلم بكافر لقوله عليه الصلاة والسلام: [لا يُقتل مسلمٌ بكافرٍ] أخرجه البخارى عن على بن أبى طالب* وأما حديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل يوم خيبر مسلماً بكافر، لا صحة له فهو منقطع وضعيف والصحيح ما ذكره البخارى [لا يُقتلُ مسلمٌ بكافرٍ] إذ هو يخصص عموم قوله تعالى: «**كتب عليكُمُ الْقِصاصَ في الْقَتْلَى**» الآية. وعموم قوله «**النَّفْس بالنّفْسِ**».

رابعتها : وأجمع العلماء على أن المرأة تقتل بالرجل، والرجل يقتل بالمرأة. والجمهور لا يرون الرجوع بشيء من الدية. وفرقة ترى الا تباع بفضل الدِّيات.

خامستها : اختلف أهل العلم في الرجل يقتل ابنه عمداً، فقالت: طائفة لا قود عليه، وعليه ديته، وهذا قول الشافعي وأحمد واسحاق وأصحاب الرأى، وروى ذلك عن عطاء ومجاهد* وقال مالك وابن نافع وابن عبدالحكم: يقتل به* وقال ابن المنذر: وبهذا نقول لظاهر الكتاب والسُّنة* وروى القرطبي عن مذهب مالك أنه إذا قتل الرجل ابنه متعمداً مثل أن يُضجعه و يذبحه أو يصبره ـــ صبر الإنسان وغيره: على القتل أي يحبس و يرمى حتى يموت ـــ مما لا عذر له فيه ولا شبهة في ادعاء الخطأ، أنه يقتل به قولاً واحداً. فأمَّا إن رماه بالسلاح أدباً، أو خنقاً فقتله. ففيه في المذاهب قولان: يُقتل به، ولا يُقتل به، وتُغلَّظ الدية، و به قال جماعة من العلماء، و يقتل الأجنبى بمثل هذا* وقال ابن العربى: سمعت شيخنا فخر الإسلام الشاشى يقول في النظر. لا يقتل الأب بابنه لأن

الأب كان سبب وجوده، فكيف يكون هو سبب عدمه؟ * قال القرطبي: وهذا يبطل بما إذا زنى بابنته فإنه يُرجم، وكان سبب وجودها، وتكون هي سبب عدمه * وقال: وقد أثروا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لا يُقاد الوالد بولده]. وهو حديث باطل.. وكان مالك والشافعي وأحمد وإسحاق يقولون: إذا قتل الإبن الأب قُتل به، وهو الحق لأن قتل الوالد من أشد العقوبات الذي نهى الله عنه، عدا ما فيه من قطيعة رحم، وعظيم جرم.

سادسها : تقتل الجماعة بالواحد، وتقدَّم فعل عمر لذلك ـــ وقتل عليّ رضى الله عنه الحرورية ـــ أي طائفة من الخوارج نُسِبوا إلى حروراء موضع قريب من الكوفة ـــ قتلهم بعبدالله بن خبَّاب. فإنه توقف عن قتالهم حتى يُحدثوا، فلمَّا ذبحوا عبدالله بن خباب كما تُذبح الشاة، وأخبر عليٌّ بذلك قال: الله أكبر، نادوهم أن أخرجوا إلينا قاتل عبدالله بن خباب. فقالوا: كُلُّنا قتله ثلاث مرات. فقال على لأصحابه: دونكم القوم. فما لبث أن قتلهم عليٌّ وأصحابه * وهذا الواجب اتباعه لأنه لو لم تقتل الجماعة بالواحد لتعاون الأعداء على قتل أعدائهم بالاشتراك في قتلهم الواحد بعد الواحد، وفى هذا ظلمُ عظيم وفسادٌ كبير.

و بعد أن ذكر الله تعالى وجوب القصاص وهو أساس العدل، ذكر بعده العفو، وهو مقتضى التراحم قال: «**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شيءٌ**» أي ترك له وصفح عنه من الواجب عليه وهو القصاص في قتل العمد ورضى بالدية أو العفو عنها، أو قبول الدية في قتل العمد «**منْ أخيه**» أي من دم أخيه. وأراد بالأخ ولى المقتول، وإنما قيل له أخ لأنه لا بَسَهُ من قبل أنه وليُّ الدم، والمطالب به. وقيل: إنما ذكره بلفظ الأخوة ليعطف أحدهما على صاحبه بما هو ثابت بينهما من الجنسية وأخوة الإسلام. وفي قوله «**شيءٌ**» دليل على أن بعض الأولياء إذا عفا سقط القود، وثبتت الدية لأن شيئاً من الدم قد بطل. «**فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ**» أي فليتبع الولى القاتل بالمعروف فلا يأخذ أكثر من حقه، ولا يعنفه، وترتيب الاتباع على العفو يفيد أن الواجب أحدهما، وهو أحد قولى الشافعى. والثاني: الواجب القصاص، والدية بدل عنه، فلو عفا ولم يسمها فلا شيء ورجّح أي الثاني بأنه الذي عليه الأكثرون. وصححه الشيخان وهو المعتمد «**وَ**» على القاتل «**أَدَاءٌ**» للدية «**إِلَيْهِ**» أي العافى وهو الوارث «**بِإِحْسَانٍ**» بلا مطل ولا بخس أي لا يؤخر الدفع، أو

الوعد به ولا ينقص من الدية شيئاً* وفي الآية دليل على أن القاتل لا يصير كافراً، وأن الفاسق مؤمن. قال الخازن في تفسيره (جـ ١ ص ١٠٧) ذلك من وجوه:

الوجه الأول : أن الله تعالى خاطبه بعد القتل بالإيمان وسمّاه مؤمناً بقوله: «**يا أيُّها الَّـذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمَ الْقِصَاصُ**» فسمّاه مؤمناً حال ما وجب عليه من القصاص، وإنما وجب عليه بعد صدور القتل منه، وقتل العمد والعدوان من الكبائر بالإجماع فدل على أن صاحب الكبيرة مؤمن.

الوجه الثاني : أنَّه تعالى أثبت الأخوة بين القاتل وولى الدم بقوله: «**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شيءٌ**» وأراد بالأخوة أخوة الإيمان، فلولا أن الإيمان باق على القاتل لم تثبت له الأخوة.

الوجه الثالث : أنّه تعالى ندب إلى العفوعن القاتل، والعفولا يليق إلا عن المؤمن لا عن الكافر.

وقوله تعالى: «**ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكم وَرَحْمَةٌ**» يعني الذي ذكر من الحكم بشرع القصاص، والعفوعن القصاص، وأخذ الدية تخفيف من ربكم، يعني في حقِّكم ورحمة، وذلك لأن العفو، وأخذ الدية كان حراماً على اليهود، وكان القصاص حتماً في التوراة، وكان في شرع النَّصارى أخذ الدية، ولم يكتب عليهم القصاص، وقيل: كان عليهم العفو دون القصاص، وأخذ الدية، فخيرَّ الله هذه الأمة بين القصاص أو العفو وأخذ الدية توسعة عليهم وتيسيراً وتفضيلاً لهم على غيرهم. «**فَمَنِ اعْتَدَ بَعْدَ ذلِكَ**» يعني بعد هذا التخفيف فقتل الجاني بعد العفو، أو قبول الدية «**فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ**» وهو أن يقتل قصاصاً، ولا تقبل منه دية، ولا يعفى عنه، وقيل المراد بالعذاب الأليم عذاب الآخرة* في (غرائب القرآن) كان الوليُّ في الجاهلية يؤمِّن القاتل بقبول الدية، ثم يظفر به فيقتله، وعن قتادة قال: العذاب الأليم أن يقتل لا محالة، ولا يقبل منه الدية كما روى أنَّه صلى الله عليه وسلم قال: [لا أعافى أحداً قتل بعد أخذه الدية]* وهومذهب الحسن وسعيد بن جبير، وضعفه غيرهم* ولمَّا كانت الآية مشتملة على إيلام العبد الضعيف، وأنَّه لا يليق بكمال رحمته عقبها بقوله «**وَلَكُمْ فى القِصَاصِ حيَاةٌ**» قال المفسرون: القصاص إزالة الحياة، وإزالة الشيء لا تكون نفس ذلك الشيء، فالمراد لكم في شرع القصاص حياة. وأيُّ حياة؟ وذلك أنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة، وكم قتل مهلهل بأخيه كليب

حتى كاد يفنى بكر بن وائل، وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة. ويحتمل أن يقال نفس القصاص سبب لنوع من الحياة، وهي الحاصلة بالارتداع عن القتل لأن القاتل إذا قيد منه ارتدع من كان يهمُّ بالقتل فلم يقتُل ولم يُقْتل. فكان القصاص سبب حياة نفسين. وقرأ أبوالجوزاء ولكم في القَصَصِ حياةٌ أي فيما قُصَّ عليكم من حكم القتل والقصاص. وقيل: القصص القرآن. أي لكم في القرآن حياة للقلوب* هذا: وقد اتفق علماء البيان على أن قوله سبحانه: «**وَلَكُمْ فِى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ**» بلغ في الإيجاز نهاية الإعجاز. وذلك أن العرب عبَّروا عن هذا المعنى بألفاظ كثيرة كقولهم: قتل البعض إحياء للجميع، وأكثروا القتل ليقلَّ القتل، وأوجز ذلك قولهم: القتل أنفى للقتل* والترجيح مع ذلك للآية من وجوه:

الأول : أن قولهم لا يصح على العموم لأن القتل ظلماً ليس أنفى للقتل قصاصاً، بل أدعى له. ولو خُصص فقيل القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً طال. والآية تفيد هذا المعنى من غير تقدير وتكلف.

الثاني : أن القتل قصاصاً لا ينفي القتل ظلماً حيث أنه قتل، بل من حيث أنَّه قصاص، وهذه الحيثية معتبرة في الآية لا في كلامهم.

الثالث : أن الحياة هي الغرض الأصلي، ونفي القتل إنما يراد لحصول الحياة، فالتنصيص على المقصود الأصلي أولى.

الرابع : التكرار من غير ضرورة مستهجن وأنه في كلامهم لا في الآية.

الخامس : أن الحروف الملفوظة التي يعتمد عليها في اعتبار الوجازة لا المكتوبة. هي في الآية عشرة وفي كلامهم أربعة عشر.

السادس : أنَّ الأغلب في كلامهم أسباب خفاف، وذلك مما يخل بسلامة التركيب. والآية مع غاية وجازتها فيها السبب والوتد والفاصلة.

السابع : ظاهر قولهم يقتضي كون الشيء سبباً لانتفاء نفسه وهو محال. وفي الآية جعل نوع من القتل وهو القصاص سبباً لنوع من الحياة، ولا استبعاد فيه لظهور التغاير.

الثامن : المطابقة مرعية في الآية لمكان التضاد بين لفظي القصاص وحياة. بخلاف كلامهم.

التاسع : اشتمال الآية على لفظ يصلح للتفاؤل وهوالحياة بخلاف كلامهم، فإنه

يشتمل على نفي اكتنفه قتلان وأنه لكما يليق بهم.

العاشر: اشتمال الآية على اسمين وأداة، واشتمال كلامهم على ثلاثة أسماء وأداة، وإن اعتبرت أداة التعريف في الآية واحدة، وفي كلامهم ثنتان، وإن اعتبر التنوين في الآية تقاصت الأدوات وتبقى زيادة الأسماء بحالها على أنّ أفعل التفضيل إذا لم يكن فيه اللام والإضافة يستعمل بمن فتقدير كلامهم القتل أنفى للقتل من كل شيء فأين الجواز؟.

«يَا أُولِي الأَلْبَابِ» يا ذوى العقول، وأولوا جمع لا واحد له من لفظه، وواحده ذو بمعنى صاحب، وأولات للإناث واحدتها ذات بمعنى صاحبة قال تعالى: **«وأُولاَتِ الأحمَالِ»** واللب العقل، ولبّ النخلة قلبها. وخالص كل شيء لبه، خاطب العقلاء الذين يتفكّرون في العواقب و يعرفون جهات الخوف فلا يرضون باتلاف أنفسهم لا تلاف غيرهم، إلا في سبيل الله **«لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون»** يتعلق بمحذوف أي أريتكم ما في القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس لتكونوا على بصيرة في إقامته راجين أن تعملوا عمل أهل التقوى في الحكم به، وهو خطاب له فضل اختصاص بالأئمة* أو لعلكم تتقون نفس القتل لخوف القصاص. قاله الحسن والأصم* والسؤال هنا: إذا صحّ أن المقتول إن لم يقتل فهو يموت لأن المقدر من عمره ذلك القدر، وكذا إذا همّ إنسان بقتل آخر فارتدع خوفاً من القصاص فإن ذلك الآخر يموتُ وإن لم يقتله ذلك الإنسان، لأن كل وقت صحَّ وقوع قتله صحّ وقوع موته فكيف يفيد شرع القصاص حياة؟ والجواب أنّه تعالى قد جعل لكل شيء سبباً يدور مسببه معه وجوداً وعدماً. وشرعية القصاص مما جعلها الله تعالى سبباً لحياة من أراد حياته بعد أن تصور الهامُّ قتله، وذلك بأن تذكر القصاص فارتدع عما هم به، ففائدة شرع القصاص هي فائدة سائر الأسباب والوسائط ومنكر فائدته منكر فائدتها، وكلا الانكارين مذموم، وصاحبها عند العقلاء مذموم.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى:

«أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيامِ الرَّفَثُ إلى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُم وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا واشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيامَ إلَى اللَّيْلِ ولاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي

الـمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ»
سورة البقرة (آية: ١٨٧)

جاء في أسباب النزول للواحدى: قال ابن عباس في رواية الوالبي. وذلك أن المسليمن كانوا في شهر رمضان إذا صلُّوا العشاء حُرّم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة، ثم أنَّ ناساً من المسلمين أصابُوا من الطعام والنّساء في شهر رمضان بعد العشاء منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية* وعن البراء بن عازب قال: كان المسلمون إذا أفطروا يأكلون و يشربون ويمسُّون النساء ما لم ينامُوا، فإذا نامُوا لم يفعلوا شيئاً من ذلك إلى مثلها، وأن قيْس بن حرمة الأنصارى كان صائماً، فأتى أهله عند الافطار، فانطلقت امرأته تطْلُب شيئاً وغلبته عيناه فنام، فلما انتصف النهار من غدٍ غشى عليه، قال: وأتى عمر امرأته وقد نامت فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت: «**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلى نِسَائِكُمْ**» إلى قوله: «**الْفَجْرِ**» ففرح المسلمون بذلك* وعن البراء قال: كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إذا كان الرجل صائماً، فحضر الإفطار فنام قبل أن يطعم لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسى، وإن قيْس بن حرمه الأنصارى كان صائماً، فلما حضر الافطار أتى امرأته فقال: هل عندك طعام؟ قالت: لا، ولكن أنطلق فأطلب لك، وكان يومه يعمل فغلبته عيناه، وجاءته امرأته، فلما رأته قالت: خيبة لك، فأصبح صائماً، فلمّا انتصف النهار غشي عليه، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية: «**أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلى نِسَائِكُمْ**» ففرحوا بها فرحاً شديداً. رواه البخارى عن عبدالله بن موسى عن اسرائيل* وفي النّسَفى أخذاً من الخازن (جـ١ ص ١١٥) أنه كان في ابتداء الأمر بالصوم إذا أفطر الرجل حُلَّ له الطعام والشراب والجماع إلى أن يصلى العشاء الأخيرة، أو يرقد قبلها، فإذا صلى أو رقد حرم عليه ذلك كله إلى الليلة القابلة، ثم إن عمر بن الخطاب واقع أهله بعد ما صلى العشاء، فلما اغتسل أخذ يبكى و يلوم نفسه، ثم أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال يارسول الله: أعتذر إلى الله وإليك من هذه الخطيئة، إنى رجَعْتُ إلى أهلى بعد ما صلَّيْتُ العشاء فوجدتُ رائحة طيِّبة، فسوَّلت لى نفسى فجامعت أهلى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما كنت بذلك جديراً ياعمر، فقام رجالٌ فاعترفوا بذلك فنزل في عمر وأصحابه: «**أُحِلَّ لَكُمْ**» أي أبيح لكم ليلة. أراد بالليلة ليالى الصيام الرفث إلى

نسائكم الرفث كلام يستقبح لفظه، من ذكر الجماع ودواعيه، وهو هنا كناية عن الجماع* قال ابن عباس: إنَّ الله تعالى حي كريم يكنّي، فما ذكره من المباشرة والملامسة وغير ذلك إنما هو الجماع* أي لأنه لا يكاد يخلوا من الرفث، وهو الإفصاح بما يجب أن يكون عنه كلفظ الوطء، وعُدّىَ بإلى لتضمنه معنى الافضاء، وكنّىَ عن الجماع هنا بلفظ الرفث الدال على معنى القبح بخلاف قوله: «**وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَىَ بَعْضٍ**» استهجاناً لما وجد منهم قبل الإباحة، ولذلك سماه فيما يأتى خيانة «**هُنَّ لِبَاسٌ**» تعليل لما قبله* وعبارة السمين: لا محل له من الإعراب لأنه بيان للاحلال، فهو استئناف وتفسير. وقدم هنَّ لباسٌ لكم على وأنتم لباسٌ لهنَّ تنبيهاً على ظهور احتياج الرجل للمرأة، وعدم صبره عنها، ولأنه هو البادى بطلب ذلك. وكنى باللباس عن شدّة المخالطة* أي هن سكن «**لَكُمْ وأَنْتُمْ لِبَاسٌ**» سَكَنٌ « **لَهُنَّ**» أي كما قال تعالى: «**وجَعَلَ مِنْهَا زوْجَهَا لِيَسْكُنَ إلَيْهَا**» أي شبّه كل واحد من الزوجين للآخر بالسكن، لاشتماله على صاحبه في العناق والضمِّ باللباس المشتمل على لابسه. أي كالفراش واللحاف* وحاصله أنّه تمثيل لصعوبة اجتنابهنَّ وشدّة ملابستهن، أو لستر أحدهما الآخر عن الفجور، وكما قيل: لا يسكن شيء إلى شيء كسكون أحد الزوجين إلى الآخر* «**عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ**» بالجماع ليلة الصيام ... هذا في المعنى هو سبب النزول. قال ابن عباس: يريد فيما ائتمنكم عليه، وخيانتُهم أنهم كانوا يباشرون في ليالى الصيام* والمعنى يظلمونها بالمجامعة بعد العشاء، وهو من الخيانة، وأصل الخيانة أن يؤتمن الرجل على شيء فلا يؤدى فيه الأمانة. و يقال للعاصي خائن لأنه مؤتمن على دينه «**فَتَابَ عَلَيْكُم**» أي فتبتم فتاب عليكم، وتجاوز عنكم، لأنه معطوف على محذوف أي فتبتم فتاب...الخ. «**وَعَفَا عَنكُمْ**» أي محا ذنوبكم* روى البخارى عن البراء قال: لمَّا نزل صوم رمضان كانُوا لا يقربونَ النساء رمضان كُلَّه، فكان رجالٌ يخونون أنفسهم، فأنزل الله «**عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُم...**» الآية. قال ابن عباس: فكان ذلك ممَّا نفع الله به النَّاس، ورخَّص لهم و يسر* «**فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ**» أي جامعوهن، فهو حلال لكم في ليالى الصيام، وسميت المجامعة مباشرة لتلاصق بشرة كل واحدٍ بصاحبه. والتّقدير: فالآن باشروهن أي فالوقت الذي كان يحرم عليكم فيه الجماع من الليل أبحتُ لكم المباشرة فيه «**وَابْتَغُوا**» أي اطلبوا «**مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ**»* في الخطيب: أي ما قسم

لكم وثبت في اللوح المحفوظ من الولد بالمباشرة. أي لا تباشروا لقضاء الشهوة وحدها، ولكن لابتغاء ما وضع الله له النكاح من التناسل، أو قصد العفة كما جاء في الخبر (من تزوّج فقد أحرز ثلثي دينه)* وقال مجاهد: ابتغوا الولد فإن لم تلد هذه فهذه* وقال مقاتل: وابتغوا الرُّخصة التي كتب الله لكم بإباحة الأكل والشرب والجماع في اللوح المحفوظ. وقيل: وابتغوا المحلّ الذي كتب الله لكم، وحلّله دون ما لم يكتب لكم من المحل المحرّم* وقيل: هو نهي عن العزل لأنه في الحرائر* وفي الخازن: وقيل: اطلبوا ليلة القدر* **«وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ»** في الخطيب: والخازن وغيرهما أنها نزلت في رجل من الأنصار. قال عكرمة: اسمه أبوقيس، وذلك ظَلَّ نهاره يعمل في أرض وهو صائم، فلمَّا أمسى رجع إلى أهله بتمر، فقال لامرأته: قدمي الطعام، وأرادت المرأة أن تطعمه شيئاً سخناً، فأخذت تعمل له في شيء وكان في ابتداء الإسلام، من صلى العشاء، أو نام قبلها حرم عليه الطعام والشراب. فلما فرغت من طعامه إذ هو قد نام، وكان قد أعيا وكلّ فأيْقَظته، فكره أن يعصى الله ورسوله، وأبى أن يأكل، فأصبح صائماً مجهوداً، فلم ينتصف النهار حتى غشي عليه، فلما أفاق أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رآه قال: يا أبا قيس. مالك أمْسيتَ طليحاً، فذكر له حاله، فاغتم لذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية* قال الخطيب: وقد شبّه سبحانه وتعالى أوّل ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق، وما يمتد معه من غبش الليل بخيطين (أبيض وأسود) واكتفى ببيان الخيط الأبيض بقوله « **مِنَ الْفَجْرِ**» عن بيان الخيط الأسود لدلالته عليه* ومعنى الآية: وكلوا واشربوا في ليالى الصوم حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود بياض النهار من سواد الليل. وسميا خيطين لأن كل واحد منها يبدو في الأفق ممتداً كالخيط قال الشاعر:

فلمَّا أضاءَت لنا سُدْفَةٌ ولاَحَ مِنَ الصُّبْحِ خَيْطٌ أَنَارا

السدف: اختلاط الظلام. وسدف الفجر: أضاء* روى الشيخان عن سهل بن سعد قال: لمَّا نزلت: **«وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ»** ولم ينزل من الفجر، فكان رجال إذا أرادُوا الصوم ربط أحدهم في رجله الخيط الأبيض والخيط الأسود، ولا يزال يأكل حتى تتبيَّن له رؤيتها، فأنزل الله عز وجل بعده **«مِنَ الْفَجْرِ»** فَعَلِموا أنه إنما يعنى الليل والنهار* وأخرج البخاري عن الشعبي عن عدى

قال: أخذ عَدِيٌّ عقالاً أبيض وعقالاً أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا فلما أصبح قال: يا رسول الله جعلت تحت وسادتي عقالين، قال: إنَّ وِسَادَكَ إذاً لعريض أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك. وعديٌّ: هو عديُّ بن حاتم رضي الله عنه وفي رواية له قال: قلت يارسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود. أهما الخيطان؟ قال: إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين، ثم قال: بل هو سواد الليل و بياض النهار* «ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ» من الفجر «إِلَى اللَّيْلِ» أي دخوله بغروب الشمس كما روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إذا أقبل الليل من هٰهُنا وأدبر النهار من هٰهُنا وغربت الشمس فقد أفطر الصائم]* والأمر في أتموا للوجوب. وهو يتناول كل الصيام* أجاب أصحاب الشافعي عنه: بأن هذا إنما ورد في بيان أحكام صوم الفرض، فكان المراد منه صوم الفرض، و يدل على إباحة الفطر من النفل ما روى عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال: [هل عندكم شيء؟ قُلنا: لا، قال: فإني صائمٌ، ثم أتانا يوماً آخر، فقلت يارسول الله: أُهدى لنا حيسٌ. قال: أرينيه فلقد أصبحت صائماً، فأكل] أخرجه مسلم. الحيس: هو خلط الأقط والتمر والسمن. وقد يجعل عوض الأقط دقيق. وقيل: هو التمر ينزع نواه ويخلط بالسويق. والأول أعرف* «وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ» الاعتكاف هو الاقبال على الشيء والملازمة له على سبيل التعظيم. وهو في الشرع: عبارة عن الإقامة في المسجد على عبادة الله تعالى. وسبب نزول هذه الآية أنَّ نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يعتكفون في المسجد، فإذا عرض لرجل منهم حاجة إلى أهله خرج إليها وخلا بها، ثم اغتسل ورجع إلى المسجد فنهوا عن ذلك، حتى يفرغوا من اعتكافهم* واعلم أن الله تعالى بيَّن أن الجماع يحرم على الصائم بالنهار و يباح له في الليل، فكان يحتمل أن يكون حكم الإعتكاف كحكم الصوم فبين الله تعالى في هذه الآية أنَّ الجماع يحرم على المعتكف في النهار والليل حتى يخرج من اعتكافه. وسيأتيك بحث الاعتكاف إن شاء الله تعالى* «تِلْكَ حُدُودُ اللهِ» أي الأحكام المذكورة. وهي قوله تعالى: «فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ» إلى قوله: «في المساجد» وحدود الله ما حدَّها لعباده ليقفوا عندها* وقيل: حدود الله فرائض الله. وأصل الحد في اللُّغة: المنع. والحدُّ الحاجز بين الشَّيئين الذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر. وحدُّ الشيء الوصف المحيط بمعناه المميز

له عن غيره* وقيل معنى حدود الله: المقادير التي قدَّرها، ومنع من مخالفتها* «**فَلاَ تَقْرَبُوهَا**» نهى تعالى أن يقرب الحد: الحاجز بين الحق والباطل لئلا يُدانى الباطل فضلاً أن يُتخطّى عنه. ويجوز أن يراد بحدود الله محارمه ونواهيه* قال الخطيب: في تفسيره وعلى هذا فالنهى عن القربان ظاهر كما قال عليه الصلاة والسلام: [إن لكلّ مَلكٍ حمى، وإن حمى الله في أرضه محارمه، فمن رتع حول الحمى يوشك أن يقع فيه] رواه الشيخان* «**كَذَلِكَ**» أي كما بيَّن لكم ما ذكر «**يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**» أي لكى يتقوا مخالفة الأوامر والنواهى فينجوا من العذاب، (الخطيب والقرطبي والخازن) زاد القرطبي: قال ابن العربى: وهذا يدل على أنَّ سبب الآية جماع عمر رضي الله عنه لا جوع قيس لأنه لو كان السبب جوع قيس لقال: فالآن كلوا، ابتدأ به لأنه المهم الذي نزلت الآية لأجله* و يستفاد من قوله تعالى: «**وَكُلُوا واشْرَبُوا حتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ**» على أنه من أصبح جنباً فليغتسل، وليتم صومه ولا حرج عليه، وهذا مذهب الأئمة الأربعة، وجمهور العلماء سلفاً وخلفاً لما رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما أنهما قالتا: [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُصبحُ جنباً من غير احتلام، ثم يغتسل و يصوم]* وفي حديث أم سلمة عندها: [ثم لا يفطر، ولا يفضى] وفي حديث مسلم عن عائشة أن رجلاً قال يا رسول الله: تدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [وأنا تُدركني الصلاة وأنا جنب فأصوم] فقال: لست مثلنا يا رسول الله قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: [والله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتّقى] لكن في مسند الإمام أحمد وفي الصحيحين عن أبى هريرة عن الفضل بن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [إذا نودى للصلاة (صلاة الصبح) وأحدكم جنب فلا يصم يَوْمَئِذٍ] والأصح حمل الحديث هذا على نفى الكمال. أي لا صوم له كاملاً لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز، وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها.

((فصـــل في الاعتكاف))

الاعـتـكـاف سنة، ولا يجوز في غير المسجد، وذلك لأن المسجد يتميَّز عن سائر البقاع بـالـفـضـل لأنه بنى لإقامة الطاعات والعبادات فيه* ثم اختلفوا فنقل عن عليّ أنَّه لا يجوز إلاَّ في المسجد الحرام لقوله تعالى: «**وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**» فخصه به* وقال عطاء: لا يجوز إلاَّ في المسجد الحرام ومسجد المدينة* وقال حذيفة: يجوز في هـذيـن الـمـسـجـديـن، ومـسـجـد بـيـت* وقال الزهري: لا يصحُّ إلا في الجامع* وقال أبـوحـنـيـفـة: لا يجوز إلا في مسجد له إمام ومؤذنٌ* وقال الشافعيُّ ومالك وأحمد: يجوز في سائر المساجد لعموم قوله تعالى: «**وأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ**» إلا أن المسجد الجامع أفـضـل حتى لا يحتاج إلى الخروج من معتكفه لصلاة الجمعة* روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها: [أن الـنبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجلّ، ثم اعتكف أزواجه بعده].

((فـــــروع))

الفــــرع الأول : يجوز الإعـتـكـاف بـغير صـوم، والأفـضـل أن يـصوم معه، وقال أبـوحنيفة: الصوم شرط في الإعتكاف ولا يصح إلاَّ به، وقال الشافعيّ: يجوز الإعتكاف بـلا صـوم، وحـجَّـتـه ما روى عن ابن عمر قال: [يا رسول الله إنى نذرت في الجاهلية أن أعـتـكف ليلة في المسجد الحرام. قال: فأوف بنذرك] أخرجاه في الصحيحين، ومعلوم أنه لا يصح الصوم في الليل.

الـفــــرع الـثـاني : لا يُقَـدَّر لـلاعتكاف زمان عند الشافعيّ، وأقلّه لحظة، ولا حدَّ لأكـثـره، فـلـو نـذر اعـتـكـاف ساعه صحّ نذره، ولو نذر أن يعتكف مطلقاً يخرج من نذره بـاعـتـكـاف سـاعـة. قال الشافعي: وأحب أن يعتكف يوماً، وإنما قال ذلك للخروج من الخـلاف، فـإن أقـلَّ زمـن الاعتكاف عند مالك وأبى حنيفة يوم بشرط أن يدخل فيه قبل طلوع الفجر، ويخرج منه بعد غروب الشمس.

الفـــرع الثالث : الجماع حرام في حال الإعتكاف و يفسد به، وأما ما دون الجماع كالقبلة ونحوها فكروه ولا يفسد به عند أكثر العلماء، وهوأ ظهر قولى الشافعى، والثاني يبطل بـه، وهـو قـول مالك، وقيل إن أنزل بطل اعتكافه، وإن لم ينزل فلا، وهو قول أبى حنيفة،

وأما الملامسة بغير شهوة فجائز، ولا يفسد به الإعتكاف لما روى عن عائشة رضي الله عنها: [أنها كانت ترجّل النبي صلى الله عليه وسلم وهى حائض، وهو معتكف في المسجد وهى في حجرتها يناولها رأسه ــ زاد في رواية ــ وكان لا يدخل البيت إلاّ لحاجة إذا كان معتكفاً] أخرجاه في الصحيحين. الترجيل: تسريح الرأس. وقولها إلاّ لحاجة: حوائج الإنسان كثيرة. والمراد منها هٰهُنا كل ما يضطر الإنسان إليه مما لا يجوز فعله في المسجد وموضع معتكفه.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«ولاَ تأكُلُوا أمْوَالَكُمْ بيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إلى الْحُكَّامِ لِتَأكُلُوا فَرِيقاً مِنْ أمْوَالِ النَّاسِ بالإِثْمِ وأنْتُمْ تَعْلَمُونَ» سورة البقرة (آية: ١٨٨)

روى الواحدى في أسباب النزول عن مقاتل قال: نزلت هذه الآية في امرىء القيس بن عابس الكندى، وفي عبدان بن أشوع الحضرمىّ، وذلك أنهما اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم في أرض، وكان امرؤ القيس المطلوب، وعبدان الطالب، فأنزل الله تعالى هذه الآية فحكم عبدان في أرضه ولم يخاصمْهُ. وفي الخطيب: روى أن عبدان الحضرمى ادعى على امرىء القيْس الكندى قطعة أرض، ولم يكن له بيّنةٌ فحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحلف امرؤ القيْس، فهمّ بالحلف فقرأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ الله وأيْمانِهِم ثَمَناً قَلِيلاً»** فارْتدع عن اليمين وسلّم الأرض لعبدان فنزلت الآية. وعبارة الخازن: نزلت في امرىء القيس بن عابس الكندى ادّعى عليه ربيعة بن عبدان الحضرمى عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في أرض، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للحضرمى: ألك بيّنةٌ؟ قال: لا، قال: فلك يمينُه، فانطلق ليحلف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إن حلف على ماله ليأكله لَيَلْقِيَنَّ الله وهو عنه معرض. فأنزل الله هذه الآية. والمعنى لا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل أي من غير الوجه الذي أباحه الله له، وأصل الباطل: الشيء الذاهب. وقال: أمّا حكم الآية بالباطل على وجوه:

الأول : أن يأكله بطريق التعدى والنهب والغصب.

الثاني : أن يأكله بطريق اللهو كالقمار، وأجرة المغنّى وثمن الخمر والملاهى ونحو ذلك.

الثالث : أن يأكله بطريق الرشوة في الحكم وشهادة الزور.

الرابع : الخيانة وذلك في الوديعة والأمانة ونحو ذلك.

وإنما عبر عن أخذ المال بالأكل لأنه المقصود الأعظم. ولهذا وقع في التعارف فلان يأكل أموال الناس، بمعنى يأخذها بغير حلّها. وفي المعنى قال المراغي: أي لا يأكل بعضكم مال بعض، وسمّاه ماله إشعاراً بوحدة الأمة وتكافلها، وتنبيهاً إلى أنَّ احترام مال غيرك احترام وحفظ لمالك كما أنَّ التعدى على مال غيرك جناية على الأمة التي هو أحد أعضائها، ولابُدَّ أن يصيبه سهم من كل جناية تقعُ عليها، إذ هو باستحلال مال غيره يجرِّىء غيره على استحلال أكل ماله إذا كان في طاقته، والباطل كلمة معروفة المعنى عند الناس بوجهها الكثيرة، و يدخل فيها:

١ ــ الربا لأنه أكل لأموال الناس بدون مقابل من صاحب المال المعطِي.

٢ ــ الأموال التي تُلقى إلى الحكام رشوةً لهم.

٣ ــ الصدقة على القادر على الكسب الذي يكفيه.

٤ ــ أخذ القادر على الكسب صدقةً فلا يحلُّ لمسلم أن يقبل صدقة وهو غير مضطر إليها.

٥ ــ باعة التمائم والعزائم وختمان القرآن، والعدد المعلوم من سورة يٰس لقضاء الحاجات، أو رحمة الأموات.

٦ ــ التعدّى على الناس بغصب المنفعة بأن يسخر بعضهم بعضاً في عمل لا يعطيه عليه أجراً، أو يُنقصه من الأجر أو أجر المثل.

٧ ــ ضروب الغشّ والاحتيال كما يقع من السّماسرة من التّلبيس والتدليس، فيزيّنُون للنّاس السلع الرديئة، والبضائع المزجاة، و يورّطونهم في شرائها، و يوهمونهم ما لا حقيقة له، بحيث لو عرفوا الخفايا ما باعوا وما اشتروا.

٨ ــ الأجر على عبادة من العبادات كالصلاة والصوم لأن العبادة إنما تكون بالنية وإرادة وجه الله تعالى ابتغاءً لمرضاته، وامتثالاً لأمره، فمتى شاب هذا حظٌّ من حظوظ الدنيا خرج العمل عن كونه عبادة، إذ لا يقبل الله من الأعمال إلا ما أريد به رضاه فحسب، ودافع الأجر عليها خاسرٌ لماله، وآخذه خاسرٌ لمآله.

ومن علّم العلم والدين بالأجر فهو كسائر الصنّاع والأجراء لا ثواب له على أصل العمل، بل على اتقانه والإخلاص فيه، ولا يجوز أخذ الأجر على جواب السائل عن فتوى دينية تُعرض له، إذ الإجابة فريضة على أهل الذكر العارفين. وكتمان العلم محرَّم.

«**وَتُدْلُوا بِهَا إلى الْحُكَّامِ**» أي وتُلقوا أمور تلك الأموال التي فيها الحكومة إلى الحكام* في الخازن (جـ ١ ص ١١٨) قال ابن عباس: هذا في الرجل يكون عليه المال، وليس عليه بيّنةٌ فيجحد ويخاصم إلى الحكام، وهو يعلم أن الحقَّ عليه، وهو آثم بمنعه* وفي الطبرى (جـ ٢ ص ١٠٧) زيادة على هذه الرواية: وهو يعرف أن الحقَّ عليه، وهو يعلم أنَّه آثمٌ آكلٌ حراماً* وعن مجاهد في قوله: «**وَتُدْلُوا بِهَا إلى الْحُكَّامِ**» قال: لا تُخاصم وأنت ظالم. وعن قتادة في قوله: «**ولاَ تأكُلُوا أمْوَالَكُمْ بيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إلى الْحُكَّامِ**» قال: وكان يقال من مشى مع خصمه وهو له ظالم فهو آثم حتى يرجع إلى الحق* واعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضى لا يحلُّ لك حراماً، ولا يحق لك باطلاً، وإنما يقضى القاضى بنحو ما يرى و يشهد به الشهود، والقاضى بشر يخطىء و يصيب، واعلموا أنّه من قد قضى لأخيه بالباطل فإنَّ خصومته لم تنقض حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة فيقضى على المبطل للحق، و يأخذ مما قُضى به للمبطل على الحق في الدنيا* وعن قتادة أيضاً في قوله «**وَتُدْلُوا بِهَا إلى الْحُكَّامِ**» قال: لا تُدْلِ بمال أخيك إلى الحاكم وأنت تعلم أنك ظالم فإن قضاءه لا يُحُل لك شيئاً كان حراماً عليك* وعن السدى: «**ولاَ تأكُلُوا أمْوَالَكُمْ بيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ..**» الآية. قال: أمَّا الباطل. يقول يظلم الرجل منكم صاحبه، ثم يخاصمه ليقطع ماله، وهو يعلم أنه ظالم فذلك قوله وتُدلُوا بها إلى الحكام* وعن عكرمة في قوله: «**ولاَ تأكُلُوا أمْوَالَكُمْ بيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ**» قال: هو الرجل يشترى السلعة فيردَّها و يرد معها دراهم* وقال ابن زيد في قوله: «**ولاَ تأكُلُوا أمْوَالَكُمْ بيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إلى الْحُكَّامِ**» يقول: يكون أجدل منه وأعرف بالحجة فيخاصمه في ماله بالباطل ليأكل ماله بالباطل وقرأ: «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأكُلوا أمْوالَكُمْ بيْنَكُمْ بالبَاطِلِ إلاَّ أنْ تَكُونَ تِجَارةً عن تَرَاضٍ مِنْكُمْ**»* قال: هذا القمار الذي كان يعمل به أهل الجاهلية. وأصل الادلاء إرسال الرجل الدلو في سبب متعلقاً به في البئر. فقيل للمُحْتجّ لدعواه أدلى بحجته كيت وكيت إذا كانت حجته التي يحتج بها سبباً له هو به متعلق في خصومته كتعلق المستقى من بئر بدلو قد أرسلها فيها بسببها الذي الدلو به متعلقة يقال فيهما جميعاً أعنى من الإحتجاج ومن إرسال الدلو في البئر بسبب أدلى فلان بحجته فهو يدلى بها إدلاءً. وأدلى دلوه في البئر فهو يدليها إدلاءً* وقيل: هو أن يقيم شهادة الزور عند الحاكم وهو يعلم ذلك. وكان شريح القاضي يقول إنى لأقضى لك، وإنى لأظنُّك ظالماً

ولكنى لا يسعنى إلاَّ أن أقضى بما يحضرنى من البيّنة، وإنَّ قضائى لا يحلُّ لك حراماً* روى الشيخان عن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سَمِع جلبة خصم بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال: [إنَّما أنا بشرٌ، وأنه يأتيني الخصم، فلعلَّ بعضهم أن يكون أبلغ من بعض (وفي رواية: ألحن بحجته من بعض) فأحسب أنَّه صادقٌ، فأقضى له، فمن قَضيتُ له بحق مسلم، فإنما هى قطعة من النار فليحملها أو يذرها]* قولها: سمع جلبة خصم: يعنى أصوات خصم. قوله: ألحن بحجته: يقال فلان ألحن بحجته من فلان. أي أقوم بها منه، وأقدر عليها. من اللَّحن: بفتح الحاء، وهو الفطنة* «لِتَأْكُلُوا فَرِيقاً» أي طائفة وقطعة «مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بالإِثْمِ» يعنى بالظلم. وقال ابن عباس: باليمين الكاذبة، وقيل: بشهادة الزُور «وأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» يعنى أنكم على الباطل، وأنَّ ما تدَّعونه وترجونه في كلامكم كذباً وزوراً، وهي السبب في تفرق الناس* وفي السمين «بالإِثْمِ» يحتمل أن تكون ــ الباء ــ للسببيّة فتتعلق بقوله: «لِتَأْكُلُوا» وأن تكون للمصاحبة. فتكون حالاً من الفاعل في لتأكلوا. وتتعلّق بمحذوف أي لتأكلوا ملتبسين بالإثم. وأنتم تعلمون جملة في محل نصب على الحال من فاعل لتأكلوا، وذلك على رأى من يجيز تعدد الحال. وأمَّا من لا يجيز ذلك فيجعل. بالإثم: غير الحال* وفي الآية والحديث عبرة لوكلاء الدعاوى (المحامين) فلا ينبغى لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقبل الوكالة في دعوى يعتقد أن صاحبها مبطلٌ. و يعتمد في ذلك على خِلابته(١) في القول ولحنه في الخطاب.

والناظر إلى ما عليه المسلمون اليوم من غرامهم بالتقاضى. والإدلاء إلى الحكام لمحض الإيذاء والانتقام، وإن أضر بنفسه، يَعْلَمُ بُعْدهم عن فهم دينهم وهدى كتابهم، ومن ثَمَّ ساءت حالهم، فنفذت ثرواتهم، وخربت بيوتهم، وفرقت جماعاتهم، ولو تأدبوا بأدب الكتاب الذي إليه ينتسبون لكان لهم من هدايته ما يحفظ حقوقهم ويمنع تقاطعهم وعقوقهم، ولحلَّ فيهم التراحم محلَّ التزاحم، وقد بلغ من أمرهم أن ظنُّوا أنهم عن هدى الدين أغبياء، وعَمُوا عمَّا اصابهم لأجل هذا من الأرزاء (المراغى جـ ٢ ص ٨٣).

---

(١) الخلابة بكسر الخاء: المخادعة. وقيل: الخديعة باللسان. وفي حديث النبيّ صلى الله عليه وسلم أنّه قال لرجل كان يخدع في بيْعه: إذا بِعْتَ فقُلْ لا خِلابَةَ: أي لا خداع. (المؤلف)

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بأَنْ تأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَقَى وأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أبْوابِها واتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفلِحُونَ» سورة البقرة (آية: ١٨٩)

في أسباب النزول للواحدى : قال معاذ بن جبل يا رسول الله: إنَّ اليهود تغشانا و يكثرون مسألتنا عن الأهلة. فأنزل الله تعالى هذه الآية* وقال قتادة: ذكر لنا أنهم سألوا النبي صلى الله عليه وسلم: لِمَ خُلقتْ هذه الأهلة؟ فأنزل الله تعالى **«قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ والْحَجِّ»*** وقال الكلبيُّ: نزلت في معاذ بن جبل، وثعلبة بن غنمة، وهما رجلان من الأنصار. قالا: يا رسول الله ما بالُ الهلال يبدُو دقيقاً مثل الخيط، ثم يزيد حتى يعظم و يستوى و يستدير، ثم لا يزال ينقص و يدق حتى يكون كما كان. لا يكون على حالة واحدة فأنزلت هذه الآية. وكذا في تفسير الخطيب* وفي الطبرى (جـ ٢ ص ١٠٨) قال قتادة: سألوا نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك: لِمَ جُعِلت هذه الأهلَّة، فأنزل الله فيها ما تسمعون. هي مواقيت للناس. فجعلها لصوم المسلمين ولإفطارهم ولمناسكهم وحجّهم ولعدّة نسائهم ومحلّ دينهم في أشياء، والله أعلم بما يصلح خلقه* وكذا روى عن الربيع وعن السدى قال: هى مواقيت للناس. فهى مواقيت الطلاق والحيض والحج* وقد كان هذا سؤالاً منهم على وجه الفائدة عن وجه الحكمة في تبين حال الهلال في الزيادة والنقصان، ومحاق الأهلة وتغير أحوالها. وما المعنى الذي خالف بينه و بين الشمس التي هى دائمة أبداً على حال واحدة لا تتغير بزيادة ولا نقصان... فقل يا محمد خالف بين ذلك ربكم لتصييره الأهلة التي سألتُم عن أمرها ومخالفة ما بينها و بين غيرها فيما خالف بينها و بينه مواقيت لكم ولغيركم من بنى آدم في معايشهم ترقبون بزيادتها ونقصانها ومحاقها واستمرارها لتعلموا بها وقت حلول ديونكم وانقضاء مُدّة إجارة من استأجرتموه ووقت صومكم وإفطاركم، فجعلها مواقيت للناس. والأهلة جمع هلال، وهو أوّل حال القمر حين يراه الناسُ أول ليلة من الشهر **«قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ»** جمع ميقات* والمعنى إنا فعلنا ذلك لمصالح دينية ودنيوية ليعلم الناسُ أوقات حجّهم وصومهم ... الخ. **«والْحَجِّ»** أي وللحجّ، وإنما أفرد الحج بالذكر، وإن كان داخلاً في جملة العبادات لفائدة عظيمة، وهي أن العرب في الجاهلية كانت تحجُّ

بـالعدد وتبدّل الشهور، فأبطل الله ذلك من فعلهم، وأخبر أن الحج مقصور على الأشهر التي عيّنها لغرض الحج بالأهلة، وأنه لا يجوز نقل الحج عن تلك الأشهر التي عينها الله تعالى له كما كـانت العرب تفعل بالنسيء* ويمكن أن يقال: توقف الصوم على الهلال قد علم من قوله: «**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القرآنُ**» والزكاة تتعلق بالحول. والأصل في تقدير السنين لعودة الشمس من نقطة كأول الحمل مثلاً إلى مثلها بحركتها الخاصة، والأيمان والجهاد لا يتعلقان بوقت معيَّن، والصلاة تتعلق باليوم والليلة، فلم يبق من الأركان المتعلقة بالشهر سوى الحجّ فتعيّن ذكره* وقوله تعالى: «**قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ**» هذا من جواب السائل بغير ما سأل عنه تنبيهاً على أن الأولى لهم أن يسألوا عن هذا المجاب به لأنه هو الذي يعنيهم، وذلك أنهم سألوا عن سبب اختلاف القمر في ذاته فأجيبُوا ببيان فائدة هذا الاختلاف إشارةً إلى أنَّ هذا هو الذي ينبغى أن يسئل عنه لأنَّه من أحكام الظاهر التي شأن الرسول التّصدّى لبيانها، وأمَّا سبب اختلافه فهو من قبيل المغيبات التي لا غرض للمكلف في معرفتها، ولا يليق أن تُبين له. ولكن قرَّر أبو السعود وكذا الخازن إلى أنَّ الجواب مطابق للسؤال. ونصّ الأول: كانُوا قد سألوه عليه السلام عن الحكمة في اختلاف حال القمر، وتبدُّل أمره، فأمره الله تعالى أن يجيبهم بأن الحكمة الظاهرة في ذلك معالم للنّاس ...الخ.

((فائـــــدة))

كل ما جاء من السؤال في القرآن أجيب عنه بـ «**قُلْ**» بلا فاء. إلا في طٰه «**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ**» فبالفاء، لأن الجواب في الجميع كان بعد وقوع السؤال، وفي طٰه كان قبله. إذ تقديره: إن سُئلتَ عن الجبال فَقُلْ...

((فائـــدة أخـــرى))

الفرق بين الوقت، و بين المدة والزمان، أنَّ المدة المُطْلقة: امتداد حركة الفلك من مبدئها إلى منتهاها، والزمان: مُدَّة منقسمة إلى الماضي والحال والمستقبل. والوقت: الزمان المفروض لأمر. (الكرخي).

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :

«وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» بقية الآية المتقدّمة.

في غرائب القرآن عن البراء قال: نزلت هذه الآية فينا. كان الأنصار إذا حَجُّوا، فجاؤا لم يدخلوا من قبل أبواب البيوت. فجاء رجلٌ من الأنصار فدخل من قبل بابه فكأنَّه عُيِّر بذلك فنزلت رواه البخارى ومسلم. وكذا ذكر في أسباب النزول للواحدى* وفي رواية كانُوا إذا أحرموا في الجاهلية أتوُا البيت من ظهره. فأنزل الله الآية. وقال المفسرون: كان الناس في الجاهلية وفي أول الإسلام. إذا أحرم الرجل منهم بالحج أو العمرة لم يدخل حائطاً ولا بيتاً ولا داراً من بابه. فإن كان من أهل. المدر: المدن نقب نقباً في ظهر بيته منه يدخل ويخرج، أو يتّخذ سُلَّماً فيصعد فيه. وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة والفسطاط ولا يدخل من الباب حتى يحل من إحرامه، و يرون ذلك ذمًّا إلا أن يكون من الحمس، وهم قريش وكنانة وخزاعة وثقيف وخثعم و بنو عامر بن صعصعه و بنو النَّضْر بن معاو ية. سُمُّوحمساً لتشددهم في دينهم. قالوا: فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم بيتاً لبعض الأنصار، فدخل رجل من الأنصار على إثره من الباب وهو محرم، فأنكروا عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لِمَ دخَلتَ من الباب وأنت محرم؟ فقال: رأيتك دخلت من الباب فدخلت على إثرك. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى أحمسيٌّ. قال الرجل: إن كنت أحمسيّاً فإنىّ أحمسيٌّ ديننا واحد، ورضيتُ بهديك وسمتك ودينك. فأنزل الله تعالى هذه الآية (الخطيب)* وفي الغرائب والخطيب. وأما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله بناء على الأسباب المرو ية في نزوله وعليه أكثر المفسرين فهو أنهم لما سألوا عن الحكمة في اختلاف حال الأهلة. قيل لهم: اتركوا السؤال عن هذا الأمر الذي لا يعنيكم، وارجعوا إلى ما البحث عنه أهم، ولا تعتقدوا أن جميع ما سنح لكم هو على شاكلة الصَّواب، وانظروا في واحدة تفعلونها أنتُم تحسبونها برّاً، وليست من البر في شيء* أو أنه تعالى لما ذكر الحكمة في الأهلة، وهى جعلها مواقيت للناس والحج وكان هذا الأمر من الأشياء التي اعتبروها في الحج فلا جرم تكلّم الله تعالى فيه استطراداً لمزيد الإهتمام بشأنه لما فيه من المنافع الدينية والدنيو ية، أو اتفق وقوع القصتين في وقت واحد فنزلت الآية فيهما معاً في وقت واحد. وقيل: إنَّه تمثيل

لتعكيسهم في سؤالهم فإن الطريق المستقيم هو الاستدلال بالمعلوم على المظنون. فأمّا أن يُستدل بالمظنون على المعلوم فذاك عكس الواجب، ولما ثبت بالدّلائل أن للعالم صانعاً مختاراً حكيماً، وثبت أن الحكيم لا يفعل إلاّ الصواب البرىء عن العبث والسّفه، فإذا رأينا اختلاف حال القمر وجب أن نعلم أن فيه حكمة ومصلحة، وهذا استدلال بالمعلوم على المجهول، فأما أن يستدل بعدم علمنا بما فيه من الحكمة على أن فاعله غير حكيم فهو استدلال بالمجهول على المعلوم، فكأنه تعالى يقول: لمّا لم تعلموا حكمته في اختلاف نور القمر صرتم شاكين في حكمة الخالق، أو قاربتم الشك فقد أتيتُم الأمر من ورائه، وهذا ليس من البر، ولا من كمال العقل إنما البرُّ أن تأتوا الأمور من وجوهها التي يجب أن تؤتى منها، وهذا باب مشهور في الكناية. قال الأعشى:

وكاس شربتُ على رغبة ... وأخرى تداويتُ منها بها
لكيْ يعلم النّاسُ أني أمرؤ ... أتيت المعيشة من بابها

وعن أبي مسلم أنَّ هذا إشارة إلى ما كانوا يفعلونه من النسىء، وكان يقع الحج في غير وقته، فذكر إتيان البيوت من ظهورها مثلاً لمخالفتهم الواجب في الحج وشهوره* إنه تعالى أمرهم بالتقوى التي تتضمن الإتيان بجميع الواجبات والاجتناب عن الفواحش والمنكرات إرادة أن يظفروا بالمطالب الدينية والدنيوية* وفي الخازن (جـ ١ ص ١١٩) وقال الزهريُّ: كان ناس من الأنصار إذا أهلُّوا بالعمرة لم يجعلوا بينهم و بين السماء شيئاً، وكان الرجل يخرج مُهلاً بالعمرة فتبدو له الحاجة بعد ما خرج من بيته، فيرجع ولا يدخل من باب الحجرة من أجل سقف الباب أن يحول بينه و بين السماء، فيفتح الجدار من ورائه، ثم يقوم في حجرته، فيأمر بحاجته، ثم بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هلَّ زمن الحديبية بالعمرة، فدخل حجرةً فدخل رجل من الأنصار من بني سلمة على أثره فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لم فعلت ذلك؟ قال: لأني رأيتك دخلت. فقال عليه الصلاة والسلام: إني أحمسيٌّ. فقال الأنصارى: وأنا أحمسيٌّ. يقول: أنا على دينك فأنزل الله تعالى: **«وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا»** يعني في حال الاحرام وغيره **«وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ»** تفوزون برضا الله في الدنيا والآخرة، وتفلحون في أعمالكم وتصلون إلى غاية آمالكم. فالمتقون ملهمون إلى طريق الرشاد كما قال تعالى: **«وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً»**.

القول في بيان سبب نزول قوله تعالى :
«وقَـاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ الَّـذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ»
سورة البقرة (آية: ١٩٠)

روى الواحدى عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما صُدَّ عن البيت هو وأصحابه نحر الهدى بالحديبية، ثم صالحه المشركون على أن يرجع عامه، ثم يأتى القابل على أن يخلوا له مكة ثلاثة أيام، فيطوف بالبيت و يفعل ما يشاء، وصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما كان العامل المقبل تجهّز رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا أن لا تفي لهم قريش بذلك، وأن يصدُّوهم عن المسجد الحرام و يقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم في الشهر الحرام في الحرم فأنزل الله تعالى **«وقَاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ...»** يعنى قريشاً٭ وفي القرطبي: هذه أول آية نزلت في الأمر بالقتال، ولا خلاف في أن القتال كان محظوراً قبل الهجرة بقوله تعالى: **«ادْفَعْ بالَّتِى هِىَ أحْسَنُ»** وقوله تعالى: **«فاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ»** وقوله: **«واهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً»** وقوله: **«لَستَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ»** وما كان مثله مما نزل بمكة، فلمّا هاجر إلى المدينة أمر بالقتال فنزل **«وقَاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ الَّـذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ»** قال الربيع بن أنس وغيره: وروى عن أبى بكر الصديق أنَّ أول آية نزلت في القتال **«أُذِنَ لِلَّـذِينَ يُقَاتَلُونَ بأنَّهُمْ ظُلِمُوا...»** قال القرطبي: والأول أكثر. وإن آية الإذن إنما نزلت في القتال عامة لمن قاتل ولمن لم يقاتل من المشركين. وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج مع أصحابه إلى مكة للعمرة.. الخ.٭ أي يحلُّ لكم القتال إن قاتلكم الكفار. فالآية متصلة بما سبق من ذكر الحج وإتيان البيوت من ظهورها فكان عليه الصلاة والسلام يقاتل من قاتله و يكفُّ عمَّن كفَّ عنه حتى نزل **«فاقتلُوا المشركين»** فنسخت هذه الآية قاله جماعة من العلماء٭ وقال ابن زيد والربيع نسخها **«وقاتلُوا المشركينَ كَافةً»** فأمر بالقتال لجميع الكفار٭ وقال ابن عباس وعمر بن عبدالعزيز ومجاهد: هي محكمة. أي قاتلوا الذين هم بحالة من يقاتلونكم، ولا تعتدوا في قتل النساء والصبيان والرهبان وشبههم٭ قال أبوجعفر النحاس: وهذا أصح القولين في السنّة والنّظر. فأما السُّنة فحديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في بعض مغازيه امرأة مقتولةً فكره ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان،

رواه الأئمة* وأمَّا النَّظر، فإن (فاعل) لا يكون في الغالب إلا من اثنين. كالمقاتلة والمشاتمة والمخاصمة، والقتال لا يكون في النساء ولا في الصبيان، ومن أشبههم كالرهبان والزَّمنى والشيوخ والأجراء فلا يقتلون. وبهذا أوصى أبوبكر الصديق رضي الله عنه يزيد بن أبي سفيان حين أرسله إلى الشام إلاَّ أن يكون لهؤلاء إذاية. أخرجه مالك وغيره* أي أنَّ أي صنف مما ذكر إذا قاتل يقتل. في الطبرى عن يحى بن يحى الغسّاني قال: كتبتُ إلى عمر بن عبدالعزيز أسأله عن قوله «**وقَاتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**» قال: فكتب إليَّ أن ذلك في النساء والذرية ومن لم ينصب لك الحرب منهم* وفي الخازن (جـ١ ص ١١٩) «**وقَاتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ**» أي فى طاعة الله وطلب رضوانه. أخرج الشيخان عن أبي موسى الأشعرى قال: سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعةً و يقاتل حميّة و يقاتل رياءً أي ذلك في سبيل الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا، فهوا في سبيل الله «**الَّذِينَ يُقَاتِلُونكُمْ**» كان في ابتداء الإسلام أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالكف عن قتال المشركين، ثم لمَّا هاجر إلى المدينة أمر بقتال من قاتله منهم بهذه الآية* أي أن الآية محكمة لا منسوخة. قال الربيع بن أنس: هذه أوَّل آية نزلت في القتال، ثم أمر الله بقتال المشركين كافة قاتَلُوا أو لم يقاتِلُوا بقوله تعالى: «**وقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ كافّةً**» و بقوله: «**اقتلُوهم حَيْثُ ثقفتُموهم**» فصارت آية السيف ناسخة لهذه الآية. وقيل: إنها محكمة، ومعناها على هذا القول. وقاتلوا في سبيل الله الذين اعدوا أنفسهم للقتال فأما من لم يعد نفسه للقتال كالرهبان والشيوخ والزمنى والمكافيف والمجانين فلا تقتُلوهم لأنهم لم يقاتلوكم* «**وَلاَ تَعْتَدُوا**» وقال ابن عباس: ولا تقتلوا النساء والصبيان والشيوخ والرهبان، ولا من ألقى إليكم السلام روى مسلم عن بريدة قال: [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمَّر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا بالله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلوا ولا تعتدوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً» قوله: ولا تغلوا. الغلول: الخيانة، وهو ما يخفيه أحد الغزاة من الغنيمة، وقوله: ولا تعتدوا. أي ولا تنقضوا العهد. وقيل فى معنى الآية. لا تعتدوا أي لا تبدؤهم بالقتال. فعلى هذا القول تكون الآية منسوخة بآية القتال كذا قاله الخازن في تفسيره (جـ١ ص ١١٩)* « **إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**» المتجاوزين ما حد

لهم* قال الجلال: وهذا منسوخ بآية براءة ــ أي وهى «**وقَاتِلوا الْمُشْرِكينَ كَافّةً**» أي قاتلوا أو لم يقاتلوا. بل قيل إنّه نسخ بها سبعون آية ــ أو بقوله «**واقتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُموهُمْ**» وجدتموهم «**وأخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أخْرَجُوكُمْ**» أي مكة، وقد فعل بهم ذلك عام الفتح، أي فعل ذلك بمن لم يسلم منهم. «**والفِتْنَةُ**» الشرك منهم. وسمى الشرك فتنة لأنه فساد في الأرض «**أشَدُّ**» أعظم من القتل لأنه يؤدى إلى الخلود في النار، «**مِنَ الْقَتْلِ**» لهم في الحرم، أو الاحرام الذي استعظموه «**ولاَ تُقاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِالْحَرَامِ**» أي في الحرم «**حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فإنْ قَاتَلُوكُمْ**» فيه «**فاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ**» القتل والاخراج «**جَزَاءُ الْكَافِرِينَ فَإنِ انْتَهَوْا**» عن الكفر وأسلموا «**فإنَّ اللهَ غَفُورٌ**» لهم «**رحِيمٌ**» بهم.

القول في تأويل قوله تعالى:

«الشَّهْرُ الحَرامُ بالشّهْرِ الْحَرامِ والْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدى عَلَيْكُمْ واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مع المتَّقِينَ» سورة البقرة (آية: ١٩٤)

روى الواحدى عن قتادة قال: أقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه في ذى القعدة/ في السنة السادسة/ حتى إذا كانوا بالحديبية صدَّهم المشركون، فلما كان العام المقبل دخلوا مكة، فاعتمروا في ذى القعدة وأقاموا بها ثلاث ليال، وكان المشركون قد فجرُوا عليه حين ردُّوه يوم الحديبية، فأقصه الله تعالى منهم فأنزل «**الشَّهْرُ الْحَرامُ بالشَّهْرِ الْحَرامِ..**» الآية* وفي الخطيب: وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لمَّا خرج معتمراً في ذى القعدة سنة ستٍّ، وصده المشركون عن البيت بالحديبية، ورجع في العام القابل في ذى القعدة، وقضى عمرته سنة سبع، واستعظم المسلمون قتالهم في الشهر الحرام نزلت هذه الآية. أن هذا الشهر بذلك، وهتكه، بهتكه فلا ينالوا به* وفي القرطبي: وروى عن الحسن أن المشركين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أنُهيتَ يا محمد عن القتال في الشهر الحرام؟ قال: نعم فأرادوا قتاله فنزلت هذه الآية إلا أنَّ الذي ذكره الخطيب أشهر وعليه أكثر المفسرين* وعبارة أبى السعود «**الشَّهر الْحَرَامُ بالشَّهْر الْحَرام...**» فقد قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذى القعدة، فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء في ذى القعدة أيضاً وكراهتهم القتال فيه: هذا الشهر الحرام بذاك الشهر الحرام، وهتكه بهتكه

فلا تبالوا* وعبارة المراغى خرج المؤمنون مع النبي صلى الله عليه وسلم للنسك عام الحديبية، فصدَّهم المشركون ، وقاتَلُوهم رمياً بالسِّهام والحجارة في شهر ذى القعدة سنة ستّ، ثم صالحوهم على أن يرجعوا إلى مكة في العام القابل، ولما خرجوا في ذلك العام لعمرة القضاء كرهوا قتال المشركين، وإن اعتدُوا ونكثوا العهد في الشهر الحرام، فبيَّن لَهُم أنَّ المحظور في الأشهر الحرم هو العدوان بالقتال لا المدافعة عن النفس، وأنَّ المشركين بإصرارهم على الفتنة وإيذائهم المؤمنين فعلوا ما هو أشد قبحاً من القتل بتأييدهم للشرك، ومنعهم للحق* ونحوه في الخازن (جـ١ ص ١٢٠) وكذا في الغرائب* وفي الطبرى (جـ٢ ص ١١٤) عن ابن عباس في قوله «**والْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ**» قال: هم المشركون حبسوا محمداً صلى الله عليه وسلم في ذى القعدة فرجعه الله في ذي القعدة، فأدخله البيت الحرام، فاقتصَّ له منهم* وعن مجاهد في قوله «**الشَّهْرُ الحَرامُ بالشَّهْرِ الْحَرامِ..**» قال: فخرت قريش بردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية محرماً في ذى القعدة عن البلد الحرام. فأدخله الله مكة في العام المقبل من ذى القعدة فقضى عمرته، وأقصَّه بما حيل بينه و بينها يوم الحديبية* وعن قتادة قوله: «**الشَّهْرُ الحَرامُ بالشَّهْرِ الْحَرامِ والْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ..**» قال: أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فاعتمروا في ذى القعدة ومعهم الهدى حتى إذا كانوا بالحديبية صدَّهم المشركون فصالحهم نبي الله صلى الله عليه وسلم على أن يرجع من عامه ذلك حتى يرجع من العام المقبل، فيكون بمكة ثلاثة أيّام ولا يدخلها إلا بسلام راكب، ويخرج ولا يخرج بأحدٍ من أهل مكة فنحروا الهدي بالحديبية، وحلقوا وقصروا حتى إذا كان من العام المقبل أقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى دخلوا مكة فاعتمروا في ذى القعدة، فأقاموا بها ثلاث ليال، فكان المشركون قد فخروا عليه حين ردُّوه يوم الحديبية، فأقصه الله منهم، فأدخله مكة في ذلك الشهر الذي كانوا ردُّوه فيه في ذى القعدة، فقال الله: «**الشَّهْرُ الحَرامُ بالشَّهْرِ الْحَرامِ والْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ...**» وأخبر ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: «**الشَّهْرُ الحَرامُ بالشَّهْرِ الْحَرامِ**» حتى فرغ من الآية قال: هذا كله قد نسخ أمره أن يجاهد المشركين، وقرأ قاتلوا المشركين كافة كما يُقاتلونكم كافة. وقرأ قاتلوا الذين يلونكم من الكفار العرب، فلما فرغ منهم قال الله جل ثناؤه، قاتلوا الَّذِينَ لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله. حتى بلغ قوله: وهم صاغرون. قال: وهم الروم

قال: فوجه إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم* **«والْحُرُمَاتُ»** جمع حرمة، وإنما جمعت لأنه أراد حرمة الشهر وحرمة البلد، وحرمة الإحرام **«قِصَاصٌ»** القصاص: المساواة والمماثلة، وهو أن يفعل بالفاعل مثل مافعل، والمعنى أنهم لما منعوكم عن العمرة، وأضاعوا هذه الحرمات في سنة ست، فقد وقفتم حتى قضيتموها على رغمهم في سنة سبع. وقيل هذا في القتال . ومعناه فإن بدؤكم بالقتال في الشهر الحرام فاقتلوهم فيه فإنه قصاص **«فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ»** أي بالقتال **«فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ»** أي فقاتلوه **«بِمِثْلِ ما اعْتَدى عَلَيْكُمْ»** سمّى الجزاء بالاعتداء على سبيل المشاكلة **«واتَّقُوا اللهَ»** في الانتصار وترك الاعتداء أي لمّا أباح لهم الاقتصاص بالمثل، وشأن النفس حبُّ المبالغة في الانتقام حذّرهم من ذلك فقال:واتقوا الله **«واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مع المتَّقِينَ»** بالعون والنصر. وفي الطبرى: حدثنا بشر بن معاذ، قال: حدثنا يزيد، قال: ثنا سعيد عن قتادة قوله: **«الشَّهْرُ الحَرامُ بالشّهْرِ الْحَرامِ والْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ»** أقبل نبي الله وأصحابه فأعتمروا في ذي القعدة ومعهم الهدى حتى إذا كانوا بالحديبية صدّهم المشركون، فصالحهم نبي الله صلى الله عليه وسلم على أن يرجع من عامه ذلك حتى يرجع من العام المقبل، فيكون بمكة ثلاثة أيام، ولا يدخلها إلا بسلاح راكب، ويخرج ولا يخرج بأحدٍ من أهل مكة، فنحروا الهدىَ بالحديبية وحلقوا وقصروا حتى إذا كان من العام المقبل أقبل نبيُّ الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى دخلوا مكة، فاعتمروا في ذى القعدة، فأقاموا بها ثلاث ليالٍ، فكان المشركون قد فخروا عليه حين ردّوه يوم الحديبية، فأقصه الله منهم، فأدخله مكة في ذلك الشهر الذي كانوا ردُّوه فيه في ذى القعدة فقال الله: **«الشَّهْرُ الحَرامُ بالشّهْرِ الْحَرامِ والْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ»** فيكون معنى **«الشَّهْرُ الحَرامُ بالشّهْرِ الْحَرامِ»** عمرة في شهر حرام بعمرة في شهر حرام. وشهر ذى القعدة من الأشهر الحرم التي يحرم فيها القتال والقتل، وتضع فيه السلاح، ولا يقتل فيه أحدٌ أحداً ولو لقى الرجل فيه قاتل أبيه، أو ابنه، وسمى ذا القعدة لقعودهم فيه عن المغازى والحروب، فسمّاه الله بالاسم الذي كانت العرب تسميه به، وتكون الآية قد نزلت في عمرة القضاء أي أن ذا القعدة الذي دخلتم فيه مكة وقضيتم عمرتكم بالشهر الحرام الذي صددتم فيه عن البيت* وفي ابن كثير في قوله: **«فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ ما اعْتَدى عَلَيْكُمْ»** نزلت بمكة حيث لا شوكة، ولا جهاد، ثم نسخ بآية القتال بالمدينة، وقد ردّ هذا القول ابن جرير، وقال: بل الآية مدنية بعد عمرة القضاء، وعزا ذلك إلى مجاهد رحمه الله. وعبارة أبى

السعود: الشهر الحرام بالشهر الحرام، فقد قاتلهم المشركون عام الحديبية في ذى القعدة فقيل لهم عند خروجهم لعمرة القضاء في ذى القعدة أيضاً وكراهتهم القتال فيه، هذا الشهر الحرام بذاك الشهر الحرام، وهتكه بهتكه فلا تبالوا.

((القول في تأويل قوله تعالى :))

«وأنْفِقُوا فى سَبِيلِ الله وَلاَ تُلْقُوا بأيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ وأحْسِنُوا إنَّ الله يُحِبُّ المُحْسِنِينَ»

في الواحدي: عن الشعبى قال: نزلت في الأنصار أمسكوا عن النفقة في سبيل الله فنزلت هذه الآية* وعن عكرمة قال: نزلت في النفقات في سبيل الله* وعن ابن أبى جبير قال: كانت الأنصار يتصدقون و يطعمون ما شاء الله، فأصابتهم سَنَةٌ فأمسكوا فأنزل الله عز وجل هذه الآية* وعن النعمان بن بشير في قوله: **«ولا تُلقُوا بِأيْدِيكُمْ إلى التّهلكة»** قال: كان الرجل يذنب الذنب فيقول: لا يغفر لى. فأنزل الله هذه الآية* وأخرج الحكم بن عمر أنّه قال: كُنّا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر الجهنى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلى أهل الشام فضالة بن عبيد صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج من المدينة صفٌ عظيم من الروم، وصففنا لهم صفاً عظيماً من المسلمين، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، ثم خرج إلينا مقبلاً، فصاح الناس فقالوا: سبحان الله!! ألقى بيده إلى التّهلكة، فقال أبو أيوب الأنصارى: صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أيُّها الناس إنكم تتأولون هذه الآية على غير التأو يل، وإنا أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصريه، قلنا: بعضنا لبعض سراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم. إن أموالنا قد ضاعت فلو أنا أقمنا فيها، وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله تعالى في كتابه يردُّ علينا ما هممنا به فقال: **«وأنفقوا في سبيل الله ولا تُلقُوا بأيديكُمْ إلى التّهْلكةِ»** في الإقامة التي أردنا أن نقيم في الأموال.. فأمرنا بالغزو، فما زال أبو أيوب غازياً في سبيل الله حتى قبضه الله عز وجل* وفي الخطيب: وروى أنَّ رجلاً من المهاجرين حمل على صف العدوّ فصاح به الناس: ألقى بيده إلى التهلكة. فقال أبو أيوب الأنصارى: نحن أعلم بهذه الآية، وإنما نزلت فينا صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فنصرناه وشهدنا معه المشاهد، وآثرناه

على أهلنا وأولادنا وأموالنا، فلمّا فشا الإسلام وكثر أهله ووضعت الحرب أوزارها رجعنا إلى أهلينا وأولادنا وأموالنا نصلحها ونقيم فيها فكانت التهلكة: الاقامة في الأهل والمال وترك الجهاد، فما زال أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى كان آخر غزوة غزاها بقسطنطينية في زمن معاوية فتوفى هناك، ودفن في أصل سورها، وهم يستسقون به* وقال محمد بن سيرين وعبيدة السلماني: الإلقاء إلى التهلكة: هوالقنوط من رحمة الله تعالى* قال أبو قلابة: هو الرجل يصيب الذنب فيقول هلكت ليست لى توبة، فييأس من رحمة الله، و ينهمك في المعاصى فنهاهم الله عن ذلك كما قال تعالى: **«إنّه لا ييأسُ من روْح الله إلاّ الْقَوْمُ الكافِرُونَ»*** وفي القرطبي: في قوله تعالى: **«وَلاَ تُلْقُوا بأيْدِيكُمْ إلى التّهْلُكَةِ»** قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وعكرمة وعطاء ومجاهد وجمهور من الناس: المعنى لا تُلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله وتخافوا العيلة، فيقول الرجل: ليس عندى ما أنفقه، وإلى هذا المعنى ذهب البخارى إذ لم يذكره غيره* قلت: وممّا يؤكد هذا المعنى ما ورد في الطبرى: حدّثنا أبو كريب قال: ثنا أبوبكر قال: ثنا أبوإسحاق عن البراء قال: سأله رجل: أحمل على المشركين وحدى فيقتلونى أكنت ألقيت بيدى إلى التهلكة؟ فقال: لا إنّ التهلكة في النفقة، بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **«فَقَاتِلْ فى سَبِيلِ الله لاَ تُكَلَّفُ إلاّ نَفْسَكَ»** فيكون المعنى: وأنفقوا أموالكم أيها المؤمنون بإعداد العدة لاعزاز دينى الذي شرعته لكم، وجاهدوا بها عدوّكم الناصبين لكم الحرب على الكفر بى ولا تقعدوا عن النفقة والجهاد فيغزوكم الأعداء فتهلكوا، لأن من قعد عن الجهاد، وحبس ماله عن النفقة في سبيله فقد استسلم للتهلكة، ومثل ذلك قوله تعالى: **«يا أيُّها الّـذِينَ آمَنُوا قُوا أنفُسَكَمْ وأهْلِيكُمْ نَاراً»** وقوله تعالى: **«وأحْسِنُوا إنَّ الله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»** أي أحسنوا أيها المؤمنون في أداء ما ألزمتكم من فرائض، وتجنب ما أمرتكم بتجنبه من معاصي، ومن الانفاق في سبيلى، عوْدُ القوى منكم على الضعيف ذى الخلّة، فإنى أحب المحسنين في ذلك، وهم الذين يحسنون الظن بى، وأداء فرائضى، و يعودون على من ليس في يده شيء* وفي ابن كثير: زيادة على ما تقدم من الأقوال. وقال الحسن البصرى: **«وَلاَ تُلْقُوا بأيْدِيكُمْ إلى التّهْلُكَةِ»** قال هو البخل* وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس: التهلكة عذاب الله، وقال ابن أبى حاتم، وابن جرير جميعاً حدثنا يونس بن وهب، أخبرنى أبوصخر عن القرظى محمد بن كعب أنه كان يقول في هذه الآية

«**وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ**» قال: كان القوم في سبيل الله فيتزود الرجل فكان أفضل زاداً من الآخر، أنفق البائس من زاده حتى لا يبقى من زاده شيء أحبُّ أن يواسى صاحبه فأنزل الله «**وأَنْفِقُوا فى سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهلكةِ**» و به قال ابن وهب أيضاً أخبرنى عبدالله بن عياش عن زيد بن أسلم في قوله الله «**وأَنْفِقُوا فى سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إلى التَّهْلُكَةِ**» وذلك أنَّ رجالاً كانوا يخرجون في بعوث يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم بغير نفقة، فإما أن يقطع بهم وإما كانوا عيالاً فأمرهم الله أن يستنفقوا مما رزقهم الله ولا يُلقوا بأيديهم إلى التهلكة، والتهلكة أن يهلك رجالٌ من الجوع والعطش، أو من المشي* وقال لمن بيده فضل «**وأَحْسِنُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ**».

قال ابن كثير: ومضمون الآية: الأمر بالانفاق في سبيل الله في سائر وجوه القربات، ووجوه الطاعات، وخاصة صرف الأموال في قتال الأعداء، و بذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم، والاخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمارٌ لمن لزمه واعتاده، ثم عطف بالأمر بالإحسان، وهو أعلى مقامات الطاعة فقال: «**وأَحْسِنُوا إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ**»* وفي السمين قوله: «**بأيديكم**» في هذه الباء وجهان:

أحدهما: أنها زائدة في المفعول به، لأن ألقى يتعدى بنفسه قال تعالى: «**فأَلْقَى عَصَاهُ**» (وعلى هذا جرى الجلال).

والثاني: أن يضمن ألقى معنى فعل يتعدى بالباء، فيتعدى تعديته، فيكون المفعول به في الحقيقة هو المجرور بالباء تقديره: ولا تفضوا بأيديكم إلى التهلكة، كقوله: أفضت بجنبي إلى الأرض أي طرحته على الأرض، و يكون قد عبّر بالأيدى عن الأنفس لأن بها البطش والحركة* قلتُ: وعلى القول بزيادتها يكون المعنى: ولا تقبضوا التهلكة بأيديكم: أى لا تجعلوها آخذة بأيديكم ما لكة لكم. أو ولا تُلقُوا أنفسكم بأيديكم كما يقال: أهلك فلان نفسه بيده: إذا تسبّبَ لهلاكها، وليس من معانى التهلكة ــ والله أعلم ــ الحمل على العدو بمفرده. روى الشافعيّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الجنة، فقال له رجل من الأنصار: أرأيت يا رسول الله إن قُتلتُ صابراً محتسباً؟ قال: لك الجنة، فانغمس في جماعة العدو فقتلوه* وأن رجلاً من الأنصار ألقى درعاً كان عليه حين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الجنة، ثم انغمس في العدو فقتلوه بين يدى الرسول* وروى أنَّ

رجلاً من الأنصار تخلّف من أصحاب بئر معونة فرأى الطير عكوفاً على من قُتل من أصحابه، فقال لبعض من معه: سأتقدّم إلى العدو فيقتُلونني، ولا أتخلف عن مشهد قُتل فيه أصحابي، ففعل ذلك، فذكروا للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: فيه قولاً حسناً.

((القول في تأويل قوله تعالى :))
«فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْبِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَام أَوْ صَدَقَةٍ أَوْنُسُكٍ» سورة البقرة (الآية: ١٩٦)

فى الواحدى قال كعب بن عجرة: نزلت هذه الآية ــ فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه ــ وقع القمل فى رأسى، فذكرت ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم. فقال: أحلق وافده صيام ثلاثة أيام. أو النسك، أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين صاع. وعن كعب بن عجرة أيضاً قال: فىَّ نزلت هذه الآية. أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أدنه، فدنوت مرتين أو ثلاثاً، فقال: أيؤذيك هوامّك؟ قال ابن عون: وأحسبه قال نعم، فأمرنى بصيام، أو صدقة، أو نسك ما تيسّر* رواه مسلم عن أبى موسى عن ابن أبى عدىّ، عن ابن عون* وروى ابن عطاء عن ابن عباس قال: لما نزلنا الحديبية جاء كعب بن عجرة تنثر هوامٌّ رأسه على جبهته، فقال: يا رسول الله القمل قد أكلنى. قال: أحلق وافده، قال: فحلق كعب فنحر بقرة، فأنزل الله عز وجلّ فى ذلك الموقف: «فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْبِهِ أَذًى مِنْ رأسِهِ..» الآية قال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصيام ثلاثة أيام، والنسك: شاةٌ، والصدقة: الفرق بين ستة مساكين لكل مسكين مُدّ* وما ورد فى الواحدى ورد بحروفه فى الخطيب* وفى ابن كثير. قال البخارى: حدثنا آدم حدثنا شعبة عن عبدالرحمن بن الأصبهانى سمعت عبدلة عن معقل، قال: قعدت إلى كعب بن عجرة في هذا المسجد يعنى مسجد الكوفة فسألته عن فدية من صيام فقال: حملتُ إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم والقمل يتناثر على وجهى، فقال: «ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا أما تجد شاة؟» قلت: لا، قال: «صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، وأحلق رأسك» فنزلت فىَّ خاصة، وهى لكم عامة* وقال الإمام أحمد: حدَّثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن مجاهد عن عبدالرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عجرة قال: أتى على النبى صلى الله عليه وسلم،

وأنـا أوقـد تحـت قـدر، والقمل يتناثر على وجهى، أو قال: حاجبى. فقال: [يؤذيك هوام رأسك؟] قـلـت: نـعم. قال: [فاحلقه وصم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين أو انسك نسـيـكـة] قـال أيوب: لا أدرى بأيتهن بدأ» وأو هنا للتخيير. قال ابن كثير: وهو مذهب الأئمـة الأربعة وعامة العلماء أنه يخير في هذا المقام إن شاء صام وإن شاء تصدق بفرق(١)، وهو ثلاثة آصع لكل مسكين نصف صاع، وهو مُدّان، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الـفـقـراء أى ذلـك فـعل أجزأه، ولما كان لفظ القرآن فى بيان الرخصة بالأسهل فالأسهل «**فـفـديةٌ مـن صـيـامٍ أو صدقةٍ أوْ نُسُكٍ**» ولما أمر النبى صلى الله عليه وسلم كعب بن عـجـرة بـذلك أرشده إلى الأفضل فالأفضل فقال: انسك شاةٍ، أو أطعم ستة مساكين، أو صـم ثلاثة أيام، فكل حسن فى مقامه، ولله الحمد والمنّة. وفى ابن كثير: وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا أبو بكر بن عيّاش قال: ذكر الأعمش قال: سأل إبراهيم سعيد بن جبير عن هذه الآية «**ففديَةٌ مِنْ صِيَامٍ أوْ صَدَقَةٍ أوْ نُسُك**» فأجابه بقوله: يحكم عليه طـعـام، فـإن كان عنده اشترى شاة، وإن لم يكن قومت الشاة دراهم وجعل مكانها طعام فـتـصدق، وإلا صام لكل نصف صاع يوماً، قال ابراهيم كذلك سمعت علقمة يذكر قال: لـمـا قـال لى سعـيـد بن جبير من هذا ما أظرفه؟ قال: قلت: هذا إبراهيم، فقال: ما أظرفه كـان يجـالـسـنـا، قـال: فـذكرت ذلك لإبراهيم قال: فلما قلت يجالسنا انتفض منها. وفيه أقوال غير هذا فلا فائدة فى إطالة ذكرها. ونقل عن عطاء أنه كان يقول: ما كان من ذبح فـبـمـكـة ومـا كـان من طعام وصيام فحيث شاء» والآية هنا عود إلى إتمام أحكام الحج، فـذكـر حـكـم المحصر وعـدم جـواز الحلق قبل بلوغ الهدى محله، إلا لمن كان مريضاً أو به جروح ونحوها فإنه يحلق وعليه أن يصوم ثلاثة أيام أو يذبح شاة أو يتصدق بفرق على ستة مـسـاكين، فـإذا زال الخوف من العدوّ، فمن أتم العمرة وتحلل و بقى متمتعاً إلى زمن الحج لـيـحـج مـن مكة فعليه دم، لأنه أحرم بالحج من غير الميقات، فإن لم يجد ذلك صام ثلاثة أيـام فى أيـام الإحـرام بالحج، وسبعة إذا رجع إلى بلده إلا إذا كان مسكنه وراء الميقات. والمواقيت: ذو الحليفة والجحفة وقرن و يلملم وذات عرق. فمن كان من أهل هذه المواضع فـا دونهـا إلى مـكـة فهو من حاضرى المسجد الحرام فالمكيُّ إذا تمتع أو قرن فلا هدى عليه

---

(١) الفرق بالتحريك: مكيال بالمدينة يزن ستة عشر رطلاً

ولا بدل له لأنه لا يجب عليه أن يحرم من الميقات فإقدامه على التمتع لا يوجب خللاً فى حجه فلا يجب عليه الهدى. و يدل على ذلك ما أخرجه البخارى تعليقاً من حديث عكرمة قال: سئل ابن عباس عن متعة الحج، فقال أهل المهاجرون والأنصار وأزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وأهللنا، فلما قدمنا مكة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [اجعلوا إهلا لكم بالحجّ عمرة إلاّ من قلّد الهدى] فطفنا بالبيت و بالصفا والمروة وأتينا النساء ولبسنا الثياب، وقال: [من قلّد الهدى فإنه لا يحلُّ من شىء حتى يبلغ الهدى محلَّهُ] ثم أمرنا عشية التروية أن نهل بالحج فإذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت و بالصفا والمروة، وقد تم حجنا وعلينا الهدى كما قال تعالى: **«فَمَا أستيْسَرَ مِن الهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّام فى الْحجّ وسبعةٍ إِذَا رجَعْتُم»** إلى أمصاركم. والشاة تجزىء. فجمعوا بين النسكين فى عام بين الحج والعمرة فإن الله أنزله فى كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأباحه للناس من غير أهل مكة قال تعالى: **«ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرامِ»*** وفى الحديث زيادة، قال الحميدى: قال أبو مسعود الدمشقى: هذا حديث غريب ولم أجده إلا عند مسلم بن الحجاج ولم يخرجه فى صحيحه من أجل عكرمة فإنه لم يروعنه فى صحيحه.

وعندى أن البخارى إنما أخذه من مسلم* (وأعلم) أنه يجوز الاحرام من قبل المواقيت لحديث أم سلمة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ أحْرمَ مِنْ بيْتِ الْمقْدِسِ بحجّ أو عمرة كان من ذنوبه كيوم ولدته أُمّهُ] وفى رواية [غُفِرَ لَهُ ما تقدّم من ذنْبِهِ ومَا تأخرَ] أخرجه أبو داود وقال: «يرحم الله وكيعاً!! أحرم من بيت المقدس» يعنى إلى مكة، وخص فى هذا الشافعى. وكرّهه مالك لأن عمر بن الخطاب أنكر على عمران بن حصين إحرامه من البصرة، وأنكر عثمان على ابن عمر احرامه قبل الميقات. ومما لا شك فيه أن الاحرام من الميقات أفضل لأنه عليه الصلاة والسلام لم يحرم من بيته بل كان يحرم من ميقاته الذى وقته لأمته. وقد وقت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة (ذا الحليفة) — قرية خربة بينها و بين مكة مائتا ميل — ولأهل الشام (الْجُحْفَة) — قرية خربة بينها و بين مكة خمس مراحل، وهى قرب القرية المعروفة برابغ — ولأهل نجد (قَرْن) وهو جبل مشرف على عرفات على بعد مرحلتين من مكة — ولأهل اليمن (يَلَمْلَمْ)— مكان على مرحلتين من مكة* وأجمع أهل العلم على القول بظاهر هذا

الحديث. واختلفوا فى ميقات أهل العراق. فروى عن ابن عباس أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم وقّت لأهل المشرق (الْعَقيقَ) وحسّنه الترمذى. و يروى أن عمر بن الخطاب قال: وقت لهم (ذات عرق) وهذا هو الصحيح، ولم يكن باجتهاد منه بل لما روى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت لأهل العراق ذات عرق ــ قرية على مرحلتين من مكة ــ وعلى كل فمن أحرم ما قبل هذه المواقيت فإحرامه صحيح لأنه زاد ولم ينقص.

وقد دلت الآية على وجوب العمرة لأنه تعالى أمر بإتمامها فى أول الآية فقال: **«وَأَتِمُّوا الْحج والْعُمْرَةَ لله»** فكما أن الحج واجب فكذلك العمرة. ففى القرطبى: قال ابن جريج: وأخبرت عن عكرمة أن ابن عباس قال: العمرة واجبة كوجوب الحج من استطاع إليه سبيلاً* وممن ذهب إلى وجوبها من التابعين عطاء وطاووس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشعبى وسعيد بن جبير وأبو بردة ومسروق وعبيدالله بن شداد والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو عبيد وابن الجهم من المالكيين* وقال الثورى: سمعنا أنها واجبة. وسئل زيد بن ثابت عن العمرة قبل الحج فقال: صلاتان لا يضرك بأيهما بدأت. ذكره الدارقطنى* وروى مرفوعاً عن محمد بن سيرين عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إنّ الحجَّ والعمرةَ فريضتان لا يضرُّكَ بأيهما بدأت] وكان مالك يقول: «العمرة سنة ولا نعلم أحداً أرخص فى تركها» وهو قول النخعى وأصحاب الرأى فيما حكى ابن المنذر. وأوجبها أبو حنيفة كالحج.

((القول فى تأويل قوله تعالى :))
«وتَزَوَّدُوا فَإِن خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىَ واتَّقُونِ يَا أُولى الأَلْبَابِ»

فى الواحدى: عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، يقولون نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى: **«وتزوَّدُوا فإن خَيْرَ الزَّادِ التّقوىَ»** وفى الخطيب: قال أهل التفسير: الكعك والزيت والسويق والتمر ونحوها. فإن خير الزاد التقوى أى ما يتقى به سؤال الناس وغيره. وفى البخارى وغيره: أن أهل اليمن كانوا يخرجون إلى الحج بغير زاد. و يقولون نحن متوكلون، ونحن نحج بيت الله تعالى أفلا يُطعمنا، فيكونون كلاً على الناس، فيسألونهم، وربما يفضى بهم الحال إلى النهب

والغصب فقال الله عز وجلّ: «وَتَزَوَّدُوا فإن خَيْرَ الزَّادِ التقوى» أى تزودوا ما تتبلّغون به، وتكفون به وجوهكم* وفى القرطبى: «وتزوَّدُوا» أمر باتخاذ الزاد قال ابن عمر وعكرمة ومجاهد وقتادة وابن زيد: نزلت الآية فى طائفة من العرب كانت تجيء إلى الحج بلا زادٍ، و يقول بعضهم: كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا فكانو يبقون عالة على الناس فنهوا عن ذلك وأمروا بالزاد. وقال عبدالله بن الزبير: كان الناس يتكل بعضهم على بعض بالزاد فأمروا بالزاد. وكان للنبيّ صلى الله عليه وسلم فى مسيره راحلة عليها زاد* وقال بعض الناس: «وتزوّدُوا» الرفيق الصالح. قال ابن عطية: وهذا تخصيص ضعيف. والأولى فى معنى الآية «وتَزَوَّدُوا» لمعادكم من الأعمال الصالحة.

قلت: إلا أن القول الأول هو الأصح. أى أن المراد بالزاد فى قوله تعالى «وتَزَوّدُوا» هو الزاد المتخذ فى سفر الحج. المأكول حقيقة لما ذكر البخارى كما تقدم وعليه أكثر المفسّرين. قال الشعبى: الزاد: التمر والسويق* وقال ابن جبير: الكعك والزيت. وقال أبو الفرج الجوزى: وقد لبّس إبليس على قوم يدعون التوكل فخرجوا بلا زاد، وظنوا أن هذا هو التوكل، وهم على غاية الخطأ. قال رجل لأحمد بن حنبل: أريد أن أخرج إلى مكة على التوكل بغير زاد، فقال له أحمد: اخرج فى غير القافلة. فقال: لا، إلا معهم، قال: فعلى جُرُبِ(١) الناس توكلت* وفي الطبرى: حدثنى الحسين بن علىّ الصوائى: قال: ثنا عمرو بن عبدالغفار قال: ثنا محمد بن سوقة عن نافع عن ابن عمر قال: كانوا إذا أحرموا ومعهم أزْوِدَةٌ رموا بها، واستأنفوا زاداً آخر فأنز الله «وتَزوّدُوا فإن خيْرَ الزَّادِ التّقوى» فنهوا عن ذلك. وأمروا أن يتزودوا الكعك والدقيق والسويق* وفى الخازن: وقيل فى معنى الآية وتزودوا من التقوى فإن الإنسان لا بد له من سفر فى الدنيا، ولا بد فيه من زاد. ويحتاج فيه إلى الطعام والشراب والمركب، وسفر من الدنيا إلى الآخرة ولا بد فيه من زادٍ أيضاً، وهو تقوى الله عزّ وجلّ والعمل بطاعته، وهذا الزاد أفضل من الزاد الأول فإن زاد الدنيا يوصل إلى مراد النفوس وشهواتها، وزاد الآخرة يوصل إلى النعيم المقيم فى الآخرة وفى هذا المعنى قال الأعشى:

إذا أنتَ لمْ ترحَلْ بزادٍ من التّقى ... ولاقيْتَ بَعْدَ الموتِ مَنْ قدْ تزوّدا
ندمتَ على أن لا تكونَ كمثله ... وإنك لم تَرْصُدْ كما كان أرصدا

---

(١) جُرُب (بضمّتين) جمع جراب، وهو الوعاء المتخذ من جلد يوضع فيه الدقيق ونحوه.

وأيضاً فليس السفر من الدنيا أهون من السفر فى الدنيا، وهذا لا بد له من زاد فكذا ذلك بل يزداد فإن زاد الدنيا يخلصك عن عذاب منقطع موهوم، وزاد الآخرة ينجيك من عذاب أبدىّ معلوم، زاد الدنيا يوصلك إلى متاع الغرور، وزاد الآخرة يبلغك دار السرور، وزاد الدنيا سبب حصول حظوظ النفس، وزاد الآخرة سبب الوصول إلى عتبة الجلال والقدس. وفيه دليل على أن القادر على استصحاب الزاد فى السفر إذا لم يستصحب عصى الله فى ذلك. فيه إبطال حكمة الله تعالى، ورفع الوسائط والروابط التى عليها تدور المناجح، وبها تنظم المصالح. دعوى أن بعض العارفين زهد فبلغ من زهده أن فارق الناس وخرج من الأمصار، وقال لا أسأل أحداً شيئاً حتى يأتينى رزقى، فأخذ يسبح فأقام فى سفح جبل سبعاً لم يأته شىء حتى كاد يتلف، فقال يارب إن أحببتنى فأتنى برزقى فى الذى قسمت لى، وإلا فاقبضنى إليك فألهمه الله تعالى فى قلبه، وعزتى وجلالى لا أرزقك حتى تدخل الأمصار. وتقيم بين الناس، فدخل المدينة وأقام بين ظهرانى الناس، فجاء هذا بطعام وهذا بشراب فأكل وشرب، فأوجس فى نفسه من ذلك، فسمع أردت أن تبطل حكمته بزهدك فى الدنيا أما علمت أنه يرزق العباد بأيدى العباد أحبّ إليه من أن يرزقهم بيد القدرة. وفى قوله: «**واتّقُونِ يَا أُولِى الأَلْبَابِ**» قال الطبرى: يعنى بذلك جل ثناؤه واتقونى يا أهل العقول والأفهام بأداء فرائضى عليكم التى أوجبتها عليكم فى حجكم ومناسككم وغير ذلك من دينى الذى شرعته لكم، وخافوا عقابى باجتناب محارمى التى حرمتها عليكم تنجوا بذلك مما تخافون من غضبى عليكم وعقابى، وتدركوا ما تطلبون من الفوز بجناتى.

((القول في تأويل قوله تعالى :))

«لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تبتغُوا فضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فإذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ واذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِينَ» سورة البقرة (الآية: ١٩٨)

في الواحدى : عن أبي أمامة التيمي قال: سألت ابن عمر فقلت: إنّا قوم ذو كرى في هذا الوجه، وإن قوماً يزعمون أنه لا حجّ لنا، قال: ألستم تلبُّون؟ ألستم تطوفون بين الصفا والمروة؟ ألستم ألستم؟ قال: بلى، قال: إنَّ رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمَّا

سألت عنه، فلم يرد عليه حتى نزلت «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أن تبتغُوا فضْلاً مِنْ رَبّكُمْ**» فدعاه فتلا عليه حين نزلت، فقال: أنتم حجاج* وعن ابن عباس قال: كان ذو المجاز وعكاظ متجر ناس في الجاهلية، فلما جاء الإسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أن تبتغُوا فضْلاً مِنْ رَبّكُمْ**» في موسم الحج* وروى مجاهد عن ابن عباس قال: كانوايتقون البيوع والتجارة في الحج يقولون: أيام لذكر الله فأنزل الله تعالى «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أن تبتغُوا فضْلاً مِنْ رَبّكُمْ**» فاتجروا* وفي الخطيب: نزلت ردعاً لناس من العرب كانوا يتأثمون أن يتجروا أيام الحج، وإذا دخل العشر كفُّوا عن البيع والشراء فلم تقم لهم سوق، و يسمون من يخرج بالتجارة الدّاج. و يقولون: هؤلاء الدَّاج وليسو بالحجاج. وروى البخارى [أنه كانت عكاظ ومَجَنَّةُ وذو المجاز أسواقهم في الجاهلية، يتجرون فيها أيّام الموسم، وكانت معايشهم منها، فلمَّا جاء الإسلام تأثموا فرفع عنهم الجناح في ذلك وأبيح لهم] وعن عمر رضى الله عنه أنه قيل له: كنتم تكرهون التجارة في الحج؟ فقال: وهل كانت معايشنا إلاّ من التجارة في الحج* عكاظ: سوق لقيس. وَمِجَنَّةُ: سوق لكنانة بمرّ الظهران. وذو المجاز: سوق لهذيل. وفي القرطبي ما نصه: في هذه الآية دليل على جواز التجارة في الحج للحجاج مع أداء العبادة، وأنَّ القصد إلى ذلك لا يكون شركاً، ولا يخرج به المكلف عن رسم الإخلاص المفترض عليه خلافاً للفقراء ــ الصوفية ــ وفي الطبرى: وفي رواية عطاء عن ابن عباس: أنه كان يقرؤها: ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم في مواسم الحج. وفي القرطبي: حدثني يعقوب بن إبراهيم قال: ثنا ابن عليّة، قال: ثنا ليث عن مجاهد في قوله: «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أن تبتغُوا فضْلاً مِنْ رَبّكُمْ**» قال: التجارة في الدنيا والأجر في الآخرة* وفي غرائب القرآن للنيسابورى: عن أبى مسلم أنَّه حمل الآية على ما بعد الحج. قال: والتقدير، واتقون في كل أفعال الحج، ثم بعد ذلك ليس عليكم جناح أن تبتغوا ــ أى عطاء منه وتفضلاً في الرزق بسبب التجارة والربح بها كقوله «**وآخَرُونَ يضربونَ في الأرضِ يبتغونَ مِنْ فضل الله**» وكقوله: «**فإذَا قُضِيَت الصَّلاةُ فانتشروا فى الأرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فضلِ الله**» وزيف قوله هذا بأن حمل الآية على موضع الشبهة أولى من حملها لا على موضع الشبهة، ومحل الاشتباه هو التجارة في زمان الحج، وأما بعد الفراغ فالحل معلوم. وقياس الحج على الصلاة فاسد. فإن الصلاة أعمالها متصلة فلا يحل في أثنائها التشاغل

بغيرها، وأعمال الحج متفرقة تحتمل التجارة في خلالها، وأيضاً الفاء في قوله: «**فإذا أفضتُمْ**» ظاهرة في أنَّ هذه الافاضة حصلت عقب ابتغاء الفضل، وذلك يدل على أن المراد وقوع التجارة في زمان الحج، و يؤيده قراءة ابن عباس ــ المتقدمة ــ فضلاً من ربكم في مواسم الحج ــ... ومن المعلوم أنه إنما يباح ما لم يشغل عن العبادة ... وعن جعفر الصادق رضي الله عنه: أن ابتغاء الفضل هٰهنا طلب أعمال أُخر زائدة على أعمال الحج موجبة لفضل الله تعالى ورحمته كإعانة الضعيف وإغاثة الملهوف وإطعام الجائع وإرواء العطشان. وقال النيسابورى: واعلم أن الفضل ورد في القرآن بمعانٍ: منها: ما يتعلق بالمصالح الدنيوية من المال والجاه والغذاء واللباس. وهو المسمى بالرزق «**فانتشِرُوا في الأرْضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ**» ومنها ما يتعلق بالمصالح الأخروية وهو الفضل والثواب والجنة والرحمة «**تَراهُمْ رُكَعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ**» «**ولَولاَ فَضلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتّبَعْتُمُ الشيْطَانَ**» ومنها ما يتعلق بمواهب القربة «**ذَلِكَ فَضلُ اللهِ يؤتِيهِ مَنْ يَشَاءُ**» «**وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**» ورفع الجناح قد يستعمل في الواجب والمندوب مثل ما يستعمل في المباح كما مرّ في قوله: «**فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أنْ يَطّوّفَ بِهِمَا**» وفي الخازن: وقال بعض العلماء: إنَّ التجارة إن أوقعت نقصاً في أعمال الحج لم تكن مباحة، وإن لم توقع نقصاً فيه كانت من المباحات التى الأولى تركها لتجريد العبادة عن غيرها لأن الحج بدون التجارة أفضل وأكمل. ولعلّ سندهم قوله تعالى: «**ومـا أُمِرُوا إلاّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ**» والاخلاص هو أن لا يكون له حامل على الفعل سوى كونه عبادة.

والحاصل: أن الإذن في هذه التجارة جار مجرى الرُّخص كذا في الكرخى. والذي تُلخص في كتب الفروع في هذه المسئلة: أنَّ في التشريك بين العبادة وغيرها ثلاثة طرق: قال ابن عبدالسلام: إنه لا أجر فيه مطلقاً. أي سواء تساوى القصدان أم اختلفا. وقد اختار الغزاليُّ فيما إذا شرّك في العبادة غيرها من أمر دنيوى. اعتبار الباعث على العمل. فإن كان القصد الدنيوى هو الأغلب لم يكن فيه أجر. وإن كان القصد الدينيُّ أغلب فله بقدره وإن تساويا تساقطا. وقال ابن حجر في شرح المنهاج: والأوجه أنَّ قصد العبادات يثاب عليه بقدره، وإن انضم إليه غيره مساوياً أو راجحاً. وخالفه الرملى: فأعتمد طريقة الغزالى. ولكن يقال: جاء قوله تعالى: «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أن تبتغُوا فضْلاً مِنْ**

رَبِّكُمْ» كالاستدراك والاحتراس مما عساه يسبقُ إلى الفهم من منع التجارة في الحج. وذلك أنَّ الآيات السابقة أرشدت إلى حرمة الرَّفث والفسوق والجدال في الحج، والتجارة تفضى إلى الجدل والنزاع في قيم السلع قلّة وكثرة، فعقب ذلك ببيان حكمها، وأبان أن الكسب في أيام الحج مع ملاحظة أنَّه فضل من الله غير محظور، لأنه لا ينافى الإخلاص في هذه العبادة، وإنما الذي ينافيها أن يكون المقصد التجارة فحسب، بحيث لو لم يرج الكسب لم يسافر للحج ـ وقوله تعالى: «**فإذا أفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ**» أي يطلب من الحاج إذا دَفَعَ من عرفات إلى المزدلفة أن يذكر الله عند المشعر الحرام بالدّعاء والتّحميد والثناء والتّلبية، وإنما طلب منه ذلك خشية أن يتركه بعد المبيت، فطلب منه المضيّ في الذكر ما دام في هذا الموضع، وعرفة موضع الوقوف في الحج، وهى عمدة أفعال الحج. ولهذا روى الإمام أحمد وأهل السُّنن بإسناد صحيح عن الثورى عن بكير عن عطاء عن عبدالرحمن بن معمر الديلى قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [الحجُّ عَرَفات] ثلاثاً ــ فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك. وأيَّام منًى ثلاثة «**فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْه**» ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثاني من يوم النحر لأن النبي صلى الله عليه وسلم وقف في حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس. وقال: [لِتأخذوا عنى مناسككم] وقال في هذا الحديث [فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك] وهذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى رحمهم الله. وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة. واحتجوا بحديث الشعبى عن عروة بن مضرس بن حارثة بن لام الطائى قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة، فقلت يا رسول الله: إنى جئتُ من جبلى طىء أكلت راحلتى، واتعبتُ نفسى، والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه، فهل لى من حج؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع، وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلاً أو نهاراً فقد تم حجه، وقضى تفثه] رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذي. ثم قيل: إنما سميت عرفات لما رواه عبدالرازق. أخبرنى ابن جريج قال: قال ابن المسيّب: قال على بن أبى طالب كرم الله وجهه: بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم صلى الله عليه وسلم فحجّ به حتى إذا أتى عرفة قال: عرفتُ، وكان قد أتاها مرّة، قبل ذلك فلذلك

سمّيت عرفة. وقال ابن المبارك عن عبدالملك بن أبي سليمان عن عطاء قال: إنما سميت عرفة لأن جبريل كان يُرى إبراهيم المناسك فيقول عرفت عرفت. فسمّيت عرفات. وعن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رؤس الجبال كأنها العمائم على رؤس الرجال دَفَعُوا، فأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدَّفعةَ من عرفة حتى غَرَبَتِ الشمس. رواه بن مردو يه من حديث زمعة بن صالح. وزاد. ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغلس حتى إذا أسفر كل شيء، وكان في الوقت الآخر دفع، قال ابن كثير في التفسير: وهذا أحسن الإسناد. وقوله: **«واذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ»** أي كما علمكم تذكرونه بأن يكون بتضرع وخيفة وطمع في ثوابه، صادر عن رغبة ورهبة كما قال صلى الله عليه وسلم: [الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك] ولا تعدلوا عنه إلى ما كنتم تفعلونه في الجاهلية من الشرك واتخاذ الوسطاء بينكم و بينه. فلا تفرغ قلوبكم له. فقد كانوا يقولون في التلبية: لبّيْكَ لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك. و يؤيد هذا تذييل الآية بقوله: **«وإنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِينَ»** أي وإن كنتم من قبل هذا الهُدَى من الضالين عن الحق في العقائد والأعمال بعبادة الأ وثان والأصنام، و باتخاذ الوسطاء الذي يشفعون عنده و يقر بون إليه زلفى.

((القول في تأو يل قوله تعالى :))
«ثُمَّ أفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أفَاضَ النَّاسُ واسْتَغْفِرُوا اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة البقرة (الآية: ١٩٩)

في الواحدى: عن عائشة قالت: كانت العرب تفيض من عرفات، وقريش ومن دان بدينها تفيض من جُمَع من المشعر الحرام فأنزل الله تعالى: **«ثُمَّ أفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أفَاضَ النَّاس»** وأخبر ابن جبير بن مطعم عن أبيه قال: أضللت بعيراً لي يوم عرفة، فخرجتُ أطلبه بعرفة، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفاً مع الناس بعرفة، فقلت: هذا من الحمس ما له هٰهنا؟! قال سفيان: والأحمس: الشديد الشحيح على دينه، وكانت قريش تسمى الحُمْسَ، فجاء الشيطان فاستهواهم، فقال لهم: إنكم إن عظمتم غير حرمكم استحنف الناس غيركم، فكانوا لا يخرجون من الحرم. و يقفون بالمزدلفة، فلمّا جاء الإسلام أنزل الله عز وجل **«ثُمَّ أفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أفَاضَ**

النَّـاسُ» يعنى عرفة. رواه مسلم عن عمرو الناقد عن ابن عيينه* وفي ابن كثير: «ثُـمَّ» هـهنـا للعـطـف خبر على خبر، وتـرتيبه عليه كأنه تعالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام، وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات كما كـان جمـهور الـنـاس يـصـنـعـون، يقفون بها إلاَّ قريشاً فإنهم لم يكونوا يخرجون من الحرم، فـيقفون في طرف الحرم عند أدنى الحل، و يقولون نحن أهل الله في بلدته، وقطّان بيته قال الـبـخـارى: حـدَّثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت: كانت قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة، وكانوا يسمّون الحمس. وسائر العرب يقفون بعرفات.

فـلما جـاء الإسـلام أمـر الله نـبيه أن يأتى عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها فذلك قـوله: «من حيثُ أفاض الناسُ» وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والسدى وغيرهم: واختاره ابن جرير وحكى عليه الإجماع* وفي الطبرى: «ثُمَّ أفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أفَـاضَ الـنّـاسُ» قـيـل الخطاب للحُمْس، فإنهم كانوا لا يقفون مع الناس بعرفات، بل كـانـوا يـقفون بالمزدلفة، وهي من الحرم، وكانوا يقولون نحن قطين الله ـ أي سكان حرمه ـ فـيـنبغى لنا أن نعظم الحرم، ولا نعظم شيئاً من الحل، وكانوا مع معرفتهم واقرارهم أن عـرفـة مـوقـف إبراهيم عليه السلام لا يخرجون من الحرم. و يقفون بجمع، و يفيضون منه. و يـقـف الـنـاس بـعـرفة، فقيل لهم أفيضوا مع الجملة* والمراد بـ «النّاس» إبراهيم عليه السلام كما قال: «الَّـذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاسُ» وهويريد واحداً. والمعنى أفيضوا من حيث أفـاض إبـراهيم مـن مـزدلـفـة جمع، أي ثم أفـيضوا إلى منًى لأن الافاضة من عرفات قبل الإفاضة من جمع.

فالمعنى: عليكم أن تفيضوا مع الناس من مكان واحدٍ تحقيقاً للمساواة وتركاً للتفاخر وعدم الامـتـيـاز لأحد على أحدٍ، وذلك من أهم مقاصد الدين. وقيل المراد بـ «النّاسُ» هـنـا آدم وحـده بـدلـيـل قراءة سعيد بن جبير، ثم أفيضوا من حيثُ أفاض النّاسىِ بالياء وقـال هـو آدم عـهـد إليه فنسى، ووجه هذا أن الوقوف بعرفات والإفاضة منها شرع قديم، ومـا سـواه مـبـدَع محدث وقوله: «واسْتَغْفِروا الله» ممّا أحدثتُم من تغيير المناسك بعد آدم وإبـراهيم، وإدخـال الـشـرك في أعـمـال الحجّ «إنّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ» أي إنَّه تعالى واسع المـغـفـرة والرَّحمة لمن يستغفره مع الإنابة والتوبة، روى البخارى عن شدَّاد بن أوس قال: قـال رسـول الله صلى الله عليه وسلم: [سيّدُ الاستغفار أن يقول العبد: اللهمَّ أنْتَ رَبى لاَ

إلـٰـهَ إلاَّ أنْتَ خلقتني، وأنا عبْدُكَ، وأنَا على عَهْدِكَ ووعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ أعوذ بكَ من شرّ مـا صـنـعْتُ أبوء لَكَ بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لى فإنَّه لا يغفرُ الذُّنوبَ إلاَّ أنت. من قـالهـا في لـيـلـتـه فـمـات في لـيـلـتـه دخـل الجنة، ومن قالها في يومه فمات دخل الجنة] وفي الـصحـيـحين عن عبدالله بن عمر أنَّ أبا بكر قال يا رسول الله: علمني دعاء أدعوا به في صلاتي فقال: [قُلْ اللّهُمَّ إني ظلمتُ نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوبَ إلاَّ أنت، فاغفر لى مـغـفـرةً من عـنـدك، وارحمني إنـك أنت الغفور الرحيم] والغفور يفيد المبالغة في الغفر، وكـذا الـرحيم. وفـيـه دلـيـل على أنه تعالى يقبل التوبة من عبادة التائبين و يغفر لهم لأنه تـعـالى أمـر المـذنـب بـالاستغفار. ثم وصف نفسه تعالى بأنَّه كثير الغفران كثير الرحمة فدل ذلك على أنَّه تعالى يغفر للمستغفرين، و يرحم المذنبين بمنه وكرمه.

((القول في تأويل قوله تعالى :))

«فَـإذَا قضَيْتُمْ مناسِكَكُمْ فاذْكُرُوا الله كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أوأشدَّ ذِكْراً فَـمِـنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ربَّنَا آتِنا فى الدُّنيا ومَالَه فى الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ* وَمِـنْـهُـمْ مَـنْ يَـقُـولُ ربَّـنَـا آتِـنَـا فى الدُّنيا حَسَنةً وفى الآخِرةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذَابَ الـنَّـارِ* أُولٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ ممَّا كَسَبُوا والله سَرِيعُ الْحِسَابِ»

سورة البقرة (آية: ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢)

في الـواحـدى : قـال مجـاهـد: كـان أهـل الجـاهـلية إذا اجتمعوا بالموسم ذكروا فعل آبـاءهـم في الجـاهـلـيـة، وأيَّـامـهـم وأنـسـابهـم فتفاخروا فأنزل الله تعالى **«فاذْكُرُوا الله كَذِكْرِكُـمْ آبـاءَكُـمْ أوأشـدَّ ذِكْـراً»** وعبارة القرطبي: كانت عادة العرب إذا قضت حـجـهـا تقف عند الجمرة فتفاخر بالآباء، وتذكر أيام أسلافها من بسالة وكرم وغير ذلك حتى أن الـواحـد منهـم لـيـقـول: اللهم إن أبى كان عظيم القبة، وعظيم الجفنة، كثير المال فـأعـطـنى مـثل ما أعطيته فلا يذكر غير أبيه. فنزلت الآية ليلزموا أنفسهم ذكر الله أكثر من الـتـزامـهـم ذكر أبائهم أيام الجاهلية* هذا قول جمهور المفسرين. وقال ابن عباس وعطاء والـضحاك والربيع: معنى الآية: واذكروا الله كذكر الأطفال آباءهم وأمهاتهم: أبَهْ أُمَّه* أي فـاسـتـغيثوا به والجئوا إليه كما كنتم تفعلون في حال صغركم بآبائكم* وقالت طائفة: معنى الآية: اذكروا الله وعظموه وذبُّوا عن حُرَمَهِ، وادفعوا من أراد الشرك في دينه ومشاعره

كما تذكَرون آباءكم بالخير إذا غُضّ أحد منهم، وتحمون جوانبهم وتذبُّون عنهم* وقال أبو الجوزاء لابن عباس: إن الرجل اليوم لا يذكر أباه فما معنى الآية؟ قال: ليس كذلك، ولكن أن تغضب لله تعالى إذا عُصيَ أشدّ من غضبك لوالديك إذا شُتما* وفي الطبرى: حدثني محمد بن عمرو قال: ثنا أبوعاصم عن عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: قال: تفاخرت العرب بينها بفعل آبائها يوم النحر حين فرغوا. فأمروا بذكر الله مكان ذلك* وقال حدثني بشر بن معاذ قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد عن قتادة، قال: كان أهل الجاهلية إذا قضوا مناسكهم بمنى قعدوا حلقاً فذكروا صنيع آبائهم في الجاهلية، وفعالهم به يخطب خطيبهم، ويحدّثُ محدثهم، فأمر الله عز وجل المسلمين أن يذكروا الله كذكر أهل الجاهلية آباءهم، أو أشد ذكراً* و يرى الطبرى أن الصواب في تأويل الآية أن يقال إنَّ الله جل ثناؤه أمر عباده المؤمنين بذكره بالطاعة له فى الخضوع لأمره، والعبادة له بعد قضاء مناسكهم، وذلك الذكر جائز أن يكون هو التكبير الذي أمر به جل ثناؤه بقوله: «**واذكرُوا الله في أيّامٍ معدودات**» الذي أوجبه على من قضى نسكه، فألزمه حينئذٍ من ذكره ما لم يكن له لازماً قبل ذلك، وحثَّ على المحافظة عليه محافظة الأ بناء على ذكر الآباء في الإكثار منه بالاستكانة له والتضرع إليه بالرّغبة منهم إليه في حوائجهم كتضرع الولد لوالده، والصبى لأمه وأبيه، أو أشدّ من ذلك إذا كان ما كان بهم و بآبائهم من نعمة فنه وهو وليّهم* أي أن المقصود منه الحثُّ على كثرة الذكر لله عز وجل. ولهذا كان انتصاب قوله: «**أوْ أشدَّ ذِكْراً**» على التميز. تقديره كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً، وأو ههنا لتحقيق المماثلة في الخبر كقوله: «**فهيَ كالحجارة أو أشدُّ قسوة**» وقوله: «**يخشوْنَ النّاسَ كخشيةِ الله أو أشدَّ خشيةً**» فليست ههنا للشك قطعاً. وإنما هى لتحقيق الخبر عنه كذلك أو أزيد منه، وقيل «**أوْ**» بمعين الواو أي وأشد ذكراً أي وأكثر ذكراً للآباء لأنه هو المنعم عليهم وعلى الآباء، فهو المستحق للذكر والحمد مطلقاً، وقوله: «**فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ربّنَا آتِنا فى الدُّنيا**» عبارة الخازن: يعنى أن المشركين كانوا يسألون الله في حجهم الدُّنيا ونعيمها، كانوا يقولون: الله أعطنا إبلاً وغنماً و بقراً وعبيداً وإماءً، وكان أحدهم يقوم فيقول: الله إن أبى كان عظيم الفئة كبير الجفنة، كثير المال، فاعطنى مثل ما أعطيته، قال قتادة: هذا عبدٌ نيّتُهُ الدنيا، لها أنفق ولها عمل ونصب. روى البخارى عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [تَعسَ

عبدُ الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة، إن أعطى رضى وإن لم يعطى سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش] قوله عليه الصلاة والسلام: تعس عبد الدينار، هذا دعاء عليه بالهلاك، وهو الوقوع على الوجه من العثار، والخميصة ثوب من خز أو صوف معلّم. قوله: وانتكس: هذا دعاء عليه أيضاً لأن من انتكس على رأسه أو في أمره فقد خاب وخسر. قوله: وإذا شيك: هذا فعل ما لم يسم فاعله تقول: شاكته الشوكة إذا دخلت في جسمه، والانتقاش: اخراج الشوكة من الجسم. وإنما كان سؤال المشركين للدنيا ولم يطلبوا التوبة والمغفرة ونعيم الآخرة لأنهم كانوا ينكرون البعث «**وَمَا لَه فِى الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**» أي وماله في الآخرة من حظ ولا نصيب. وقوله: «**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنيا حَسَنَةً وفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذَابَ النَّارِ**» يعنى المؤمنين

وعبارة الخازن: واعلم أن الله تعالى قسم الداعين فريقين: فريق اقتصر في الدعاء على طلب الدنيا وهم الكفار لأنهم كانوا لا يعتقدون البعث والآخرة. والفريق الثانى: هم المؤمنون الذين جمعوا في الدعاء بين طلب الدنيا والآخرة. وذلك أن الإنسان خلق ضعيفاً محتاجاً لا طاقة له بآلام الدنيا ومتاعبها. فالأولى له أن يستعيذ بالله من شرها وآلامها لأنه لو اضطرب على الإنسان عرق من عروقه لشوّش عليه حياته في الدنيا، وتعطل عن الاشتغال بطاعة الله تعالى: فثبت بذلك أن طلب الدنيا في الدعاء من أمر الدين فلذلك قال الله تعالى إخباراً عن المؤمنين «**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنيا حَسَنَةً وفِى الآخِرَةِ حَسَنَةً**» قيل إن الحسنة في الدنيا عبارة عن الصحة والأمن والكفاية والتوفيق إلى الخير والنصر على الأعداء والولد الصالح والزوجة الصالحة. روى مسلم عن عبدالله بن عمرو بن العاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة] وقيل الحسنة في الدنيا: العلم والعبادة، وفي الآخرة الجنة. وقيل الحسنة في الدنيا: الرزق الحلال والعمل الصالح. وفي الآخرة: المغفرة والثواب. وقيل من آتاه الإسلام والقرآن وأهلاً ومالاً فقد أوتى في الدنيا الحسنة وفي الآخرة حسنة. يعنى في الدنيا عافية وفي الآخرة عافية. وروى مسلم عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عاد رجلاً من المسلمين قد خفت فصار مثل الفرخ. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: [هل كنت تدعو الله بشيء، أو تسأله إياه؟ قال: نعم، كنت أقول: الله ما كنت معافيني به فى الآخرة فعجله لى في الدنيا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: سبحان

الله!! لا تطيقه ولا تستطيعه ، أفلا قلت: اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار] قال: فدعا الله به فشفاه* وأخرج الشيخان عن أنس بن مالك قال: كان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: [اللهم آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار] وعن عبدالله بن السائب قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بين الركنين: [ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار] أخرجه أبوداود* والانصاف أنه سبحانه لو سلّط الآلم على عرق واحد في البدن، أو على منبت شعرة واحدة عجز الإنسان عن الصبر عليه، وقد يفضى ذلك به إلى الجزع و يعوقه عن اكتساب الكمالات، ويحمله على إهمال وظائف الطاعات، ومن ذا الذي يستغنى عن إمداد الله إياه في دنياه وعقباه. «**أُولئكَ**» إشارة إلى المؤمنين الداعين بالحسنتين. ووجه هذا القول أن الله ذكر حكم الفريق بكماله فقال: وما له في الآخرة من خلاق. وقيل: يرجع إلى الفريقين. أي كل فريق له نصيب بحسب ما دعاه، ومشى الجلال في تقريره على الإحتمال الأول. وفي الغرائب: وعن علىّ رضي الله عنه قال: الحسنة في الدنيا المرأة الصالحة، وفي الآخرة الحوراء، وعذاب النار: امرأة السوء. وقوله: «**أُولٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ**» وأتى نصيب «**مِمَّا كَسَبُوا**» من جنس ما كسبوا من الأعمال الحسنة، وهوالثواب الذي هو المنافع الحسنة. فمن للابتداء. ويحتمل التعليل. أي من أجل ما كسبوا كقوله «**مِمَّا خطيئاتِهِمْ أُغْرِقوا**» والكسب ما يناله المرء بعمله. ومنه يقال للأرباح إنّه كسب فلان. أو لهم نصب مما دعُوا به يعطيهم بحسب مصالحهم في الدنيا واستحقاقهم في الآخرة. وسمى الدعاء كسباً لأنه من الأعمال، والأعمال موصوفة بالكسب «**وَمَا أَصَابَكُمْ من مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**» وفي ابن كثير: قال سعيد بن جبير عن ابن عباس: كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف، فيقولون: اللهم اجعله عام غيث، وعام خصب، وعام ولاد حسن لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً فأنزل الله فيهم «**فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ربَّنَا آتِنَا فى الدُّنيا ومَالَه فى الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ**» وكان يجيء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون: «**ربَّنَا آتِنَا فى الدُّنيا حَسَنَةً وفى الآخِرةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذَابَ النَّارِ**» فأنزل الله «**أُولٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ ممَّا كَسَبُوا والله سَرِيعُ الحِسَابِ**» ولهذا مدح من يسأله الدنيا والآخرة فقال: «**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فى الدُّنيا حَسَنَةً وفى الآخِرةِ حَسَنَةً وقِنَا عَذَابَ النَّارِ**» فجمعت هذه الدعوة كل خير في

الدنيا، وصرفت كل شر، فإن كل الحسنة في الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوى من عافيه ودار رحبة، وزوجة حنة، ورزق واسع وعلم نافع وعمل صالح، ومركب هيّن وثناء جميل إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين، ولا منافاة بينها فإنها كلها مندرجة في الحسنة في الدنيا. وأما الحسنة في الآخرة: فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر في العرصات، وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة. وأما النجاة من النار فهو يقتضى تيسير أسبابه في الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام. وقال القاسم: أبوعبدالرحمن: من أعطى قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وجسداً صابراً فقد أوتى في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، ووقى عذاب النار* وقوله: «**والله سَرِيعُ الْحِسَابِ**» السرعة نقيض البطء. والحساب مصدر كالمحاسبة وهو العدُّ. قال الزجاج: هو مأخوذ من قولك حسبك كذا. أي كفاك. وذلك أن فيه كفاية وليس فيه زيادة على المقدار ولا نقصان، ومعنى كون الله محاسباً لخلقه، قيل إنه يعلمهم مالهم وعليهم بأن يخلق العلم الضرورى في قلوبهم بمقادير أعمالهم وكميّاتها وكيفيَّاتها، وبمقادير ما لهم من الثواب والعقاب، ووجه هذا المجاز أن الحساب سبب لحصول علم الانسان بماله وعليه فإطلاق الحساب على هذا الاعلام اطلاق اسم السبب على المسبب. عن ابن عباس أنه قال: لا حساب على الخلق بل يقفون بين يدى الله يعطون كتبهم بأيمَانهم فيها سيئاتهم فيقال لهم: هذ سيئاتكم قد تجاوزت عنها، ثم يعطون حسناتهم، و يقال هذه حسناتكم قد ضعفتها لكم* وقيل: المحاسبة المجازاة «**وكأيِّن مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً**» ووجه المجاز أن الحساب سبب للأخذ والاعطاء. وقيل: إنه تعالى يكلم العباد في أحوال أعمالهم، وكيفية ما لها من الثواب والعقاب، فمن قال: إن كلامه ليس بحرف ولا صوت، قال: إنه تعالى يخلق في أذن المكلف سمعاً يسمع به كلامه القديم كما يخلق في عينه رؤية يرى بها ذاته القديمة، ومن قال: إنَّه صوت، قال: إنه تعالى يخلق كلاماً يسمعه كل مكلف. إما بأن يخلق ذلك الكلام في أذن كل واحد منهم، أوفي جسم يقرب من أذنه بحيث لا يبلغ قوة ذلك الصوت مبلغاً يمنع الغير من فهم ما كلف به، فهذا هو المراد من كونه محاسباً لخلقه. ومعنى كونه سريع الحساب أن قدرته تعالى متعلقة بجميع الممكنات من غير أن يفتقر في إحداث شيء إلى فكر وروية ومدّة وعدّة، ولذلك ورد في الخبر أنه يحاسب الخلق في مقدار حلب شاة.

وروى في لمحة. أو أنه سريع القبول لدعاء عباده والإجابة لهم، لأنه قادر على أن يعطى مطالب جميع الخلائق في لحظة واحدة كما ورد في الدعاء المأثور: [يامن لا يشغله سمعٌ عن سمع] أو أن وقت جزائه وحسابه سريع. يوشك أن يقيم القيامة ويحاسب البعاد. كقوله تعالى: «اقْتَرَبَ للنَّاسِ حِسَابُهُمْ» كذا في الغرائب: نقلاً عن الخازن.

((القول في تأويل قوله تعالى :))

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِى قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ* وإذَا تَوَلَّى سَعَى فِى الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ والنَّسْلَ واللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ* وإذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمَ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ*»

سورة البقرة (الآية: ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٦)

في الواحدى: قال السدى: نزلت في الأخنس بن شُريق الثقفى. وهو حليف بنى زهرة أقبل إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فأظهر الإسلام وأعجب النبي صلى الله عليه وسلم ذلك منه، وقال: إنما جئتُ أريد الإسلام. والله يعلم إنى لصادق وذلك قوله: «ويُشهِدُ اللهَ عَلَى مَا فى قَلْبِهِ» ثم خرج من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فمر بزرع لقوم من المسلمين وحُمُر. فأحرق الزرع وعقر الحُمُر، فأنزل الله تعالى «وإذَا تَوَلَّى سَعَى في الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ والنَّسْلَ»* وفي الخطيب: هو الأخنس بن شريق الثقفى حليف بنى زهرة، واسمه أُبى، وسميّ الأخنس لأنه خنس يوم بدر بثلاثمائة رجل من بنى زهرة عن القتال مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان منافقاً حلو المنظر، حلو الكلام للنبي صلى الله عليه وسلم، يحلف أنه مؤمن، ومحبٌ له، و يقول: يعلم الله أنى صادق، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنى مجلسه، وقوله تعالى: «في الْحيَاة الدُّنيا» متعلق بالقول. أي يعجبك ما يقوله في أمور الدنيا: أسباب المعاش، أو في معنى الدنيا لأن ادعاء المحبة بالباطل يطلب به حظاً من حظوظ الدنيا، ولا يريد الآخرة كما يراد بالإيمان الحقيقى، والمحبة الصادقة للرسول صلى الله عليه وسلم، فكلامه إذاً في الدنيا لا في الآخرة. أو يعجبك قوله في الحياة الدينا حلاوة وفصاحة، ولا يعجبك في الآخرة لما يرهقه في الموقف من الدهشة واللكنَة، أو لأنه لا يؤذن له في الكلام. فلا يتكلم

حتى يعجبك كلامه «وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ» أنه موافق لكلامه «وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ» أي أشد الخصومة لك ولأتباعك لعداوته لك. وقال الحسن: ألَدُّ الخصام: أي كاذب القول* وقال قتادة: شديد الفسوق في المعصية، جدل بالباطل، يتكلم بالحكمة، و يعمل بالخطيئة* وفي الحديث [إنَّ ابغض الرجال إلى الله الألد الخصم] «وإِذَا تَوَلَّى» أي انصرف عنك بعد إلانة القول وحلاوة المنطق « سَعَى» أي مشى «فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فيها» قال ابن جرير: يقطع الرحم، و يسفك دماء المسلمين «وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ والنَّسْلَ» وذلك أن الأخنس كان بينه و بين ثقيف خصومة فبيتهم ليلاً فأحرق زرعهم وأهلك مواشيهم، وقيل: وإذا كان والياً فعل ما يفعله ولاة السوء من الفساد في الأرض بإهلاك الحرث والنسل. وقيل: يظهر الظلم حتى يمنى الله تعالى بشؤم ظلمه القطر. فيهلك الحرث والنسل. وحكى الزجاج عن قوم أن الحرث: النساء. والنسل: الأولاد، قال: وهذا ليس بمنكر لأن المرأة تسمى حرثاً. أي و يدل له قوله تعالى: «فأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شئْتُمْ» «والله لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ» أي لا يرضى به، لأن المحبة وهي ميل القلب محالة في حقه تعالى. فهي مستعملة في حقه تعالى في معنى الرضا «وإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ» في فعلك «أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ» أي حملته الأنفةُ والحمية على العمل «بالإِثْمِ» الذي يؤمر بإتقانه «فَحَسْبُهُ» أي كافيه «جَهَنَّمَ» جزاءً وعذاباً، وهى عَلَمٌ لدار العقاب. وهو فى الأصل مرادف للنار. وسميت بذلك لبعد قعرها. وأصلها من الجهم وهو الكراهة* وفي القرطبي: زيادة على ما تقدم في الواحدى والخطيب: فمرّ بزرع لقوم من المسلمين، و بحُمُر فأحرق الزرع، وعقر الحمر. قال المهدوى: وفيه نزلت «ولا تطع كل حلاَّف مَهينٍ * همّازٍ مشّاءٍ بِنَمِيمٍ» و «وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ» وقال ابن عطيه: ما ثبت قط أن الأخنس أسلم* وقال ابن عباس: نزلت في قوم من المنافقين تكلموا في الذين قتلوا في غزوة الرّجيع* وقد أوضح هذا الطبرى في تفسيره قال: لما أصِيبت هذه السرية: أصحاب خبيبٍ بالرّجيع بين مكة والمدينة[1] فقال: رجالٌ من المنافقين: ياو يح هؤلاء المقتولين الذين هلكوا هكذا، لا هُمْ قَعَدوا في بيوتهم، ولا هم أدُّوا رسالة صاحبهم، فأنزل الله عز وجل في ذلك من قول المنافقين وما أصاب أولئك النفر من الشهادة والخير من الله «ومن

---

(١) راجع كتابى صحيح السيرة وفقهها ستجد الموضوع وافياً مما يسرُّ بالك و يشرح صدرك

النّـاسِ مَـنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ في الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» أي ما يظهر بلسانه من الإسلام، و يُشهد الله على ما في قلبه من النفاق، وهو ألد الخصام أي ذو جدال إذا كلمك وراجعك.. وقال أبوجعفر: حدثني محمد بن أبي معشر، قال أخبرني أبي: أبومعشر نجيح سمعت سعيد المقبري يذاكر محمد بن كعب، قال سعيد: إن في بعض الكتب: إن لله عباداً ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصبر، لبسوا للناس مسوكَ الضأن من اللّين يشترون الدنيا بالدين. قال الله تبارك وتعالى: أعلي يجترؤن وبي يغترون، وعزتي لأ بعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران* فقال محمد بن كعب: هذا كتاب الله جلَّ ثناؤه. فقال سعيد: وأين هو من كتاب الله؟ قال: قول الله عز وجل: **«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا و يُشْهِدُ الله عَلَى ما فى قَلْبِهِ وَهُوَ ألَدُّ الْخِصَامِ* وإذَا تَوَلَّى سَعَى في الأ رْض لِيُفْسِدَ فيها وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ والنَّسْلَ والله لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ»** فقال سعيد: قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية فقال محمد بن كعب: إن الآية تنزل في الرجل، ثم تكون عامة بعد. وحدّث الطبرى عن القرطبي عن نوف وكان يقرأ الكتب، قال: إنى لأجد صفة ناس من هذه الأمة في كتاب الله المنزل: قوم يحتالون الدنيا بالدين، ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرُّ من الصبر، حلفتُ بنفسى لأ بعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيهم حيران* قال القرطبي: تدبّرتها في القرآن فإذا هم المنافقون. فوجدتها: **«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا و يُشْهِدُ الله عَلَى ما فى قَلْبِهِ وَهُوَ ألَدُّ الْخِصَامِ» «وَمِنَ النّـاسِ مَنْ يَعْبُدُ الله عَلَى حَرْفٍ فإنْ أصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأنَّ به»** وكل ما تقدم ذكره موجود في ابن كثير. وقوله: **«وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ»** أي جعلت جهنم لهم بدل مهاد يفترشونه كذا في السّمين. وهو جواب قسم مقدر أي والله. وفي الخازن: والمعنى أن العذاب بالنار يجعل تحته وفوقه. قال ابن مسعود: إن من أكبر الذنوب عند الله أن يقال للعبد اتق الله فيقول عليك بنفسك* وروى أنه قيل لعمر رضى الله عنه: اتق الله، فوضع خدّه على الأ رض تواضعاً لله تعالى.

قال المراغي: دلت الآيات السابقة على أن المقصد من كل العبادات هو تقوى الله بإصلاح القلوب. وإنارتها بذكره تعالى، لاستشعارها عظمته وفضله، وعلى أن طلب الدنيا من الوجوه الحسنة لا ينافى التقوى بل يعين عليها، خلافاً لما ذهب إليه أهل الأديان السابقة من أن تعذيب الأجساد وحرمانها من طيبات الدنيا هو أسُّ الدين وأصله، وأن من يطلب الدنيا، ويجعل لها عناية خاصة ليس له في الآخرة من خلاق.

((القول في تأويل قوله تعالى :))

«وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ واللهُ رؤف بالْعِبادِ»

سورة البقرة (الآية: ٢٠٧)

في الواحدى: قال سعيد بن المسيّب: أقبل صهيبٌ مهاجراً نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتبعه نفرٌ من قريش من المشركين، فنزل عن راحلته، ونثر ما في كنانته، وأخذ قوسه، ثم قال: يا معشر قريش لقد علمتم أنّى من أرماكم رجلاً، وأيم الله لا تصلون إليَّ حتى أرمى بما في كنانتى، ثم أضرب بسيفى ما بقى في يدى منه شيء، ثم افعلوا بى ما شئتُم، قالوا: دلنا على بيتك ومالك بمكة ونخلّى عنك، وعاهدوه إن دلَّهُمْ أن يدعوه ففعل، فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قال: أبا يحى ربح البيع ربح البيع ربح البيع، وأنزل الله «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ...**» وقال الحسن: أتدرون فيمن نزلت هذه الآية؟ في المسلم يلقى الكافر فيقول له: قل لا إله إلاَّ الله، فإذا قُلتها عَصَمْتَ مالك ودمك. فأبى أن يقولها، فقال المسلم: والله لأشرين نفسى الله، فتقدَّم فقاتل حتى قُتل* وفي الخطيب: وقال أكثر المفسرين: نزلت في صهيب بن سنان الرُّومى. أخذه المشركون في رهط من المؤمنين، فعذبوهم، فقال لهم: إنى شيخ كبير لا يضرّ أمِنْكم كنتُ أم من غيركم، فهل لكم أن تأخذوا مالى وتذرونى ودينى، ففعلوا، وكان شرط عليهم راحلة ونفقةً، فأقام بمكة ما شاء الله، ثم خرج إلى المدينة، فتلقاه أبوبكر وعمر رضي الله تعالى عنهما في رجال: فقال له أبوبكر: ربح بيعك أبا يحى، فقال: وما ذاك؟ فقال: أنزل الله فيك قرآناً، وقرأ عليه هذه الآية. فعلى هذا يكون يشرى بمعنى يشترى: أي يبيع و يبذل، وفي الخطيب أيضاً: وقيل نزلت في الزبير والمقداد بن الأسود. وذلك أنَّ كفار قريش بعثوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالمدينة، أن قد أسلمنا، فابعث إلينا نفراً من علماء أصحابك يعلموننا دينك، وكان ذلك مكراً منهم، فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو هريرة: عشرة من جملتهم خبيب، فقتلوهم وأسروا خبيباً، قال آسره: والله ما رأيت أسيراً خيرا من خبيب، والله وجدته يوماً يأكل قطفاً من عنب في يده، وإنه لموثق بالحديد، وما بمكة من ثمرة، وإن كان إلا رزقاً رزقه الله خبيباً، ثم أرادوا قتله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه في الحل، وأرادوا أن يصلبوه، فقال: دعونى أصلى

ركعتين، فتركوه حتى صلاهما، ثم قال: لولا أخشى أن تحسبُوا أنَّ ما بى من جزع لزدت. ثم قال: اللهمّ أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبق منهم أحداً، ثم أنشأ يقول:

ولستُ أبالى حينَ أقتل مسلماً — على أي شق كانَ فى الله مصرعى

وذلك في ذات الإله وإن يشأ — يبارك على أوصال شلو ممزّع

ثم صلبوه حياً، فقال: الله إنك تعلم أنه ليس أحد حولى يبلغ سلامى رسولك فأبلغه سلامى، ثم قام عقبة بن الحارث فقتله، فلمّا بلغ النبي صلى الله عليه وسلم هذا الخبر قال: [أيكم ينزل خبيباً عن خشبته وله الجنة؟] فقال الزبير بن العوَّام: أنا يا رسول الله وصاحبي المقداد. فخرجا يسيران بالليل، و يكمنان بالنهار حتى وصلا إليه ليلاً، وإذا حول الخشبة أربعون رجلاً من المشركين نيام. فأنزله الزبير، وحمله على فرسه وسارا، فانتبه الكفارُ فلم يجدوه. فأخبروا قريشاً، فركب منهم سبعون، فلما لحقوهما قذف الزبير خبيباً فابتلعته الأرض. فسمى بليع الأرض. ثم رفع الزبير العمامة عن رأسه وقال أنا الزبير بن العوَّام، وأمى صفيّة بنت عبدالمطلب، وصاحبي المقداد بن الأسود، فإن شئتم ناضلتكم، وإن شئتم نازلتكم، وإن شئتم انصرفتم، فانصرفوا إلى مكة، وقدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبريل عنده، فقال يا محمد إن الملائكة لتُباهى بهذين من أصحابك، فنزلت فيهما هذه الآية* وفي القرطبي: وقيل نزلت فيمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر. وعلى ذلك تأولها عمر وعلى وابن عباس رضي الله عنهم. قال علىٌّ وابن عباس: اقتتل الرجلان، فقال المغيّر للمفسد: اتق الله، فأبى المفسد، وأخذته العزة، فشرى المغيّرُ نفسه من الله وقاتله فاقتتلا أي قتل* وقال أبوالخليل: سمع عمر بن الخطاب إنساناً يقرأ هذه الآية، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، قام رجل يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر فقتل* وقيل: نزلت فيمن يقتحم القتال. حمل هشام بن عامر على الصف في القسطنطينية فقاتل حتى قتل. فقرأ أبوهريرة رضي الله عنه «**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ**» ومثله عن أبى أيوب. وقال قتادة: هم المهاجرون والأنصار* وقيل: نزلت في على كرم الله وجهه حين تركه النبي صلى الله عليه وسلم على فراشه ليلة خرج إلى الغار* وفي الطبرى عن عكرمة قال: نزلت في صهيب بن سنان وأبى ذرّ الغفارى: جندب بن السكن، أخذ أهل أبى ذرّ أبا ذرٍّ فانفلت منهم فقدم على النبي صلى الله عليه وسلم، فلما رجع مهاجراً عرضوا له، وكانوا بمرّ الظهران فانفلت أيضاً حتى قدم

على النبي صلى الله عليه وسلم، وأما صهيب فأخذه أهله، فافتدى منهم بماله ثم خرج مهاجراً، فأدركه منقذ بن عمير جدعان فخرج له ما بقي من ماله وخلى سبيله.

والحق أن الوصف عام في كل من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله سواء في جهاد الأعداء أم بمعروف أو نهى عن المنكر. فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وأما تفسير الآية: فذكر المفسرون أن المراد بهذا الشراء: البيع. ومنه قوله: «**وشروه بثمنٍ**» أي باعوه. والمعنى أن المسلم يبيع نفسه بثواب الله تعالى في الدار الآخرة. وهذا البيع هو أن يبذل نفسه في طاعة الله من صلاة وصيام وحج وجهاد وأمرٍ بمعروف ونهى عن منكر. فكان ما يبذله من نفسه كالسلعة، فصار كالبائع. والله تعالى المشترى. والثمن: هو ثواب الله تعالى فى الآخرة «**ابتغاء مرضاة الله**» أي طلب رضاه وفيه دليل على أن كل مشقة يتحملها الإنسان يجب أن تكون على وفق الشرع، ومطلوباً بها جانب الحق، وإلا كان عمله ضلالاً وكده و بالاً «**والله رؤف بالعباد**» فن رأفته أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها، ومن رأفته أن المصرّعلى الكفر مائة سنة إذا تاب أسقط عقابه وأعطاه ثوابه «**فأولئك يُبدّلُ الله سيآتهم حسناتٍ وكان الله غفوراً رحيماً**» ومن رأفته أن النفس له والمال له ثم إنه يشترى ملكه بملكه فضلاً منه وامتناناً ورحمة وإحساناً.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فى السِّلْمِ كَافَّةً ولا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ» سورة البقرة (الآية: ٢٠٨)

في الواحدى: قال عطاء عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبدالله بن سلام وأصحابه، وذلك أنَّهم حينما آمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم فآمَنُوا بشرائعه وشرائع موسى، فعظَّمُوا السبْتَ، وكرهوا لَحْمَانِ: الإبل وألبانها بعد ما أسلموا فأنكر ذلك عليهم المسلمون، فقالوا: إنَّا نقوى على هذا وهذا، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: إنَّ التوراة كتاب الله، فدعنا فلنعمل بها فأنزل الله تعالى هذه الآية* فالسّلم هنا معناه الإسلام قاله ابن عباس. وعليه قول الشاعر الكندى:

دعوت عشيرتى للسّلْم لمَّا رأيتهم تولوا مدبرينا

أي دعاهم إلى الإسلام لمَّا ارتدت كنده بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم مع الأشعث

بن قيس الكِندى، ولأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالدخول في المسالمة التي هى الصلح. وإنما قيل للنبي صلى الله عليه وسلم أن يجنح للسلم إذا جنحوا له، وأمَّا أن يبتدىء بها فلا، و يدخل في الذين آمنوا المصدقون بمحمد صلى الله عليه وسلم، وبما جاء به، والمصدّقون بمن قبله من الأنبياء والرسل، وما جاؤا به، وقد دعا الله تعالى كلا الفريقين. أي أهل الكتاب والمؤمنين إلى العمل بشرائع الإسلام وحدوده والمحافظة على فرائضه التي فرضها، ونهاهم عن تضييع شيء من ذلك، فالآية عامة لكل من شمله اسم الإيمان، وهو قول مجاهد رضي الله عنه. وكافّةً هنا بمعنى جميعاً، وفي صحيح مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [والذي نفسُ محمدٍ بيده، لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمة: يهوديٌّ ولا نصرانيٌّ ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار] وفي القرطبي: وقال مقاتل: استأذن عبدالله بن سلام وأصحابه أن يقرؤا التوراة في الصلاة، وأن يعملوا ببعض ما في التوراة فنزلت: «**ولاَ تتبعُوا خُطُواتِ الشّيْطان**» زاد مسلم في صحيحه: فإن اتباع السنة واجب. وقيل لا تسلكوا الطريق الذى يدعوكم إليه الشيطان: «**إنَّهُ لكُمْ عدوٌّ مبينٌ**» ظاهر العداوة بأمره إياكم بالكفر واتباع غير ما شرعه الله لكم. ولأن التمسك بالتوراة بعد نسخها من اتباع آثار الشيطان. وفي الخازن: وروى جابر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم حين أتاه عمر فقال: إنا نسمع أحاديث من يهود وتعجبنا، فنرى أن نكتب بعضها، فقال صلى الله عليه وسلم: [أتتهوَّكون كما تهوَّكت اليهودُ والنّصارى، لقد جئتكُم بها بيضاء نقية، ولو أنّ موسى حيٌّ ما وسعه إلا اتّباعى] وقوله: [أتتهوّكونَ] أى تتحيرون أنتم فى دينكم حتى تأخذوه من اليهود والنصارى وقوله: [لقْد جئتكُمْ بِهَا] يعنى بالملّة الحنيفية بيضاء نقية. أى لا تحتاج إلى شيىء. قال حذيفة بن اليمان: في هذه الآية للإسلام ثمانية أسهم: فعل الصّلاة والزكاة والصوم والحجّ والعمرة والجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. قال: وقد خاب من لا سهم له» وفى الغرائب وقيل الخطاب للمنافقين. والتقدير يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم ادخلوا بكليتكم فى الإسلام. ولا تتبعوا آثار تزيين الشيطان وتسو يله بالاقامة على النفاق» وفي الآية وعيد وتهديد لمن في قلبه شكٌّ ونفاق، أو عنده شبهةٌ في الدين.

((القول في سبب نزول قوله تعالى))

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ولمَّا يأتِكُمْ مَثَلُ الّذِينَ خَلَوْا مِنْ قبْلِكُمْ مَسَّتْهُم الْبأسَاءُ والضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ والّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ إلاَ إنّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ» سورة البقرة (الآية: ٢١٤)

في الواحدى: قال قتادة والسّدى: نزلت هذه الآية فى غزوة الخندق لمّا أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد والشدّة والحرّ والبرد، وسوء العيش، وأنواع الأذى. وكان كما قال تعالى: «**وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ**» وقال عطاء: لمّا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه المدينة اشتدّ الضَرُّ عليهم بأنهم خرجوا بلا مالٍ. وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدى المشركين، وآثروا رضا الله ورسوله، وأظهرت اليهود العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأسرَّ قوم من الأغنياء النفاق، فأنزل الله تطيبا لقلوبهم «**أم حَسبْتُم**» الآية* وفى الخطيب: وقيل نزلت فى حرب أحدٍ* ونظيره فى القرطبي* وفى الخازن: نزلت فى غزوة الأحزاب، وهى غزوة الخندق، وذلك أنّ المسلمين أصابهم ما أصابهم من الجهد والشدة والخوف والبرد، وضيق العيش الذى كانو فيه يومئذ* وفيه: وقيل نزلت فى غزوة أحد* ثم أورد ما ذكره الواحدى وفى الغرائب: وقيل نزلت فى حرب أحد لما قال عبدالله ابن أبى لأصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى متى تقتلون أنفسكم وتنصرون الباطل، لو كان محمد نبياً ما سلط الله عليهم الأسر والقتل* والمعنى أم حسبتم أيها المؤمنون أنكم تدخلون الجنة بمجرد الايمان بى، والتصديق لرسولى دون أن تعبدوا الله بما تعبدكم به وابتلاكم بالصبر عليه، وأن ينالكم من أذى الكفار، ومن احتمال الفقر والفاقة، ومكابدة الضر والبؤس فى المعيشة ومقاساة الأهوال فى جهاد العدو كما نال ذلك من قبلكم من المؤمنين.: «**مَثَلُ الّذِينَ خَلَوْا**» حالهم التى هى مَثَلٌ فى الشدّة. و: «**مَسَّتْهُمُ**» بيان للمثل، وهو استئناف كأن قائلاً قال: كيف كان ذلك المثل؟ فقيل مَسَّتْهُمُ: «**الْبأسَاءُ**» وهى عبارة عن تضييق جهات الخير والمنفعة عليه.: «**والضَّرَاءُ**» وهى إشارة إلى انفتاح أبْواب الشر والآفة إليه: «**وَزُلْزِلُوا**» حركوا وأزعجوا بأنواع البلاء والرزايا إزعاجاً شديداً، شبيهاً بالزلزلة، وهى من زلّ الشيىء عن مكانه، والتضعيف فى اللفظ للتضعيف فى المعنى. وقيل: معناهُ خُوّفوا. وليس ببعيد لأن الخائف لا يستقرُّ بل

يضطرب لِقَلَقِهِ، ولهذا لا يقال ذلك إلا فى الخوف المقيم المقعد. ثم إنه تعالى ذكر بعد ذلك شيأ هو الغاية فى الدلالة على كمال الضرّ والبؤس والمحنة فقال: **«حتّى يقولَ الرّسُولُ والّذينَ آمَنُوا مَعَهُ متىٰ نَصْرُ اللهِ»** لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم واصطبارهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك غاية فى الشدّة لا مطمح وراءها.: **«ألاَ إنّ نَصْرَ اللهِ قَريبٌ»** أى فقيل لهم ذلك إجابة إلى طلبهم، فكونوا أنتم معاشر المؤمنين كذلك فى تحمل الأذى والمتاعب فى طلب الحق، فإن نصر الله قريب لأنه آتٍ، وكل ما هو آتٍ قريب.

وقال النيسابورى: والحاصل أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينالهم من المشركين والمنافقين أذىً كثير، ولما أذن لهم فى القتال نالهم من الجراح وذهاب الأموال والأنفس ما لا يخفى، فعزاهم تعالى فى ذلك، و بين أن حال من قبلهم فى طلب الدنيا كان ذلك، والمصيبة إذا عمّت هانت، وذكر الله تعالى من قصّة إبراهيم عليه السلام، وإلقائه فى النار، ومن أمر أيوب عليه السلام، وما ابتلاه به، ومن أمر سائر الأنبياء فى مصابرتهم على أنواع المكاره ما صار ذلك سلوة للمؤمنين. روى خباب بن الأ رتّ قال: شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسّد بردة له فى ظلّ الكعبة، فقُلْنَا: ألا تستنصِرُ لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال: [قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له فى الأ رض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليُتمّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكاب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون]

وقصارى القول: إن للإيمان حقوقاً و واجبات تؤدى إلى سعادة الدّارين، من أهملها سُلِبَ النعمة التى أنعم بها على السابقين، فعلى المسلم أن يجعل همَّهُ تطبيق آى كتاب الله على أعماله، وأن يُعرض عن الاحتفال بعيوب الناس، وأن يتعاون مع المؤمنين على البر والتقوى، ويهجر من رغب عنها، اكتفاءً بزخرف الدنيا وزينتها، فليتأمل المسلمون وليعتبروا بما خوطب به أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم، وهم موضع التَّجلّة والاحترام، وكيف عوتبوا هذا العتاب الشديد على ظنهم أنهم يدخلون الجنة، وهم لم يقاسوا من البأساء والضرّاء واحتمال الشدائد فى سبيل نصرة الدين، مثل ما قاسى الذين سبقوهم بالإيمان حتى استحقوا الجنّة، فكيف لا يعاتب المسلم نفسه ــ وهو يعلم أنّه دون الصحابة إيماناً ودعوةً إلى الحق، وصبراً على المكاره فى سبيل الله.

((القول في سبب نزول قوله تعالى))

«يسألونَكَ مَاذَا يُنْفِقَون قُلْ مـا أنفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ واليتَامَى والْمَسَاكِين وابْنِ السَّبيلِ وما تفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فإنَّ الله بِهِ عَليمٌ» سورة البقرة (الآية: ٢١٥)

فى الواحدى: قال ابن عباس فى رواية أبى صالح: نزلت فى عمرو بن الجموح الأنصارى، وكان شيخاً كبيراً ذا مالٍ كثير، فقال يا رسول الله: بماذا يتصّدقُ؟ وعلى من ينفق؟ فنزلت هذه الآية* وفى رواية عطاء: نزلت هذه الآية فى رجل أتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: «أنفقها على خادمك» فقال: إن لى أربعة فقال: «أنفقها على والديك» فقال: إن لى خمسة فقال: «أنفقها على قرابتك» فقال: إن لى ستةً، فقال: «أنفقها فى سبيل الله وهو أخسُّها» أى أقلُّها ثواباً، والظاهر أن الآية محمولة على نفقة التطوع لأنّ الزكاة لا تُعطى للمذكورين* فى القرطبى: قال السّدى: نزلت هذه الآية قبل فرض الزكاة، ثم نسختها الزكاة المفروضة، وهى مبيّنة لمصارف صدقة التطوّع، فواجب عل الرجل الغنىّ أن ينفق على أبويه المحتاجين ما يُصلحهما فى قدر حالهما من حاله من طعام وكسوة وغير ذلك، قال مالك: ليس عليه أن يزوّج أباهُ لأنه رآهُ يستغنى عن التزوج غالباً، ولو احتاج حاجة ماسة لوجب أن يزوجه، لولا ذلك لم يوجب عليه أن ينفق عليهما، فأما ما يتعلق بالعبادات من الأموال فليس عليه أن يُعطيه ما يحجُّ به أو يغزو، وعليه أن يخرج عنه صدقة الفطر لأنها مستحقة بالنفقة والإسلام* وفى الطبرى: قال: ثنى حجّاج، قال: قال ابن جريج: سأل المؤمنون رسول الله صلى الله عليه وسلم أين يضعون أموالهم؟ فنزلت: «يَسْألُونَكَ ماذا ينفقُون..» الآية قال: فذلك النفقة فى التطوع، والزكاة سوى ذلك كله* وما ذكره الواحدى ذكره الخازن. وفى الخازن وأبى السعود قوله: «فَلِلْوالِدَيْنِ» قد علمتَ أن الآية فى صدقة التطوع فلا يشكل ذكر الوالدين، وقدّمهما لوجوب حقّهما على الولد لأنهما السّببُ فى وجوده، وقدم الأقربين لأنّ الإنسان لا يقدر أن يقوم بمصالح جميع الفقراء، فتقديم القرابة أولى من غيرهم، ولأنهم أبعاض الوالدين، وقدّم اليتامى لأنهم لا يقدرون على الكسب ولا لهم منفق، فانظر هذا الترتيب الحسن في كيفية الانفاق، فالأليق أن الإنسان ينفق على الوجو المذكورة فى

الآية، فيقدم الأولى على طبقها، ولم يذكر فيها السائلين والرقاب كما فى الآية الأخرى اكتفاء بها، أو بعموم قوله: «**وما تنفقوا من خير**» فإنه شامل لكل خير وقع فى أىّ مصرف* «**فإن الله به عليمٌ**» فيجازيكم أحسن الجزاء. وفى الغرائب عن السّدّىّ أن الآية منسوخة بفرض الزكاة* وقال المحققون: و يروى عن الحسن أنها ثابتة، فقد يكون الانفاق على الفروع والأصول واجباً. ويحتمل أن يكون المراد من أحبَّ التقرب الى الله تعالى فى باب النفقة فليراع هذا الترتيب. فيقدم الوالدين لأنها كالسبب لوجوده، وقد ربّياهُ صغيراً، ثم الأقربين لأن الإنسان لا يمكنه أن يقوم بمصالح جميع الفقراء، والترجيح لا بد له من مُرجّحٍ، والقرابة تصلح للترجيح، لأنه أعرف بحاله والاطلاع على غنى الغنىّ مما يحمل المرء على الانفاق، وأيضاً لو لم يعطه قريبه احتاج إلى الرجوع إلى غيره، وذلك عارٌ وشنارٌ، وأيضاً قريب المرء كجزء منه، والانفاق على النفس أولى من الانفاق على الغير، ثم اليتامى لعدم قدرتهم على الاكتساب لصغرهم، ثم المساكين الذين هم غير اليتامى، وأبناء السبيل لأنهم بسبب الاشتراك فى دار الإقامة من أنفسهم، ثم أبناء السبيل المنقطعون عن بلدهم ومالهم ما يتبلّغون به إلى أوطانهم. أى اصرفوها فى هذه الوجوه مرتباً. كما جاء الحديث: [أُمّكَ وأبَاكَ وأختك وأخاك، ثم أدناك فأدناك] وتلا ميمون بن مهران هذه الآية ثم قال: هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلاً، ولا مزماراً، ولا تصاو ير الخشب ولا كسوة الحيطان* كذا ذكره ابن كثير فى التفسير.

((القول فى سبب نزول قوله تعالى :))

يسْئَلُونَكَ عَنِ الشّهْرِ الْحرَام قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كبيرٌ وصدٌ عَنْ سبيل الله وكُفرٌ بِهِ والْمَسْجِدِ الْحَرام وإخْرَاجُ أهْلِهِ مِنْهُ أكْبَرُ عِنْدَ اللهِ والْفِتْنَةُ أكبرُ مِنَ الْقتْلِ ولاَ يزالوُنُ يُقَاتِلُونكُمْ حتى يَرُدّوكُمْ عَنْ دينكُم إنِ اسْتطَاعُوا ومَنْ يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيمُتْ وَهُوَ كافِرٌ فأولئكَ حَبطت أعْمَالُهُمْ فى الدُّنيا والآخرة وأُولئكَ أصْحابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خالِدُونَ»

سورة البقرة (الآية: ٢١٧)

فى الواحدى: أخبر عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث سرية من المسلمين، وأمر عليهم عبدالله بن جَحْشٍ الأسدىّ، فانطلقوا حتى هبطوا نخلة ووجدوا بها

عمرو بن الحضرمىّ فى عيرٍ تجارة لقريش فى يوم بقى فى الشهر الحرام. فاختصم المسلمون، فقال قائل منهم: لا نعلم هذا اليوم إلا من الشهر الحرام، ولا نرى أن تستحلوا لطمع أشفيْتُم عليه، فغلب على الأمر الذى يريدون: عرض الحياة الدنيا، فشدُّوا على ابن الحضرمى فقتلوه، وغنموا عيره، فبلغ ذلك كفار قريش. وكان ابن الحضرمى أوّل قتيل قُتل بين المسلمين و بين المشركين، فركب وفد كفار قريش حتى قدموا على النبىّ صلى الله عليه وسلم، فقالوا: اتحُل القتال فى الشّهرِ الحرام؟ فأنزل الله تعالى «**يَسْئلُونَكَ عَنِ الشّهرِ الْحَرامِ قتالٍ فيه..**» واستاقوا العير، فوافق على ذلك النبيى صلى الله عليه وسلم، وقال: [لم آمركم بالقتالِ فى الشّهْرِ الحرام] فقالت قريشٌ: استحلَّ محمد الشهر الحرام فأنزل الله تعالى: «**يسْئلُونكَ عن الشَّهرِ الحرام**» إلى قوله: «**والفتنةُ أكْبَرُ منَ الْقَتْلِ**» أى قد كانوا يقتلونكم وأنتم فى حرم الله بعد إيمانكم، وهذا أكبر عند الله من أن تقتلوهم فى الشهر الحرام مع كفرهم بالله. قال الزهرىّ: لما نزل هذا قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم العير، وفادى الأسيرين. ولما فرَّج الله تعالى عن أهل تلك السرية ما كانوا فيه من غمّ طمعُوا فيا عند الله من ثواب، فقالوا: يانبىّ الله أنطمع أن تكون غزوة ولا نعطى فيها أجر المجاهدين فى سبيل الله؟ فأنزل الله تعالى فيهم: «**إنَّ الّذِينَ آمَنُوا والّذِينَ هَاجَرُوا وجَاهَدُوا..**» الآية ثم عزل رسول الله صلى الله عليه وسلم من العير الخمس. فكان أول خمس فى الإسلام. وقسّم الباق بين أصحاب السَّرِيّة، فكان أوّل غنيمة فى الإسلام، وفادى الرسول بالأسيرين* كذا ذكر الواحدى. وفى الغرائب قال: أكثر المفسّرين على أن هؤلاء السائلين هم المسلمون حيث اختلج فى صدورهم أن يكون الأمر بالقتال مقيَّداً بغير الشّهر الحرام، والمسجد الحرام. فسألوا النبىَّ صلى الله عليه وسلم بعث عبدالله بن جحش، وهو ابن عمّه النبىّ صلى الله عليه وسلم فى جمادى الآخرة قبل قتال بدر بشهرين على رأس سبعة عشر شهراً من مقدمة المدينة، و بعث معه ثمانية وهو من المهاجرين: سعد بن أبى وقّاص الزهرى، وعكاشة بن محصن الأسدىّ، وعتبة بن غزوان السلمىّ، وأبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة، وسهيل بن بيضاء، وعامر بن ربيعة، وواقد بن عبدالله، وخالد بن بكير. وكتب لأميرهم عبدالله بن جحش كتاباً، وقال: [سِرْعلى اسْمِ اللهِ، ولا تَنْظَرْ فى الْكِتاب حتى تسير يومين، فإذا نزلت منزلاً فافتح الكتاب، واقرأه على أصحابك، ثم امض لما أمرتك، ولا تستكرهن أحداً من أصحابك على السير معك] فسار عبدالله

يومين، ثم نـزل وفـتـح الكتاب فإذا فيه [بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد: فسر على بركة الله بمن تبعك من أصحابك حتى تنزل على بطن نخلة، فترصّد بها عير قريش لعلك أن تأتينا منـه بخبر] فلما نظر عبدالله في الكتاب قال: سمع وطاعة، ثم قال لأصحابه ذلك: وقال: إنـه قـد نهـانى أن أسـتكره أحداً منكم، حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع، قد أضلّ سعد بن أبي وقّاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كان يعتقبانه، فاستأذنا أن يتخلّفا فى طلب بعيرهما، فـأذن لهما فـتـخلفا فى طلبه، ومضى عبدالله ببقية أصحابه حتى نزلوا بطن نخلة ــ بين مكّة والـطـائـف ــ فـبـينما هم كذلك مرّت بهم عير لقريش تحمل ز بيباً وأدماً وتجارة من تجارة الـطـائـف. فيهـم عـمـرو بن الحضرمى، والحكم بن كيسان، وعثمان بن عبدالله المغيرة، ونـوفـل بـن عبدالله المخزوميان، فلما رأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم هابوهم، فـقـال عبدالله بن جحش: إن القوم قد ذعروا منكم، فاحلقوا رأس رجل منكم فليتعرض لهـم. فـإذا رأوه محـلـوقاً أمِـنُوا. وقالوا: قوم عُمَّارٌ، فحلقوا رأس عكاشة، ثم أشرف عليهم. فـقـالـوا قـومٌ عُـمّـارٌ لا بـأس عليكم فأمنوهم، وكان ذلك فى آخر يوم من جمادى الآخرة، وكـانوا يرون أنه من جمادى، وهى رجب، فتشاور القوم فيهم، وقالوا: لئن تركتموهم هذه الليـلـة لـيـدخـلـن الحـرم فليمتنعن منكم، فأجمعوا أمرهم فى مواقعة القوم، فرمى واقد بن عـبـدالله الـسـهـمـىّ عـمـرو بـن الحـضـرمىّ بسهم فقتله، فكان أوّل قتيل من المشركين، واسـتـأسـروا الحـكـم وعـثـمـان، فكانا أول أسيرين فى الإسلام، وأفلت نوفل فأعجزهم، واسـتـاق المؤمنون العير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فـقـالـت قـريـش: قـد اسـتحل محمد الشهر الحرام، شهراً يأمن فيه الخائف، و يتفرق فيه الناس لمعايشهم، سفك فيه الدماء، وأخذ فيه الحرائب، وعير ذلك أهل مكة من كان فيها مـن المـسلمين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن جحش وأصحابه: [مـا أمرتكُمْ بـالـقـتـال فى الشّهْرِ الحرام، ووقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فَعَظُمَ ذلـك على أصـحـاب السّرّية، وظنوا أن قد هلكوا، وسقطوا فى أيديهم، وقالوا يارسول الله: إنـا قـتلنا ابن الحضرمىّ، ثم أمسينا فنظرنا إلى هلال رجب، فلا ندرى أفى رجب أصبناه، أم فى جمـادى، وأكْـثَرَ النّاسُ فى ذلك] فنزلت: «**يَسْئَلُونَكَ عَنِ الشّهْرِ الْحَرَام..**» فأخذ رسـول الله صلى الله عـلـيـه وسـلـم العير فعزل منها الخمس، فكان أول خمس، وقسم الباقى بين أصـحـابـه أصحاب السرّية، فكان أوّل غنيمة فى الإسلام، و بعث أهل مكة فى فداء

أسيرهم، فقال: بل نقفها حتى يقدم سعد وعتبة، وإن لم يقدما قتلناهما بهما، فلما قدما فاداهما، فأما الحكم بن كيسان فأسلم وأقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فقتل يوم بئر معونة شهيداً، وأما عثمان بن عبدالله فرجع إلى مكة فمات بها كافراً. وأما نوفل فضرب بطن فرسه يوم الأحزاب ليدخل الخندق على المسلمين، فوقع فى الخندق مع فرسه فتحطما جميعاً وقتله الله، وطلب المشركون جيفته بالثمن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «**خُذوه فإنه خبيث الجيفة خبيث الدّية**» وفى الخطيب نحواً من هذا. وقال: وأكثر الأقاويل على أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: «**قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتمُوهُمْ**» وما أوردته لك من الغرائب بحروفه فى ابن كثير. وفيه: وأنزل الله يُعَيّر أهل مكة: «**يسْئَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فيهِ كبيرٌ**» لايحلُّ، وما صنعتم أنتم يا معشر المشركين أكبر من القتل فى الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصددتم عن محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وإخراج أهل المسجد الحرام منه حين أخرجوا محمداً صلى الله عليه وسلم وأصحابه أكبر من القتل عند الله* وفى الخازن: واختلف العلما فى حكم هذه الآية على قولين: أحدهما: أنها محكمة، وأنه لا يجوز الغزو فى الشهر الحرام إلا أن يقاتلوا فيه، فيقاتلوا على سبيل الدفع، روى عن عطاء أنه كان يحلف بالله ما يحل للناس أن يغزوا فى الشهر الحرام، ولا أن يقاتلوا فيه، وما نسخت* والقول الثانى الذى عليه جمهور العلماء وهو الصحيح أنها منسوخة بقوله: «**فاقْتُلُوا الْمُشْرِكينَ حَيْثُ وجدتُمُوهُمْ**» وبقوله: «**وقَاتِلُوا الْمُشْرِكينَ كَافّةً**» يعنى فى الأشهر الحرم وغيرها* وفى الغرائب قال أبوعبيد: والناس بالثغور اليوم جميعاً على هذا القول يرون الغزو مباحاً فى الأشهر الحرم كلها، ولم أر أحداً من علماء الشام والعراق ينكره عليهم. وكذلك أحسب قول أهل الحجاز، والحجة فى إباحاته قوله تعالى: «**فاقْتُلُوا الْمُشْرِكينَ حَيْثُ وجدْتُموهُمْ**» ويمكن أن يقال إن قوله: «**قِتَالٍ فِيهِ كبيرٌ**» نكرة فى حيّز الاثبات فيتناول فرداً واحداً لا كل الأفراد. فلا يلزم منه تحريم القتال فى الشهر الحرام مطلقاً، فلا حاجة فيه إلى تقدير النسخ. والله أعلم* وقوله تعالى: «**قتالٍ فيهِ**» بدل اشتمال من الشّهر: «**قُلْ**» لهم: «**قِتَالٌ فِيهِ كَبيرٌ**» أى عظيم وزراً إن كان عمداً، فإن كان خطأ كفعل السرّية فلا إثم فيه: «**وَصَدٌّ**» منع النّاس: «**عَنْ سَبيلِ اللهِ**» فيه: «**وَكُفْرٌ بِهِ**» أى بالله: «**وَ**» صَدٌّ عن: «**الـمَسْجِدِ الْحَرَامِ**» أى مكة: «**وإخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ**» وهم النبىّ صلى الله عليه

وسلم وأصحابه: «أكْبَرُ» أى أعظم وزراً: «عِنْدَ اللهِ» مما فعلته السّرّية من قتل ابن الحضرميّ فى الشهر الحرام خطأ، و بناء على الظن: «والفِتْنَةُ» أى الشرك منكم: «أكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» لكم فيه. فلما نزلت هذه الآية كتب عبدالله بن أنيس إلى مؤمنى مكة إذا عيركم المشركون بالقتال فى الشهر الحرام فعيروهم أنتم بالكفر، وإخراج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من مكة، ومنعهم المسلمين عن البيت: «ولاَ يَزالُونَ» أى الكفار: «يقاتِلُونكُمْ» أيها المؤمنيون: «حَتىَّ يَرُدوكُمْ عَنْ دينِكُمْ» إلى الكفر. فى ذلك إخبار عن عداوة الكفار لهم، وانهم لا ينفكون عنها حتى يردوهم عن دينهم: «إنِ اسْتَطاعُوا» فيه استبعاد لاستطاعتهم كقول الرجل لعدوه إن ظفرت فى فلا تبق على، وهو واثق بأنه لا يظفر به: «وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دينِهِ فيمتْ وهو كافِرٌ فأولئكَ حَبَطَتْ» بطلبت: «أعْمَالُهَمْ» الصالحة: «فى الدُنْياَ والآخِرةِ» فلا اعتداد بها ولا ثواب عليه. قال الخطيب: والتقييد بالموت يفيد أنه لو رجع إلى الإسلام لم يبطل عمله كما هو مذهب الشافعى رضى الله عنه خلافاً لأبى حنيفة رضى الله عنه حيث قال: إن الردّة تحبط الأعمال مطلقاً لقوله تعالى: «ومَنْ يكْفُرْ بالإيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» : «وأولئكَ أصْحَابُ النّارِ هُمْ فيهَا خالِدُونَ» كسائر الكفرة.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))
«يسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ والمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وإثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا» سورة البقرة (الآية: ٢١٩)

في الواحدى: نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار رضي الله تعالى عنهم، أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: أفتنا في الخمر والميْسِر فإنهما مذهبة للعقل مسلبة للمال، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الخطيب: روى أنَّه لما نزل بمكة قوله تعالى: «وَمِنْ ثَمَراتِ النّخِيلِ والأعْنَابِ تَتّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً ورِزْقاً حَسَناً..» كان المسلمون يشربونها، وهي لهم حلالٌ يومئذٍ، ثم إن عمر ومعاذاً في نفر من الصحابة، قالوا: أفتنا في الخمر يا رسول الله فإنها مذهبة للعقل. فنزلت هذه الآية* فشربها قومٌ، وتركها آخرون، ثم إن عبدالرحمن بن عوف صنع طعاماً فدعا ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتاهم بخمر فشربوا وسكروا، فحضرت صلاةٌ، فقدّموا بعضهم ليُصلى

بهم فقرأ: (قُلْ يا أيُّها الْكَافِرونَ أعبد ما تعبدون هكذا إلى آخر السورة بحذف لا، فأنزل الله تعالى: **«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تقْرَبُوا الصّلاةَ وأنْتُمْ سُكارىٰ حتّى تعلموا ما تقُولون»** فحرّم السكر في أوقات الصلاة، فتركها قوم، وقالوا: لا خير في شيء يحول بيْننا و بين الصلاة، وتركها قوم في أوقات الصلاة، وشربوها في غير وقتها، حتّى كان الرجل يشرب بعد صلاة العشاء يصبح وقد زال عنه السكر، و يشرب بعد صلاة الصبح، فيصحوا إذا جاء وقت الظهر، ثم إن عتبان بن مالك صنع طعاماً ودعا رجالاً من المسلمين فيهم سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه، وقد كان شوى لهم رأس بعير فأكلوا منه، وشربوا الخمر حتّى اشتدت فيهم، ثم افتخروا عند ذلك وانتسبوا وتناشدُوا الأشعار، فأنشد سعدٌ قصيدة فيها هجاء للأنصار وفخر لقومه، فأخذ رجُلٌ من الأنصار لحى البعير، فضرب به رأس سعد فشجّهُ موضحةً، فانطلق سعد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وشكا لَهُ الأنصارى، فقال عمر: اللهمَّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً فنزل **«إنَّمَا الْخَمْرُ والْمَيْسِرِ»** إلى قوله: **«فَهَلْ أنتُمْ مُنْتَهُون»** فقال عمر رضي الله عنه: انتهينا ياربُّ» قال القفال: الحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب، إن القوم كانُوا ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم به كثير، فعلم الله لو منعهم دفعة واحدة لشقّ عليهم، فاستعمل في التّحريم هذا التّدرج والرّفق، وسمى عصير العنب والتمر إذا إشتد وغلا خمراً، لأنّه يخمر العقل، كما سمى سُكْراً لأنه يسكره أي يحجزهُ، وهو حرام مطلقاً، وكذا كل ما أسكر عند أكثر العلماء، وقال أبوحنيفة: نقيع الزبيب والتّمر إذا طبخ حتّى ذهب ثلثاهُ، ثم اشتد حلَّ شرابه ما دون السكر» وسمى القمار ميسراً لأنه أخذ مال الغير بيسر، والمعنى **«يسئلُونكَ»** عن تعاطيها لقوله تعالى: **«قُلْ»** لهم **«فيهِمَا»** أي تعاطيها **«إثْمٌ كَبيرٌ»** أي عظيم لما يحصل بسببها من المخاصمة والمشاتمة وقول الفحش **«وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ»** باللذات والفرح، ومصادقة الفتيان، وتشجيع الجبان، وتوفر المروءة، وتقوية الطبيعة في الخمر، وإصابة المال بلا كدّ في الميسر **«وإثْمُهُمَا»** أي ما ينشأ عنها من المفاسد **«أكْبَرُ»** أي أعظم **«مِنْ نَفْعِهِمَا»** المتوقع منها، ولهذا قيل إنَّ هذا هو المحرّم للخمر، فإن المفسدة إذا ترجحت على المصلحة اقتضت تحريم الفعل. وما نقل عن أبي حنيفة والثوريّ وابن أبي ليلى، وابن شبرمة وجماعة من فقهاء الكوفة: ما أسكر كثيره من غير خمر العنب فهو حلال. وإذا سكر منه أحدٌ دون أن يتعمد الوصول إلى حدّ السكر فلا حدّ عليه» قال

القرطبي: وهذا ضعيف يردُّه النَّظر والخبر على ما يأتي بيانه في المائدة والنّحل، إن شاء الله تعالى. «**والْمَيْسِرِ**» الميْسرُ: قمار العرب بالأزلام قال ابن عبّاس: كان الرجل في الجاهلية يخاطر الرجل على أهله وماله، فأيُّهما قَمَرَ صاحبه ذهب بماله وأهله. فنزلت الآية. وقال مجاهد ومحمد بن سيرين والحسن وابن المسيّب وعطاء وقتادة ومعاو ية بن صالح وطاوس وعليّ بن أبي طالب وابن عباس أيضاً: (كل شيء فيه قمار من نرد وشِطْرَنج فهو الميسر، حتى لعب الصبيان بالجوز والكعاب: أي فصوص النرد إلا ما أبيح من الرّهان في الخيل والقرعة في افراز الحقوق)* وقال مالك: الميسر ميسران: ميسر اللهو، وميسر القمار، فمن ميسر اللهو النّرد والشطرنج والملاهى كلها. وميْسر القمار: يتخاطر الناس عليه* قال على بن أبي طالب رضي الله عنه : الشطرنج ميسر العجم. وروى مالك في الموطأ عن داود بن حصين أنّه سمع سعيد بن المسيّب يقول: كان من ميْسر أهل الجاهلية، بيع اللحم بالشّاة والشّاتين. وهذا محمول عند مالك وجمهور أصحابه في الجنس الواحد. حيوانه بلحمه، وهو عنده من باب المزابنة أي كبيع الرّطب في رؤس النخل بالتّمر، أو كبيع الزبيب بالعنب، والزيتون بالزيت، والشيرج بالسُّمْسُم، ونحو ذلك. والطيْر عنده كله جنس واحد، وكذلك الحيتان من سمك وغيره. وروى النّسائى عن عثمان رضي الله عنه قال: (اجتنبوا الخمر فإنّها أمُّ الخبائث). إنه كان رَجُلٌ ممن كان قبلكم تعبّد، فعلقته امرأة غوية، فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنَّا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فطفقت كلما دخل باباً أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأةٍ وضِيئةٍ عندها غلام و باطية خمر. فقالت: إنّي ما دعوتك للشهادة ولكن دعوتك لتقع عليَّ. أو تشرب من هذه الخمر كأساً، أو تقتل هذا الغلام، قال: فأسقيني من هذه الخمر كأساً، فسقتْهُ كأساً، قال: زيدوني، فلم يَرِم — أي يبرح — حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر فإنها والله لا يَجْتَمِع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يخرج أحدهما صاحبه* وروى أن الأعمش لما توّجه إلى المدينة ليُسلم، فلقيه بعض المشركين في الطريق فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم بأنه يريد محمداً صلى الله عليه وسلم، فقالوا: لا تصل إليه. فإنه يأمرك بالصلاة، فقال: إنَّ خدمة الربّ واجبة، فقالوا: إنَّه يأمرك بإعطاء المال إلى الفقراء، فقال: اصطناع المعروف واجب، فقيل له: إنَّه ينهى عن الزنى، فقال: هو فحش وقبيح في العقل، وقد صرتُ شيخاً فلا أحتاج إليه، فقيل له: إنَّه ينهى عن شرب الخمر، فقال: أمّا

هذا فإني لا أصبر عليه، فرجع، وقال: أشرب الخمر سنة، ثم أرجع إليه، فلم يصل إلى منزله حتى سقط عن البعير فانكسرت عنقه فمات* وفي الطبرى: عن أبي توبة المصرى قال: سمعتُ عبدالله بن عمر يقول: أنزل الله عز وجل في الخمر ثلاثاً، فكان أول ما أنزل «**يسئلونك عن الخَمْرِ والْميْسِرِ قُلْ فيها إثْمٌ كبيرٌ..**» الآية، فقالوا يا رسول الله: ننتفع بها ونشربها كما قال الله عز وجل في كتابه، ثم نزلت هذه الآية «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تقْرَبُوا الصَّلاة وأنْتُم سكارى..**» الآية، قالوا يا رسول الله: لا نشربها عند قرب الصلاة، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [حُرِّمت الخَمْرُ]* وعن الشعبىّ قال: نزلت في الخمر أربع آيات «**يَسْئلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ والْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إثْمٌ كبيرٌ وَمَنَافِعُ للنَّاسِ..**» فتركوها. ثم نزلت «**تَتخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً**» فشربُوها ثم نزلت الآيتان في المائدة «**إنَّمَا الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ والأنْصَابُ والأزْلَامُ...**» إلى قوله: «**فَهَلْ أنتُمْ منتهُونَ**» وفي الخازن: و يروى أن حمزة بن عبدالمطلب شرب الخمر يوماً، وخرج فلقى رجلاً من الأنصار و بيده ناضح له، والأنصارىّ يتمثّلُ ببيتين لكعب بن مالك يمدح قومه وهما:

جمعنا مع الإيواء نصراً وهجرةً ... فلم يُرحىٌّ مثلنا في المعاشر
فأحياؤنا مِنْ خَيرِ أحْياءِ من مضى ... وأمواتُنا مَن خير أهل المقابر

فقال حمزة: أولئكَ المهاجرون، وقال الأنصارىّ: بل نحن الأنصار، فتنازعا، فجرّد حمزة سيْفَه، وعدا على الأنصارىّ، فهرب الأنصارىّ، وترك ناضحه، فقطعه حمزة، فجاء الأنصارىّ مستعديا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بفعل حمزة، فغرم له رسول الله صلى الله عليه وسلم ناضحاً، فقال عمر: اللهمَّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فأنزل الله تعالى الآية التي في المائدة إلى قوله: «**فَهَلْ أنْتُمْ مُنْتَهُونَ**» فقال عمر: انتهينا ياربّ، وذلك بعد غزوة الأحزاب بأيّام* قال أنس: حرمت الخمر ولم يكن يومئذٍ للعرب عيش أحبُّ منها، وما حرم عليهم شيء أشدُّ من الخمر، وروى الشيخان عن أنس قال: ما كان لنا خمرٌ غير فضيخكم، وإنّى لقائم أسقى أبا طلحة، وأبا أيّوب وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجُلٌ فقال: حرمت الخمر، فقالوا: أهرق هذه القلال يا أنس، فما سألُوا عنها، ولا راجعوها بعد خبر هذا الرجل* الفضيخ بالضاد والخاء المعجمتين: شراب يُتّخذ من بسر مطبوخ، والاهراق: الصَّبُّ، والقلال: جمع قلّة وهى الجرّة الكبيرة.

((فصـــلٌ في تحريم الخمر ووعيد من شربها))

قـال الخـازن في تـفـسـيـره: أجمعت الأمّة على تحريم الخمر، وأنّه يُحدّ شاربها، و يفسّق بـذلك مع اعـتقاد تحريمها، فإن استحلّها كفر بذلك ويجب قتله، روى الشيخان عن ابن عـمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [كُلُّ مُسْكرٍ خَمْرٌ، وكُلُّ مُسْكِرٍ حرامٌ، ومن شـرب الخـمر في الدنيا ومات وهو يدمنها لم يتب منها لم يشربها في الآخرة] ولفظ مسلم عن جابر: أن رجلاً قدم من جيشان، وجيشان من اليمن، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم عن شـراب يـشـر بـونـه بأرضهم من الذرة يقال له المزر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أومُـسْـكرٌ هو؟] قال: نعم. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كل مسكر حرام، وإنَّ على الله عـهـداً لمـن يـشـرب المـسـكر أن يسقيه من طينة الخبال قالوا: وما طينة الخبال يا رسـول الله؟ قـال: عـرقُ أهـل النّار، أو عصارة أهل النار] وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عـلـيـه وسـلـم قـال: [كـل مـسـكـر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب مسكراً بـخـست صلا ته أر بعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يـسـقـيـه من طينة الخبال، قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: صديد أهل النار] وأخرج أبوداود عن عبدالله بن عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال: [مَـن شـرب الخـمـر فجعلها في بطنه لم تقبل منه صلاة سبعاً، وإن مات فيها، مات كـافراً، فإن أذهبت عقله عن شيء من الفرائض (وفى رواية: عن القرآن) لم تقبل صلا ته أر بـعين يوماً، وإن مات فيها مات كافراً] وأخرج الترمذى عن أنس قال: لعن رسول الله صلى الله عـلـيـه وسـلـم في الخمر عشرةً: [عاصرها ومعتصرها، وشاربها وساقيها، وحاملها والمحمولة إليه، و بائعها ومبتاعها و واهبها وآ كل ثمنها].

((فَضلٌ في أحكام تتعلّقُ بالخمــر))

وفيـه مسـائـل (الأولى في ماهيتها): قال الشافعي: الخمرة عبارة عن عصير العنب النيء الشديد الذي قذف بالزبد، وكذلك نقيع الزبيب والتمر المتخذ من العسل والحنطة والشعير والأرز والذرة، وكل ما أسكر فهو خمر* وقال أبوحنيفة: الخمر من العنب والرطب ونقيع التمر والزبيب، فإن طبخ حتى ذهب ثلثاه حلّ شربه، والمسكر منه حرام، واحتج على ذلك بما روى عن عمر بن الخطاب أنه كتب إلى بعض عُمّاله أن أرزق المسلمين من الطّلاء ما ذهب ثلثاهُ، وبقي ثلثه* وفي رواية أمّا بعد فاطبخوا شرابكم حتّى يذهب منه نصيب الشيطان، فإنَّ له اثنيْن ولكم واحد. أخرجه النسائى. الطّلاء: بكسر الطاء والمدّ: الشراب المطبوخ من عصير العنب الذي ذهب ثلثاهُ وبقي ثلثه* واحتج أيضاً بما روى عن ابن عباس قال: حرمت الخمر بعينها قليلها وكثيرها. والسكر من كل شراب. أخرجها النسائى* واستدل أيضاً على أن السكر حرام لما روى عن أبي الأحوص عن القاسم بن عبدالرحمن عن أبيه عن بردة أنَّ النبيّ صلى الله عليه وسلم قال: [اشربوا ولا تسكروا] وعن عائشة نحوه. أخرجه النّسائى وقال: هذا حديث غير ثابت. واستدل الشافعيُّ على أن الخمر حرام من عدّة أشياء بما روى عن ابن عمر أن عمر قال على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمّا بعد أيها النّاس إنه نزل تحريم الخرم، وهي من خمسة، العنب والتّمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل ثلاث، وددت أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عهد إلينا فيهنَّ عَهْداً ننتهى إليهنّ. الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا. أخرجه البخارى ومسلم* وأخرجا عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل عن الْبِتْعِ، فقال: [كل شراب أسكر فهو حرام] البتع: شراب يتخذ من العسل كان أهل اليمن يشربونه* وفي اللسان: والْبِتْعُ مثل القِمْع والقِمَع: نبيذ يُتّخذ من عسل كأنه الخمر صلابة، وقال أبوحنيفة: البتع الخمر المتخذ من العسل فأوقع الخمر على العسل* وفي الخازن: وعن النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [إنَّ من العنب خمراً، وإن من البرّ خمراً، وإنَّ من الشعير خمراً، وإنَّ من التمر خمراً] أخرجه أبوداود، وزاد في رواية [والذرة: وإنّي أنهاكم عن كل مسكر] وللترمذي نحوه، وزاد [وإن من العسل خمراً]* وأخرج البخارى عن ابن عبّاس أنّه سئل عن الباذَقِ،

قال: سبق حكم محمد. الباذق: فما أسكر فهو حرام عليك، والشراب الحلال الطيّب، ليس بعد الحلال الطيب إلاّ الحرام الخبيث* قال صاحب المطالع الباذَق: بفتح الذّال المعجمة هو الطّلاء المطبوخ من عصير العنب، كان أول من صنعه وسمَّاه بنوأميّة لينقلوهُ عن اسم الخمر، وكل ما أسكر فهو خمر لأن الاسم لا ينقله عن معناه الموجود فيه* وقال ابن الأثير في النّهاية: الباذَق: الخمر تعريب باذه: وهو اسم للخمر بالفارسيّة، أي لم يكن في زمانه* عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: [نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتّر] أخرجه أبوداود. والمفتّر: كل شراب أحمى الجسد وصار فيه فتور وضعف وانكسار* واستدل الشافعي على ما أسكر كثيره فقليله حرام بما روى عن جابر بن عبدالله أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [ما أسكر كثيره فقليله حرام] أخرجه الترمذي وأبوداود.

المسئلة الثانية (في الحكم بنجاسة الخمر) : في الخازن: الخمر وما يلحق بها نجسة العين، و يدل على نجاستها قوله تعالى: «**إِنَّمَا الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ والأَنْصَابُ والأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطان فاجتنبوهُ**» والرجس في اللغة: النّجس والشيء المستقذر، وقوله تعالى: «**فاجْتَنِبُوهُ**» فأمر باجتنابها، فكانت نجسة العين، و يدل على نجاستها أيضاً أنها محرّمة التناول لا للاحترام، ولأنَّ الناس مشغوفون بها، فينبغى أن يحكم بنجاستها تأكيداً للزجر عنها.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ والله يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ولَوْ شَاءَ الله لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ الله عَزِيزٌ حَكِيمٌ» سورة البقرة (الآية: ٢٢٠)

فى الواحدى: عن سعيد بن جبير قال: لمَّا نزلت «**إِنَّ الَّذِينَ يأكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامى ظُلْماً**» عزلوا أموالهم فنزلت.«**قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ**» فخلطوا أموالهم بأموالهم* وروى سعيد عن ابن عباس أنه قال: لمَّا أنزل الله عز وجل «**ولا تقربُوا مال اليتيم إلاَّ بالّتى هِيَ أحْسَنُ**» و«**إِنَّ الَّذِينَ يأكلونَ أمْوالَ الْيَتَامَى ظُلماً**» انطلق من كان عنده مالُ يتيم فعزل طعامَه عن طعامِه، وشرابه

من شرابه، وجعل يفصل الشيء من طعامه فيجلس له حتى يأكله أو يفسد، واشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل «**و يسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم..**» فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم* وفي الطبرى: عن السّدى قال: كانت العرب يشدّدون في اليتيم حتى لا يأكلوا معه في قصعة واحدة، ولا يركبون له بعيراً، ولا يستخدمون له خادماً، فجاؤا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه عنه فقال «**قل إصلاح لهم خير**» يصلح له ماله وأمره له خير، وإن يخالطه فيأكل معه و يطعمه و يركب راحلته، ويحمله و يستخدم خادمه ويخدمه فهو أجود «**والله يعلم المفسد من المصلح**» أي بها يجازى كلاً منهما. ففي ذلك وعيد ووعدٌ لمن خالطهم لافساد وإصلاح «**ولو شاء الله لأعنتكم**» أي لضيّق عليكم بتحريم المخالطة، وما أباح لكم مخالطتهم. وأصل العنت: الشدّة والمشقّة ومعناه كلفكم في كل شيء ما يشقُّ عليكم «**إنّ الله عزيزٌ**» غالب على أمره يقدر على الاعنات وغيره «**حكيمٌ**» يحكم بما تقتضيه الحكمة.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَلاَ تنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَة وَلَوْ أعْجَبَتْكُمْ ولاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يؤمِنُوا ولَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ ولَوْ أعجَبَكُمْ أولئكَ يَدْعُونَ إلىَ النَّار والله يَدْعُوا إلى الجنّةِ والْمَغْفِرَةِ بِإذْنِهِ و يُبيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»

سورة البقرة (الآية: ٢٢١)

في الواحدى: حدّث خالد بن معروف عن مقاتل بن حيّان قال: نزلت في مرشد الغنوى. استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في عناق أن يتزوّجها، وهى امرأة مسكينة من قريش، وكانت ذات حظّ وجمال، وهى مشركة، وأبومرثد مسلم. فقال: يا نبي الله إنّها لتعجبنى، فأنزل الله عز وجل «**ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنّ...**» وروى السدى عن أبي مالك عن ابن عبّاس في هذه الآية قال: نزلت في عبدالله بن رواحة، وكانت له أمةٌ سوداء وأنّه غضب عليها فلطمها، ثم أنه خرج، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره خبرها، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: [ما هى يا عبدالله؟ فقال: يا

رسول الله هي تصوم، وتُصلى وتُحسنُ الوضوء، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسولهُ، فقال: يا عبدالله هذه مؤمنة، قال عبدالله: فوالذى بعثك بالحق لأعتقها ولأ تزوّجها] ففعل،فطعن عليه ناس من المسلمين فقالوا: نكح أمةً، وكانُوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين، و ينكحوهم رغبة في أحسابهم، فأنزل الله تعالى فيه «**وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خيرٌ من مشركة**» الآية* وقال الكلبىّ عن أبى صالح عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلاً من غِنَّى يقال له مرثد بن أبي مرثد حليفاً لبنى هاشم إلى مكة ليخرج ناساً من المسلمين بها أسراء، فلمّا قدمها سمعت به امرأة يقال لها عناق، وكانت خليلة لهُ في الجاهلية، فلمّا أسلم أعرض عنها، فأتته فقالت: ويحك يا مرثد ألا نخلو، فقال لها: إن الإسلام قد حال بيني و بينك، وحرّمه علينا، ولكن إن شئت تزوجتك إذا رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأذنه في ذلك، ثم تزوجتك؟ فقالت له: أنت تَبَرَم، ثم استغاثت عليه فضربوه ضرباً شديداً، ثم خلوُّا سبيله، فلمّا قضى حاجته بمكة انصرف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً وأعلمه الذى كان من أمره وأمر عناق وما لقى في سببها، فقال يا رسول الله: اتُحِلُّ أن أتزوجها، فأنزل الله ينهاه عن ذلك «**وَلاَ تنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ**» أى لا تتزوجوا أيُّها المسلمون «**الْمُشْرِكَات**» أي الكافرات « **حَتّى يُؤْمِنَّ**» بدين الإسلام ومحمد عليه الصلاة والسلام* وفي الخطيب روى أبوداود وغيره أنَّ سبب نزول آية الروم «**الزّانى لاَ يَنْكِحُ إلاّ زانِيَةً أوْمُشْرِكةً..**» الآية. قالوا: والآية وإن كان شاملة للكتابيّات لكنّها مخصوصة بغيرهن بقوله «**والْمُحْصَنات مِنَ الّذِينَ أوتُوا الكتَابَ**» وقد تزوّج عثمان بنصرانية. فأسلمت، وتزوج حذيفة بيهودية، وطلحة بن عبيدالله بنصرانية* قال الخطيب: فإن قيل: كيف أطلقتم اسم الشرك على من لم ينكر إلاّ نبوة محمد صلى الله عليه وسلم؟ قال الحسن بن فارس: لأنّه يقول القرآن كلام غير الله؛ ومن يقول القرآن كلام غير الله فقد أشرك مع الله غير الله* وقال تعالى: «**وقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ الله، وقَالَتِ النّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ الله**» إلى قوله: «**سبْحَانه عمّا يُشْرِكُونَ**» ولكن يقال إنَّ المراد من المشركات في الآية اللاتى يعبدون الأ وثان فى ابن كثير، قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله: «**وَلاَ تنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتّى يُؤْمِنَّ**» استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب. وهكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومكحول والحسن والضّحاك وزيد بن أسلم والرّبيع بن أنس وغيرهم* وقال ابن

كثير: فأمّا ما رواه ابن جرير: حدّثني عبيد بن آدم بن أبي إياس العسقلاني، حدّثنا أبي، حدّثنا عبدالحميد بن بهرام الفزاري، حدّثنا شهر بن حوشب قال: سمعت عبدالله بن عباس يقول: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات، وحرّم كلّ ذات دين غير الإسلام قال الله عز وجل: «**وَمَنْ يَكْفُرْ بالإِيمانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ..**» وقد نكح طلحة بن عبدالله يهودية، ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية، فَغَضِبَ عمر بن الخطاب غضباً شديداً حتى همّ أن يَسْطُوَ عليهما، فقالا: نحن نُطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب، فقال: لئن حلّ طلاقُهُنّ لقد حلّ نكاحُهُنّ ولكني أنتزعهنّ منكم صغرة قمأة. فهو حديث غريب جداً، وهذا الأثر غريب عن عمر أيضاً، قال أبوجعفر بن جرير رحمه الله بعد حكايته الاجماع على إباحة تزوّج الكتابيات. وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد النّاس في المسلمات، أو لغير ذلك من المعاني كما حدّثنا أبو كريب، حدّثنا ابن ادريس، حدّثنا الصَّلتُ بن بهرام عن شقيق قال: تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر خلّ سبيلها، فكتب إليه، أتزعم أنها حرام فأخلي سبيلها؟ فقال: لا أزعم أنها حرام ولكني أخاف أن تُعاطوا المؤمنات منهنّ. وهذا إسناد صحيح. ونقل عن عمر قوله: المسلم يتزوج النصارنية ولا يتزوّج النّصراني المسلمة. قال: وهذا أصحّ إسناداً من الأول. ونقل ابن كثير عن محمد بن علي وصالح بن أحمد أنهما سألا أبا عبدالله: أحمد بن حنبل عن قوله الله «**وَلاَ تنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتّى يُؤْمِنَّ**» قال مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام. وفي الغرائب قال الحاكم النيسابوري: اختلف العلماء في الآية في موضعين: الأول: في لفظ النكاح. فقال أكثر أصحاب الشافعي: إنه حقيقة في العقد لقوله صلى الله عليه وسلم: [لا نكاح إلاّ بوليّ وشاهديْ عدْل] ولا شك أن المتوقف على الولي والشاهد هو العقد لا الوطء، ولقوله صلى الله عليه وسلم أيضاً: [ولدتُ من نكاح لا من سِفَاح] ولقوله تعالى: «**وأنكحوا الأَيَامَ مِنْكُمْ**». وقال الجمهور من أصحاب أبي حنيفة: أنه حقيقة في الوطء لقوله تعالى: «**حتى تنكح زوْجاً غَيْرُه**» والنكاح الذي ينتهي إليه الحرمة ليس هو العقد بل هو الوطء بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: [لا حتى تذوق عُسَيْلَتَهُ وَ يذُوقَ عُسَيْلَتِكِ] وقال صلى الله عليه وسلم: [ناكحُ الْيَدِ مَلْعُونٌ] ومن الناس من قال: النكاح عبارة عن الضمّ، يقال: نكح المطر الأرض إذا وصل إليها، ونكح النعاس عينه. والضمّ حاصل في العقد وفي الوطء،

فيحسن استعمال اللفظ فيهما جميعاً. قال ابن جنى: سألت أبا على عن قولهم: (نكح المرأة) فقال: فرّقت العرب بالاستعمال فرقاً لطيفاً، فإذا قالوا: نكح فلانٌ فلانه: أرادوا أنه تزوجها وعقد عليها، وإذا قالوا: نكح امرأته أو زوجته لم يريدُوا غير المجامعة* إلاَّ أن المفسرين أجمعوا على أن المراد بالنكاح في هذه الآية هوالعقد. أي لا تعقدوا على المشركات* الموضوع الثاني: لفظ المشرك هل يتناول الكفار من أهل الكتاب أم لا؟ قال الأكثرون: نعم لقوله تعالى: «**وقالت اليهودُ عُزَيْرٌ ابْنُ الله وقالتِ النصارَى الْمَسيحُ ابن الله**» إلى قوله: «**سُبْحَانَهُ عمَّا يُشرِكونَ**» ولقوله: «**إنَّ الله لاَ يَغْفِرُ أن يُشْرَكَ بِهِ ويَغْفِرُ ما دونَ ذلكَ لِمَنْ يَشاءُ**» فلو كانَ كفر اليهود والنصارى غير الشرك لاحتمل أن يغفر الله لهم، وذلك باطل بالاتفاق. وأيضاً النّصارى قائلون بالتّثليث، وليس ذلك في الصفات، فإن أكثر المسلمين يثبتُون لله تعالى صفات قديمة، فإذن هو في الذات وهذا شركٌ محض* روى أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أمّر أميراً، وقال: [إذا لقيت عدواً من المشركين فادعهم إلى الاسلام، فإن أجابُوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، وإن أبو فادعهم إلى جزية وعقد الذمة، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم] سمّى من يقبل الجزية وعقد الذمة بالمشرك. وقال أبو بكر الأصم: كل من جحد رسالته فهو مشرك من حيث أن تلك المعجزات التي ظهرت علي يده كانت خارجة عن حدّ البشر، وهم أنكروها وأضافوها إلى الجنّ والشياطين. فقد أثبتوا شريكاً لله سبحانه في خلق هذه الأشياء الخارجة عن قدرة البشر* واعترض عليه بأن اليهوديّ حيث لا يسلم أن ما ظهر على يد محمد صلى الله عليه وسلم هو من جنس ما لا يقدر العباد عليه لم يلزم أن يكون مشركاً بسبب إضافة ذلك إلى غير الله. (والجواب): أنّه لا اعتبار باقراره وإنما الاعتبار بالدليل، فإذا ثبت بالدّليل أن ذلك المعجز خارج عن قدرة البشر، فمن أضاف ذلك إلى غير الله كان مشركاً، كما لو أسند خلق الحيوان والنبات إلى الأفلاك والكواكب. احتج المخالف بأنه تعالى فصلّ بين أهل الكتاب والمشركين في الذكر حيث قال: «**ما يَوَدُّ الّذِينَ كَفَروا من أهْل الكتاب ولا المشركين**» «**لَمْ يكنِ الّذِينَ كَفَروا من أهْلِ الكِتَابِ والْمُشْرِكينَ**» والعطف يقتضى التّغاير، وأجيب بأن كفر الوثنى أغلظ، وهذا القدر يكفى في العطف، أو لعله خصّ أولاً، ثمَّ عمّ* وهل هذه الآية منسوخة أم لا؟ فى الخازن: وقيل إنَّ حكم الآية نزل في مشركات العرب: الوثنيات خاصة، ولم ينسخ منها شيء، ولم يستثن، وإنما

حكمها عام مخصوص: قال قتادة «وَلاَ تنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتّى يُؤْمِنَّ» يعنى مشركات العرب اللاّتى ليس فيهنّ كتاب يقرأنه* فعلى قول من قال: إن اسم الشرك لا يتناول إلاّ الوثنيات تكون الآية محكمة، وعلى قول الأكثرين أن اسم الشرك يتناول الوثنيات والكتابيات وغيرهن تكون الآية محكمة في حق الوثنيات منسوخة في حق الكتابيات. أي اللاتى لهن كتاب سماوى يقرأنه، وهو الصحيح إن شاء الله تعالى. وقوله تعالى: «وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ» أي حرة لأنّ سبب نزولها العيب على من تزوج أمة ــ كما تقدم في الواحدى ــ وترغيبه في نكاح حرّة مشركة كذا ذكر الجلال: واللام في «وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ» هذه اللام للتوكيد فهي تشبه لام القسم، والمراد بالأمة وكذا بالعبد في قوله «ولَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ» أمة الله وعبده، لأنَّ الناس كلهم عبيد الله وإماؤه. أي ولا مرأة مؤمنة حرّة كانت أو مملوكة «خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ» للمبالغة، والجواب محذوف، أي ولو كانت المشركة تعجبكم بمالها وجمالها ونسبها، فالمؤمنة خير منها لأن الإيمان يتعلق بالدّين والمال والجمال، والنسب يتعلق بالدنيا، ورعاية الدّين أولى من رعاية الدنيا إن لم يتيسر الجمع بينهما، وقد تحصل المحبة والتآلف عند التوافق في الدين فتكمل منافع الدنيا أيضاً من حسن الصحبة والعشرة وحفظ الغيب وضبط الأموال والأولاد، أمّا عند اختلاف الدين فتنعكس هذه القضايا، وقد يرى أضداد ما توقع منها، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدّين تربت يداك] وقوله: «ولاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يؤمِنُوا» لا خلاف ههنا فى أنَّ المراد به الكل، وأن المؤمنة لا يحلُّ تزويجها من الكافر على اختلاف أقسام الكفر «أُولَـئِكَ» المشركات والمشركون. أي عموم أهل الشرك لأن اسم الاشارة واقع على كل من الإناث والذكور لأنه يصلح لهما كما قال ابن مالك:* وبأُولَى أَشِرْ لجمع مطلقاً* حال كونهم «يَدْعُونَ إلىَ النَّارِ» أي إلى ما يؤدي إليها، فإن الزوجة مظنة الألفة والمحبة في الظاهر، وقد تحمل المودة على الاتفاق في الدين، فلعل المؤمن يوافق الكافر، والاحتراز عن مظنة الارتداد أهمُّ من الطموح إلى إسلام المشرك، فحقّهم أن لا يوالوا ولا يُصاهروا، ولا يكون بينهم وبين المؤمنين إلا المناصبة والقتال، وقيل: المراد أنّهم يدعون إلى ترك المحاربة والجهاد. وفي ترك الجهاد استحقاق النار والعذاب. وغرض هذا القائل أن يجعل هذا فرقاً بين الذميّة وغيرها. فإن الذميّة لا تحمل زوجها على ترك الجهاد.

وقيل: إن الولد الذي يحدث ربما دعاهُ الكافر إلى الكفر فيصير الولد من أهل النّار، فهذا هو الدعوة إلى النّار. «**والله يَدْعُوا إلى الجنّةِ**» حيث أمر بالتزوّج بالمسلمة حتى يكون الولد مسلماً من أهل الجنة، أو المراد أنّ أولياء الله وهو المؤمنون يدعون إلى الجنة والمغفرة، وما يؤدى إليها، فهم الذين يجب موالاتهم ومصاهرتهم وأن يؤثروا على غيرهم «**بإِذْنِهِ**» بتوفيق الله وتيسيره للعمل الذي يستحقُّ به الجنة والغفران «**و يُبيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**» يتعظون، ومعناه واضح.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَ يَسْألُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فى الْمَحِيضِ ولاَ تَقْرَبُوهُنَّ حتّى يَطْهُرْنَ فإذا تطهّرنَ فأتُوهُنَّ مِنْ حيثُ أمَرَكُمُ الله إنَّ الله يُحِبُّ التَّوابِينَ و يُحِبُّ الْمُتطهّرينَ» سورة البقرة (الآية: ٢٢٢)

فى الواحدى: حدّث ثابت عن أنس أنَّ اليهود كانت إذا حاضت منهم امرأة أخرجوها من البيت فلم يؤاكلوها، ولم يشاربوها، ولم يجامعوها في البيت، فسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله عز وجل «**وَ يَسْألُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فى الْمَحِيضِ..**» الآية. رواه مسلم* وروى جابرعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنّه قال: [إنَّ اليهود قالت: لمن أتى امرأته من دبرها كان ولده أحول، فكان نساء الأنصار لا يدعن أزواجهن يأتوهن من أدبارهنّ، فجاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألوه عن إتيان المرأة وهي حائض، وعمّا قالت اليهود، فأنزل الله عز وجل «**وَ يَسْألُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فى الْمَحِيضِ ولاَ تَقْرَبُوهُنَّ حتى يَطْهُرْنَ**» ــ يعني الاغتسال ــ «**فإذا تطهّرنَ فأتُوهُنَّ مِنْ حيْثُ أمَرَكُمُ الله**» ــ يعني القبل ــ «**إنَّ الله يُحِبُّ التَّوابِينَ و يُحِبُّ الْمُتطهّرينَ* نِسَاؤُكُم حَرْثٌ لَكُمْ فأتُوا حَرْثَكُمْ أنّى شِئْتُم**»] فإنما الحرث حيث ينبت الولد ويخرج منه* وفى القرطبي والطبرى أي السائل «**وَ يَسْألُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ**» ثابت بن الدحداح، وقيل: أسيد بن حُضير. وعبّاد بن بشر، وهوقول الأكثرين. وسبب السؤال فيما قال قتادة وغيره: إن العرب في المدينة وما والاها كانُوا قد استنُّوا بسنّة بنى إسرائيل في تجنب مؤاكلة الحائض ومساكنتها فنزلت هذه الآية* وقال مجاهد: كانوا يتجنّبون النساء

في الحيـض، و يـأتونَـهُنّ في أدبارهن مدة زمن الحيض، فنزلت الآية* وفي صحيح مسلم أيضـاً عـن أنـس رضي الله عنـه أن اليهـود كـانُـوا إذا حـاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهُـنّ في البـيـوت، فسأل أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم النبيّ صلى الله عليه وسلـم فـأنـزل الله تعالى «**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ..**» الآيـة. فـقـال رسـول الله صلى الله عـليه وسلم: [اصنعُوا كلَّ شيء إلاّ الـنـكـاح] فـبـلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلاّ خالفنا فيـه، فـجـاء أُسَيْـدُ بـنُ حُضَيْرٍ، وعبَّادُ بن بشر فقالا: يا رسول الله: إنَّ اليهود تقول كذا وكـذا. أفلا نجامِعُهُنَّ؟ فتغيرّ وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ظننا أنْ قد وَجَدَ ــ غـضـب ــ عـليهما، فـخـرجـا فاستقبلهما هديّةٌ من لبنٍ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فـأرسـل في أثـرهمـا فـسقاهما فعرفا أنَّه لم يَجدْ عليهما* قال علماؤنا: كانت اليهود والمجوس تجتنب الحائض وكانت النّصارى يجامعوهن في الحيض، فأمر الله بالقصد بين هذين. وقد أجمع العلماء أن للمرأة ثلاث أحكام في الدم الخارج منها:

الأول : الحيـض : ودمـه أسـودٌ خـاثـرٌ تـعـلوهُ حُمْرةٌ فتترك له الصلاة والصوم، ولا تـقضى الـصـلاة، وإنمـا تـقضى الـصـوم بـعدّة أيّامه بعد طهرها لحديث معاذ قال: [سألت عـائشـة رضي الله عنهـا فـقُلْتُ: ما بال الحائض تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ قالت: أحـروريّـةٌ ــ طـائفة من الخوارج الذين قاتلهم على رضي الله عنه ــ أنتِ؟ قُلتُ: ليست بحـروريّـة، ولـكني أسأل، قالت: كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمرُ بقضاء الـصلاة] أخرجه مسلم* وأقل مدة الحيض ثلا ثة أيّام وأكثره خمسة عشر يوماً، وما زاد عن خمسة عشر يوماً أو قلّ عن ثلا ثة أيام فيكون دم استحاضة، وقيل يرجع إلى عادة النّساء في ذلك. وأقلُّ الطهر خمسة عشر يوماً. هذا: والمستحاضة تتوضأ لكل صلاة بعد دخول الوقت كالمعذور، وتصلّي الفرض وما شاءت من النوافل.

الـثـاني: دم الـنـفـاس : وهو الخارج بعد الولادة، قيل أكثره شهران، وقيل أربعون يوماً، وأقله لحظة والغسل منه كالغسل من الجنابة.

الـثالث: دم ليس بعادة : ولا طبع منْهُنَّ ولا خلْقَةٍ، وإنما هوعرق انقطع سائله: دم أحمرٌ لا انـقطاع له إلا عند البرء منه، وحكمه أن تكون المرأة منه طاهرة لا يمنعها من صلاة وصوم وجمـاع لحديـث فاطمة بن أبي جحش: يا رسول الله إنّي لا أطهر، أفأدعُ الصلاة؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إنما ذلك عرقٌ فليس بالحيضة، إذا أقبلت الحيضة فدعي الصلاة، فإذا ذهب قدرها فاغسل عنك الدم وصلّي] وشذّت طوائف من الخوارج فقالوا: بوجوب الصّلاة على الحائض ولا دليل لهم لا من كتاب ولا سُنّة، وهذا الحديث حجةٌ عليهم، وهو أصح ما روى في هذا الباب* واختلف العلماء فيمن أتى امرأته وهي حائض ماذا عليه؟ نقل عن مالك والشافعي وأبي حنيفة أن يستغفر الله تعالى ولا شيء عليه* وروى عن محمد بن الحسن: يتصدّق بنصف دينار* وقال أحمد: ما أحسن حديث عبدالحميد عن مِقسَم عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم [يتصدق بدينار، أو نصف دينار] أخرجه أبوداود، وفي كتاب الترمذي عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [إذا كان دماً أحمر فدينارٌ، وإن كان دماً أصفر فنصف دينارٍ] وقوله تعالى: «**فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ**» أي فاعتزلوا مجامعتهن، وقد قام إجماع المسلمين على حرمته في الحيض، واتفق العلماء على حلّ الاستمتاع بالمرأة بما فوق السرة، وتحت الركبة، واختلفوا فيما دون السّرة وفوق الركبة، فالشافعي وأبوحنيفة وأبويوسف قالوا: يجب اعتزال ما اشتمل عليه الإزار بناء على أن المحيض مصدر كالمجيء والمبيت. والتقدير فاعتزلوا تمتّع النّساء في زمان الحيض: ترك العمل بالآية فيما فوق السّرة وتحت الركبة للإجماع. فبقي الباقي على الحرمة* وعن زيد بن أسلم أنَّ رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم: ما يحلُّ لي من امرأتي وهيَ حائض؟ قال: [لتشدَّ عليها إزارها، ثم شأنك بأعلاها] وقيل ما سوى الفرج حلال لأن المراد بالمحيض موضع الحيض، فالمعنى فاعتزلوا موضع الحيض من النساء. نعم المحيض الأول مصدر، فيصلح عود الضمير إليه في قوله «**هُوَ أَذًى**» أي الحيض شيء يستقذر و يؤذى من يقربه، نفرةً وكراهة على أنه يحتمل أن يكون بمعنى المكان، والتقدير هو ذا أذى. وإنما قدم قوله «**هُوَ أَذًى**» لترتيب الحكم. وهو وجوب الاعتزال عليه، وذلك أن دم الحيض فاسد يتولّد من فضلة تدفعها طبيعة المرأة من طريق الرّحم، حتّى لو احتبست تلك الفضلة لمرضت المرأة، فذلك الدم جارٍ مجرى البول والغائط، فكان أذًى وقذراً، ولا يرد عليه دم الاستحاضة حيث لا يوجب الاعتزال لأنَّ ذلك دمٌ صالح يسيل من عرق يتفجّر في عنق الرّحم، و يؤيده ما روى في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: [جاءت فاطمة بنت أبي جحش، فقال يا رسول الله إني امرأة أستحاض فلا أطهر، أفأدع الصّلاة؟ فقال: لاَ، إنما ذلك عِرقٌ وليست بالحيضة،

فإذا أقبلت الحيضة فدعى الصلاة، فإذا أدبرت فاغسلى عنك الدم وصلى] ومعنى العرق: إنّه علّةٌ حدثت بها من تصدّع العروق. وأصل الحيض في اللغة: السيل، يقال حاض السّيل وفاض، قال الأزهريُّ: منه قيل الحوض لأنَّ الماء يحيض إليه. أي يسيل. أما السّنُّ المحتمل للحيض، فأصحّ الوجوه أنّها تسع سنين، فإن رأت الصبيّة دماً قبل استكمال التّسع، فهو دم فساد، قال الشافعى: وأعجل من سمعت من النّساء يحضن، نساء تهامة يحضن لتسع سنين* وقيل: إن أول وقت الامكان يدخل بالطعن في السنة التاسعة، وقيل بمضى ستة أشهر من السنة التاسعة، والاعتبار على الوجوه بالسنين القمرية تقريباً على الأظهر لا تحديداً، حتى لو كان بين رؤية الدم و بين استكمال التّسع على الوجه الأصح مالا يسع حيضاً وطهراً كان ذلك الدم حيضاً، وإلا فلا.

ويحرم بالحيض عشرة أشياء: الصلاة والصوم والاعتكاف والمكث في المسجد والطّواف ومسُّ المصحف، وقراءة القرآن والسجود والغشيان بنص القرآن. والطلاق في حق بعضهن، ثم إن أكثر فقهاء الأمصار على أنَّ المرأة إذا انقطع حيضها لا يحلُّ مجامعتها إلا بعد أن تغتسل عن الحيض. وهذا قول مالك والأوزاعى والشافعى والثورى* والمشهور عن أبى حنيفة أنها إن رأت الطهر دون عشرة أيام لم يقربها زوجها حتى تغتسل، ويمضى عليها وقت صلاة، وإن رأته عشرة أيام جاز له أن يقربها قبل الاغتسال* حجّة الشافعى: أن القراءة المتواترة حجّةٌ بالإجماع فإذا حصلت قراءتان متواترتان وجب الجمع بينهما ما أمكن، فمن قرأ يطهُرنَ ــ بالتّخفيف، فانتهاء الحرمة عنده انقطاع الدم، ومن قرأ يطّهرن ــ بالتّشقيل فالنهاية تطهرها بالماء والجمع بين الأمرين ممكن بأن يكون النهاية حصول الشيئيْن* ومعنى قوله: «**ولاَ تَقْرَبُوهُنَّ**» أي لا تجامعوهن، وهذا كالتأكيد لقوله: «**فاعْتَزِلُوا**» ويحتمل أن يكون ذلك نهيا عن المباشرة في موضع الدم، وهذا نهى عن الإلتذاذ بما يقرب من ذلك الموضع وأيضاً قوله: «**فإذا تطهرن فأتوهُنَّ**» تعليق للاتيان على التطهر بكلمة إذا فوجب أن لا يجوز الاتيان عند عدم التطهر، والمراد بالتّطهر الاغتسال لأنَّ هذا الحكم عائداً إلى ذات المرأة فوجب أن يحصل في كل بدنها لا في بعض من أبعاض بدنها* وعن عطاء وطاوس هو أن تغسل الموضع وتتوضّأ* وقال بعضهم: غسل الموضع* ثم القائلون بوجوب الاغتسال أجمعوا على أنَّ التيمم يقوم مقامه عند اعواذ الماء. وقوله تعالى: «**مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ**» أي من المأتى الذي أمركم به وحلّله لكم وهو

القبل. قاله ابن عبّاس ومجاهد وابراهيم وقتادة وعكرمة* وقال الأصم والزجّاج: فأتوهن من حيث يحل لكم غشيانهن، وذلك بأن لا يكنَّ صائمات ولا معتكفات ولا محرمات* وعن محمد بن الحنفية فأتوهن من قِبَلِ الحلال دون الفجور **«إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوابِينَ»** مما عسى أن يبدر عنهم من ارتكاب ما نهوا عنه من ذلك بمجامعة الحائض والطاهرة قبل الغسل، وإتيان الدبر **«ويُحِبُّ الْمُتطهّرينَ»** المتنزهين عن تلك الفواحش، فالتائب هو الذي فعله ثم تركه، والمتطهر هو الذي ما فعله تنزّهاً عنه لأنّ الذنب كأنه نجاسة روحانية حكمية، إنَّما المشركون نجسٌ. أو يُحبُّ التوابين الذين يطهّرون أنفسهم بالتوبة من كل ذنب، و يُحبُّ المتطهرين من جميع الأقذار والأوزار.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ واتَّقُوا اللهَ واعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ وَبَشّرِ المُؤْمِنِينَ» سورة البقرة (الآية: ٢٢٣)

في الواحدى: حدَّث ابن المنذر أنه سمع جابر بن عبدالله يقول: كانت اليهود تقول في الذي يأتي امرأته من دبرها في قبلها إنَّ الولد يكون أحول فنزلت **«نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ»** رواه البخارى عن أبي نعيم. ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة، كلاهما عن سفيان* وقال مجاهد: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية منه فأسأله عنها حتّى انتهى إلى هذه الآية **«نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ»** فقال ابن عبّاس: إنَّ هذا الحيَّ من قريش كانُوا يتزوَّجون النساء، و يتلذّذون بهنّ مقبلات ومدبرات، فلمّا قدمُوا المدينة تزوَّجوا من الأنصار، فذهبوا ليفعلُوا بهنَّ كما كانُوا يفعلون بمكة فأنكرن ذلك وقُلنَّ: هذا شيءٌ لم نكن نؤتى عليه، فانتشر الحديث حتّى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى في ذلك **«نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ»** قال: إنْ شئت مقبلة وإن شئت مدبرة إن شئت باركة، وإنما يعنى بذلك موضع الولد للحرث يقول: ائت الحارث حيثُ شئت* رواه الحاكم أبوعبدالله في صحيحه عن أبي زكريا العنبرى عن محمد بن عبدالسلام عن اسحاق بن ابراهيم عن المحاربى وروى عن جابر بن عبدالله أنه قال: قالت اليهود: إذا نكح الرجل امرأته مُجبّبةً جاء ولدها أحول فنزلت **«نِسَاؤُكُمْ**

حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» إن شاء مُجبّبةً (أي منقلبة على وجهها تشبيهاً بهيئة السجود) وإن شاء غير مجبّبة، غير أولئك في صمام واحد. رواه مسلم عن هارون بن معروف عن وهب بن جرير؛ وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هلكتُ، فقال: وما الذي أهلكك؟ قال: حوّلتُ رَحْلِي[1] الليلة، قال: فلم يرد عليه شيئاً، فأوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» يقول: أقبل وأدبر واتّق الدُّبر والحيضة؛ وفي القرطبي: وروى أبوداود عن ابن عباس قال: إنَّ ابن عمر ــ والله يغفر له وهم ــ كان هذا الحيُّ من الأنصار، وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود، وهم أهل كتاب، وكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم، وكان من أمر أهل الكتاب ألا يأتُوا النساء إلا على حرف. وذلك أستر ما تكون المرأة، فكان هذا الحيُّ من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم، وكان هذا الحيّ من قريش يشرحون شرحاً منكراً ــ أي يطئونها وهي نائمة على قفاها ــ و يتلذّذون منهنَّ مقبلات ومدبرات ومستلقيات، فلمّا قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك فأنكرت عليه، وقالت: إنما كنا نؤتى على حرف، فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني، حتى شرى أمرهما (أي عظم وتفاقم ولجوا منه) فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عز وجل «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات يعني بذلك موضع الولد؛ وروى الترمذي عن ابن عباس قال: [جاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله هلكتُ..] وساق الحديث. قال: هذا حديث حسن صحيح. وروى النسائي عن أبي النضر أنه قال لنافع مولى ابن عمر: قد أكثر عليك القول إنك تقول عن ابن عمر أنه أفتى بأن يؤتى النساء في أدبارهن، قال نافع: لقد كذبوا عليَّ، ولكن سأخبرك كيف كان الأمر، إن ابن عمر عرض عليَّ المصحف يوماً وأنا عنده حتى بلغ «نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ» قال نافع: هل تدري ما أمر هذه الآية؟ إنّا كنا معشر قريش نجبي النساء، فلمّا دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردنا منهن ما كنا نريد من نسائنا فإذا هُنَّ قد كرهن

---

(١) تحويل الرّحل قيل ظاهره الكناية عن الإتيان في غير المحل المعتاد، وقيل إنه الإتيان في المحل المعتاد لكن من جهة ظهرها.

ذلك وأعظمنه، وكان نساء الأنصار إنما يؤتين على جنوبهن، فأنزل الله سبحانه «**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**» ومكان الحرث هو الفرج كالأرض، والنطفة كالبذر، والولد كالنبات. أنشد ثعلب:

إنَّما الأرحام أرضـ ـون لنا محترثات
فعلينا الزرع فيها وعلى الله النَّبات

وما نسب لابن عمر رضي الله عنه عن طريق نافع ومالك وأصحابه في كتاب السرّ من جواز إتيان المرأة في دبرها محض اختلاق لأنَّ ابن عمر رضي الله عنهما كفر من يفعل ذلك. روى الدارمي في مسنده عن سعيد بن يسار أبي الحباب قال: قلتُ لابن عمر: ما تقول في الجواري حين أحمض بهن؟ (التحميضُ: أن يأتي الرجل المرأة في غير مأتاها) قال: وما التحميض؟ فذكرت له الدُّبر، فقال: هل يفعل ذلك أحدٌ من المسلمين!! أي لا يفعله إلا غير المسلم وهو الكافر. وأسند عن خزيمة بن ثابت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [يا أيها الناس إن الله لا يستحي من الحق لا تأتوا النساء في أعجازهنَّ] وأسند عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [مَنْ أتى امرأة في دُبرها لم ينظر الله تعالى إليه يوم القيامة] وفي رواية ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [تلك اللوطية الصغرى] يعني إتيان المرأة في دبرها، وروى عن طاوس أنه قال: كان بدء عمل قوم لوط إتيان النّساء في أدبارهن. وقال مالك لابن وهب وعليّ بن زياد لما أخبراه أنَّ ناساً بمصر يتحدّثون عنه أنه يجيز ذلك، فنفّر من ذلك، وقال: كذبوا عليّ. كذبوا عليّ. كذبوا عليّ، ثم قال: ألستم قوماً عَرَباً؟ ألم يقل الله تعالى: «**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ**» وهل يكون الحرث إلاَّ في موضع المنبت* وفي الطبري: ثنا روح بن القاسم عن قتادة قال: سئل أبو الدرداء عن اتيان النساء في أدبارهنَّ فقال: هل يفعل ذلك إلاَّ كافر* وفي الطبري أيضاً: حدثني يونس قال: أخبرنا بن وهب، قال: أخبرنا عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال، أن عبدالله بن عليّ حدثه أنه بلغه أنَّ ناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسوا يوماً، ورجل من اليهود قريب منهم، فجعل بعضهم يقول: إني لآتي امرأتي وهي مضجعة، و يقول الآخر: إني لآتيها وهي قائمة، و يقول الآخر: إني لآتيها على جنبها و باركة، فقال اليهودي: ما أنتم إلاَّ أمثال البهائم، ولكنّا إنما نأتيها على هيئة واحدة، فأنزل الله تعالى ذكره «**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ**» فهو القبل* وفي

ابن كثير زيادة على ما تقدم ذكره: قال ابن أبي حاتم: حدّثنا يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب عن عامر بن يحى عن عبدالله حنش، عن عبدالله بن عباس قال: أتى ناس من حِمْيَرَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن أشياء فقال له رجل: إني أحب النساء فكيف ترى فيّ؟ فأنزل الله «**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**» قلت: وهذا الحديث حجة لمن قال إنّ «**أَنَّىٰ**» في الآية بمعنى (كيف) حيث فسرها بعضهم بمعنى (أين) وكيف ومتى، و بعضهم بمعنى كيف فقط، ولكن يقال هنا: إنَّ أيْنَ إنما هي حرف استفهام عن الأماكن والمحال فقط. فحينما تقول: أين مالك؟ يجاب بمكان كذا وكذا، أي أخبره عن محله، إذن فتكون أين مختصة بالسؤال عن الأماكن والمحالّ فقط، وكيف يسأل بها عن الصحة فقط، أو الهيئة، فيقال: كيف أنت؟ فيقال: بخير الحمد لله، أو معافى إن شاء الله، إذن فكيف يسأل بها عن حال المسئول عن حاله فقط. ومتى يستفهم بها عن المجيء، أو مطلق الحدث، فيقال: متى قدمت؟ فيقول: أمس. ومتى حدث هذا؟ فيقال: أمس. فهذه الثلاثة معاني لا ارتباط لها بمفهوم الآية لا من حيث المنطوق الموافق ولا المنطوق المخالف. أما (أنّىٰ) فيستفهم بها عن عدة وجوه. فيقال: أنّىٰ أثمرت الشجرة؟ فيقول: من عدة وجوه: من كون كذا وكذا وكذا... وعليه قوله تعالى: «**أَنَّىٰ يُحْي المَوْتىٰ**» فيقال من وجه كذا وكذا... لذا كان معنى قوله تعالى: «**فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ**» أي من أي وجه شئتم من أوجه المأتى في المكان المعدّ للحرث، دليله ما ورد في الحديث الصحيح عن جابر وابن عباس من أن هذه الآية نزلت فيما كانت اليهود تقوله للمسلمين: إذا أتى الرجل المرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول. وفي ابن كثير: قال أبوجعفر الطحاوي في كتابه مشكل الحديث: حدثنا أحمد بن داود بن موسى، حدثنا يعقوب بن كاسب، حدثنا عبدالله بن نافع، عن هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري أنَّ رجلاً أصاب امرأة في دبرها، فأنكر الناس عليه ذلك فأنزل الله «**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ**» الآية. وقد أطنب ابن كثير رحمه الله في ذكر الأحاديث في هذا الموضوع. و بعضها صريح في تكفير من أتى المرأة في دبرها، وقوله تعالى: «**نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ**» جارٍ مجرى البيان والتوضيح لقوله: «**فَأْتُوهنَّ من حيثُ أمركُمُ الله**» دلالة على أنّ الغرضَ الأصلي في الإتيان هو طلب النّسل لا قضاء الشهوة، فينبغي أن يؤتى المأتى الذي هو مكان الحرث،

وفي الغرائب عن ابن عباس في «فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ» إن شاء عزل وإن شاء لم يعزل* وقوله تعالى: «وَقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ» العمل الصّالح كالتسمية عند الجماع، روى ابن عادل في تفسيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [من قال بسم الله عند الجماع فأتاه ولدٌ فله حسنات بعد أنفاس ذلك الولد، وعدد عقبه إلى يوم القيامة] «وَاتَّقُوا اللّٰهَ» في أمره ونهيه «وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاقُوهُ» بالبعث فيجازيكم بأعمالكم «وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ» الذين اتقوه بالجنة لأنهم تلقوا ما خوطبوا به من الأ وامر والنواهى بحسن القبول والامتثال بما يقصر عنه البيان من الكرامة والنعيم المقيم، أو بكل ما يبشر به من الأمور التى تُسرّ بها القلوب، وتقرّ بها العيون، وجعل المبشّر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه من المبالغة في تشريف المؤمنين ما لا يخفى.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ* لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ»

سورة البقرة (الآية: ٢٢٤، ٢٢٥)

في الواحدى : قال الكلبي : نزلت في عبدالله بن رواحة ينهاه عن قطيعته ختنه بشر بن النعمان، وذلك أنَّ ابن رواحة حلف أن لايدخل عليه أبداً، ولا يكلّمه ولا يصلح بينه و بين امرأته، و يقول: قد حلفت بالله أن لا أفعل، ولا يحلُّ إلاَّ أن أبرّ في يمينى، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي لباب السيوطى: نزلت في أبى بكر في شأن مسطح، قد حلف أن لا ينفق عليه بعد خوضه في حديث الافك* العرضة: كل ما يعرض فيمنع عن الشيء، أي لا تجعلوا الحلف بالله تعالى سبباً مانعاً لكم من البرّ والتقوى، يدعى أحدكم إلى صلة رحم أو برّ فيقول حلفتُ بالله أن لا أفعله، فيعتل بيمينه في ترك البرّ، واللغو: كل مطروح من الكلام الذي لا يعتد به، ولغو اليمين هو ما سبق إلى اللسان على عجلة لصلة كلام من غير عقد ولا قصد كقول القائل: لا والله و بلى والله، وكلاّ والله، قالت عائشة رضي الله عنها: [حينا سئلت عن لغو اليمين، قالت: لغو اليمين كقول الإنسان لا والله، و بلى والله] وقد أخذ به الشافعى رضي الله عنه* وقال قوم: هو أن يحلف على شيء يرى أنه صادق، ثم

يتبين أنه خلاف ذلك. أخذ به أبوحنيفة رضي الله عنه* وقال زيد بن أسلم: هو دعاء الرجل على نفسه كقول الإنسان أعمى الله بصرى إذا لم أفعل كذا وكذا، فهذا لغو لا يؤاخذ الله به، قال تعالى: «**وَيَدْعُ الإِنْسَانُ بالشَّرِّ دُعَاءَهُ بالْخَيْرِ**» وقال تعالى: «**وَلَوْ يُعَجِّلُ اللهُ للنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ**» «**وَلَكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ**» أي قصدتم من الأيمان إذا حنثتم ولم تبرُّوا بها «**والله غَفُورٌ**» حيث لم يؤاخذكم باللغو «**حَلِيمٌ**» حيث لم يعجل بالمؤاخذة على يمين الجد تربَّصاً للتوبة. وأيمان اللغو لا كفارة فيها* والمعنى العام للآية. إذا حلفتم بالله أو بأسمائه أو صفاته أو أفعاله بألاَّ تصلوا أرحامكم، ولا تتصدَّقوا، ولا تصلحوا بين الناس، أو على أى فعل من أفعال البر فاحنثوا بأيمانكم وكَفِّرُوا عنها، وسيأتى بيان مقدار الكفّارة إن شاء الله تعالى. قوله: «**وَلاَ تجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ**» هو نهى عن الجراءة على الله بكثرة الحلف فإن من أكثر ذكر شيء في معنى من المعانى فقد جعله عرضة، قال الشاعر: فلا تجعلونى عرضة للوائم. وقد ذم الله تعالى من أكثر الحلف بقوله: «**ولا تُطع كُلَّ حلاَّفٍ مَهِينٍ**» والحكمة فيه أن من حلف في كل قليل وكثير بالله انطلق لسانه بذلك فلا يؤمن اقدامه على الأيمان الكاذبة. وأيضاً كلما كان الإنسان أكثر تعظيما لله كان أكمل في العبودية، ومن كمال التعظيم أن يكون ذكر الله تعالى أجّل وأعلى عنده من أن يبتذله و يستشهد به في غرض من الأغراض الدنيوية. وقوله: «**أَنْ تَبرُّوا**» علّة النهى. أي إرادة أن تبرُّوا وتتّقوا وتصلحوا بين الناس لأن الحلاَّف مجترىء على الله غير معظّم له فلا يكون برَّاً متقياً، فإذا ترك الحلف لاعتقاده أن الله أعظم وأجل من أن يستشهد باسمه العظيم في مطالب الدنيا اعتقد الناس في صدق لهجته و بعده من الأغراض الفاسدة، فعدُّوه برّاً متحذّراً من الاخلال بواجب حق الله فيدخلونه في وساطاتهم وإصلاح ذات بينهم. «**والله غَفُورٌ حَلِيمٌ**» يعنى في ترك معاجلة أهل العصيان بالعقوبة. قال الحليميُّ فى معنى الحليم: إنّه الذى لا يحبس انعامه، وإفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم، ولكنه يرزق العاصى كما يرزق المطيع، و يبقيه وهو منهمك في معاصيه كما يبقى البرّ المتقى، وقد يقيه الآفات والبلايا وهو غافل لا يذكره فضلاً عن أن يدعوه كما يقيها النَّاسك الذي يدعوه و يسأله* وقال أبوسليمان الخطابى: الحليم ذو الصّفح والأناة الذي لا يستفزه غضب، ولا يستخفه جهلُ جاهل، ولا عصيان عاصٍ، ولا يستحق الصافح مع العجز اسم الحليم، إنما الحليم الصفوح مع القدرة على الانتقام المتأنّى الذي لا يعجل بالعقوبة.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لِلّذينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّص أرْبَعَةِ أشْهُرٍ فإنْ فَاؤا فإنّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ* وَإنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فإنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ»

سورة البقرة (الآية: ٢٢٦، ٢٢٧)

في الواحدى: حدّث عطاء عن ابن عباس قال: كان إيلاء أهل الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، فوقّت الله أربعة أشهر فمن كان إيلاؤه أقل من أربعة أشهر فليس بإيلاء* وقال سعيد بن المسّيب: كان الإيلاء ضراراً في الجاهلية، كان الرجل لا يريد المرأة ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها أبداً، وكان يتركها كذلك لا أيماً ولا ذات بَعْلٍ، فجعل الله تعالى الأجل أربعة أشهر، وأنزل: «**لِلّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ..**» الآية* يؤلون من نسائهم. أي يحلفون أن لا يجامعوهن. فالإيلاء الحلف* في الخطيب: قال قتادة: كان الإيلاء طلاقاً لأهل الجاهلية* وقوله: «**تربُّصُ**» أي انتظار «**أربعة أشْهُرٍ**» أي للمولى حقّ التّثبت فى هذه المدة، فلا يطالب بفيئة ولا طلاق. قال الشافعى رضى الله عنه: لا إيلاء إلا في أكثر من أربعة أشهر* و يؤيده: «**فَإِنْ فَاؤُا**» أى رجعوا فى المدة، أو بعدها عن اليمين إلى الوطء لأن الفيئة وعزم الطلاق مشروعان عقب الإيلاء وحصول التربص، فلا بدّ أن يكون مدخول الفاء واقعاً بعدهما «**فإنَّ اللهَ غَفورٌ رَحِيمٌ**» لهم ما أتوه من ضرر بالحلف، رحيم بهم «**وإنْ عَزَمُوا الطّلاقَ**» أى صمّمُوا عليه بأن يفيئُوا فليوقعوهُ: «**فإن اللهَ سَميعٌ**» لقولهم: «**عَلِيمٌ**» بعزمهم. أى ليس لهم بعد تربّص ما ذكر إلا الفيئة أو الطلاق. ففيه دليل على أنها لا تطلق بعد مضى المدة ما لم يطلقها زوجها. ونقل عن ابن عباس وأصحاب الرأى إذا مضت أربعة أشهر يقع عليه طلقة واحدة بائنة* ونقل عن سعيد بن المسّيب والزُّهرىّ طلقة واحدة رجعّية* ولو حلف ألاّ يطأها بأقل من أربعة أشهر لا يكون مولياً بل حالفاً، فإذا وطئها قبل مضى تلك المدة وجب عليه كفارة يمين إن كان الحلف باللهِ. وفى القرطبى: قال عبدالله بن عباس: كان إيلاء الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك، يقصدون بذلك إيذاء المرأة عند المسائة فوقّت لهم أربعة أشهر، فمن آلى بأقل من ذلك فليس بإيلاءٍ حكميّ* وذكر ابن ماجة أنّ النّبىَّ صلى الله عليه وسلم قد آلى وطلّق، وسبب إيلائه سؤال نسائه إياهُ من النفقة ما

ليس عنده* رواه مسلم وقيل سبب إيلائه صلى الله عليه وسلم منهن أنّ زينب ردّت عليه هديّتهُ فغضب صلى الله عليه وسلم فآلى منهنّ* واعلم أن الإيلاء له أركان أربعة: الحالف والمحلوف به والمحلوف عليه ومدّة هي ظرف المحلوف عليه. (الركن الأول) الحالف: وهو كل زوج يتصّور منه الوقاع، وكان تصرفه معتبراً في الشرع، فيصح إيلاء الذمّيّ لعموم قوله: **«لِلّذينَ يؤْلُونَ»** و به قال أبو حنيفة. وقال أبو يوسف ومحمد: لا يصح إيلاؤه بالله تعالى و يصح بالطّلاق والعتاق، وأيضاً لا فرق عندنا بين الحرّ والرقيق فى الحدّ، وعند أبى حنيفة يتنصّف برقّ المرأة، وعند مالك برقّ الرجل كما قالا فى الطلاق. لنا أن التخصيص خلاف الظاهر، ولإن تقدير هذه المدّة إن كان لأجل معنى يرجع إلى الجِبلّة والطبع، وهو قلّة الصبر على مفارقة الزوج فيستوى فيه الحرُّ والرقيق كالحيض، ومدّة الرضاع ومدّة العنة، و يصح الإيلاء فى حالتى الرّضا والغضب لعموم الآية. قال مالك: لا يصّح إلاّ فى حال الغضب. وأيضاً يصّح الإيلاء من المرأة سواء كانت في صلب النكاح أو كانت مطلقة طلقةً رجعيّة لأنّ الرجعيّة يصدق عليها أنها من نسائه بدليل أنّه لو قال: نسائى طوالق وقع الطلاق عليها، فتدخل تحت ظاهر قوله: **«يؤلُون من نِسَائِهِمْ»** ولهذا لو قال لأجنبية والله لا أجامعك لم يكن موالياً. وإيلاء الخصى صحيح لأنّه يجامع كما يجامع الفحل غير أنه لا ينزل، ومن جُبّ جميع ذكره لم يصح إيلاؤه على الأظهر لأنه لا يتحقق منه قصد الإيلاء لامتناع الأمر في نفسه، وكذا الأشل. ومن بقى من ذكره بعد الجبّ ما دون قدر الحشفة، فإن آلى ثم جب فالأصح ثبوت الخيار لها فإن لم تفسخ بقى الإيلاء على الأظهر لأن العجز عارض، وقد قصد الاضرار فى الابتداء. وإذا كانت المرأة رتقاء أو قرناء فالحكم كما في الجبّ، ولا يصح إيلاء الصبىّ والمجنون بحال. (الركن الثانى) المحلوف به: وهو إمّا الله تعالى وصفاته، أو غيره، فإن حلف بالله كان مولياً، ثم إن جامعها في مدّة الإيلاء خرج عن الإيلاء، وهل يجب عليه كفّارة اليمين؟ الجديد وهو وقول أبى حنيفة أنّه يجب عليه كفّارة اليمين لأنّ الدلائل الدالّة على وجوب الكفّارة عند الحنث باليمين عامّة، وأىّ فرق بين أن يقول: والله لا أقربك، ثم يقربها، أو بين أن يقول والله لا أكلمكِ ثم يكلّمها. وإنما ترك ذكر الكفّارة فى الآية لأنها مبيّنة فى سائر المواضع من القرآن وعلى لسان الرسول وقوله تعالى: **«فإن الله غَفُورٌ رَحِيمٌ»** يدل على عدم العقاب. وأنه لا ينافى الكفّارة كالتائب عن الزنا أو القتل لا

عقاب عليه، ومع ذلك يجب عليه الحدّ والقصاص، وأما إن كان الحلف فى الإيلاء بغير الله كما إذا قال: إن وطئتك فلله على عتق رقبة أو صدقة أو حج أو صوم أو صلاة فهل يكون مولياً؟ الجديد، وهو قول أبى حنيفة ومالك وجماعة من العلماء أنه يكون موالياً لأن العتق والطلاق المعلقْين بالوطء يحصلان لو وطىء ، فيكون ما يلزمه الوطء مانعاً له من الوطء، و يكون هو بتعليقه بالوطء مضرٌّ بها فيثبتُ لها المطالبة كما فى اليمين بالله تعالى حتى يضيق الأمر عليه بعد مضى أربعة أشهر ليفىء أو يطلق، ولا يخفى أنّه لو كان المعلق به إلزام قربة فى الذمّة فعليه ما فى نذر اللجاج، وفيه أقوال أصحها أنّ عليه كفارة اليمين، والثانى عليه الوفاء بما سمى. والثالث التخّيير بين كفّارة اليمين و بين الوفاء. (الركن الثالث) المحلوف عليه: وهو الجماع وهذا من صرايح ألفاظه وكذا الوطء والإصابة. ومن كناياتها المباضغة والملامسة والمباشرة فلا تعمل إلا بالنيّة. (الركن الرابع) المدّة، فعن ابن عباس أنه لا يكون مولياً حتى يحلف أن لا يطأها أبداً* وعن الحسن وإسحاق أنه مول وإن حلف يوماً، وهذان المذهبان فى غاية البعد. وعن أبى حنيفة والثورى أنّه لا يكون مولياً حتى يحلف على أن لا يطأها أربعة أشهر، أو فيما زاد. وعن مالك وأحمد والشافعى أنه لا يكون مولياً حتى تزيد المدة على أربعة أشهر. فعند الشافعى إذا آلى منها أكثر من أربعة أشهر أجل لأربعة أشهر، وهذه المدة تكون حقاً للزوج، فإذا مضت طالبة المرأة الزوج بالفيئة أو الطلاق، فإن امتنع الزوج منهما طلّقها الحاكم عليه، وعند أبى حنيفة إذا مضت أربعة أشهر يقع الطلاق بنفسه. حجّة الشافعى: أن الفاء فى قوله: «**فإنْ فَاؤا**» تقضى كون ما بعدها من حكمى الفيئة، والطلاق مشروعاً متراخياً عن انقضاء الأشهر الأربعة، وأيضاً قوله: «**وإنْ عَزَمُوا الطّلاقَ فإنّ الله سَميعٌ عَليمٌ**» صريح فى أن وقوع الطلاق إنما يكون بإيقاع الزوج، وفى أنّ الزوج لا بدّ أن يصدر عنه شىء يكون مسموعاً، وما ذاك إلاّ إيقاع الطلاق* أجاب أبو حنيفة بأنّ قوله: «**فإنْ فَاؤا**» تفصيل للحكم المتقدّم كما تقول أنا نزيلكم هذا الشهر فإن حمدتكم أقمت عندكم إلى آخره، وإلاّ لم أقم واتحوّل. وأيضاً الإيلاء طلاق فى نفسه، فالطلاق إشارة إليه، وأيضاً الغالب أن العازم للطلاق والضرار وترك الفيئة لا يخلو من مقاولة ودمدمة وحديث نفس فذلك الذى يسمعه الله كما يسمع وسوسة الشيطان. واستدل على صحة مذهبه فى أن الفيئة لا بدّ أن تقع فى الأشهر بقراءة عبدالله بن مسعود: فإن فاؤا فيهنّ. وردّ بأنها شاذّة فلا معول عليه، والرجوع إلى الحق أولى* الله حسبى.

((القول فى سبب نزول قوله تعالى :))

«الطَّلاقُ مَـرَّتانِ فَإمْسَاكٌ بمعروفٍ أوْ تَسْريحٌ بإحسانٍ ولاَ يَحِلُّ لكُمْ أنْ تَـأخُـذوا مِـمَّـا آتيـتُـموهُـنَّ شَيئاً إلاَّ أَنْ يـخَافَا ألاَّ يُقِيما حُدُودَ الله فـإنْ خِـفْـتُمْ ألاَّ يُـقيمَا حُدُودَ الله فَلاَ جُنَاحَ عليْهِمَا فيما افْتَدتْ بهِ تِلكَ حُدُودُ الله فَـلاَ تَـعْـتَدُوهَـا ومَـنْ يَتَعدَّ حُدُودَ الله فَأولئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ»

سورة البقرة (الآية: ٢٢٩)

فى الواحدى أخبر الرّبيع عن الشافعى عن مالك عن هشام بن عروة عن أبيه قال: كـان الـرجـل إذا طلَّـق امرأته ثم أرجعها قبل أن تنقضى عدّتها كان ذلك له، وإن طلقها مائة مرّة، فعمد رجل إلى امرأته فطلّقها، ثم أمهلها حتى إذا شارفت انقضاء عدتها ارتجعها، ثم طلقها، وقال: والله لا آو يك إلىَّ ولا تحلين أبداً، فأنزل الله عزّ وجلّ: «**الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فإمْسَاكٌ بمعروفٍ أو تَسْرِيحٌ بإحْسَانٍ...**» وقوله: «**ولاَ يحِلُّ لَكُمْ أنْ تأخُذُوا مِمَّا آتيْتُموهُنَّ**» أى من المهور: «**شيْئاً**» إذا طلقتموهنَّ. فى الخطيب أنها نزلت فى جميلة أخت عبدالله بن أبىّ بن سلول، كانت تبغض زوجها ثابت بن قيْس، فشكَتْهُ إلى أبيها، فقال: ارجعى إلى زوجك، فإنى أكره للمرأة أن لا تزال رافعةً يديْها تشكو زوجها، فلمّا رأت أباها لم يشكها رجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأرسل خلفه فجاءه فقال له: [مالك ولأهلك؟] فقال: والذى بعثك بالحق نبياً ما على وجه الأرض أحبّ إلىَّ منها غيرك، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما تقُولين] فقالت: هو منّى أكرم النّاس حُبّاً لزوجته، ولكن لا أنا ولا ثابت، لا يجمع رأسى ورأسه شىء والله لا أعيبه فى دين ولا خلق، ولكن أكرهُ الكفر فى الإسلام. ما أطيقه بغضاً. أى أكره إن أقمت عنده أن أقع فيما يقتضى الكفر بغضاً فيه. ويحتمل أن تريد كفران العشرة ــ إنى رفعتُ جانب الخباء فرأيتُه أقبل فى عدّةٍ، فإذا هو أشدُّهُمْ سواداً وأقصرهم قامةً، وأقبحهم وجهاً، فقال ثابت: قد أعطيتها حديقة فقل لها فلتردّها علىَّ وأخلّى سبيلها، فقال لها: [تردّينَ عليه حديقته وتملكين أمركِ؟] قالت: نعم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يا ثابت خُذْ منها ما أعطيتَها وخلّ سبيلها] ففعل، وفى رواية [اقبل الحديقة وطلّقها تطليقةً] * وفى القرطبى: ثبت أنّ أهل الجاهلية لم يكن عندهم للطلاق عدد، وكانت عندهم العدة

معلومة مقدّرة، وكان هذا فى أوّلِ الإسلام برهةً، يطلّقُ الرجل امرأته ما شاء من الطلاق، فإذا كادت تحلُّ من طلاقه راجعها ما شاء، فقال رجل لامرأته على عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم: لا آو يك ولا أدعك تحلّين، قالت: وكيف؟ قال: أطلّقك، فإذا دنا مضى عدتك راجعتك، فشكت المرأة ذلك إلى عائشة فذكرت ذلك للنبىّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية بياناً لعدد الطلاق الذى للمرء منه أن يرتجع دون تجديد مهر وولّي، ونَسَخَ ما كانوا عليه* أخرجه الترمذى والحاكم عن عائشة رضى الله عنها. ومعنى الآية أن الطلاق الرجعى مرتان، ولا رجعة بعد الثالثة إلاّ أن تنكح زوجاً آخر، وهذا التّفسير هو قول من جوّز الجمع بين الطلاق الثلاث فى دفعة واحدة وهو الشافعى. وقيل فى معنى الآية أن التطليق الشرعى يجب أن يكون تطليقة بعد تطليقة على التفريق دون الجمع والارسال دفعة واحدة، وهذا تفسير من قال إن الجمع بين الثلاثة حرام إلا أن أبا حنيفة قال يقع الثلاث وإن كان حراماً. وقيل إن الآية دالّة على عدد الطلاق الذى يكون للرجل فيه الرجعة على زوجته، والعدد الذى تبين به زوجته منه، والمعنى أن عدد الطلاق الذى لكم فيه رجعة على أزواجكم إذا كن مدخولاً بهنّ تطليقتان، وإنّه لا رجعة له بعد التطليقتين إن سرحها فطلقها الثالثة. كذا فى الخازن. أى والثالثة تؤخذ من قول: **«أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ»** أومن قوله: **«فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ...»** وقوله: **«فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ»** يعنى بعد الرجعة، وذلك أنه إذا راجعها بعد التطليقة الثانية فعليه أن يمسكها بالمعروف. وهو كل ما عرف فى الشرع من أداء حقوق النكاح وحسن الصحبة: **«أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ»** يعنى أنه يتركها بعد الطلاق حتى تنقضى عدتها من غير مضارة، وقيل هو أنه إذا طلقها أدى إليها جميع حقوقها المالية ولا يذكرها بعد المفارقة بسوء، ولا ينفّر النّاسَ عنها كذا فى الخازن. وفى القرطبى: والتسريح يحتمل لفظه معنيين: أحدهما تركها حتى تتم العدة من الطلقة الثانية، وتكون أملك بنفسها وهذا قول السدى والضّحاك. والمعنى الآخر أن يطلقها ثالثة فيسّرحها وهذا قول مجاهد وعطاء وغيرهما وهو أصحّ لوجوه ثلاثة: أحدهما ما رواه الدارقطنى عن أنس أن رجلاً قال يا رسول الله قال الله تعالى: **«الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ»** فَلِمَ صار ثلاثا؟ قال: **«إمْسَاكٌ بمعروف أو تسريح بإحسان»** وفى رواية: هى الثالثة، ذكره ابن المنذر. الثانى: أن التسريح من ألفاظ الطلاق ألا ترى أنه قد قرىء وإن عزموا السّراح. الثالث: أن فعل تفعيلاً يعطى أنه

أحدث فعلاً مكرّراً على الطلقة الثانية، وليس فى الترك احداث فعل يعبّر عنه بالتفعيل. قال أبو عمر: وأجمع العلماء على أن قوله تعالى: «**أو تسْرِيحٌ بإحْسَانٍ**» هى الطلقة الثالثة بعد الطّلقتين، وإيّاها عنى بقوله تعالى: «**فإنْ طلّقَهَا فَلاَ تحِلُّ لَهُ من بَعْدُ حتى تنكِحَ زوجاً غيرهُ**»* وفى الكرخى: الفاء فى قوله: «**فإمْسَاك بمعروف**» للترتيب على التعليم، كأنه قيل إذا علمتم كيفية التطليق فعليكم أحد الأمرين. وإنما كان معناها ذلك لأن الإمساك بالمعروف، أو التسريح بالإحسان إنما يكون قبل استيفاء الطلقات الثلاث لا بعدها. والاحسان أعمُّ من المعروف. لأن المراد بالمعروف عدم المضارّة اعطاء المال جبراً لخاطرهنّ لما يحصل لهنّ بسبب الطلاق من الوحشة وانكسار الخاطر، وذلك على حسب ما كانوا يراعون فى بذل المعروف لمن يرتحل عنهم* وقوله تعالى: «**ولاَ يحِلُ لَكُمْ أنْ تأخُذُوا مِمَّا آتيْتُمُوهُنَّ**» أى أعطيتموهن. وقد تقدم بيان سبب نزولها «**شَيْئاً**» يعنى من مهر أو غيره، ثم استثنى الخلع فقال تعالى: «**إلاّ أنْ يَخَافَا أنْ يقيما حُدُودَ الله**» أى ولا يحلُّ لكم أن تأخذوا منهنّ شيئاً فى حالٍ من الأحوال إلا فى حال خوفهما عدم إقامة حدود الله أى بما حدّه من الحقوق الزوجية من حسن الصحبة والمعاشرة بالمعروف، وقيل هو يرجع إلى المرأة وهو سوء خلقها واستخفافها بحق زوجها: «**فلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ**» نفسها من المال ليطلقها. أى لا حرج على الزوج فى أخذه ولا الزوجة فى بذله.

قال الخازن: **(فَصْلٌ فى حُكْمِ الْخَلْعِ وفيه مسَائل) :**

الأولى : قال الزهريُّ والنخعى وداود: لا يباح الخلع إلا عند الغضب والخوف من أن لا يقيما حدود الله. وذهب جمهور العلماء إلى أنه يجوز الخلع من غير نشوز ولا غضب غير أنه يكرهُ لما فيه من قطع الوصلة بلا سبب* عن ثوبان أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [أيُّما امرأة سألت زوْجها الطّلاقَ مِنْ غيْرِ بأسٍ فحرام عليها رائحة الجنّة] أخرجه أبو داود والترمذى.

* عن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: [أبغَضُ الحلالِ إلى الله الطّلاقُ] أخرجه أبو داود. ودليل الجمهور على جواز الخلع من غير نشوز قوله تعالى: «**فَإنْ طِبْنَ لكُمْ عَنْ شيء مِنْهُ نفْساً فَكُلُوهُ هَنيئاً مَريئاً**» فإذا جاز لها أن تهب مهرها من غير أن يحصل لها شيء فإذا بذلت كان ذلك فى الخلع الذى تصير بسببه مالكة أمر نفسها أولى* وأجيب عن الاستثناء المذكور فى هذه الآية أنه محمول على الاستثناء المنقطع.

(المسئلة الثانية) : الخلع جائز على أكثر مما أعطاها، و به قال أكثر العلماء، وقال بعضهم: لا يجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها، وهو قول عليّ، و به قال الزهرى والشّعبيّ والحسن وعطاء وطاوس. وقال سعيد بن المسّيب: بل يأخذ دون ما أعطاها حتى يكون الفضل فيه؞ وحجة الجمهور أن الخلع عقد على معاوضة فوجب أن لا يقيّد بمقدار معيّن، كما أن للمرأة أن لا ترضى عند عقد النكاح إلا بالكثير فكذلك للزوج ألا يرضى عند الخلع إلاَّ بالبذل الكثير لا سيما وقد أظهرت الاستخفاف بالزوج حيث أظهرت بعضه وكراهته.

(المسئلة الثالثة) : اختلف العلماء فى الخلع هل هو فسخ، أو طلاق. فقال الشافعى فى القديم: إنه فسخ، وهو قول ابن عباس وطاوس وعكرمة، و به قال أحمد وإسحاق وأبو ثور. وقال الشافعى فى الجديد: إنه طلاق وهو الأظهر، وهو قول عثمان وعليّ وابن مسعود والحسن والشعبيّ والنخعى وعطاء وابن المسّيب ومجاهد ومكحول والزهرى، و به قال أبو حنيفة ومالك وسفيان الثورى. وحجة القول القديم: أن الله تعالى ذكر الطلاق مرتين، ثم ذكر بعده الخلع، ثم ذكر الطلقة الثالثة فقال: «**فإن طلّقها فلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنكِحَ زوْجاً غَيْرَهُ**» ولو كان الخلع طلاقاً لكان الطلاق أربعاً، وحجة القول الجديد أنه لو كان فسخاً لما صحّ بالزيادة على المهر المسّمى كالإقالة فى البيع، وأيضاً لو كان الخلع فسخاً، فإذا خالعها ولم يذكر مهراً وجب أن يجب المهر عليه كالإقالة، فإن الطلقة الثالثة قوله: «**أو تَسْرِيحٌ بإحْسَانٍ**» وفائدة الخلاف أنا إذا جعلناه فسخاً بانت منه بثلاث؞ : «**تِلْكَ**» الأحكام المذكورة في قوله: «**ولاَ تنكحوا المشركات...**» وهى ما تقدم من أحكام الطلاق والرجعة والخلع؞ : «**حُدُودُ اللهِ فَلاَ تعْتَدُوهَا**» فلا تتجاوزُوا عنها: «**وَمَنْ يتَعَدَّى حُدُوَ اللهِ فأولئكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**» والظالم اسم ذمّ وتحقير، فوقع هذا الاسم عليه ليكون جارياً مجرى الوعيد، وكيف لا والظالم ملعون: «**ألاَ لَعْنَةُ اللهِ على الظَّالِمينَ**».

((القول فى سبب نزول قوله تعالى))

((وإِذَا طَلَّقْتُمُ النِسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ ينْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بيْنَهُمْ بالْمَعْرُوف ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كانَ منكُمْ يُؤمِنُ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أزكَى لَكُمْ وأَطْهَرُ واللهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)) سورة البقرة (الآية: ٢٣٢)

فى الواحدى: ذكر عن الحسن أنه قال: حدثنى معقل بن يسار أنها نزلت فيه قال: كنت زوّجتُ اختاً لى من رجل فطلقها حتى إذا انقضت عدتها جاء يخطبها، فقلت له: زوّجتك وأفرشتُك وأكرمتك فطلقتها، ثم جئت تخطبها!! لا والله لا تعود إليها أبداً، قال: وكان رجلاً لا بأس به، وكانت المرأة تريد أن ترجع إليه، فأنزل الله عزّ وجلّ هذه الآية، فقلت: الآن أفعل يا رسول الله، فزوّجتُها إياهُ، رواه البخارى عن أحمد بن حفص، وفى رواية فكفرتُ عن يمينى وأنكحتُها إيَّاهُ. قوله: **((فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ))** أى انقضت عدتهن: **((فَلاَ تعضُلُوهُنّ))** أى تمنعوهُنَّ من: **((أَنْ ينكِحْنَ أزواجَهُنَّ))** أى المطلقين لهنّ. وهذه الآية دليل على أنّ المرأة لا تزوج نفسها إذ لو تمكنَت منه لم يكن لعضل الولىّ فائدة، ولا يُعارض ذلك بإسناد النكاح إليهنّ لأنه إنما أسند إليهن لتوقف النكاح على إذنهن: **((إذا تَرَاضَوْا بيْنَهُمْ))** أى الأزواج والنساء: **((بالْمَعْرُوفِ))** أى بما يعرفه الشرع و يستحسنه من كونه بعقد حلال. وفيه دليل على أن العضل عن التزو يج من غير كفء غير منهىّ عنه : **((ذَلِكَ))** أن ترك العضل: **((أزكَى))** أنفع : **((لَكُمْ وأطْهَرُ))** لكم ولهن من دَنس الآثام لما يخشى على الزوجين من الريبة بسبب العلاقة بينهما: **((واللهُ يَعْلَمُ))** ما فيه المصلحة: **((وأنتُم لاَ تعْلَمُونَ))** ذلك لقصور عقولكم. فى أن الخيرة فيما تأتون ولا فيما تذرون* من الخطيب وابن كثير. وفى الغرائب: وعن مجاهد والسدى أنّ جابر بن عبدالله كانت له بنت عَم فطلقها زوجها وأراد رجعتها بعد العدة فأبى جابر فنزلت* وقد تمسّك الشافعى بالآية فى أن النكاح لا يجوز إلا بولىّ لأنه لو جاز للمرأة أن تزوج نفسها، أو توكل من يزوّجها لما كان الولى قادراً على عضلها من النكاح. وهذا مبنىٌّ على أن

الخطاب فى: «**لا تعضُلُوهُنَّ**» للأولياء. وتمسك أبو حنيفة بقوله تعالى: «**أنْ ينكحْنَ أزْوَجَهُنّ**» على أن النكاح بغير وليّ جائز، وذلك أنه تعالى أضاف النكاح إليها إضافة الفعل إلى فاعله، والتصرف إلى مباشرة، ونهى الوليَّ عن منعها من ذلك ولو كان ذلك التصرف فاسداً لما نهى الولى عن منعها منه، و يتأكد هذا النص بقوله: «**حتّى تنكِحَ زوْجاً غيْره**» وأجيب بأن الفعل كما يضاف إلى المباشر فقد يضاف أيضاً إلى المتسبب مثل بنى الأمير داراً، وإنما ذهبنا إلى هذا وإن كان مجازاً لدلالة الحديث على بطلان هذا النكاح. ففى ابن كثير، قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: نزلت هذه الآية فى الرجل يطلّق امرأته طلقةً أو طلقتين، فتنقضى عدتها، ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها، وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها* وكذا روى العوفى عنه عن ابن عباس أيضاً، وكذا قال مسروق وابراهيم النخعى والزهرىّ والضّحاك أنها نزلت فى ذلك. قال ابن كثير: وهذا الذى قالوه ظاهر من الآية. وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوّج نفسها، وأنّه لا بد في النكاح من وليّ كما قاله الترمذى وابن جرير عند هذه الآية كما جاء فى الحديث: [لا تُزَوِّجُ المرأةُ المرأةَ ولا تزوّجُ المرأةُ نفْسَها فإن الزانيةهى التى تزوّج نفسها] وفى الأثر الآخر [لا نِكَاحَ إلاَّ بولّيٍ مُرْشِدٍ وشاهِدَىْ عَدْلٍ] وفى الخازن: فى قوله: «**فَلاَ تعْضُلُوهُنّ أنْ ينكِحْنَ أزْوَاجَهُنَّ**» خطاب للأولياء، والمعنى لا تضيقوا عليهن أيها الأولياء فتمنعوهن من مراجعة أزواجهن بنكاح جديد تبتغون بذلك مضارتهن، فهو خطاب عامٌّ لجميع الأولياء، وإن كان سبب الآية خاصة* أو أنّ الخطاب للأمة جميعها، لأنها متكافلة فى المصالح العامة، ليعلم المسلمون أنّه يجب على من علم منهم بوقوع المنكر من أولياء النساء أو غيرهم أن ينهْوهُ عن ذلك حتى يفيء إلى أمر الله، وأنهم إذا سكتوا عن المنكر ورضوا به يأثمون، إذ كثيراً ما يرجحون أهوائهم وشهواتهم على الحق والمصلحة، ثم يقتدى بعضهم ببعض، فيكثر الشرّ والمنكر فتهلكُ الأمة كما قال تعالى: «**لُعِنَ الّذِينَ كَفَروا مِنْ بَنى إسْرائيلَ عَلى لِسَانِ دَاوُدَ وَعيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكانُوا يعْتَدُونَ* كَانُوا لاَ يتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» سورة البقرة (الآية: ٢٥٦)

في الواحدى: عن سعيد بن جبيرعن ابن عباس قال: كانت المرأة من نساء الأنصار تكون مقلاة أي لا يعيش لها ولد فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده. فلمّا أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى **«لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..»** قال سعيد بن جبير: فمن شاء لحق بهم، ومن شاء دخل في الإسلام* وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في رجل من الأنصار كان له غلامٌ أسود يقال له صبيح، وكان يكرهه على الإسلام* وقال مسروق: كان لرجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف إبنان فتنصّرا قبل أن يُبعث النبيُّ صلى الله عليه وسلم، ثم قدما المدينة في نفر من الأنصار يحملون الطعام، فأتاهما أبوهما فلزمهما، وقال: والله لا أدعكما حتى تُسلما فأبيا أن يُسلما، فاختصُموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله أيدخل بعضى النّار وأنا أنظر؟ فأنزل الله عز وجل **«لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ..»** فخلّى سبيلهما* وقال مجاهد: كان ناس مسترضعين في اليهود: قريظة والنضير، فلمّا أمر النبي صلى الله عليه وسلم بإجلاء بنى النَّضير، قال أبناؤهم من الأوس الذين كانُوا مسترضعين فيهم لنذهبنّ معهم ولندينَنَّ بدينهم. فمنعهم أهليهم وأرادُوا أن يكرهوا على الإسلام فنزلت **«لاَ إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ..»** الآية أي على الدخول فيه، فمن أعطى الجزية لم يكره على الإسلام، فهوعام مخصوص بأهل الكتاب، وقيل عام منسوخ، فكان هذا في الابتداء قبل أن يؤمر بالقتال، فصارت الآية منسوخة بآية السيف قاله ابن مسعود رضي الله عنه: كذا في الخطيب، وفي القرطبي: قال السدى: نزلت الآية في رجل من الأنصاريقال له أبوحصين، كان له ابنان. فقدم تجارمن الشام إلى المدينة يحملون الزيت، فلمّا أرادُوا الخروج أتاهم ابنا الحصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصّرا، ومضيا معهم إلى الشام، فأتى أبوهما رسول الله صلى الله عليه وسلم مشتكياً أمرهما، ورغب في أن يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من يردّهما فنزلت **«لاَ إِكْرَاهَ**

فى الــدِّيـنِ..» ولم يؤمر بقتال أهل الكتاب، وقال: (أبعدهما الله هُمَا أوّلُ من كفر) فوجد أبوالحصين في نفسه على النبي صلى الله عليه وسلم حيث لم يبعث في طلبهما، فأنزل الله جلّ ثناؤه «**فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حتّى يُحَكِّمُوكَ فيمَا شجَرَ بيْنَهُم**» الآية، ثم إنه نسخ «**لاَ إكْرَاهَ فى الدِّينِ**» فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة (براءة) أي أنه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول في الدّين الحنيف دين الإسلام، فإن أبى أحد منهم الدخول، ولم ينقد له أو يبذّل الجزية قوتل حتى يقتل وهذا معنى الإكراه قال تعالى: «**ستدعوْن إلى قوْمٍ أُولى بأسٍ شديدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أويُسْلِمون**» وقال تعالى: «**يا أيُّها النبيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ والمنافقينَ واغْلُظْ عَلَيْهِمْ**» وقال تعالى: «**يأيُّها الّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الّذِينَ يَلُونكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً واعْلَمُوا أنَّ الله مع المتقين**» وفي الخازن: زيادة على ما تقدم ذكره من أسباب النزول: وقيل نزلت في أهل الكتاب إذا قبلوا بذل الجزية لم يكرهوا على الإسلام، وذلك أن العرب كانوا أمّةً أميّةً ولم يكن لهم كتاب يرجعوا إليه فلم يقبل منهم إلاّ الإسلام أو القتل، ونزل في أهل الكتاب «**لاَ إكْرَاهَ فى الـدِّينِ**» يعنى إذا قبلوا الجزية، فمن أعطى الجزية منهم لم يكره على الإسلام، فعلى هذا القول تكون الآية محكمة ليست منسوخة* وقوله: «**قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**» أي ظهر بالآيات البيّنات أنَّ الإيمان رشد، والكفر غيٌّ، والعاقل لا يختار الشقاوة على السعادة بعد تبيّنها، وأصل الغيّ بمعنى الجهل إلاّ أن الجهل في الاعتقاد والغي في الأعمال كذا في الكرخي. «**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ**» الشيطان، أو الأصنام «**و يُؤْمِنْ بالله فَقَدِ اسْتَمْسَكَ**» تمسّك، فالسين والتاء زائدتان للمبالغة وليستا للطلب. أي بالغ في التمسك «**بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى**» بالعقدة المحكمة «**لاَ انْفِصَامَ لَهَا**» أي لا انقطاع لها ولا زوال وهلاك «**والله سَمِيعٌ**» لما يقال «**عَلِيمٌ**» بما يفعل من العزائم والعقائد.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«الّذِينَ يُنْفِقُونَ أمْوالَهُمْ فى سَبيلِ الله ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أنْفَقُوا منّاً ولاَ أذًى لَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ ربِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُون»

سورة البقرة (الآية: ٢٦٢)

في الواحدى: قال الكلبي: نزلت في عثمان بن عفّان وعبدالرحمن بن عوف، أمّا

عبدالرحمن بن عوف فإنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأربعة آلاف درهم صدقةً، فقال: كان عندى ثمانية آلاف درهم، فأمسكتُ منها لنفسى ولعيالى أربعة آلاف درهم وأربعة آلاف أقرضتُها ربّى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت] وأما عثمان رضي الله عنه فقال عليٌّ: جهّزَ من لا جهاز له في غزوة تبوك، فجهز المسلمين بألف بعير بأقتابها وأحلاسها، وتصدّق برؤمةٍ: ركية كانت له على المسلمين، فنزلت فيهما هذه الآية* وقال أبوسعيد الخدرى: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم رافعاً يده يدعو لعثمان و يقول: [يارَبّ إنَّ عثمان بن عفّان رضيتُ عنه فارضَ عنه] فما زال رافعاً يده حتّى طلع الفجر، فأنزل الله تعالى فيه «**الّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فى سَبِيلِ اللهِ...**» الآية، وكذا في الخطيب ونحوه في الخازن، والمعنى الذين يعينون المجاهدين في سبيل الله بالإنفاق عليهم في حوائجهم ومؤنتهم «**ثُمّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً ولاَ أَذًى**» أي لا يتبع نفقته التي أنفقها عليهم بالمنّ والأذى، هو أن يُعيّره فيقول كم تسأل وأنت فقير أبداً وقد بليت بك. وأراحنى الله منك وأمثال ذلك. والمنّ في اللغة الانعام، والمنّة النعمة الثقيلة، يقال منّ فلان على فلان إذا أثقله بالنعمة، و يكون ذلك بالقول أيضاً، ومنه قول الشاعر:

فمنّى علينا بالسّلام فإنما كلامُك يا قوتٌ ودُرٌّ منظم

والمنّان في صفة الله تعالى معناه المتفضل، فمنّ الله إفضالٌ على عباده، وإحسان إليهم، فجميع ما هُم فيه منّةٌ منه سبحانه وتعالى، ومنُّ العباد تعيير وتكدير. فظهر الفرق بينهما. «**لَهُمْ أَجْرُهُمْ**» يعنى ثوابهم «**عِنْدَ ربِّهِمْ**» يعنى في الآخرة «**وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ**» يعنى يوم القيامة «**ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**» يعنى على ما خلّفُوا من الدنيا.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طيّباتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لكُمْ مِنْ الأَرْضِ ولا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيه إلاّ أَنْ تُغْمِضُوا فيه واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غنيٌّ حَمِيدٌ» سورة البقرة (الآية: ٢٦٧)

في الواحدى: عن جابر رضي الله عنه قال: أمر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بزكاة الفطر بصاع من تمر، فجاء رجل بتمر ردىء فنزل القرآن «**يا أَيُّها الّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا**

مِنْ طيّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أخْرَجْنَا لكُمْ مِنَ الأ رْضِ ولا تَيَمَّمُوا الْخَبِثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ» * وعن السدّى عن عدى بن ثابت عن البراء: قال: نزلت هذه الآية في الأنصار. كانت تخرج إذا كان جذاذ النخل من حيطانها أقناء من التّمر والبسر، فيعلّقونها على جبل بين اسطوانتين في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيأكل منه فقراء المهاجرين وكان الرجل يعمد فيخرج قنو الحشف، وهو يظنّ أنّه جائز عنه في كثرة ما يوضع في الأقناء، فنزل فيمن فعل ذلك، **«وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ»** يعنى القنو الذى فيه حشف، ولو أهدى إليكم ما قبلتموه إلا على استحياء من صاحبه وغيظ فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم، قاله البراء: كذا في الخطيب. وفيه: عن ابن عباس رضي الله عنهما كانوا يتصدّقون بحشف التمر وشراره فنهو عن ذلك* هذا إذا كان كله أو بعضه جيداً، فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيب، نعم إن كان كُلّ ماله رديئاً فلا بأس بإعطاء الردىء. وفي أبى السعود **«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا أنْفِقُوا مِنْ طيّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ..»** هذا بيان لحال ما ينفق منه إثر بيان أصل الانفاق وكيفيته، أي أنفقوا من حلال ما كسبتم وجياده لقوله تعالى: **«لن تَنَالُوا البِرَّ حتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ»** وليس في بقيّة التفاسير زيادة على ما تقدم، قوله: **«أنْفِقُوا مِنْ طيّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ»** أنفقوا: زكّوا **«مِنْ طيّبَاتِ»** أي جياد **«مَا كَسَبْتُمْ»** من المال بالتجارة والصناعة، وفيه دلالة على إباحة الكسب، وأنّه ينقسم إلى طيّب وخبيث، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما أكل أحدٌ طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وكان نبيُّ الله داود لا يأكل إلا من عمل يده»* والزكاة واجبة في التجارة. فبعد الحول تُقوّم العروض: فيخرج منها قيمتها. ربع العشر أي ٢/١ ٢٪ إن كان قيمتها عشرين ديناراً أو مائتى درهم فضّة فيزكيها. قال سمرة بن جندب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنا أن نُخرِجَ الصّدقة من الذي يُعدُّ للبيع* **«وَمِمَّا»** أي من طيبات ما **«أخْرَجْنَا لكُمْ مِنَ الأ رْضِ»** من الحبوب والثمار والمعادن. واتفق العلماء على إيجاب العشر في النخيل والكروم وفيما يقتات به من الحبوب، إنْ كان مسقياً بماء السماء، أو من نهر يجرى الماء فيه من غير مؤنةٍ، وإن كان مسقيّاً بساقية أو نضح. أي فيه مؤنة ففيه نصف العشر لقوله صلى الله عليه وسلم: [فيما سقت السماء والعيون، أو كان عشريّاً: العشر. وفيما يُسْقى بالنّضح نصف العشر] وعنه صلى الله عليه وسلم: [ليس في حبٍ ولا تمرٍ

صَدَقة حتى يبلغ خمسة أوْسق] والوسق (٦٠ صاعاً) قوله: «**وَلَا تَيَمَّمُوا**» أي لا تقصدُوا «**الْخَبِيثَ**» أي الرديء «**مِنْهُ**» المذكور «**تُنْفِقُونَ**» في الزكاة «**وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ**» أي الخبيث «**إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا**» أي تُسامحُوا «**فيه**» بالحياء مع الكراهة، وهو على حدّ قول البراء المتقدّم. واختلف العلماء هل الآية في الزكاة المفروضة أم في التطوع؟ فقال عليٌّ بن أبي طالب وعبيدة السلمانيّ وابن سيرين: هي الزكاة المفروضة، نهى الناس عن إنفاق الرديء فيها بدل الجيّد* وقال ابن عطية: والظاهر من قول البراء بن عازب والحسن وقتادة أنّ الآية في التطوع، ندبُوا ألا يتطوعوا إلا بمختار جيد* والحق أن الآية تعم الوجهين: فالأمر فيها للوجوب في الفرضيّة، وللندب في التطوع، لما روى البراء أن رجلاً علّق قُنْوَ حَشَفٍ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [بِئسَمَا عَلَّق] فنزلت الآية خرّجه الترمذي. فالأمر على هذا القول للندب، ندبوا ألا يتطوعوا إلاّ بجيد مختار «**واعْلَمُوا أنَّ الله غنيٌّ حَمِيدٌ**» أي إنَّ الله غنيٌّ عن إنفاقكم، وإنما يأمركم به لمنفعتكم، فلا تتقربوا إليه بما لا يقبله لرداءته، وهو المستحق للحمد على جلائل نعمائه، ومن الحمد اللائق بجلاله تحرّي إنفاق الطيّب مما أنعم به.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّآتِكُمْ واللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ»

سورة البقرة (الآية: ٢٧١)

في الواحدى: قال الكلبي: لمَّا نزل قوله تعالى: «**وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ**» الآية. قالوا يا رسول الله: صدقة السّر أفضل، أم صدقة العلانية، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وكذا في الخطيب والقرطبي والخازن. وفي ابن كثير: وقال ابن أبى حاتم: حدّثنا أبى حدّثنا الحسين بن زياد المحاربيّ مؤدب محارب، أنا موسى بن عمير، عن عامر الشعبيّ في قوله: «**إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**» قال: نزلت في أبى بكر وعمر رضي الله عنهما: أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: وما خلّفت وراءك لأهلك يا عمر؟ قال: خلّفت لهم نصف مالى. وأمّا أبوبكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه

إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: وما خلّفت وراءك لأهلك يا أبا بكر؟ فقال: عدة الله وعدة رسوله. فبكى عمر رضي الله عنه وقال: بأبى أنت وأمي يا أبا بكر، والله ما استبقْنا إلى باب خيرٍ قط إلاَّ كنت سَابقاً* قال ابن كثير: وهذا الحديث روى من وجه آخر عن عمر رضي الله عنه، وإنما أوردناه ههنا لقوْل الشّعبي: إنّ الآية نزلت في ذلك، وقال: ثم إنَّ الآية عامة في أنّ إخفاء الصدقة أفضل سواء كانت مفروضة، أو مندوبة، لكن روى ابن جرير من طريق عليّ بن أبى طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: جَعَل الله صدقة السّر في التطوّع تفضُل علانيتَها يقال بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرّها يقال بخمسة وعشرين ضعفاً* وفي الخازن: وقيل إنَّ الآية واردة في زكاة الفرض، وكان إخفاؤها خيراً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنّهم كانوا لا يظنون بأحدٍ أن يمنع الزكاة، فأما اليوم في زمانا فإظهار الزكاة أفضل حتى لا يُساء الظنّ به* وقيل إن الآية عامة في جميع الصدقات الواجبة والتطوع، والاخفاء أفضل في كل صدقة من زكاة وغيرها، قوله: «**إنْ تُبْدُا الصَّدَقَاتِ فَنِعمَّا هِيَ**» أي إن تظهروا الصدقات فنعمّ عملاً إظهارها لما فيه من الأسوة الحسنة، فيقتدى بالمتصدّق كثير من الناس ولأنَّ الصدقة من شعائر الإسلام التي لو أخفيت لتوهم منعها «**وَإنْ تُخْفُوهَا وتُؤْتُوهَا الْفُقَراءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**» أي وإن تعطوها الفقراء خفية فهوا أفضل جبراً لخاطرهم. ولما في ذلك من البعد عن شبهة الرّياء، ولما دلّت عليه الآثار والأحاديث: أخرج أحمد عن أبى أمامة أنَّ أبا ذر قال: [يا رسول الله أيُّ الصدقة أفضل؟ قال: صدقة سرٍ إلى فقيرٍ، أو جَهْدٌ مِنْ مُقلٍ، ثم قرأ الآية] وروى الطبرى مرفوعاً [أن صدقة السر تُطفِىء غضب الرب] وروى البخاريُّ: أن من السبعة الذين يُظلهم الله في ظله يوم القيامة إذ لا ظلّ إلا ظله، [ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تُنفق يمينه] وقد فهم من قوله: «**الفُقَرَاءَ**» ولم يقل فقراءكم. أعنى المسلمين ـــ أنّ صدقة التطوع تُعطى للمسلم والكافر والبرّ والفاجر، لأن الله كتب الرحمة والإحسان في كل شيء، فقد ورد في الصحيحين [في كل ذى كبدٍ حرَّى أجر] أي في جميع الأحياء، وتمنع الزكاة المفروضة التي هى أحد أركان الإسلام عن الكافر، ومثلها زكاة الفطر. قوله: «**و يُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّآتِكُمْ**» أي ويمحوا عنكم بعض ذنوبكم لأنَّ الصدقة لا تكفر جميع الذنوب، وأصل التكفير في اللغة التّغطية والستر. وفي الخازن قال

ابن عباس: جميع سيئاتكم* وقيل أدخل من للتبعيض ليكون العباد على وجل ولا يتكلموا، والمعنى: ونكفر عنكم الصغائر من سيئاتكم «**والله بِمَا تَعْمَلُونَ خبيرٌ**» يعني من إظهار الصدقات وإخفائها، فجازيكم عليه. وفي هذا ترغيب في إعطاء الصدقات سرّاً.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ولكنَّ الله يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ وما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فلأنْفُسِكُمْ وما تنفِقُونَ إلاَّ ابْتِغاءَ وجْهِ الله وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إليكُمْ وأنْتُمْ لاَ تُظْلَمُون* لِلْفُقَراءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فى سَبيلِ الله لا يستطيعُونَ ضَرْباً فى الأرْضِ يَحْسَبُهُمَ الْجَاهِلُ أغنياءَ مِنَ التَّعَفُّف تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاس إلْحَافاً وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خيْرٍ فإنَّ الله بِهِ عَليمٌ» سورة البقرة (الآية: ٢٧٢، ٢٧٣)

في الخازن: قيل سبب نزول هذه الآية أن ناساً من المسلمين كان لهم قربات وأصهار في اليهود وكانُوا ينفعونهم و ينفقون عليهم قبل أن يسلمُوا، فلمّا أسلموا كرهوا أن ينفعوهم وأرادُوا بذلك أن يسلموا، وقيل كانُوا يتصدّقون على فقراء أهل المدينة فلمّا كثر المسلمون نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التصدق على المشركين كى تحمله الحاجة إلى الدخول في الإسلام لحرص النبي صلى الله عليه وسلم على إسلامهم فنزل «**لَيْسَ عليكَ هُدَاهُمْ**» ومعناه ليس عليك هداية من خالفك حتى تمنعهم الصدقة لأجل أن يدخلوا في الإسلام فحينئذٍ تتصدّق عليهم، وأعلمه الله تعالى أنّه إنما بعث بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه، فأمّا كونهم مهتدين فليس ذلك إليك* وفي الخطيب: وقيل إن أسماء بنت أبى بكرة حجّت فأتتها أمها تسألها وهى مشركة فأبت أن تعطيها فنزلت* وفي القرطبي: روى سعيد بن جبير مرسلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في سببب نزول هذه الآية أن المسلمين كانُوا يتصدّقون على فقراء أهل الذمّه، فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تتصدّقوا إلا على أهل دينكم] فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من دين الإسلام* وذكر النقّاش أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بصدقات فجاء يهوديّ، فقال: اعطنى، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [ليس لك من صدقة المسلمين شيء] فذهب اليهوديُّ غير بعيد فنزلت «**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ**» فدعاه رسول الله صلى الله

عليه وسلم فأعطاه* وفي الخطيب: وعن بعض العلماء لو كان المنفق عليه أشر خلق الله كان لك ثواب نفقتك، وأمَّا الصدقة المفروضة فلا يجوز وضعها إلا في المسلمين* وجوَّز أبوحنيفة صرف صدقة الفطر إلى أهل الذِّمة* وفي الطبرى: وقد قام الاجماع على أنَّ الذمِّيَّ لا يعطى من زكاة الأموال شيئاً، أما صدقة التطوع فلا بأس بإعطائهم منها لقوله تعالى: «**لاَ ينْهَاكُمُ الله عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فى الدِّينِ ولَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أنْ تبرُّوهُمْ وتُقْسِطُوا إليْهم**» لذا يدفع لأهل الذمّة من صدقة التطوّع إذا احتاجوا..بل وذكر أبويوسف في كتاب الخراج أنَّ عمر رضي الله عنه رأى شيخاً ضريراً يسأل على باب فقال له: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: الجزية والحاجة والسنّ، فأخذ بيده، وذهب إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها، وأرسل إلى خازن بيت المال أن انظر هذا وضرباءه، فوالله ما أنصفناهُ إن أكلنا شيبتَهُ، ثم نخزله عند الهرم، «**إنَّما الصّدقاتُ للفقراءِ والمساكين**» وهذا من مساكين أهل الكتاب. ووضع عنه الجزية وعن ضربائه، وأجرى له رزقاً، وليس في بيت مال المسلمين إلاَّ الصدقات المفروضة، فأعطاه منها بدليل استشهاده بالآية «**إنَّما الصّدقَاتُ للفقراءِ والمساكين**» والله أعلم. وفي ابن كثير: قال أبوعبدالرحمن النسائى: أنبأ محمد بن عبدالسلام بن عبدالرحيم، أنبأنا الفريابى، حدَّثنا سفيان عن الأعمش، عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير، عن ابن عبّاس قال: كانُوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا: فرخص لهم فنزلت هذه الآية «**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ..**» الآية. وهذا رواه أبوحذيفة وابن المبارك وأبوأحمد الزبيرى، وأبوداود الحضرميّ عن سفيان وهو الثورى به، وقال ابن أبى حاتم: أنبأ أحمد بن القاسم بن عطيه، حدّثنى أحمد بن عبدالرحمن يعنى الدشتكى، حدثنى أبى عن أبيه، حدَّثنا أشعث بن اسحاق عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأمر بأن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية «**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ**» الآية. فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين* قوله تعالى: «**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ**» أي الناس إلى الدخول في الإسلام إنما عليك البلاغ والإرشاد، والحث على المحاسن والنهى عن القبائح، وقوله في آية أخرى «**وإنّكَ لتهْدِى إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**» إنما أراد هنا الدعوى إلى الهدى. كذا في الكرخى

«ولكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ» هدايته إلى الدخول فيه «وما تفعَلُوا مِنْ خيرٍ» مال ولو على كافر ولكن هذا في غير صدقة الفرض «فَلأنْفُسِكُمْ» لأنَّ ثوابه لها «وما تُنْفِقُونَ إلاَّ ابتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ» أي ثوابه لا غير من عرض الدنيا «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إليكُمْ» جزاؤه «وأنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ» تنقصون منه شيئاً. «لِلْفُقَراءِ» أي الصدقات السابقة، أو النفقات «الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ» أي حَبَسُوا أنفسهم على الجهاد. في الجلالين نزلت في أهل الصفة، وهم أربعمائة من المهاجرين، أرصدوا لتعلّم القرآن والخروج مع السّرايا. وفي الخازن: وهم فقراء المهاجرين كانوأ نحو أربعمائة رجل لم يكن لهم بالمدينة مساكن ولا عشائر، وكانُوا يأوون إلى صفة فى المسجد يتعلمون القرآن بالليل و يرضخون النوى بالنّهار، وكانُوا يخرجون في كل سرية يبعثها رسول الله صلى الله عليه وسلم،وهم أصحاب الصفّة، فحثّ الله تعالى النَّاس على مواساتهم، فكان من عنده فضل أتاهم به إذا أمسى «لا يستطيعُونَ ضَرْباً فِى الأرْضِ» يعنى لا يتفرغون للتجارة وطلب العيش والكسب، وهم أهل الصفة الذين تقدم ذكرهم.. وقيل: هم قوم أصابتهم جراحات في الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصاروا زمنى، حصرهم المرض والزمانة عن الضرب في سبيل الله، «يَحْسَبُهُمَ الْجَاهِلُ أغنياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ» أي يظن من لم يختبر حالهم أنهم أغنياء من التعفف، وهوتفعل من العفة، وهى ترك الشيء والكف عنه، يقال تعفف إذا ترك السؤال والزم القناعة.

والمعنى: يظنهم من لم يعرف حالهم أغنياء لإظهار التّجمل وتركهم المسئلة. وفي الشرع يحرم السؤال لغير ضرورة، روى أبوداود والترمذي من حديث عبدالله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لا يحلُّ الصدقة لغنىّ ولا لذى مِرّةٍ سوِيٍّ] والمرة بكسر الميم القوّة، والسوى: هو السليم الأعضاء، والمراد به القادر على الكسب. وروى أحمد وأبوداود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [مَن سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنّم، قالوا يا رسول الله: وما يغنيه؟ قال: مايُغديه أو يعشيه]. وروى أحمد وابن ماجة عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً، فليستقل منه أو ليستكثر] وروى أحمد والبخارى ومسلم عن أبى هريرة قال: [سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه، و يستغنى به عن الناس، خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه]

فمن يعلم أنه يسأل لنفسه تكثراً كالشحاذين الذين جعلوا السؤال حرفة وهم قادرون على العمل ــ لا يعطى شيئاً، فقد رأى عمر رضي الله عنه سائلاً يحمل جراباً، فأمر أن ينظر فيه، فإذا هو خبز فأمر أن يؤخذ منه و يلق إلى إبل الصدقة* وهذا يدل على جواز مصادرة أموال الشحاذين لأنهم اكتسبوها من وجه محرم غير مشروع وفي المراغى: وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوماً على أصحاب الصفة، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال: [أبشروا يا أصحاب الصفّة، فمن بقي من أمتى على النعت الذي أنتم عليه راضياً بما فيه فإنه من رفقائى] قال المراغى: ولا يحلُّ لأهل التكايا مشايخ الطرق أن يأكلوا أموال الناس، لأنهم لم ينقطعوا لتعلّم علم ولا غزو في سبيل الله، بل قصارى أمر الأ ولين أن يأكلوا الصدقات والأ وقاف ليعبدوا الله في هذه التكايا، فهي لهم كالأديار للنصارى وهم فيها كالرهبان، وإن كان بعضهم قد يتزوّج، وكذلك مشايخ الطرق الذين ينزلون بجماعتهم بلداً بعد آخر، و يكلّفون من يستضيفونه الذبائح والشيء الكثير من الطعام، ثم لا يخرجون إلا مثقلين بالمال والهدايا، بل قد يسلبون و ينهبون باسم الدين، وفي معرض الكرامات، فهؤلاء الأ وغاد يشبهون أنفسهم بأهل الصفة، و يزعمون أنَّ لأكلهم أموال الناس بالباطل أصلاً في الكتاب والسنة «**كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إنْ يقُولون إلاّ كذباً**»* وقوله: «**تَعْرِفُهُمْ بسيمَاهُمْ**» السياء والسيمياء والسمة: العلامة التي يعرف بها الشيء، واختلفوا في معناها، فقيل: هي الخضوع والتواضع، وقيل: هى أثر الجهد من الحاجة والفقر، وقيل: هي صفرة ألوانهم من الجوع ورثاثة ثيابهم من الضرّ* كذا في الخازن. والمعنى بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم كما قال تعالى: «**سيماهُمْ في وجُوههِمْ**» وقال: «**ولتعْرِفَنَّهُمْ فى لَحْنِ الْقَوْلِ**» وفي الحديث الذي في السنن [اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله] ثم قرأ «**إنَّ فى ذلك لآياتٍ للمتوسِّمينَ**» وقوله: «**لاَ يسْئَلُونَ النَّاسَ إلْحَافاً**» أي لا يلحون في المسئلة، و يكلّفون الناس ما لا يحتاجون إليه، فإن من سأل وله ما يغنيه عن المسئلة فقد ألحف في المسئلة قال البخارى: حدَّثنا ابن أبى مريم، حدَّثنا محمد بن جعفر، حدَّثنا شريك بن أبى نمر أن عطاء بن يسار وعبدالرحمن بن أبى عمرة الأنصارى قالا: سمعنا أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لَيْسَ المسكينُ الذي تردُّه التمرةُ والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان: إنما المسكين الذي يتعفف. اقرؤوا إن شئتم يعنى

قوله «لا يسألُونَ النَّاسَ إلْحافاً»] وكذا رواه مسلم بهذا اللفظ عن أبى هريرة رضي الله عنه، وفي البخارى عنه أيضاً قال: [ليس المسكين بالطّواف عليكم فتطعمونه لقمةً لقمةً إنما المسكينُ المتعفف الذي لا يسأل الناس إلحافاً] وقال الإمام أحمد: حدثنا أبوبكر الحنفى، حدثنا عبدالحميد بن جعفر عن أبيه عن رجل من مزينة أنّه قالت له أمه: ألا تنطلق فنسأل رسول الله كما يسأله الناس؟ فانطلقت أسأله فوجدته قائماً يخطب وهو يقول: [ومن استعفّ أعفَّه الله، ومن استغنى اغناه الله، ومن سأل الناس وله عدل خمس أواق، فقد سأل الناس إلحافاً] فقلت بينى و بين نفسى لناقة لى خير من خمس أواق ولغلامى ناقة أخرى فهى خير من خمس أواق، فرجعت ولم أسأل٭ وأخرج أحمد عن أبى سعيد عن أبيه قال: سرحتنى أمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله، فأتيتُه فقعدت، قال: فاستقبلنى فقال: [من استغنى أغناه الله، ومن استعف أعفه الله، ومن استكف كفاهُ الله، ومن سأل وله قيمة أوقيّةٍ فقد ألحف] قال: فقلت ناقتى الياقوتة خير من أوقية، فرجعت فلم أسأله٭ والأوقية: أربعون درهماً. وأخرج الإمام أحمد عن عبدالله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من سأل ولَهُ ما يغنيه جاءت مسئلتُه يوم القيامة خدُوشاً أو كدوحاً في وجهه قالوا: يا رسول الله وما غناه؟ قال: خمسون درهماً أو حسابها من الذهب] وكذا رواه أهل السنن الأربعة. وقوله: «وما تُنْفِقُوا مِنْ خيْرٍ فإنَّ الله به عَليمٌ» فلا تخفى عليه حسن النية والإخلاص له في العمل، ولا تحرى النفع به وإيتاؤه أحقّ الناس به، فهو يجازى عليه بحسب هذا، ولا يخفى ما في هذا من الترغيب في الانفاق ولا سيّما على مثل هؤلاء الذين تقدّم ذكرهم.

٭((القول في سبب نزول قوله تعالى :))٭

«الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أمْوالَهُمْ باللَّيْلِ والنّهارِ سِرًّا وعَلاَنِيةً فَلَهُمْ أجْرُهُمْ عنْدَ رَبِّهِمْ ولاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» سورة البقرة (الآية: ٢٧٤)

في الواحدى : عن شعيب عن أبيه عن جده عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [نزلت هذه الآية في أصحاب أهل الخيل] وهذا قول أبى أمامة ، أبى الدرداء ومكحول والأوزاعى ورباح بن يزيد قالوا: هم الذين يربطون الخيل في سبيل الله ينفقون عليها بالليل والنهار سرًّا وعلانية. نزلت فيمن لا يرتبطها تخيّلاً ولا افتخاراً٭ وعن ابن عباس

قال في هذه الآية «الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوالَهُمْ باللَّيْلِ والنّهارِ..» في علف الخيل، و يدل عليه قوله عليه الصلاة والسلام: [من ارتبط فرساً في سبيل الله فأنفق عليه احتساباً كان شبعه وجوعه وريه وظمؤه و بوله وروثه في ميزانه يوم القيامة] وعن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [المنفق في سبيل الله على فرسِهِ كالباسط كفيه بالصدقة] وعن عجلان بن سهل الباهليّ قال: سمعت أبا أمامة الباهلي يقول: من ارتبط فرساً في سبيل الله لم يرتبط رياءً ولا سمعةً كان من «الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار..» الآية. وحدّث عبدالوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس في قوله: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ باللَّيْلِ والنّهارِ سِرًّا وعَلاَنِيةً..» قال: نزلت في عليّ بن أبي طالب. كان عنده أربعة دراهم فأنفق بالليل واحداً، و بالنّهار واحداً، وفي السرّ واحداً وفي العلانية واحداً، وفي رواية الكلبي: قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما حملك على هذا؟ قال: حملني أن أستوجب على الله الذي وعدني، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا إن ذلك لك. فأنزل الله تعالى هذه الآية، وفي الخطيب: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، تصدّق بأربعين ألف دينار: عشرة بالليل، وعشرة بالنّهار، وعشرة بالسرِّ وعشرة بالعلانية، وفى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه كان عنده أربعة دراهم لا يملك غيرها، فتصدّق بدرهم ليلاً و بدرهم نهاراً، و بدرهم سرًّا و بدرهم علانيةً، وفي القرطبي: وذكر ابن سعد في الطبقات قال: أخبرت عن محمد بن شعيب بن شابور قال: أنبأنا سعيد بن سنان عن يزيد بن عبدالله بن عريب عن أبيه عن جدّه عريب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن قوله تعالى: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ باللَّيْلِ والنّهارِ سِرًّا وعَلاَنِيةً..» الآية قال: [هم أصحابُ الخيل» وقال قتادة: هذه الآية نزلت في المنفقين من غير تبذير ولا تقتير، قلتُ: وما ذكر سبباً لنزولها لا يقتضي خصوص الحكم به بل العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وقوله: «الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ باللَّيْلِ والنّهارِ» الآية. ذلك أنَّ الذين يعمون الأوقات والأحوال بالصدقة يكون ذلك منهم دليل على الحرص البالغ والإهتمام التّام كلما نزلت بهم حاجة محتاج عجّلوا قضاءها، ولم يؤخروه متعللين بوقت وحال. والباء بمعنى في أي في الليل والنهار. وسرًّا وعلانيةً منصوبان على الظرفية أيضاً أي في أوقات السرّ والعلن، أو على وصف المصدر أي إنفاقاً سرًّا وعلانيةً، أو على الحال لكونه بياناً عن كيفية الانفاق. وقيل لمّا نزل «لِلْفُقَراءِ

«الَّـذِينَ أُحْصِرُوا في سبيل الله» بعث عبدالرحمن بن عوف بدنانير إلى أصحاب الصفّة، وبعث علـيٌّ بوَسَقٍ من تمرٍ فنزلت الآية. وكذا في الغرائب: وفي تقديم ذكر الليل وتقديم السرّ على العلانية دليل على أن صدقة السرّ أفضل لأن ذلك إيذاناً بمزيد الإخفاء على الإظهار. «فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ» أي يوم القيامة على ما فعلوا من الانفاق في الطاعات «ولاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» أي على ما خلفوه من الأولاد، ولا ما فاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها، لا يأسفون عليها لأنهم قد صاروا إلى ما هو خير لهم من ذلك.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أَيُّهَا الَّـذِينَ آمَنُوا اتَّقُو الله وذَرُوا مـا بَقِيَ مِنَ الرِّبا إنْ كُنْتُمْ مُـؤْمِنينَ* فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ الله ورسُولِـهِ وإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤوسُ أمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ»

سورة البقرة (الآية: ٢٧٨، ٢٧٩)

في الواحدي: حدّث الكلبيُّ عن أبي صالح عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت في بني عمرو بن عمير بن عوف من ثقيف، وفي بني المغيرة من بني المخزوم، وكانت بنو المغيرة يربون لثقيف، فلمّا أظهر الله تعالى رسوله على مكة، وضع يومئذ الربا كله، فأتى بنو عمرو بن عمير و بنو المغيرة إلى عتّاب بن أسيد، وهو على مكة، فقال بنو المغيرة، ما جعلنا أشقى النّاس بالربا، وضع عن الناس غيرنا، فقال بنوعمرو بن عمير: صولحنا على أنّ لنا ربانا، فكتب عتّاب في ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية والتي بعدها «فإنْ لَمْ تَفعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ الله ورسُولِهِ..» فعرف بنوعمرو أن لا يدان لهم بحرب من الله ورسوله يقول الله تعالى: «وإنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤوسُ أمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ» فتأخذون أكثر «ولاَ تُظْلَمُونَ» تبخسون منه* وقال عطاء وعكرمة: نزلت هذه الآية في العبّاس بن عبدالمطلب وعثمان بن عفان، وكانا قد أسلفا في التمر، فلمّا حضر الجذاذ قال لهما: صاحب التّمر، لا يبقى له ما يكفي عيالي إذا أنتما أخذتما حظكما كله، فهل لكما أن تأخذا النصف وأضعف لكما؟ ففعلا، فلمّا حلّ الأجل طلبا الزيادة، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاهما، وأنزل الله تعالى هذه الآية، فسمعا وأطاعا

وأخذا رؤوس أموالهما» وقال السديّ: نزلت في العباس وخالد بن الوليد، وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [ألا إنَّ كل ربا من ربا الجاهلية موضوع، وأول رباً أضعه ربا العباس بن عبدالمطلب] وفي القرطبي: إن الآية نزلت بسبب ثقيف، وكانوا عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم على أن مالهم من الربا على الناس فهو لهم، وما للناس عليهم فهو موضوع عنهم، فلما جاءت آجال رباهم بعثوا إلى مكة للاقتضاء، وكانت الديون لبني عبدة، وهم بنو عمرو بن عمير من ثقيف، وكانت على بني المغيرة المخزوميين، فقال بنو المغيرة: لا نعطي شيئاً فإن الربا قد رُفع، ورفعوا أمرهم إلى عتاب بن أسيد، فكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الآية، فكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عتاب، فعلمت بها ثقيف فكفّتْ» واعلم أنَّ الربا قسمان: ربا النسيئة وربا الفضل.

أمّا الأول (ربا النسيئة) : فهو الذي كانُوا يتعارفونه في الجاهلية، كانُوا يدفعون المال مدّة على أن يأخذوا كل شهر قدراً معيّناً، ثم إذا حل الدين طالب المديون برأس المال فإن تعذّر عليه الأداء زادُوا في الحق والأجل.

وأمّا الثانى (ربا الفضل) : فأن يباع مُنٌّ من الحنطة بمنويْن مثلاً. المروى عن ابن عباس أنه كان لا يحرّم إلا القسم الأول، وكان يقول: لا ربا إلا في النَّسيئة، ويجوّز ربا النقد، فقال له أبوسعيد الخدرى: أشهدت ما لم تشهدْ، أسمعت ما لم تسمع فروى له الحديث المشهور في هذا الباب. وله روايات منها: الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبرّ والشعير بالشعير، والتّمر بالتمر، والملح بالملح مثلاً بمثل، يداً بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى الآخذ والمعطى فيه سواء» ثم قال أبوسعيد: لا أرانى وإيّاك في ظل بيت ما دمت على هذا، فيروى أنّه رجع عنه.

قال محمد بن سيرين: كنا في بيت معنا عكرمة، فقال رجل يا عكرمة: أما تذكر ونحن في بيت فلان ومعنا ابن عباس، فقال: إنما كنت استحللتُ الصرف برأى، ثم بلغنى أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم حرّمه، فأشهدوا أنى حرمته، وبرئت إلى الله منه، حجة ابن عباس أن قوله تعالى: «**وأحلَّ الله البيع**» يتناول بيع الدرهم بالدرهمين نقداً، وقوله: «**وحرّم الربّا**» لا يتناوله، لأن كل زيادة ليست محرمة، فوجب أن تبقى على

الحل، ولا يخرج إلا العقد المخصوص الذى كا يسُمّى فيا بينهم ربا، وهو ربا النسيئة وقد تأكد هذا الرأى بما روى أسامة بن زيد أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: [الربا في النسيئة] وفي رواية: [لا رباً فيا كان يداً بيد] وذكر أبو المنهال أنه سأل البراء بن عازب وزيد بن أرقم، فقالا: كنا تاجرين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصرف، فقال: [إن كان يداً بيدٍ فلا بأس وإن كان نسيئة فلا يصح] وأما جمهور المجتهدين فقد اتفقوا على حرمة الربا في القسمين، أما النسيئة فبالقرآن، وأما النقد فبالخبر، ثم إن الخبر دل على حرمة ربا النقد في الأشياء الستة: النقدان والمطعمات الأربعة، ولا شك أن الربا إنما ثبت فيها المعنى، فإذا عرف ذلك المعنى ألحق بها ما يشاركها فيه، أما الأشياء الأربعة فللشافعى في علة الربا فيها قولان: الجديد أن العلة الطعم لما روى عن معمر بن عبدالله قال: كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [الطعام بالطعام مثل بمثل] علق الحكم باسمى الطعام، والحكم المعلق بالإسم المشتق معلل بما منه الإشتقاق كالقطع المعلق باسم السارق، والجلد المعلق باسم الزانى، والقديم أن العلة فيها الطعم مع الكيل أو الوزن لما روى أنّه صلى الله عليه وسلم قال: [الذهبُ بالذهب وزناً بوزن، والبر بالبر كيلاً بكيل] فعلى هذا يثبت الربا في كل مطعوم مكيل أو موزون دون ماليس بمكيل ولا موزون كالسفرجل والرمان والبيض والجوزه وقال مالك: العلة الاقتيات، فكل ما هو قوت أو يستصلح به القوت كالملح يجرى فيه الربا... وعن أحمد رواية كأبى حنيفة، والأخرى كالجديد، وأما النقدان فعن بعض الأصحاب أنَّ العلة فيها لعينها لا لعلّة، والمشهور أن العلّة فيهما صلاحية الثمنية الغالية، فيشمل التبر والمضروب والحليّ والأوانى المتخذة منها، ولا يتعدى الحكم إلى الفلوس على الأصح وإن راجت رواج الذهب والفضة لانتفاء العلّة، وقال أحمد وأبو حنيفة: العلة فيها الوزن، فيتعدّى الحكم إلى كل موزون كالحديد والرصاص، فهذا ضبط المذاهب وتفاريعها إلى الفقه.

وأما السبب في تحريم الربا: فهو أن من يبيع الدرهم بالدرهمين نقداً أو نسيئةً يحصل له زيادة درهم من غير عوض، وأخذ مال المسلم من غير عوض محرّم لقوله صلى الله عليه وسلم: [حرمة مال المسلم كحرمة دمه] وإبقاء رأس المال في يده مدة مديدة وتمكينه من أن يتجر فيه و ينتفع به أمرٌ موهوم. فقد يحصل وقد لا يحصل، وأخذ الدرهم الزائد متيقّن،

وتفويت المتيقّن لأجل الموهوم لا يخلو من ضرر* وقيل: سبب تحريمه أنّه يمنع الناس من الإشتغال بالمكاسب لأن صاحب الدرهم إذا تمكّن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقداً أو نسيئةً أعرض عن وجوه المكاسب، فيختل نظام العالم* وقيل: لما يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض، ولأنه تمكين للغنى من أن يأخذ مالاً زائداً من الفقير* وقيل إنَّ حرمة الربا قد ثبتت بالنّص، ولا يجب أن تكون حكمة كل تكليف معلومة لنا* وقوله: **«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وذَرُوا»** أي اتركوا **«ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا»** أي اتركوا بقايا ما شرطتُم منه على الناس تركاً كلياً. كذا في أبي السعود* وفي السمين: والمراد اتركوا طلب ما بقي مما زاد على رؤوس أموالكم. **«إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ»** صادقين في إيمانكم، فإن من شأن المؤمن امتثال أمر الله تعالى **«فإنْ لَمْ تَفْعَلُوا»** ما أمرتم به **«فَأْذَنُوا»** فاعلموا أنتم، أو أيقنوا **«بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ ورسُولِهِ»** لكم، فيه تهديد شديد لهم. والمراد بالحرب القتل في الدنيا والنار في الآخرة. أي أيقنوا أنكم تستحقون القتل بمخالفة أمر الله تعالى ورسوله. وتنكيره للتعظيم. (الكرخى)* **«وإنْ تُبْتُمْ»** رجعتُم عنه أي عن أكل الربا المأخوذ من قوله **«فإن لم تفعلوا»** **«فَلَكُمْ رُؤوسُ»** أصول **«أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ»** بزيادة **«ولاَ تُظْلَمُونَ»** بنقص. وعبارة أبي السعود: أي لا تَظلمون غرماءكم بأخذ الزيادة، ولا تُظلمون أنتم من قبله بالمطل والنّقص.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))
«وإنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرَةٍ وإنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كنتُمْ تَعْلَمون» سورة البقرة (الآية: ٢٨٠)

في الواحدى : قال الكلبيُّ: قالت بنو عمرو بن عمير لبنى المغيرة: هاتُوا رؤوس أموالنا ولكم الربا ندعه لكم، فقالت بنو المغيرة: نحن اليوم أهل عسرة فأخّرونا إلى أن تدرك الثمرة، فأبوا أن يؤخروهم، فأنزل الله تعالى **«وإنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ..»** الآية. لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حلَّ عليه الدين: إمّا أن تقضى وإمَّا أن تربى، ثم يندب إلى الوضع عنه، و يعد على ذلك الخير والثواب الجزيل فقال: **«وإنْ تصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كنتُمْ تَعْلَمون»** أي وإن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين وفي الحديث: [من سرّه أن يظله الله يوم لا ظلَّ إلاّ ظله فلييسر على مُعْسرٍ، أو ليضع عنه]

وقال عليه الصلاة والسلام: [من أنظر معسراً فله بكل يوم مثله صدقةً] وفي رواية [فله بكل يوم مثلاه صدقةً] وروى محمد بن كعب القرظى: أن أبا قتادة كان له دين على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيختبيء منه، فجاء ذات يوم فخرج صبيٌّ فسأله عنه، فقال: نعم، هو في البيت يأكل خزيرة، فناداه فقال يا فلان: أخرج فقد أخبرت أنك ها هنا، فخرج إليه، فقال: ما يغيبك عنّى؟ فقال: إنى معسر وليس عندى شيء، قال: آلله إنّك معسر؟ قال: نعم، فبكى أبوقتادة، ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [من نفّس عن غريمه أو محا عنه كان في ظلّ العرش يوم القيامة] رواه مسلم في صحيحه. وقال عليه الصلاة والسلام: [أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة، قال: ماذا عملت لى في الدنيا؟ قال: ما عملت لك يارب مثقال ذرَّة في الدنيا أرجوك بها ــ قالها ثلاث مرات ــ قال العبد عند آخرها: يارب إنك كنت أعطيتنى فضل مال وكنت رجلاً أبايع النَّاسَ، وكان من خُلق الجواز، فكنتُ أيسّر على الموسر، وأنظر المعسر، قال: فيقول الله عز وجل: أنا أحقُّ من ييسّر. أدخل الجنة] أخرجه البخارى ومسلم. ولفظ البخارى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [كان تاجرٌ يداين الناس فإذا رأى معسراً قال لفتيانه: تجاوزوا عنه لعلّ الله أن يتجاوز عنّا، فتجاوز الله عنه] وفي حديث صحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من أعان مجاهداً في سبيل الله، أو غازياً، أو غارما في عسرته، أو مكاتباً في رقبته أظلّه الله يوم لا ظلّ إلاّ ظلّهُ] وروى أحمد عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربتُه فليفرج عن معسره] وسائر المفسرين أن الآية عامة في كل دين، ولهذا ورد كان تامّة، ولو فرض أن سبب النزول خاصّ فلا بد من إلحاق سائر الصور به لأن العاجز عن أداء المال لا يجوز تكليفه به، وهو قول أكثر الفقهاء كمالك وأبى حنيفة والشافعى.

والاعسار في الشرع : هو أن لا يجد في ملكه ما يؤديه بعينه، ولا يكون له ما لو باعه لأمكن أداء الدين من ثمنه، فمن وجد داراً أو ثوباً لا يعدُّ من ذوى العسرة إذا أمكنه بيعها وأداء ثمنها، ولا يجوز له أن يحبس إلا قوت يومه لنفسه وعياله وما لا بد لهم من كسوة لصلاتهم ودفع الحرّ والبرد عنهم، وهل يلزمه أن يؤجّر نفسه من صاحب الدين أو غيره؟ الأصح أنه لا يلزمه، وكذا لو بذل له غيره ما يؤديه لا يلزمه القبول، فأمّا من له بضاعة كسدت عليه فواجب عليه أن يبيعها بالنقصان إن لم يمكن إلاّ ذلك، وإذا علم

الإنسان أن غريمه معسر حرم عليه حبسه، وأن يطالبه بماله عليه، ووجب الانظار إلى وقت اليسار، فأمّا إن كان له ريبة في إعساره جاز أن يحبسه إلى ظهور الإعسار، وإذا ادعى الإعسار وكذّبه الغريم فإن كان الديْن الذي الزمه حصل له عن عوض كالبيع أو القرض، فلا بدّ له من إقامة شاهدين عدلين على أن ذلك العوض قد هلك، فإن لم يكن عن عوض كإتلاف وضمان وصداق، فالقول قوله، وعلى الغريم البّينة لأنّ الأصل هو الفقر «**وإنْ تصَدَّقُوا**» على المعسر بما عليه من الديْن «**خَيْرٌ لَكُمْ**» لحصول الثناء الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى «**إنْ كنتُمْ تَعْلَمونَ**» أنَّ هذا التصدق خير لكم فتعملوا به، جعل من لا يعمل به وإن علمه كأنه لا يعلمه، أو تعلمون فضل التصدُّق على الانظار والقبض بعده، أو تعلمون أن ما يأمركم به ربكم أصلح لكم. وقيل: المراد بالتصدُّق الانظار لقوله عليه الصلاة والسلام: [لا يحلُّ دين رجل مسلم فيؤخره إلا كان له بكل يوم صدقة]، وروى [من أنظر معسراً أو وضع عنه أنجاه الله من كرب يوم القيامة] وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن الملائكة تلقّت روح رجل كان قبلكم، فقالوا له: هل عملت خيراً قط؟ قال: لا، قالوا: تذكّر، قال: إلا أنى رجل كنتُ أداين النّاس، فكنت آمر فتيانى بأن ينظروا الموسر، و يتجاوزوا عن المعسر، قال الله تعالى (تجاوزت عنه)] وأخرج البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ أخذَ أموالَ النّاس يريد أداءها أدّى الله عز وجلّ عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد اتلافها أتلفه الله] وأخرج الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [مطل الغنىّ ظلْمٌ] وروى الشيخان عن كعب بن مالك أنه تقاضى ابن أبى حدرد ديناً كان له في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، فارتفعت أصواتهما حتى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو في بيته، فخرج إليهما حتى كشف سجف حجرته، فنادى، فقال: يا كعب قلت: لبيك يا رسول الله، فأشار بيده أن ضع الشطر من دينك، فقال كعب: قد فعلت يا رسول الله. قال: قُمْ فاقْضِهِ. وأخرج الشيخان عن أبى هريرة قال: كان لرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم سِنٌّ من الإبل، فجاءه يتقاضاه: فقال: أعطوه فطلبوا سِنَّهُ فلم يجدوا إلا سِنًّا فوقها، فقال: أعطوه فقال: أوفيتنى وفاك الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [إنَّ خيركم أحسنكم قضاءً] وفي رواية أنه أغلظ لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين

استقضاه حتى همّ به بعض الصحابه، فقال: [دعوه فإن لصاحب الحقّ مقالاً] ثم أمر له بأفضل من سِنَّهِ* وأخرج مسلم عن أبى قتادة الأنصارى، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قام فيهم فذكر لهم أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال. فقام رجل فقال يا رسول الله: أرأيت إن قتلت في سبيل الله تكفر عنى خطاياى؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم إن قتلت في سبيل الله وأنت صابر محتسب، مقبل غير مدبر، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نعم وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر إلاَّ الدَّيْنَ فإن جبريل قال لى ذلك] وأخرج النسائى عن محمد بن جحش قال: كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرفع رأسه إلى السماء، ثم وضع يدهُ على جبهته، ثم قال: [سبحان الله!! ماذا نزل من التّشديد!] فسكتنا وفزعنا، فلمّا كان من الغد، سألته: يا رسول الله ما هذا التشديد الذي نزل؟ فقال: [والذي نفسى بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله، ثم أحييَ، ثم قُتل، ثم أُحييَ، وعليه دين ما دخل الجنة حتى يُقضى عنه دينه] فاللهم أوف عنا ديْن الدنيا والآخرة.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))
«واتّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيه إلى الله ثُمَّ تُوفّى كُلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ وهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ» سورة البقرة (الآية: ٢٨١)

في البيضاوى: قال ابن عباس: وهذه آخر آية نزل بها جبريل، وقال للنبي صلى الله عليه وسلم: ضعها في رأس المائتين والثمانين من سورة البقرة، وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أحداً وعشرين يوماً، وقيل أحداً وثمانين، وقيل سبعة أيام، وقيل ثلاث ساعات* وقوله: في رأس المائتين والثمانين، وهى في المصحف كما ذكر، وفي الخازن زيادة: ومات صلى الله عليه وسلم لليلتين خلتا من ربيع الأول في يوم الإثنين سنة إحدى عشرة من الهجرة، وروى الشعبي عن ابن عباس: أنَّ آخر آية نزلت آية الربا* وفي ابن كثير: عن سعيد بن جبير قال: آخر ما نزل من القرآن كله «**واتّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيه إلى الله...**» الآية. وعاش النبي صلى الله عليه وسلم بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول* قال ابن كثير: فكان بين نزولها وموت النبي صلى الله عليه وسلم واحد وثلاثون يوماً... قال ابن جرير يقولون: إن النبي صلى

الله عليه وسلم عاش بعدها تسع ليال، و بدىء يوم السبت، ومات يوم الاثنين* وقوله: «**واتّقُوا يَوْماً**» والمراد اتقاء ما يحدث فيه من الشدائد والأهوال، واتقاء ذلك لا يمكن إلاّ باجتناب المعاصي، وفعل الأوامر في الدنيا، فهذا القول يتضمن الاتيان بجميع التكاليف، وانتصب يوماً على أنه مفعول به، والمعنى تأهبوا بما تسلفون من العمل الصالح للقاء يوم ترجعون فيه إلى الله أي إلى ما أعدّ لكم من ثواب، أوعقاب، أو إلى علمه وحفظه، وذلك أن الإنسان له أحوال ثلاث على الترتيب:

الأولى: كونه جنيناً لا يملك تصرفاً فلا تصرف فيه إلا لله.

الثانية: خروجه إلى فضاء، وهناك يرى للأبوين ولغيرهما تصرف فيه ظاهر.

الثالثة: ما بعد الموت، وهنالك لا يكون التصّرف فيه ظاهراً في الحقيقة إلاّ لله تعالى، فكأنه عاد إلى الحالة الأولى.

وهذا معنى الرجوع إلى الله تعالى «**ثُـمَّ تُوفّٰى كُلُّ نَفْسٍ مٰا كَسَبَتْ**» أي جزاء ذلك، أو المكتسب هو الجزاء كما يقال: كسب الرجل لما يحصله بتجارته، والمراد أن كل مكلّف فإنه يصل إليه جزاء عمله بالتمام عند الرجوع إلى الله تعالى. كقوله: «**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ* وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه**».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«آمَنَ الرَّسُولُ بِمٰا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ والْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بالله وملائكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحدٍ مِنْ رُسُلِهِ وقالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وإلَيْكَ الْمَصِيرُ* لاَ يُكَلِّفُ الله نَفْساً إلاّ وُسْعَهَا لَهَا مٰا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مٰا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤاخِذْنَا إنْ نَسِينَا أو أَخْطأْنَا رَبَّنَا ولاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْراً كما حَمَلْتَهُ على الَّذِينَ مِنْ قَبْلنَا ربَّنَا ولاَ تُحَمِّلْنَا مٰا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ واعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لَنَا وارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاٰنا فانْصُرْنَا على القَوْمِ الْكَافِرِين» آخر سورة البقرة (الآية: ٢٨٥، ٢٨٦)

فى الواحدى: قال أبو هريرة: لما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم «**وإن تُبْدُوا ما فى أنفُسِكُمْ أو تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله..**» الآية. اشتدّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: كلفنا من

الأعمال ما لا نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزل عليك هذه الآية، ولا نطيقها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم؟ أراد قالوا: سمعنا وعصينا. قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. فلمَّا اقترأها القوم، وجرت بها ألسنتهم أنزل الله تعالى في إثرها، **«آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ..»** الآية. ونسخها الله تعالى فأنزل **«لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا..»** الآية إلى آخرها. رواه مسلم عن أميّة بن بسطام* وعن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: **«وإِنْ تُبْدُوا ما في أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ به اللهُ..»** دخل قلوبهم منها شيءٌ لم يدخلها من شيء فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قولوا سمعنا وأطعنا وسلّمنا. فألقى الله تعالى الإيمان في قلوبهم. فقالوا: سمعنا وأطعنا، فأنزل الله تعالى: **«لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا»** حتى بلغ أخطأنا. فقال: قد فَعَلْتُ. إلى آخر البقرة. كل ذلك يقول قد فعلت. رواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة عن وكيع.

قال المفسرون: لما نزلت هذه الآية **«وإِنْ تُبْدوا ما في أنفسكم»** جاء أبوبكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف، ومعاذ بن جبل وناس من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجثوا على الركب وقالوا: يا رسول الله: ما نزلت آية أشدُّ علينا من هذه الآية، إنَّ أحدنا ليحدّث نفسه بما لا يحبُّ أن يثبت في قلبه، وأن له الدنيا وما فيها، وإنا لمؤاخذون بما نحدّث به أنفسنا، هلكنا والله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هكذا أنزلت. فقالوا: هلكنا وكلفنا من العمل ما لا نطيق، قال: فلعلكم تقولون كما قال بنو إسرائيل لموسى: سمعنا وعصينا. قولوا: سمعنا وأطعنا. فقالوا: سمعنا وأطعنا. واشتد ذلك عليهم، فكثوا بذلك حولاً، فأنزل الله تعالى الفرج والراحة بقوله: **«لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا...»** فنسخت هذه الآية ما قبلها. قال النبي صلى الله عليه وسلم: [إنَّ الله تجاوز لأمتي ما حدَّثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلَّموا به]. وفي الخازن: قال الزجاج: لما ذكر الله في هذه السورة فرض الصلاة والزكاة والصوم والحج والطلاق والايلاء والحيض والجهاد، وقصص الأنبياء. وما ذكر من كلام الحكماء، ختم السورة بذكر تصديق نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بجميع ذلك* قال الخازن: ومعنى آمن الرسول: صدّق الرسول يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم. والمعنى صدّق الرسول أن هذا القرآن. وجملة ما فيه من الشرائع والأحكام منزّل من عند الله* وكذلك بما ظهر على أيدى الأنبياء من

المعجزات، ولهذا ذكر غقيبه إيمان المؤمنين بذلك، لمعجزات أظهرها الله تعالى على يد الرسول حتى استدلت الأمة بها على أنّه صادق في دعواه، وهو المرتبة المتأخرة، ومن تأمّل في نظم هذه السورة، وفي بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه معجز بسبب فصاحة ألفاظه و بلاغة معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم مبانيه. وقوله: «**كُلٌّ**» أي كل واحد من المؤمنين، دلّ عليه التنوين، فهو تنوين عوض من المضاف إليه «**آمَنَ باللهِ وملائكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**» قال الخازن: فهذه أربع مراتب من أصول الإيمان وضرورياته، فأمّا الإيمان بالله: فهو أن يؤمن بأن الله واحدٌ أحدٌ لا شريك له، ولا نظير له، و يؤمن بجميع أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وأنّه حيّ عالم قادر على كل شيء. وأمّا الإيمان بالملائكة: فهوا أن يؤمن بوجودهم، وأنهم معصومون مطهرون، وأنهم السفرة الكرام البررة وأنهم الوسائط بين الله تعالى و بين رسله، وأما الإيمان بكتبه: فهو أن يؤمن بأن الكتب المنزلة من عند الله هي وحي الله إلى رسله، وأنها حقّ وصدق من عند الله بغير شكٍّ ولا ارتياب، وأن القرآن لم يحرّف ولم يبدّل ولم يغيّر، وأنّه مشتمل على المحكم والمتشابه، وأنّ محكمه يكشف عن متشابهه. وأما الإيمان بالرسل: فهو أن يؤمن بأنهم رسل الله إلى عباده، وأمناؤه على وحيه، وأنهم معصومون، وأنهم أفضل الخلق وأن بعضهم أفضل من بعض، وقد أنكر بعضهم ذلك وتمسّك بقوله تعالى: «**لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**» وأجيب عنه بأن المقصود من هذا الكلام شيء آخر، وهو إثبات نبوة الأنبياء، والردّ على اليهود والنصارى الذين يقرون نبوة موسى وعيسى و ينكرون نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم. وقد ثبت بالنص الصريح تفضيل بعض الأنبياء على بعض بقوله «**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**»* وقوله: «**لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ**» أي في الإيمان، ولا نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما فعلت اليهود والنصارى، بل نؤمن بجميع رسله «**وقالُوا سَمِعْنَا وأَطَعْنَا**» يعنى سمعنا قولك وأطعنا أمرك أي قال المؤمنون: سمعنا قول ربنا فيما أمرنا به. وأطعناه فيما ألزمنا من فرائضه، واستعبدنا به من طاعته، وسلمنا له فيما أمرنا به ونهانا عنه «**غُفْرَانَكَ رَبَّنَا**» أي اغفر لنا غفرانك ربنا «**وإلَيْكَ الْمَصِيرُ**» المرجع بالبعث «**لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفساً إلاَّ وُسْعَهَا**» أي ما تسعه قدرتها فضلاً منه ورحمة، أو مادون مدى طاقتها، أي غاية طاقتها، بحيث يتّسعُ فيه طوقها و يتيسر عليه كقوله: «**يُريدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ ولا يُريدُ بِكُمُ العُسر**» كذا في البيضاوى. «**لَهَا ما كَسَبَتْ**» يعنى للنفس

ما عملت من الخير فلها أجره وثوابه «**وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ**» يعني من الشر عليها وزره وعقابه، ولا يؤاخذ أحد بذنب أحد، ولا بما لم يكسبه مما وسوست به نفسه.

وفي الغرائب : واعلم أن العلماء اتفقوا على أن الأمور التي تخطر بالبال مما يكرهها الإنسان، ولا يمكنه إزالتها عن النفس لا يؤاخذ بها لأنها تجرى مجرى تكليف ما لا يطاق، وأما الخواطر التى يوطن الإنسان نفسه عليها، و يعزم على إدخالها في الوجود، فقد قيل إنه يؤاخذ بها لقوله تعالى: «**ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم**» وكما يؤاخذ باعتقاد الكفر والبدع، وأنّه من أفعال القلوب. ثم قال بعضهم: إنما يؤاخذ بها في الدنيا لما روى الضحاك عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: ما حدّث العبد به نفسه من شر كانت محاسبة الله عليه. نعم يبتليه في الدنيا بحزن أو أذى فإذا جاءت الآخرة لم يسئل عنه ولم يعاقب، وروت أنها سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية: فأجابها بما هذا معناه، وقيل إن كل ما كان في القلب مما لايدخل في العمل فإنه في محل العفو لما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال بعد نزول قوله: «**لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا**» أن الله تجاوز لأمتي ما حدّثوا به أنفسهم ما لم يعملوا أو يتكلموا. و يدخل في وسوست النفس مراتب القصد الأربعة ما عدا العزم. وهى الهاجس والخاطر وحديث النفس والهم، وقوله: «**رَبَّنَا لاَ تُؤاخِذْنَا إنْ نَسِينَا..**» تعليم من الله لعباده كيفية الدعاء، وهذا من غاية الكرم حيث يعلمهم الطلب ليعطيهم المطلوب «**أو أخْطأْنَا**» تركنا الصواب لا عن عمد كما أخذت به من قبلنا، وقد رفع الله ذلك عن هذه الأمة كما ورد في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: [رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه] رواه الطبراني وغيره كذا في الكرخى. وفي الخازن: قيل كانت بنو اسرائيل إذا نسوا شيئاً مما أمروا به، أو أخطؤا عُجلت لهم العقوبة فيحرم عليهم شيء مما كان حلالاً لهم من مطعم أو مشرب على حسب ذلك الذنب. فأمر الله المؤمنين أن يسألوه ترك مؤاخذتهم بذلك* «**رَبَّنَا ولاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْراً كما حَمَلْتَهُ على الَّذِينَ مِنْ قَبْلنَا**» أي لا تكلّفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها كما شرعته للأمم الماضية قبلنا من الآغلال والآصار التي كانت عليهم التي بعثت نبيّك محمداً صلى الله عليه وسلم نبى الرحمة بوضعه في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيف السهل السمح وقوله: «**ربَّنَا ولاَ تُحَمِّلْنَا ما لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ**» أي من التكليف والمصائب والبلاء، لا تبتلينا بما لا قبل لنا به «**واعْفُ عَنَّا**» امح ذنوبنا

«**واغْـفِـرْ لَـنَـا وارْحَـمْـنَـا**» في الـرحمة زيادة من المغفرة لأن الرحمة الإحسان وهي تشمل المغـفـرة التي هـى غفران الذنوب وإيصال النعم في الدنيا والآخرة «**أَنْتَ مَوْلانا**» سيدنا ومـتـولى أمورنا «**فانْصُرْنَا على القوْمِ الْكَافِرين**» بإقامة الحجة والغلبة في قتالهم. فإن من شـأن المـولى أن يـنصر مواليه على الأعداء. وفي الحديث: [لما نزلت هذه الآية فقرأها صلى الله عـلـيه وسلم قيل له: عقب كل كلمة قد فعلتُ]. والآية أولها: «**لا يكلّفُ الله نَفْساً إلاَّ وسْـعـهـا..**» إلى آخـر السورة. وقوله قيل له: أي من قبل الله عز وجل أي قال الله له عـقـب كل كلمة من كلمات الدعوات، وهى سبع أولها لا تؤاخِذنا وآخرها فانصُرنا على الـقـوم الـكـافـريـن. فـيـكـون قـولـه: قـد فعلت وقع سبع مرات والمراد به أجبت دعاءك ومـطلوبك، وهذه رواية مسلم كما تقدم. وفي الحديث رواية أخرى ذكرها الخازن ونصّه. قـال ابـن عـبـاس في قـوله تعالى: «**غُفْرَانَكَ رَبَّنَا**» قال: قد غفرت لكم، وفي قوله: «**لا تـؤاخِـذْنـا إن نَـسـيـنَـا أو أخطأنا**» قال: لا أوآخذكم «**رَبَّنَا ولاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْراً**» قـال: لا أحمـل عـليكم «**ولاَ تُحَمِّلْنَا مـا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ**» قال: ولا أحملكم «**واعْفُ عَنَّا واغْـفِـرْ لَنَا وارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانا فانْصُرْنَا على القوْمِ الْكَافِرين**» قال: قد عفوت عنكم وغـفـرت لـكـم ورحمـتـكم ونصرتكم على القوم الكافرين* وروى عن معاذ بن جبل أنّه كـان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال: آمين* قال ابن عطيه: هذا يظن به أنه رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم. والله أعلم آخر سورة البقرة.

((سورة آل عمران وبيان ما فيها من أقوال في بيان سبب النزول))

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«بسم الله الرحمٰن الرحيم»

«الـم* الله لآ إلـٰه إلآ هُوَ الحَىُّ القَيُّومُ» سورة آل عمران (الآية: ١، ٢)

إلى بضعة وثمانين آية كما سيأتي. في الواحدي: قال المفسرون: قدم وفد نجران، وكانوا ستين راكباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، وفي الأربعة عشر ثلاثة نفر يؤل إليهم أمرهم، فالعاقب أمير القوم وصاحب شورتهم الذين لا يصدرون إلاَّ عن رأيه، واسمه عبدالمسيح، والسيد إمامهم وصاحب رحلهم، واسمه الأيهم، وأبوحارثة بن علقمة أسقفهم وحبرهم، وإمامهم وصاحب مدراسهم، وكان قد شرف فيهم، ودرس كتبهم حتى حسن علمه في دينهم، وكانت ملوك الروم قد شرفوه وولُوه و بنوا له الكنائس لعلمه واجتهاده، فقدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخلوا مسجده حين صلى العصر، عليهم ثياب الحبرات: جبات وأردية في جمال رجال الحارث بن كعب. يقول بعض من رآهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما رأينا وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتهم، فقامُوا فصلُّوا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعوهم. فصلوا إلى الشرق، فكلّم السيد والعاقب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم: أسلما. فقالا: قد أسلمنا قبلك. قال: كذبتما، منعكما من الإسلام دعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكم الخنزير. قالا: إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه؟ وخاصموه جيعاً في عيسى. فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولداً إلاَّ و يشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أنَّ ربنا حيٌّ لا يموت وأن عيسى أتى عليه الفناء؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا قيّم على كل شيء يحفظه و يرزقه؟ قالوا: بلى، قال: فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإن ربنا صوّر عيسى في الرحم كيف شاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غذى كما يغذى الصبيٌّ، ثم كان يطعم و يشرب ويحدث؟ قالوا: بلى، قال: فكيف يكون هذا كما

زعمتم؟ فسكتوا. فأنزل الله عز وجل فيهم صدراً من سورة آل عمران إلى بضعة وثمانين آية منها. هكذا ذكر الواحدى. والخازن والخطيب والطبرى نقلاً عن ابن اسحاق، وعبارة أبي السعود: نزلت هذه الآيات في وفد نجران، وكانوا ستين راكباً، فيهم أربعة عشر من أشرافهم: ثلاثة منهم أكابرهم، أحدهم أميرهم وثانيهم وزيرهم وثالثهم حبرهم، فقدموا على النبي صلى الله عليه وسلم، فتكلم منهم أولئك الثلاثة معه صلى الله عليه وسلم، فقالوا تارة عيسى هو الله: لأنّه كان يحى الموتى، وتارة هو ابن الله، إذ لم يكن له أب، وتارة أنه ثالث ثلاثة: لقوله تعالى: فعلنا وقلنا ــ أي بصيغة الجمع ــ ولو كان واحداً لقال فعلتُ وقلتُ. فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: ألستم تعلمون أن ربنا حيٌّ لا يموت وأن عيسى يموت؟ قالوا: بلى، وكرر عليهم أدلة كثيرة ــ كما ذكر الواحدى وغيره ــ وهم يقولون: بلى، ثم قال: فكيف يكون عيسى كما زعمتم؟ فسكتوا. وأبوا إلا الجحود. فأنزل الله من أول السورة إلى نيف وثماني آية تقريراً لما احتجّ به النبي صلى الله عليه وسلم* وتمام القصة سيجىء إن شاء الله تعالى في آية المباهلة، قوله تعالى: **«الم»** أحسن ما ذكر أن معنى **«الم»** أنا الله أعلم، ومعنى **«المر»** أنا الله أعلم وأرى. وقيل إن أحرف الهجاء التي في أوائل السور هى أسماء للسور، وعليه اطباق أكثر المتكلمين، والحق أن التفويض أفضل أي يكتفى في تفسيرها بقوله: الله أعلم بمراده. **«اللهُ لاَ إلٰه إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»** الحيُّ هو الفعال الدرّاك، والقيوم، هو القائم بذاته، والقائم بتدبير خلقه، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: إن اسم الله الأعظم في ثلاث سور: في البقرة، الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم، وفي آل عمران: الله لا إله إلا هو الحى القيوم. وفي طٰه: وعنت الوجوه للحيّ القيوم. ونقل البندينجى عن أكثر العلماء أن الاسم الأعظم هو **«الله»**.

واعلم أن مطلع هذه السورة له نظم عجيب، ونسق أنيق، وذلك أولئك النصارى كأنه قيل لهم: إمّا أن تنازعوه في شأن الإله، أو في أمر النبوة، أما الأول فالحق فيه معه لأنه تعالى حيٌّ قيوم وأن عيسى ليس كذلك لأنه وُلِدَ وكان يأكل و يشرب ويحدث، والنّصارى زعموا أنه قتل، وما قدر على دفع القتل عن نفسه، وهذه الكلمة أعنى قوله **«اللهُ لاَ إلٰه إلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ»** جامعة لجميع وجوه الدلائل على بطلان قول النصارى بالتثليث لأن معنى **«اللهُ لاَ إلٰه إلاَّ هُوَ»** إخبار بأنه جل شأنه هو وحده المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق، وعيسى من جملة المخلوقين فلا يكون ولداً ولا شريكاً ولا إلٰهاً،

وقوله: «الْحَيُّ الْقَيُّومُ» أي الحيُّ في نفسه الذي لا يموت أبداً القيم لغيره، وعيسى ليس كذلك فهو حيٌّ بالله مكتوب عليه إذاقة الموت والفناء. وكان عمر رضي الله عنه يقرأ: القيّام فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو غنيٌّ عنها، ولا قوام لها بدون أمره وحده قال تعالى: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّماءُ والأَرضُ بأَمْرِهِ».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمْ وَبِئْسَ المِهَادُ* قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فى سَبِيلِ الله وأُخْرَى كافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ والله يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إنَّ فى ذلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَارِ» سورة آل عمران (الآية: ١٢، ١٣)

في الواحدى: قال الكلبيُّ: عن أبى صالح عن ابن عباس: أن يهود أهل المدينة قالوا لما هزم الله المشركين يوم بدر: هذا والله النبيُّ الأمى الذي بشرنا به موسى، ونجده في كتابنا بنعته وصفته، وأنه لا تُرَدُّ له راية، فأرادوا تصديقه واتباعه، ثم قال بعضهم لبعض: لا تعجلوا حتى ننظر إلى وقعة أخرى، فلمَّا كان يوم أُحد ونكب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شكُّوا، وقالوا: لا والله ما هو به، وغلب عليهم الشقاء فلم يسلموا، وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدٌ إلى مدة، فنقضوا ذلك العهد، وانطلق كعب بن الأشرف في ستين راكباً إلى أهل مكة أي إلى أبى سفيان وأصحابه فوافقُوهم وأجمعوا أمرهم، وقالوا: لتكوننَّ كلمتنا واحدة، ثم رجعُوا إلى المدينة، فأنزل الله فيهم[1] هاتين الآيتين* وعبارة الطبرى: عن ابن عباس قال: لمّا أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً يوم بدر، فقدم المدينة جمع يهود في سوق بنى قينقاع، فقال: يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشاً، فقالوا يامحمد: لا تغرّنك نفسُك إنك قتلت نفراً من قريش كانُوا أغماراً، لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنّا نحن النّاس، وأنك لم تأت مثلنا، فأنزل الله عز وجل في ذلك قوله: «قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمْ وَبِئْسَ المِهَادُ» إلى قوله: «لأولى الأبصار» وروى الطبرى عن

(١) عبارة الواحدى : فأنزل الله تعالى هذه الآية. قلت: بل كان النزول إلى قوله: «لأولى الأبصار» كما ستراه إن شاء الله تعالى.

سلمة عن ابن اسحاق قال: كان من أمر بنى قينقاع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمعهم بسوق بنى قينقاع، ثم قال: يا معشر اليهود!!! احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أنّى نبىٌّ مرسل تجدون ذلك في كتابكم، وعهد الله إليكم، فقالوا: يا محمد إنك ترى أنّا كقومك، لا يغرنّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنا نحن الناس، فأنزل الله الآية* وحدث عن ابن عباس قال: ما نزلت هؤلاء الآيات إلاَّ فيهم «**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمْ وَبِئسَ المِهَادُ**» إلى قوله «**لأولى الأبصار**».

وحدث عن عكرمة في قوله: «**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إلى جَهَنَّمْ..**» قال فنحاص اليهودىُّ في يوم بدر: لا يغرنَّ محمداً أنه غلب قريشاً وقتلهم، إن قريشاً لا تحسن القتال، فنزلت هذه الآية. قال أبوجعفر فكل هذه الأخبار تنبىء عن أنَّ المخاطبين بقوله «**سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ**» هم اليهود المقول لهم «**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فى فِئَتَيْنِ..**»* وفي الخازن: قيل أراد بالذين كفروا مشركى قريش. والمعنى: قل لكفار مكة ستغلبون يوم بدر وتحشرون في الآخرة إلى جنهم، فلمَّا نزلت هذه الآية قال لهم النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر: إنَّ الله غالبكم وحاشركم إلى جهنم* وقيل: إن أبا سفيان جمع جماعة من قومه بعد وقعة بدر فأنزل الله تعالى هذه الآية ثم أورد ما ذكره الواحدى، وفي أبى السعود في قوله: «**قد كان لكُمْ آيةٌ**» خطاب لليهود، وهو جواب قسم مقدّر، وهو من تمام القول المأمور به جىء به لتقرير وتحقيق ما قبله* لكن عبارة القرطبي: واختلف في المخاطب بها، فقيل يهود المدينة، وقيل جميع الكفار، وقيل المؤمنون* وفي ابن كثير «**قد كان لكُمْ آيةٌ**» أي قد كان لكم أيها اليهود القائلون ما قلتم آية أي دلالة على أن الله مُعِزٌّ دينه، وناصرٌ رسوله، ومظهر كلمَته، ومعل أمره «**في فئتين**» أي طائفتين «**الْتَقَتَا**» أي للتقال «**فِئَةٌ تُقَاتِلُ فى سَبِيلِ الله وأُخْرَى كافِرَةٌ**» وهم مشركوا قريش يوم بدر وقوله «**يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأىَ الْعَيْنِ**» قال بعض العلماء فيا حكاه ابن جرير: يرى المشركون يوم بدر أن المسلمين مثليهم في العدد رأى أعينهم، أي جعل الله ذلك فيما رأوه سبباً لنصرة الإسلام عليهم. قال ابن كثير: وهذا لا إشكال عليه إلاَّ من جهة واحدة، وهى أن المشركين بعثوا عمر بن سعد يومئذٍ قبل القتال يحزر لهم المسلمين فأخبرهم بأنهم ثلاثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً. وهكذا كان الأمر، كانُوا ثلاثمائة و بضعة عشر رجلاً ثم

لما وقع القتال أمدَّهم الله بألف من خوّاص الملائكة وساداتهم» ثم قال: والقول الثاني: أن المعنى في قوله تعالى: «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْىَ الْعَيْنِ» أي يرى الفئة المسلمة الفئة الكافرة مثليهم أي ضعفهم في العدد، ومع هذا نصرهم الله عليهم، وهذا لا إشكال فيه على ما رواه العوفى عن ابن عباس: أن المؤمنين كانُوا يوم بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً. والمشركين كانوا ستمائة وستة وعشرين. وكأن هذا القول مأخوذ من ظاهر هذه الآية، ولكنَّه خلاف المشهور عند أهل التواريخ والسير وأيّام النّاس. وخلاف المعروف عند الجمهور أن المشركين كانوا ما بين تسعمائة إلى ألف كما رواه محمد بن إسحاق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا سأل العبد الأسود لبني الحجاج عن عدّة قريش قال: كثير، فقال: كم ينحرون كل يوم؟ قال: يوماً تسعاً و يوماً عشراً، قال النبي صلى الله عليه وسلم: [القوم ما بين تسعمائة إلى ألف] .. وعلى كل تقدير فقد كانوا ثلاثة أمثال المسلمين، وعلى هذا فيشكل هذا القول والله أعلم. لكن وجّه ابن جرير هذا وجعله صحيحاً كما تقول: عندى ألف وأنا محتاج إلى مثلها، وتكون محتاجاً إلى ثلاثة آلاف. كذا قال» قال ابن كثير: وعلى هذا فلا إشكال، لكن بقي سؤال آخر وهو وارد على القولين. وهو أن يقال: ما الجمع بين هذه الآية، و بين قوله تعالى في قصة بدر: «وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً و يقلّلكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كانَ مفعولاً» فالجواب: أن هذا كان في حالة، والآخر كان في حالة أخرى كما قال السدى عن الطيب عن ابن مسعود في قوله تعالى: «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا» الآية قال: هذا يوم بدر، قال عبدالله بن مسعود: وقد نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا. ثم نظرنا إليهم، فما رأيناهم يزيدون علينا رجلاً واحداً وذلك قوله تعالى: «وإذ يُريكُمُوهُمْ إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً و يقلّلكم فى أعينهم» الآية. وقال أبو اسحاق عن أبى عبدة عن عبدالله بن مسعود قال: لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جانبي: تُراهم سبعين؟ قال: أراهم مائة. قال: فأسرنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتُم؟ قال: ألفاً» قلت: ولماذا لا يكون المراد بالمثلين مطلق الكثرة لا خصوص المثلين في العدد، أي يرونهم أكثر من الثلاثمائة التى هى عددهم في الواقع وكذا العكس، وعلى كل من الاحتمالين فهذه الآية التي نحن بصدد بيان سبب نزولها تنافى آية الأنفال وهى قوله: «وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلاً و يقلّلكم

فى أَعْيُنِهِمْ» فتلك الآية تقتضى أنَّ كلاً من الفريقين قلل في أعين الآخر، وهذه الآية تقتضي أن كلاً منهما كثر في أعين الآخر. فيكون المعنى: وإذ يريكمُوهم أيها المؤمنون إذ التقيتم في أعينكم قليلاً نحو سبعين أو مائة، وهم ألف لتقدموا عليهم، و يقللكم في أعينهم ليقدموا ولا يجبنوا من قتالكم، وهذا قبل التحام الحرب، فلمّا التحم أراهم إياهم مثليهم كما في آيتنا هذه. لكن في الخازن في قوله: «يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ» قرىء بالتاء: يعني ترون أهل مكة ضعفى المسلمين يا معشر اليهود، وذلك أن جماعة من اليهود كانوا قد حضروا قتال بدر لينظروا على من تكون الدائرة، ولمن النصر، فرأوا المشركين مثلى عدد المسلمين، ورأوا النصر للمسليمن، فكان ذلك معجزة، وقرىء يروْنهم بالياء، واختلفوا في وجه قراءة الياء، فجعل بعضهم الرؤية للمسلمين، ثم له تأو يلان:

أحدهما : يرى المشركون المسلمين/مثليهم كما هم...

والثاني : وهو الأصح قلل الله المشركين في أعين المسلمين حتى رأوهم مثليهم.

وقوله: «ستغلبون» فمن قرأ بالياء فالأمر يكون متوجهاً إلى حكاية هذا الفظ. أي قل لهم قولى لك سيغلبون. أي عن قريب كما تفيده السين. وفيها دليل على صحة البعث والحشر بإخبار الصادق. وقوله: ستغلبون قد وقع كما أخبر عن الغيب ـــ من قتلى بنى قريظة، فقد قتل منهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم في يوم واحد ستمائة، جمعهم في سوق بنى قينقاع، وأمر السيّاف بضرب أعناقهم، وأمر بحفر حفيرة ورميهم فيها ـــ فيكون معجزاً دالاً على صدق النبيّ صلى الله عليه وسلم، نظيره في حق عيسى عليه السلام «وأُنبِّئُكُمْ بِمَا تأكُلُونَ ومـا تدّخِرُونَ فى بُيُوتِكُمْ» ثم إنه تعالى ذكر ما يجرى مجرى الدلالة على صحة ذلك الحكم فقال: «قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فى فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا» يوم بدر «فِئَةٌ» احداهما: جماعة «تُقَاتِلُ فى سَبِيلِ اللهِ» وهم المسلمون لأنهم يقاتلون لنصرة دين الله وإعلاء كلمته «وأُخْرَى كافِرَةٌ» وفئة أخرى كافرة: هم كفار قريش، و بيان كون تلك الواقعة آية من وجوه:

احدها : أن المسلمين كان قد اجتمع فيهم من أسباب الضعف أمور منها: قلة العَدد والعُدد، كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، مع كل أربعة منهم بعير، ومعهم من الدروع ستة، ومن الخيل فرسان، ومنها: أنهم خرجوا غير قاصدين الحرب، فلم يتأهبوا: ومنها: أن ذلك ابتداء غارة في الحرب لأنها من أول غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان قد

حصل في المشركين أضداد هذه المعانى كانوا تسعمائة وخمسين رجلاً، وفيهم أبوسفيان وأبوجهل، ومعهم مائة فرس، وسبعمائة بعير، وأهل الخيل كلهم دارعون، وكان معهم دروع سوى ذلك، وكانوا قد مُرنوا على الحرب والغارات، وإذا كان كذلك كانت غلبة المسلمين خارقة للعادة فكانت معجزة.

وثانيها : أنّه صلى الله عليه وسلم كان قد أخبر عن ذلك باخبار الله في قوله تعالى: «**وإذ يَعِدُكُمُ اللهُ إحْدى الطّائفَتَيْن**» يعنى جمع قريش، أو عير أبى سفيان، وكان أخبر قبل الحرب بأن هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، والإخبار عن الغيب معجز.

وثالثها : إمداد الملائكة ـــ كما سيجىء في هذه السورة.

ورابعها : قوله: «**يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ**» وفيه أربعة احتمالات لأن الضمير في يرون إمّا أن يعود إلى الفئة الكافرة، أو إلى الفئة المسلمة، وعلى كلا التقديرين يجوز عود الضمير في مثليهم إلى كل منهما، فهذه أربعة. الأول: أن الفئة الكافرة رأت المسلمين مثل عدد المشركين قريباً من الفين. والثاني: أنها رأت المسلمين مثلى عدد المسلمين ستمائة ونيفاً وعشرين، ودليل هذا الاحتمال قراءة من قرأ «**تَرَوْنَهُمْ**» بتاء الخطاب أي ترون يا مشركى قريش المسلمين مثلى أنفسهم، ودليل الاحتمالين جميعاً أن عود الضمير في يرون إلى الأقرب، وهوالفئة الكافرة أولى، ولأنه سبحانه جعل هذه الحالة آية للكفار حيث خاطبهم بقوله: «**قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ**» فوجب أن يكون الراؤن هم الكفار حتى تكون حجة عليهم، ولو كانت الآية مما شاهدها المؤمنون لم يصح جعلها حجة على الكفرة، والحكمة في ذلك أن يهابهم المشركون ويجبنوا عن قتالهم، وهذا لا يناقض قوله في سورة الأنفال «**و يُقَلِّلُكُمْ فى أعْيُنِهِمْ**» لاختلاف الوقتين، فكأنهم قلّلوا أولاً في أعينهم حتى اجترؤا عليهم، فلمّا لاقوهم كثروا في أعينهم حتى غلبوا، على أن تقليلهم تارة في أعينهم وتكثيرهم أخرى ابلغ في القدرة وإظهار الآية.

الاحتمال الثالث : أن الرائين هم المسلمون، والمرئيين هم المشركون، فالمسلمون رأوا المشركين مثلى المسلمين، والسبب فيه ما قرر عليهم أمرهم من مقاومة الواحد الا ثنين في قوله تعالى: «**إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين**» والكافرون كانوا قريباً من ثلا ثة أمثالهم، فلو رأوهم كما هم لجبنوا وضعفوا.

الاحتمال الرابع : أن يكون الرّاؤن المسلمون، ثم إنهم رأوا المشركين على الضعف من

عدد المشركين، وهذا قول لا يمكن أن يقول به أحد لأن هذا يوجب نصرة الكفار، وإيقاع الخوف في قلوب المؤمنين، والآية تنافى ذلك.

وفي الآية احتمال خامس: وهو أن أول الآية قد بيّنا أنه خطاب مع اليهود، فيكون المراد ترون أيها اليهود المشركين مثلى المؤمنين في القوّة، وههنا بحث، وهو أن الاحتمال الأول والثاني يقتضى أن المعدوم صار مرئياً، والاحتمال الثالث يوجب أن يكون الموجود والحاضر غير مرئىّ، أما الأول فهوا محال عقلاً، والقول به سفسطة، فلهذا قيل لعل الله تعالى أنزل الملائكة حتى صار عسكر المسلمين كثيراً، وعلى هذا تكون الرؤية رؤية البصر، و يكون مثليهم نصباً على الحال، أو تحمل الرؤية على الظنّ والحسبان، فإن من اشتدّ خوفه قد يظن في الجمع القليل أنه في غاية الكثرة لكن قوله: «**رأى الْعَيْنِ**» لا يجاوب ذلك، إذ معناه رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها، معاينة كسائر المعاينات. وأمّا الثاني فهو جائز عند الأشاعرة إذ عند حصول الشرائط. وصحة الحاسّة لا يكون الإدراك واجب الحصول، بل يكون عندهم جائزاً لا واجباً، والزمان زمان خوارق العادات، وأما المعتزلة فعندهم الادراك واجب الحصول عند استجماع الشروط، وسلامة الحس، فاعتذروا عن ذلك بأن الإنسان عند الخوف لا يتفرّغ للتأمّل البالغ، فقد يرى البعض دون البعض، أو لعلّ الغبار صار مانعاً عن إدراك البعض، أو خلق الله تعالى في الهواء ما صار مانعاً عن رؤية ثلث العسكر، أو يحدث في عيونهم ما يستقلّ به الكثير كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين، وكل ذلك محتمل وقوله: «**والله يُؤَيِّدُ**» يقوى «**بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ**» نصره «**إِنَّ فِى ذلِكَ**» المذكور «**لَعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَارِ**» أي لذوى البصائر، أفلا تعتبرون بذلك فتؤمنون.

﴿(القول في سبب نزول قوله تعالى :)﴾

«شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ والملائكةُ وأُلُوا الْعِلْمِ قائماً بالْقِسْطِ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ* إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بآياتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ* فَإِن حاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وقُلْ لِلَّذِينَ أُتُوا الكِتَابَ والأُمِّيينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وإن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ واللهُ بَصِيرٌ بالْعِبادِ»

سورة آل عمران (الآية: ١٨، ١٩، ٢٠)

فى الواحدى وأبى السعود قال الكلبىُّ: لمّا ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قدم عليه حبران من أحبار الشام، فلما أبصرا المدينة قال أحدهما لصاحبه: ما أشبه هذه المدينة بصفة مدينة النبىّ الَّذِى يخرج في آخر الزمان؟! فلما دخلا على النبىّ صلى الله عليه وسلم عرفاه بالصفة والنعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال «نعم» قالا: وأنت أحمد؟ قال: «نعم» قالا: إنّا نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها آمنّا بك، وصدقناك، فقال لهما رسول صلى الله عليه وسلم: «سلانى» فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة فى كتاب الله، فأنزل الله تعالى على نبيّه «**شَهِدَ اللهُ أنّه لا إله إلا هو والملائكة وأولُوا العلم...**» فأسلم الرجلان، وصدّقا برسول الله صلى الله عليه وسلم* وكذا فى الخازن، وفيه إنّ هذه الآية نزلت فى نصارى نجران فيا ادعوا فى عيسى عليه السلام. هذا: ولم أعثر فى التفاسير على غير هذين القولين: فقوله: «**شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ والملائكَةُ وأولُوا الْعِلْمِ...**» قال صاحب الغرائب: واعلم أن الشهادة من الله تعالى ومن الملائكة ومن أولى العلم يحتمل أن تكون بمعنى واحد. ويحتمل أن لا تكون كذلك. أما الأول فتقريره من وجهين: أحدهما: أن الشهادة عبارة عن الاخبار المقرون بالعلم، فهذا المعنى مفهوم واحد، وهو حاصل فى حقّ الله تعالى، وفى حقّ الملائكة وفى حقّ أولى العلم، أما من الله فذلك أنه أخبر فى القرآن أنه إله واحد لا إله إلا هو، وذلك فى مواضع كثيرة كالإخلاص وآية الكرسى وغيرهما. والتمسّك بالدلائل السمعية فى هذه المسئلة

جائز، لأن العلم بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم لا يتوقف على العلم بها، وأما من الملائكة وأولى العلم، وهم الذين عرفو وحدانية الله تعالى بالدلائل القاطعة، فكلهم أخبروا أيضاً أن الله واحد لا شريك له. وثانى الوجهين أن تجعل الشهادة عبارة عن الاظهار والبيان، فالله تعالى أظهر ذلك، و بيّن بأن خلق ما يدل على ذلك، والملائكة وأولوا العلم أظهروا ذلك، و بيّنوه أيضاً. الملائكة للرسل والرسل للعلماء والعلماء لعامة الخلق، فالتفاوت إنما وقع فى الشيء الذى به حصل الإظهار والبيان، فأما مفهوم الاظهار والبيان فشيء واحد فى حقّ الكل، فكأنه قيل للنبىّ صلى الله عليه وسلم إن وحدانية الله تعالى أمر قد ثبت بشهادة الله وشهادة جميع المعتبرين من خلقه، ومثل هذا الدين المبينُ والمنهج القويم لا يضعف بمخالفة بعض الجهال من النّصارى وعبدة الأ وثان، فاثبت أنت وقومك يا محمد على ذلك فإنه هو الإسلام، والدين عند الله هو الإسلام. وأمّا الثانى فهو قول من يقول: شهادة الله تعالى على توحيده عبارة عن أنه خلق الدلائل الدالة على توحيده، وشهادة الملائكة وأولى العلم عبارة عن اقرارهم بذلك، ونظيره قوله تعالى: **«إنّ الله وملائكته يصلّون على النبىّ»** فالصلاة من الله غير الصلاة من الملائكة وقال: فإن قيل المدعى للوحدانية هو الله فكيف يكون المدعى شاهداً؟ فالجواب أنه ليس الشاهد بالحقيقة إلا الله لأنه خلق الأشياء، وجعلها دلائل على توحيده، ثم وفق العلماء لمعرفة تلك الدلائل والتّوصل بها إلى معرفة الوحدانيّة، ثم وفقهم حتى أرْشَدُوا غيرهم إلى ذلك، ولهذا قال: **«قُلْ أىُّ شىءٍ أكبَرُ شهادةً قل الله»** ٭ وفى الخطيب: قال ابن عباس رضى الله عنهما: خلق الله الأ رواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة، وخلق الله الأ رزاق قبل الأ رواح بأربعة آلاف سنة، فشهد لنفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان ولم يكن سماء ولا أرض ولا برٌ ولا بحر فقال: **«شَهِدَ الله أنّهُ لاَ إلَهَ إلاّ هو»** **«وَ»** أشهد بذلك **«الملائكة»** أى أقرُّوا بذلك **«وَ»** » شهد بذلك: **«أولُوا العِلْمِ»** أى بالإيمان بذلك، والاحتجاج عليه، والمراد بالعلماء هنا هم الذين يثبتُون وحدانية الله تعالى وعدله بالحجج الناطقة والبراهين القاطعة، وهم علماء العدل والتوحيد. وفى ذلك تنو يه بفضل علم التوحيد وشرف أهله٭ وفى الخازن: واختلفوا فى أولى العلم، فقيل هم الأنبياء عليهم السلام لأنهم أعلم الخلق بالله تعالى٭ وقيل هم علماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين والأنصار٭ وقيل هم علماء مؤمنى أهل الكتاب مثل عبدالله بن سلاّم

وأصحابه* وقيل هم علماء جميع المؤمنين* وفى القرطبي: وقد قيل إن المراد بأولى العلم الأنبياء عليهم السلام. وقال بن كيسان: المهاجرون والأنصار* وقال مقاتل: مؤمنوا أهل الكتاب* وقال السدى: المؤمنون كلهم* قال القرطبي: وهو الأظهر لأنه عام* وقوله: «**قائماً بالْقِسْطِ**» عبارة أبي السعود: بيان لكماله فى أفعاله بعد بيان كماله فى ذاته* هذا وفى انتصاب قائماً بالقسط وجوه: الأول أنه حال مؤكدة. والتقدير شهد الله قائماً بالقسط، أو لا إله إلا هو قائماً بالقسط، وهذا أوجه لكون الإلهية والتفرّد بها مقتضياً للعدالة، مثل هذا أبوك عطوفاً، أو لا رجل إلا عبدالله شجاعاً، ويحتمل أن يكون حالاً من أولى العلم أى حال كون كل واحد منهم قائماً بالقسط فى أداء هذه الشهادة. الثانى أن يكون صفة للنفى كأنه قيل لا إله قائماً بالقسط إلاّ هو، وقد رأيناهم يتسعون فى الفصل بين الصفة والموصوف. الثالث: أن يكون نصباً على المدح، وإن كان نكرة كقوله: و يأوى إلى نسوة عُطّلٍ. وشعثاً مراضيع مثل السعالى. واعلم أن وجوب الوجود يلزمه الغنى المطلق والعلم التّام، والفيض العام والحكمة الكاملة والرحمة الشاملة، وعدم الانقسام بجهة من الجهات، وعدم الافتقار بوجه من الوجوه إلى شيء من الأشياء، وعدم النقص والنقص فى شيء من الأفعال والأحكام إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العليا، ومركوز فى العقل السليم أن من هذا شأنه لا يصدر منه شيء إلا على وفق العدالة وقضية التسوية ورعاية الأصلح عموماً أو خصوصاً، فكل ما يخيل إلى المكّلف أنه خارج عن قانون العدالة، أو يشبه الجور، أو القبح وجب أن ينسب ذلك إلى قصور فهمه وعدم إحاطته التّامة بسلسلة الأسباب والمسبّبات والمبادىء والغايات، فانظر فى كيفية خلقه أعضاء الانسان حتى تعرف عدل الله وحكمته فيها، ثم أنظر إلى اختلاف أحوال الخلق فى الحسن والقبح والغنى والفقر والصحة والسقم، وطول العمر وقصره، واللذة والألم. واقطع بأن كل ذلك عدلٌ، وصواب، ثم انظر فى كيفيّة خلقه العناصر وأجرام الأفلاك والكواكب، وتقدير كل منها بقدر معين، وخاصّية معيّنة فكلها حكمة وعدالة، وانظر إلى تفاوت الخلائق فى العلم والجهل والفطانة والبلادة والهداية والغواية، واقطع بأن كل ذلك عدل وقسط، فإن الإنسان، بل كل ما سوى الله تعالى لم يخلق مستعداً لادراك تفاصيل كلمات الله، فالخوض فى ذلك خوض فيما لا يغنيه، بل لا يسعه ولا ينفعه إلا العلم الإجمالى بأنه تعالى واحد فى ملكه، وملكه لا منازع له فيه، ولا مضارّ، ولا مانع لقضائه، ولا رادّ، وأن

ذلك بقضائه وقدره، وفى كل واحدٍ من مصنوعاته ولكل شيء من أفعاله حكم ومصالح لا يحيط بذلك علماً إلا موجده وخالقه، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، هذا هو الدين القويم، والاعتقاد المستقيم، والعدول عنه مراء، والجدال فيه هراء، فمن نسبه إلى الجور فى فعل من الأفعال فهو الجائر لا على غيره بل على نفسه إذ لا يعترف بجهله وقصوره. ولكن ينسب ذلك إلى علام الخفيات والمطلع على الكليات والجزئيات من أزل الآزال إلى أبد الآباد*

وقوله: «لا إلٰهَ إلاّ هُوَ» إنما كرره للتأكيد، وقيل: إن الأول وصف وتوحيد، والثانى رسم تعليم. أى قولُوا لا إله إلا هو. وقيل: فائدة تكرارها الاعلام بأن هذه الكلمة أعظم الكلام وأشرفه، ففيه حثٌّ للعباد على تكريرها والاشتغال بها، فإن من اشتغل بها فقد اشتغل بأفضل العبادات. أو لأن الأول قول الله والثانى حكاية قول الملائكة وأولى العلم، أو لأنّ الأول جرى مجرى الشهادة والثانى جرى مجرى الحكم بصحة ما شهد به الشهود. وقال جعفر الصادق رضي الله عنه: الأول وصف والثانى تعليم أى قولوا وأشهدُوا كما شهدت. من الخازن والكرخى. «العزيز» فى ملكه والغالب الذى لا يقهر. وعبارة الكرخى: قوله العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه. فيه إشارة إلى أنه قدم العزيز لأن العزة تلائم الوحدانية، والحكمة تلائم القيام بالقسط فأتى بهما لتقرير الأمرين على ترتيب ذكرهما. قال صاحب الكشاف: العزيز الحكيم صفتان مقروثان لما وصف به ذاته من الوحدانية والعدل. يعنى أنه العزيز الذى لا يغالبه إلى آخره. الحكيم الذى لا يعدل عن العدل فى أفعاله. وقوله تعالى: «إنَّ الدّينَ عِنْدَ الله الإسلامُ» يعنى إن الدين المرضى عند الله هو الإسلام كما قال تعالى: «ورضيتُ لكُمُ الإسْلامَ دِيناً» نزلت الآية ردّاً على اليهود والنصارى، وذلك لما ادعت اليهود أنه لا دين أفضل من اليهودية، وادّعت النّصارى أنه لا دين أفضل منَ النصرانية ردَّ الله عليهم ذلك فقال: «إنّ الّدِينَ عِنْدَ الله الإسلامُ». والمعنى: شهد الله أنه لا إله إلاّ هو، وشهد أن الدين عند الله الإسلام. وأصل الدين فى اللغة الجزاء. يقال: كما تدين تدان، ثم صار اسماً للملة والشريعة. ومعناه الانقياد للطاعة والشريعة. قال الزجاج: الدين اسم لجميع ما تعبد الله به خلقه، وأمرهم بالاقامة عليه، والإسلام هو الدخول فى السلم، وهو الاستسلام والانقياد والدخول فى الطاعة، وروى البغوى بسند الثعلبى عن غالب القطان، قال: أتيتُ الكوفة فى تجارة. فنزلت قريباً من الأعمش، وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهى لى

عند الله وديعة، إن الدين عند الله الإسلام، قالها مراراً، قلت: سمع فيها شيئاً. فصليت الصبح معه، وودّعته، ثم قلت له: إنى سمعتك ترددها، فما بلغك فيها؟ قال والله لا أحدثك فيها إلى سنة، فكتبت على بابه ذلك اليوم، وأقمتُ سنة، فلما مضت السنة. قلت: يا أبا محمد قد مضت السنة فقال: حدثنى أبو وائل عن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله عزّ وجلّ: إن لعبدى هذا عندى عهداً وأنا أحق من وفّى بالعهد، ادخلوا عبدى الجنة] الخازن* وقوله: «**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**» فى الخازن قال الكلبىّ: نزلت فى اليهود والنصارى حين تركوا الإسلام، والمعنى وما اختلف الذين أوتوا الكتاب فى نبوّة محمد صلى الله عليه وسلم: «**إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ**» يعنى بيان نعته وصفته فى كتبهم، وقال الربيع: إنّ موسى عليه السلام لمّا حضره الموت دعا سبعين رجلاً من خيار بنى إسرائيل وأودعهم التوراة، واستخلف يوشع بن نون. فلمّا مضى القرن الأول والثانى والثالث وقعت الفرقة والاختلاف بينهم، وهم الذين أوتوا الكتاب، وهم من أبناء الملوك السبعين حتى أهرقوا الدماء ووقع الشر والاختلاف بينهم، وذلك بعد ما جاءهم العلم. يعنى بيان ما فى التوراة من الأحكام* وعبارة الجلال: «**وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**» اليهود والنصارى فى الدين بأن وحّدَ بعضٌ وكفر بعض. وعبارة البيضاوى: أو من أرباب الكتب المتقدمة فى دين الإسلام. فقال قوم: إنه حقٌّ، وقال قوم: إنه مخصوص بالعرب ونفاهُ آخرون مطلقاً، أو فى التوحيد. فثلث النصارى، وقالت اليهود عزيز ابن الله. وقيل: هم قوم موسى اختلفوا بعده. وقيل: هم النصارى اختلفوا فى أمر عيسى* وفى القرطبى بعد عبارة: وقالت اليهود عزيز ابن الله* وقالوا: كنا أحق بأن تكون النبوّة فينا من قريش لأنهم أميُّون ونحن أهل الكتاب. وقوله: «**بَغْياً**» أى ما كان ذلك الاختلاف، وتظاهر هؤلاء بمذهب وهؤلاء بمذهب إلاّ حسداً. والتقدير: وما اختلفوا إلاّ للبغى لا لغيره، فهو حيّز الاستثناء: «**بَيْنَهُمْ**» وطلباً للرياسة. وقيل: هو اختلافهم فى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم من بعد ما جاءهم العلم ببيّنات بنعته فى كتبهم، حيث آمن به بعض وكفر به بعض. وقيل: هو اختلافهم فى الايمان بالأنبياء، فنهم من آمن بموسى، ومنهم من آمن بعيسى. ولم يؤمنوا ببقيّة الأنبياء: «**وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ**» أى المجازات له: «**فَإِنْ حَاجُّوكَ**» أى جادلك الذين كفروا يا محمد فى التوحيد والدين: «**فَقُل**» لهم:

«أَسْلَمتُ وجْهِيَ للهِ» أي أخلصت نفسي وعبادتي لله وحده، لم أجعل فيهما لغيره شركاً بأن اعبده، ولا أدعو إلهاً معه، لأنّ دين الإسلام دين التوحيد، وهو الدين القويم الذي ثبت عندكم صحته كما ثبت عندي وحيه، وما جئت بشيء مبتدع حتى تجادلوني فيه، وخص الوجه بالذكر لأنه أشرف الأعضاء، فهو تعبير عن جملة الشخص بأشرف أجزائه الظاهرة، وذلك لاشتماله على معظم القوى والمشاعر، ولأنه معظم ما تقع به العبادة من السجود والقراءة، و به يحصل التوجّه إلى كل شيء* كذا في القرطبي وأبي السعود، وقوله: «وَمَنِ اتّبعنِ» كذلك عقيدته: «وقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» اليهود والنصارى: «والأميّين» مشركي العرب الذين لا كتاب لهم، وإن كانوا يكتبون و يقرؤن الكتاب: «أأسْلَمْتُمْ» أي فهل أسلمتم كما أسلمتُ أنا، فقد أتيتكم بالبيّنات بما يوجب عليكم أن تسلموا. أي أسلموا وانتهوا عن كفركم خير لكم: «فَإنْ أسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدوْا» إلى دين الله القويم، ونفعوا أنفسهم حيث خرجوا من الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور. وفي القرطبي: وقد قرأ الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الآية عليهم، وقال لليهود: أتشهدون أن عزيراً عبدالله ورسوله؟ فقالوا: معاذ الله أن يكون عزيراً عبدالله، فقال الله عزّ وجلّ: «وإنْ تَولّوْا» عن الإسلام والتوحيد الخالص لم يضروك: «فَإنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ» أي وظيفتك تبليغ الرسالة، وقد بلغها عليه الصلاة والسلام على أبلغ وجه: «والله بَصيرٌ بالْعِبَادِ» فيجازيهم بأعمالهم، وهذا قبل الأمر بالقتال، فهو منسوخ بآية السيف لأن المفهوم اقتصار الرسالة على التبليغ، بل أمر بعده بقتالهم حتى يسلموا، أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إنَّكَ عَلى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ* تُولِجُ اللَّيْلَ في النَّهَارِ وتُولِجُ النَّهَارَ في اللَّيْلِ وتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ»

سورة آل عمران (الآية : ٢٦، ٢٧)

في الواحدي والخطيب: قال ابن عباس وأنس بن مالك: افتتح رسول الله صلى الله

عليه وسلم مكة، ووعد أمّته ملك فارس والروم قالت المنافقون واليهود: هيهات هيهات! من أين لمحمد ملك فارس والروم، هم أعزّ وأمنع من ذلك، ألم يكف محمداً مكة والمدينة حتى طمع في ملك فارس والروم، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وذكر المفسرون أنّه صلى الله عليه وسلم خطّ على الخندق يوم الأحزاب، ثم قطع لكل عشرة أربعين ذراعاً، قال عمرو بن عوف: كنت أنا وسلمان الفارسى وحذيفة والنعمان بن مقرن المزنى، وستة من الأنصار فى أربعين ذراعاً، فحفرنا حتّى إذا كنا تحت ذى ناب، أخرج الله من بطن الخندق صخرة مروةٍ كسرتْ حديدنا، وشقت علينا، فقلنا: يا سلمان إرق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره خبر هذ الصخرة، فإمّا أن نعدل عنها، وإمّا أن يأمرنا فيها بأمره، فإنا لا نحبُّ أن نجاوز خطه، قال: فَرَقَى سلمان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ضارب عليه قبّةً تركيةً، فقال: يا رسول الله خرجت صخرة بيضاء مروة من بطن الخندق، فكسرت حديدنا وشقّت علينا حتى ما يَحِيكُ فيها قليل ولا كثير، فمرنا فيها بأمر فإنا لا نحب أن نجاوز خطّك، قال: فهبط رسول الله صلى الله عليه وسلم مع سلمان إلى الخندق، والتسعة على شفة الخندق، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم المعول من سلمان فضربها ضربةً صدعها، و برق منها برق أضاء ما بيْن لابتيْها (يعنى المدينة) حتى كأن مصباحاً في جوف بيت مظلم وكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح، فكبّر المسلمون، ثم ضربها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكسرها و برق منها برق أضاء ما بين لابتيْها حتى كأن مصباحاً في جوف بيتٍ مظلم، وكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبير فتح، وكبّر المسلمون، وأخذَ يَدَ سلمانَ ورقى، فقال سلمان: بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد رأيتُ شيئاً ما رأيت مثله قط!! فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى القوم فقال: رأيتُم ما يقول سلماً؟ قالوا: نعم، يا رسول الله، قال: ضربتُ ضربتى الأولى فبرق الذي رأيتُم أضاءت لى منها قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنّها أنياب كلاب، وأخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت ضربتى الثانية فبرق الذي رأيتُم، أضاء لى منها القصور الحمر في أرض الروم كأنها أنياب كلاب، وأخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها، ثم ضربت الثالثة فبرق الذي رأيتُم أضاءت لى منها قصور صنعاء كأنها أنياب كلاب، وأخبرنى جبريل عليه السلام أن أمتى ظاهرة عليها، فأبشروا، فاستبشر المسلمون، وقالوا: الحمد لله موعد صدق وعدنا النصر بعد الحفر، فقال

المنـافـقـون: ألا تحـفرون الخندق من الْفَرَقِ ــ الفزع ــ ولا تستطيعون أن تبرزوا؟ قال: فـنـزل القرآن «وإذ يقُولَ المُنَافِقُونَ والَّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ما وَعَدَنَا اللهُ ورسُولُهُ إلاَّ غُروراً» وأنـزل الله تـعـالى في هـذه الـقصّة «قُلِ اللّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ..» إلى قوله: «بغَيْرِ حِسَابِ»* وفي القرطبي: وقيل: نزلت دامغة لباطل نصارى أهل نجران في قولهم: ان عـيسى هـو الله، وذلك أن هذه الأ وصاف ــ المتقدمة ــ تبيّن لكل صحيح الفطرة أن عـيسى لـيـس في شيء منها، قـال ابـن إسحاق: أعلم الله عز وجل في هذه الآية بعنادهم وكـفـرهـم وأن عـيسى عـلـيـه السلام وإن كان الله تعالى أعطاه آيات تدل على نبوته من إحيـاء الـموتى ــ وغير ذلـك فـإن الله عزّ وجلّ هـو المنفرد بهذه الأشياء من قوله: «تُؤتِى الْـمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ» إلى قوله: «بِغَيْرِ حِسَابِ» فلو كان عيسى إلٰهاً كان هذا إليه، فكان في ذلـك اعـتـبار وآية بيّنةٌ* وفي الخازن: زيادة على ما تقدم. وقيل إن اليهود قالوا: والله لا نـطـيـع رجـلاً جاء ينقل النبوة من بنى إسرائيل إلى غيرهم فنزلت هذه الآية. وقوله تعالى: «قُلِ اللّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ» قال الحسن: إن الله تعالى أمر نبيّه أن يسأله أن يعطيه ملك فـارس والـروم، و يـردّ ذلّ العرب عليهما، وأمره بذلك دليل على أنّه يستجيبُ له صلى الله عـلـيـه وسـلم هذا الدعاء، وهكذا منازل الأنبياء إذا أمروا بدعاء استجيب دعاؤهم، أي قـل يـا الله «مَالِكَ الْمُلْكِ» أى جنس الملك على الاطلاق ملكاً حقيقيّاً بحيث يتصرّف فـيـه كـيـف يـشـاء كـذا في أبي الـسعود. وقيل مَلَكَ العباد وما ملكوا، وقيل: مالك ملك الـسـمـوات والأ رض، وقـيـل مـعـنـاه بيده الملك يؤتيه من يشاء، وقيل: معناه ملك الملوك ووارثـهـم، يوم لا يدّعى الملك أحد غيزه، وفي بعض كتب الله المنزلة: أنا الله ملك الملوك، ومـالـك الملك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدى، فإن العباد أطاعونى جعلتهم عليهم رحمة، وإن هـم عـصـونى جـعـلـتهـم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسبّ الملوك، ولكن توبوا إليَّ أعطّفهم عَلَـيـكُـمْ. كذا في الخازن. وفى القرطبي، قال عليّ رضي الله عنه قال النبي صلى الله عليه وسلم: [لـمّـا أمر الله تعالى أن تنزل فاتحة الكتاب وآية الكرسى، وشهد الله، وقل اللّهم مـالك الملك، إلى قوله: بغير حساب، تعلّقن بالعرش وليس بينهنَّ و بين الله حجاب، وقلن يـارب: تهـبطنا دار الذنوب وإلى من يعصيك؟ فقال الله تعالى: وعزتى وجلالى لا يقرؤكُنَّ عـبـد عـقيب كل صلاة مكتوبة إلا أسكنتُه حظيرة القدس على ما كان منه، وإلاَّ نظرت إلـيـه بعينى المكنونة في كل يوم سبعين نظرة، وإلاَّ قضيت لهُ كل يوم سبعين حاجةً أدناها الـفـقر، وإلا أعذتُه من عدوّه بنصرته عليه، ولا يمنعه من دخول الجنّة إلاَّ أن يموت] وقوله:

«تُؤتِى الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ» بيان لبعض وجوه التصرّف الذي تستدعيه مالكيّة الملك، وتحقيق لاختصاصها به حقيقة، وكون مالكية غيره بطريق المجاز كما ينبيء عنه إيثار الإيتاء الذي هو مجرّد الاعطاء على التمليك المؤذن بثبوت المالكية حقيقة «وتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ» بإيتائه الملك «وتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ» بنزعه منه «بِيَدِكَ» بقدرتك «الْخَيْرُ» أي والشر، والتقديم للاختصاص، وإنما خص الخير بالذكر لأنّه المرغوب فيه، أو لأنه المقضى بالذّات، والشرّ مقضى بالعرض إذ لا يوجد شرٌّ جزئى ما لم يتضمّن خيراً كلياً «إنَّكَ عَلى كُلِّ شىءٍ قَدِيرٌ» تعليل لما سبق وتحقيق له «تُولِجُ» تدخل «اللَّيْلَ فى النَّهَارِ وتُولِجُ النَّهَارَ» تُدخله «فى اللَّيْلِ» فيزيد كل منهما بما نقص من الآخر، وفيه دلالة على أن من قدر على أمثال هذه الأمور العظام المحيّرة للعقول والأفهام فقدرته على أن ينزع الملك من العجم و يذلّهم و يؤته العرب و يعزهم أهون عليه من كل هيّن «وتُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيّتِ» كالإنسان والطائر من النطفة والبيضة «وتُخْرِجُ الْمَيِّتَ» كالنطفة والبيضة «مِنَ الْحَىِّ» وكالمسلم من الكافر وعكسه، فالمسلم حيٌّ الفؤاد والكافر ميّت الفؤاد، قال تعالى: «أوَمَنْ كَانَ ميْتاً فأحييْنَاهُ» هذا ما عليه المفسرون. ولكن لما لا يقال (وتخرجُ الميتَ من الحىِّ) كالشعر من الرأس والظفر من اللحم، «وتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» أي ترزقه رزقاً واسعاً بلا ضيق، إذِ المحسوب يقال للقليل. أي تعطى من تشاء من المال ما لا يقدر على إحصائه، وتُقتِرُ على آخرين لما لك من الحكمة والارادة والمشئية.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الكافرينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المؤمنينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فى شىءٍ إلاّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وإلى اللهِ الْمَصِيرُ»

في الواحدى: قال ابن عباس: كان الحجاج بن عمرو وكهمس بن أبى الحقيق، وقيس بن زيد، وهؤلاء كانوا من اليهود يباطنون نفراً من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال رفاعة بن المنذر، وعبدالله بن جبير وسعيد بن خيثمة لأ ولئك النفر: اجتنبوا هؤلاء اليهود، واحذروا لزومهم ومباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم، فأبى أولئك النفر إلاّ مباطنتهم

وملازمتهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وقال الكلبيُّ: نزلت في المنافقين: عبدالله بن أُبيّ وأصحابه، كانُوا يتولون اليهود والمشركين و يأتونهم بالأخبار و يرجون أن يكون لهم الظفر على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأنزل الله تعالى هذه الآية، ونهى المؤمنين عن مثل فعلهم. وقال جبير عن الضحاك عن ابن عباس: نزلت في عبادة بن الصّامت الأنصارى، وكان بدرياً نقيباً، وكان له حلفاء من اليهود، لمّا خرج النبى صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب. قال عبادة يا نبي الله: إن معى خمسمائة رجل من اليهود، وقد رأيت أن يخرجوا معى، فأستظهر بهم على العدو فأنزل الله تعالى «**لاَ يَتّخِذِ الْمُـؤْمِنُونَ الكافرينَ...**» الآية* وقيل: نزلت في عمّار بن ياسر حين تكلم ببعض ما أراد منه المشركون* وكذا فى الخازن والطبرى والغرائب وفيه، وقد كرر الله ذلك ــ أي النهى عن موالات الكافرين ــ في آيات كثيرة «**لاَ تتّخذوا بِطَانةً مِنْ دُونكُمْ**» «**لاَ تَتّخِذُوا اليهودَ والنّصَارَى أَوْلِيَآء**» «**لاَ تَجِدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يُوَادُّونَ منْ حَادَّ الله ورسُولَهُ**» وقال: وكون المؤمن موالياً للكافر يحتمل ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون راضياً بكفره والرضا بالكفر كفر فيستحيل أن يصدر عن المؤمن فلا يدخل تحت الآية لقوله: «**لا يتّخذ المؤمنون**» «**يا أَيُّها الّـذِينَ آمَنُوا**»

وثانيها: المعاشرة الجميلة في الدنيا بحسب الظاهر وذلك غير ممنوع منه.

والثالث: كالمتوسط بين القسمين، وهو الركون إليهم والمعونة والمظاهرة لقرابة أو صداقة قبل الإسلام، أو غير ذلك، ولهذا قال مقاتل: نزلت في حاطب بن أبى بلتعه وغيره، وكانُوا يظهرون المودة لكفار مكّة مع اعتقاد أن دينهم باطل فهذا لا يوجب الكفر إلاّ أنه منهيٌّ عنه حذراً من أن يجره إلى استحسان طريقته، والرضا بدينه حتى يخصه بالموالاة دون المؤمنين فلا جرم هدد فقال: «**وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ الله**» أي من ولايته أو من دينه «**فى شيءٍ**» يقع عليه اسم الولاية. يعنى أنه منسلخ عن ولاية الله رأساً وهذا كالبيان لقوله: «**مِنْ دُونِ المؤمنين**» ليعلم أن الاشتراك بينهم و بين المؤمنين في الموالاة غير متصوّر، وهذا أمر معقول، فإن موالاة الوليّ وموالاة عدوه ضدان: قال الشاعر:

تــودُّ عــدوّى ثم تــزْعُـمُ أنّنى ... صَدِيقكَ ليْسَ النُّوك عنك بعازب

وقوله: «**إلاّ أنْ تَـتّقُـوا مِـنْهُـمْ تُقَاةً**» قال الجوهريُّ: يقال اتّقى تقيةً وتقاةً، مثل اتّخم تُخْمةً،... قال الواحدى: ويجوز أن يجعل تقاةً هٰهُنا مثل دعاةً ورماةً، فيكون حالاً

مؤكدة، وعلى هذين الوجهين يكون تتقُوا متضمناً معنى تحذروا، أو تخافُوا، ولهذا عديّ، بمن ويحتمل أن يكون التقاة أو التقية بمعنى المتّقى مثل ضرب الأمير لمضرو به، فالمعنى إلاّ أن تخافوا من جهتهم أمراً يجب اتقاؤه. رخص لهم في موالاتهم إذا خافوهم والمراد بتلك الموالاة مخالفة ومعاشرة ظاهرة والقلب مطمئن بالعداوة والبغضاء وانتظار زوال المانع من قشر العصا وإظهار الطوية كقول عيسى عليه السلام: (كن وسطاً وامش جانباً) أي ليكن جسدك بين الناس وقلبك مع الله، وللتقية عند العلماء أحكام، منها: إذا كان الرجل في قوم كفار يخاف منهم على نفسه جاز له أن يظهر المحبّة والموالاة ولكن بشرط أن يضمر خلافه، و يُعرّض في كل ما يقول ما أمكن، فإن التُّقْيَةَ تأثيرها في الظاهر لا في أحوال القلب ومنها أنها رخصة فول تركها كان أفضل لما روى الحسن أنّه أخذ مسيلمة الكذّاب رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما، أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول الله، قال: نعم، وكان مسيلمة يزعم أنه رسول بني حنيفة، ومحمد رسول قريش فتركه، ودعا الآخر وقال: أتشهد أنّ محمداً رسول الله؟ قال: نعم، نعم، نعم، فقال: أتشهد أني رسول الله، فقال: إني أصمٌّ ثلاثاً. فقدّمه وقتله، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم، أمّا هذا المقتول فضى على يقينه وصدقه فهنيئاً له، وأمّا الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه* ونظير هذه الآية «**إلاّ مَنْ أكْرِهَ وقلبُهُ مطمئنٌّ بالإيمان**» ومنها: أنها إنما تجوز فيما يتعلق بإظهار الموالاة والمعاداة، وقد يجوز أن تكون أيضاً فيما يتعلق بإظهار الدين، فأما الذي يرجع ضرره إلى الغير كالقتل والزنا وغصب الأموال وشهادة الزُّور وقذف المحصنات، وإطلاع الكفار على عورات المسلمين فذلك غير جائز البتّة، ومنها أنَّ الشافعي جوّز التقية بين المسلمين كما جوّزها بين الكافرين محاماة عن النّفس، ومنها أنها جائزة لصون المال على الأصح كما أنها جائزة لصون النفس لقوله صلى الله عليه وسلم: [حرمة مال المسلم كحرمة دَمِه، ومن قُتل دون ماله فهو شهيد] ولأن الحاجة إلى المال شديدة، ولهذا يسقط فرض الوضوء ويجوز الاقتصار على التّيمم إذا بيع الماء بالغبن. قال مجاهد: كان هذا في أول الإسلام فقط لضعف المؤمنين. وروى عوف عن الحسن أنّه قال: التّقية جائزة إلى يوم القيامة، وهذا أرجح عند الأئمة* وفي الطبرى: حدّثني المثنى قال: ثنا عبدالله بن صالح قال: ثنا معاو ية بن صالح عن عليّ عن ابن عباس قوله: «**لاَ يَتّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ**

الكافرينَ أوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المؤمنينَ» قال: نهى الله سبحانه المؤمنين أن يلاطفوا الكفار، أو يتخذوهم وليجة من دون المؤمنين إلاّ أن يكون الكفّارُ عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللطف، ويخالفونهم في الدين وذلك قوله: «إلاّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» وقال ابن عباس: التّقاة: التكلم باللسان وقلبه مطمئن بالإيمان* وقال عكرمة في قوله: «إلاّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» ما لم يهرق دم مسلم، وما لم يستحل ماله* قال أبو العالية: التقية باللسان وليس بالعمل* وعن الضحاك قال: التقية باللسان، من حمل على أمر يتكلم به، وهو لله معصية فتكلم مخافة على نفسه وقلبه مطمئن بالإيمان فلا إثم عليه، إنما التقية باللسان* وعن ابن عباس: فإن ذلك لا يضره* وعن قتادة قال: لا يحلُّ لمؤمن أن يتخذ كافراً وليًّا في دينه، وفي قوله: «إلاّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» قال: يكون بينك و بينه قرابة فتصله لذلك* وعن الحسن في قوله «إلاّ أنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً» قال: صاحبهم في الدنيا معروفاً الرحم وغيره، فأمّا في الدّين فلا* وفي القرطبي: وقيل إن المؤمن إذا كان قائماً بين الكفار فله أن يداريهم باللسان إذا كان خائفاً على نفسه، وقلبه مطمئن بالإيمان، والتقية لا تحل إلا مع خوف القتل، أو القطع أو الإيذاء العظيم، ومن أكره على الكفر فالصحيح أن له أن يتصلب ولا يجيب إلى التلفظ بكلمة الكفر، بل يجوز له ذلك* وسيأتي بيانه إن شاء الله تعالى، قوله: «و يُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ» أي حذركم نقمته في مخالفته وسطوته وعذابه لمن والى أعداءه، وعادى أولياءه وقوله: «وإلى اللهِ الْمَصِيرُ» أي المرجع والمنقلب ليجازى كل عامل بعمله، وفي الخبر عن مهران قال: قام فينا معاذ فقال: يا بني أود إني رسول رسول الله إليكم تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنّة أو إلى النار* اللهم اجعلنا من أصحاب الجنّة يا حيُّ يا قيوم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«قُلْ إن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتّبِعُونِي يُحْبِبكُم اللهُ و يغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ* قُلْ أَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ فإنْ تولَّوْا فإنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِين» سورة آل عمران (الآية: ٣١، ٣٢)

في الواحدى وابن كثير والخطيب والطبرى وغيرها من التفاسير: قال الحسن وابن

جريج: زعم أقوامٌ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يحبون الله، فقالوا: يا محمد إنا نحبُّ ربّنا، فأنزل الله هذه الآية؛ وفي الخازن: نزلت في اليهود والنصارى حيث قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. فنزلت هذه الآية فعرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم فلم يقبلوها؛ وقال ابن عباس: وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على قريش وهم في المسجد الحرام، وقد نصبوا أصنامَهم، وعلّقوا عليها بيض النّعام، وجعلوا في آذانها الشفوف، وهم يسجدون لها، فقال: يا معشر قريش، والله لقد خالفتُم ملة أبيكم إبراهيم، وإسماعيل، فقالت قريش: إنما نعبدها حباً لله لتقربنا إلى الله زلفى، فنزلت هذه الآية؛ وقيل: إن نصارى نجران قالوا: إنما نقول هذا القول في عيسى حباً لله وتعظيماً له، فأنزل الله قل يا محمد إن كنتم تحبُّون الله فيما تزعمون فاتّبعونى يحببكم الله لأنه قد ثبتت نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالدلائل الظاهرة، والمعجزات الباهرة، فوجب على كافة الخلق متابعته، قال الخازن: والمعنى: قل إن كنتم صادقين في ادعاء محبة الله فكونوا منقادين لأ وامره مطيعين له فاتبعونى فإنّ اتّباعى من محبة الله تعالى وطاعته؛ قال الخطيب في تفسيره: فمن ادّعى محبّته وخالف سنة رسوله صلى الله عليه وسلم فهو كذّاب، وكتاب الله يكذّبه، وإذا رأيت من يذكر محبة الله و يصفقُ بيده مع ذكره و يطرب، و ينعر و يصعق، فلا شكّ أنّه لا يعرف ما لله، ولا يدرى ما محبة الله، ما تصفيقه وطربه ونعرته وصعقته إلاّ أنّه تصوّر في نفسه الخبيثة صورة مستملحة معشقة فسمّاها الله بجهله وادّعائه، ثم صفق وطرب ونعر وصعق عند تصورها، وربما رأيت المنيَّ قد ملأ إزار ذلك المحبّ عند صعقه، وحمق العامّة حواليه قد ملؤا أذقانهم بالدموع لما رأوه من حاله. ولمّا نزلت هذه الآية قال عبدالله بن أبيّ لأصحابه: إنَّ محمداً يجعل طاعته كطاعة الله، و يأمرنا أن نحبّه كما أحبَّ النصارى عيسى فنزل قوله: «**قُلْ**» لهم «**أَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ**» فيما يأمركم به من التوحيد «**فإنْ تولَّوْا**» أي أعرضوا عن الطاعة «**فإنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**» أي لا يرضى فعلهم، ولا يغفر لهم، قلت: وكذلك لا يرضى عمن تبعهم وتولاّهم ولا يغفر لهم. وفي القرطبي: وقال سهل بن عبدالله: علامة حبّ الله حبّ القرآن، وعلامة حبّ القرآن حبّ النبي صلى الله عليه وسلم، وعلامة حبّ النبي صلى الله عليه وسلم حبّ السنّة، وعلامة حب الله وحب القرآن وحبّ النبي وحبّ السنّة حبّ الآخرة، وعلامة حبّ الآخرة، أن يحبّ نفسه، وعلامة حبّ نفسه أن يبغض الدنيا، وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إلاّ الزاد والبُلْغَة؛ وروى أبوالدرداء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في

قوله تعالى: «قُلْ إن كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الله فَاتَّبِعُونى يُحْبِبكُم الله» قال: على البرّ والتقوى والتواضع وذلّة النفس. خرجه أبوعبدالله الترمذي. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [من أراد أن يحبّه الله فعليه بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وألا يؤذى جاره] وفي صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن الله إذا أحبّ عبداً دعا جبريل فقال: إنى أحبُّ فلاناً فأحبّه. قال: فيحبه جبريل، ثم ينادى في السماء فيقول: إنَّ الله يحب فلاناً فأحبُّوه، فيحبُّهُ أهل السماء، قال: ثم يوضع له القبول في الأرض. وإذا أبغض عبداً دعا جبريل فيقول: إنى أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل، ثم ينادى في أهل السماء إنَّ الله يبغض فلاناً فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض] قوله: «و يغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» يعنى أن من غفر له فقد أزال عنه العذاب وذلك ببركة اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام «والله غفُورٌ رَحِيمٌ» غفور لمن اتبعنى ما سلف منه قبل ذلك، رحيم به «قُلْ» لقريش «أَطِيعُوا الله والرَّسُولَ» يعنى إنَّ طاعة الله متعلقة بطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن طاعته لا تتم مع عصيان رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولهذا قال الشافعيُّ رضي الله عنه: كل أمر أو نهى ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم جرى ذلك في الفريضة واللزوم مجرى ما أمر الله به في كتابه أو نهى عنه* وقال ابن عباس رضي الله عنهما: فإنَّ طاعتكم لمحمد صلى الله عليه وسلم طاعتكم لى، فأمّا أن تطيعونى وتعصوا محمداً فلن أقبل منكم «فإنْ تولّوا» أي أعرضوا عن طاعة الله ورسوله «فإنَّ الله لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِين» أى لا يرضى فعلهم ولا يغفر لهم. روى البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلاَّ من أبى. قالوا: ومن يأبى؟ قال: من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى] وأخرج الشيخان عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعنى ومن يعص الأمير فقد عصانى].

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ الله كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُون» سورة آل عمران (الآية: ٥٩)

في الواحدي: ذكر المفسرون أن وفد نجران قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: ما

لك تشتم صاحبنا؟ قال: وما أقول؟ قالوا: تقول إنه عبدٌ قال: أجل إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول. فغضبوا، وقالوا: هل رأيت إنساناً قط من غير أب؟ فإن كنت صادقاً فأرنا مثله؟ فأنزل الله عز وجل هذه الآية* وعن الحسن أنه جاء راهبان من نجران. فعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهما الإسلام، فقال أحدهما: إنا قد أسلمنا قبلك، فقال: كذبتما، إنّه يمنعكما من الإسلام ثلاث، عبادتكم الصليب، وأكلكم الخنزير، وقولكم لله ولداً. قالا: من أبو عيسى؟ وكان لا يعجل حتى يأمره ربه، فأنزل الله تعالى الآية «**إنَّ مَثَلَ عيسى..**» وكذا في الخازن وغيره، وكاد يجمع المفسرون على ذلك، وقوله تعالى: «**إنَّ مَثَلَ عِيسَى**» أي شأنه الغريب الذي لغرابته ينتظم في سلك الأمثال «**عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ**» كشأنه في خلقه من غير أب ولا أم، وهو من تشبيه الغريب بالأغرب ليكون أقطع للخصم، وأوقع في النفس، لأن فاقد الأبوين أغرب من فاقد الأب، فكان أشدّ خرقاً للعادة من الموجود من غير أب، وأقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته، والجماع كون كل منهما من غير أب، على أن التّشبيه تكفي فيه المماثلة من بعض الوجوه. وهذا جواب: كيف قال: إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم. وآدم خلقه الله من التراب وعيسى من الهواء، وآدم خلق من غير أب وأم، وعيسى خلق من أم؟ وإيضاحه أن المراد تشبيه به في الوجود من غير أب. والتشبيه لا يقتضى المماثلة من جميع الوجوه (الكرخى)* وعن بعض العلماء أنه أسر بالرُّوم. فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ فقالوا: لأنه لا أبَ له. فقال لهم: فآدم أولى لأنه لا أبوين له، قالوا: فإنه كان يحى الموتى، قال: فحزقيل أولى لأن عيسى أحيا أربعة نفر، وحزقيل أحيا ثمانية آلاف، قالوا: إنه كان يبرىء الأكمه والأبرص، قال: فجرجيس أولى لأنه طبُخ وأحُرق، ثم خرج سالماً. كذا في السمين* «**خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ**» أي خلق آدم من تراب يابس وهو أبلغ في القدرة فلم لا يقرُّون بأن الله خلق عيسى من مريم من غير أب. بل الشأن في خلق آدم أعجب وأغرب. أي قدّره جسداً من طين «**ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ**» أي أنشأه خلقاً بالكلمة، وكذلك عيسى أنشأه خلقاً بالكلمة، أو المراد: اعلم يا محمد أن ما قال له ربك كن فإنه يكون لا محالة. والمراد بكن ادخاله في الوجود. قالت الحكماء: إنما خلق آدم من التراب لوجوه: ليكون متواضعاً، وليكون ستاراً، وليكون أشدّ التصاقاً بالأرض فيصلح للخلافة فيها، ولما فيه من إظهار القدرة فخلق الشياطين من النارِ التي هى أضوأ الأجرام السفلية، وابتلاهم

بظلمات الضلالة، وخلق الملائكة من الهواء الذي هو أرق الأجرام، وأعطاهم كمال القوّة والقدرة، وخلق السموات من أمواج مياه البحار، وأبقاها معلقة في الفضاء، وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأجرام فآتاه النور والهداية، وكل ذلك برهان باهر، ودليل ظاهر على أنّه تعالى هو المدبر بغير احتياج والخالق بلا مزاج وعلاج. خلق البشر من التراب لاطفاء نيران الشهوة والحرص والغضب، وخلقه من الماء، خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً ليكون صافياً تتجلى فيه صور الأشياء، ثم مزج بين التراب والماء لامتزاج اللطيف بالكثيف، فصار طيناً «**إنّي خالقٌ بشراً من طين**» ثم إنه سلّ من ألطف أجزائه الطين «**ولقد خلقنا الإنسان من سُلالةٍ مِنْ طينٍ**» ثم جعله طيناً لازباً «**إنَّا خلقناهم مِنْ طينٍ لازِب**» ثم سنه وغير رائحته «**ولقد خَلَقْنَا الإنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حمأٍ مَسْنُونٍ**» وفي «**كن فَيَكُونَ**» قال ابن عباس: معناه كن فكان.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أبْنَاءَنَا وأبْنَاءَكُمْ ونِسَاءَنَا ونِسَاءَكُمْ وأنْفُسَنَا وأنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلى الكاذِبِين»

فى الوحدى عن جابر بن عبدالله قال: قدم وفد أهل نجران على النبي صلى الله عليه وسلم: العاقب والسيّد، فدعاهما إلى الإسلام فقالا: أسلمنا قبلك، قال: كذبتما إن شئتما أخبرتكما بما يمنعكما من الإسلام؟ فقالا: هات أنبئنا، قال: حبُّ الصليب، وشرب الخمر، وأكل لحم الخنزير. فدعاهما إلى الملاعنة، فوعداه على أن يفادياه بالغداة، فغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأخذ بيد عليّ وفاطمة، و بيد الحسن والحسين، ثم أرسل إليهما، فأبيا أن يجيبا، فأقرا له بالخراج. فقال صلى الله عليه وسلم: [والذي بعثني بالحق لو فعلا لمطر الوادى ناراً] فأنزل الله الآية* وفي الخطيب: فلمّا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على وفد نجران، ودعاهم إلى المباهلة، قالوا: حتى نرجع، وننظر في أمرنا، ثم نأتيك غداً، فخلا بعضهم ببعض، وقالوا للعاقب، وكان ذا رأيهم: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم يا معشر النصارى أن محمداً نبيٌّ مرسلٌ. ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم. والله ما باهل قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتُم لنهلكنَّ، فإن أبيتم إلاّ الاقامة على دينكم، وعلى ما أنتم عليه من القول في صاحبكم، فوادعوا الرجل، وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وقد غدا محتضناً للحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه، وعليٌّ خلفها رضي الله عنهم آل البيت. وهو صلى الله عليه وسلم يقول لهم: [إذا دعوت فأمِنُّوا] فقال أسقف نجران: وهو اسم سريانيّ ــ لرئيس النصارى وعالمهم، وهو غير العاقب: يا معشر النصارى!! إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله تعالى أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله، فلا تباهلوا فتهلكوا، ولا يبقى على وجه الأرض نصرانيٌّ إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم!! رأينا إلاَّ نباهلك، وأن نقرّك على دينك، ونثبت على ديننا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإن أبيتُمْ المباهلة، فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين، وعليكم ما عليهم، فأبوا، فقال: إنما أُنَا بذكم فقالوا ما لنا بحرب العرب طاقة، ولكن نصالحك على ألاَّ تغزونا، ولا تخنقنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدى إليك كل عام ألفيْ حُلّةٍ: ألف في صَفَر، وألف في رَجَبَ، نؤديها للمسلمين، وعارية ثلاثين درعاً، وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين من كل صنف من أصناف السلاح يغزون بها، والمسلمون ضامنون لها حتى يؤدوها، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: [والذي نفسي بيده أنَّ العذاب تدلى على أهل نجران، ولو لاعنُوا لمسخوا قردةً وخنازير، ولا ضطرم عليهم الوادى ناراً، ولا ستأصل الله تعالى نجران وأهله حتى الطير على رؤس الشجر، ولما حال الحول على النصارى حتى هلكوا كلّهم] وعن عائشة رضي الله عنها: [أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج وعليه مرط من مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله، ثم جاء الحسين فأدخله، ثم فاطمة، ثم عليّ، ثم قال: «**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجْسَ أهْلَ البيت**»] وفي ذلك دليل على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم، وعلى فضل أهل الكساء رضي الله تعالى عنهم وعن بقية الصحابة أجمعين، وقوله: «**فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وأبْنَاءَكُمْ**» أراد بالأبناء الحسن والحسين، و بالنساء فاطمة، و بالنفس نفسه صلى الله عليه وسلم وعلياً رضي الله عنه، وقيل هو على العموم لجماعة أهل الدين، وقوله تعالى: «**ثُمَّ نَبْتَهِلْ**» قال ابن عباس: نتضرّع في الدعاء. وقيل معناه: نجتهد ونبالغ في الدعاء. وقيل: معناه نلتعنُ، والابتهال الإلتعان يقال عليه بهلة الله أي لعنة الله، والمراد منها تبيّن الصادق من الكاذب. وتجوز المباهلة بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلاَّ أنها لا تجوز إلا في أمرٍ مهم شرعاً وقع فيه اشتباهٌ وعناد لا يتيسّر دفعه إلا بالمباهلة ــ فيشترط كونها بعد إقامة الحجّة، والسعي في إزالة الشبهة، وتقديم النصح والإنذار وعدم نفع ذلك. ومساس

الضرورة إليها، وأما قول المشركين «**اللّهُمَّ إن كان هذا هو الحقّ مِنْ عندك فأمْطِرْ علينا حجارة من السّماء**» فليس من قبل المباهلة. فإن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يعرض نفسه لذلك، ولم يكن ذلك القول في معرض الاحتجاج ولا دعاء ولا بإذن من الله تعالى لرسوله. وقوله تعالى: «**فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ الله عَلى الكاذِبين**» يعني منّا ومنكم في شأن عيسى عليه السلام، أي الذي يقول إنه ابن الله، أو يقول إنه إله فعليه لعنة الله.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«قُلْ يا أهْلَ الكتَابِ تعَالَوْا إلى كلمة سَواءٍ بيننا وبينكُمْ ألاّ نعْبُدَ إلاّ اللهَ وَلاَ نُشرِكَ به شَيْئاً ولاَ يتَّخِذَ بعْضُنَا بَعْضاً أرْبَاباً مِنْ دونِ الله فإنْ تولَّوْا فقُولُوا اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُونَ» سورة آل عمران (الآية: ٦٤)

في الخازن: قال ابن عباس: اجتمع عند النبي صلى الله عليه وسلم نصارى نجران وأحبار اليهود فتنازعوا عنده، فقالت: الأحبار: ما كان إبراهيم إلاّ يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلاّ نصرانياً وكلا الفريقين يدعى أنه أولى به، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا الفريقين بريء من إبراهيم ودينه، بل كان حنيفاً مسلماً وأنا على دينه فاتبعوا دينه الإسلام؟ فقالت اليهود: ما تريد إلاّ أن نتّخذك ربًّا كما اتّخذت النصارى عيسى رباً، وقالت النصارى: يا محمد ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عزير، فأنزل الله عز وجل: «**قُلْ يا أهْلَ الكتَابِ تعَالَوْا**» أي هلمّوا «**إلى كلمةٍ سَواءٍ**» يعني فيها إنصاف ولا ميل فيها لأحدٍ على صاحبه أي كلمة عدل لا يختلف فيها التوراة والإنجيل والقرآن وتفسير الكلمة قوله: «**ألاّ نعْبُدَ إلاّ الله وَلاَ نُشرِكَ به شَيْئاً ولاَ يتَّخِذَ بعْضُنَا بعْضاً أرْبَاباً مِنْ دونِ الله**» وذلك أن النصارى عبدوا غير الله وهو المسيح، وأشركوا به، وهو قولهم: أب وابن وروح القدس، فجعلوا الواحد ثلاثة، واتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وذلك أنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الشرك و يسجدون لهم... ومعنى الآية قل يا محمد لليهود والنصارى: هلموا إلى أمرٍ عدل نصف وهُوَ أن لا نقول عزيراً ابن الله، ولا نقول المسيح ابن الله، لأن كل واحد منهما بشر مخلوق مثلنا، ولا نطيع أحبارنا ورهباننا فيما أحدثوا من التحريم والتّحليل من غير رجوع إلى ما شرع، ولا يسجد بعضنا لبعض لأنَّ السجود لغير الله حرام ــ بل وشرك ــ فلا نسجد لغير

الله، ولا نطيع أحداً في معصية الله **«فإنْ تَولَّوْا»** أي فإن أعرضوا عما أمرتم به **«فقُولُوا»** أنتُم لهؤلاء **«اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُونَ»** أي مخلصون بالتوحيد والعبادة له. روى الشيخان عن ابن عباس أنَّ أبا سفيان أخبره أنَّ هِرَقْلَ أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشأم في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مادَّ فيها أبا سفيان وكفارَ قريش. فأتوه، وهو بإيلياء، فدعاهم في مجلسه، وحوله عظماء الروم، ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به دِحْيَةَ الكلبي إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل. فقرأ فإذا فيه [بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد بن عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أمَّا بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تَسْلَمْ يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسين، و **«يا أَهْلَ الكتَابِ تعَالَوْا إلى كلمة سَواءٍ بيننا وبينكُمْ ألاَّ نعْبُدَ إلاَّ اللهَ وَلاَ نُشركَ به شَيْئاً ولاَ يَتَّخِذَ بعْضُنا بعضاً أرْبَاباً مِنْ دونِ الله فإنْ تولَّوْا فقُولُوا اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُونَ»**] والأريس: الأكار. وهو الزرّاع والفلاح. وقيل: هم أتباع عبدالله بن أريس. رجل كان في الزمن الأول بعثه الله فخالفه قومه، وقيل هم الأروسيُّون وهم نصارى أتباع عبدالله بن أرس. وهم الأروسة، وقيل: هم الأرَيْسُون. بضم الهمزة، وهم الملوك الذين يخالفون أنبياءهم، وقيل هم المتبخترون، وقيل هم اليهود والنصارى الذين صددتهم عن الإسلام واتبعوك على كفرك (الخازن) مع بعض التصرّف في بعض الألفاظ. وعبارة أبي السعود: روى أنه لما نزل قوله تعالى: **«اتّخذُوا أحْبَارَهُمْ ورُهْبَانَهُمْ أرْبَاباً من دون الله»** قال عدى بن حاتم: ما كنا نعبدهم يا رسول الله، فقال: أليس كانُوا يحللون ويحرمون لكم فتأخذون بقولهم؟ قال: نعم. قلت: وقد رواه الترمذي* وقال البيضاوى: انظر ما راعى الله سبحانه وتعالى في هذه القصة من المبالغة والإرشاد، وحسن التدرّج في الحجاج، فبين أولاً أحوال عيسى، وما تعاور عليه من الأطوار الماضية للإلهيّة، ثم ذكر ما يحلّ عقدتهم، و يزيل شبهتهم، فلما رأى عنادهم ولجاجهم دعاهم إلى المباهلة بنوع من الإعجاز، ثمّ لمَّا أعرضوا عنها وانقادوا بعض الانقياد عاد إليهم الإرشاد، وسلك طريقاً أسهل وألزم بأن دعاهم إلى ما وافق عليه عيسى والإنجيل وسائر الأنبياء والكتب، ثم لما لم يجد أن ينفع ذلك أيضاً عليهم، وعلم أنَّ الآيات والنذر لا تغنى عنهم أعرضوا عن ذلك. وقال **«اشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُونَ»** أي لمّا لزمتكم الحجة فأعترفوا بأنا مسلمون دونكم، ومتّصفون بما سمّانا به إبراهيم عليه السلام

مسلمين منقادون لأحكامه معترفون بما لله علينا في ذلك من المنن والأنعام غير متخذين أحداً رباً لا عيسى ولا عزيراً ولا الملائكة لأنهم بشر مثلنا محدث كحدوثنا. ولا نقبل من الرهبان شيئاً بتحريمهم علينا. فنكون قد اتخذناهم أرباباً من دون الله. قال عكرمة: معنى يتّخذ: يسجد* وروى أن ابن مالك قال: قُلنا يا رسول الله: أينحنى بعضنا لبعض؟ قال: لا. قلنا: أيعانقُ بعضنا بعضاً؟ قال: لا، ولكن تتصافحوا. وفي الحديث: [ما ينبغى أن يُسْجَدَ لأحدٍ من دون الله].

((القول في سبب نزول قوله تعالى))

«إنّ أوْلَى النّاسِ بإبْراهِيمَ لَلّذِينَ اتّبعُوهُ وهَذَا النّبىُّ والّذِينَ آمَنُوا والله وَلىُّ المؤمنينَ» سورة آل عمران (الآية: ٦٨)

فى الواحدى: قال اليهود: والله يا محمد لقد علمتَ أنّا أوْلَى بدين إبراهيم منك ومن غيرك. وأنه كان يهودياً. وما بك إلا الحسد. فأنزل الله تعالى هذه الآية* قلتُ: ولنزول هذه الآية سبب مرتبط بما قبله من نزول قوله تعالى: **«يا أهْلَ الكتاب لِمَ تُحاجُّون فى إبْرَاهيم ومَا أنْزلَتِ التّوْراةُ والإنجيلُ إلاّ مِنْ بعْدِهِ أفلاَ تعْقِلُونَ* هَا أنْتَمْ هؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُونَ فيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ والله يعْلَمُ وأنتم لا تعلمون* مَا كانَ إبْراهيمُ يَهُودياً ولاَ نصْرانياً ولَكِنْ كَانَ حَنيفاً مُسْلِماً ومَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ»** أى إن أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته والانتساب إلى دينه للذين سلكو طريقه ومنهاجه. فوحدوا الله مخلصين له الدين، وسنّو سنّته، وعملوا بشرائعه، وكانوا لله حنفاء مسلمين غير مشركين به. وعبارة ابن كثير في تفسير الآية: **«إنَّ أوْلَى النّاسِ بإبْراهيم...»** يقول تعالى: أحقُّ النّاس بمتابعة إبراهيم الخليل الذين اتبعُوه على دينه، وهذا النبىّ يعنى محمّداً صلى الله عليه وسلم، والذين آمنوا من أصحابه المهاجرين والأنصار. ومن تبعهم بعدهم. وروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [لكل نبىّ ولاة من النبيّين، وإن ولىّ منهم أبى وخليل ربّى عز وجل، ثم قرأ **«إنّ أوْلَى النّاسِ بإبراهيم للذينَ أتبَعُوه»** الآية. زاد فى رواية أخرى بعد: منهم أبى وخليل الله عزّ وجلّ ابراهيم عليه السلام] وذكر الطبرى عن قتادة فى قوله: **«إنّ أولى النّاسِ بإبراهِيمَ للذينَ اتبعُوه»** يقول للذين اتّبعُوه على ملّته وسنّته ومنهاجه وفطرته:

«وهذا النبىّ» وهو نبىُّ الله محمد «والذين آمنوا» معه، وهم المؤمنون الذين صدّقوا نبىَّ الله واتبعوه. كان محمد رسول الله والذين معه من المؤمنين أولى النّاس بإبراهيم.: «والله ولىُّ المؤمنين» بنصره ومعونته لهم فى كل ما يصلح حالهم فى الدنيا والآخرة.

((القول فى سبب نزول قوله تعالى:))

«ودّتْ طائفةٌ مِنْ أهل الْكِتَابِ لَوْ يضلوُّنكم وَمَا يُضِلوُّنَ إلاَّ أنْفُسَهُمْ ومَا يشْعُرُونَ* يا أهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تكْفُرُونَ بآياتِ الله وأنْتُمْ تَشْهَدُونَ* يا أهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحقَّ بالْبَاطِلِ وتكْتُمونَ الْحقَّ وأنتُمْ تعْلَمُونَ» سورة آل عمران (الآية: ٦٩، ٧٠، ٧١)

فى الواحدى: نزلت الآية فى معاذ بن جبل وعمّار بن ياسر حين دعاهم اليهود إلى دينهم* قلت: والآية نظير قوله تعالى: «ودّ كَثِيرٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يردّونكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمَانِكُمْ كُفّاراً حَسَداً...»-وفى الطبرى عن ابن عباس قال: قال عبدالله بن الصّيف وعدىّ بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ونكفر به عشيّةً حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعوا عن دينهم فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم: «يا أهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحقَّ بالباطل» — إلى قوله —: «والله واسِعٌ عليمٌ» وعن قتادة: «يا أهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تلْبِسُونَ الحقَّ بالْبَاطِلِ» يقول لم تلبسون اليهودية والنصارنية بالإسلام، وقد علمتمُ أن دين الله الذى لا يقبل غيره الإسلام، ولا يجزى إلا به. وفى قوله: «وتكتُمون الْحقَّ وأنْتُمْ تعْلَمُونَ» قال قتادة: كتموا شأن محمد يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر* وعبارة ابن كثير: يخبر تعالى عن حسد اليهود للمؤمنين و بغيهم إياهم الا ضلال، وأخبر أنّ و بال ذلك إنما يعود على أنفسهم، وهم لا يشعرون.. ولم يذكر سبباً لنزولها. وما ذكره الواحدى ذكره الخازن وكذ بقية المفسرين.

((القول فى سبب نزول قوله تعالى:))

«وقَالَتْ طائفةٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَاب آمنُوا بالـّذِى أُنْزِلَ على الذينَ آمَنُوا وجْهَ النَّهَارِ واكفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ* ولاَ تُؤْمِنُوا إلاَّ لِمَنْ تَبعَ دينَكُمْ قُلْ إنَّ الْهُدَىٰ هُدَى الله أنْ يُؤتَى أحَدٌ مِثْلَ مَا أوتيتُمْ أوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ ربّكُمْ قُلْ إنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ الله يُؤتِيهِ مَنْ يَشَاءُ والله واسِعٌ عَليمٌ* يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ والله ذوالْفَضْلِ الْعَظِيمِ»

سورة آل عمران (الآية: ٧٢، ٧٣، ٧٤)

فى الواحدى: تواطأ اثنا عشر حَبْراً من يهود خيبر، وقال بعضهم لبعض: ادخلوا فى دين محمد أول النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا به فى آخر النهار، وقولوا إنا نظرنا فى كتبنا وشاورنا علماءنا فوجدنا محمداً ليس بذلك، وأظهر لنا كذبه و بطلان دينه، فإذا فعلتُم ذلك شكَّ أصحابه فى دينهم، وقالوا: إنهم أهل كتاب، وهم أعلم به منّا فيرجعون عن دينهم إلى دينكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية وأخبر محمداً صلى الله عليه وسلم والمؤمنين* وقال مجاهد ومقاتل والكلبي: هذا فى شأن القبلة لما صرفت إلى الكعبة، شُقّ ذلك على اليهود لمخالفتهم، قال كعب بن الأشرف وأصحابه: آمنوا بالذى أنزل على محمد من أمر الكعبة، وصلّوا إليها أوّل النّهار ثم اكفُرُوا بالكعبة آخر النّهار، وارجعوا إلى قبلتكم الصخرة، لعلهم يقولون: هؤلاء أهل كتاب وهم أعلم منّا، فربما يرجعون إلى قبلتنا، فحذّر الله تعالى نبيّه مكر هؤلاء. وأطلعه على سرّهم وأنزل: **«وقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أهْلِ الْكِتابِ..»** وكذا فى القرطبي والخازن. وجه النّهار أوّله. والوجه مستقبل كل شيء لأنّه أول ما يوجه منه. وقوله: **«لَعَلّهُمْ يَرجْعُونَ»** يعنى عن دين الإسلام إن ألقينا هذه الشبهة لعلهم يشكون فى دينهم، فيرجعون عنه، ولمّا دبَّروا هذه الحيلة أخبر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بها، فلم تتم لهم، ولم يحصل لها أثر فى قلوب المؤمنين، ولولا هذا الاعلام من الله تعالى لكان ربّما أثر ذلك فى قلوب بعض من كان فى إيمانه ضعف. قوله تعالى: **«ولا تؤمنُوا إلاَ لِمَنْ تَبعَ دِينكُمْ»** قال الخازن: هذا متصلٌ بالأول، وهو من قول اليهود يقول بعضهم لبعض: ولا تؤمنوا أى ولا تصدقوا إلا لمن تبع دينكم: أى وافق ملّتكُمْ وهى اليهودية، واللام فى لمن صلة كقوله ردف لكم أى ردفكم. واعتبرها الجلال زائدة. وقال

القرطبي: وهذه الآية أشكل ما في السورة، فروى عن الحسن ومجاهد أن معنى الآية: ولا تؤمنوا إلا لمن يتبع دينكم ، ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم لأنهم لا حجة لهم، فإنكم أصح منهم ديناً* قال الطبرى: الكلام كله خبرعن قول الطائفة التى قال الله عزّ وجلّ: **«وقالَت طائفةٌ مِنْ أهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بالذى أُنْزِل على الذينَ آمنُوا وجْهَ النّهارِ..»** وهو غير واضح، وعبارة ابن كثير: **«ولاَ تؤمِنُوا إلاَّ لِمَنْ تبعَ دِينكُمْ»** أى تطمئنوا وتظهروا سروركم وما عندكم إلا لمن تبع دينكم، ولا تُظهرُوا ما بأيديكم إلا للمسلمين فيؤمنون به، ويحتجُّوا به عليكم* أى أنه من كلام اليهود. فيكون: **«ولاَ تُؤمِنُوا»** معطوف على آمنوا بالذى أنزل، فيكون المعنى حكاية عنهم: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أى تصدقُوا إلا نَبيًّا يقرر شرائع التوراة، فأمّا من جاء بتغيير شيء من أحكام التوراة، فلا تصدّقوه. وهذا هو مذهب اليهود إلى اليوم، وعليه تكون اللام فى **«لمن»** زائدة، ومن أجل ذلك قيل للنبىّ صلى الله عليه وسلم : **«قُلْ إنَّ الْهُدىٰ هُدَى اللهِ»** وقد جئتكم به، فلن ينفعكم هذا الكيد الضعيف، فهدى الله هو الإسلام، وما عداه ضلال وقوله: **«أنْ يُؤتَى»** أى بأن يؤتى: **«أحَدٌ مِثْلَ ما أُوتيتُمْ»** من الكتاب والحكمة والفضائل.. المعنى لا تقرُّوا بأن أحداً يؤتى ذلك إلا لمن تبع دينكم **«أوْ»** بأن **«يُحَاجُّوكُمْ»** أى المؤمنون يغلبوكم **«عِنْدَ رَبّكُمْ»** يوم القيامة لأنكم أصحُّ ديناً، قال تعالى: **«قُلْ إنَّ الْفَضْلَ بيَدِ الله يؤتِيهِ مَنْ يَشَاءُ»** فمن أين لكم أنه لا يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتُم: **«وَالله واسِعٌ»** كثيرُ الفضل **«عَليمٌ»** بمن هو أهله **«يختصُّ برَحْمِتهِ مَنْ يَشَاءُ»** أى اختصكم أيها المؤمنون من الفضل بما لا يحد ولا يوصف بما شرّف به نبيكم محمداً صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء، وهداكم به إلى أكمل الشرائع **«والله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ»** أى الكثير، فمن قصر إنعامه وإكرامه على مراتب معيّنةٍ، وإلى أشخاصٍ معينين كان جاهلاً بكمال الله تعالى فى قدرته وحكمته، ثم إنه تعالى كذبهم فى دعواهم الاختصاص بالمناصب العالية، فإن فيهم الخيانة المستقبحة فى جميع الأديان، ونقض العهد والكذب على الله وقتل الأنبياء وأكل الربا والرشا إلى غير ذلك من القبائح. وهو ما سترى طرفاً منها في هذه الآية.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إنْ تَأمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤدِّهِ إلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إنْ تَأمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤدِّهِ إلَيْكَ إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائماً ذَلِكَ بأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فى الأمِيّينَ سَبِيلٌ ويقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وهُمْ يَعْلَمُونَ* بَلى مَنْ أوْفَى بِعَهْدِهِ واتَّقَى فَإنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتّقِينَ»
سورة آل عمران (الآية: ٧٥، ٧٦)

في الخازن: نزلت في اليهود. أخبر الله عز وجل أن فيهم أمانة وخيانة، وقسّمهم قسمين، والقنطار عبارة عن المال الكثير، والدينار عبارة عن المال القليل يقول منهم من يؤدى الأمانة وإن كثرت مثل عبدالله بن سلاّم وأصحابه، ومنهم من لا يؤديها وإن قلّت. وهم كفار أهل الكتاب مثل كعب بن الأشراف وأصحابه، قال ابن عباس في هذه الآية: أودع رجل من قريش عبدالله بن سلاّم ألفاً ومائتى أوقية من ذهب. فأدّاها إليه، فذلك قوله تعالى: «**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إنْ تَأمَنْهُ بِقِنْطارٍ يُؤدِّهِ إلَيْكَ**» يعنى فنحاص بن عزوراء استودعه رجل من قريش ديناراً فخانه، وجحده ولم يؤده إليه* وقيل: أهل الأمانة هم النّصارى وأهل الخيانة هم اليهود لأن مذهبهم أن يحلّ قتل من خالفهم في الدين وأخذ ماله بأى طريق كان* ونقل بن ابن عبّاس أنها نزلت في الوديعة. ومعنى الآية أن من أهل الكتاب، وهم اليهود من بنى إسرائيل أهل أمانة يؤدُّونها ولا يخونونها، ومنهم الخائن أمانته الفاجر في يمينه المستحلّ، و يكون في الآية دليل على تحذير المؤمنين أن يأتمنوهم على أموالهم، وتخو يفهم الاغترار بهم لاستحلال كثير منهم أموال المؤمنين* وعن قتادة كما في الطبرى: في قوله: «**إلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائماً**» قال: تقتضيه إياه. وعن مجاهد: في قوله: مادمت عليه قائماً قال: مواظباً. قال أبوجعفر: وأولى القولين بتأو يل الآية قول من قال: معنى ذلك إلا مادمت عليه قائماً بالمطالبة والاقتضاء من قولهم: قام فلان بحق على فلان حتى استخرجه لى، أي عمل في تخليصه وسعى في استخراجه منه حتى استخرجه* وقوله: «**ذَلِكَ**» أي من سبب ذلك الاستحلال والخيانة «**بأَنَّهُمْ قَالُوا**» يعنى اليهود «**لَيْسَ عَلَيْنَا فى الأمِيّينَ سَبِيلٌ**» أي لا إثم عليهم ولا حرج في أخذ مال العرب. وذلك أن اليهود قالوا: أموال العرب حلال لنا إنهم ليسوا على ديننا، ولا

حرمة لهم في كتابنا، وكانُوا يستحلون ظلم من خالفهم في دينهم. وقيل: إن اليهود قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، والخلق لنا عبيد فلا سبيل علينا إذا أكلنا أموال عبيدنا. فأكذبهم الله تعالى فقال: «**و يقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ**» يعنى اليهود «**وهُمْ يَعْلَمُونَ**» يعنى أنهم كاذبون. وقد اختلقوا هذه المقالة، وائتفكوها بهذه الضلالة، فإن الله حرّم عليهم أكل الأموال إلا بحقها، وإنما هم قوم بهت، وفي ابن كثير عن ابن صعصعه بن يزيد أن رجلاً سأل ابن عباس فقال: إنَّا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمة الدّجاجة والشاة. قال ابن عباس: فتقولون ماذا؟ قال: نقول ليس علينا بذلك بأس قال: هذا كما قال أهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل: إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم* وعن سعيد بن جبير قال: لمّا قال أهل الكتاب ليس علينا في الأميين سبيل، قال نبي الله صلى الله عليه وسلم: [كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية إلا وهو تحت قدميْ هاتيْن إلاّ الأمانة فإنها مؤداة إلى البرّ والفاجر] فيكون مرادهم بالأميّ من ليس له كتاب، وشأنه يشمل ماله ودمه وعرضه فقد استباحوا دماء العرب وأموالهم وأعراضهم. و يقولون على الله الكذب في نسبة ذلك إليه. وقوله تعالى: «**بَلَى**» أي عليهم فيهم سبيل «**مَنْ أوْفَى بِعَهْدِهِ**» الذي عاهد الله عليه، أو بعهد الله إليه من أداء الأمانة وغيره. وهى استئناف مقررة للجملة التي تسد بلى مسدها، وفي السمين: ومن موصولة أو شرطية والرابط من الجملة الجزائية أو الخبرية هو العموم في المتّقين، وعند من يرى الربط بقيام الظاهر مقام المضمر يقول ذلك هنا، وقيل الجزاء أو الخبر محذوف تقديره يحبه الله، ودل على هذا الحذف قوله: «**فَإنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ**» أي يحبهم بمعنى يثيبهم وهم الذين يتقون الشرك، روى الشيخان عن عبدالله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أربع من كنَّ فيه كَانَ منافقاً خالصاً، ومَنْ كان فيه خصلة منهنَّ كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر] وفي رواية [إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر].

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأيمـانهم ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ولاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يومَ الْقِيَامَةِ ولاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ* وإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ ومَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ و يَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»

سورة آل عمران (الآية: ٧٧، ٧٨)

في الواحدى: عن سفيان عن الأعمش عن عبدالله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ حَلَفَ على يمينٍ، وهوفيها فاجر ليقطع بها مال امرىء مُسلم لقى الله وهو عليه غضبان] فقال الأشعث بن قيس: فيَّ والله. كان بيني و بين رجل من اليهود أرض — وفي رواية بئر وأرض — فجحدنى فقدمته إلى النبي صلى الله عليه وسلم. فقال: لك بيّنة؟ قلتُ: لا. فقال لليهود: أتحلفُ. قلت: إذن يحلف فيذهب بمالى، فأنزل الله عز وجل «**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأيمـانهم ثَمَناً قَليلاً**» الآية. لكن روى البخارى عن عبدان، عن أبي حمزة عن الأعمش، وعن عبدالله بن أبى أوْفى، أنَّ رجلاً أقام سلعة في السوق فحلف لقد أعطى بها ما لم يعط ليوقع فيها رجلاً من المسلمين، فنزلت «**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأيمـانهم ثَمَناً قليلاً**»* وقال عكرمة: في أبى رافع ولبابة أبى الحقيق، وحُيى بن أخطب وغيرهم من رؤساء اليهود، كتموا ما عهد الله إليهم في التوراة من شأن محمد صلى الله عليه وسلم و بدلوه وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا أنَّه من عند الله لئلا يفوتهم الرشا والمآكل التي كانت لهم على أتباعهم. كذا في الواحدى. أي أن الآية نزلت في اليهود لمّا بدّلوا نعت النبي صلى الله عليه وسلم، وعهد الله إليهم في التوراة، أو فيمن حلف كاذباً في دعوى أو في بيع سلعة* وفي الخطيب: وقيل نزلت في جماعة من اليهود جاؤا إلى كعب بن الأشرف في سنة أصابتهم ممتارين، فقال لهم: أتعلمون أن هذا الرجل رسول الله؟ قالوا: نعم، قال: لقد هممت أن أميركم وأكسوكم فحرمكم الله خيراً كثيراً. فقالوا: لعلّه اشتبه علينا فرو يْداً حتى نلقاه، فانطلقوا فكتبوا صفة غير صفته، ثم رجعوا إليه، وقالوا: لقد غلطنا، وليس هو بالنّعت الذي نعت لنا. ففرح ومارهم* وفي الطبرى

عن عدى بن عميرة قال: كان بين امرىء القيس ورجل من حضرموت، فارتفعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال للحضرميّ: بيّنتُكَ وإلاَّ فيمينُه. قال: يا رسول الله إن حلف ذهب بأرضي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من حلف على يمين كاذبة ليقتطع بها حقّ أخيه لقي الله وهو عليه غضبان] فقال امرؤ القيس: يا رسول الله فما لمن تركها، وهو يعلم أنها حق؟ قال: الجنة، قال: فإني أشهدك أني قد تركتها. قال جرير فكنت مع أيوب السختياني حين سمعنا هذا الحديث من عديّ، فقال أيوب: إن عدياً قال في حديث العرش بن عميرة، فنزلت هذه الآية «**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأَيْمَـٰنِهم ثَمَناً قليلاً..**» إلى آخر الآية. قال جرير: ولم أحفظ يومئذ من عدى. وكذا في بقية التفاسير، وفي الخازن: وقيل نزلت في ادعاء اليهود الذين قالوا: ليس علينا في الأميين سبيل ــ وكتبوا ذلك بأيديهم وحلفوا أنه من عند الله ــ ولعلّ هذا القول أصح الأقوال لتوافق معناه مع مدلول الآية الثانية. لكنّ الأقرب حمل الآية على الكل. فقوله تعالى: «**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ**» يدخل فيه جميع ما أمر الله به و يدخل فيه العهود والمواثيق المأخوذة من جهة الرُّسل. و يدخل فيه ما يلزم الرجل نفسه من عهد وميثاق. فكل ذلك من عهد الله الذي يجب الوفاء به، وقوله: «**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ**» أي يستبدلون «**بِعَهْدِ اللهِ**» إليهم في الإيمان للنبي صلى الله عليه وسلم والوفاء بالميثاق وأداء الأمانة «**وأَيْمَـٰنِهِم**» أي حلفهم به تعالى كاذباً في قولهم والله لنؤمنن به ولننصرنه (البيضاوى) «**ثَمَناً قَلِيلاً**» من الدنيا «**أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ**» أي نصيب «**لَهُمْ فِى الآخرةِ**» أي في نعيمها «**ولاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ**» بما يسُرهم، أولا يكلمهم بشيء أصلاً، وإنما يقع ما يقع من السؤال والتوبيخ في أثناء الحساب من الملائكة. فلا يخالف النصوص الدالة على أنهم يسئلون كقوله: «**فوربّك لنسألنّهم أجْمَعِين**» وهذه الجملة واللتان بعدها كناية عن إهانتهم وشدّة الغضب عليهم «**ولاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ**» أي ولا يرحمهم «**يَوْمَ الْقِيَامةِ ولاَ يُزَكّيهِمْ**» أي ولا يثنى عليهم بالجميل ولا يطهرهم من الذنوب، «**وَلَهُمْ عَذَابٌ أليمٌ**» أي مؤلم في الآخرة. روى الشيخان عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذابٌ أليم: رجل حلف على سلعة لقد أعطى بها أكثر مما أعطى وهو كاذب، ورجل حلف على يمين كاذبة بعد العصر ليقتطع بها مال امرىء مسلم، ورجل منع فضل مائهٔ

فيقول الله له: اليوم أمنعك فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل يداك] وروى مسلم عن أبى أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [من اقتطع حقّ امرىء مسلم بيمينه حرّم الله عليه الجنة، وأوجب له النار. فقالوا: يا رسول الله: وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال: وإن كان قضيباً من أراك] قوله: **«وإنَّ مِنْهُمْ»** يعنى من اليهود، أو أهل الكتاب **«لَفَرِيقاً»** طائفة ككعب بن الأشرف، ومالك بن الصّيف، وحيي بن أخطب، وأبى ياسر وشعبة بن عمر الشاعر. (كذا في الكرخى) **«يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ»** أي يعطفونها بقرائتة عن المنزل إلى ما حرّفوه من نعت النبي صلى الله عليه وسلم **«لِتَحْسَبُوهُ»** أي المحرف **«مِنَ الْكِتَابِ»** الذي أنزله الله **«وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ»** أي في الواقع وفي اعتقادهم أيضاً **«وَ يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ»** أي مع ما ذكر من اللّيّ والتّحريف على طريقة التّصريح لا بالتّورية والتعريض. (كذا في أبى السعود) **«وما هُوَ مِنْ عِنْدِ الله»** أي المحرف، والحال كونه ليس من عند الله **«و يَقُولُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ»** أنهم كاذبون. وفي الخازن: قال ابن عباس: إن الآية نزلت في اليهود والنصارى جميعاً. وذلك أنهم حرّفوا التوراة والإنجيل وألحقوا في كتاب الله ماليس فيه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«مـا كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ والْحُكْمَ والنبوَّةَ ثم يقولَ لِلنَّاس كُونُوا عِبَاداً لى مِنْ دُونِ اللهِ وَلكِنْ كُونُوا ربَّانِيّينَ بمـا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتابَ وبِمَا كُنْتُم تَدْرُسُونَ* ولا يأمُرَكُمْ أنْ تَتّخِذُوا المَلائكَةَ والنّبيينَ أرْباباً أيأمُرُكُمْ بالْكُفْرِ بَعْدَ إذْ أنْتُمْ مُسْلِمُونَ»

سورة آل عمران (الآية: ٧٩، ٨٠)

في الواحدي: قال الضحاك ومقاتل: نزلت في نصارى نجران حين عبدوا عيسى* وقوله: **«ما كَانَ لِبَشَرٍ»** يعنى عيسى **«أنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ»** يعنى الإنجيل. وقال ابن عباس في رواية الكلبى وعطاء: إن أبا رافع اليهودى والرئيس من نصارى نجران. قالا: يا محمد أتريد أن نعبدك ونتخذك رباً؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [معاذ الله أن يعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غير الله. ما بذلك بعثنى، ولا بذلك أمرنى] فأنزل الله هذه الآية. قال الحسن: بلغنى أن رجلاً قال: يا رسول الله نسلّمُ عليك كما يسلّمُ بعضنا على

بعض أفلا نسجد لك؟ قال صلى الله عليه وسلم: [لا ينبغي أن يسجد لأحدٍ من دون الله، ولكن أكرموا نبيّكم، واعرفوا الحقّ لأهله] فأنزل الله تعالى هذه الآية* وكذا في الطبري وفيه عن ابن جريج قال: كان ناس من يهود يتعبدون الناس من ربهم بتحريفهم كتاب الله عن موضعه، فقال الله عز وجل: «**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أنْ يُؤتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ والْحُكْمَ والنبوَّةَ ثم يقولَ لِلنَّاس كُونُوا عِبَاداً لى مِنْ دُونِ اللهِ**» ثم يأمر النَّاس بغير ما أنزل الله في كتابه وفي الجلال: ونزل لمّا قال نصارى نجران: إنَّ عيسى أمرهم أن يتّخذوه رباً، أو لمَّا طلب بعض المسلمين السجود له صلى الله عليه وسلم «**مَا كان لِبَشَرٍ..**» الآية. وكذا في الخازن وابن كثير والغرائب، وقيل: زعمت اليهود أن أحداً لا ينال من درجات الفضل ما نالوه، فقال لهم الله: إن كان الأمر كما قلتُم وجب أن لا تشتغلوا باستبعاد الناس واستخدامهم، وهذا الوجه يحتمله لفظ الآية. لكن في الخازن وقال ابن عباس: في قوله تعالى: «**مَا كَانَ لِبَشَرٍ**» يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم أن يؤتيه الله الكتابَ يعنى القرآن، وذلك أن أبا رافع من اليهود والسيّد من نصارى نجران قالا: يا محمد تريد أن نعبدك ...الخ. وقوله: «**مَا كانَ**» أي لا ينبغى «**لبَشرٍ**» أي لكل فرد من أفراد البشر، وهو جميع بنى آدم لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط. و يوضع موضع الواحد والجمع «**أنْ يُؤتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ والْحُكْمَ**» يعنى الفهم والعلم «**والنبوَّةَ**» المنزلة الرفيعة «**ثم يقولَ لِلنَّاس كُونُوا عِبَاداً لى مِنْ دُونِ اللهِ**» قال الخازن: ومعنى الآية إنه لا يجتمع لرجل نبوّة مع القول للناس كونوا عباداً لى من دون الله وكيف يدعوا الناس إلى عبادة نفسه دون الله، وقد آتاه الله ما آتاه من الكتاب والحكم والنبُوَّة، وذلك أن الأنبياء موصوفون بصفات لا يحصل معها ادعاء الإلٰهية والربوبية: منها: أن الله تعالى آتاهم الكتب السماوية، ومنها: إيتاء النبوة ولا يكون إلا بعد كمال العلم. وكل هذه تمنع من هذه الدعوى* قال الأصم كما في الغرائب: لو أرادُوا أن يقولوا ذلك لمنعهم الله منه، نظيره: «**ولَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الأقَاويلِ لأخَذْنَا مِنْه بالْيَمِينِ* ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْه الْوَتِينَ**» «**لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً* إذاً لأذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ**» وقيل معناه إنه تعالى لا يشرف عبداً بالنبوة إلا إذا علم منه أنه لا يقول مثل ذلك الكلام. وقيل إن الرسول يدعى تبليغ الأحكام عن الله تعالى، ويحتج على صدقه بالمعجزة فلو أمرهم بعبادة نفسه بطل دلالة المعجزة على كونه صادقاً، والتحقيق أن

الأنبياء موصوفون بصفات لا يحصل معها هذا الادعاء لأن النّفس ما لم تكن كاملة بحسب قوتها النظرية والعلمية لم تكن مستعدّة لقبول نزول الكتاب السماوى عليه. وللحكم وهو فهم ذلك الكتاب و بيانه، وقد يعبر عنه بالسنة والنبوة، وهو كونه مأموراً بتبليغ ما فهم إلى الخلق. وفي قوله: «**ثُمَّ يَقُولَ**» تبعيد هذا القول عن مثل ذلك البشر «**كُونُوا رَبَّانِيِّينَ**» يعنى ولكن يقول لهم النبي: كونوا ربّانيين، قال ابن عباس: كونوا فقهاء علماء. وفي رواية عنه كونوا فقهاء معلّمين، وقيل: معناه حكماء حلماء. وقيل: الربّانى الذي يربى الناس بصغار العلم وكباره، وقيل: الربانى العالم الذي يعمل بعلمه، وقيل: الرباني العالم بالحلال والحرام والأمر والنّهى. والتحقيق: أنه يطلق على الفقيه العالم الورع في الدين، ولمّا مات ابن عباس رضي الله عنهما قال محمد بن الحنفية: اليوم مات ربّانيّ هذه الأمة* قال سيبويه: الربّانى منسوب إلى الربّ بمعنى كونه عالماً به ومواظباً على طاعته، كما يقال رجل إلهيّ، إذا كان مقبلاً على معرفة الإله وطاعته، «**بِمَا كُنتُمْ**» الباء للسببية وما مصدرية «**تُعَلِّمُونَ**» من التعليم أو العلم، على القراءتين فيعلم منه أنّ التعليم أو العلم أو الدراسة وهي القراءة توجب على صاحبها كونه ربانياً إذا كان مخلصاً لله فيها وعاملاً بما تعلمه وفي الحديث [نعوذ بالله من قلب لا يخشع ومن علم لا نفع] وفي الآية دليل على صحة قوله عليه الصلاة والسلام: [العلماءُ ورثة الأنبياء] وقوله تعالى: «**وَلَا يَأْمُرَكُمْ**» أي ولا ينبغى لبشر أن يُنصّبه الله منصب الدعاء إلى اختصاص الله بالعبادة، ثم يخالفه إلى أن يأمر الناس بعبادة نفسه و يأمركم «**أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً**» والمعنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينهى قريشاً عن عبادة الملائكة واليهود والنّصارى عن عبادة عزير والمسيح بحيث قالوا له: أنتخذك رباً؟ قيل لهم: ما كان لبشر أن يستنبئه الله، ثم يأمر الناس بعبادة نفسه و ينهاكم عن عبادة الملائكة والأنبياء، و يراد بالنبيين غيره صلى الله عليه وسلم كأنّه أخرج نفسه بتلك الدعوى عن زمرة الأنبياء «**أَيَأْمُرُكُمْ**» أي البشر وقيل الله «**بِالْكُفْرِ**» استفهام انكارى من الله تعالى للمسلمين الذين طلبوا من الرسول أن يسجدوا له «**بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**» إنما قاله على طريق الإنكار، يعنى لا يقول هذا ولا يفعله وما جاء به من الدين الحنيف يحرّم ذلك كله «**وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**» «**مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً**».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«أفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فى السَّمٰواتِ والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً وإليْهِ يُرْجَعُون» سورة آل عمران (الآية: ٨٣)

في الواحدي والخازن: قال ابن عباس: اختصم أهل الكتابين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما اختلفوا بينهم من دين ابراهيم كل فرقة زعمت أنها أولى بدينه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: كلا الفريقين بريء من دين ابراهيم. فغضبوا، وقالوا: والله ما نرضى بقضائك، ولا نأخذ بدينك فأنزل الله تعالى: «**أفَغَيْرَ دِينِ اللهَ يَبْغُونَ**» ولم يوجد شيء في بقية التفاسير زائداً على ما ذكرت وقوله: «**أفَغَيْرَ دِينِ اللهَ يَبْغُونَ**» أي أفغير دين الإسلام يطلبون و يعبدون؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار، فإنه لا دين لله إلا الإسلام في السموات والأرضين بدليل قوله: «**وَلَهُ أَسْلَمَ**» أي خضع وانقاد «**مَنْ فى السَّمٰواتِ والأرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً**» الطوع الانقياد والاتباع بسهولة، والكره ما كان من ذلك بمشقة وإباء من النفس، واختلفوا في معنى قوله «**طوْعاً وكرْهاً**» فقيل أسلم أهل السموات طوعاً وأسلم بعض أهل الأرض طوعاً و بعضهم كرهاً من خوف القتل والسبي. وقيل أسلم المؤمن طوعاً، وانقاد الكافر كرهاً. وقيل: هذا في يوم أخذ الميثاق في حين قال: «**ألست بربكم قالُوا بلى**» فن سبقت له السعادة قال ذلك طوعاً، ومن سبقت له الشقاوة قال ذلك كرهاً. وقيل أسلم المؤمن طوعاً فنفعه إسلامه يوم القيامة، والكافر يسلم كرهاً عند الموت في الوقت اليأس فلم ينفعه ذلك في القيامة. الخازن* ولكن لماذا لا يكون «**أسْلَمَ مَنْ فى السَّمٰواتِ والأرْضِ**» أي بالنظر في الأدلة، واتباع الحجة والانصاف من نفسه، ولم يكن سبيل لكفر الكافر إلا البغي والعناد، والآية على حد قوله تعالى: «**ولله يسجُدُ مَنْ فى السَّمٰواتِ والأرْضِ طوعاً وكرهاً**» فلا سبيل لأحدٍ إلى الامتناع عن مراده، فيكون المراد استسلم له من فيهما طوعاً وكرها، وسجد له من فيهما طوعاً وكرهاً: وظلالُهُمْ بالغُدوّ والآصال. والجملة حالية أي كيف يبغون غير دينه والحال هذه. فالمؤمن مستسلم بقلبه وقالبه خاضعاً مطيعاً لله، الكافر مستسلم لتصرف الله فيه. كافراً بقلبه عاصٍ بقالبه متكبراً عن عبادته، وهو حال كونه واقعاً تحت التسخير والقهر والسلطان العظيم الذى لا يخالف ولا يمانع* لكن في ابن كثير: عن عطاء*

بن أبي رباح عن النبي صلى الله عليه وسلم «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فى السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً» أما من في السموات فالملائكة، وأما من في الأرض فمن ولد على الإسلام، وأمّا كرها فمن أتى به من سبايا الأمم في السلاسل والأغلال يقادون إلى الجنّة وهم كارهون. وقد ورد في الصحيح [عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنّة في السلاسل]. ولكن المعنى الأول الذي ذكرته لك للآية أقوى. وقوله: «وإليْهِ يُرْجَعُون» أي يوم المعاد فيجازى كلاً بعمله* وفي القرطبي: في قوله: «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فى السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً» قال قتادة: أسلم المؤمن طوعاً والكافر عند موته كرهاً، ولا ينفعه ذلك لقوله «فلم يك ينفعُهُم إيمانُهُم لمّا رأوا بأسنا» قال مجاهد: إسلام الكافر كرهاً بسجوده لله وسجود ظله لله «أولم يروْا إلى ما خلقَ اللهُ من شيءٍ يتفيأ ظلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ والشّمائلِ سُجّداً لله وهُمْ داخرون» «ولله يَسْجُدَ مَنْ فى السَّمٰوات والأرض طوعاً وكرْهاً وظلالُهُمْ بالغدوّ والآصالِ». وروى أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله عزّوجل: «وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فى السَّمٰوٰتِ والأَرْضِ طَوْعاً وكَرْهاً» قال: الملائكة أطاعوه في السماء، والأنصار وعبدالقيس في الأرض. وقال عليه الصلاة والسلام: [لا تسبُّوا أصحابى فإن أصحابى أسلموا من خوف الله، وأسلم النّاس من خوف السيف] أي أن الملائكة والأنبياء والمرسلين وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إلاّ المنافقين أسلموا لله طائعين. والمنافقين مكرهين بسبب مصالحهم. والكافرين خوفاً من السيف والسّبى.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فى الآخرة مِنَ الخَاسرينَ» سورة آل عمران (الآية: ٨٥)

في الخطيب: نزلت فيمن ارتدّ عن الإسلام ولحق بالكفار، وهم اثنا عشر رجلاً، ارتدُّوا عن الإسلام، وخرجوا من المدينة، وأتوا مكّة كفاراً، منهم الحارث بن سويد الأنصارى، وهو أخو الجلاس بن سويد، ثم بعد أن نزلت الآية أرسل إلى أخيه يطلب التوبة، قال ابن عباسٌ وأسلم بعد نزول الآيات* وفي الطبرى: عن عكرمة في «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيناً» قال: فقالت الملل: نحن المسلمون، فأنزل الله عز وجل «ولله على النَّاسِ حجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إليْهِ سبيلاً ومَنْ كَفَرَفإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ

الْعَالَمِينَ» فحج المسلمون، وقعد الكفار، يعنى إنَّ الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام، وإن كل دين سواه غير مقبول عنده لأن الدين الصحيح ما يأمر الله به، و يرضى عن فاعله و يثيبه عليه وقوله: «وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخَاسرينَ» من الخسران. وهو العقاب وحرمان الثواب وحصول العقاب. قال عليه الصلاة والسلام: [من عَمِلَ عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ] وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة فتقول يارب: أنا الصلاة فيقول: إنك على خير. وتجيء الصدقة: فتقول يارب: أنا الصدقة، فيقول: إنك على خير، ثم يجيء الإسلام فيقول: يارب أنت السّلام وأنا الإسلام. فيقول الله تعالى: إنك على خير بك اليوم آخذ و بك أعطى. قال الله في كتابه: «وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخرة مِنَ الخَاسرينَ».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«كَيْفَ يَهدِى اللهُ قوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حقٌّ وجَاءَهُمُ البيِّنَاتُ واللهُ لا يَهْدى القوْمَ الظَّالمينَ* أُولئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ والملائكةِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ* خَالِدينَ فِيهَا لاَ يُخفَّفُ عَنْهُمُ العَذابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ* إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا من بَعْدِ ذَلِكَ وأَصْلَحُوا فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة آل عمران (الآية: ٨٦ - ٨٩)

في الواحدي: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن رجلاً من الأنصار ارتدَّ فلحق المشركين، فأنزل الله تعالى «كَيْفَ يَهدِى اللهُ قوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ» إلى قوله: «غفورٌ رحيمٌ» فبعث بها قومُه إليه، فلمّا قرئت إليه قال: والله ما كذبنى قومى على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا كذب رسول الله على الله، والله عزّ وجل أصدق الثلاثة، فرجع ثانياً، فقبل منه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركه. وفي رواية عنه أيضاً: فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم هل له من توبة؟ فإنى قد ندمت، فنزلت «كَيْفَ يَهدِى اللهُ قوْماً كَفَرُوا» حتى بلغ «إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا» فكتب بها قومه إليه فرجع فأسلم. رواه النسائى* وفي القرطبي: وقال الحسن: نزلت في اليهود لأنهم كانُوا يبشرون بالنبي صلى الله عليه وسلم و يستفتحون على الذين كفروا. فلمَّا بُعث عاندوا

وكـفـروا فـأنزل الله عزّ وجل «**أولئك جَزَاءُهُمْ أنَّ عليْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ والملائكة والنَّاسِ أجمعين**»» وفي الطبرى: هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوْا نعت محمد صلى الله عليـه وسلـم وأقـروا به، وشهدوا أنّه حقٌ فلمّا بعث من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فـانـكروه، وكفروا بعد إقرارهم حسداً للعرب حين بعث من غيرهم. قال الطبرى: وقول الحسن هـذا الأشـبـه بـظـاهـر التنزيل، إلاَّ أن غيره من الأقوال أكثر، والقائلين به أعلم بتـأو يل القرآن» والحق أن الآية عامّة في كل من آمن بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثم كـفر به بعد بعثته، وحتى يوم يبعثون. ومعنى «**كَيْفَ يَهدِى اللهُ..**» أي كيف يرشدهم للـصـواب و يـوفـق لـلإيمان قوماً جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بعد تصديقهم إياه وإقـرارهـم بـه. وبما جـاء بـه مـن عـنـد ربه «**وجَاءَهُمُ البيّنات**» أي الحجج والبراهين والمـعـجـزات الدّالة على صحّة نبوته صلى الله عليه وسلم التي بمثلها تثبت النبوة «**واللهُ لا يَهْدى القوْمَ الظّالمينَ**» الواضعين للشيء في غير موضعه وذلك أن الخصال الثلاث. أعنى الإيمـان والـشـهـادة ومـشـاهـدة المعجزات توجب مزيد الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم المـبـعـوث في آخـر الـزمـان لا الـكـفـر والـعـناد. وفيه دليل على أن زلّة العالم أقبح من زلّة الجـاهـل، ولهذا صرّح في آخر الآية بأنه تعالى لا يهديهم بعد أن عرّض بذلك في أول الآية، ثم أردفـه بغاية الوعيد قائلاً «**أولئكَ جَزَاؤهُمْ**» يعنى الذين كفروا بعد إيمانهم على العموم إلى يـوم الـديـن في كل من يرتد عن الإسلام، الجزاءُ هو «**أنَّ عَلَيْهِمُ لَعْنَةَ اللهِ والملائكةِ والـنَّاسِ أجْمَعِينَ**» أي ولعنة الملائكة ولعنة الناس أجمعين، مؤمنين وكافرين. ولعنة الله الـطرد من رحمته، ولعنة الملائكة والناس بغضاً وتحقيراً لهم «**خَالِدِينَ فِيهَا**» أي في اللعنة أو الـنـار المدلـول بهـا عليها أي على النّار «**لاَ يُخفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ**» يمهـلـون أي لا يُـؤخَّرون عن وقت العذاب. ولا يؤخرعنهم من وقت إلى وقت، ثم استثنى سبحانه وتعالى فقال «**إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا من بَعْدِ ذَلِكَ**» يعنى من بعد ارتدادهم وكفرهم «**وأصْلَحُوا**» أي ضمُّوا إلى التوبة الأعمال الصالحة، فبيّن سبحانه وتعالى: أنَّ التوبة وحـدهـا لا تـكفى حتى يضاف إليها العمل الصالح لقوله تعالى: «**وإنّى لغفّارٌ لِمَنْ تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صالحاً ثُمَّ اهْتَدى**» «**فإنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**» غفور لقبائحهم في الدنيا بالستر، رحيم في الآخرة بالعفو، وقيل غفورٌ بإزالة العذاب، رحيم بإعطاء الثواب.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إِنَّ الَّــذِيـنَ كَـفَـرُوا بَـعْـدَ إِيمَـانِـهِمْ ثُمَّ ازدادوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وأولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ» سورة آل عمران (الآية: ٩٠)

في الواحدى: قال الحسن وقتادة وعطاء الخرساني: نزلت في اليهود كفروا بعيسى والإنجيل، ثم ازدادوا كفراً بمحمد والقرآن، وقال أبو العالية: نزلت في اليهود والنّصارى: كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم بنعته وصفته، ثم إزدادوا كفراً بإقامتهم على كفرهم **«وأولَئِكَ هُمُ الضَّالُونَ»** أي الثابتون على الضلالة فلا يتوبون بعلم الله تعالى ليقبلها منهم، أو لن يقبل توبتهم عند الموت عن الذنوب التي ارتكبوها قبل كفرهم* وفي القرطبي: وقال قطرب: هذه الآية نزلت في قوم من أهل مكة، قالوا: نتربّصُ بمحمد ريب المنون. فإن بدا لنا الرجعة رجعنا إلى قومنا، فأنزل الله تعالى **«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ»** الآية. أي لن تقبل توبتهم وهم مقيمون على الكفر. فسمّاها توبة غير مقبولة لأنه لم يصح من القوم عزم. والله تعالى يقبل التوبة كلها إذا صح العزم* وفي الطبرى: عن قتادة قال في الآية: أولئك أعداء الله اليهود كفروا بالإنجيل و بعيسى، ثم ازدادوا كفراً حتى حضرهم الموت. وقال أبو العالية عن هذه الآية: قال هم اليهود والنصارى والمجوس أصابُوا ذنوباً في كفرهم، فأرادوا أن يتوبوا منها، ولن يتوبوا من الكفر ألا ترى أنه يقول: **«وأولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ»** وأولى الأقوال في تأويل الآية قول من قال عنى بها اليهود كما ذكره الطبرى في تفسيره، وسنده في ذلك أن الآيات قبلها وما بعدها فيهم نزلت فأولى أن تكون هي في معنى ما قبلها و بعدها لأنها سياق واحد* والخازن: وقيل نزلت في جميع الكفار، وذلك أنهم أشركوا بالله بعد اقرارهم بأنَّ الله خالقهم، ثم ازدادوا كفراً يعنى بإقامتهم على كفرهم حتى هلكوا عليه، وقيل زيادة كفرهم هو قولهم: نتربص بمحمد ريب المنون. وقيل نزلت في أحد عشر رجلاً من أصحاب الحارث بن سويد الذين ارتدوا عن الإسلام، فلمَّا رجع الحارث إلى الإسلام أقامُوا على كفرهم بمكة. وقالوا: نقيم على الكفر ما بدا لنا. ومتى أردنا الرجعة ينزل فينا مثل ما نزل في الحارث، فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة، فمن دخل منهم في الإسلام قبلت توبته، ونزل فيمن مات منهم على كفره: **«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وهُمْ كُفَّارٌ»**.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لبنى اسْرائيلَ إلاَّ ما حَرَّمَ إسْرَائيلُ على نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أنْ تُنَزَّلَ التَوْراةُ قُلْ فَأتُوا بالتَوْراةِ فَاتْلُوهَا إن كُنْتُم صادِقِينَ»

سورة آل عمران (الآية: ٩٣)

في الواحدي: قال الكلبيُّ: نزلت حين قال النبي صلى الله عليه وسلم إنه على ملة إبراهيم، فقالت اليهود: كيف تأكل لحوم الإبل وألبانها؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نُحلُّهُ. فقالت اليهود: كل شيء أصبحنا اليوم نحرمه فإنه كان على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا. فأنزل الله عز وجل تكذيباً لهم **«كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لبنى اسْرائيلَ..»** الآية* وفي الخطيب: فقالوا: كل ما نحرمه اليوم كان حراماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا فنزل **«كُلُّ الطَّعام..»*** وفي الطبرى: عن ابن عباس، أن عصابة من اليهود حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا أبا القاسم أخبرنا أي الطعام حرّم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنشدكم بالذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون إسرائيل ـ أي يعقوب ـ مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من سقمه ليحرّمنَّ أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحمان الإبل، وأحب الشراب إليه ألبانها؟ فقالوا: نعم، قال الطبرى فكان ذلك من أعظم الحجة عليهم بأنه نبي الله صلى الله عليه وسلم إليهم، لأن ذلك من أخبار أوائلهم الذي خفي علمه عليهم، ولا يعمله إلاَّ الخاصة منهم. فحينما أعلمه الله بذلك أفحمهم، وأقام عليهم الحجة البالغة بأنه نبيُّ مرسل إليهم ولغيرهم من الناس كافة* قوله: **«كَانَ حِلاًّ»** الحلّ في اللغة: الحلال كما أن الحرم لغة: الحرام أي كل أنواع المطعومات كان حلالاً أكلها **«لبنى اسْرائيلَ»** أي لبنى يعقوب عليه السلام **«إلاَّ ما حَرَّمَ إسْرَائيلُ»** يعقوب **«على نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أنْ تُنَزَّلَ التَوْراةُ»** أي ليس الأمر على ما قالوه من حرمة لحوم الإبل وألبانها على إبراهيم. بل كان الكل حلالاً له، ولبنى إسرائيل، وإنما حرّمها إسرائيل على نفسه قبل نزول التوراة، فليس في التوراة حرمتها، واختلفُوا في الطعام الذي حرّمه إسرائيل على نفسه وفي سببه فقال مقاتل والكلبي: كان ذلك الطعام الإبل وألبانها، وسبب ذلك أنَّه مرض

مرضاً شديداً وطال سقمه فنذر لئن عافاه الله من سقمه ليحرمنَّ أحبّ الطعام والشراب إليه، وكان ذلك أحب إليه فحرّمه* وقال ابن عباس والضحاك: هى العروق، وسبب ذلك أنَّه اشتكى عرق النَّسا (عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذ، وكان أصل وجعه) أنه كان نذر إن وهبه الله اثنى عشر ولداً، وأتى بيت المقدس صحيحاً أن يذبح آخرهم، فتلقاه ملك من الملائكة فقال: يا يعقوب إنك رجل قويٌّ فهل لك في الصراع. فعالجه فلم يصرع واحد منهما صاحبه، فغمزه الملك غمزة فعرض له عرق النَّسا، ثم قال له: أما إنى لو شئت أن أصرعك لفعلت، ولكن غمزتك هذه الغمزة لأنك كنت نذرت إن أتيت بيت المقدس صحيحاً ذبحت ولدك، فجعل الله لك بهذه الغمزة من ذلك مخرجاً. فكان لا ينام بالليل من الوجع، فحلف يعقوب لئن عافاه الله تعالى ألا يأكل عرقاً ولا طعاماً فيه عرق فحرمه على نفسه، وكان بنوه بعد ذلك يتتبَعُون العروق يخرجونها من اللحم* وقال ابن عباس: لمَّا أصاب يعقوب عرق النسا، وصف له الأطباء أن يجتنب لحمان الابل فحرمها يعقوب على نفسه، ثم اختلفوا في حالة هذا الطعام المحرّم على بنى إسرائيل بعد نزول التوراة. فقال السديُّ: حرّم الله عليهم في التوراة ما كان يحرمونه قبل نزولها* وقال الضحاك: لم يكن شيء من ذلك حراماً عليهم وإنما حرموا على أنفسهم اتباعاً لأ بيهم، ثم أضافوا تحريمه إلى الله عزّ وجل، وأكذبهم الله تعالى فقال: «**قُلْ**» لهم: يا محمد «**فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا**» ليتبين صدق قولكم «**إِن كُنتُم صادِقِينَ**» فيه، فبهتُوا ولم يأتوا بها* وبان كذبهم فيما ادعوا من حرمة هذه الأشياء على إبراهيم عليه السلام وعرق النَّسا: بفتح النون والقصر. ودواؤه ما ذكره القرطبي: ونصه: وأخرج الثعلبي في تفسيره من حديث أنس بن مالك قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم في عرق النسا (تُؤخذ ألية كبش عربيّ لا صغير ولا كبير، فتقطع قطعاً صغاراً، وتُسلى على النار، و يؤخذ دهنها، فيجعل ثلاثة أقسام يشرب المريض بذلك الدواء على الريق كل يوم ثلثاً) قال أنس فوصفته لأكثر من مائة كلهم يبرأ بإذن الله تعالى* وفي ابن كثير: قال ابن عبّاس: حضرت عصابة من اليهود نبى الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: حدثنا عن خلال نسألك عنهنَّ لا يعلمهنَّ إلاَّ نبى، قال: سلونى عما شئتم، ولكن اجعلوا لى ذمة الله، وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم شيئاً فعرفتموه لتتابعنى على الإسلام؟ قالوا: فذلك لك. قالوا: أخبرنا عن أربع خلال، أخبرنا أيُّ الطعام حرّم إسرائيل على نفسه؟ وكيف ماء المرأة

وماء الرجل؟ وكيف يكون الذكر منه والأنثى؟ وأخبرنا بهذا النبيُّ الأميَّ في النوم، ومن وليه من الملائكة؟ فأخذ عليهم العهد لئن أخبرهم ليتابعنَّه، فقال: أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل مرض شديداً، وطال سقمه، فنذر لله نذراً لئن شفاهُ الله من سقمه ليحرمنَّ أحبّ الطعام والشراب إليه، وكان أحبّ الطعام إليه لحم الإبل، وأحبّ الشراب، إليه ألبانها؟ فقالوا: اللهم، نعم، فقال: اللهمَّ اشهدْ عليهم. وقال: انشدكم بالله الذى لا إله إلاَّ هو الذي أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماءالرجل أبيض غليظ. وماء المرأة أصفر رقيق، فأيُّهما علا كان له الولد والشّبه بإذن الله. قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد عليهم قال: وأنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبي الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه. قالوا: اللهم، نعم، قال: اللهم اشهد. قال: وإن وليّ جبريل ولم يبعث الله نبياً قط إلا وهو وليّه. قالوا: فعند ذلك نفارقك، ولو كان وليك غيره لتبعناك. فعند ذلك قال الله تعالى: «**قُلْ مَن كانَ عدوّاً لجبريل..**» الآية. وعن ابن عباس أيضاً قال: أقبلت يهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء، فإن أنبأتنا بهنَّ عرفنا أنك نبي الله. واتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: والله على ما نقول وكيل. قال: هاتوا. قالوا أخبرنا عن علامة النبي؟ قال: تنام عيناه ولا ينام قلبه. قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر؟ قال: يلتقى الماآن فإن علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرة أنثت. قالوا: أخبرنا ما حرّم إسرائيل على نفسه؟ قال: كان يشتكي عرق النّسا، فلم يجد شيئاً يلائمه إلاَّ ألبان كذا وكذا. قال أحمد: قال بعضهم يعنى الإبل (فحرم لحومها) قالوا: صدقت. قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيده (أو في يده) مخراق من نار يزجر به السّحاب يسوقه حيث أمره الله عز وجل. قالُوا: فما هذا الصوت الذي يسمع؟ قال: صوته قالوا: صدقت، إنما بقيت واحدة وهي التي نتبعك إن أخبرتنا بها: إنه ليس من نبيّ إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا من صاحبك؟ قال: جبريل عليه السلام. قالوا: جبريل ذاك ينزل بالحرب والقتال والعذاب، عدوُّنا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والقطر لكان، فأنزل الله تعالى «**قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لجبريلَ فإنَّه نَزَّلَهُ على قَلْبِكَ بإذْنِ الله مُصدّقاً لِـمَا بينَ يَدَيْهِ وهُدًى وَبُشْرَى للمُؤمنين**» والآية بعدها. رواهما أحمد. وروى

الأخير الترمذي والنسائي من حديث عبدالله بن الوليد العجلي به نحوه، وقال الترمذي: حسن غريب* وفي الخازن والغرائب: أن اليهود كانُوا يَقُولُونَ بإنكار شرع محمد صلى الله عليه وسلم على إنكار النسخ فأورد عليهم أن الطعام الذي حرمه اسرائيل على نفسه كان حلالاً ثم صار حراماً عليه وعلى أولاده، وهو النسخ، ثم إنَّ اليهود لمَّا توجَّه عليهم هذا السؤال زعموا أن ذلك كان حراماً من لدن آدم، ولم يحدث نسخ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يطالبهم بإحضار التوراة إلزاماً لهم وتفضيحاً، ودلالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بأن يطالبهم بإحضار التوراة إلزاماً لهم وتفضيحاً ودلالة على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لأنه كان أميًّا، فامتنع أن يعرف هذه المسئلة الغامضة من علوم التوراة إلا بخبر من السماء* وثانيهما أن اليهود قالوا له: إنك تدعى أنك على ملة إبراهيم فكيف تأكل لحوم الإبل وألبانها، وتفتى بحلّها مع أنَّ ذلك كان حراماً في دين إبراهيم، فأجيبوا بأن ذلك كان حلالاً لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق و يعقوب إلاَّ أن يعقوب حرّمه على نفسه بسبب من الأسباب. و بقيت تلك الحرمة في أولاده. فأنكروا ذلك فأمروا بالرجوع إلى التوراة، وثالثها لمّا نزل قوله تعالى: «**فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حرّمْنَا عَلَيْهِمْ طيبات أُحلّت هم**» وقوله: «**وعَلى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذى ظُفُرٍ**» إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنَّه إنما حرّم عليهم كثير من الأشياء جزاءً لهم على بغيهم وظلمهم، غاظهم ذلك واشمأزوا وامتنعوا من قبل أن ذلك يقتضى وقوع النّسخ ومن قبل أنَّه تسجيل عليهم بالبغى والظلم وغير ذلك من مساويهم، فقالوا: لسنا بأوّل من حرّمت هي عليه، وما هو إلا تحريم قديم، فنزلت «**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاً لبنى اسْرائيلَ**» كذا في الغرائب.

والخلاصة : إن محمداً صلوات الله وسلامه عليه على دين إبراهيم في جزئيات الأحكام وكلياتها، فأحلّ ما أحلّه الله من أكل لحوم الإبل وألبانها، ودعا إلى التوحيد والبراءة من كل معبود سوى الله وما كان إبراهيم صلوات الله عليه إلاَّ على هذا الدين.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ»

سورة آل عمران (الآية: ٩٦، ٩٧)

في الواحدى والخازن : تفاخر المسلمون واليهود، فقالت اليهود، بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء، وفي الأرض المقدّسة وأرض المحشر، وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الخازن: وقيل لمّا ادعت اليهود والنصارى أنهم على ملة إبراهيم أكذبهم الله تعالى وأخبرهم أنَّ إبراهيم كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين. وأمرهم باتباعه فقال تعالى: في الآية المتقدمة **«فاتَّبِعُوا مِلَّةَ إبراهيم حنيفاً»** وكان من أعظم شعائر ملّة إبراهيم الحج إلى الكعبة، ذكر في هذه الآية فضلية البيت ليفرّع عليها إيجاب الحج* وفي الغرائب قال مجاهد **«إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ»** هو جواب عن شبهة أخرى لليهود. وذلك أنهم قالوا: بيت المقدس أفضل من الكعبة لأنه مهاجر الأنبياء وأرض المحشر، وقبلة الأنبياء، فكان تحول القبلة منه إلى الكعبة كالطعن في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم* أي فأنزل الله الآية تكذيباً لهم، وبياناً لأفضلية بيت الله الحرام على بيت المقدس، وقوله تعالى: **«إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ»** اختلف العلماء في معنى الأوّلية على قولين:

الأول : أنه أوّل في بنائه، ووضعه جميعاً، روى الواحدى رحمه الله في البسيط بإسناده عن مجاهد أنه قال: خلق الله هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً في الأرضين* وفي رواية أخرى خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين بألفى سنة، وإنَّ قواعده لفى الأرض السابعة السفلى* وروى أيضاً عن محمد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب عن آبائه قال: إنَّ الله بعث ملائكة فقال ابنوا لى في الأرض بيتاً على مثال البيت المعمور، وأمر الله تعالى من في الأرض أن يطوفوا به كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور، وهذا كان قبل خلق آدم* وقد ورد في سائر كتب التفسير عن عبدالله بن عمر ومجاهد والسدّى أنَّ أوّل بيت ظهر على وجه الماء عند خلق الأرض والسماء، وقد خلقه

الله قبل الأرض بألفي عام. وكان زبدة بيضاء على الماء، ثم دحيت الأرض من تحته* وعن الزهري قال: بلغني أنهم وجدوا في مقام إبراهيم ثلاثة صفوح في كل صفح منها كتاب: في الصفح الأول أنا الله ذو بكّة وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر، وحففتها بسبعة أملاك حنفاء، وباركت لأهلها في اللحم واللبن* وفي الثاني: أنا الله ذو بكة، خلقت الرحم وشققت لها إسماً من اسمى من وصلها وصلته ومن قطعها قطعته* وفي الثالث: أنا الله ذو بكة خلقت الجنَّ والإنس فطوبى لمن كان الخير على يديه، وويل لمن كان الشرُّ على يديه.

وقد يستدل على صحة هذا القول بما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال يوم فتح مكة: [ألا إن الله قد حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض] وتحريم مكة لا يمكن إلا بعد وجودها، ولأنه تعالى سمّاها أم القرى، وهذا يقتضى سبقها على سائر البقاع، ولأن تكليف الصلاة كان ثابتاً في أديان جميع الأنبياء، وأيضاً قال تعالى في سورة مريم: «**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النبيينَ مِنْ ذرية آدم**» إلى قوله: «**خَرُّوا سُجَّداً..**» والسجدة لا بدَّ لها من قبلة، فلو كانت قبلتهم غير الكعبة لم تكن هى أوّل بيت وضع للناس، هذا محال خلف.

القول الثاني : روى أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أول بيت وضع للناس: فقال: [المسجد الحرام، ثم بيتُ المقدس] فسئل كم بينهما؟ قال: [أربعون سنة] وعن عليّ أن رجلاً قال له: هو أوّل بيت؟ قال: لا قد كان قبله بيوت. ولكنّه أول بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة.(*)

وقوله تعالى: «**لَلَّذِى بِبَكَّةَ**» أي للبيت الذي في مكة. وردت بالباء لغة في مكة. أي تقلب الميم باء، وسميت مكّة لأنها قليلة الماء، تقول العرب: ملّ الفصيل ضرع أمه وأمكّهُ إذا امتص كل ما فيه من اللبن. وقيل إنها تمك الذنوب. كذا في الخازن. وفي الخطيب: سميت بذلك لأنها تبك أعناق الجبابرة. أي تدقها، فلم يرمها جبّار بسوء إلا وقصمه الله، وتدعى أم رحم لأن الرحمة تنزل بها «**مُبَارَكاً**» أي ذو بركة، فهو كثير الخير والنفع لمن صحبه واعتمره واعتكف عنده، أو طاف حوله أذ يكثر ثوابه وتكفّر ذنوبه، روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [صلاة في مسجدى هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلاَّ المسجد الحرام]

«**وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ**» أي قبلة ومتعبد المؤمنين، وقيل لأن فيه دلالة على وجود الصّانع المختار لما فيه من الآيات التي لا يقدر عليها غيره، وقيل هو هدى للعالمين إلى الجنة لأن من قصده بأن صلى إليه أو حجّه فقد أوجب الله تعالى له الجنّة برحمته، وقوله تعالى: «**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ**» ترى بالأنظار للدلالة على حرمته ومزيد فضله من هذه الآيات انحراف الطيور عن موازاة البيت على مدى الأعصار فلا تعلو فوقه لا بالليل ولا بالنهار، ومنها أن ضوارى السباع تخالط الطيور في الحرم ولا تتعرّض لها، وإذا قصدت الجارحة صيداً فدخلت الحرم كفّت عنه. وأنه بادٍ صار إليه الأنبياء والمرسلون والأولياء والأبرار والصالحون ...الخ. ما تقدم من فضله وقوله: « **مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ**» مبتدأ خبره محذوف أي منها مقام إبراهيم، أو خبر مبتدأ محذوف أي إحداها، أو بدل من آيات بدل بعض من كل. وهو الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وكان أثر قدمه فيه. فاندرس من كثرة المسح بالأيدى، ولعلّ الذي اندرس بعضه، قال الخطيب: فإني رأيت أثر القدمين فيه* إن أثر القدم في الصخرة الصّماء آية. وغوصه فيها إلى الكعبين آية، وإلانة بعض الصخر دون بعض آية، وإبقاء هذا الأثر دون آثار سائر الأنبياء آية لإبراهيم خاصة. وحفظه مع كثرة أعدائه من المشركين. وأهل الكتاب والملاحدة ألوفاً من السنين آية. وكذا في الغرائب* وفي السمين: وقال ابن عطية والراجح عندى أنَّ المقام، وأمن الداخلين جُعلا مثالاً لما في حرم الله تعالى من الآيات وخصا بالذكر لعظمهما، وأنهما تقوم بهما الحجة على الكفار إذ هم مدركون لهاتين الآيتين بحواسّهم، وقوله: «**وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً**» أي ومن الآيات أنْ من دخله أمن على نفسه ما دام فيه. قلت: ومنها آيات: الصفا، والمروة والركن والحطيم وزمزم والمشاعر كلها. ومنها إذا كان الغيث من ناحية الركن اليمانى كان الخصب باليمن، وإذا كان بناحية الشامى كان الخصب بالشام، وإذا عمّ البيت كان الخصب في جميع البلدان* وفي الطبرى: في قوله: «**وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً**» قال قتادة: وهذا كان في الجاهلية كان الرجل لو جرّ كل جريرة على نفسه ثم لجأ إلى حرم الله لم يتناول، ولم يطلب، فأمّا في الإسلام فلا يمنع من حدود الله. مَنْ سرق فيه قُطع، ومن زنى فيه أقيم عليه الحد. ومن قتل فيه قُتل* وعن قتادة: أن الحسن كان يقول: إن الحرم لا يمنع من حدود الله، لو أصاب حداً في غير الحرم فلجأ إلى الحرم لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد. وقال مجاهد: في الرجل الذي يقتل ثم يدخل الحرم. قال: يؤخذ

فيخرج من الحرم. ثم يقام عليه الحدّ. يقول القتل. فيكون الأمن في الآية بناء على هذه الأقوال مخصوصاً في الجاهلية. فقد كان الحرم مفزع كل خائف، وملجأ كل جان لأنه لم يكن يهاج به ذو جريرة، ولا يعرض الرجل فيه لقاتل أبيه وابنه بسوء. وروى أن ابن الزبير قد أخرج من لجأ من العيون إليهم، فصلبهم بعد أن نهاهُ ابن عباس عن ذلك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: من أحدث حدثاً ثم استجار بالبيت فهو آمن، ليس للمسلمين أن يعاقبوه على شيء إلى أن يخرج، فاذا خرج أقاموا عليه الحدّ. وقال ابن عمر: لو وجدت قاتل عمر في الحرم ما هجتُه* وحدَّث الليث عن عطاء أن الوليد بن عتبة أراد أن يقيم الحدّ في الحرم، فقال له: عبيد عمير لا تقم عليه الحدّ في الحرم إلا أنَّ يكون أصابه فيه* وقال عامر: إذا أصاب الحدَّ ثم هرب إلى الحرم فقد أمن، فإذا أصابه في الحرم أقيم عليه في الحرم* وحدّث مجاهد عن ابن عباس قال: إذا أصاب الرجل الحدّ، قَتَلَ أو سَرَقَ فدخل الحرم، لم يبايع ولم يؤو حتى يخرج من الحرم فيقام عليه الحدّ* وهذا ما أخذ به أبو حنيفة رضي الله عنه* قال الطبرى: وأولى الأقوال عندنا بالصواب قول ابن الزبير ومجاهد والحسن ومَنْ قال معنى ذلك ومَنْ دخله من غيره فمن لجأ إليه عائذاً به كان آمناً ما كان فيه، ولكنه يخرج منه فيقام عليه الحدّ إن كان أصاب ما يستوجبه في غيره ثم لجأ إليه، وإن كان أصاب فيه أقيم عليه فيه، فتأويل الآية إذاً «**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إبْرَاهِيمَ**» ومن يدخله من الناس مستجيراً به يكن آمناً ممَّا استجَار منه ما كان فيه حتى يخرج منه* قلت: وجمهور العلماء على أن الحدود تقام في الحرم، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتل ابن خَطَل وهو معلّقٌ بأستار الكعبة. وقيل المراد «**وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً**» أي من النار.(*)

قال الله تعالى: «**فليبعْبُدوا ربَّ هَذا الْبَيْتِ* الَّذِى أطعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وآمَنَهُمْ مِنْ خوْفٍ**» «**أوَلَمْ يَرَوْا أنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً و يتخطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ**» وحتى إنه من جملة تحريمها حرمة اصطياد صيدها، وتنفيره عن أوكاره، وحرمة قطع شجرها وقلع حشيشها، وفي حديث فتح مكة [لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقط لقطته إلاَّ مَنْ عرّفها، ولا يختلى خلاها] فقال العباس: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال: [إلاّ الأذخر] وروى مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [لا يحلُّ لأحدٍ أن يحملَ السلاح بمكة] وقال يحى بن بن جعدة بن هبيرة، في قوله

تعالى: «**وَمَنْ دَخَلَهُ كانَ آمِناً**» قال: آمناً من النار. وقوله تعالى: «**وَللهِ عَلى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً**» هذه آية وجوب الحج عند الجمهور، وقيل بل هي قوله: «**وأتمُّوا الحَجَّ والْعُمْرَةَ للهِ**» والأول أظهر. والمعنى: ولله على من استطاع من الناس حجّ البيت، ويجوز أن ينوى الاستئناف بمن والخبر أو الجزاء محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: من استطاع إليه سبيلاً فالله عليه حجّ البيت. هذا قول الفراء، وقال ابن الأنبارى: يحتمل أن يكون محلّه رفعاً على البيان كأنه قيل من الناس الذين عليهم لله حجّ البيت؟ فقيل: هم من استطاع. والضمير في إليه. للبيت أو الحج. واستطاعة السبيل إلى الشيء هي إمكان الوصول إليه، واحتج أصحاب الشافعي بالآية على أن الكفار مخاطبون بفروع الشرائع لأن الناس يعم المؤمن والكافر، وعدم الإيمان لا يصلح أن يكون معارضاً ومخصصاً لهذا العموم لأن الدهرى مكَلَّف بالإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم مع أن شرط صحة الإيمان غير حاصل. والمحدث مكلف بالصلاة مع أن الوضوء الذي هو شرط صحة الصلاة ليس بحاصل. واعلم أن الحج ركن من أركان الإسلام لا يجب بأصل الشرع في العمر إلاَّ مرة واحدة لما روى عن ابن عباس قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [يا أيّها الناسُ إنَّ الله كتب عليكم الحجَّ. فقام الأقرع بن حابس فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: لو قلتها لوجبت، ولو وجبت لم تعملوا بها، الحجُّ مرة فمن زاد فتطوع] وقد يجب أكثر من مرة واحدة لعارض كالنذر والقضاء.

((ما هي الشروط التى يصح بها الحج ؟))

لصحة الحج على الاطلاق شرط واحد، وهو الإسلام، فلا يصح حج الكافر كصومه وصلاته، ولا يشترط فيها التكليف بل يجوز للوليّ أن يحرم عن المجنون وعن الصبىّ الذي لا يميز، وحينئذ يصح حجهما لما روى عن ابن عباس أن النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّ بامرأة وهي فى محفتها فأخذت بعضد صبىّ كان معها فقالت: آلهذا حجٌّ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نعم، ولك أجر] وعن جابر قال: حججنا مع النبىّ صلى الله عليه وسلم، ومعنا النّساء والصبيان، فلبيْنا عن الصبيان، ورمينا عنهم* ولصحة المباشرة شرط زائد على الإسلام. وهو التمييز، فلا تصح مباشرة الحج من المجنون والصّبىّ الذى لا يميز كسائر العبادات، و يصح من الصبىّ المميز أن يحرم ويحجَّ بإذن الولى، ولا يشترط فيها الحرية كسائر العبادات* ولوقوعه عن حجّة الإسلام شرطان زائدان: البلوغ والحريّة لقوله صلى الله عليه وسلم : [أيُّما صبىّ حجَّ ثم بلغ فعليه حجّة الإسلام، وأيما عبد حجّ ثم عتق فعليه حجّة الإسلام] والمعنى فيه أن الحج عبادة عُمُرٍ لا تتكرّر، فاعتبر وقوعها في حالة الكمال، ولأن التكليف تابع للتميز، فشرط هذا الحكم إذن يعود إلى ثلاثة: الإسلام والتّكليف والحريّة. ولو تكلف الفقير الحج وقع حج الإسلام شرط زائد على الثلاثة المذكورة آنفاً وهو الاستطاعة بالآية: والاستطاعة نوعان: استطاعة مباشرته بنفسه، واستطاعة تحصيله بغيره: النوع الأوّل. يتعلّق به أمور أربعة: أحدهما. الراحلة، والناس قسمان: أحدهما من بينه و بين مكة مسافة القصر، فلا يلزمه الحج إلاّ إذا وجد راحلة سواء كان قادراً على المشي، أو لم يكن لما روى أنه صلى الله عليه وسلم فسّر استطاعة السبيل إلى الحج بوجود الزاد والراحلة* نعم لو كان قادراً على المشي يستحب له أن لا يترك الحجّ. وعند مالك القوى على المشي يلزمه الحجُّ، و يعتبر مع وجدان الراحلة وجدان المحمل أيضاً إن كان لا يستمسك على الراحلة، و يلحقه مشقّة شديدة، ثم العادة جارية بركوب اثنين في المحمل، فإن وجد مؤنة محمل أو شق محمل، و وجد شريكاً يجلس في الجانب الآخر لزمه الحج، وإذ لم يجد الشريك فلا، القسم الثاني: من ليس بينه و بين مكّة مسافة القصر، فإن كان قو ياً على المشى لزمه الحجُّ، وإلاّ فلا يجب إلاّ مع الراحلة، أو معها ومع المحمل، كما فى حقّ البعيد، والمراد بوجود الراحلة أن يقدر على تحصيلها ملكاً أو استئجاراً بثمن المثل، أو بأجرة المثل وكذا في المحمل. المتعلّق الثاني. الزاد وأوعيتُه، وما

يحتاج إليه في السفر مدّة ذهابه وإيابه سواء كان لَهُ أهل أو عشيرة يرجع إليهم أولا، فحب الوطن من الإيمان، وكذا الراحلة للإياب وأجرة البذرقة. كل ذلك بعد قضاء الديون جميعها، وردّ الودائع ونفقة من يلزمه نفقتهم حينئذ إلى العود، و بعد مؤن النكاح إن خاف العنت و بعد مسكنه، ودَسْتُ ثوب يليقُ به، وخادم يحتاج إليه لزمانته أو لمنصبه، ولو كان له رأس مال يتجر فيه و ينفق من ربحه ولو نقص لبطلت تجارته، أو كان له مستغلات يرتفق منها نفقته فالأصح عند الأئمة أنه يكلف بيعها لأنه واجد للزاد والراحلة في الحال، ولا عبرة لخوف الفقر في الاستقبال. المتعلّق الثالث: الطريق و يشترط فيه غلبة ظنّ الأمن على النفس من نحو سَبُعٍ وعدو، والأمن على المال من عدوّ أو رصديّ وإن رضى بشيء يسير، والأمن على البضع للمرأة بخروج زوج أو محرم أو نسوة ثقات، وفى البحر يعتبر غلبة السلامة. وفى البرّ وجود علف الدّابه* المتعلّق الرابع. البدن و يشترط فيه أن يقوى على الاستمساك على الرّاحلة فإن ضعف عن ذلك لمرض أو غيره فهو غير مستطيع للمباشرة، ولا بدّ للأعمى من قائد، وعند أبى حنيفة لا حجّ عليه، و يروى أنّه يستنيب. قال الأئمة: لا بد مع الشرائط من إمكان المسير، وهو أن يبقى من الزمان بعد الاستطاعة ما يمكنه المسير فيه إلى الحجّ به: السير المعهود، فإن احتاج إلى أن يقطع في يوم مرحلتين أو أكثر لم يلزمه الحجّ، ولو خرجت الرفقة قبل الوقت الذى جرت عادة أهل بلده بالخروج فيه لم يلزمه الخروج معهم ووجوب الحج في العمرُ مرة كالصلاة فى وقتها، فيجوز التراخى، لكنه إن دامت الاستطاعة وتحقق الإمكان، ولم يحج حتى مات عصى الله على الأظهر، وإن كان شاباً. وقال أحمد ومالك وأبوحنيفة في رواية أنّه على الفور حجّة الشافعى أن فريضة الحج نزلت سنة خمس من الهجرة وأخّره النبىّ صلى الله عليه وسلم من غير مانع، فإنه خرج سنة سبع لقضاء العمرة ولم يحجّ، وفتح مكّة سنة ثمان و بعث أبا بكر أميراً على الحاج سنة تسع، وحجَّ هو سنة عشر، وعاش بعدها ثمانين يوماً. وأما النوع الثانى. فهو عن الإستنابة لأنَّ المحجوج عنه قد يكون عاجزاً عن المباشرة بسبب الموت، أو الكبر أو زمانة أو مرض لا يرجى زواله، وعن ابن عباس أن رجلاً جاء إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله: إن أختى نذرت أن تحجّ وماتت قبل أن تحجّ أفأحجُّ عنها؟ فقال: [لَوْ كان على أختِكَ دَيْنٌ أكُنْتَ قاضيه؟] قال: «نعم» وقد تكون الإستنابة بطريق الاستئجار لأنه عمل يدخله النيابة، فيجرى فيه الإستئجار كتفريق الزكاة، وعند

أبى حنيفة وأحمد لا يجوز، ولكن يرزق عليه، ولو استأجر كان ثواب النفقة للآمر، وسقط عنه الخطاب بالحج، و يقع الحج عن الحاجّ، والحجُّ بالرزق أن يقول حجّ عنى وأعطيك نفقتك، وهذا أيضاً جائز عند الشافعى كالإجارة، ولكن لا يجوز أن يقول استأجرتك بالنفقة لأنها مجهولة، والأجرة لا بد أن تكون معلومة* وقوله: «وَمنْ كَفَرَ فإن الله غنىٌّ عَنِ الْعَالمينَ» أى الإنس والجنّ والملائكة وعن عبادتهم، يعنى ومن جحد ما ألزمه الله من فرض حج بيته وكفر به، فإن الله غنىٌّ عنه وعن حجه وعمله وجميع خلقه. وقيل: نزلت فيمن وجد ما يحجُّ ولم يحجّ فهو كفر به لما روى عن علىّ بن أبى طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيْت الله ولم يحج، فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً، وذلك أن الله تعالى يقول: «ولله على النّاس حجُّ البيْت من اسْتَطاعَ إليه سبيلاً» أخرجه الترمذى وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وفى اسناده مقال. وقيل: نزلت فى اليهود وغيرهم من أصحاب الملل حيث قالوا: إنا مسلمون فنزلت: «ولله عَلى النّاسِ حجُّ البيْت» فلم يحجُّوا، وقالوا الحج إلى مكّة غير واجب وكفروا به، فنزلت: «وَمَنْ كَفَرَ فإنّ الله غنىٌّ عن العالمين» والله أعلم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الّذينَ آمنُوا إنْ تُطيعُوا فَريقاً مِنَ الّذِينَ أوتُوا الْكِتابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إيمَانِكُمْ كافِرينَ* وَكيْفَ تكفُرُونَ وأنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ الله وَفيكُم رَسُولُهُ وَمَنْ يعْتَصِمْ بالله فَقَدْ هُدِيَ إلىَ صِراطٍ مُسْتَقيم* يا أيُّها الْذِينَ آمَنُوا اتّقُوا الله حَقّ تُقَاتِهِ ولاَ تَمُوتُنّ إلاّوأنْتُمْ مُسْلِمُونَ* واعْتَصِمُوا بحَبْلِ الله جَميعاً ولاَ تفرّقُوا واذكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إذ كُنْتُمْ أعْدَاءً فَألّفَ بَيْنَ قُلُوبكُمْ فَأصْبَحْتُمْ بنِعْمَتِهِ إخواناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذلِكَ يُبيّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ* وَلْتكُنْ مِنكُمْ أُمّةٌ يَدْعُونَ إلَى الْخيْرِ و يأمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ ويَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ وأولئِكَ هُمُ الْمُفلِحونَ* ولاَ تَكُونُوا كالّذِينَ تَفرّقُوا

واخْتَلَفُوا مِنْ بعْدِ مٰا جاءَهُمْ البيّناتُ وأولئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظيمٌ»
سورة آل عمران (الآية: ١٠٠ ـ ١٠٥)

فى الواحدى: قال عكرمة: كان بين هذين الحيين من الأوس والخزرج قتال فى الجاهلية، فلما جاء الإسلام اصْطلحُوا وألّفَ الله بين قلوبهم، وجلس يهودى في مجلس فيه نفر من الأوس والخزرج، فأنشد شعراً قاله أحد الحييْن فى حربهم، فكأنهم دخلهم من ذلك، فقال الحيُّ الآخرون: وقد قال شاعرنا فى يوم كذا كذا كذا، فقال الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا كذا وكذا، فقالوا: تعالوا نرد الحرب جذعاً كما كانت، فنادى هؤلاء: يا آل أوس، ونادى هؤلاء: يا آل خزرج، فاجتمعوا وأخذوا السلاح، واصطفوا للقتال، فنزلت هذه الآية، فجاء النبىُّ صلى الله عليه وسلم حتى قام بين الصفين فقرأها ورفع صوته، فلما سمعوا صوته أنصتوا وجعلوا يستمعون، فلما فرغ ألقوا السلاح، وعانق بعضهم بعضاً، وجعلوا يبكون، قال جابر بن عبدالله: ما كان طالع أكره إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما رأيت و يوماً أقبح ولا أوحش أوّلاه، وأحسن آخراه من ذلك اليوم* وفى الخطيب: ولمّا مرّ شاس بن قيس اليهودى، وكان شيخاً عظيم الكفر، شديد الطعن على المسلمين، شديد الحسد لهم. على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مسجد لهم يتحدّثون، فغاظه ذلك حيث تآلفُوا، واجتمعوا بعد الذى كان بينهم في الجاهلية من العداوة. وقال: مالنا معهم إذا اجتمعوا من قرار، فأمر شاباً من اليهود أن يجلس إليهم، و يذكرهم يوم بعاث ــ وهو موضع بالمدينة ــ و ينشدهم بعض ما قيل فيه من الأشعار، وكان يوماً اقتلت فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس، ففعل، فتنازع القوم عند ذلك وتفاخروا وتغاضبوا وقالوا: السّلاح السّلاح، فبلغ ذلك النبىّ صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار، فقال: [أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن أكرمكم الله ُبالإسلام، وقطع به عنكم أمر الجاهليّة، وألّفَ بينكم] فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكيدهم من عدوهم، فألقوا السّلاح و بكوا، وعانق بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين. نزل: **«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا إن تُطيْعوا فريقاً مِنَ الّذِينَ أوتُوا الْكِتَاب»** أى شاساً وأصحابه:... وفى الطبرى: عن السّدى قال: نزلت فى ثعلبة بن غنمة الأنصارى.

كـان بـيـنـه و بين أنـاس من الأنصار كلام، فمشى بينهم يهودى من قينقاع فحمل بعضهم على بعـض حتى همّت الطائفتان من الأوس والخزرج أن يحملوا السّلاح، فيقاتلوا فأنزل الله عز وجلّ: «**إن تُطيعُوا فـريقـاً من الّذِينَ أوتُوا الكتاب يردُّوكُمْ بَعْدَ إيمانِكُمْ كَافِرِينَ..**» يقول: إن حملتمُ السّلاح فاقتتلتم كفرتم* وعن مجاهد: قال: كان جماع قبائل الأنـصار بطـنين: الأوس والخـزرج. وكـان بينهما في الجاهلية حروب ودماء، وشنآن ــ تبـاغض ــ حتى منّ الله عليهم بالإسلام و بالنبىّ صلى الله عليه وسلم، فأطفأ الله الحرب التى كـانـت بينهم، وألّفَ الله بينهـم بـالإسلام، قال: فبينما رجل من الأوس والخزرج قـاعـدان يتـحـدّثان ومعهما يهودىّ جالس.. الخ ... ما تقدم حتى قوله: وضعوا السّلاح، فأنـزل الله عزّ وجلّ القرآن في ذلك: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا إنْ تُطيعُوا فريقاً مِنَ الّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ**» إلى قوله: «**عذاب عَظِيمٌ**» كذا فى الطبرى. وكذا فى بقية التفاسير. لـكـن في ابـن كثير. وذكر عكرمة أن ذلك نزل فيهم حين تشاوروا في قضية الإفك. والله أعلم. وقوله: «**يَرِدُّوكُم بَعْدَ إيمانِكُمْ كَافِرِينَ**» تقدم قول جابر رضى الله عنه: ما رأيت يوماً أقبح أوّلاً ولا أحْسَن آخرا مثل ذلك اليوم. ثم قال تعالى على وجه التعجّب والانكار والتـوبيـخ: «**وكَيْفَ تكْفُرُونَ**» أى ولم تكفُرُون، وعبارة أبى السعود فى توجيه الانكار والاستبعاد إلى كيفية الكفر مبالغة، لأن كل موجود لا بد أن يكون وجوده على حال من الأحوال، فإذا أنكر ونفى جميع أحوال وجوده، انتفى وجوده بالكلية على الطريق البرهانى* والمعنى: مـن أيـن يـدخل إلى قلوبكم الكفر بعد الايمان والحال أن آيات الله تتلى عليكم على لـسـان الرسول في كل واقعة، ومقيم بين أظهركم يبين لكم ما يشتبه عليكم، و يزيل عـنـكـم كـل علّـة، ومع هذين النورين لا يبقى لظلمة الضلال عين ولا أثر فعليكم أن لا تـلـتفتوا إلى قول المخالف، وترجعوا فيما يعنُّ لكم إلى الكتاب والنبىّ صلى الله عليه وسلم. قـال صـاحـب الـغرائب: أما الكتاب فإنه باق على وجه الدّهر، وأمّا النبىّ صلى الله عليه وسلـم وورثـتـه يـقـومن مقامه بحسب الظاهر أيضاً، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم [إنى تـارك فـيكم الثّقليْن ما إن تمسكتُم بها لن تضلوا: كتابَ الله وعترتى] وقال: [إنّ العلماء ورثـة الأنـبـيـاء] اللـهـم اجعلنا من زمرتهم بعصمتك وهدايتك. وفى هذا بشارة لهذه الأمة أنهـم لا يـضـلـون أبداً إلى يوم القيامة* قلتُ: ما داموا معتصمين بحبل الله وسنّة نبيّه صلى الله عـلـيـه وسـلـم : «**وَمَنْ يَعْتَصِمْ باللهِ**» أى يستمسك بالله أى بحبله وهو القرآن أو ومن

يستمسك بدينه، أو يلتجيء إليه في مجامع أموره: «**فقدْ هُدىَ**» أى فقد حصل له الهدى لا محالة لأن المعتصم بالله متوقع للهدى. كما أنّ قاصد الكريم متوقع للفلاح عنده: «**إلى صراط**» أى إلى طريق: «**مُسْتَقيم**» واضح وهو الحق المؤدى إلى الجنة، وقوله: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله**» لمّا بيّن ضلال الكفار في أنفسهم، وضلالهم لغيرهم شرع في بيان يكمل المؤمنين لأنفسهم بهذه الآية ولغيرهم كما يأتى. وقوله: «**حقّ تُقَاتِهِ**» فسّر ابن عباس: «**حقّ تُقَاتِهِ**» بقوله: (وهو أن يطاع الله فلا يُعصى طرفة عيْن. وأن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا يُنسى) أو هو القيام بالواجبات كلها، والاجتناب عن المحارم بأسرها، وأن لا يأخذه فى الله لومة لائم، و يقوم بالقسط ولو على نفسه. أو الوالدين والأقربين. ولما نزلت: «**اتّقُوا الله حقّ تُقَاتِه**» شقّ ذلك على المسلمين فنزلت: «**فاتَّقُوا الله ما استطعْتُمْ**» والجمهور على أنها غير منسوخة، لأن معنى حقّ تقاته: واجب تقواه. تقاة: مصدر وهو من باب إضافة الصفة إلى موصوفها. إذ الأصل اتقوا الله اتقاء الحق. أى الثابتة كقوله: ضربت زيْداً أشدَّ الضرب، تريد الشديد. أى وكما يحق أن يتقى. وهو أن يجتنب جميع معاصيه، ومثل هذا لا يجوز أن ينسخ، وإلا كان إباحة لبعض المعاصى. وقوله: «**ولاَ تمُوتُنَّ إلاّ وأنْتُمْ مُسْلِمُونَ**» ليس نهياً عن الموت، وإنما هو نهْى عن أن يدركهم الموت على خلاف حال الإسلام. والمراد دوامهم على الإسلام. وذلك أن الموت لا بد منه، فكأنه قيل: داوموا على الإسلام إلى الموت. والجملة في محل نصب على الحال، والاستثناء مفرّغ من الأحوال العامة. أى لا تموتن على حالة من سائر الأحوال إلاّ على هذه الحالة الحسنة، وجاءت الحالة جملة اسمية لأنها أبلغ وآكد. ثم إنه تعالى أمرهم بما هو كالأصل لجميع الخيرات وإصلاح المعاش والمعاد، وهو الاجتماع على التمسك بدين الله، واتفاق الآراء على إعلاء كلمته فقال: «**واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَميعاً**» حال كونكم مجموعين. وقولهم: اعتصمت بحبله، يجوز أن يكون تمثيلاً لاستظهاره به، ووثوقه بعنايته باستمساك المتدلى من مكان مرتفع بحبل وثيق يأمن انقطاعه لأن وجه الشبه وصف غير حقيقي، ومنتزع من عدّة أمور، ويجوز أن يكون الحبل استعارة للعهد والاعت... ووثوقه بالعهد بناء على أن في الكلام تشبيهين، ويجوز أن تفرض الاستعارة فى الحبل فقط، و يكون الاعتصام ترشيحاً لها. والحاصل: أن طريق الحق دقيق والسائر عليه غير مأمون أن تزلّ قدمه عن الجادة، فيراد بالحبل هٰهُنا ما يتوصل به إلى الثبات على الحق، وإن

كانت عبارات المفسرين متخالفة، فعن ابن عباس: هو العهد كما يجيء إلاّ بحبل من الله وحبل من الناس، وقيل: إنه القرآن كما روى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال [أما إنها ستكون فتنة] قيل: فما المخرج منها؟ قال صلى الله عليه وسلم [كتابُ الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبرُما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو حبل الله المتين] وروى ابن مسعود عن النبىّ صلى الله عليه وسلم [هذا القرآن حبل الله] وعن أبى سعيد الخدرى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم إنى تارك فيكم الثّقلْين: كتاب الله حبل متين، ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتى أهل بيتى] وقيل: إنه طاعة الله. وقيل إخلاص التوبة. وقد جرى الجلال على أنه دين الله* أوكتابه لقوله صلى الله عليه وسلم [القرآن حبل الله] رواه الحاكم وصححه. استعار له الحبل من حيث أنّ التمسك به سبب للنجاة عن التردى، كما أن التمسك بالحبل سبب للسلامة عن التردى والاعتصام للوثوق به والاعتماد عليه، ترشيحاً للمجاز* وقوله: «**جميعاً ولا تفرّقُوا**» بعد الإسلام. والعطف للمغايرة لأنه نهى عن التفرّيق فى الابتداء، والحق لا يكون إلا واحداً. وما بعد الحق إلا الضلال. و يد الله مع الجماعة بالنصر والتأييد قال صلى الله عليه وسلم [ستفترق أمّتى على نيف وسبعين فرقة. الناجى منهم واحد] فقيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: [الجماعة] وروى: السّواد الأعظم. وروى [ما أنا عليه وأصحابى] وقال صلى الله عليه وسلم [لا تجتمع أمّتى على الضلالة] ثم إنه تعالى: ذكرهم نعمته عليهم، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية بينهم الإصن والبغضاء والحروب المتطاولة فقال: «**واذْكُرُوا نعمةَ الله عليكم**» يامعشر الأوس والخزرج: «**إذْ كنتُمْ**» قبل الإسلام: «**أعْداءً فألّفَ**» جمع : «**بيْن قلوبِكُمْ**» بالإسلام: «**فأصْبَحْتُمْ**» فصرتم: «**بِنِعِمتِهِ إخْواناً**» متراحمين، متناصحين مجتمعين على أمر واحد، وهو الأخوة فى الله جعلت بينهم رابطة أقوى من رابطة النسب، وقيل: هم الأوس والخزرج كانا أخوين لأب وأمّ، فوقعت بينهما العداوة بسبب قتيل، وتطاولت الحرب والعداوة بينهم مائة وعشرين سنة إلى أن أطفأ الله ذلك بالإسلام، وألف بينهم برسول الله صلى الله عليه وسلم: «**وكُنْتُمْ على شَفَا**» أى طرف فى المصباح: وشفا كل شيء حرفه مثل النوى* وفى السمين. الشفا طرف الشيء وحرفه: «**حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ**» أى حفرة ليس بينكم و بين الوقوع فيها إلاّ أنْ تموتوا كفاراً: «**فأنْقَذَكُمْ منها**» أى من الشفا لأنه المحدث عنه، وتأنيث الضمير لاكتساب

المضاف التأنيث من المضاف إليه. أى بالإسلام : «**كَذَٰلِكَ**» أى مثل ذلك البيان البليغ: «**يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ**» أى دلائله: «**لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ**» إرادة أن تزدادوا هدى: «**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ**» أى إلى الإسلام: «**وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ**» والمعنى: ولتكن منكم أيها المؤمنون أمة أي جماعة يدعون الناس الى الخير أى إلى الإسلام وشرائعه التى شرعها الله لعباده، و يأمرون بالمعروف. أى يأمرون الناس ابتاع محمد صلى الله عليه وسلم ودينه الذى جاء به من عند الله. و ينهون عن المنكر أى و ينهون عن الكفر بالله والتكذيب بمحمد وبما جاء به من عند الله بجهادهم بالأيدى والجوارح حتى ينقادوا لكم بالطاعة : «**أُولَٰئِكَ**» الدّاعون الآمرون الناهون: «**هُمُ الْمُفْلِحُونَ**» الفائزون بكمال الفلاح. روى الإمام أحمد وغيره أنه صلى الله عليه وسلم سئل وهو على المنبر: من خير النّاس؟ قال [آمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأتقاهم لله، وأوصلهم للرحم] وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال [من رأى منكم منكراً فليغيره بيده. فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الايمان] وروى أنّه صلى الله عليه وسلم قال [والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده، ثم لتدعُنَّه فلا يستجاب لكم] رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه من حديث عمرو بن أبى عمروا به، وقال الترمذى: حسن لذا يجب على كل مكلف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إما بيده أو بلسانه أو بقلبه. فعلى هذا يكون معنى الآية كونوا أمة دعاة إلى الخير آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر، ومن قال بهذا القول يقول: إنّ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض كفاية إذا قام به واحد سقط الفرض به عن الباقين. وقيل: إنّ من من قوله: «**منكم**» للتّبعيض، وذلك لأن فى الأمّة من لا يقدر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لعجز أو ضعف، فحسن إدخال لفظ من فى قوله: «**ولتكنْ منكم أمّة يدعون إلى الخير..**» وهم العلماء خاصة وولاة الأمر فعلى هذا يكون المعنى ليكن بعض الأمة القادرين على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أن يقوموا بذلك، و يكون الفلاح حليفهم روى البخارى عن النعمان بن بشير عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال [مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فأصاب بعضهم أعلاها و بعضهم أسفلها، فكان الذى فى اسفلها إذا استقوا من الماء مرّوا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن

تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعاً] وقوله تعالى: «**ولا تكونُوا كالّذِينَ تفَرّقُوا واختلفُوا**» يعني ولا تكونوا يا معشر المؤمنين كالذين تفرقوا يعني أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى فى قول أكثر المفسرين، قال الربيع فى هذه الآية: هم أهل الكتاب نهى الله أهل الإسلام أن يتفرقوا ويختلفوا كما تفرق واختلف أهل الكتاب* وقال ابن عباس: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرعهم إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في الدين* وقال بعضهم: هم المبتدعة من هذه الأمة: «**مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ البيّناتُ**» يعني الحجج الواضحات، فعلموها ثم خالفوها: «**وأولئكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظيمٌ**» يعني لهؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا عذاب عظيم في الآخرة. وفيه زجرعظيم للمؤمنين عن التفرّق والخلاف* عن أبي ذرّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم [من فارق الجماعة شِبْراً فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه] وعن عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [مَنْ سَرَّهُ أن يسكن بحبوحة الجنّة فعليه بالجماعة فإن الشيطان مع الفَذِ، وهو من الإثنين أبعد] ربقة الإسلام: عقد الإسلام. بحبوحة الجنة: وسطها. والفذّ: الواحد.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمّةٍ أُخْرِجَتْ للنّاسِ...» سورة آل عمران (الآية: ١١٠)

في الواحدى : قال عكرمة ومقاتل: نزلت في ابن مسعود وأبيّ بن كعبٍ ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة، وذلك أن مالك بن الصّيْف ووهب بن يهوذا: اليهوديْن قالا لهم: إنَّ ديننا خير ممّا تدعوننا إليه، ونحن خير وأفضل منكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية وقد تقدّم الكلام عنها.

((من هم أهل الْخَيْرِّية ؟))

في القرطبي: قال أبوهريرة رضي الله عنه: نحن خير الناس للناس نسوقهم بالسلاسل إلى الإسلام* وقال ابن عباس: هم الذين هاجروا من مكة إلى المدينة، وشهدو بدراً والحديبية* وقال عمر بن الخطاب: من فعل فعلهم كان مثلهم* وقيل: هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم يعني الصالحين منهم وأهل الفضل، وهم الشهداء على النّاس يوم القيامة ... وقال مجاهد كنتُم خير أمة إذا أمرتُم بالمعروف ونيهتُم عن المنكر* وقد بين

الحديث الشريف أن أول الأمة هي أفضل الأمم فقال عليه الصلاة والسلام: [خيرُ القرون قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم] وقيل: إن قرنه صلى الله عليه وسلم إنما فضّل لأنهم كانُوا غرباء في إيمانهم لكثرة الكفار وصبرهم على أذاهم، وتمسكهم بدينهم، وإن أواخر هذه الأمة إذا أقاموا الدين وتمسّكُوا به، وصبروا على طاعة ربهم في حين ظهور الشرَّ والفسق والهرج والمعاصي والكبائر كانوا عند ذلك أيضاً غرباء، وزكت أعمالهم في ذلك الوقت كما زكت أعمال أوائلهم. ومما يشهد لذلك قوله عليه الصلاة والسلام: [بدأ الدين غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء] وروى أن عمر بن عبدالعزيز لمّا ولى الخلافة كتب إلى سالم بن عبدالله: أن اكتب إليّ بسيرة عمر بن الخطاب لأعمل بها، فكتب إليه سالم: إن عملت بسيرة عمر فأنت أفضل من عمر لأنَّ زمانك ليس كزمان عمر، ولا رجالك كرجال عمر، قال: وكتب إلى فقهاء زمانه فكلهم كتب إليه بمثل قول سالم* وقد عارض بعض الجلّة من العلماء قوله صلى الله عليه وسلم: [خير الناس قرني] بقوله صلى الله عليه وسلم: [خير الناس من طال عمره وحسن عمله، وشرُّ الناس من طال عمره وساء عمله] لكن في الطبرى: قال عمر بن الخطاب: لو شاء الله تعالى أنتُم فكنا كلنا، ولكن قال: «كنتُمْ» في خاصة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن صنع مثل صنيعهم كانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر* فيستوى حينئذٍ أول هذه الأمة بآخرها بفضل العمل إلاَّ أهل بدر والحديبية، ومن تدبّر آثار هذا الباب بان له الصوّاب، فعن درّة بنت أبى لهب قالت: قام رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله أيُّ الناس خير؟ قال: [خيرُ الناس أقرأهم وأتقاهم لله وآمرهم بالمعروف، وأنهاهم عن المنكر، وأوصلهم للرحم] رواه أحمد في مسنده، والنسائي في سننه والحاكم في مستدركه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَنْ يضرُّوكُمْ إلاَّ أَذًى وإنْ يُقَاتِلُوكُمْ يولُّوكُمْ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ ينصَرُونَ* ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أيْنَ ما ثُقِفُوا إلاَّ بحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وباؤا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ المَسْكَنَةُ ذَلِكَ بأَنَّهُمْ كَانُوا يكْفُرُونَ بآياتِ اللهِ و يَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وكَانُوا يَعْتَدُونَ» سورة آل عمران (الآية: ١١١، ١١٢)

في الواحدي: قال مقاتل: إن رؤوس اليهود: كعب، وعدى، والنعمان، وأبورافع وأبوياسر وابن صوريا عمدوا إلى مؤمنهم: عبدالله بن سلاّم وأصحابه فآذوهم لإسلامهم فأنزل الله تعالى هذه الآية» وكذا في الخازن: وليس في بقية التفاسير غير الذي ذكرا. قوله: «لَنْ يَضُرُّوكم» أي اليهود يا معشر المسلمين بشيء «إلاّ أذًى» باللسان من سب ووعيد أي مجرد لقلقة لسان «وإنْ يُقَاتِلُوكم يُوَلُّوكُمُ الأَدْبارَ» منهزمين. وهكذا وقع، فإنهم يوم خيبر أذلّهم الله وأرغم أنوفهم، وكذلك من قبلهم من يهود المدينة. بني قينقاع و بني النّضير و بني قريظة كلهم أذلهم الله، وكذلك النصارى بالشام كسرهم الصحابة في غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام أبد الآبدين ودهر الداهرين، ولا تزال عصابة الإسلام قائمة بالشام حتى ينزل عيسى ابن مريم، وهو كذلك، ويحكم بملة الإسلام وشرع محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، فيكسر الصليب، و يقتل الخنزير، و يضع الجزية، ولا يقبل إلاّ الإسلام، «ثُمَّ لاَ يُنْصَرُون» عليكم بل لكم النصر عليهم «ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أيْنَمَا ثُقِفُوا» حيثما وجدوا، فلا عزّ لهم ولا اعتصام في سائر أحوالهم، فقد أهدرت أنفسهم، وأبيحت أموالهم، وسبي أهلهم، أو ضرب الجزية عليهم «إلاّ» في حال اعتصامهم «بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ» أي إلاّ بعهد من الله وهو أن يسلموا فتزول عنهم الذلة «وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ» المؤمنين، وهوعهدهم إليهم بالأمان على أداء الجزية، أي لا عزّ لهم قط إلا هذه الواحدة، وهي التجاؤهم إلى الذمة لما قبلوه من الجزية «وَبَاؤا» رجعوا «بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ» أي مستوجبين له «وضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ» كما يضرب البيت على أهله، فهم ساكنون في المسكنة غير ظاعنين عنها يظهرون الفقر والمسكنة. وأكثر المفسرين على أنَّ معنى المسكنة: الجزية. وهم اليهود أي فلا منعة لهم «ذَلِكَ» أي ضرب الذلّة والمسكنة والبوء بالغضب كائنٌ «بأنَّهُمْ» أي بسبب أنهم «كانُوا يَكْفُرونَ بآياتِ اللهِ و يقتُلُونَ الأنبياءَ بغيْرِ حَقٍ ذَلِكَ» أي الكفر والقتل «بِمَا عَصَوْا وكانُوا يَعْتَدُونَ» أي كائن بسبب عصيانهم، واعتدائهم بقتل الأنبياء وتعدى حدود الله تعالى، فإن الإصرار على الصغائر يفضي إلى الكبائر، والإصرار على الكبائر ــ والعياذ بالله ــ يفضي إلى الكفر. قال القرطبي: الآية وعد من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين أن أهل الكتاب لا يغلبونهم، وأنهم منصورون عليهم لا ينالهم منهم اصطلام ــ استئصال ــ إلا إيذاء بالبهت والتحريف، وأما العاقبة فتكون للمؤمنين. و يستقيم هذا القول إذا كان

الإستثناء متّصلاً، أمّا إذا كان منقطعاً فإنهم لن ينالُوا من المؤمنين البتّة، لكن يؤذونهم بما يسمعُونهم من كلمة الكفر، وقولهم في عيسى وأُمّه وعزير، ودعاؤهم إياكم إلى الضلالة، ولا يضرونكم بذلك، وهذا من الاستثناء المنقطع الذي هو مخالف معنى ما قبله كما قيل: ما اشتكى شيئاً إلاّ خيراً. وهذه الكلمة محكيّة عن العرب سماعاً. قال قتادة: لن يضرُّوكم إلاّ أذًى تسمعونه منهم* وهو قول الربيع أيضاً. وقال ابن جريج: «**لَنْ يضرُّونكم إلاّ أذًى**» إشراكهم في عزير وعيسى* وقال الحسن: تسمعون منهم كذباً على الله و يدعونكم إلى الضلالة.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُون* يُؤمِنُونَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ و يأمُرُونَ بالْمَعْرُوف وَ يَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ و يُسَارِعُونَ فى الْخَيْرَاتِ وأولئكَ مِنَ الصَّالِحِينَ* وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ واللَّهُ عَليمٌ بالمتّقين»

سورة آل عمران (الآية: ١١٣، ١١٤)

في الواحدى: قال ابن عباس ومقاتل: لما أسلم عبدالله بن سلام، وثعلبة بن سعنة، وأسيد بن سعنة وأسد بن عبيد، ومن أسلم من اليهود، قالت أحبار اليهود: ما آمن لمحمد إلاّ شرارنا، ولو كانوا من خيارنا لما تركوا دين آبائهم، وقالوا لهم: لقد خنتُم حين استبدلتم بدينكم ديناً غيره، فأنزل الله تعالى «**لَيْسُوا سَوَاءً**» الآيات* وقال ابن مسعود: نزلت الآية في صلاة العتمة يصليها المسلمون، ومن سواهم من أهل الكتاب لا يصليها* وعن ابن مسعود قال: أخرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلةً صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا النّاسُ ينتظرون الصلاة، فقال: إنه ليس من أهل الأديان أحد يذكر الله في هذه الساعة غيركم. قال: فأنزلت هذه الآية «**لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمّةٌ قَائمةٌ يتلون**» إلى قوله «**والله عليمٌ بالمتقين**»* ونحو القول الأول في الخطيب والجلال* وفي أبي السعود: وقيل: هم أربعون رجلاً من نصارى نجران، واثنان وثلاثون من الحبشة، وثلاثة من الرّوم، كانُوا على دين عيسى، وصدّقوا محمداً صلى الله عليه وسلم، وكان من الأنصار فيهم عدة قبل قدوم النبي صلى الله عليه وسلم. منهم: سعد بن زرارة والبراء بن

معرور، ومحمد بن مسلمة، وأبوقيس: صرمة بن أنس رضي الله عنهم كانوا موحدين يغتسلون من الجنابة، و يقومون بما يعرفون من شرائع الحنيفية حتى بعث الله النبي صلى الله عليه وسلم فصدّقوه ونصروه* وفي ابن كثير ذكر سبب انتظار الصلاة، ثم قال: والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس: أن هذه الآية نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب كعبدالله بن سلاّم وأسد بن عبيد وثعلبة بن شعبة وغيرهم* وكذا في الخازن* وفي قوله: «لَيْسُوا سَوَاءً» قولان:

أحدها : أنه كلام تام يوقف عليه، والمعنى أن أهل الكتاب الذين سبق ذكرهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ليسو سواءً. وقيل: معناه لا يستوى اليهود وأمّة محمد صلى الله عليه وسلم القائمة بأمر الله، الثابتة على الحق.

والقول الثاني : أن قوله: «لَيْسُوا سَوَاءً» متعلق بما بعده ولا يوقف عليه.

وفي السمين: الظاهر في هذه الآية أن الوقوف على سواء تام، فإن الواو اسم ليس، وسواء خبر والواو تعود على أهل الكتاب المتقدّم ذكرهم. والمعنى أنهم ينقسمون إلى مؤمن وكافر. لقوله: منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون. فانتفى استواؤهم. وسواء في الأصل مصدر، فلذلك وُحد* وعبارة أبي السعود: ليسو سواءً جملة مستأنفة سيقت تمهيداً وتوطئة لتعداد محاسن مؤمني أهل الكتاب. وتذكيراً لقوله تعالى: «منهم المؤمنون» والضمير في ليسوا لأهل الكتاب جميعاً لا للفاسقين خاصّة، وهو اسم ليس خبره سواء، وإنما أفرد لأنه في الأصل مصدر، وقوله: «مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ» استئناف مبيّن لكيفية عدم تساويهم ومزيل لما فيه من الإبهام، كما أن ما سبق من قوله تعالى: «تأمرون بالمعروف» ..الخ. مبيّن لقوله: «كنتُمْ خير أُمّة» ..الخ* لكن في الطبرى عن ابن مسعود أنه كان يقول في قوله: «لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ» قال: لا يستوى أهل الكتاب وأمّة محمد صلى الله عليه وسلم* وعن السدى: «لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ» الآية. يقول: ليس هؤلاء اليهود كمثل هذه الأمة التي هي قائمة* ومعنى قائمة: مستقيمة على الهدى وكتاب الله وفرائضه وشرائع دينه بالعدل والطاعة وغير ذلك من أسباب الخير من صفة أهل الإستقامة على كتاب الله وسنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونظير ذلك الخبر الذي رواه النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم ركبوا سفينة..] ثم ضرب لهم

مـثـلاً، فـالقائم على حدود الله هو الثابت على التمسّك بما أمره الله به، واجتناب ما نهاه الله عنه، فتأو يل الكلام: من أهل الكتاب جماعة معتصمة بكتاب الله متمسّكة به ثابتة على العـمـل بمـا فيه، وما سنَّ له رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقوله: «**يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ**» أي يـقـرؤن كـتاب الله، وهم الذين آمنُوا بمحمد صلى الله عليه وسلم «**آنَاءَ اللَّيْلِ**» أي في سـاعـاتـه «**وَهُـمْ يَسْجُدُونَ**» يصلون، لأن التلاوة لا تكون في السجود، والجملة حال من فاعل يتلون. وقيل: هى صلاة التهجد بالليل، وقيل: هي صلاة العشاء، لأن اليهود لا يـصـلـونـهـا، وقـيـل: يحتمل أنَّه أراد بالسجود الخضوع والخشوع لأن العرب تسمى الخشوع سجوداً. «**يُؤمِنُونَ بالله والْيَوْمِ الآخِرِ**» وذلك أن إيمان أهل الكتاب فيه شرك، و يصفون الـيـوم الآخـر بـغير مـا يـصفه المؤمنون. وقيل: إنَّ الايمان بالله يستلزم الايمان بجميع أنبيائه ورسـلـه، واليـهـود يـؤمنون ببعض الأنبياء و يكفرون ببعض، والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحـذر مـن فعل المعاصى، واليهود لا يحترزون منها، فلم يحصل الايمان الخالص بالله واليوم الآخر «**و يأمُرُونَ بالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ المنكَرِ**» يعنى غير مداهنين كما يداهن اليهود بـعـضهم بعضاً، وقيل: يأمرون بالمعروف: يعنى بتوحيد الله تعالى والايمان بمحمد صلى الله عـلـيـه وسـلـم، و ينهون عن المنكر: يعنى عن الشرك، وعن كتم صفة محمد صلى الله عليه وسـلـم «**و يُسَـارِعُونَ فى الْخَيْرَاتِ**» المسارعة في الخير فرط الرغبة فيه لأن من رغب في الأمـر يـسـارع تـولّـيـه والـقـيـام بـه. أي يبادر مع كمال الرغبة في فعل أصناف الخيرات الـقـاصـرة والمـتـعـديـة. فإن قيل: أليس أن العجلة مذمومة كما قال صلى الله عليه وسلم: [الـعـجلة من الشيطان والتأنى من الرحمٰن] فما الفرق بين السرعة والعجلة؟ فالجواب: أن الـسـرعـة مخـصـوصـة بـأن يُـقدّمَ ما ينبغى تقديمه، والعجلة مخصوصة بأن يقدّم ما لا ينبغى تـقـديمـه، فـالمسـارعة مخصوصة بفرط الرغبة فيما يتعلق بالدين لأن من رغب في الآخرة آثر الـفـور على التراخى. قال تعالى: «**وسَارِعُوا إلى مَغْفِرةٍ مِنْ رَبّكم**» مع أن العجلة ليست مذمومة على الإطلاق قال تعالى: «**وعَجِلْتُ إلَيْكَ ربّى لِتَرْضَى**» :الكرخى. الموصوفون بمـا ذكـر «**وأولـئـكَ مِـنَ الـصَّـالِـحِـيـنَ**» ومنهـم مـن ليسوا كذلك. أي ليسوا موصوفين بـالـصّفات السابقة بل بأضدادها. أي أن ذكر أحد الضدّيْنِ يُغنى عن ذكر الآخر. والمراد بـالـصالحين ممن صلحت أحوالهم عند الله تعالى واستحقوا رضاه وثناءَه والجنة، ومن باب مـفـهـوم المخـالـف أن الأمم الأخرى من اليهود والنصارى غير قائمة على الحق بل منحرفون

عـنه، غير متعبدين بالليل، ملحدون في صفاته لا يؤمنون باليوم الآخر كما ينبغي الإيمان به من شفاعة المصطفى صلى الله عليه وسلم ... متثاقلين عن فعل الخيرات «**وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ**» أي تعدموا ثوابه. بل تجازون عليه، والخطاب للأمة القائمة «**والله عَلِيمٌ بالمتّقينَ**» بشارة لهم، وإشعار بأن التقوى مبدأ الخير وحسن العمل، وإن الفائزين عند الله هم أهل التقوى.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تتّخذُوا بطانةً مِنْ دُونكُمْ لاَ يألُونكُمْ خبَالاً ودُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أفْوَاهِهِمْ ومَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أكْبَرُ قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الآيَاتِ إنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ»

سورة آل عمران (الآية: ١١٨)

في الواحدى : قال ابن عباس ومجاهد: نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين و يواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالى هذه الآية ينهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة منهم عليهم* بطانة الرجل ووليجته: خصيصه وصفيّه الذي يفضي إليه بشؤنه ثقة به. شبّه ببطانة الثوب كما يقال: فلان شعارى. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: [الأنصار شعار والناسُ دثار] رواه الشيخان. والشعار ما يلى الجسد، والدثار فوقه* وفي الطبرى عن مجاهد في قول الله عز وجل: «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تتّخذُوا بطانةً مِنْ دُونكُمْ لاَ يألُونكُمْ خبَالاً**» في المنافقين من أهل المدينة. نهى الله عز وجل المؤمنين أن يتولوهم* وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تستضِيئوا بنار أهل الشرك، ولا تنقشوا في خواتيمكن عربيًا] قال: فلم ندر ما ذلك حتى أتو الحسن، فسألوه، فقال: نعم، أمّا قوله: لا تنقشُوا في خواتيمكم عربيًّا فإنه يقول: لا تنقشُوا في خواتيمكم محمداً، وأما قوله: ولا تستضِيئوا بنار أهل الشرك: فإنه يعنى به المشركين. يقول: لا تستشيروهم في شيء من أموركم. قال الحسن: وتصديق ذلك في كتاب الله ثم تلا هذه الآية «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تتّخذُوا بطانةً مِنْ دُونكُمْ**»* وفي ابن كثير: قيل لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه: إنَّ ههنا غلاماً من أهل الحيرة حافظ كاتب، فلو اتخذتَه كاتباً؟ فقال: قد اتخذت

إذاً بطانة من دون المؤمنين. قال ابن كثير: في هذا الأثر مع هذه الآية دليل على أنَّ أهل الذمّة لا يجوز استعمالهم في الكتابة التي فيها استطالة على المسلمين واطلاع على دواخل أمورهم التي يخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب. ولهذا قال: «**لاَ يأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ**» جملة مستأنفة مبينة لحالهم داعية إلى الإجتناب عنهم، أو صفة لبطانة، يقال: آلا في الأمر إذا قصّر فيه. ثم استعمل معدىً إلى مفعولين في قولهم: لا آلوك نصحاً، ولا آلوك جهداً على تضمين معنى المنع والنقص. والخبال الفساد، وأصله ما يلحق الحيوان من مرض وفتور فيورثه فساداً واضطراباً، وعبارة السمين: قال ابن عطية: معناه لا يقصرون لكم فيما فيه الفساد عليكم. فعلى هذا يكون الضمير في كاف الخطاب وخبالاً منصوبين على إسقاط الخافض وهو اللام وفي. ومعنى «**لاَ يأْلُونَكُمْ خَبَالاً**» أي لا يقصرون ولا يتركون جهدهم فيما يورثكم الشرّ والفساد بدعوتهم إياكم إلى الضلالة. وقوله: «**وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ**» أي يتمنون عنتكم، وهو ما يشق عليكم من الضرر والشرّ والهلاك. والعنت: المشقة، وهو استئناف مؤكد للنهى، موجب لزيادة الاجتناب «**قَدْ بَدَتِ**» ظهرت «**الْبَغْضَاءُ**» العداوة لكم، لأنهم لا يتمالكون ضبط أنفسهم مع مبالغتهم فيه، ومع ذلك يتفلت من ألسنتهم ما يعلم به الطعن بالمسلمين «**مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**» بالوقيعة فيكم، واطلاع المشركين على سرّكم «**وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ**» من العداوة «**أَكْبَرُ**» ممّا بدا من أفواههم «**قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الآيَاتِ**» الدالة على عداوتهم «**إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**» ذلك فلا توالوهم.

والمعنى: قد لاح على صفحات وجوههم وفلتات ألسنتهم من العداوة مع ما هم مشتملون عليه في صدورهم من البغضاء للإسلام وأهله ما لا يخفى مثله على لبيب عاقل. ولهذا قال تعالى: «**قَدْ بَيَّنَا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**» ابن كثير* أو إن كنتم تعقلون عن الله مواعظه وأمره ونهيه، وتعرفون مواقع نفع ذلك منكم، ومبلغ عائدته عليكم. وقد أكدت الآية الزجر عن الركون إلى الكفار، نهى المؤمنين عن مصانعة أهل الأهواء والدخلاء، وكل من كان على خلاف ديننا أن نسند إليه أمراً من مهمّات أمورنا، فيما يتعلق بأسرار دولتنا، أو نشركه في البتّ في آرائنا، وما أحسن قول الشاعر:

عن المرء لا تسأل وسلْ عن قرينه ... فكل قرينٍ بالمقارن يَقتدى

وقال ابن مسعود: اعتبروا النّاس بإخوانهم* وفي سنن أبى داود عن أبى هريرة رضي

الله عنـه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: [المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل]
وعـن ابـن عـمـر رضي الله عنهما قـال: لا تـسـتـعملوا أهل الكتاب فإنهم يستحلُّون الرِّشا،
واسـتـعـيـنـوا على أمـوركم، وعلى رعيتكم بالذين يخشون الله تعالى. وفي البخارى عن أبي
سـعـيـد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [ما بعث الله من نبيٍّ،
ولا اسـتخـلـف مـن خـلـيـفةٍ إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضُّه عليه،
و بـطـانـة تـأمره بـالشرّ وتحـضُّـه عـلـيـه، فـالمعصوم من عصم الله تعالى] والحق أن الجمل
مـستأنفات كلها على جهة التعليل للنّهى، فكأنه قيل: لم لا نتخذهم بطانة؟ فقيل: لأنهم
لا يقصرون، فقيل: لهم لم يفعلون ذلك؟ قيل: لأنهم يودُّون عنتكُمْ ثم قيل: وما آية ودادة
العنت؟ فقيل: قد بدت. والله أعلم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَإذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّىءُ الْمُؤمِنينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ والله سميعٌ عَلِيمٌ* إذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أنْ تَفْشلاَ والله وَلِيُّهُمَا وعَلَى الله فَلْيَتَوكَّلِ الْمُؤمِنُون» سورة آل عمران (الآية: ١٢٢)

في الـواحـدى: نـزلـت هـذه الآيـة فى غزوة أُحُدٍ* وكذا في الخطيب: قاله ابن عباس
والـسـدىّ وابن اسحاق* وقيل: يوم الأحزاب قاله الحسن. والأ ول أصح لتضافر الأخبار
عليه، و بدليل الآية التالية لهذه الآية «إذْ هَمَّتْ طَائفتَانِ مِنكُمْ أنْ تفشَلاَ» والطائفتان
هـما بـنـو سـليم و بـنـو حـارثـة بلا خلاف، وقد نزل المشركون أُحداً يوم الأ ربعاء، وكان
خـروجـه صلى الله عـلـيـه وسـلـم إليهم بـعـد صلاة الجمعة، وأصبح بالشِّعْبِ يوم السبت
للنـصف من شوال سنة ثلاث من الهجرة، ونزل في غدوة الوادى أي جانبه، وجعل ظهره
وعسكره إلى أحد، وسوّى صفوفهم، وأجلس خمسين من الرماة وأمّر عليهم عبدالله بن جبير
بـسفـح الجـبـل، وقـال: [انـضـحُـوا عـنَّا بالنبل، لا يأتُونا من ورائنا، ولا تبرحُوا غُلِبنا أو
نُـصِـرنـا] حدّث الطبرى عن السدىّ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: أشيروا
عـلـيَّ مـا أصْـنَعُ. فقالوا: يا رسول الله. اخرج إلى هذه الأكلب. فقال الأنصار: يا رسول
الله مـا غَـلـبَـنَـا عـدوٌّ لنا أتانا في ديارنا، فكيف وأنت فينا، فدعا رسول الله صلى الله عليه
وسـلـم عـبـدالله بـن أبّـى ابـن سـلول، ولم يدعه قط قبلها، فاستشاره، فقال: يا رسول الله

اخرج بنا إلى هذه الأكلب، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يدخلوا عليه المدينة، فيقاتلوا في الأزقّة، فأتاه النعمان بن مالك الأنصارى، فقال: يا رسول الله، لا تحرمنى الجنة، فوالذى بعثك بالحق لأدخلن الجنة، فقال له: بمَ؟ قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وإنى لا أفر من الزحف. قال: صدقت. فقتل يومئذٍ، ثم إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا بدرعه فلبسها فلمّا رأوه وقد لبس السّلاح ندموا، فقاموا واعتذروا إليه، وقالوا: اصنع ما رأيت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا ينبغى لنبي أن يلبس لأمته فيضعها حتى يقاتل* وحدّث أيضاً عن ابن شهاب الزهرىّ، ومحمد بن يحيٰى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة والحصين، بن عبدالرحمن بن عمر و بن سعد بن معاذ وغيرهم من علمائنا، قالوا: لمّا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون بالمشركين قد نزلوا منزلهم من أحد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنى رأيت بقرة (في الخطيب: مذبحة حولى) فأولتها خيراً، ورأيت في ذباب سيفى ثلماً (وفي الخطيب: فأوّلته هزيمة) ورأيت أنى أدخلت يدى في درع حصينة، فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا المدينة وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقامُوا أقامُوا بشرّ مقام، وإن هم دخلُوا علينا قاتلناهم فيها. وكان رأي عبدالله بن أبى سلول مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يرى رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك أن لا يخرج إليهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكره الخروج من المدينة، فقال رجال من المسلمين: ممن أكرمهم الله بالشهادة يوم أحد وغيرهم: ممّن كان فاته بدر وحضوره، يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنًا عنهم وضعفنا، فقال عبدالله بن أبى سلول: يا رسول الله أقم بالمدينة، لا تخرج إليهم فوالله ما خرجنا منها إلى عدوّ لنا قط إلا أصاب منّا، ولا دخلها علينا قط إلاّ أصبنا منه، فدعهم يا رسول الله فإن أقاموا أقامُوا بشرّ محبس، وإن دخلوا قاتلهم الرجال في وجوههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإن رجعُوا رجعُوا خائبين كما جاؤا، فلم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم: الذين كان من أمرهم حبّ لقاء القوم حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلبس لأمته، فكانت تَبْوِئَةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمنين مقاعد للقتال ما ذكر من مشورته على أصحابه بالرأى الذي ذكرنا على ما وصفه الذين حكينا قولهم* وقوله تعالى: **((وإذْ غَدَوْتَ مِنْ أهْلِكَ))** أي من حجرة عائشة رضي الله عنها، أو من المدينة، والغدوُّ الخروج

أول النهار، يقال غدا يغدو من باب سما أي خرج غدوة، و يستعمل بمعنى صار عند بعضهم فيكون ناقصاً، يرفع الاسم و ينصب الخبر، والمقصود خروجه أول النهار أي بكرة على خلاف ما ذكر من خروجه بعد صلاة الجمعة، فلا يقال لذلك الوقت غدوة، قال عليه الصلاة والسلام: [لو توكلتُم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغْدُوا خِماصاً وتروح بطاناً] ولعل يكون المعنى اللغوى هو المقصود، فالمعنى عليه: وإذ غدوْتَ: أي صرت «**تُبَوِّىءُ للمؤمنين**» أي تنزلهم في منازل، وهذا أظهر من المعنى الآخر لأن المذكورة في القصة أنه سار من أهله، بعد صلاة الجمعة، و بات في شعب أحد، وأصبح ينزل أصحابه في منازل القتال و يدبّر لهم أمر الحرب. فيكون معنى تبوّىء: تنزل. والجملة يجوز أن تكون حالاً من فاعل غدوت، وهى حال مقدّرة، أي قاصداً تبوىء للمؤمنين لأن وقت الغدوّ ليس وقت للتبوّىء، ويحتمل أن تكون حالاً مقارنة لأنَّ الزمان متّسع. وتبوىء أصله من الباءة. وهى الرجع. واللام في القتال فيها وجهان: أظهرها أنها متعلقة بتبوىء على أنها لام العلّة، والثاني: أنها متعلقة بمحذوف لأنها صفة لمقاعد، أي مقاعد كائنة ومهيّئةٌ للقتال. ولا يجوز تعلّقها بمقاعد. وإن كانت مشتقة لأنه مكان، والأمكنة لا تعمل. وقوله «**والله سميعٌ**» لأقوالكم «**عليمٌ**» بأحوالكم. ومعلوم أن غزوة أحد كان سببها أن المشركين حين قتل من قتل من أشرافهم يوم بدر، وسلمت العير بما فيها من التجارة التي كانت مع أبى سفيان قال: أبناء من قتل ورؤساء من بق لأبى سفيان: ارصد هذه الأموال لقتال محمد فانفقها في ذلك، فجمّعُوا الجموع والأحابيش وأقبلوا في نحو من ثلاثة آلاف حتى نزلوا قريباً من أحد ...الخ. ما ذكر. وقوله تعالى: «**إذ**» بدل من إذ قبله لأنه هو المقصود بالسياق «**هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكم**» بنو سلمة و بنو حارثة جناحا العسكر. والهمّ العزم. وقيل: بل هو دونه وذلك أن أول ما يخطر بقلب الإنسان يسمّى خاطر، فإذا قوى سمّى حديث نفس، فإذا قوى سمّى هماً، فإذا قوى سمّى عزماً، ثم بعده إما قول وإما فعل. و بعضهم يعبّر عن الهمّ بالارادة. تقول العرب: هممت بكذا أهُمُّ به (بضم الهاء، من باب ردّ) والهمّ أيضاً الحزن الذي يذيب صاحبه وهو مأخوذ من قولهم: هممتُ الشحم أي أذبته، والهمّ الذي في النفس قريب منه لأنه قد يؤثر في نفس الإنسان كما يؤثر الحزن. (سمين)ه «**أنْ تَفْشَلاَ**» تجبنا عن القتال وترجعا لمَّا رجع عبدالله بن أبى: المنافق وأصحابه، وقال: علامَ نقتل أنفسنا وأولادنا. وقال لأبى

جابر السلمى القائل له: أنشُدكم الله في نبيكم وأنفسكم لو نعلم قتالاً لا تبعناكم، فثبتهما الله، ولم ينصرفا. أي فهو خطاب من أبي جابر لابن أبيّ اللعين ومن رجع معه، فقال ابن أبيّ اللعين لو نعلم قتالاً لا تبعناكم، فهمّ الحيان باتباعه فثبتهم الله ومضوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال الزمخشرى: والظاهر أنها ما كانت إلا همّة وحديث نفس. وكما لا تخلو النفس عند الشدة من بعض الهلع، ثم يردها صاحبها إلى الثبات والصبر و يوطنها على احتمال المكروه. **«والله وليُّهما»** أي ناصرهما **«وعلى الله فليتوكّل الْمؤمنُون»** أي ليقوا به دون غيره. قال البخارى: حدثنا على بن عبدالله وحدثنا سفيان. قال: قال عمر سمعت جابر بن عبدالله يقول: فينا نزلت: **«إذْ هَمَّتْ طَائفَتَانِ مِنْكُم أنْ تفْشَلاَ»** الآية. قال: نحن الطائفتان بنو حارثة و بنو سلمة، وما نحبّ. وقال سفيان مرّة: وما يسرنى أنها لم تنزل لقوله تعالى: **«والله وليُّهما»** وكذا رواه مسلم من حديث سفيان بن عيينه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))
«وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ وأَنْتُمْ أذِلَّةٌ فاتّقوا الله لعلكم تشكرون»
سورة آل عمران (الآية: ١٢٣)

قال الجلال: ونزل لما هزمُوا تذكيراً لهم بنعمة الله **«ولَقَدْ نَصَرَكُمُ الله بِبَدْرٍ»** موضع بين مكة والمدينة* أي فيها: وكانت وقعتها في السابع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية (أبو السعود). **«وأنْتُمْ أذِلّةٌ»** بقلة العَدَدِ والسّلاح **«فاتّقُوا الله لعلّكُمْ تشكُرون»** نعمه. فقد كان المسلمون يوم بدر ثلا ثمائة و بضعة عشر رجلاً، ولم يكن فيهم إلا فرس واحد، وأكثرهم كانوا رجالة، وربما كان الجمع منهم يركبون جملاً واحداً. والمشركون كانوا قريباً من ألف مقاتل، ومعهم مائة فرس، وأسلحة كثيرة، وهم بعدة كاملة، لذا كان تأو يل **«أذِلّةٌ»** بمعنى القلّة وعدم المنعة من الناس، مع ضعف الحال، وقلة السلاح والمال فأظهرهم الله على عدوّهم، وتجد غزوة بدر مع آياتها مجملة ومفصلة في كتب السيّر فلا حاجة لذكرها ههنا.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَيْسَ لك مِنَ الأَمْرِ شَىءٌ أَوْيَتُوبَ عَلَيْهِمْ أويُعَذِّبَهُمْ فإنَّهُمْ ظَالِمُونَ* ولله ما فى السَّمٰواتِ وَمَا فى الأَرْضِ يغْفِرُلِمَنْ يَشَاءُ و يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ والله غَفُورٌرَحيمٌ» سورة آل عمران (الآية: ١٢٨، ١٢٩)

في الواحدى : عن أنس بن مالك قال: كسرت رباعية رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، ودمى وجهه فجعل الدم يسيل على وجهه و يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيّهم بالدم، وهويدعوهم إلى ربهم، قال: فأنزل الله تعالى **«ليْسَ لكَ مِنَ الأمْرِ شىءٌ أويتوب عليهم أويعذّبهم فإنّهم ظالمون»** وعن سالم عن أبيه قال: لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلاناً وفلاناً، فأنزل الله عز وجل **«ليس لك من الأمر شىء..»** الآية رواه البخارى عن حيان عن ابن المبارك. عن معمر. وفي رواية كان دعاؤه صلى الله عليه وسلم على المنافقين بعد أن يرفع رأسه من الركوع في صلاة الفجر، و بعد أن يقول: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد، ثم يقول وهو قائم: اللهم انج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبى ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين. اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلها عليهم سنين كسنىّ يوسف، اللهم العن لحيان ورعلاً وذكوان وعصية عصت الله ورسوله. وقد ترك عليه الصلاة والسلام الدعاء حين نزلت **«ليس لك من الأمر شىء أويتوبَ عليْهم أويعذبّهم فإنَّهُمْ ظالمون»** رواه البخارى عن موسى بن اسماعيل عن ابراهيم وسعد عن الزهرى* وفي الخطيب: وقال قوم: نزلت في أهل بئر معونة وهم سبعون رجلاً من القراء، بعثهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بئرمعونة في صفر سنة أربع من الهجرة على رأس أربعة أشهرمن أحد ليعلّموا النّاس القرآن والعلم. أميرهم المنذر بن عمر، قتلهم عامر بن الطفيل، فوجد عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وجداً شديداً، وقنت شهراً في الصلواة كلها يدعو على جماعة من تلك القبائل باللّعن والسنين* وفي القرطبي: وقيل: استأذن في أن يدعو في استئصالهم، فلمّا نزلت هذه الآية علم أنَّ منهم من سيُسلم، وقد آمن كثيرمنهم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم* ورى الترمذى عن ابن عمر قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو على أربعة نفر. فأنزل الله عزّ وجلّ **«لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شىءٌ»**

فهداهم الله للإسلام. وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح، وفي الطبرى: قال الربيع بن أنس: أنزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وقد شجّ رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه، وأصيبت رباعيته، فهمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو عليهم، فقال: كيف يفلح قوم أدموا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى الله وهم يدعونه إلى الشيطان، و يدعوهم إلى الهدى و يدعونه إلى الضلالة، و يدعوهم إلى الجنّة، و يدعونه إلى النّار، فهمّ أن يدعو عليهم، فأنزل الله عز وجلّ: **«لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شيء..»** الآية فكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدعاء عليهم. وهكذا بقية الأقوال تدور في فلك الذي ذكرت قوله تعالى: **«لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شيء»** المراد من الأمر إصلاحهم وتعذيبهم، أي لست تملك إصلاحهم ولا تعذيبهم بل ذلك ملك لله تعالى، يفعل بهم ما يشاء من التعذيب **«أوْ»** بمعنى إلى أن **«يَتُوبَ عَلَيْهِمْ»** بالإسلام. غاية في الصبر. أي فإذا تاب عليهم فلك من الأمر السرور، وإذا عذبهم فلك التّشفى فيهم **«أوْ يُعَذِّبَهُمْ فإنَّهُمْ ظَالِمُونَ»** بالكفر ومحاربتك بدون حق* وفي الغرائب: وقيل: نزلت في حمزة بن عبدالمطلب، وذلك أنه صلى الله عليه وسلم لمّا رآه، ورأى ما فعلوا به من المثلة: قال: لأمثّلنّ منهم بثلاثين فنزلت* وقيل: أراد أن يلعن المسلمين الذين خالفوا أمره، والذين انهزموا، فمنعه الله عن ذلك، مرويّ عن ابن عباس* وقيل: أراد أن يستغفر للمسلمين الذين عصوا أمره فنزلت* وقال القفال: كل هذه الأمور وقعت يوم أُحد، فلا يمنع حمل نزول الآية في الكل* ولا يخفى أن ظاهر الآية يدل على أنّه صلى الله عليه وسلم كان يفعل فعلاً فمنع منه، وحيئذٍ يتوجّه الإشكال بأن فعل ذلك الفعل إن كان من الله تعالى فكيف منعه منه؟ وإلا فهو قدح في عصمته، ومناف لقوله: **«وما ينطق عن الهوى»** والجواب: أن المنع من الفعل لا يدل على أن الممنوع مشتغل به كقوله: **«ولاَ تُطِعِ الْكَافِرِين»** مع أنه ما أطاعهم، وقوله: **«لئن أشرَكتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ»** مع أنّه ما أشرك قط، ولعلّه عليه الصلاة والسلام شاهد من قتل حمزة وغيره ما أورثه حزناً شديداً، وكان من الممكن أن يحمله ذلك على ما لا ينبغي من الفعل والقول، فنصّ الله تعالى على المنع تقوية لعصمته صلى الله عليه وسلم. وتأكيداً لطهارته، ولئن سلمنا أنّه كان مشغولاً بذلك الفعل والقول، فإنه محمول على ترك الأولى، والنهيُ إرشاد إلى اختيار الأفضل، وأيضاً أنّ دعاءه صلى الله عليه وسلم لا يكون بمجرد التّشهى، وإنما هو بطلب الأصلح، فالذى يظن به أنّه

خلاف مسئوله صلى الله عليه وسلم وقد وقع فهو بالحقيقة سؤاله صلى الله عليه وسلم، ولهذا سأل الله تعالى أن يجعل لعنه على من لا يستحقّه طهراً وزكاةً ورحمة. انتهى كلام صاحب الغرائب* قلت: وما رواه البخارى هو الأصح: قال البخارى: قال محمد بن عجلان، عن نافع بن ابى عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو على رجال من المشركين يسّميهم بأسمائهم حتى أنزل الله تعالى: «**ليسَ لَكَ من الأمر شيء**» الآية. وقد روى عدّة روايات في هذا المعنى. فيكون المراد من الأمر (كما تقدم) اصلاحهم وتعذيبهم، ولا يملك ذلك صلى الله عليه وسلم، وقوله: «**ولله مَا فى السَّمٰوات والأرْضِ**» يؤيد الذي ذكرت. أي ملكاً وخلقاً وعبيداً. فهو كالدليل على قوله: ليس لك من الأمر شيء ..الخ. «**يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ**» المغفرة له «**و يُعَذِّبَ مَنْ يَشَاءُ**» تعذيبه «**والله غَفُورٌ**» لأ وليائه «**رَحِيمٌ**» بأهل طاعته فضلاً وإحساناً.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«والَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ومَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلاَّ الله وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى ما فَعَلُوا وهُمْ يعْلَمُونَ* أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وجنَّاتٌ تجْرى مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أجْرُ الْعَامِلِينَ»

سورة آل عمران (الآية: ١٣٥، ١٣٦)

وفي الواحدى: قال ابن عباس: في رواية عطاء. نزلت الآية في بنهان التمّار. أتته امرأة حسناء باعها تمراً فضمّها إلى نفسه وقبّلها، ثم ندم على ذلك، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر ذلك له فنزلت هذه الآية.* وقا ابن عباس: في رواية الكلبى: إن رجلاً أنصارياً وثقيفياً آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما، فكانا لا يفترقان، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض مغازيه، وخرج معه الثقفىّ، وخلف الأنصارىّ في أهله وحاجته، وكان يتعاهد أهل الثقفىّ، فأقبل ذات يوم فأبصر امرأة صاحبه قد اغتسلت، وهى ناشرة شعرها، فوقعت في نفسه، فدخل ولم يستأذن حتى انتهى إليها، فذهب ليقبّلها، فوضعت كفّها على وجهها، فقبل ظاهر كفها، ثم ندم واستحيا، فأدبر راجعاً، فقالت: سبحان الله!! خنت أمانتك، وعصيْتَ ربَّكَ، ولم تصب حاجتك،

قال: فندم على صنيعه، فخرج يسيح في الجبال و يتوب إلى الله تعالى من ذنبه، حتى وافى الثقفيُّ، فأخبرته أهله بفعله، فخرج يطلبه حتى دل عليه، فوافقه ساجداً، وهو يقول: ربّ ذنبي قد خنتُ أخي. فقال له: يا فلان قُم فانطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسله عن ذنبك لعلّ الله أن يجعل لك فرجاً وتوبة. فأقبل معه حتى رجع إلى المدينة، وكان ذات يوم عند صلاة العصر نزل جبريل عليه السلام بتوبته، فتلا على رسول الله صلى الله عليه وسلم «**والَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ..**» إلى قوله: «**وَنِعْمَ أَجْرُ العَامِلِينَ**» فقال عمر: يا رسول الله أخاصٌّ هذا لهذا الرجل. أم للناس عامة؟ قال: بل للناس عامة* وعن عطاء: أن المسلمين قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: أبنوا اسرائيل أكرم على الله منا؟ كانوا إذا أذنب أحدهم أصبحت كفارة ذنبه مكتوبةً في عتبة بابه: اجدع اذنك، اجدع أنفك، افعل كذا، فسكت النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت «**وسارعوا إلى مغفرة من ربّكم**» إلى قوله «**والَّذِينَ إذَا فَعَلُوا فاحِشَةً أو ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ**» فقال: ألا أخبركم بخير من ذلك، فقرأ هذه الآيات* وكذا في الخازن: وفيه روايات نحو الأولى قوله تعالى: «**والَّذِينَ إذا فَعَلوا فاحِشَةً**» ذنباً قبيحاً كالزنا لأن المراد العموم في الفاحشة لا الزنا فقط «**أو ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ**» بما دون الزنا كالقبلة واللمسة، والنظرة ونحوهما، وفيه إشارة إلى أنّه إنما صرّح بذكر الفاحشة مع دخولها في ظلم النفس، وترك مقتضى الظاهر لأن المراد بها نوع من أنواع ظلم النفس، أو ليدل به على عدم المبالاة في الغفران، فإن الذنوب وإن جلّت فعفوه أعظم. «**فاستغْفَروا لِذُنوبِهِمْ**» بالندم والتوبة. وقد وردت أحديث كثيرة في فضل الإستغفار منها ما روى عن علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت حديثاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم نفعنى الله منه ما شاء أن ينفعنى، وإذا حدثنى أحد من الصحابه استحلفته، فإذا حلف لى صدّقته، وإنه حدّثنى أبوبكر وصدق أبوبكر أنّه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [ما من عبد مؤمن (أو قال: ما من رجل) يذنب ذنباً، فيقوم فيتطهر، ثم يصلى ركعتين، ثم يستغفر الله إلاّ غفر الله له، ثم قرأ هذه الآية «**والَّذِينَ إذَا فعلوا فاحشة أو ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ ذكَرُوا الله..**» الآية] أخرجه أبو داود والترمذى، وقال: هذا حديث قد رواه غير واحد عن عثمان بن المغيرة فرفعوه، ورواه مسعر وسفيان عن عثمان بن المغيرة فوقفاه ولم يرفعاه ولا يعرف لأسماء إلاّ هذا الحديث* وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال: [من لزم الإستغفار جعل الله له من كل ضيقٍ مخرجاً، ومن كلِّ همّ فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب] أبوداود. وأخرج مسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم] وأخرج الشيخان عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكى عن الربّ تبارك وتعالى قال: [إذا أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم أغفر لى ذنبى، قال تبارك وتعالى أذنب عبدى ذنباً علم أنَّ لهُ رباً يغفر الذنب و يأخذ بالذنب. ثم عاد فأذنب. فقال: أي رب اغفر لى ذنبى، فقال تبارك وتعالى: أذنب عبدى ذنباً فعلم أن له رباً يغفر الذنب و يأخذ بالذنب] وفي رواية [اعمل ما شئت فقد غفرتُ لك] قال عبدالأعلى: لا أدرى أقال في الثالثة، أو الرابعة اعمل ما شئت. وعن أنس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [قال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنَّك ما دعوتنى ورجوتنى غفرتُ لك ولا أبالى، يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة] أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن. عَنَان السماء بفتح العين، قيل: هو السحاب: وقيل: هو ما عنّ لك منها، أي ما ظهر لك منها. وقُراب الأرض: بضم القاف، وروى بكسرها والضم أشهر، وهو ما يقارب ملأها* عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من قال استغفر الله العظيم الذي لا إلـٰه إلا هو الحيّ القيوم، وأتوب إليه غفرت ذنوبه وإن كان قد فرّ من الزحف] أخرجه أبوداود والترمذى والحاكم، وقال: حديث حسنٌ صحيح على شرط البخارى ومسلم* وعن أبي الدرداء قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [كل ذنب عسى الله أن يغفره (أو قال: عسى أن يغفره الله) إلاَّ من مات مشركاً، ومن قتل مؤمناً متعمداً] أخرجه أبوداود* وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بلغنى أنَّ ابليس حين نزلت هذه الآية «**والَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فاحِشَةً أو ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فاستَغفَروا لذنوبهم..**» الآية. بكى]* وروى أحمد في مسنده عن أبى سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [قال إبليس: يارب وعزتك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم في أجسادهم. فقال الله تعالى: وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى] وقوله تعالى: «**ومن يَغْفِرُ الذُّنوبَ إلاَّ الله**» أى لا يغفرها أحد سواه. روى الإمام أحمد عن الأسود بن سريع أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بأسير، فقال: اللهم إنى أتوب إليك ولا أتوب إلى محمد، فقال النبي صلى

الله عليه وسلم: [عرف الحقّ لأهله] وقوله: «**وَلَمْ يُصِرُّوا على ما فعلوا..**» أي ولم يقيموا على قبيح فعلهم بأن أقلعوا عنه مستغفرين. وفي الحديث [ما أصرَّ من استغفر وإنْ عادَ في اليوم سبعين مرة] وفي الحديث [لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرا] «**وهم يعلمون**» أي ولم يصرُّوا على قبيح فعلهم عالمين به «**أولئكَ جَزاؤهم مَغْفِرةٌ مِنْ رَبّهم، وجَنَّاتٌ تجرى مِنْ تحتِها الأَنْهَارُ**» إشارة إلى الفريقين، أو الموصوفون في قوله «**والَّذِينَ إذا فعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ..**» الآية.

ومعنى الآية: أن المطلوب بالتوبة أمران: أحدهما: الأمن من العقاب وإليه الإشارة بقوله «**مغفرةٌ من ربّهم**» والثاني: إيصال الثواب وإليه الإشارة بقوله: «**وجَنَّاتٌ تجرى من تحتها الأنهار**» أي ذلك لهم ذخر لا يبخس وأجر لا يوكس. «**خالِدينَ فيها**» أي في الجنات، وهي حال من الضمير في جزاؤهم لأنه مفعول به في المعنى، لأن المعنى: يجزيهم الله جنّات في حال خلودهم، وتكون حالاً مقدره ولا يجوز أن تكون حالاً من جنات في اللفظ، وهى لأصحابها في المعنى إذ لو كان كذلك لبرز الضمير لجريان الصفة على غير من هى له. والجملة من قوله: «**تجرى من تحتها الأنهار**» في محل رفع نعتاً لجنّات. والمخصوص بالمدح محذوف في قوله: «**ونعم أجْرُ العاملين**» تقديرُ، ونعم أجر العاملين الجنة، روى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: [ما أقلَّ حياء من يطمع في جنّتى بغير عمل، كيف أجود برحمتى على من يبخل بطاعتى] وحدّث شهر بن حوشب: طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، وارتجاء الرحمة ممن لا يطاع حمق وجهالة. وعن الحسن يقول الله تعالى يوم القيامة: جوزوا الصراط بعفوى، وادخلُوا الجنّة برحمتى، واقتسمُوها بأعمالكم. وعن رابعة البصرية كانت تنشد:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إنَّ السفينة لا تجرى على اليبس

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«ولاَ تَهِنُوا ولاَ تَحْزَنُوا وأَنْتُمُ الأَعْلونَ إن كنتُم مؤمنين* إن يمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وتلك الأَيّامِ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله الَّذينَ آمنوا ويَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَداءَ والله لاَ يُحِبُّ الظَّالِمينَ* ولِيُمَحِصَ الله الّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرينَ* أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا

الجنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَم الله الذينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرينَ* وَلَقَدْ كُنْتُم تمنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رأيْتُموهُ وأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ» سورة آل عمران (الآية: ١٣٩ - ١٤٣)

في الواحدى : قال ابن عباس: انهزم أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم يوم أحد، فبينما هم كذلك إذا أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم [اللهم لا يعلون علينا، اللهم لا قوة لنا إلا بك، اللهم ليس يعبدك في هذه البلدة إلا هؤلاء النفر] فأنزل الله تعالى هذه الآيات، وثاب نفرٌ من المسلمين رماة، فصعدوا الجبل، ورموا خيل المشركين حتى هزمُوهم فذلك قوله تعالى «وأنتُمْ الأعْلَوْن» الوهن: الضعف أى لا تضعفوا عن الجهاد ولا يورثنّكُمْ يوم أحد وهْناً وجُبناً، ولا تحزنوا على من قتل منكم وجرح، وأنتم الأعلون. أى وحالكم أنكم أعلى منهم وأغلب لأنكم أصبتم منهم يوم بدر أكثر ممّا أصابوا منكم يوم أحد، وأنتم الأعلون شأناً لأن قتالكم لله، وقتالهم للشيطان، وقتلاكم في الجنة وقتلاهم في النّار، وأنتم الأعلون بالحجة والعاقبة الحميدة كقوله «والعاقبةُ للمتقين» وفى هذا تسلية و بشارة. أى عزّاهم وسلاّهم بما نالهم يوم أحد من القتل والجراح وحثهم على قتال عدوّهم، ونهاهم عن العجز والفشل «ولاَ تَهِنُوا ولا تحزنُوا» على ظهورهم، ولا على ما أصابكم من الهزيمة، والحال وأنتم الأعلون. أى الغالبين على الأعداء بعد أحد، فلم يخرجوا بعد ذلك عسكراً إلاّ ظفروا في كل عسكر كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفى كل عسكر كان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بعد انقراضهم ما افتتحت بلدة على الوجه كما كانُوا يفتتحون فى ذلك الوقت، وهذه الآية بيان فضل هذه الأمة لأنه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه لأنه قال لموسى «إنّكَ أنتَ الأعْلَى» وقال لهذه الأمة «وأنتُم الأعْلَوْنَ» وهذه اللفظة مشتقة من اسمه الأعلى، فهو سبحانه العليّ، وقال للمؤمنين «وأنتُم الأعْلَوْنَ» وقوله: «إنْ كنتُم مُؤمنِين» إمّا أن يكون قيداً لقوله: «وأنتُمُ الأعْلَوْنَ» أى إن كنتُم مصدقين بما يعدكم الله و يبشّرُكم به من الغلبة، وإما أن يكون قيداً لقوله: «ولاَ تهنُوا» أى إن صحّ إيمانكم بالله وبحقيقة هذا الدين، فلا تضعفوا لثقتكم بأنّ الله سيتمُّ هذا الأمر، قال راشد بن سعد: لما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد كئيباً حزيناً جعلت المرأة تجىء بزوجها وأبيها وابنها مقتولين، فقال رسول الله صلى الله عليه

وسلم: [أهكذا تفعَلُ برسولك]؟ فنزلت: «**إنْ يمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القوْمَ قرْحٌ مِثْلُهُ**» .. والمراد بالقرح الجراحة. ومعنى الآية إنْ نالُوا منكم يوم أحد فقد نلتُم منهم قبل ذلك فى يوم بدر، ثم لم يثبّطهم ذلك عن معاودة القتال، فأنتم أولى بأن لا تفقوا ولا تجبنوا، ونظيره: «**فإنَّهُمْ يألَمونَ كما تألَمُونَ وترجُون من الله ما لاَ يرجُون**» وقوله تعالى: «**وتلْكَ الأ يّامُ**» موصوفاً وصفتُه مبتدأ خبره نداولها، أو تلك مبتدأ والأ يام خبرة كقولك هى الأ يام تبلى كل جديد، فإن الضمير لا يوصف، و يكون تلك إشارة إلى الوقائع والأحوال العجيبة التى يعرفها أهل التجارب من أبناء الزمان. والمراد بالأ يام ما فى تلك الأ وقات من الظفر والغلبة والحالات الغريبة، وقوله: «**نداولها**» كالتفسير لما تقدّمه. والمداولة نقل الشيء من واحد إلى آخر، و يقال: تداولته الأ يدى. أى تناقلته، والدنيا دول أى تنتقل من قوم إلى آخرين لا تدوم مسارّها ومغامّها، فيوم يحصل فيه السرور له والغمّ لعدوّه، و يوم آخر بالعكس، فلا يبقى شيء من أحوالها، ولا يستقُّر أثر من آثارها ونظيره قولهم: الحرب سجال. شبّهت بالدلاء لكونها تارة مملوءة وأخرى فارغة، وليس المراد من هذه المداولة أنه تعالى ينصر المؤمنين وأخرى ينصر الكافرين، بل المراد أنّه تارة يشدّد المحنة على الكافرين وأخرى على المؤمنين. وذلك أنّه لو شدّد المحنة على الكفار فى جميع الأ وقات وأزالها عن المؤمنين فى جيعها لحصل العلم الاضطرارى بأنّ الايمان حقٌ وما سواه باطلٌ، ولو كان كذلك لبطل التكليف والثواب والعقاب. فالحكمة في المداولة أن تكون الشبهات باقية، والمكلّف يدفعها بواسطة النظر في الدلائل الدّالة على صحة الإسلام. فيعظم ثوابه عند الله، وإلى هذا يشير قوله سبحانه: «**وليعْلَمَ الله الّذِينَ آمَنُوا**» وحذف المعطوف عليه ليذهب الوهم كل مذهب. و يقرر الفوائد. والتقدير: نداولها بين الناس ليكون كيت وكيت وليعلم، وفيه إيذان بأن المصلحة في هذه المداولة ليست بواحدة، ولكن في ضمنها مصالح جمّة لو عرفوها انقلبت مساءتهم مسّرة منها أن يعلم الله أى ليظهر معلومنا وهو المخلص من المنافق، والمؤمن من الكافر. وقيل: معناه ليحكم بالامتياز، فوضع العلم مقام الحكم، وقيل: ليعلمهم علماً يتعلّق به الجزاء، وقيل: ليعلم أولياء الله. فأضاف إلى نفسه تفخيماً لهم. وعلى الأقوال العلم بمعنى العرفان، ولهذا تعدّى إلى مفعول واحد، وقيل: بمعنى فعل القلب الذى يتعدّى إلى مفعولين. والتقدير وليعلمهم مميّزين عن غيرهم. وقوله: «**و يتّخِذَ مِنكُمْ شُهَداءَ**» ممّن يصلح للشهادة على الأمم يوم القيامة. كقوله تعالى: «**لتكُونُوا شُهَداءَ على النّاسِ**» وهذا منصب شريف لا يناله إلا

هـذه الأمـة. ولـن يكونوا من الأمة إلا بالصّبر على ما ابتلوا به من الشدائد، أو المراد ليكرم نـاسـاً مـنـكـم بالشهادة، والشهداء جمع شهيد كالكرماء والظرفاء. والمقتول من المسلمين بسيف الكفار يسمى شهيداً. قال النضر بن شميل: لأنهم أحياء حضروا دار السلام كما ماتُو بخلاف غيرهم، وقال ابن الأنبارى: لأنّ الله وملائكته شهدوا له بالجنة* «**والله لا يُحِبُّ الظّالِمِينَ**» أى المشركين «**إنّ الِشّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**» قاله ابن عباس رضى الله عنها، وقيـل: لا يحب مـن لـيـس من هؤلاء الثابتين على الايمان الصابرين على البلوى.

و بين الحكمـة بـقـوله: «**وليُمَحّصَ الله الّذِينَ آمَنُوا ويمحقَ الْكَافِرِينَ**» والمحص في اللغة الـتـنـقـيـة، والمحق النقصان. وفي القاموس ومحص الذهب بالنّار من باب منع أخلصه مِمّا يـشوبه. والتمحيص الابتلاء والاختبار* وفى البيضاوى: «**وليمّحِصَ الله الّذِينَ آمنُوا**» لـيـطهرهم و يصفّيهم من الذنوب إن كانت الدولة عليهم «**و يَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**» يهلكهم إن كـانـت الـدولـة عليهم، والمحق نقص الشيء قليلاً قليلاً* وقال المفضل: هو أن يذهب الشيء كـلـه لحتى لا يـرى مـنـه شيء* وقـال الـزجـاج: معنى الآية إنّه إن حصلت الغلبة للكـافـرين على المؤمنين كان المراد تمحيص ذنوب المؤمنين أى تطهريهم وتصفيتهم، وإن كـان بـالـعـكـس فـالمراد محو آثار الكفار، وهذه مقابلة لطيفة لأن تمحيص هؤلاء بإهلاك ذنوبهم نظير محق أولئك بإهلاك أنفسهم لا بالكليّة فإنّ ذلك غير واقع، بل بتدريج ومهل*

وقـولـه: «**أم حَسِبْتُمْ**» أى بـل. أم منقطعة والهمزة للاستفهام الانكارى أى لا ينبغى مـنـكـم أنـكـم تحبُون أى تظنون أنكم تدخلون الجنّة مع أنكم لم تجاهدوا ولم تصبروا على شدائد الحرب. وعبارة أبى السعود: هذا خطاب للمنهزمين يوم أحد، وأم منقطعة، وما فيها مـن كـلـمـة بـل لـلاضـراب عـن تـسليتهم إلى تـوبيخهم، والهمزة المقدّرة معها للانكار والاسـتـبعاد* «**أنْ تدخُلُوا الجنّةَ وَلَمّا يَعْلَمِ الله الّذِينَ جَاهَدُوا منكم**» أى علم ظهور.

قـال أبـوالـسـعـود: نفى العلم كناية عن نفى المعلوم لما بينهما من اللزوم المبنى على لزوم تحقّق الأول لتحقّق الثانى ضرورة استحالة تحقق شيء بدون علمه تعالى به، وإنما وجه النفى إلى المـوصـوفين مع أن المنفى هو الوصف فقط، وكان يكفى أن يقال: ولمّا يعلم الله جهادكم كـنـايـة عـن معنى، ولمّا تجاهدوا للمبالغة فى بيان انتفاء الوصف وعدم تحققه أصلاً، وفى كلمة لمّا إيذان بأن الجهاد متوقّع منهم فيما يستقبل إلاّ أنه غير معتبر فى تأكيد الانكار* أى ولـمّـا هـنـا بمعنى لمْ مع زيادة التوقّع، وليس المراد نفى العلم بالمجاهدين. ولكن المراد نفى

المعلوم، وإنما حسن إقامة ذلك مقام هذا لأن العلم متعلّق بالمعلوم كما هو عليه، فلمّا حصلت بينهما هذه المطابقة حسن إقامة أحدهما مقام الآخر تقول: ما علم الله فى فلان خيراً، أى ما فيه خير حتى يعلمه. فحاصل الكلام: لا تحسبوا أن تدخلوا الجنة ولم تجاهدوا بعد. وإنما أنكر هذا الحسبان لأنه تعال أوجب الجهاد قبل هذه الواقعة وأوجب الصبر على تحمل متاعبها، و بيّن وجوه المصالح المنوطة بها فى الدين والدنيا، وإذا كان كذلك فمن البعيد أن يصل الإنسان إلى السعادة والجنّة مع إهمال مثل هذه الطاعة، وقوله: «**وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**» فى الشدائد. ونصب الفعل بأن مقدرة بعد الواو المقتضية للجمع كهى فى قولك: لا تأكل السّمك وتشرب اللبن أى لا تجمع بينهما وهو مذهب البصريين، أو بواو الصرف وهو مذهب الكوفيين. كأنه قيل إن دخول الجنة وترك المصابرة على الجهاد ممّا لا يجتمعان، فليس كُلُّ من أقرّ بدين الله كان صادقاً ولكن الفيصل فيه تسليط المكروهات ومخالفات النفس فإن الحبّ هو الذى لا ينقص بالجفاء ولا يزاد بالوفاء. وقيل: التقدير أظننتم أن تدخلوا الجنة قبل أن يعلم الله المجاهدين وأن يعلم الصابرين هذا على تقدير أنّ، ووجه آخر وهو أن يكون مجزوماً لكنّ الميم حرّكت للساكنيْن حركت بالفتحة اتّباعاً للفتحة قبلها، وقوله تعالى: «**وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ**» حيث قلتم ليتَ لنا يوماً كيوم بدر لننال ما نال شهداؤه. فى الخازن: قال ابن عباس: لما أخبر الله عزّ وجلّ المؤمنين على لسان نبيّه صلى الله عليه وسلم بما فعل بشهدائهم يوم بدر من الكرامة رغبوا فى ذلك فتمنَّوا قتالاً يستشهدون فيه، فيلحقون بإخوانهم، فأراهم الله يوم أُحد، فلم يلبثوا أن انهزموا إلاّ من شاء الله منهم فأنزل الله هذه الآية* ومعنى قوله: «**تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ**» أى تطلبون أسباب الموت وهو القتال والجهاد «**مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ**» أى من قبل أن تلقوا يوم أُحُدٍ، والخطاب للذين لم يشهدوا بدراً بدليل إلحاحهم يوم أُحد على الخروج. وقوله: «**فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ**» أى سببه بالحرب. وهى رؤية بصريّة. قال البيضاوى: أى قد رأيتموه معاينين لَهُ حين قتل دونكم. أى قدامكم وبين أيديكم من قتل من إخوانكم. وهو توبيخ لهم على أنهم تمنّوا الحرب وتسبّبُوا فيها، ثم جبنُوا وانهزموا عنها، أو توبيخ لهم على الشهادة فإن فى ثمنها تمنّى غلبة الكافرين* و يدل عليه تذييل الآية «**وأَنتُمْ تنظرُونَ**» أى بصراء تتأملون الحال كيف هى فَلِمَ انهزمتم، وفى إيثار الرؤية على الملاقاة وتقييدها بالنظر مزيد مبالغة فى مشاهدتهم له.

((القول فى سبب نزول قوله تعالى :))

«وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلى أعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ* وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أنْ تَمُوتَ إلاَّ بإذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثوابَ الدُّنيا نُؤتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثوابَ الآخِرَةِ نؤتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِينَ* وَكأيِّن مِنْ نبيٍّ قاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أصَابَهُمْ فى سَبيلِ اللهِ ومَا ضَعُفُوا ومَا اسْتَكَانُوا واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ* ومَا كَانَ قوْلَهُمْ إلاَّ أنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنا ذنُوبَنَا وإسْرَافَنَا فى أمْرِنَا وثَبِّتْ أقْدامَنَا وانْصُرْنَا عَلى الْقَوْمِ الكافِرِينَ* فآتاهُمُ اللهُ ثوابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوابِ الآخِرةِ واللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ»

سورة آل عمران (الآية: ١٤٤ ـ ١٤٨)

فى الواحدى وابن كثير قال عطية العوفى: لمّا كان يوم أحد انهزم الناس، فقال بعض النّاس: قد أصيب محمد فأعطوهم بأيديكم، فإنما هم إخوانكم، وقال بعضهم: إذا كان محمد أصيب ألا ما تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى تلقوا به. فأنزل الله فى ذلك ـ «ومَا محمّدٌ إلاَّ رسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» ـ إلى قوله ـ «وكأيِّنْ مِنْ نبيٍ قاتَلَ مَعَهُ ربيُّون كثير» ـ إلى قوله ـ «والله يحبُّ الْمُحْسِنين» * وعبارة ابن كثير: لما انهزم من انهزم من المسلمين يوم أُحد، وقتل من قتل منهم، نادى الشيطان: ألا إنّ محمداً قد قُتل، ورجع ابن قمئة إلى المشركين، فقال لهم: قتلت محمداً، وإنما كان قد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فشجّهُ فى رأسه، فوقع ذلك فى قلوب كثير من النّاس، واعتقدوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قتل، وجوّزوا عليه ذلك كما قصّ الله عن كثير من الأنبياء عليهم السلام فحصل ضعف ووهن وتأخرٌ عن القتال ففى ذلك أنزل الله تعالى: «ومَا مُحَمّدٌ إلاَّ رسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قبْلِهِ الرُّسُلَ» أى لَهُ أسوة بهم فى الرسالة وفى جواز القتل عليه. قال ابن أبى نجيح عن أبيه: أن رجلاً من المهاجرين مرّ على رجل من الأنصار وهو يتشحط فى دمه فقال له: يا فلان أشعرت أنّ محمّداً قد قتل؟ فقال

الأنصاريُّ: إن كان محمد قد قتل فقد بلّغَ فقاتلُوا عن دينكم فنزل: «**وَمَا محَمَّدٌ إلاَّ رسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قبْلِهِ الرُّسُلُ**» رواه الحافظ أبو بكر البيهقي فى دلائل النبوّة. وروى بقية المفسرين قصّة معركة أُحد بطولها نقلاً عن أصحاب السير والمغازى فلا حاجة لذكرها ولأنه سيأتى طرفاً منها أثناء الشرح قوله تعالى: «**ومَا مُحمَّدٌ إلاَّ رسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**» فسيخلو كما خلوا بالموت، ومحمد صلى الله عليه وسلم هو المستغرق لجميع المحامد لأنّ الحمد لا يستوجبه إلا الكمال، والتّحميد فوق الحمد فلا يستحقه إلاّ المستولى على الأمر فى الكمال، وأكرم الله تعالى نبيه وصفيه محمداً صلى الله عليه وسلم باسمين مشتقين من اسمه جلّ وعلا محمد وأحمد، وفيه يقول حسان بن ثابت:

وشق له من اسمه ليُجلَّهُ فذو العرش محمود وهذا محمداً

وقوله: «**أفإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أعقابِكُمْ**» إنكاراً لارتدادهم، وانقلابهم على أعقابهم عن الدين لخلّوه صلى الله عليه وسلم بموت أو قتل بعد علمهم بخلو الرسل قبله، و بقاء دينهم متمسكاً به «**ومَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ الله شيئاً**» بارتداده، وإنما يضر نفسه، وقد أوجب الدين قتل المرتد بعد ثلا ثة أيام إذا لم يرجع إليه لأن رتداده عن الدين تشجيع للناس على حركة الردة ومحاربة الإسلام. «**وسَيَجْزى الله الشاكرينَ**» يعنى الثابتين على دينهم الذين لم ينقلبوا عنه لأنهم شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام وثباتهم عليه، فسمّاهم الله شاكرين لما فعلوا، وسيثيب الله من شكره على توفقه وهدايته. وروى ابن جبير عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه في قوله: «**وسيجزى الله الشاكرين**» قال الثابتين على دينهم: أبا بكر وأصحابه، وكان علىٌّ يقول: أبو بكر أمين الشاكرين، وأمين أخبار الله، وكان أكرمهم وأحبّهم إلى الله تعالى: «**ومَا كانَ لِنفسٍ أنْ تمُوتَ إلاَّ بإذْنِ الله**» ووجه السياق أن المنافقين أرجفُوا محمداً قتل فارجعوا إلى ما كنتم عليهم من الأديان فأبطل قولهم بأن القتل مثل الموت في أنّه لا يحصل إلاّ فى الوقت المقدّر، وكما أنّه لو مات فى بلده لم يدل ذلك على فساد دينه، فكذا لو قتل، وفيه تحريض المؤمنين على الجهاد باعلامهم أن الحذر لا يغنى عن القدر، وأنّ أحداً لا يموت قبل الأجل، وإنْ خاض المهالك واقتحم المعارك، أو الغرض بيان حفظه وملائكته لنبيّه، فإنه ما بقى فى تلك الواقعة سبب من أسباب الهلاك والشرّ إلا وقد حصل إلاّ أنه تعالى لـمّا كان حافظاً لنبيّه، ولم يقدر فى ذلك الوقت أجله لم يضره ذلك، وفيه

تقريع لأصحابه أنهم قد قصروا فى الذبّ عنه صلى الله عليه وسلم، وجواب عما قاله المنافقون للصحابة لمّا رجعوا: لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قُتِلُوا. قال الأخفش والزجاج: تقدير الكلام وما كانت نفس لتموت إلاّ بإذن الله* وقال ابن عباس: الإذن هو قضاء الله وقدره فإنه لا يحدث شيئاً إلا بمشيئة الله وإرادته* فأورد الكلام على سبيل التمثيل كأنه فعل لا ينبغى لأحدٍ أن يقدم عليه إلاّ أن يأذن الله فيه، وذلك أن إسناد الموت إلى النفس نسبة الفعل إلى القابل لا إلى الفاعل، فاقيم القابل مقام الفاعل. وقال أبو مسلم: الاذن هو الأمر. والمعنى أن الله تعالى يأمر ملك الموت بقبض الأ رواح فلا يمت أحد إلا بهذا الأمر* وقيل: المراد التكوين والتخليق لأنه لم يقدر على خلق الموت والحياة أحد إلا الله. وقيل: التخلية والإطلاق وترك المنع بالقهر والاجبار، والمعنى ما كان لنفس أن تموت بالقتل إلاّ بأن يخلى الله بين القاتل والمقتول. وفيه أنه تعالى لا يخلّى بين نبيه و بين أحد ليقتله صلى الله عليه وسلم، ولكنه جعل من بين يديه صلى الله عليه وسلم ومن خلفه رصداً ليتم على يديه بلاغ ما أرسله به، فلا تهنوا فى غزواتكم بعد ذلك بإرجاف مرجف. وقيل: الاذن العلم، أى لن تمت نفس إلا نفس إلا فى الوقت الذى علم الله موتها فيه. وفى الآية دليل على أن المقتول ميت بأجله، وأنَّ تغيير الآجال ممتنع ولذا أكدّ هذا المعنى بقوله: «**كِتَاباً مُؤجلاً**» وهو مصدر مؤكد لنفسه لدلالة ما قبله عليه، أى كتب الموت كتاباً مؤجلاً مؤقتاً له أجل معلوم لا يتقدم ولا يتأخر. وقيل: الكتاب المؤجل هو اللوح المحفوظ الذى كتب فيه جميع الحوادث من الخلق والرزق والأجل والسعادة والشقاوة. قال القاضى: الأجل والرزق مضافان إلى الله تعالى، وأما الكفر والفسق والايمان والطاعة، فكل ذلك مضاف إلى العبد، فإذا كتب تعالى ذلك فإنما يكتب ما يعلمه من اختيار العبد من أن يكون مذموماً أو ممدوحاً* والحقُّ أن هذا تعكير للقضية فإن الله تعالى إذا علم من العبد الكفر استحال أن يأتى هو بالإيمان، وإلاّ انقلب علم الله جهلاً، وإذا كان هو غير قادر على الايمان حينئذ فما معنى اختياره؟ «**ومن يُردْ ثوابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا**» أى من ثوابها. تعريض بالفريق الدنيوي، وهم الذين شغلتهم الغنائم، و باقى الآية مدح للفريق الآخر الأخروى، وإن فضله تعالى وعطيته شامل لكلا الفريقين، لكن ثواب الفريق الثانى هو المعتد به فى الحقيقة «**وَمَنْ يُردْ ثوابَ الآخرةِ نؤتِهِ مِنْهَا وسَنَجْزى الشاكرينَ**» فأبهم الجزاء وأضافه إلى نفسه تنبيهاً على أن جزاء الذين شكروا نعمة الإسلام فلم يشغلهم

عن الجهاد شيء لا يكتنه كنهه، وتقصر عنه العبارة. **«وَمَنْ يُرِدْ ثوابَ الدّنيا»** الخ .. نزلت فى الذين تركوا المركز وطلبوا الغنيمة. وقوله: **«وَمَنْ يُرِدْ ثوابَ الآخرة..»** نزلت فى الذين ثبتُوا مع النبىّ، وهذه الآية وإن نزلت فى الجهاد خاصة لكنها عامة فى جميع الأعمال كما قال صلى الله عليه وسلم: [إنّما الأعْمَالُ بالنيّات] وذلك لأن المؤثر فى جانب الثواب والعقاب القصود والدواعى، فمن وضع الجبهة على الأرض والوقت ظهراً والشمس أمامه فإن قصد بذلك السجود عبادة لله تعالى كان من الإيمان، وإن قصد تعظيم الشمس كان من الكفر، وقوله: **«وكأيّنْ»** كم. والأكثرون على أنها فى الأصل مركبة من كاف التشبيه وأى التى هى فى غاية الإبهام إذا قطعت عن الاضافة، كما أنّ كذا مركبة من الكاف وذا المقصود به الإشارة، فكأين مثل كذا فى كون المجرورين مبهمين عند السامع إلاّ أنّ فى ذا إشارة فى الأصل إلى ما فى ذهن المتكلّم بخلاف أىْ فإنه للعدد المبهم، فهى بمعنى كم الخبرية وتمييزها **«مِنْ نبىّ»** وتنو يه للتكثير. أى أنبياء كثيرون **«قَاتَلَ مَعَهُ رِبيُّونَ كَثيرٌ»** قال ابن عباس: جموع كثيرة. وقيل: الربيون: الألوف، وقيل: الربيّة. الواحدة عشرة آلاف، وقيل: ألف. وقيل: ربيُّون يعنى فقهاء علماء، وقيل الربيُّون هم الأتباع. وفى قراءة **«قُتِلَ»** أى وكأين من نبىّ قُتل ممن كان معه وعلى دينه ربيون كثير **«فَمَا وَهَنوا»** ضعفوا أى الباقون **«وما استكانُوا»** لقتل من قتل من إخوانهم، بل مضوا على جهاد عدوّهم إعلاء لكلمة الله، ثم إنه تعالى مدح هؤلاء الربيين بصفات، وذلك قوله: **«فَمَا وهَنُوا لِمَا أصَابهُمْ فى سَبِيلِ الله»** الخ.. ولا بُدّ من تغايرهما، فقيل: فما وهنوا عند قتل النبىّ، وما ضعفوا عن الجهاد بعده، وما استكانوا للعدو، أى لم يخضعوا له، وفيه تعريض بما أصاب المسلمين من الوهن والانكسار عند الارجاف بقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، و بضعفهم عند ذلك عن جهاد الكفّار، واستكانتهم لهم حين أرادوا أن يعتضدوا بالمنافق عبدالله بن أبى فى طلب الأمان من أبى سفيان، وقيل الوهن استيلاء الخوف عليهم، والضعف ضعف الإيمان، واختلاج الشبهات فى صدورهم. والاستكانة الانتقال من دينهم إلى دين عدوّهم، وقيل: الوهن ضعف يلحق القلب، والضعف مطلقاً اختلال القوّة الجسميّة، والاستكانة إظهار ذلك العجز والضعف. واستكان قيل: افتعل من السكون كأنه سكن لصاحبه ليفعل به ما يريد و يؤيد هذا قوله: **«والله يُحِبُّ الصّابِرِينَ»** على الشدائد والمحن ومشقة الجهاد فيثيبهم

الجنّة عرفها لهم، ثم أخبر أن الربيين كانوا مستعينين عند ذلك بالتصبر والتجلّد بالدعاء والتضرّع وطلب الامداد والنصر من الله تعالى. والغرض أن تقتدى هذه الأمة بهم فقال: **«ومـا كـانَ قولَهُمْ إلاَّ أنْ قَالُوا ربَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذنُوبَنَا وإسْرافَنَا في أمْرِنا وثَبِّتْ أقْدامَنَا وانْصُرْنَا عَلى القَوْمِ الكافِرِينَ»** أى أنهم تجاوزوا الحد فى الإسراف، وهذا إيذان بأنَّ ما أصابهم كان لسوء فعلهم. لذا طلبوا مغفرة ذنوبهم قاطعين على أنفسهم القيام بالأعمال الصالحة. منها الجهاد فى سبيل الله، والنصر على القوم الكافرين. أى فهلا قُلتُم وفعلتُم مثل ذلك يا أصحاب محمّد؟! فكان من جزائهم أن **«فآتَاهُمُ الله ثوابَ الدنيا»** بالنصر والغنيمة والعزّ وحسن الذكر **«وحُسْنَ ثَوابِ الآخرةِ»** أى بالجنّة والنعيم المقيم **«والله يُحِبُّ الْمُحْسِنينَ»** أى فيكثر لهم الثواب، وهم الذين يفعلون مثل ما فعل هؤلاء، وهذا تعليم من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يقولوا مثل هذا عند لقاء العدوّ، وفيه دقيقة لطيفة، وهى أنّهم لمّا اعترفوا بذنوبهم وكونهم مسيئين سمّاهم الله تعالى محسنين. والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه. وهنا سرّ أيضاً وهو أنه تعالى وفقهم للطاعة، ثم أثابهم عليها، ثم مدحهم على ذلك فسّماهُمْ محسنين ليعلم العبد أن الكل بعنايته وفضله.

((القول فى سبب نزول قوله تعالى :))

«سَنُلْقِي في قُلُوبِ الّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أشْرَكُوا باللهِ مَا لَمْ ينزّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْواهُمْ النَّارُ وبِئْسَ مَثْوَى الظّالِمِينَ»

سورة آل عمران (الآية: ١٥١)

فى الواحدى: قال السّدى: لمّا ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أُحد متوجّهينَ إلى مكّة، انطلقوا حتى بلغوا بعض الطريق، ثم إنهم ندموا وقالوا: بئس ما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم نبق منهم إلاّ الشرذمة تركناهم، ارجعوا فاستأصلوهم، فلمّا عزموا على ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرعب حتى رجعوا عمّا همُّوا به، وأنزل الله تعالى هذه الآية* وفى الخطيب. وذلك أن الكفار لمَّا هزموا المسلمين فى أُحد أوقع الله الرعب فى قلوبهم فتركوهم وفروا منهم بغير سبب، حتى روى أن أبا سفيان صعد الجبل — أى وهو منهزماً — ونادى يا محمد: موعدنا موسم بدر القابل إن شئت، فقال عليه الصلاة والسلام: **«إنْ شاء الله»** ثم ذكر ما أورده الواحدى. بلفظ وقيل: إنهم لما ذهبوا منتصرين متوجهين إلى

مكة، فلما كانوا فى بعض الطريق ندموا الخ ...* وفى الطبرى عن السّدى قال: لمّا ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أُحد متوجهين نحو مكّة، انطلق أبو سفيان حتى بلغ بعض الطريق، ثم إنهم ندموا فقالوا: بئس ما صنعتم إنكم قتلتموهم حتى إذا لم يبق إلا الشريد تركتموهم!. ارجعوا فاستأصلوهم، فقذف الله عزّ وجلّ فى قلوبهم الرعب، فانهزموا، فلقوا أعرابياً فجعلوا له جعلاً، وقالوا: إن لقيت محمّداً فأخبره بما قد جمعنا لهم، فأخبرا الله عزّ وجلّ رسوله صلى الله عليه وسلم فطلبهم حتى بلغ حمراء الأسد فأنزل فى ذلك: «**الّذِينَ اسْتَجابُوا للهِ والرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ ما أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ واتّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ* الّذِينَ قَالَ لَهُمْ النّاسُ**» ـ نعيم بن مسعود الأشجعى ـ «**إنَّ النّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فزادَهُمْ إيمَاناً وقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الْوكيلُ* فانْقَلَبُوا بنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ* إنّمَا ذلِكُمُ الشَيْطانُ يُخوّفُ أوْلِيَاءَهُ* فَلاَ تَخَافُوهُمْ وخَافُونِ إنْ كُنْتُمْ مُؤمِنينَ**» وستأتى هذه الآيات فيا بعد إن شاء الله تعالى. وأكثر المفسرين على أن هذه الآية نزلت فى موعد أبى سفيان فى بدر الصغرى، فلم يخرج إليها إذ وصل بجيشه إلى مرّ الظهران يريد بدراً الصغرى، فألقى الله فى قلبه الرعب، وذكر له أن نعيا بن مسعود الأشجعى كان معتمراً قاصداً المدينة، فجعل له عشر نياق على أن يثبط محمّداً وأصحابه عن الخروج إلى بدر الصغرى، فجاءهم وهم يتجهزون، وقال لهم: ماذا تفعلون؟ قالوا: نريد الخروج إلى أبى سفيان، فقال لهم: لقد غزاكم فى قعر داركم، فقتل منكم سبعين، ولم ينج منكم إلا من كان شريداً أو طريداً، فكيف تخرجون إليه وقد جمع لكم جموعاً؟! فتثبّط الكثير من أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم عن الخروج، فقال عليه الصلاة والسلام [والله لأخرجن إليهم ولَوْ كنت وحدى] فخرج معه قرابة ثلا ثمائة فارس، وجاؤا بدراً، ولم يأت أبو سفيان، فباعوا ما معهم من الذهاب فى السوق وربحوا الدرهم درهمين، وذلك قوله تعالى: «**فانْقَلَبُوا بنعمةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ لَمْ يمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتّبعُوا رضوانَ اللهِ ..**» وفى ابن كثير: وروى العوفى عن ابن عباس فى قوله تعالى: «**سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الّذِينَ كَفَروا الرُّعْبَ**» قال: قذف الله فى قلب أبى سفيان الرعب فرجع إلى مكة فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: [إنّ أبا سفيان قد أصاب منكم طرفاً، وقد رجع وقذف الله فى قلبه الرعب» رواه ابن أبى حاتم. والرعب: الخوف الشديد حتى رجعوا عما هموا به، فعلى هذا

القول يكون الوعد بالقاء الرعب فى قلوب الكفار مخصوصاً بيوم أحد، وقيل: إنه عام وإن كان السبب خاصّا لقوله صلى الله عليه وسلم: [نصرت بالرعب من مسيرة شهر] فكأنه قال: سنلق فى قلوب الذين كفروا الرعب منكم حتى تقهروهم و يظهر دينكم على سائر الأديان، وقد فعل الله ذلك بفضله وكرمه حتى صار دين الإسلام ظاهراً على جميع الأديان والملل كما قال الله تعالى: «**لِيُظْهِرَهُ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِ**» وفى شرح المواهب. بعد ارتحالهم من أحد وقد نزلوا بملل — بوزن جبل — موضع قريب من المدينة، فقال بعضهم لبعض: ما صنعتم شيئاً فقد بقى من القوم وجوه ورؤساء يجمعون عليكم، فارجعوا لنستأصل من بقى، فقال بعض آخر منهم: لا تفعلوا، فإن الدولة لكم فلو رجعتم لربما كانت عليكم* وخرج صلى الله عليه وسلم فى أثرهم فى ستمائة وثلاثين على الصحيح وهم الذين شهدوا أُحداً حتى نزل بحمراء الأسد، وهو مكان على ثمانية أميال من المدينة فلم يدرك منهم أحداً. وتمام الكلام مبسُوط فى كتب المغازى والسير: وقوله تعالى: «**بِمَا أَشْرَكُوا**» أى إنما كان إلقاء الرعب فى قلوب الكافرين بسبب إشراكهم بالله وفيه وجهٌ معقول وهو أن الدعاء إنما يصير فى محل الاجابة عند الاضطرار كما قال: «**أَمَّنْ يُجِيبُ المضطرَّ إذَا دعَاهُ**» ومن اعتقد أنّ لله شريكاً لم يحصل له الاضطرار لأنه يقول إن كانَ هذا المعبود لا ينصرنى فذاك الآخر ينصرنى فلا يحصل له الإجابة فيلزمهم الرعب والخوف هذا تقدير أن معبوديهم يصح منهم الاجابة كيف وإنهم لا يملكون نفعاً ولا ضراً «**مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً**» حجة. أي لم ينزل الله بإشراكها حجة، وهو دليل على أنه واحد أحد لا شريك له فى ذاته ولا فى صفاته ولا فى أفعاله تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، وعمّا يقوله المشركون والملحدون والزنادقة ظلماً وعدواناً «**وَمَأْوَاهُمُ**» أى المكان الذى يأوون إليه «**النَّارُ وبئسَ مثْوىَ الظَّالِمِينَ**» مقام المشركين من ثوى بالمكان يثوى إذا أقام به.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنكُم مَنْ يُرِيدُ الدُّنيا ومِنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخرةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ واللهُ ذُو فَضْلٍ عَلى المُؤْمِنينَ* إِذْ تُصْعِدُونَ ولاَ تَلْوُونَ عَلى

أَحَدٍ والرَّسُولُ يدعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فأَثَابَكُمْ غمّاً بِغَمٍ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَـا فَاتَكُمْ ولا مَـا أَصَـابَكُمْ واللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُون»

سورة آل عمران (الآية: ١٥٢، ١٥٣)

فى الواحدى : قال محمد بن كعب القرظى: لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وقد أصيبوا بما أصيبوا يوم أحد. قال ناسٌ من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر؟ فأنزل الله تعالى:«**ولقد صدقكُمُ الله وعده..**» إلى قوله:«**منكُمْ مَنْ يريدُ الدنيا..**» يعنى الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أحد* وكذا فى الخطيب وغيره وقوله:«**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ**» نزلت لما اجتمع المؤمنون بعد رجوعهم إلى المدينة، وقال بعضهم لبعض: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله بالنصر، وهو ما وعدهم على لسان نبيه حيث قال للرماة لا تبرحوا من مكانكم، ولن تزالوا غالبن ما ثبتم مكانكم، وقد كان كذلك، فإن المشركين لما أقبلوا جعل الرماة يرمونهم والباقون يضربونهم بالسيوف حتى انهزموا، والمسلمون على آثارهم يقتلونهم قتلاً ذريعاً حتى قتلوا منهم فوق العشرين* وفى السمين فى قوله:«**بإِذْنِهِ**» متعلّق بمحذوف لأنه حال من فاعل تحسُّونهم أى تقتلونهم مأذوناً لكم* والمراد بإذنه: إرادته «**حتّى إِذَا فَشِلْتُمْ**» جبنتم عن القتال. فى المصباح فشل فشلاً، فهو فشل من باب تعب، وهو الجبان الضعيف القلب. وفى حتى هذه قولاً: أحدهما أنها حرف جرّ بمعنى إلى، وفى متعلقها حينئذٍ ثلاثة أوجه: أحدها أنّها متعلقة بتحسُّونهم. أى تقتلونهم إلى هذا الوقت، والثانى: أنها متعلقة بصدقكم وهو ظاهر قول الزمخشرى حيث قال: ويجوز أن يكون المعنى صدقكم الله وعده إلى وقت فشلكم، والثالث: أنها متعلقة بمحذوف دلّ عليه السياق تقديره دام لكم ذلك إلى وقت فشلكم. القول الثانى: أنها حرف ابتداء داخله على الجملة الشرطيّة، وإذا على بابها من كونها شرطيّة، وفى جوابها حينئذٍ ثلاثة أوجه: أحدها، أنه وتنازعتم قال الفراء، وتكون الواو زائدة. والثانى أنه ثم صرفكم، وثم زائدة، وهذان القولان ضعيفان جداً. والثالث وهو الصحيح أنه محذوف. واختلفت عبارتهم فى تقديره، فقدره ابن عطية انهزمتم، وقدّره الزمخشرى، منعكم نصره، وقدّره أبوالبقاء بأن لكم أمركم. ودلّ على ذلك قوله: «**منكُمْ مَنْ يُريدُ الدُّنيا..**» وقدره غيره امتحنتُم، وقدّره بعضهم انقسمتُم إلى قسمَيْن.. والمعنى

على الأوّل. قد نصركم الله إلى حين كان منكم الفشل لأن وعدهم بالنصر كان مشروطاً بالثبات والصبر «وتنازعتم في الأمرِ» أى الشأن، وذلك أن الرماة لما انهزم المشركون ونساؤهم يصعدن الجبل وكشفن عن سوقهن بحيث بدت خلاخلهنّ، قالوا: الغنيمة. فقال عبدالله بن جُبير: أمير الرماة، عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا نبرح هذا المكان، فأبوْا عليه وذهبوا إلى طلب الغنيمة، و بقى عبدالله مع طائفة دون العشرة إلى أن قتلهم المشركون فهذا هو تنازعهم فى الأمر أى الشأن والقصة، أو بمعنى الأمر الذى يضاد النهى. أى تنازعتم فيما أمركم الرسول به، وعصيتم بترك ملازمة ذلك المكان «مِنْ بَعْدِ ما أراكُمْ» الله «ما تحبُّونَ» من النصر، وجواب إذا دلّ عليه ما قبله أى منعكم نصرهُ «مِنكُمْ مَنْ يُريدُ الدنيا» فترك المركز للغنيمة «ومنْكُمْ مَنْ يُريدُ الآخِرَة» فثبت به حتى قتل كعبدالله بن جبير وأصحابه. وفى هذا تنبيه لهم على عظم شأن المعصية لأنهم لما شاهدوا أن الله أكرمهم بإنجاز الوعد كان من حقهم أن يمتنعوا عن المعصية، فلما أقدموعليها سلبهم الله ذلك الاكرام وأذاقهم و بال أمرهم قوله: «ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ» قالت الأشاعرة: معنى هذا الصرف أنه تعالى ردَّ المسلمين عن الكفار، وحالت الريح دبوراً وكانت صباً، حتى وقعت الهزيمة على المسلمين، وقتل منهم من قتل، واستولى الكفرة. ولا يتوجّه عليهم إشكال، لأن من مذهبهم أن الخير والشرّ بإرادة الله تعالى وتخليقه، وأمّا المعتزلة فلم يرضوا بهذا التفسير، وقالوا: كيف يضيف الصرف بهذا المعنى إلى نفسه. والصرف عن الكفار معصية، وقد أضافها إلى الشيطان فى قوله: «إنَّما استزَلَّهُمُ الشَّيطانُ ببعْضِ ما كسَبُوا» وأيضاً أنه تعالى عاتبهم على ذلك الانصراف ولو كان بفعل الله لم يجز معاتبة القوم عليه كما لا يجوز المعاقبة على طولهم وقصرهم وصحتهم ومرضهم فعند ذلك ذكروا فى تأو يل الآية وجوهاً. قال الجبائى: إن الرماة كانوا فريقين: بعضهم فارق المكان أولاً لطلب الغنائم، و بعضهم، بقوا هناك إلى أن أحاط بهم العدوّ، وعلموا أنهم لو استمروا على المكث هناك لقتلهم العدوُّ ألا ترى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ذهب إلى الجبل فى جماعة من أصحابه فتحصنوا به. فلما كان ذلك الانصراف جائز أضافه الله إلى نفسه بمعنى أنه كان بأمره و بإذنه، ثم قال: «ليبتليَكُمْ» والمراد أنه تعالى لما صرفهم إلى ذلك المكان، وتحصّنُوا فيه أمرهم هناك بالجهاد والذبّ عن بقية المسلمين، ولا شك أن الاقدام على الجهاد بعد الانهزام. و بعد أن شاهدوا فى تلك المعركة قتل اقارِبهم

وأحبـائـهـم مـن أعظم أنواع الابتلاء. فاذنْ الآية مشتملة على المعذورين فى الانصراف، وعلى غير المعـذورين، فقوله: ((**ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ**)) يرجع إلى المعذورين، وقوله: ((**ولَقَدْ عَـفَـا عنكُمْ**)) يرجع إلى غير المعذورين، وسبب العفو ما علم من ندمهم على ما فرط منهم من عصيان أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم* وقال الكعبىُّ ((**ثُمَّ صَرَفكُمْ عَنْهُمْ**)) بأن لم يـأمـركـم بمعاودتهم من فورهم ليبتليكم بكثرة الانعام عليكم والتخفيف عنكم* وقال أبـو مـسلـم الأصفـهـانى: المعنى من الصرف أنه تعالى أزال ما كان فى قلوب الكفار من الـرعـب مـن المسـلـمين عقوبة لهم على عصيانهم وفشلهم، ومعنى الابتلاء أنه جعل ذلك الـصـرف محنـة عـليـهـم لـيـتـوبـوا عما خـالـفوا فيه أمره، ثم أعلمهم أنه قد عفا عنهم* قال الـقاضى: ظاهر قوله تعالى: ((**ولقدْ عَفَا عنكُمْ**)) يقتضى تقدم ذنب منهم، فإن كان ذلك الـذنـب مـن الـصـغائر صحّ أن يصف نفسه بالعفو عنهم من غير توبة. وإنْ كان من باب الكبائر فلا بد من اضمار توبتهم لقيام الدلالة على أن صاحب الكبيرة إذا لم يتب لم يكن مـن أهـل العفو* وقالت الأشاعرة: لا شكَّ أن ذلك الذنب كان من الكبائر لأنهم خالفوا صـريـح نص الرسول، وصارت تلك المخالفة سبباً لانهزام عسكر الإسلام، ولقتل جمّ غفير مـن الـصـحـابـة، ثم إنّ ظـاهـر الآيـة دلّ على أنه تعالى قد عفا عنهم من غير توبة لأنها غير مـذكـورة، فـصـارت الآية دليلاً على أنه قد يعفو عن أصحاب الكبائر* أى تفضلاً لما علم مـن نـدمـهـم على المخالفة، والندم قريب من التوبة إن لم نقل جزءاً منها ((**والله ذُو فَضْلٍ عَلى المؤمـنـينَ**)) بالعفو، أو هو متفضل عليهم فى جميع الأحوال سواء كانت الدولة لهم أو عـليـهـم، لأن الابـتـلاء رحمـة، كما أن الـنـصـرة رحمـة، وقد يستدل بالآية على أن صاحب الـكـبيرة مؤمن لأنه سماهم مؤمنين خلافاً ما يقوله المعتزلة من أنه وسط بينهما أى لا مؤمن ولا كـافر. وقوله تعالى: ((**إذْ تُصْعِدُونَ**)) تبعدون فى الأرض هار بين من العدوّ يوم أحد، وهـو مـتـعـلـق بعفا والتقدير: ولقد عفا عنكم حين صعودكم هار بين فى الجبل، وقيل هو اسـتـئناف، أو ابتداء كلام لا تعلق له بما قبله، وقرأ الحسن تَصَعِدُون ــ بفتح التاء ــ من الـصـعود. وهو الارتقاء من أسفل إلى أعلى كالصعود على الجبل وعلى السُّلَّم، وللمفسرين فى معنى الآيـة قـولان: أحـدهما. أنه صعودهم فى الجبل عند الهزيمة، والثانى أنه الابعاد فى الأرض فى حال الهزيمة و وقت الحرب. وقوله: ((**ولاَ تلْوُونَ عَلَى أحدٍ**)) أى لا يقف أحد لأحد ولا ينتظره* أى لأن من شأن المنتظر أن يلوى عنقه نحو من يريد انتظاره ((**والرَّسُولُ**

يدعُوكُمْ فـيِ أُخْرَاكُمْ» عـبارة أبي السعود «فِي أُخْرَاكُمْ» في ساقتكم وجماعتكم الأخرى. وفي البـيضاوى يقول: إليّ عباد، الله إليّ عباد الله، أنا رسول الله من يكرّ فله الجنـة* فـيحـتمل أنه صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم إلى نفسه حتى يجتمعوا عنده ولا يـتفـرقـوا، وهو الأقرب. ويحتمل أنه كان يدعوهم إلى محاربة العدو وهو بعيد إذ لا يمكنهم تـلـك المحاربة وهم على حالهم تلك من التفرق والتولية، وقد صح أن القوم تقدموه منهزمين وبقي هـو صلى الله عـليه وسلم في الجماعة المتأخرة «فَأَثَابَكُمْ غمّا بِغَمّ» أي جازاكم غمَّ الهـزيمة بـسبب غمّكم للرسول بالمخالفة والهزيمة، وسميت العقوبة التي نزلت بهم ثواباً على سـبـيـل المجـاز لأن لـفظ الثواب لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير، وقد يجوز استعماله في الشرّ لأنـه مأخوذ من ثاب إذا رجع، فأصل الثواب كل ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله سـواء كـان خيراً أو شرّاً، فمتى حملنا لفظ الثواب على أصل اللغة كان حقيقة، ومتى حملناه على الأغـلب كان مجازاً. كذا في الخازن. وقيل الباء بمعنى على. أي مضاعفاً على غمّ فوق الغـنـيمة «لِكَيْلاَ» لكيْ متعلّق بعفا، ولا من لكيلا نافية لا زائدة كما ذكر الجلال. أي عـفـا عـنـكـم لأجـل أن يـنتفي حزنكم «تَحْزَنُوا عَلَى مـا فَاتَكُمْ» من الغنيمة «ولاَ مـا أَصَابكُمْ» من القتل والهزيمة. وقد روى أنهم لما سمعوا بأن النبيّ صلى الله عليه وسلم قد قـتـل نَسُوا ما أصابهم وما فاتهم من الغنيمة «والله خبيرٌ بِمَا تَعْمَلُون» أي هو عالم بجميع أعمالكم خيرها وشرّها فيجازيكم عليها* والآيات فيما بعدها في غزوة أحد.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَمـا كَـانَ لـنبـيٍّ أَنْ يَغُـلَّ وَمَـنْ يَـغْـلُلْ يَـأْتِ بِـمَا غلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُـمَّ تُوفَّى كُلُّ نَفْسٍ مـا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ* أَفَمَنْ اتّبَعَ رضوانَ الله كَـمَـنْ بَـاءَ بِسَخَطٍ مِنَ الله ومَأْوَاهُ جَـهَـنَّـمُ وبِـئْسَ الْـمَـصِـيـرُ»

سورة آل عمران (الآية: ١٦١، ١٦٢)

في الـواحـدى: عـن ابـن عـبـاس قـال: فـقـدت قـطـيفة حمراء يوم بدر مما أصيب من المـشـركين، فـقـال أنـاسُ ــ أي مـن المنافقين ــ لعلّ النبي صلى الله عليه وسلم أخذها، فـأنـزل الله تـعـالى: «وما كـانَ لنَـبـيّ أَنْ يَغُـلّ..» قـلـت: والحديث أخرجه أبوداود والـتـرمـذي وقـال هـذا حـديـث حسن غريب. وقال قتادة: نزلت، وقد غلّ طوائف من

أصحابه* وقال الكلبيُّ ومقاتل: نزلت حين ترك الرماة يوم أحد طلباً للغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أخذ شيئاً فهو له، وأن لا يقسم الغنائم كما لم يقسم يوم بدر، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: [ظننتُم أنّا نغلّ ولا نقسم لكم] فأنزل الله هذه الآية* زاد الخطيب عما في الواحدى: وقال محمد بن اسحاق بن يسار. هذا في الوحى يقول: ما كان لنبيّ أن يكتم شيئاً من الوحى رغبة أو رهبة، أو مداهنة كان صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن، وفيه سبّ دينهم، وسبّ آلهتهم، فسألوه أن يترك ذلك فنزلت* وروى أنّه صلى الله عليه وسلم غنم في بعض الغزوات، وجمع الغنائم، وتأخرت القسمة لبعض الموانع، فجاء قوم وقالوا: ألا تقسم غنائمنا؟ فقال عليه السلاة والسلام: [لو كان لكم مثل أُحُد ذهباً ما حبستُ عليكم منه درهماً، أتحسبون أنى أغلكم مغنمكم] فنزلت «**وَمَنْ يَغْلُلْ يأتِ بِمَا غَلَّ يوْمَ القيامة**» وكل ما ذكر موجود في الخازن وابن كثير* وفي الزمخشرى: أنّه بعث طلائع فغنمت غنائم فقسمها ولم يقسم للطلائع، فنزلت. يعنى وما كان لنبى أن يعطى قوماً ويمنع آخرين، بل عليه أن يقسم بالسوية، وسمىّ حرمان بعض الغزاة غلولاً تغليظاً وتقبيحاً لصورة الأمر.

والغلول : هو الخيانة، وأصله أخذ الشيء في خفية يقال غلّ فلان يَغُلُّ ـــ قرىء بفتح الياء وضم الغين ـــ أي وما كان لنبيّ أن يخون. لأن النبوّة والخيانة لا يجتمعان ذلكم أن منصب النبوّة أعظم المناصب وأشرفها وأعلاها فلا تليق به الخيانة لأنها في نهاية الدناءة والخسّة، والجمع بين الضدين محال، فثبت بذلك أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يخن أمّته في شيء لا من الغنائم ولا من الوحى، وقيل: المراد به الأمّة لأنه قد ثبت براءة ساحة النبي صلى الله عليه وسلم من الغلول والخيانة. فدلّ ذلك على أن المراد بالغلول غيره. وقيل: اللام فيه منقولة معناه، ما كان لنبى ليغلّ على نفى الغلول عن الأنبياء* وقيل: معناه ما كان لنبي الغلول. أراد ما غلّ نبيّ قط، فنفى عن الأنبياء الغلول، وقيل: وما كان يحل لنبيّ الغلول، وإذا لم يحل لَهُ لم يفعله... وقرىء يُغَلُّ ـــ بضم الياء وفتح الغين ـــ ولها معنيان أحدهما أن يكون من الغلول أيضاً، ومعناه: وما كان لنبيّ أن يخان. أي تخونه أمّته. والثاني: أن يكون من الأغلال، ومعناه: وما كان لنبى أن يخون أي ينسب إلى الخيانة. الخازن* وقوله «**وَمَنْ يَغْلُلْ يأتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» حاملاً له على عنقه. روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم

ذات يوم فذكر الغلول فعظمه وعظم أمره حتى قال: [لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعيرٌ له رغاء يقول يا رسول الله: أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. لا ألفينّ أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حَمْحَحَةٌ، فيقول يا رسول الله: أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول يا رسول الله: اغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول يا رسول الله: أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً فقد أبلغتك] لفظ مسلم، الرغاء: صوت البعير، والثغاء: صوت الشاة، والصامت: الذهب والفضّة، وروى الشيخان عن أبي هريرة قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى خيبر، ففتح الله علينا، فلم نغنم ذهباً ولا ورقاً، غنمنا المتاع والطعام والثياب، ثم انطلقنا إلى الوادي. يعني وادي القرى، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد له، وهبه له رجل من جذام يدعى رفاعة بن زيد من بني الضبيب، فلما نزلنا الوادي قام عبد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحلّ رحله، فرمى بسهم عائر فكان فيه حتفه، فقلنا: هنيئاً له، شملته الشهادة يا رسول الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [كلا، والذي نفس محمد بيده إنَّ الشملة لتلتهب عليه ناراً أخذها من الغنائم يوم خيبر، لم تصبها المقاسم] قال: ففزع الناس، فجاء رجل بشراك أو شراكين، فقال: أصبتها يوم خيبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [شراك من نار، أو شراً كان من نار] الشراك: سير النعل الذي يكون على ظهر القدم، والسهم العائر: هو السهم الذي لا يدرى من رماه، والأحاديث في وعيد الغلول والغال كثيرة يكتفى بما ذكر «**ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ**» الغال وغيره جزاء «**بِمَا كَسَبَتْ**» عملت، «**وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**» شيئاً، وجملة ثم توفى كل نفس... معطوفة على الشرطية، وفيها إعلام بأنَّ الغال وغيره من جميع الكاسبين لا بدَّ أن يجازوا، فيندرج الغال تحت هذا العموم أيضاً فكأنه ذكر مرتين* وفي السمين: قال الزمخشري: فإن قلت هلاَّ قيل، ثم يُوفى ما كسب ليتصل به. قلت: جيء بعام دخل تحته كل كاسب من الغال وغيره. فاتّصل به من حيث المعنى، وهو أثبت وأبلغ* أي كل نفس لا يظلمون شيئاً لأنَّه عادل في حكمه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

« أوَلَمّا أصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أنّى هذا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أنْفُسِكُمْ إنَّ اللهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ* وَمَا أصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبإذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ* وَلِيَعْلَمَ الّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ أوِ ادفَعُوا قالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لا تَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإيمانِ يَقُولُونَ بِأفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ واللهُ أعْلَمُ بِمَا يَكْتُمونَ* الّذِينَ قَالُوا لإخْوانِهِمْ وقَعَدُوا لَوْ أطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فادْرَؤا عَنْ أنْفُسِكُمُ المَوتَ إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ»

سورة آل عمران (الآية: ١٦٥ - ١٦٨)

في الواحدى: قال ابن عباس: حدثنى عمر بن الخطاب قال: لمّا كان يوم من العام المقبل عوقبُوا بما صنعوا يوم بدر من أخذه الفداء، فقتل منهم سبعون، وفرت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكسرت رباعيّتُه، وهشمت البيضة على رأسه، وسال الدم على وجهه، فأنزل الله تعالى «**أوَلَمّا أصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أنّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أنْفُسِكُمْ إنّ الله على كُلّ شيء قَديرٌ**» إلى «**صادقين**»* وفي «**قُلْ هو مِنْ عِنْدِ أنْفُسِكُمْ**» قال: بأخذكم الفداء كما عملت. أي «**أوَلَمّا**» أي حين «**أصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ**» بأحد قتل سبعون منكم «**قَدْ أصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا**» ببدر بقتل سبعين وأسر سبعين «**قُلْتُم**» متعجبين «**أنّى**» أي من أين لنا «**هَذَا**» القتل والهزيمة، ونحن مسلمون ورسول الله فينا، والجملة الأخيرة في محل الاستفهام الانكارى. «**قُلْ**» لهم يا محمد «**هُوَ مِنْ عِنْدِ أنْفُسِكُمْ**» أي هو ممّا اقترفتهُ انفسكم من مخالفة الأمر بترك المركز. فإن الوعد كان مشروطاً بالثبات في المركز والمطاوعة في الأمر. أي لمّا خالفتم نبيّكم وكلتم لأنفسكم، روى عبيدة السلمانى عن عليّ رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم فقال: [إن الله قد كره ما صنع قومك من أخذهم الفداء من الأسارى، وقد أمرك أن تخيّرهم بين أن يُقدّمُوا ــ أي الأسارى ــ فتضرب أعناقهم و بين أن يأخذوا الفداء على أن يقتل منهم عددهم] فذكرَ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

للناس، فقالوا: يا رسول الله عشائرنا وإخواننا، لا بل نأخذ منهم فداءهم، فنتقوّى به على قتال أعدائنا، و يستشهدُ منا عدّتهم، فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى بدر، وهذا معنى قوله تعالى: «**هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ**» أي بأخذكم الفداء واختياركم للقتل «**إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شيء قَدِيرٌ**» فيقدر على النصر وعلى منعه، وعلى أن يصيب منكم تارة، و يصيب منكم أخرى تأديباً لكم. «**وما أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ**» جمع المسلمين وجمع المشركين يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة «**فَبِإِذْنِ اللهِ**» أي فهو كائن بعلمه وقضائه وإرادته «**وَلِيعْلَمَ الْمؤْمِنِينَ**» أي يميز و يظهر للعيان ما كان في علمه الأ زليّ «**وَلِيعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا**» المنافق من: يظهر كلمة الإيمان و يبطن الكفر. قال أبوعبيدة: مشتق من نافقاء اليربوع لأن جحر اليربوع لَهُ بابان: القاصعاء والنافقاء، فإن طلب من أيها يخرج من الآخر، فقيل للمنافق إنّه منافق، وهو اسم إسلامى لأنه صنع لنفسه طريقين، إظهار الإسلام، وإضمار الكفر، فمن أيها طلب خرج من الآخر، «**وَقِيلَ لَهُمْ**» أي وليظهر للعيان الذين قيل لهم، وهم الذين تفرقوا عن القتال، وقالوا: علام نقاتل، ونلقى أنفسنا في القتل فيقتل بعضنا بعضاً فرجعُوا، وهم عبدالله بن أبيّ وأصحابه، وكانوا ثلاثمائة من جملة الألف، الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم «**تَعَالَوْا قَاتِلُوا فى سبيل الله**» الكفار «**أَو ادْفَعُوا**» عنّا أى إن كان في قلبكم حبّ الإيمان فقاتلوا للدين، وإن لم تكونوا فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم لأن الكفار لا يفرقون في حربهم بين المنافقين والمؤمنين «**قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ**» أنكم تلقون حرباً «**لا تّبعناكُمْ**» ولكن لا تلقون قتالاً. قال الله تكذيباً لهم: «**هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ**» أي يوم إذ قالوا لو نعلم قتالاً لا تبعناكم «**أَقْرَبُ مِنْهُمْ للإيمان**» لانقطاعهم وارتدادهم، وما ذكروه من النفاق مؤذن بكفرهم. وقيل: المعنى على حذف مضاف. أي هم لأهل الكفر أقرب منهم لأهل الايمان. بما أظهرُوا من خذلانهم للمؤمنين بسبب أنهم كانوا «**يَقُولُونَ بأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فى قُلُوبِهِمْ**» أي يظهرون خلاف ما يضمرون، ولا تواطىء قلوبهم ألسنتهم بالايمان، فهم وإن كانُوا يُظهرون الايمان باللسان لكنهم يضمرون في قلوبهم الكفر، ومما يدل على نفاقهم أنَّ إيمانهم موجودٌ في أفواههم فقط «**والله أَعْلَمُ بِمَا يكْتُمُونَ**» في ضمائرهم من النفاق والحقد والحسد والعداوة والبغضاء، وبما يخلو به بعضهم إلى بعض فإنه يعلم ذلك مفصّلاً بعلم واحد. وأنتُم تعلمونه مجملاً بأمارات

«**الَّـذِينَ قالُوا لإخوانِهِمْ**» أي لأجل إخوانهم من جنس المنافقين المقتولين يوم أحد، أو إخوانهم بالنسب، أو فى سكنى الدار، أو عداوة النبي صلى الله عليه وسلم «**وَقَعَدُوا**» حال مقدرة أي قالوا قاعدين عن القتال «**لَوْ أطَاعُونَا**» في القعُود «**ما قُتِلُوا**» كما لم نقتل. وأكثر المفسّرين على أن القائل ذلك هو أبيُّ بن خلف وأصحابه «**قُلْ**» لهم «**فادْرَؤا**» ادفعوا «**عَنْ أنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِين**» في أن القعود ينجى من الموت لأنكم إن دفعتم القتل الذي هو أحد أسباب الموت لم تقدروا على دفع سائر أسبابه المبثوثة، ولابُدّ لكم أن يتعلق بكم بعضها، روى أنه مات يوم قالُوا هذه المقالة سبعون منافقاً.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّـذِينَ قُتِلُوا فى سَبيل الله أمْوَاتاً بل أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ* فَرِحينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ويَسْتَبْشِرُونَ بالَّذِينَ لَمْ يلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ألاَّ خوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وأنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أجْرَ الْمُؤْمِنينَ»

سورة آل عمران (الآية: ١٦٩ - ١٧١)

في الواحدى: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمَّا أصيب إخوانكم بأحد جَعَلَ الله أرواحهم في أجواف طير خضرٍ تردُ أنهار الجنّة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلّقة في ظل العرش، فلما وجدُوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا أنَّا في الجنَّة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا في الحرب، فقال الله عز وجل: أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى «**ولاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سبِيلِ الله أمواتاً**» إلى «**لاَ يُضِيعُ أجْرَ الْمُؤْمِنينَ**» وهو الصحيح. وقال جابر بن عبدالله: نظر إليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [مالى أراك منكساً مهتماً؟ قلت: يا رسول الله قتل أبي وترك ديناً وعيالاً، فقال: ألاَ أخبرك؟ ما كلّم الله أحداً قط إلاَّ مِنْ وراء حجاب، وإنه كلّم أباك كفاحاً، فقال: عبدى سلنى أعطك، قال: أسألك أن تردنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية. فقال: إنه قد سبق منى أنهم إليها لا يرجعون، قال: يارب فأبلغ من ورائى، فأنزل الله تعالى «**ولاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبيل الله أمواتاً..**»] قلت:

أخرجه ابن ماجه في سننه. والترمذى في جامعه، وقال: هذا حديث حسن غريب. وقال سعيد بن جبير: لمَّا أصيب حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير يوم أحد، ورأوا ما رزقوا من الخير، قالوا: ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير كى يزدادُوا في الجهاد رغبةً، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي البيضاوى: وقيل: نزلت في شهداء بدر أي وكانوا أربعة عشرة شهيداً ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين* إلاَّ أن المتعارف عند المفسرين اعتماداً على ما ذكره القاضي زكريا أن شهداء بدر نزل فيهم آية البقرة «**وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فى سَبِيلِ اللهِ أمْواتٌ بَلْ أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**»* وفي القرطبي: وقيل: نزلت في شهداء بئر معونة* وقيل: هى عامة في جميع الشهداء. قلت: وهو الصحيح لأنه خطاب عام يشمل كل من يقتل في سبيل الله إلى يوم الدين. وفي القرطبي أيضاً: وقال آخرون: إنَّ أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمةٌ وسرور تحسّروا، وقالوا: نحن في النعمة والسرور وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا في القبور، فأنزل الله هذه الآية، تنفيساً عنهم وإخباراً عن حال قتلاهم* قوله تعالى «**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ اللهِ أمْواتاً**» الخطاب للرسول أو لكلّ أحد، ومن قرأ على الغيبة فالضمير للرسول. أو المراد لا يحسبنَّ حاسب. أو لا يحسبنّهم أمواتاً. والحسبان: هنا بمعنى الظنّ أي ولا تظنّن الذين قتلوا في سبيل الله لأجل دينه أمواتاً «**بَلْ**» هُمْ «**أحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ**» أي ذو زلفى منه، فليس المراد القرب المكانى لاستحالته. ولا بمعنى فى علمه وحكمه لعدم مناسبة المقام له، بل بمعنى القرب شرفاً ورتبة وقوله «**يُرْزَقُونَ**» من ثمار الجنة. روى ابن عباس: أنه عليه الصلاة والسلام قال: [أرواح الشهداء في أجواف طير خضر تردُ أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش] رواه أحمد وغيره. وقوله «**فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْله**» وهو شرف الشهادة وقبولها، والقرب من الله تعالى، والفوز بالحياة الأبدية، والتمتع بنعيم الجنَّة «**وَيَسْتَبْشِرُونَ**» أي يفرحون، أو يستبشرون بما تبينَّ لهم من حسن حال إخوانهم الذين تركوهم، وهو أنهم عند قتلهم أو موتهم يفوزون بحياة أبدية لا يكدرها خوف وقوع محذور، ولا خوف فوات مطلوب كذا في أبي السعود. وقوله «**بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ**» أي من إخوانهم الذين تركوهم أحياء في الدنيا على مناهج الإيمان والجهاد لعلّهم أنّهم إذا استشهدُوا التحقُوا بهم، ونالُوا من الكرامة ما نالُوا، فلذلك يستبشرون «**مِنْ خَلْفِهِمْ**» أي الذين من خلفهم زماناً أو

رتبة «أنْ» بأن «لاَ خوْفٌ عليهم» أي الذين لم يلحقوا بهم من خلفهم «ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ» في الآخرة على ما فاتهم من نعيم الدنيا، ومفارقتهم أهليهم وأموالهم. وفي ذكر حال الشهداء، واستبشارهم بمن خلفهم بعث للباقين بعدهم على ازدياد الطاعة والجدّ في الجهاد، والرغبة في نيل منازل الشهداء، وإصابة فضلهم، وإحماد لحال من يرى نفسه في خير فيتمنّى مثله لإخوانه لأن الله تعالى مدحهم على ذلك وقوله «يستبشرونَ بنعْمةٍ مِنَ الله وَفَضلٍ» لما بين تعالى أنهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم، بين هنا أنهم يستبشرون لأنفسهم بما رزقوا من النّعيم، ولذلك أعاد لفظ الاستبشار، وهو الفرح التامّ، فلا يتوهم التكرير بتفسير الاستبشار بالفرح «وأنّ الله لا يُضِيعُ أجْرَ المُؤْمِنينَ» لمّا ذكر إيصال الثواب العظيم إلى الشهداء. بيّن أن ذلك ليس مخصوصاً بهم، بل كل مؤمن يستحقُّ شيئاً من الأجر والثواب فإن الله تعالى يوصل ثوابه إليه ولا يضيّعه* وفي ابن كثير: قال: روينا في مسند الإمام أحمد حديثاً فيه البشارة لكل مؤمن بأن روحه تكون في الجنّة تسرح أيضاً فيها، وتأكل من ثمارها، وترى ما فيها من النضرة والسرور، وتشاهد ما أعدّه الله لها من الكرامة، وهو إسناد صحيح عزيز اجتمع فيه ثلاثة من الأئمة الأربعة: أصحاب المذاهب المتّبعة. فإن الإمام أحمد رحمه الله رواه عن محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله عن مالك بن أنس الأصبحي رحمه الله عن الزهريّ، عن عبدالرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنّة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه] قوله (يعلق) أي يأكل وفي هذا الحديث: أن روح المؤمن تكون على شكل طائر في الجنّة، أمّا أرواح الشهداء ـ فكما تقدم ـ في أجواف طير ـ وفي رواية: حواصل طير خضر ـ فهي كالكواكب بالنسبة إلى أرواح عموم المؤمنين، فإنها تطير بأنفسها* وهذا هو الصحيح لأن ما صح به النقل فهو الواقع، وما ذكره ابن كثير فهو نصّ يرفع الخلاف. وقد ذكر القرطبي في التذكرة: أن الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء والشهداء والعلماء والمؤذنين المحتسبين وحملة القرآن* فنسأل الله الكريم المنان أن يميتنا على سنتهم، ويحشرنا تحت لواء سيّد المرسلين صلى الله عليه وسلم.

وهل الشهيد يُغَسّلُ و يُصَلّى عليه؟ : ذهب مالك والشافعي وأبوحنيفة والثوريّ إلى أن الشهداء يغسّلُون و يُصلى عليهم إلاّ قتيل المعترك في قتل العدوّ خاصّة، لحديث جابر، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: [ادفنوهم بدمائهم وثيابهم] وبهذا قال أحمد وإسحاق

والأوزعـي وداود بن عليّ وجماعة فقهاء الأمصار، وأهل الحديث، وابن عليّة. وقال سعيد بـن المسيّـب والحسـن يـغسّلون: وقالوا: إنما لم تغسّل شهداء أحد لكثرتهم، والشغل عن ذلـك. قـال أبوعـمـر: ولم يـقل أحد بقول سعيد والحسن هذا أحد من فقهاء الأمصار إلا عـبدالله بـن الحسن العبرى، وليس ما ذكروا من الشغل عن غسل شهداء أحد علّة، لأن كـل واحـد منهم كان له وليٌّ يشتغل به، و يقوم بأمره، والعلّة في ذلك ــ والله أعلم ــ ما جـاء في الحديـث في دمـائـهـم [أنها تأتي يوم القيامة كريح المسك] فبان أن العلّة ليست الـشغـل كما قـال من قال ذلك أما الصلاة عليهم. فذهب مالك والليث والشافعي وأحمد وداود إلى أنّـه لا يصلى عليهم لحديث جابر المتقدّم، وقد صح أن النبي صلى الله عليه وسلم كـان يجمـع بين الـرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يقول: أيهما أكثر أخذاً للقرآن؟ فـإذا أشير إلى أحـدهم قدّمه في اللّحد وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة. وأمر بدفنهم بـدمـائـهم، ولم يغسلّوا ولم يصل عليهم* وقال فقهاء الكوفة والبصرة والشام: يصلى عليهم. وروَوْا آثـاراً كـثيرة لا تخلوا من الضعف، بل أكثرها مراسيل منها أن النبي صلى الله عليه وسـلـم صلى على حمزة، وعلى سائر شهداء أحد، لكن أجمع العلماء على أن الشهيد إذا حمل حيًّا ولم يمت في المعترك، وعاش وأكل فإنَّه يُصلّى عليه، كما قد صنع بعمر رضي الله عنه* واختـلـفـوا فيمن قتل مظلوماً كقتيل الخوارج. وقطّاع الطريق وشبه ذلك. قال أبوحنيفة والـثوريّ: كـل مـن قـتل مظلوماً لم يغسّل، ولكنَّه يصلى عليه، وعلى كل شهيد، وهو قول سائر أهـل الـعراق، ورووا من طرق كثيرة صحاح عن زيد بن صوحان، وكان قتل يوم الجـمـل، (لا تنزعوا عني ثوباً، ولا تغسلُوا عني دماً) وثبت عن عمَّار بن ياسر أنه قال مثل قـول زيـد هذا، وقتل عمّار بن ياسر بصفّين، ولم يغسلْهُ عليٌّ كرم الله وجهه. وللشافعي في المظلوم قولان: أحدها: يغسّل كجميع الموتى إلاَّ من قتله أهل الحرب، وهذا قول مالك: لا يغسـل من قـتله الكفار، ومات في المعترك. وكل مقتول بغير المعترك فإنه يغسّل و يصلى عليه، وهذا قول أحمد رضي الله عنهم جميعاً، والقول الآخر للشافعي: لا يُغسل قتيل البغاة، و يـرجـح قـول مـالـك لأن غـسل الموتى قد ثبت بالاجماع ونقل الكافّة، فواجب غسل كل ميـت إلاَّ من أخرجه إجماع أو سنّة. وهذه الآية تدل على عظيم ثواب القتل في سبيل الله، والـشـهـادة فـيه حتى أنّه يكفر الذنوب كما قال صلى الله عليه وسلم: [القتل في سبيل الله يـكـفـر كـل شيء إلاّ الدّيْن، كذلك قال جبريل آنفاً] وذكر الديْن تنبيه على ما في معناه

من الحقوق المتعلّقة بالذمم، كالغصب، وأخذ المال بالباطل، وقتل العمد وجراحه، وغير ذلك من التبعات، فإنّ كل هذا أولى ألاّ يغفر بالجهاد، ومن الدّين فهو أشدُّ. والقصاص في كل هذا بالحسنات والسيآت حسبما وردت به السنة الثابتة. روى عبدالله بن أنيس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [يحشر الله العبادَ ــ أو قال الناسَ ــ وأومأ بيده إلى الشام عراةً عزلاً بهماً. قلنا: ما بُهْمٌ؟ قال: ليس معهم شيء، فيناديهم بصوت يسمعه من قرب، ومن بعد: أنا الملك. أنا الديّان لاينبغي لأحدٍ من أهل الجنة أن يدخل الجنة، وأحدٌ من النّاس يطلبه بمظلمة حتى اللطمة. قال: قلنا: كيف وإنا نأتي الله حفاة عراة عزلاً؟ قال: بالحسنات والسيآت] أخرجه الحارث بن أبي أمامة وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس من فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: إنّ المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، و يأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا. وأكل مال هذا، وسفك دم هذا وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح في النّار] وقال عليه الصلاة والسلام: [والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحيي، ثم قتل، ثم أحيي، ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنّة حتى يقضى عنه] وروى الترمذي عن المقداد بن مَعْدِ يَكْرِبَ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [للشهيد عند الله ست خصال] كذا في الترمذي وابن ماجه ــ (ستّ) وهي في العدد سبع كذا في حاشية السندى على سنن ابن ماجه ــ [يغفر له في أول دفعة، و يرى مقعده من الجنّة، ويجار من عذاب القبر، و يأمن من الفزع الأكبر، و يوضع على رأسه تاج الوقار. الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، و يزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين. و يشفع في سبعين من أقاربه] قال: هذا حديث حسن صحيح غريب. وهذا الحديث كبيان للنعمة والفضل في قوله تعالى: «**يستبشِرُونَ بنعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ**» ومن كرامة الشهداء على الله تعالى أنّه جل جلاله يتولى قبض أرواحهم. روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [أكرم الله تعالى الشهداء بخمس كرامات لم يكرم بها أحداً من الأنبياء، ولا أنا. أحدها: أن جميع الأنبياء قبض أرواحهم ملك الموت، وهو الذي سيقبض روحى، وأما الشهداء فالله هو الذي يقبض أرواحهم بقدرته كيف يشاء، ولا يسلط على أرواحهم

ملك الموت. والثاني: أن جميع الأنبياء قد غسلوا بعد الموت، وأنا أغسّل بعد الموت، والشهداء لا يغسلون، ولا حاجة لهم إلى ماء الدنيا، والثالث: أن جميع الأنبياء قد كُفِنوا وأنا أكفن، والشهداء لا يكفّنون بل يدفنون في ثيابهم، والرابع: أن الأنبياء لمّا ماتُوا سُمُّوا أمواتاً، وإذا متُّ يقال مات، والشهداء لا يسمُّون موتى. والخامس: أن الأنبياء تعطى لهم الشفاعة يوم القيامة، وشفاعتى أيضاً يوم القيامة، وأما الشهداء فإنهم يشفعون في كل يوم فيمن يشفعون] القرطبي* وفي الطبرى: عن مسروق بن الأجدع قال: سألت عبدالله بن مسعود عن هذه الآيات «**ولا تَحْسَبَنَّ الّذِينَ قُتِلُوا فى سبيلِ الله أمواتاً**» قال: أما إنا قد سألنا عنها فقيل لنا: (إنّه لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، ترد أنهار الجنّة، وتأكل من ثمارها، وتأوى إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فيطلع الله إليهم إطلاعة فيقول: عبادى ما تشتهون فأزيدكم. فيقولون: ربّنا لا فوق ما أعطيتنا الجنّة نأكل منها حيث شئنا ثلاث مرات، ثم يطلع فيقول: يا عبادى ما تشتهون فأزيدكم، فيقولون: ربنا لا فوق ما أعطيتنا الجنة نأكل منها حيث شئنا. إلاّ أنّا نختار أن تردّ أرواحنا في أجسادنا ثم تردّنا إلى الدنيا فنقاتل فيك مرةً أخرى). وفي رواية مسروق: (إني قد قضيت أن لا ترجعُوا) وفي رواية محمود بن لبيد الأنصارى عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [الشهداء على بارق نهر بباب الجنّة في قبّة خضراء يخرج عليهم رزقهم من الجنّة بكرة وعشيًّا] و بقية ما في التفاسير لا زيادة فيها عمّا ذكر إلاّ فى تغيير بعض الألفاظ والمعنى واحد.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أغنِياءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وقَتْلَهُمُ الأنبيَاءَ بغَيْرِ حقّ ونَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ* ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أيْدِيكُمْ وأنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاّمٍ للعَبِيد»

سورة آل عمران (الآية: ١٨١، ١٨٢)

في الواحدى: قال محمد بن اسحاق: دخل أبوبكر الصدّيق رضي الله عنه ذات يوم بيْتَ مدارس اليهود، فوجد ناساً من اليهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يُقال له فنحاص بن عازوراء، وكان من علمائهم، فقال أبوبكر لفنحاص: اتقِ الله وأسلم، فوالله إنك لتعلَم

أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة، فآمن وصدّق، وأقرض الله قرضاً حسناً يدْخلك الجنّة، و يضاعف لك الثواب، فقال فنحاص: يا أبا بكر، تزعم أن ربنا يستقرضنا أموالنا، وَمَا يستقرض إلاَّ الفقير من الغنى، فإن كان ما تقول حقاً فإن الله إذن فقير، ونحن أغنياء، ولو كان غنياً ما استقرض أموالنا. فغضب أبوبكر رضي الله عنه، وضرب وجه فنحاص ضربة شديدة، وقال: والذي نفسي بيده لولا العهد الذي بيننا و بينك لضربت عنقك، يا عدوّ الله. فذهب فنحاص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد انظر إلى ما صنع بى صاحبك؟ فقال: يا رسول الله إنَّ عدوَّ الله قال قولاً عظيماً، زعم أن الله فقيرٌ وأنّهم أغنياء، فغضبت لله وضربتُ وجههُ، فجحد ذلك فنحاص، فأنزل الله عز وجل ردّاً على فنحاص، وتصديقاً لأبى بكر: «**لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ فقيرٌ..**» وهذا فنحاص هو الذي قال: يد الله مغلولة، قاله شبل* وفي الخطيب: قال الحسن ومجاهد: لمَّا نزل قوله تعالى «**مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً**» قالت اليهود: إنَّ الله فقير يستقرض منَّا ونحن أغنياء، فأنزل الله تعالى «**لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ فَقِيرٌ ونحن أغنياء..**» وذكر الحسن أن قائل هذه المقالة حييُّ بن أخطب. وقال عكرمة: هو فنحاص بن عازوراء* وقال عكرمة والسدّى ومقاتل ومحمد بن اسحاق: كتب النبيُّ صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر الصديق إلى يهود بنى قينقاع يدعوهم إلى الإسلام، وإلى إقامة الصلاة، إيتاء الزكاة، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً. فدخل أبوبكر رضي الله عنه ذات يوم بيت مدارس اليهود ...الخ. ما فى الواحدى* وكذا في الطبرى: إلاَّ أنه بلفظ: فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله قد جاءكم بالحقّ من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل، قال فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر، وإنَّه إلينا لفقير، وما نتضرّع إليه كما يتضرّع إلينا، وإنا عنه لأغنياء. ولو كان غنياً ما استقرض منَّا كما يزعم صاحبكم، و ينهاكم عن الربا و يعطيناه، ولو كان غنياً ما أعطانا الربا، فغضب أبوبكر ...الخ. ما تقدم في الواحدى* و بلفظه في ابن كثير، وقال: رواه أبوحاتم، وفي الكرخي القائل ذلك: جماعة من اليهود منهم حييُّ بن أخطب وفنحاص بن عازوراء وكعب بن الأشرف* وفي المراغى: روى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أتت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل الله تعالى «**مَنْ ذَا الَّذِى يقْرِضُ**

الله قَرْضاً حسناً» فقالوا: يا محمد، أفقيرٌ ربّكَ، يسألُ عباده القرض؟ نحن أغنياء، فأنزل الله «لَقَدْ سَمِعَ..» الآية* والحق أن النزول كان إلى قوله تعالى: «وأنَّ الله لَيْسَ بظَلاَّمٍ لِلْعَبِيد» وقوله تعالى «لَقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إنَّ الله فَقِيرٌ ونَحْنُ أغْنِيَاءُ» أي علمه وأحصاه، والمقصود من هذا تهديد القائلين ما ذكر، وإعلامهم أنّهم لا يفوتهم من جزائه شيء، وقد علمت أن هذه المقالة قد صدرت عن جمع من اليهود، ولا يخلوا إمّا أن يكونوا قالوا هذه المقالة عن اعتقاد لذلك القول، أو قالوها استهزاءً، وأيهما كان فهذه المقالة عظيمة القبح لا تصدر عن عاقل، وإنما صدرت عن كافر متمرّدٍ في كفره وضلاله. وموسى عليه السلام لما طلب من اليهود الجهاد ببذل النفوس قالوا له «إذْهَبْ أنْتَ وربُّكَ فقاتِلا..» فلا يبعد أنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم لمّا طلب منهم الأموال قالوا له: لو كان الإله غنياً فأي حاجة إلى أموالنا، ثم إنَّ القائل لو كان فنحاص وحده فإنما يستقيم قوله «لَقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا» لأن اختبار الرجل والمقتدين به حكمهم حكمه، ثم إنّه تعالى لم يجبهم عن شبهتهم. إمّا على قول أهل السنة فبأن يقول: يفعل الله ما يشاء ويحكم ما يريد، فلا يبعد أن يأمر عبيده ببذل المال مع كونه أغنى الأغنياء، وأمّا على قوانين المعتزلة: فبأن في هذا التّكليف فوائد، منها إزالة حبّ المال عن القلب، ومنها التوسّل إلى الثواب المخلّد، ومنها تسخير البعض للبعض، فبذلك ترتبط أمور التمدّن وتنتظم أحوال صلاح المعاش والمعاد، وإنما لم يجب لكثرة ورودها في القرآن «لن تنالوا البرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّون» «مَنْ ذا الَّذِي يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أضْعَافاً كثِيرة» ..الخ. ما هنالك من آيات في الموضوع. ولأن وجوب الوجود عبارة عن الغنى المطلق حتّى لا يحتاج في ذاته ولا في شيء من صفاته، ولا بجهة من جهاته إلى ما سوى ذاته، فمن اعترف بوجوب وجوده، ثم شك في كمال غناه في وجوده فقد عابه بالنقص على موضوعه، فلا يستحق الجواب عند أولى الألباب، وإنما يستأهل صنوف من العتاب، وضروباً من العذاب، فلهذا قال على جهة الوعيد «سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا» في صحائف الحفظة، أو نستحفظه ونثبته في علمنا لا ننساه كما يثبت المكتوب فلا ينسى، وفي التفسير الكبير: سنكتب عنهم هذا الجهل في القرآن حتى يبقى على لسان الأمّة إلى يوم القيامة، ثم عطف عليه قتلهم الأنبياء فقال: «وَ» نكتب «وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ» وذلك ليدل على أنهم كما لم يقدروا الله حقّ قدره حتى نسبُوا إليه ما نسبوه، فكذلك لم

يقضوا حقوق الأنبياء ففعلوا بهم ما فعلوا «**ونقولُ**» على لسان الملائكة «**ذُوقُوا عَذَابَ الحريقِ**» النار، و يقال لهم إذا ألقوا فيها «**ذَلِكَ**» العذاب «**بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ**» عبّر بها عن الانسان لأن أكثر الأفعال تزاول بها كالسبّ والقتل أي جعل كل عمل كالواقع بالأ يدى على سبيل التغليب، وإن كان بعضه باللسان، أو بسائر الجوارح والآلات، وإنما جمع لأن المخاطب جمع، ولو كان مفرداً قيل: بما قدمت يداك مثنّى كما في سورة الحجّ قوله «**وأنَّ الله**» أي و بأن الله، فهوا معطوف على مدخول الباء «**لَيْسَ بِظَلَّامٍ**» أي بذى ظلم «**للعبيد**» فيعذّبهم بغير ذنب، بل هو سبحانه وتعالى عادل، ومن العدل أن يعاقب المسيء و يثيب المحسن.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«الَّذِينَ قالُوا إنَّ الله عَهِدَ إلَيْنَا ألاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يأتِينا بقُرْبَانٍ تأكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بالبيناتِ وبالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُموهُمْ إن كُنْتُمْ صادِقِين* فإنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤا بالبَيِّناتِ والزُّبُرِ والْكِتَابِ الْمُنِيرِ»

سورة آل عمران (الآية: ١٨٣، ١٨٤)

في الواحدى: قال الكلبيُّ: نزلت في كعب بن الأشرف. ومالك بن الصيف، و وهب بن يهوذا وزيد بن تابوه، وفنحاص بن عازوراء، وحييّ بن أخطب، أتو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: تزعم أن الله بعثك إلينا رسولاً، وأنزل عليك كتاباً، وأن الله قد عهد إلينا في التوراة أن لا نؤمن لرسول يزعم أنه من عند الله حتى يأتينا بقربان تأكله النار، فإن جئتنا به صدقناك فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الخطيب: وقال السّدىّ: هذا الشرط جاء في التوراة ولكنه مع شرط آخر، وهو أن الله تعالى أمر بنى إسرائيل: من جاءكم يزعم أنه رسول الله فلا تصدقوه حتى يأتيكم بقربان تأكله النار، حتى يأتيكم المسيح ومحمد، فإذا أتياكم فآمنوا بهما فإنهما يأتيان بغير قربان، وقيل: كان أمر المقربين ثابتاً إلى أن نسخت على لسان عيسى بن مريم، وعن ابن عباس في قوله تعالى «**حتّى يأتينا بقربانٍ تأكُلُهُ النّارُ**» قال: كان الرجل يتصدّق، فإذا تُقبّلَ منه أنزلت عليه نار من السماء فأكلته* وقيل: إنَّ ادعاء هذا الشرط كذب على التوراة، وهو من كذب اليهود

وتحريفهم، و يدل على ذلك أن المقصود في الدلالة على صدق النبيّ هو ظهور المعجزات الخارقة للعادة، فأيُّ معجزة أتى بها النبيُّ قبلت منه، وكانت دليلاً على صدقه، وقد أتى النبيُّ محمد صلى الله عليه وسلم بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه، فوجب على كافة الخلق اتباعه، والقربان: كل ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل من أعمال البرّ من نسك وصدقة وذبح وكل عمل صالح، و يدل على ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: [الصوم جُنَّةٌ والصلاة قربان] يعني أنهما مِمَّا يتقرّب بها إلى الله عز وجل. وكانت القرابين والغنائم لا تحل لبني إسرائيل، وكانوا إذا قرّبُوا قرباناً، أوغنموا غنيمةً جمعوا ذلك، وجاءت نارٌ بيضاء من السماء لا دخان لها، ولها دويّ وحفيف، فتأكل ذلك القربان أو الغنيمة وتحرقه، فيكون ذلك دليلاً وعلامة على القبول، وإذا لم يقبل بقي على حاله، ولم تنزل نار* وقال عطاء: كانت بنو إسرائيل يذبحون لله فيأخذون الثروب وأطايب اللحم فيضعونها في وسط بيت والسقف مكشوف فيقوم نبيهم عليه السلام في البيت و يناجي ربه عز وجل، و بنوا إسرائيل خارجون حول البيت، فتنزل نار بيضاء لها دويّ وحفيف ..الخ. ثم قال تعالى «**قُلْ**» توبيخاً، وإقامة للحجة عليهم «**قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ**» بالمعجزات «**وَبِالَّذِي قُلْتُمْ**» يعني ما طلبوا من القربان، وجاؤكم به كزكريا ويحى قتلتموهم، والخطاب لمن في زمن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وإن كان الفعل لأجدادهم لرضاهم به «**فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**» في أنكم تؤمنون بالرسل عند الإتيان بالقرابين، وقد ذكر الله تعالى مجيء الرسل بالبينات ولم يقتصر على مجيء القربان ليتمَّ الإلزام وذلك أن القوم يحتمل أن يقولُوا إن الاتيان بهذا القربان شرط النبوة لا موجب لها، والشرط يلزم من عدمه عدم المشروط لكن لا يلزم من وجوده وجود المشروط، فلوا اكتفى بذكر القربان لم يتم الإلزام، وحيث أضاف إليه البينات ثبت أنهم أتوا بالموجب و بالشرط جميعاً، فكان الأقرب بالنبوة واجباً، ثم سلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله «**فَإِنْ كَذَّبُوكَ**» في أصل الشريعة والنبوّة، أو في قولك إن الأنبياء الأقدمين جاؤهم بالبينات فقتلتموهم «**فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاؤُا بِالْبَيِّنَاتِ**» المعجزات «**وَالزُّبُرِ**» كصحف إبراهيم والزُّبُر واحده زبُور، وكل كتاب فيه حكمة زبُورٌ، وأصله من الزبر: وهو الزجر، وسميّ الكتاب الذي في الحكمة زبوراً لأنه يزبر أي يزجر عن الباطل و يدعو إلى الحق، وهو بمعنى مذبور، أي مكتوب «**وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**»

الـواضـح هـو التوراة والإنجيل، وهو عطف خاص إن أريد بالزبر مطلق الكتب، وعطف مغـايـر إن أريـد بهـا خـصـوص الـصحف، وعطف الكتاب المنير على الزّبر لأن الكتاب بوصفه بالإنارة، أو بالاستنارة أشرف من مطلق الزبر، وأنّه نصّ بعد العموم لشرفه. مثل وملائتكه وجبريل وميكال.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَتُبْلَوُنَّ فى أمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أشركُوا أذًى كثيراً وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فإنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأمُورِ» سورة آل عمران (الآية: ١٨٦)

في الـواحـدى: ذكـر المفسرون أن كعب بن الأشرف كان شاعراً، وكان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم، ويحرض عليه كفار قريش في شعره، وكان صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وأهلها أخلاط، منهم المسلمون ومنهم المشركون ومنهم اليهود، فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يستصلحهم، فكان المشركون واليهود يؤذونه و يؤذون أصحابه أشدّ الأذى، فأمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بالصبر على ذلك، وفيهم أنزل الله **«ولَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الكِتابَ من قبلكم وَمِنَ الَّذِينَ أشركوا أذًى كثيراً..»** الآية* وقال عـروة بـن الزبير: أخبرنى أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمارٍ على قطيفة فدكيّة، وأردف أسامة بن زيد، وسار يعود سعد بن عبادة في بنى الحرث بن الخزرج قبـل وقعة بدر، حتّى مرّ بمجلس فيه عبدالله بن أبيٍّ، وذلك قبل أن يسلم عبدالله بن أبيٍّ، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان، وفي المجلس عبدالله بن رواحة، فلما غشى المجلس عجاجة الدّابة خمّر عبدالله بنى أبيّ أنْفه بردائه، ثم قال: لا تُغبروا علينا، فسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم وقف، فنزل ودعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن. فقال عبدالله بن أبيّ: أيها المرء إنه لا أحسن مما نقول إن كان فَلِمَ تؤذينا به في مجلسنا؟ ارجع إلى رحلك، فمن جاءك فأقصص عليه. فقال عبدالله بن رواحة: بلى يا رسول الله فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحب ذلك، واستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادُوا يتساورون فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يُخفضهم حتى سكتوا، ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم دابته وسار حتى دخل على سعد بن عبادة

فقال له: يا سعد ألم تسمع ما قال أبوحباب؟ يريد عبدالله بن أبيّ: قال: كذا وكذا، فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله اعف عنه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي نزل عليك، وقد أصلح أهل هذه البحيرة على أن يتوّجوه، و يعصبّوه بالعصابة، فلمّا رد الله ذلك بالحق الذي أعطاك شرف بذلك، فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله تعالى «**ولتسمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ومنَ الَّذِينَ أشركوا أذًى كثيراً**». قلت: وأصل هذا في الصحيحين* وفي الخطيب: واختلف في سبب نزلو هذه الآية. قال ابن جريج والكلبيُّ ومقاتل: نزلت في أبي بكر وفنحاص، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر إلى فنحاص اليهودى ليستمدّه، وكتب إليه كتاباً، فجاء أبوبكر رضي الله عنه وهو متوشح بالسيف فأعطاه الكتاب، فلمّا قرأه قال: احتاج ربك إلى أن نمُدُّه، فهم أبوبكر رضي الله عنه أن يضرب به بالسيف فتذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: [لا تفتاتن عليّ بشيء ترجع] ونزلت* وقال الزهرى: نزلت في كعب بن الأشرف كان يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعره، و يسبُّ المسلمين، ويحرّض المشركين على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه في شعره، و يتشبّب بنساء المسلمين، حتى بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم محمد بن مَسْلَمَةَ وأصحابه فقتلهُ القتلة المشهورة كما في السير وصحيح الخبر، وهي: أن انطلق خمسة نفر من الأنصار فيهم محمد بن مسلمة، ورجل يقال له: أبوعبس، فأتوه وهو في مجلس قومه بالعوالى، فلما رآهم ذعر منهم، فأنكر شأنهم، وقالوا جئناك لحاجة، قال: فليدن إلى بعضكم فليحدثنى بحاجته، فجاءه رجل منهم: فقال: جئناك لنبيعك أدراعاً عندنا لنستنفق بها، فقال: والله لئن فعلتم لقد جهدتم منذ نزل بكم هذا الرجل، فواعدوه أن يأتوه عشاء حين هدأ عنهم الناس، فأتوه فنادوه، فقالت امرأته: ما طرقك هؤلاء ساعتهم هذه لشيء مما تحبُّ، قال: إنهم حدّثونى بحديثهم وشأنهم، قال معمر: فأخبرنى أيوب عن عكرمة أنه أشرف عليهم فكلمهم فقال: أترهنونى أبناءكم، وأراد أن يبيعهم تمراً، قال: فقالوا: إنا نستحى أن تعيير أبناؤنا، فيقال هذه رهينة وسق، وهذا رهينة وسقين، فقال: أترهنونى نساءكم؟ قالوا: أنت أجمل الناس ولا نأمنك، وأي امرأة تمتنع منك لجمالك، ولكنا نرهنك سلاحنا، فقد علمت حاجتنا إلى السلام اليوم، فقال: ائتونى بسلاحكم، واحتملوا ما شئتم، قالوا: فأنزل إلينا نأخذ عليك وتأخذ علينا،

فذهب ينزل فتعلّقت به امرأته وقالت: أرسل إلى أمثالهم من قومك يكونون معك. قال: لو وجدني هؤلاء نائماً ما أيقظوني، قالت: فكلّمهم من فوق البيت، فأبى عليها، فنزل إليهم يفوح ريحه، قالوا: ما هذه الريح يا فلان؟ قال: هذا عطر أمّ فلان. امرأته، فتقدم إليه بعضهم يشمّ رائحته، ثم اعتنقه، ثم قال: اقتلوا عدوَّ الله، فطعنه أبوعبس في خاصرته، وعلاه محمد بن مسلمة بالسيف فقتلوه، ثم رجعوا فأصبحت اليهود مذعورين، فجاؤا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: قُتِل سيّدنا غيلة، فذكرّهم النبي صلى الله عليه وسلم صنيعه، وما كان يحض عليهم، ويحرّض في قتالهم و يؤذيهم، ثم دعاهم إلى أن يكتب بينه و بينهم صلحاً، قال: فكان ذلك الكتاب مع عليّ رضي الله عنه* وقوله تعالى **«لَتُبْلَوُنَّ فِى أَمْوَالِكُمْ»** اللام جواب القسم المقدّر، والنون دخلت مؤكدة وضمت الواو للساكنين، والتقدير: والله لَتُبلَوُنَّ، أي لتختبرنَّ ما ينالهم من الفقر والضرّ والقتل والجرح والتكاليف الشاقة البدنية والمالية من الصلاة والزكاة والصوم والجهاد، والذي كانوا يسمعونه من الكفرة كالطعن في الدين الحنيف وأهله، وإغراء المخالفين وتحريضهم عليهم، وإغواء المنافقين وتنفيرهم عنهم **«وأنفسكم»** بالعبادات والبلاء **«وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبلِكُمْ»** اليهود والنصارى **«ومِنَ الَّذِينَ أشركوا»** من العرب **«أذًى كثيراً»** من السب والطعن، والتشبيب بنسائكم **«وإن تَصْبِرُوا»** على ذلك من قوله: لتبلونّ في أموالكم، **«فإنَّ ذَلِكَ مِنْ عزم الأمور»** أي المذكور من الأمرين: الصبر والتقوى. قال الواحدى: كان هذا قبل نزول آية القتال، وقال القفال: الظاهر أنها نزلت بعد قصة أحد فلا تكون منسوخة بآيات السيف، والمراد الصبر على ما يؤذن به الرسول على طريق الأقوال الجارية فيما بينهم واستعمال مداراتهم في كثير من الأحوال، والأمر بالقتال لا ينافى الأمر بالمصابرة على هذا الوجه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا و يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ»

سورة آل عمران (الآية: ١٨٨)

في الواحدى: قال أبوسعيد الخدري: إن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله صلى

الله عليه وسلم كان إذا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الغزو تخلّفوا عنه، فإذا قدم اعتذروا إليه، وحلفوا وأحبّوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا فنزلت «**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا..**» الآية رواه مسلم عن الحسن بن عليّ الحلواني على بن أبي مريم * وفي الخطيب: يروى أنه صلى الله عليه وسلم سأل اليهود عن شيء ممّا في التوراة، فكتموا الحقّ، وأخبروه بخلافه، وأروه أنهم قد صدقوا، وفرحوا بما فعلوا، فأطلع الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ذلك، وسلاّه بما أنزل من وعيدهم، أي لا تحسبنّ اليهود الذين يفرحون بما فعلوا من تدليسهم عليك، ويحبّون أن يحمدُوا بما لم يفعلوا من إخبارك بالصدق عمّا سألتهم عنه ناجين من العذاب * وقيل: هم المنافقون. فإنهم يفرحون بمنافقتهم، و يستحمدون إلى المسلمين بالإيمان الذين لم يفعلوه على الحقيقة. ويجوز أن يكون شاملاً لكل من يأتي بحسنة فيفرح بها فرح اعجاب. و يُحِبُّ أن يحمده الناس، و يثنوا عليه بالديانة والزهد بما ليس فيه * وفي القرطبي: وفي الصحيحين أن مروان: أي بن الحكم بن العاص، وكان يومئذ أميراً على المدينة من قبل معاو ية، قال لبوّابه: اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل له: لئن كان كل امرىء منا فرح بما أوتى، وأحبّ أن يحمد بما لم يفعل معذّباً لنعذبنّ أجمعون. فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما لكم ولهذه الآية!! إنما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس «**لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا..**» وقال ابن عباس: سألهم النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره، فخرجوا وقد أروه أنه قد أخبروه بما سألهم عنه * وقال محمد بن كعب القرطبي: نزلت في علماء بنى إسرائيل الذين كتموا الحق، وأتوا ملوكهم من العلم ما يوافقهم في باطنهم «**واشتَروا به ثمناً قليلاً**» أي بما أعطاهم الملوك من الدنيا، فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم «**لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ من الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**» فأخبر أن لهم عذاباً أليماً بما أفسدوا من الدين على عباد الله * وقال الضحاك: إنّ اليهود كانُوا يقولون للملوك: إنّا نجد في كتابنا أنّ الله يبعث نبياً آخر الزمان يختم به النبوّة، فلمّا بعثه الله سألهم الملوك: أهو هذا الذي تجدونه في كتابكم؟ فقال اليهود طمعاً في أموال الملوك، هو غيره هذا فأعطاهم الملوك الخزائنَ فقال الله تعالى: «**لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا..**» الملوك من الكذب حتى يأخذوا عرض الدنيا * وقال عبيد بن

سليمان: سمعت الضحاك بن مزاحم يقول في قوله «**لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا**» فإنهم فرحوا باجتماعهم على كفرهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وقالوا: قد جمع الله كلمتنا، ولم يخالف أحدٌ منّا احداً أنه نبي، وقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أهل الصلاة والسلام، وكذبُوا وهم أهل كفر وشرك وافتراء على الله تعالى يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا* وذكر الضحاك نحو هذا، وقال السّدى: إنهم كتموا اسم محمد صلى الله عليه وسلم، وفرحوا بذلك حين اجتمعوا عليه، وكانُوا يزكون أنفسهم فيقولون نحن أهل الصيام وأهل الزكاة، ونحن على دين إبراهيم صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى فيهم «**لاَ تَحْسَبنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا**» من كتمان محمد صلى الله عليه وسلم. ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، أحبوا أن تحمدهم العرب بما يزكون أنفسهم، وليسوا كذلك. من القرطبي والطبرى* وقوله تعالى: «**لاَ تَحْسَبَنَّ**» بالتاء على الخطاب. أي لا تحسبن يا محمد الفارحين الذين يفرحون ..الخ. و بالياء على الغيبة، أي ولا يحسبنّ الفارحون. أي لا يحسبنَّ الذي يفرحون فرحهم منجياً لهم من العذاب «**الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا**» أي بما فعلوا من الكتمان وإضلال الناس «**و يُحِبُّون أن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا**» من التمسك بالحق وهم على ضلال «**فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ**» بالتاء والياء «**بِمَفَازَةٍ**» بمكان ينجون فيه «**مِنَ الْعَذَابِ**» في الآخرة بل هُمْ في مكان يعذبون فيه وهو جهنَّم «**وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**» مؤلم فيها* ونحن إذا انصفنا وجدنا أكثر مجارى أمورنا على هذ الحالة، فنسأله العصمة والهداية.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إنَّ فى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأَرْضِ واخْتِلاَفِ اللَّيْلِ والنَّهار لآيَاتٍ لأُولى الأَلْبَابِ» سورة آل عمران (الآية: ١٩٠)

في الواحدى وابن كثير: عن ابن عباس قال: أتت قريس اليهود، فقالوا: ما جاءكم به موسى من الآيات؟ قالوا: عصاً و يده بيضاء للناظرين، وأتوا النّصارى، فقالوا: كيف كان عيسى فيكم؟ فقالوا: يبرىء الأكمه والأ برص.ويحى الموتى، فأتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: ادع لنا ربّك يجعل الصفا ذهباً، فأنزل الله «**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ والأرض واخْتِلاَفِ اللّيْلِ والنّهارِ لآياتٍ..**» الآية* وفي الخازن: قال ابن عباس: إن أهل مكة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية، فنزلت هذه الآية. وهكذا في

بقية التفاسير. وقوله تعالى «**إنَّ في خلق السَّمٰوات والأرض**» أي تفكروا واعتبروا أيها الناس فيما خلقته وأنشأته من السَّمٰوات والأرض لمعاشكم وأرزاقكم «**واخْتِلاَفِ اللّيْلِ والنَّهارِ**» وفيما عقبت من ذلك بين الليل والنهار، واختلافهما في الطول والقصر، فجعلتهما يختلفان و يعتقبان عليكم لكى تتصرفوا فيهما لمعاشكم، تطلبون أرزاقكم في النهار وتسكنون في الليل لراحة أجسادكم، فاعتبروا وتفكرّوا في هذه الآيات «**يا أُولى الألْبَاب**» أي يا ذوى العقول الصافية أي الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستدلال والاعتبار، فيكون إيمانهم عن يقين لا عن تقليد، وإنما وقع الاقتصار على الدلائل السماوية لأنَّها أقهر وأبهر، والعجائب فيها أكثر، وانتقال النفس منها إلى عظمة الله أيسر.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«فاستَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنّى لا أُضِيعُ عَمَلَ عامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فالَّذِينَ هَاجَرُوا وأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وأُوذُوا فى سَبِيلِى وقَاتَلُوا وقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّآتِهِمْ ولأُدْخِلَنَّهُمْ جنَّاتٍ تَجْرى مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ الله والله عِنْدَهُ حُسْنُ الثّواب»

سورة آل عمران (الآية: ١٩٥)

في الواحدي: قالت أم سلمة رضي الله عنها يا رسول الله: لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء فأنزل الله تعالى «**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنّى لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُمْ مِنْ ذكرٍ أو أُنثى**» رواه الحاكم أبوعبدالله في صحيحه عن ابن عون محمد بن أحمد بن ماهان، عن محمد بن على بن زيد عن يعقوب بن حميد عن سفيان* قلت: وأخرجه على هذا النحو الترمذي وكذا رواه ابن كثير والخازن عن أم سلمة رضي الله عنها* وقوله «**فاسْتَجَابَ لَهُمْ ربُّهُمْ**» أي دعاءهم المذكور فيما سبق في هذه الآية من قولهم: «**سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار.**» الآيات* «**أنّى**» بأنّى هكذا قرأ أبىُّ رضي الله عنه، والباء سببية كأنه قيل فاستجاب لهم ربُّهم بسبب أنى لا أضيع عمل عامل، أي سنته مستمرة على ذلك، والالتفات إلى التكلم والخطاب لاظهار كمال الإعتناء بشأن الاستجابة وتشريف الداعين. قاله أبوالسعود، وقوله: فاستجاب أخصُّ من أجاب لأنَّه يفيد حصول جميع المطلوب لكثرة مبانيه، لأن كثرة المباني تدل على كثرة المعانى. و يعدّى

بنفسه و باللام، وقوله «لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ» كائن «مِنْ بَعضٍ» أي الذكور والإناث و بالعكس، وهذه الجملة استئنافية جيء بها لتبين شركة النساء مع الرجال في الثواب الذي وعد الله به عباده العاملين، وهي في محلّ التّعليل للتّعميم في قوله «مِنْ ذكَرٍ أَوْ أُنْثى» فكأنه قيل: إنما سوى بين الفريقين في الثواب لاشتراكهم في الأصل والدين. والمعنى كما أنكم من أصل واحد، وأن بعضكم مأخوذ من بعض فكذلك أنتم في ثواب العمل لا يثاب رجل عامل دون امرأة عاملة «فالّذِينَ هَاجَرُوا» أي من مكة إلى المدينة «وأُخْرِجُوا مِنْ دِيارِهِمْ» بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله «وأُوذُوا فى سبيلى» أي ديني «وقَاتَلُوا» الكفار «وقُتِلُوا» أي استشهدوا في سبيل إعلاء كلمة الدين جزاء من جميع هذه الصفات «لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سيّآتِهِمْ» أسترها بالمغفرة، وهو جواب قسم محذوف تقديره والله لأكفرن «ولأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَواباً» مصدر من معنى لأكفرن مؤكد له، أي ولأدخلنهم، فمعنى المجموع لأُثيبنّهم، فيكون ثواباً مصدراً موافقاً في المعنى فكأنه قيل: لأُثيبنّهم ثواباً، والثواب هنا بمعنى الإثابة التي هذ المصدر. وإن كان في الأصل هو المقدار من الجزاء «مِنْ عِنْدِ الله» فيه التفات عن التكلّم «والله عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّواب» الجزاء وهو أن يرجع على العامل من جزاء عمله.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفروا فى الْبِلادِ* متَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئسَ الْمِهَادُ» سورة آل عمران (الآية: ١٩٦ - ١٩٧)

في الواحدي: نزلت في مشركى مكة، وذلك أنّهم كانوا فى رخاء ولين من العيش، وكانوا يتجرون و يتنعمون، فقال بعض المؤمنين: إنَّ أعداء الله فيما نرى من الخير، وقد هلكنا من الجوع والجهد، فنزلت الآية* وكذا في القرطبي والخازن. وقال: الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره من الأمّة لأنه صلى الله عليه وسلم لم يغترقط* وفي القرطبي: وقيل: للجميع، أى لا يغرّنك، أو لا يغرنكم سلامتهم بتقلبهم في أسفارهم* وفي الطبرى عن السّدى في قوله: «لاَ يَغُرَّنَّكَ تقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فى البِلادِ» يقول: ضربهم في البلاد، وإمهال الله إياهم مع شركهم وجحودهم نعمه، وعبادتهم غيره* وقال

قتادة في قوله: «لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فى البِلادِ» والله ما غزوا نبيّ الله صلى الله عليه وسلم، ولا وكل إليهم شيئاً من أمر الله حتى قبضه الله على ذلك* وعبارة الخازن: لا يغرنك أيها السامع تقلب الذين كفروا في البلاد يعنى ضربهم في الأرض وتصرفهم في البلاد للتجارات وطلب الأرباح والمكاسب* وفي الغرائب في سبب نزول هذه الآية: وقيل: كانت اليهود تضرب في الأرض فتصيب الأموال فنزلت* والمراد بتقلبهم: تبسطهم وتصرّفهم في المكاسب والمزارع والمتاجر، ذلك التقلّب أو الكسب والربح متاع قليل في جنب ما فاتهم من نعيم الآخرة. أو في جنب ما وعد الله المؤمنين من الثواب، أو هو قليل في نفسه إذ لا نسبة لمدته إلى ما بين أمدى الأزل والأبد، ومع قلته سبب للوقوع في نار جهنّم أبد الآبدين والنعمة القليلة إذا كانت سبباً للمضرّة العظيمة لم تكن في الحقيقة نعمة* وقوله: «وَبِئْسَ الْمِهَادُ» الفراش هى. وهذه الآية كقوله تعالى: «مَا يُجادِلُ فى آياتِ الله إلاَّ الَّذِينَ كَفَروا فَلا يغرركَ تَقَلُّبُهُمْ فى الْبِلادِ» وقوله تعالى: «إنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلى الله الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ* مَتاعٌ فى الدّنيا ثُمَّ إلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمْ الْعَذَابَ الشّديدَ بِمَا كَانوا يكفُرون».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وإنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بالله وَمَا أُنْزِلَ إلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لله لا يشْتَرونَ بآيَاتِ الله ثَمَناً قَلِيلاً أُولئكَ لَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ» سورة آل عمران (الآية: ١٩٩)

في الواحدى والخازن: قال جابر بن عبدالله وأنس وابن عباس وقتادة: نزلت في النجاشي (ملك الحبشة واسمه أصمحه، وهو بالعربية عطيّة) وذلك لمّا مات نعاه جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم الذي مات فيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: [اخرجُوا فصلُّوا على أخٍ لكم مات بغير أرضكم. فقالوا: ومن هو؟ قال: النجاشى] فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البقيع، وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشى، وصلّى عليه وكبّر أربع تكبيرات، واستغفر له، وقال لأصحابه: استغفروا له. فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلى على علج حبشىّ نصرانىّ لم يره قط وليس على دينه، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الخطيب:

وقال عطاء: نزلت في أربعين رجلاً من أهل نجران واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم كانُوا على دين عيسى فآمنوا بالنبي صلى الله عليه وسلم* وقال ابن جريج: نزلت في عبدالله بن سلاّم وأصحابه* وقال مجاهد: نزلت في مؤمنى أهل الكتاب* قوله تعالى: «**وإنَّ مِنْ أهْلِ الكِتَاب لَمَنْ يؤمِنُ بالله..**» يخبر تعالى عن طائفة من أهل الكتاب أنهم يؤمنون بالله حق الإيمان «**وَما أُنْزِلَ إليكُمْ**» أي و يؤمنون بما أنزل على محمد مع ما هم مؤمنون به من الكتب المتقدمة «**وما أُنزِلَ إليْهِمْ خاشعِين لله**» أي مطيعون له خاضعون متذللون بين يديه «**لا يشْتَرونَ بآيات الله ثَمَناً قَليلاً**» أي لا يكتمون ما بأيديهم من البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكر صفته ونعته. وهؤلاء هم خيرة أهل الكتاب وصفوتهم سواء كانوا هوداً أو نصارى. «**أولئكَ لَهُمْ أجْرُهُمْ عِنْدَ رَبّهِمْ**» يؤتونه مرّتين كما في سورة القصص ففيها «**أولئك يُؤتَونَ أجْرَهُمْ مرّتين**» «**إنَّ الله سَريعُ الْحِسَاب**» يحاسب الخلق في قدر نصف نهار من أيام الدنيا، أو بيان سرعة وصول الأجر الموعود به إليهم. كذا في أبى السعود. فتكون به بشارة بسرعة حصول الأجر.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورابِطُوا واتّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» سورة آل عمران (الآية: ٢٠٠)

في الواحدي : قال مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير: حدّثنى داود بن صالح قال: (قال أبوسلمة بن عبدالرحمن: يا ابن أخى هل تدرى في أي شيء نزلت هذه الآية «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وصَابِرُوا ورابِطُوا**» ؟ قال: قلت: لا، قال: إنّه يا ابن أخى لم يكن في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ثغرٌ يُرابط فيه، ولكن انتظارُ الصلاة خلف الصلاة) رواه الحاكم أبوعبدالله في صحيحه* قلت: ولعل أبا سلمة احتج بقوله عليه الصلاة والسلام: [ألا أدلكم على ما يمحوا الله به الخطايا، و يرفع به الدرجاّ، اسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطا إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلكم الرباط ثلاثاً] قوله تعالى: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا**» يعنى على دينكم الذي أنتم عليه. ولا تدعوه لشدّة ولا لغيرها. وأصل الصبر حبس النفس عمّا لا يقتضيه شرع ولا عقل، والصبر لفظ عام تحته أنواع من المعانى، قال بعض الحكماء: الصبر ثلاثة أقسام:

تـرك الـشكوى، وقبول القضاء، وصدق الرضا* وقيل في معنى الآية: اصبروا على البلاء. وقـيـل: اصـبـرُوا على الجـهاد. وقيل: اصبرُوا على أحكام الكتاب والسنة. «وصابِرُوا» يـعنى الكفار والأعداء وجاهدوهم، أي غالبوا أعداء الله في الصبر على شدائد الحرب، فلا يـكـونـوا أشـدَّ صبراً منكم «ورابِطُوا» أي أقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مترصدين مـستعدّين للغزو، قال تعالى: «ومِنْ رِباطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عدوَّ الله وعدوَّكُمُ» روى أنـه صلى الله عـليـه وسلم قال: [من رابط يوماً وليلة في سبيل الله كان كعدل صيام شهر وقـيـامـه لا يـفـطـر ولا ينفتل عن صلاته إلاَّ لحاجة] وفي الحديث الصحيح [رباط يوم في سـبـيـل الله يعدل عبادة شهر] وروى الشيخان عن سهل بن سعد أن رسول الله صلى الله عـليه وسلم قال: [رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها، وموضع سَوْطِ أحدكم من الجنَّة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة خير من الـدنـيـا ومـا عـليها] وروى مسلم عن سلمان الخير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلـم يقول: [رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجرى عليه رزقه، وأمن الفتان].

وقـال أهـل المـعانى في معنى هذه الآية: يا أيها الذين آمنوا اصبروا على بلائى وصابروا على نعمائى، ورابطوا على مجاهدة أعدائى، واتّقوا محبّة سوائى لعلكم تفلحون بلقائى. وقيل: اصـبـروا على الـنـعماء، وصابروا على البأساء والضراء، ورابطوا في دار الأعداء، واتقُوا إله الأرض والـسماء لـعـلـكـم تـفـلحون في دار البقاء. وقيل: اصبروا على الدنيا ومحنها رجاء الـسـلامة. وصابروا عند القتال بالثبات والاستقامة، ورابطوا على مجاهدة النفس اللّوامة، واتـقوا ما يعقبكم الندامة لعلكم تفلحون غداً في دار الكرامة، من الخازن* والحق أن هذه الآية جامعة مشتلمة على كنوز الحكم والمعارف، وجامعة لآداب الدين والدنيا، وذلك أن أحـوال الإنسان قسمان: الأول: ما يتعلق به وحده، فأمر فيه بالصبر، و يتدرج فيه الصبر على مـشـقـة الـنـظـر والاستدلال في معرفة التوحيد والعدل والنبوة والمعاد والصبر على آداء الـواجـبـات والمـنـدوبـات، والاحـتـراز عـن المنهـيـات، والـصبر على شدائد الدنيا وآفاتها ومخـاوفها. الثاني ما يتعلق بالمشاركة مع أهل المنزل والمدينة، فأمر فيه بالمصابرة، و يدخل فيه تحمّل الأخلاق الرديئة من الأقارب والأجانب، وترك الانتقام منهم، والأمر بالمعروف والنهـى عـن المـنكر، والجهاد مع أعداء الدين بالحجة و بالسيف، و باللسان، أو بالسنان،

ثم إنه لابُدّ للإنسان في تكلف أقسام الصبر والمصابرة من قهر القوى النفسانيّة البهيميّة، والسبعيّة الباعثة على أضداد ذلك، فأمر بالمرابطة من الربط: الشدّ، فكل من صبر على أمر فقد ربط قلبه عليه وألزم نفسه إيّاه، ثم لابد في جميع الأعمال والأقوال من ملاحظة جانب الحق حتى يكون معتداً بها، فلهذا أمر بتقوى الله، والآية على اختصارها فهى كالإعادة لما تقدم في هذه السورة من الأصول، وهي تقرير التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، ومن الفروع كأحكام الحج والزكاة والجهاد، وعن الحسن قال: اصبروا على دينكم فلا تتركوه بسبب الفقر والجوع، وصابروا عدوّكم فلا تفشلوا بسبب ما أصابكم يوم أحد* وقال الفراء: اصبروا مع نبيّكم وصابروا عدوكم فلا ينبغى أن يكون أصبر منكم* وقال الأصمّ: لما كثرت تكاليف الله تعالى في هذه السورة أمرهم بالصبر عليها، ولمّا كثر ترغيب الله تعالى في الجهاد فيها، أمرهم بالمصابرة مع الأعداء.

((سورة النِّساء وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها))

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

« بسم الله الرحمٰن الرحيم »

«وآتُوا الْيَتَامَى أمْوالَهُمْ ولاَ تتبدَّلُوا الْخَبِيثَ بالطيّب ولاَ تأكُلُوا أمْوَالَهُمْ إلى أمْوالِكُمْ إنَّه كَانَ حُوباً كَبِيراً»

سورة النِّساء (الآية: ٢)

في الواحدي: قال مقاتل والكلبيّ: نزلت في رجل من غطفان كان عنده مال كثير لابن أخ له يتيم، فلمّا بلغ اليتيم طلب المال، فمنعه عمّه، فترافعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية، فلما سمعها العم، قال: أطعنا الله وأطعنا الرسول، ونعوذ بالله من الحُوب الكبير، فدفع إليه ماله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [مَنْ يوق شح نفسه و يطع ربّه هكذا فإنه يحلُّ داره] يعني جنته، فلمّا قبض الفتى ماله أنفقه في سبيل الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [ثبت الأجر و بقي الوزر. فقالوا يا رسول الله: قد عرفنا ثبت الأجر فكيف بقي الوزر وهوينفق في سبيل الله؟ فقال: ثبت الأجر للغلام و بقي الوزر على والده]، قلت: ولعله لم يخرج زكاة ماله أو كان مشركاً. والله أعلم* وما في الواحدى في الخازن، وفي الخطيب في قوله «وآتُوا» للأولياء والأوصياء، واليتامى جمع يتيم، وهو الصبي الذي مات أبوه، واليتيم في اللغة: الانفراد، ومنه الدرّة اليتيمة لانفرادها، واسم اليتيم يقع على الصغير والكبير لغة لبقاء الانفراد عن الآباء، لكن في العرف أختص اسم اليتيم بمن لم يبلغ مبلغ الرجال، فإذا بلغ الصبيُّ وصار يستغنى بنفسه من غيره زال عنه اسم اليتيم. وسئل ابن عباس عن اليتيم متى ينقطع عنه اسم اليتيم: قال: إذا أونس منه الرشد، وإنما سمّاهم يتامى بعد البلوغ على مقتضى اللغة، أو لقرب عهدهم باليتم، وإن كان قد زال عنهم بالبلوغ، وقيل المراد باليتامى: الصغار الذين لم يبلغوا. والمعنى: وآتُوا اليتامى أموالهم بعد البلوغ وتحقق الرشد، وقيل: معناه وآتوا اليتامى الصغار ما يحتاجون إليه من نفقة وكسوة* قال الخازن: والقول الأول هوالصحيح إذ المراد باليتامى البالغون لأنه لا يجوز دفع المال إلى اليتيم إلاَّ بعد البلوغ وتحقق الرشد* قلت: وفي الحديث [تستأمر

اليتيمة في نفسها ولا تستأمر إلا وهي بالغة] وعلى هذا يكون في الآية إشارة إلى أن لا يؤخر دفع أموالهم عن حدّ البلوغ، ولا يمطلوا إن أونس منهم الرشد. وقوله تعالى **«ولاَ تَتَبَدَّلُوا الخبيث بالطيب»** قال الفراء والزجاج: أي لا تستبدلوا الحرام وهو مال اليتامى بالحلال وهو مالكم وما أبيح لكم من المكاسب. ورزق الله المبثوث في الأرض فتأكلوه مكانه* وفي الطبرى: عن ابراهيم **«ولا تتبدَّلوا الخبيثَ بالطيب»** كان أحدهم يأخذ الشاة السمينة من غنم اليتيم، ويجعل مكانها الشاة المهزولة. و يقول: شاة بشاة، و يأخذ الدرهم الجيد، و يطرح مكانه الزيف. و يقول درهم بدرهم* لكن قال مجاهد: **«ولاَ تتبَدَّلُوا الخبيثَ بالطيبب»** لا تعجل بالرزق الحرام قبل أن يأتيك الحلال الذي قدر لك وقوله **«ولاَ تأكُلُوا أموالهم إلى أموالكم»** إلى بمعنى مع أي مع أموالكم، وقيل معناه، ولا تضمُّوا أموالهم إلى أموالكم في الانفاق. واعلم أن الله تعالى نهى عن أكل مال اليتيم، وأراد به جميع التصرّفات المهلكة للمال، وإنما ذكر الأكل لأنه معظم المقصود. خازن. والآية كقوله **«مَنْ أنْصَارِى إلى الله»** أي مع الله، أي ألا تنفقوها معاً، ولا تسووا بينها، فأكلكم أموالكم حلال لكم، وأكلكم أموالهم حرام عليكم، فلا يحل لكم من أموالهم ما زاد على قدر الأكل من أجرتكم ونفقتكم* وفي الخطيب: فإن قيل: قد حرّم الله عليهم أكل مال اليتيم وحده ومع أموالهم، فلم ورد النهيُ عن أكله معها؟ أجيب بأنهم كانُوا يفعلون كذلك، فأنكر عليهم فعلهم، وسمع بهم ليكون أزجر لهم، ولأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال، وهم مع ذلك يطمعون فيها، كان القبح أبلغ، والذمّ أحقّ* وقوله **«إنَّه»** أي أكلها **«كَانَ حُوباً»** أي ذنباً **«كبيراً»** عظيماً، أي فهو من الكبائر. قال الحسن: لمّا نزلت هذه الآية في أموال اليتامى كرهُوا أن يخالطوهم، وجعل وليُّ اليتيم يعزل مال اليتيم عن ماله. فشكوا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى **«يسألُونَك عَنِ اليتامى قُلْ إصْلاحٌ لَهُمْ خيرٌ وإنْ تُخَالِطُهُمْ فإخْوَانُكُمْ»** قال: فخالطوهم واتقّوا.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وإنْ خِفْتُمْ ألاَّ تُقْسِطُوا في الْيَتَامَى فانكِحُوا ما طابَ لكُمْ مِنَ النِّساءِ مثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ فإنْ خِفْتُم ألاَّ تَعْدِلُوا فَواحِدَةً أوْ ما مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أدْنَى ألاَّ تَعُولُوا وآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلةً فإنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شيءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مريئاً»

سورة النِّساء (الآية: ٣، ٤)

في الواحدي: عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزلت هذه في الرجل يكون له اليتيمة وهو وليُّها، ولها مال، وليس لها أحد يخاصم دونها، فلا يُنكحها حباً لمالها. و يضربها و يسيء صحبتها، فقال الله تعالى: **«وإنْ خِفْتُم ألاَّ تُقْسِطوا فى اليتامى..»** يقول: ما أحللت لك ودع هذه. رواه مسلم عن أبي كريب عن أبي أسامة عن هشام* وقال سعيد بن جبير وقتادة والربيع والضحاك والسّدى: كانوا يتحرّجون عن أموال اليتامى، و يترخصون في النساء، و يتزوَّجونَ ما شاؤا، فربما عدلوا، وربما لم يعدلوا. فلما سألوها عن اليتامى ــ نزلت آية اليتامى ــ **«وآتوا اليتامى أموالهم»** الآية أنزل الله تعالى أيضاً **«وإنْ خفتُم ألا تقسطوا في اليتامى»** الآية، فكذلك فخافوا في النساء أن لا تعدلُوا فيهنَّ، فلا تتزوجوا أكثر ما يمكنكم القيام بحقهنَّ لأن النساء كاليتامى في الضعف والعجز. وهذا قول ابن عباس في رواية الوالبى* وفي الخطيب: عن شعبة عن سماك قال: سمعتُ عكرمة يقول في هذه الآية: **«وإنْ خِفْتُم ألاَّ تقْسِطُوا في اليتامى ..»** قال: كان الرجل من قريش يكون عنده النسوة و يكون عنده الأ يتام، فيذهب ماله، فيميل إلى مال الأ يتام، قال: فنزلت هذه الآية* وفي رواية عنه قال: كان الرجل يتزوّج الأ ربع والخمس والست والعشر، فيقول الرجل ما يمنعني كما تزوّج فلان، فيأخذ مال يتيمه فيتزوّج به. فنهوا أن يتزوَّجوا فوق الأ ربع* وعن طاوس عن ابن عباس قال: قصر الرجل على أربع من أجل أموال اليتامى* ونحوه بقيّة الأقوال **«وإن خِفتُم ألاَّ تُقْسِطُوا في اليتامى»** أي وإن خفتم يا أولياء اليتامى أن لا تعدلوا فيهن إذا نكحتُموهن فانكحوا الغرائب **«فانكِحُوا ما طَاب لكُمْ مِنَ النِّساء»** يعنى ما حلّ لكم من النِّساء* قال الخازن: الظاهرية على وجوب النكاح، قالوا: إن قوله **«فانكِحُوا»** أمر، والأمر للوجوب،

وأجيب عنه بأن قوله تعالى «**فانكِحوا**» إنما هو بيان لما يحلُّ من العدد في النكاح* وتمسك الشافعي في بيان أنَّ النكاح ليس بواجب بقوله «**ومَنْ لمْ يستطع منكُمْ طوْلاً أن ينكح**» إلى قوله «**ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ العَنَتَ منْكُمْ وإن تصْبرُوا خيرٌ لكم**» الآية. فحكم في هذه السورة بأن ترك النكاح خير من فعله، وذلك يدل على أنّه ليس بواجب ولا مندوب، والاقساط: العدل، وقرىء بفتح التاء فقيل: هو من قسط أي جار ولا مزيدة كما في قوله «**لئلا يعلَمَ**» وقيل: هو بمعنى أقسط فإن الزجاج حكى أن قسط يستعمل استعمال أقسط، والمراد بالخوف العلم كما في قوله تعالى «**فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفاً**» عبر عنه بذلك إيذاناً بكون المعلوم مخوفاً محذوراً، وهو شروع في النهى عن منكر آخر، كانوا يباشرونه متعلق بأنفس اليتامى أصالة، و بأموالهم تبعاً عقيب النهى عما يتعلق بأموالهم خاصة، وتأخيره عنه لقلّة وقوع المنهى عنه بالنسبة إلى الأ ول وتنزيله منه منزلة المركب من المفرد، وذلك أنهم كانوا يتزوَّجون من يحل لهم من اليتامى اللاتى يلونهن لكن لا لرغبة فيهنَّ، بل في مالهنَّ، و يسيئون في الصحبة والمعاشرة، و يتربصون بهن الموت ليرثوهن، وهذا قول الحسن. وقيل هي اليتيمة تكون في حجر وليّها فيرغب في مالها وجمالها، و يريد أن ينكحها بأدنى من سُنَّةِ نسائها فنهوا أن ينكحوهن إلاَّ أن يقسطوا لهنَّ في إكمال الصَّدَاق. وأمرُوا أن ينكحوا ما سواهُنَّ من النِّساء، وهذا قول الزهرى* وفي رواية عن عروة عن عائشة رضي الله عنها. أبو السعود* وقوله «**ما طَابَ لكم**» في ما هذه أوجه:

أحدها: أنها بمعنى (الذي) وذلك عند من يرى أن ما تكون للعاقل، وهي مسئلة مشهورة، قال بعضهم: وحسن وقوعها هنا أنها واقعة على النساء، وهنَّ ناقصات العقول، و بعضهم يقول هي لصفات من يعقل، و بعضهم يقول لنوع من يعقل. كأنه قيل: النوع الطيّب من النساء، وهي عبارات متقاربة، فلذلك لم يعدها وجها.

الثاني: أنها نكرة موصوفة، أي انكحوا جنساً طيباً وعددا طيباً.

الثالث: أنها مصدريَّةٌ. وذلك المصدر واقع موقع اسم الفاعل إن كانت ما مفعولاً بانكحوا.

وقوله «**مِنَ النِّساءِ**» من بيانية، وقيل: تبعيضيَّة، والمراد بهنَّ غير اليتامى بشهادة قرينة المقام. أي ما استطابتها نفوسكم من الأجنبيات وقوله «**مَثْنَى وثُلاثَ وَرُبَاعَ**» أي

اثنتين اثنتين وثلاثاً ثلاثاً وأربعاً أربعاً وذلك أن الواو في قوله «**مَثْنَى وثُلاث..**» ليست للعطف كما أوضح ذلك في الكشاف، أي ولا تزيدُوا على الأربعة، وهذا هو المقصود بالسياق. وأمّا إباحة الأربعة فادونها فكان معلوماً من قبل، فالمقصود المنع والنهى عن الزيادة، وقوله «**فإنْ خِفْتُمْ ألاّ تَعْدِلُوا**» فيهن بالنفقة والقسم «**فَوَاحِدَةً**» أنكحوها «**أوْ**» اقتصروا على «**ما مَلكَتْ أيْمانُكُمْ**» من الاماء إذ ليس لهنَّ من الحقوق ما للزوجات، وأجمعت الأمة على أنه لا يجوز لأحد أن يزيد على أربع نسوة، وان الزيادة على أربع من خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم التي لا يشاركه فيها أحد من الأمة، ويدل على أن الزيادة على أربع غير جائزة وأنها حرام ما روى عن الحرث بن قيس، أو قيس بن الحرث، قال: أسلمت وعندى ثمان نسوة. فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [اختر منهنَّ أربعاً] أخرجه أبوداود* وعن ابن عمر أن غيلان بن سملة الثقفى أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية فأسلمن معه، فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختار منهنَّ أربعاً. أخرجه الترمذي* قال العلماء: فيجوز للمرء أن يجمع بين أربع نسوة حرائر، ولا يجوز للعبد أن ينكح أكثر من امرأتين. وهو قول أكثر العلماء، لأنه خطاب لمن ولى وملك وذلك للأحرار دون العبيد، وقال مالك في إحدى الروايتين عنه وربيعة: يجوز للعبد أن يتزوّج بأربعة نسوة، واستدل بهذه الآية، وأجاب الشافعى بأن هذه الآية مختصة بالأحرار، ويدل عليه آخر الآية، وهو قوله «**فإن خِفْتُمْ ألاّ تعدِلُوا فواحِدةً أوْ ما مَلكَتْ أيْمَانُكُمْ**» والعبد لا يملك شيئاً فثبت بذلك أن المراد من حكم الآية الأحرار دون العبيد.

فيكون المعنى: فإن خفتم الأربع فثلاثاً، وإن خفتم فاثنتين، وإن خفتم فواحدةً، فمن قرأ بالنصب، أراد فاختارُوا، أو انكحُوا، أو الزمُوا الواحدة، ومن قرأ بالرفع أراد فكفت واحدة، أو فحسبكم واحدة، وذروا الجمع، والأمر كله يدور مع العدل، فأينما وجدتموه فعليكم به، ثم قال: «**أوْ ما مَلكَتْ أيْمَانُكُمْ**» فسوى في السهولة بين الحرة الواحدة وبين ما شاء من الإماء لأنهنَّ أقل تبعة وأخف مؤنةً من المهائر أي الزوجات الحرائر ذوات المهور، ولا مؤاخذة عليه عدل بينهنّ أم لم يعدل، عزل عنهن أم لم يعزل، ولمّا كانت التسوية بينها وبينهنَّ احتج بها الشافعى في بيان أن نوافل العبادات أفضل من النكاح لأن الزائد على أحد المتساويين يكون زائداً على المساوى الآخر* وقوله «**ذَلِكَ**

أدْنَى ألاَّ تَعُولُوا» أي اختيار الواحدة. أو التسرى أقرب أن لا تميلوا، أو لا تجوروا، وكلا اللفظين مروى عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم من قولهم: عال الميزان عولاً إذا مال، وعال الحاكم في حكمه إذا جار، ومنه عالت الفريضة إذا زادت سهامها، وفيه الميل عن الاعتدال، وقيل معناه أن لا تفتقروا. ورجل عائل أي فقير، وذلك أنّه إذا قلّ عياله قلّتْ نفقاته، فلم يفتقر، ونقل عن الشافعى أنّه قال: معناه أن لا تكثر عيالكم، وطعن فيه بعض القاصرين بأن هذا في اللغة معنى تعيلوا لا معنى تعولوا، يقال: أعال الرجل إذا كثر عيالُه، ومنه قراءة طاوس: أن لا تعيلوا، وأيضاً أنه لا يناسب أول الآية: **«وإنْ خِفْتُمْ أن لا تقسطوا»** وأيضاً هب أنه يقل العيال في اختيار الحرّة الواحدة، فكيف يقول عند اختيار التسّرى ولا حصر لهنّ؟ والجواب عن الأول: أن الشافعى لم يذهب إلى تفسير اللغة، وإنما زعم أنه تعالى أشار إلى الشيء بذكر لازمه. أي جعل الميل والجوْر كناية عن كثرة العيال لأن كثرة العيال لا تنفك عن الميل والجور؟ وقوله تعالى: **«وآتوا النِّساءَ صَدُقَاتِهِنَّ»** أي مهورهنّ، والخطاب للأزواج وهو قول علقمه وقتادة والنخعى، واختيار الزجاج، لأن ما قبله خطاب للناكحين. وقيل الخطاب للأولياء لأن العرب كانت في الجاهلية لا تعطى البنات من مهورهنّ شيئاً ولذلك كانُوا يقولون لمن ولدت له ابنة: هنيئاً لك النافجة. يعنون أنك تأخذ مهرها إبلاً فتضمها إلى إبلك فتنضج مالك، أي تعظمه، وقال ابن الأعرابى: النافجة ما يأخذه الرجل من الحلوان إذا زوّج ابنته، فنهى الله عن ذلك، وأمر بدفع الحق إلى أهله، وهذا قول الكلبىّ وأبي صالح، واختيار الفراء وابن قتيبة، قال القفال: يحتمل أن يكون المراد من الايتاء المناولة، فيكون قد أمر بدفع المهور التي سمّوها لهنّ، ويحتمل أن يراد الالتزام كقوله **«حتّى يُعطُوا الجزْية عن يَدٍ»** أي حتى يضموها و يلتزموها. فيكون المعنى أن الفروج لا تستباح إلا بعوض يلتزم سواء سمّى ذلك أو لم يسمّ إلاّ ما خصّ به الرسول صلى الله عليه وسلم من الموهوبة. قال: ويجوز أن يراد الوجهان جميعاً؟ أمّا قوله **«نِحْلةً»** أي عطيّة وهبة قال الكلبىّ: فيكون مفعولاً له أو حالاً من الخاطبين. أي آتوهُنَّ ناحلين طيّبى النفوس بالاعطاء من غير مطالبة منهنّ لأن ما يؤخذ بالمطالبة لا يُسمّى نحلة، أو حالاً من الصدقات أي ديناً من الله شرعه وفرضه، وإنما سميت عطية من الزوج لأن الزوج لا يملك بدله شيئاً لأن البضع في ملك المرأة بعد النكاح كهو قبله، وإنما استحقه الزوج هو

الاستباحة لا الملك والنحلة العطية من غير بدل. وقال قوم: إن الله تعالى جعل منافع النكاح من قضاء الشهوة والتوالد مشتركاً بين الزوجين، ثم أمر الزوج بأن يؤتى الزوجة المهر. وكان ذلك عطية من الله تعالى ابتداء، وقوله «فإن طِبْنَ» يعني النساء المتزوجات «لكُمْ» يعني الأزواج «عَنْ شيءٍ» منه يعني من الصداق. ومن هنا لبيان الجنس لا للتبعيض لأنها لو وهبت المرأة لزوجها جميع صداقها جاز «نَفْساً» نصب على التميز أي فإن طابت نفوسهنَّ عن شيء من ذلك الصداق المعين فوهبن ذلك لكم فنقل الفعل من النفوس إلى أصحابها فخرجت النفس مفسّراً فلذلك وحّد النفس. وقيل: لفظه واحد ومعناه الجمع «فكلُوهُ» يعني ما وهبته لكم «هَنِيئاً مَريئاً» أي طيباً سائغاً، وهما صفتان من هنؤ الطعام ومرؤ إذا كان سائغاً لا تنغيص فيه، وقيل: الهنيء: ما يستلزه الآكل، والمرىء: ما تحمد عاقبته. وقيل: هوما ينساغ في مجراهُ، والمراد إباحة ذلك* وذهب صاحب الغرائب: أن قوله «مِنْهُ» للتبعيض اخراجاً للكلام مخرج الغالب مع فائدة البعث المذكور لأنه لا يجوز هبة كل الصداق إذا طابت نفسها عن المهر بالكليّة. قال: ومن غفل عن هذه الدقيقة زعم أن من للتّبيين. قلت: وقد ذكر عن الليث أنه قال: إنها للتبعيض وقد منع أنها للتبيين. والله أعلم* وفي القرطبي: تعلّق أبوحنيفة بهذه الآية في تجويزه نكاح اليتيمة قبل البلوغ. وقال: إنما تكون يتيمة قبل البلوغ، و بعد البلوغ هي امرأة. وذهب مالك والشافعي: والجمهور من العلماء على أن ذلك لا يجوز حتى تبلغ وتستأمر لقوله تعالى: «ويستفتُونَكَ في النِّساء» والنساء اسم يطلق على الكبار كالرجال في الذكور، واسم الرجل لا يتناول الصغير، فكذلك اسم النساء، والمرأة لا تتناول الصغيرة وقد قال: (في يتامى النِّساء) والمراد به هناك اليتامى هنا كما قالت عائشة رضي الله عنها، فقد دخلت اليتيمة الكبيرة في الآية فلا تزوَّج إلا بإذنها. روى ابن أبي ذئب عن عمر بن حسين، عن نافع عن عبدالله بن عمر، أنه تزوَّج بنت خاله عثمان بن مظعون قال: فذهبت أُمّها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: إنَّ ابنتي تكره ذلك. فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يفارقها. وقال: [لا تنكحوا اليتامى حتّى تَسْتَأمِرُوهُنَّ، فإذا سكتن فهو إذنها] فهذا يردّ ما ذهب إليه أبوحنيفة إذا بلغت لا تحتاج إلى وليّ بناء على أصله في عدم اشتراط الولي في صحةالنكاح.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إذَا بَلَغُوا النِكَاحَ فإنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فادْفَعُوا إليْهِمْ أمْوالَهُمْ ولاَ تأكُلُوهَا إسْرَافاً وَبدَاراً أنْ يكْبَرُوا ومَنْ كانَ غنِيّاً فَلْيَسْتَعْفف ومَنْ كانَ فقيراً فليأكُل بالْمَعْرُف فإذَا دفَعْتُمْ إليْهِمْ أمْوالَهُمْ فأشهِدُوا عَلَيْهِمْ وكَفَى بالله حَسِيباً»

سورة النِّساء (الآية: ٦)

فى الواحدى : نزلت فى ثابت بن رفاعة وفى عمه، وذلك أن رفاعة توفى وترك ثابتاً وهو صغير، فأتى عمّ ثابت إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم فقال: إن ابن أخى يتيمٌ فى حجرى، فما يحلُّ لى من ماله، ومتى أدفع إليه ماله؟ ــ وكذا فى الخازن وغيرهما من التفاسير قوله تعالى: «وابْتَلُوا الْيَتَامَى» أى اختبروهم قبل البلوغ فى دينهم وتصرفهم فى أحوالهم، وهذا شروع فى تعيين وقت تسليم أموال اليتامى إليهم، و بيان شرطه بعد الأمر بإتيانها على الاطلاق، والنهى عنه عند كون أصحابها سفهاء أى واختبروا من ليس منهم بين السّفَه قبل البلوغ بتتبّع أحوالهم فى صلاح الدين. والاهتداء إلى ضبط المال وحسن التصّرف فيه، وجرّبُوهم بما يليق بحالهم، فإن كانوا من أهل التجارة فأن تعطوهم من المال ما يتصرفون فيه بيعاً وابتياعاً، وإن كانوا ممّا لهم ضياع وأهل وخدم فأن تعطوهم منه ما يصرفونه إلى نفقة عبيدهم وخدمهم وأجرائهم، وسائر مصارفهم حتى يتبيّن لكم كيف أحوالهم. والمراد بذلك اختبار عقولهم، ومن هنا قال أبو حنيفة تصرفات الصبىّ العاقل بإذن الولى صحيحه لأن الابتلاء المأمور به قبل بلوغهم إنما يحصل إذا أذن له فى البيع والشراء* وقال الشافعى: الابتلاء قبل البلوغ لايقتضى الاذن يتوقف على دفع المال إليهم، ولكن لا يصح دفع المال إليهم، لأنه موقوف على الشرطين، بل المراد بالابتلاء اختبار عقله واستبراء حاله حسبما يليق بكل طائفة، فولد التاجر يختبر فى البيع والشراء بحضوره، ثم باستكشاف ذلك البيع والشراء منه. وما فيهما من المصالح والمفاسد، وقد يدفع إليه شيئاً لبيع أو يشترى فيعرف بذلك مقدار فهمه وعقله، ثم الولى بعد ذلك يتم العقد لو أراد. وولد الزارع يختبر فى أمر المزارعة والانفاق على القوام بها، وولد المحترف فيما يتعلق بحرفته، والمرأة فى أمر القطن والغزل، وحفظ الأقمشة، وصون الأطعمة عن الهرة

والفأرة وما أشبهها، ولا يكفى المرة الواحد فى الاختبار، بل لا بد من مرتين وأكثر على ما يليق بالحال، و يفيد غلبة الظنّ أنه رشد. وقوله: «**حتّى إِذَا بلَغُوا النّكاحَ**» أى صاروا أهلاً له إمّا بالسن وهو استكمال خمس عشرة سنة تحديدية لخبر ابن عمر رضى الله عنه [عرضت على النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم أحد، وأنا ابن أربع عشرة سنة فلم يجزنى ولم يرنى بلغت، وعرضت عليه يوم الخندق وأنا ابن خمس عشرة سنة فأجازنى ورآنى بلغت] رواه ابن حبان، وأصله فى الصحيحين، وابتداؤها من انفصال جميع الولد، قيل: عرض صلى الله عليه وسلم سبعة عشر من الصحابة، وهم أبناء أربع عشرة فلم يجزهم، وعرضُوا عليه وهم أبناء خمس عشرة فأجازهم. وإما بخروج المنى فى وقت إمكانه وكذا الحيض على تفصيل فى الفروع. وقوله: «**فإِنْ آنَسْتُمْ**» أى أبصرتُم أو علمتم وهو الأصح ففى المصباح وآنست الشيء بالمدّ علمته وآنسته أبصرته. «**مِنْهُمْ رُشْداً**» صلاحاً فى دينهم ومالهم. قال أبوحنيفة: إذا بلغ مهتدياً إلى وجوه مصالح الدنيا فهو رشيد يدفع إليه ماله. وقال الشافعى [لا بُدّ مع ذلك من الاهتداء لمصالح الدين، فإن الفاسق لا يخلوا من إتلاف المال فى الوجوه الفاسدة المحرّمة] وقد نفى الله تعالى الرشد على فرعون فى قوله: «**ومَــا أمر فرعونَ برشيد**» مع أنه كان يراعى مصالح الدنيا. و يتفرّع على القولين: أن الشافعى يرى الحجز على الفاسق، وأبو حنيفة لا يراهُ. كم إنه إذا بلغ غير راشد واستمر على ذلك لم يدفع إليه ماله بالاتفاق إلى خمس وعشرين سنة، وفيما وراء ذلك خلاف. فعند أصحاب أبى حنيفة وعند الشافعى لا يُدفع إليه أبداً إلا بإيناس الرشد كما هو مقتضى الآية، وعند أبى حنيفة يدفع لأن مدة بلوغ الذكر عنده بالسن ثمانى عشرة سنة، فإذا زادت عليها سبع سنين وهى مدة معتبرة فى تغيّر أحوال الانسان لقوله صلى الله عليه وسلم: [مروهم بالصلاة لسبع] دُفع إليه ماله، أو نسى منه رشد أو لم يونس وقوله: «**فادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ**» من غير تأخير «**ولاَ تأكُلوهَا**» أيها الأ ولياء «**إِسْرَافاً**» أى بغير حق «**وَبِدَاراً**» حالان. أى مسرفين ومبادرين إلى انفاقها مخافة «**أنْ يكبَرُوا**» رشداً فيلزمكم تسليمها إليهم. «**ومَنْ كَانَ**» من الأ ولياء «**غنيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ**» أى أن يعف عن مال اليتيم، ويمتنع عن أكله «**ومَنْ كانَ فقيراً فليأكُلْ**» منه «**بالْمَعْروفِ**» أى بقدر الأكل من حاجته وأجرة سعيه. روى النسائى وغيره أن رجلاً قال للنبىّ صلى الله عليه وسلم: إنّ فى حجرى يتيماً أفآكل من ماله؟ قال: «**بِالْمَعْرُوفِ**» وللعلماء خلاف

فى أن الوصى هل له أن ينتفع بمال اليتيم. قال الشافعى: لَهُ أن يأخذ بقدر ما يحتاج إليه، وبقدر أجرة عمله لأن النهى فى الآية عن الاسراف مشعر بأن له أن يأكل بقدر الحاجة، ولا سيا إذا كان فقيراً. ولما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أن رجلاً قال له: إن فى حجرى يتيماً أفآكل من ماله؟ قال: [بالمعروف غير متأثل مالاً ولا واق مالك بما له] قال: أفأضر به؟ قال: [مما كنت ضارباً منه ولدك] وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتب إلى عمار وابن مسعود وعثمان بن حنيف: سلام عليكم: أما بعد: فإنى قد رزقتكم كل يوم شاة شطرها لعمار وربعها لعبدالله بن مسعود، وربعها لعثمان. ألا وإنى قد أنزلت نفسى وإياكم من مال الله منزلة والى مال اليتيم **«مَنْ كانَ غنيّاً فلْيَسْتَعْفِفْ ومَنْ كَانَ فقيراً فلياْكُلْ بالمعروفِ»** وأيضاً قياساً على الساعى فى أخذ الصدقات وجمعها فإنه يضرب له فى تلك الصدقات بسهم، فكذا هنا* وعن سعيد بن جبير ومجاهد وأبى العالية. أن له أن يأخذ بقدر ما يحتاج إليه قرضاً ـــ أى لقوله: **«بالمعروف»** ثم إذا أيسر قضاه، وإن مات ولم يقدر على القضاء فلا شىء عليه* وأكثر العلماء على أن هذا الاقتراض إنما جاء فى أصول الأموال من الذهب والفضة وغيرهما، وأما التناول من ألبان المواشى. واستخدام العبيد وركوب الدوابّ فمباح له إذا كان غير مضرّ بالمال* وقال أبوبكر الرازى: الذى نعرفه من مذهب أصحابنا أنه لا يأخذه لا على سبيل القرض ولا على سبيل الابتداء سواء كان غنياً أو فقيراً. واحتجّ بقوله تعالى: **«وآتوُا اليتامَى أموالهم»** وأجيب بأنها عامة. وقوله: **«فلياْكُلْ بالمعروف»** خاص، والخاص مقدم على العام. قال: **«إنَّ الَّذِينَ يأكُلُونَ أمْوالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً»** وأجيب بأن محل النزاع هو أن أكل الوصى مال اليتيم ظلم، أوْ لا . وقوله: **«فإذَا دَفَعْتُمْ إليْهِمْ أمْوَالَهُمْ فأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ»** اتفق العلماء على الوصى إذا دفع المال إلى اليتيمْ بعد بلوغه رشيداً فالأَ ولى والأحواط أن يشهد عليه إظهاراً للأمانة، وبراءة من التهمة، ولكن اختلفوا فى أن الوصى إذا ادّعى بعد بلوغ اليتيم أنه قد دفع المال إليه، فهل هو مصدّقٌ؟ فقال أبوحنيفة وأصحابه يصدق بيمينه كسائر الأمناء وقال الشافعى: لا يصدق إلاّ بالبيّنة لأنه تعالى نصّ على الاشهاد فقال: **«فإذا دَفَعْتُمْ إليهِمْ أمْوَالَهُمْ فأشْهِدُوا عليْهِمْ»** وظاهر الأمر للوجوب، ولأنه أمين من جهة الشرع لا من جهة اليتيم، وليس له نيابة عامة كالقاضى، ولاكمال الشفقة كالأب، نعم يصدق فى قدر النفقة وفى عدم التقتير والاسراف لعسر

إقامة البيّنة على ذلك، وتنفيره الناس عن قبول الوصاية. وقوله: «**وَكَفَى باللهِ حَسِيباً**» حافظاً لأعمال خلقه ومحاسبهم أى كافياً فى الشهادة عليكم بالدفع والقبض، وفيه تهديد للولىّ ولليتيم أن يتصادقوا ولا يتكاذبوا.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لِلرِّجَالِ نَصيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدَانِ والأَقْرَبُونَ وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا ترَكَ الْوالِدانِ والأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أو كَثُرَ نَصيباً مَفْرُوضاً»

سورة النِّساء (الآية: ٧)

فى الواحدى : قال المفسّرُون: إنّ أوس بن ثابت الأنصارى تُوفى وترك امرأة يقال لها أم كحه، وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هما ابنا عم الميت ووصياه، يقال لهما: سويد وعرفجة، فأخذا ماله ولم يُعطيا أمرأته شيئاً ولا بناته، وكانوا فى الجاهلية لا يورّثون النساء، ولا الصغير وإن كان ذكراً، وإنما يورثون الرجال الكبار، وكانوا يقولون: لا يعطى إلا من قاتل على ظهور الخيل وحاز الغنيمة، فجاءت أم كحة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت يا رسول الله: إنّ أوس بن ثابت مات وترك علىّ بنات، وأنا امرأة وليس عندى ما أنفق عليهنّ، وقد ترك أبوهُنّ مالاً حسناً، ولا يسقيان ولا يرفعان لهن رأساً. فدعاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالا يا رسول الله: ولدها لا يركب فرساً ولا يحمل كلاًّ ولا ينكب عدوّاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [انصرفوا حتى أنظر ما يحدث الله فيهِنّ] فانصرفوا. فأنزل الله هذه الآية* فأثبت لهنّ الميراث، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تقربا من مال أوس شيئاً، فإنّ الله جعل لبناته نصيباً] * وكذا فى الخازن وابن كثير والخطيب وغيرها من التفاسير: وقوله «**للرِّجالِ**» الأولاد والأقرباء «**نَصيبٌ**» حظٌ «**مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأَقرَبُون**» المتوفون من الأموال وكذلك «**لِلنِّساءِ نَصيبٌ**» حظٌ من التركه «**مِمَّا قَلَّ مِنْهُ**» أى المال «**أَوْ كَثُرَ**» جعله الله «**نَصيباً مَفرُوضاً**» مقطوعاً بتسليمه إليهم، فلا يسقط باسقاطهم، قال البيضاوى: فى الآية دليل على أن الوارث لو أعرض عن نصيبه لم يسقط حقه بالاعراض* وفى رواية ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطى أم كحة الثمن، والبنات الثلثين، والباق لابنىْ العمّ. واحتجَّ بعض أصحاب أبى حنيفة بهذه الآية على توريث ذوى الأرحام،

كالعمات والخالات والأخوال وأولاد البنات لأن الكل من الأقربين، غاية ما فى الباب أن مقدار أنصبائهم غير مذكور ههُنا إلاَّ أنا نثبت بالآية استحقاقهم لأصل النصيب، ونستفيد المقادير من سائر الدلائل. وأجيب بأنه تعالى قال: «**نصيباً مَفْرُوضاً**» وبالإجماع ليس لذوى الأرحام نصيب مقدر. وأيضاً الواجب عندهم ما علم ثبوته بدليل مظنون، والمفروض ما علم بدليل قاطع، وتوريث ذوى الأرحام ليس من هذا القبيل بالاتفاق، فعرفنا أنه غير مراد من الآية. وأيضاً ليس المراد بالأقربين من له قرابة ما، وإن كانت بعيدة وإلا دخل جميع أولاد آدم فيه، فالمراد إذنْ أقرب الناس إلى الوارث. وما ذاك إلا الوالدن والأولاد، ودخول الوالدين فى الأقربين يكون كدخول النوع فى الجنس. فلا يلزم تكرار والله أعلم. (الغرائب) وفيه قال المفسّرون: إنه تعالى لما ذكر فى الآية للنساء أسوة بالرجال فى أن لهن حظاً من الميراث، وعلم أن فى الأقارب من يرث وفيهم من لا يرث، وربما حضروا القسمة فلا يحسن حرمانهم. قال: «**وإذا حضر القسمة أُوْلُوا الْقُرْبَى**» الآية ثم منهم من قال بوجوبه، ومنهم من قال باستحبابه وعلى الوجوب فعن سعيد بن المسيّب والضحاك أنها منسوخة بآية المواريث. وعن أبى موسى الأشعرى وإبراهيم النخعى والشعبىّ والزهرى ومجاهد والحسن وسعيد بن جبير أنها محكمة، ولكنها مما تهاون به الناس. قال الحسن: أدركنا الناس وهم يقسمون على القرابات واليتامى والمساكين من الورق والذهب فإذا آل الأمر إلى قسمة الأرضين والرقيق وما أشبه ذلك، قالوا لهم: قولاً معروفاً، كانوا يقولون لهم: ارجعوا بورك فيكم* وعلى الاستحباب، وهو مذهب فقهاء الأمصار اليوم. قالوا: إن هذا الرضخ يستحب إذا كانت الورثة كباراً، أما إذا كانوا صغاراً فليس إلاَّ القول بالمعروف. كأن يقول الولى: إنى لا أملك هذا المال إنما هو لهؤلاء الضعفاء الذين لا يعرفون ما عليهم من الحق. وإن يكبروا فسيعرفون حقّكُمْ.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إِنَّ الَّـذِينَ يأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّما يأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً» سورة النِّساء (الآية: ١٠)

في الواحدي: قال مقاتل بن حيان: نزلت في رجل من غطفان يقال له مرثد بن زيد، وُلّيَ مال ابن أخيه، وهو يتيم صغير فأكله، فأنزل الله فيه هذه الآية* وكذا في الخازن

وبقية التفاسير: قوله: «**إنَّ الَّذِينَ يأكُلُونَ أمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً**» أي بغير حق «**إنَّمَا يأكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَاراً**» أي سيأكلون يوم القيامة، فسمّى الذين يأكلون ناراً بما يؤل إليه أمرهم يوم القيامة* قال السّدى: يبعث آكل مال اليتيم ظلماً يوم القيامة، ولهب النّار يخرج من فيه، ومن مسامعه وأذنيه وعينيه وأنفه، يعرفه من رآه بآكل مال اليتيم* وفي حديث أبي سعيد الخدري قال: حدّثنا النبي صلى الله عليه وسلم عن ليلة أسرى به، قال: [نظرت فإذا أنا بقوم لهم مشافر كمشافر الإبل، وقد وكل بهم من يأخذ بمشافرهم، ثم يجعل في أفواههم صخراً من نار يخرج من أسافلهم، قلت ياجبريل: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً]* وقيل: إنما ذكر أكل النار على سبيل التّمثيل والتوسع في الكلام. والمراد أنَّ أكل مال اليتيم ظلماً يفضى به إلى النار، وإنما خصّ الأكل بالذكر، وإن كان المراد سائر أنواع الإتلافات وجميع التّصرفات الرديئة المتلفة للمال لأن الضرر يحصل بأكل ذلك لليتيم، فعبّر عن جميع ذلك بالأكل لأنه معظم المقصود، وإنما ذكر البطون للتأكيد، فهو كقولك رأيتُ بعيني وسمعت بأذنى. وقوله: «**وَسَيُصْلَوْنَ سَعِيراً**» السعير النار. أي مسعورة، والتنكير للتّعظيم، أي ناراً مبهمة الوصف لا يعلم شدتها إلاّ خالقها. ولمّا نزلت هذه الآية ثقل ذلك على الناس، واحترزوا من مخالطة اليتامى، وأموالهم بالكليّة، فشق ذلك على اليتامى فنزل قوله تعالى: «**وإنْ تُخَالِطُوهُمْ فإخْوَانِكُمْ**» وقد توهم بعضهم أن قوله «**وإنْ تُخَالِطُوهُمْ فإخْوَانِكم**» ناسخ لهذه الآية. وهذا غلط ممَّن توهمه لأنَّ هذه الآية واردة في المنع من أكل أموال اليتامى ظلماً، وهذا لا يصير منسوخاً، لأن أكل مال اليتيم بغير حق من أعظم الآثام وإن تخالطوهم فإخوانكم. وارد على سبيل الإصلاح في أموال اليتامى، والإحسان إليهم، وهو من أعظم القرب.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ولأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وورِثَهُ أَبَواهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فإِنْ كانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِها أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وأَبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً حَكِيماً»

سورة النِّساء (الآية: ١١)

يتبع إلى قوله: **«ولَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ»**

في الواحدي: قال ابن جريج: أخبرني ابن المنكدر عن جابر قال: عادني رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوبكر في بني سلمة يمشيان، فوجداني لا أعقل، فدعا بماء فتوضأ، ثم رش علي منه فأفقت، فقُلْتُ: كيف أَصْنَعُ في مالي يا رسول الله؟ فنزلت: **«يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ»** الآية رواه البخاري* وعن جابر بن عبدالله قال: جاءت امرأة بابنتيْن لها. فقالت يا رسول الله: هاتان بنتا ثابت بن قيس، (أو قالت: سعد بن الربيع) قتل معك يوم أحد وقد استفاء عمهما مالهما وميراثهما. فلم يدع لهما مالاً إلاّ أخذه. فما ترى يا رسول الله؟ فوالله ما ينكحان أبداً إلاّ ولهما مال. فقال: يقضي الله في ذلك. فنزلت سورة النساء وفيها **«يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ للذكرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْن»** إلى آخر الآية. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ادع لي المرأة وصاحبها. فقال لعمهما: أعطهما الثُلُثَيْن، وأعط أمهما الثّمن، وما بقي فَلَكَ] أخرجه الترمذي. ونحوه في الخطيب والخازن وفيه، وقال السّدي: كان أهل الجاهلية لا يورّثون الجواري، ولا الضعفاء من الغلمان لا يرث الرّجل من ولده إلاّ من أطاق القتال، فمات عبدالرحمن: أخو حسّان الشاعر وترك امرة وخمس بنات، فجاء الورثة وأخذوا ماله. فشكت امرأته إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة* وبقية ما في التفاسير لا زيادة فيها عمّا ذكر. قوله تعالى: **«يُوصِيكُمُ اللهُ»** يأمركم **«فِي أَوْلَادِكُمْ»** أي في شأن ميراثهم بما هو العدل والمصلحة. وهذا إجمال تفصيله **«لِلذَّكَرِ»** منهم **«مِثْلُ حَظِّ»** نصيب **«الأُنْثَيَيْنِ»** إذا

اجتمعتا معه. فله نصف المال، ولهما النصف، فإن كان معه واحدة فلها الثلث وله الثلثان. وإنما فضل الذكر على الأنثى لاختصاصه بلزوم ما يلزم الأنثى من الجهاد وتحمّل الدية وغيرها، وله حاجتان: حاجة لنفسه وحاجة لزوجته، والأنثى حاجة واحدة لنفسها. بل هي غالباً مستغنية بالتزو يج عن الإنفاق من مالها. ولكن لمّا علم الله تعالى احتياجها إلى النفقة، وإن الرغبة تقلُّ فيها إذا لم يكن لها مال جعل لها حظاً من الإرث. وأبطل حرمان الجاهلية لها* قال الخطيب: فإن قيل: هلاَّ قيل للأنثيين مثل حظ الذكر، أو للأنثى نصف حظ الذكر؟ أجيب بأنه إنما بدأ ببيان حظ الذكر لفضله، كما ضوعف حظه لذلك، ولأن قوله: «**لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنثيين**» قصد إلى بيان فضل الذكر. وقوله: للأنثيين مثل حظ الذّكر قصد إلى بيان نقص الأنثى ، وما كان قصداً إلى بيان فضله كان أدل على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره منه، ولأنهم كانوا يورثون الرجال دون النساء والصبيان، وكان في ابتداء الإسلام بالمحالفة قال تعالى: «**والَّذِينَ عَقَدَتْ أيْمَانُكُمْ فآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ**» ثم صارت الوراثة بالهجرة قال تعالى: «**والَّذِينَ آمَنُوا ولَمْ يُهَاجِروا مالكُمْ مِنْ وِلاَيَتِهِمْ مِنْ شيء**» ثم نسخ ذلك بالآية الكريمة* وقوله: «**فإنْ كُنَّ**» أي الأولاد، وهو عائد على الإناث اللاتى هن بعض الأولاد المتقدم ذكرهم في قوله تعالى «**يوصيكُمْ الله فى أوْلادِكُمْ**» أي الذكور والإناث. لكن في السمين «**فإنْ كُنَّ نِسَاءً**» الضمير في كنَّ يعود على الإناث اللاتى شملهن قوله في أولادكم، فإن التقدير في أولادكم: الذكور والإناث، فعاد الضمير على أحد قسمى الأولاد. وقوله «**نِسَاءً**» فقط «**فوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلثَا ما ترَكَ**» الميت وكذا الاثنتان لأنه للأختين بقوله «**فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ**» فهما أولى أي البنات، وذلك لأنها أقرب للميت من الأختين كما هو ظاهر. و يدل عليه قوله «**وإنْ كَانَتْ**» المولودة «**واحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ولأَبَوَيْهِ**» أي الميت، وهو شروع في إرث الأصول «**لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ**» ذكر أو أنثى، وألحق بالولد ولد الإبن، و بالأب الجد «**فإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أبَوَاهُ**» فقط أو مع زوج «**فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ**» أي ثلث المال، أو ما يبقى بعد الزوج والباقي للأب وفي كل من المسئلتين «**فَإنْ كَانَ لَهُ إخْوَةٌ**» أي الميت اثنان فصاعداً ذكوراً وإناثاً «**فلأُمِّهِ السُّدُسُ**» والباقى للأب ولا شيء للأخوة، وتقسم التركة على نحو ما ذكر «**مِنْ بَعْدِ**» تنفيذ «**وَصِيَّةٍ يُوصى بِهَا**» الميت «**أوْ**» قضاء

«دَيْنٍ» عليه. وتقديم الوصيّة على الدين وإن كانت مؤخرة عنه في الوفاء للاهتمام بها لكون أدائها شاقاً على الورثة في أخذها من غير عوض كان إخراجها ممّا يشقُّ على الورثة بخلاف الدّين. فإن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه، فلذلك قدّمت على الدين حثاً على وجوبها، والمسارعة إلى اخراجها مع الدين، ولذلك جيء بكلمة أوْ للتسوية بينهما في الوجوب. وقوله «آبَاؤُكُمْ وأبْنَاؤُكُمْ لاَ تَدْرُونَ أيُّهُمْ أقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً» في الدنيا والآخرة فظانٌ أن ابنه أنفع له فيعطيه الميراث فيكون الأب أنفع، و بالعكس، وإنما العالم بذلك الله وحده ففرض لكم الميراث «فَرِيضَةً مِنَ اللهِ إنَّ اللهَ كانَ عَلِيماً» بخلقه «حَكِيماً» فيما دبّره لهم أي لم يزل متّصفاً بذلك. وذلك أن الخبر عن الله بهذا اللفظ كالخبر بالحال والاستقبال بمعنى لم يزل كذلك عليماً حكيماً، وكان كذلك وهو الآن على ما كان عليه لأنه منزّه عن الدخول تحت الزمان. وعلى هذا المعنى تتخرّج جميع الصفات الذاتية المقترنة بكان، ومعلوم أن كان في القرآن على أوجه بمعنى الأ زل والأ بد، وبمعنى المضى المتقطع، وهو الأصل في معناها. وبمعنى الحال وبمعنى االاستقبال وبمعنى صار، وبمعنى ينبغى، وبمعنى حضر أو وجد، وترد للتأكيد وهى الزائدة وقوله تعالى «ولَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أزْوَاجُكُمْ إنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ» أي ذكر أو أنثى منكم أو من غيركم «فإنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ» على نحو ما ذكر «فَلَكُم الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصيّةٍ يُوصِينَ بِهَا أوْدَيْنٍ» وألحق بالولد في ذلك ولد الابن بالاجماع سواء كان ذكراً أو أنثى بخلاف ولد البنت فلا يحجب الزوج «وَلَهُنَّ» أي الزوجات تعدّدت أولا «الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ» منهنَّ أوْ من غيرهنَّ «فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِنْ بَعْدِ وَصيّةٍ تُوصُونَ بِهَا أوْ دَيْنٍ» وولد الإبن في ذلك كالولد إجماعاً «وإنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلاَلَةً» أي لا والد له ولا ولد وهذا أحسن ما قيل في تفسير الكلالة، و يدل على صحته أن اشتقاق الكلالة من كلّت الرحم بين فلان وفلان إذا تباعدت القرابة بينهما. فسمّيت القرابة البعيدة كلالة من هذا الوجه. قال الليث: الكَلُّ الرّجلُ الذي لا ولد له ولا والد. وقيل: ما لم يكن من النّسب لحماً فهو كلالة، وقالُوا: هو ابن عمّ الكَلاَلَةَ، وابن عم كَلاَلةٍ. وقيل: الكلالةُ من تكلّل نسبُه بنسبك كابن العم ومن أشبهه. وقيل: هم الأخوة للأم وهو المستعمل. وقال اللحيانى: الكلالة: من العصبة من ورث معه الإخوة من الأم* والعرب تقول: لم يرث كلالة أي لم يرثه عن عُرُض بَلْ عَنْ قُربْ واستحقاق، قال الفرزدق:

وَرِثْـتُـم قـنـاة الملك غير كـلالـة عن ابنى مَنافٍ: عَبْدِ شمْس وهَاشم

وقـال ابـن الأعـرابى: الكَلالةُ بنو العمّ الأ باعد. وحكى عن أعرابى أنه قال: مالى كثيرٌ، و يـرثُنى كَـلالَـةٌ مـتـراخٍ نـسبهـم، والقول الأ ول هو الأصح لأن الكلالة مصدر من تكلّله الـنّـسـب، أي تـطـرفَهُ كأنّه أخذ طرفيه من جهة الولد والوالد. وليس لها منها أحدٌ وعليه أكثر الـصـحـابـة. قال الشعبىُّ: سئل أبوبكر رضي الله عنه عن الكلالة فقال: إنى سأقول فيها برأى، فإن كان صواباً فمن الله، وإن كان خطأً فمنى ومن الشيطان، أراه ما خلا الوالد والـولـد. وقضى به، ولمّا استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إنى لأستحى من الله أن أردَّ شـيـئاً قاله أبوبكر. وذهب طاوس إلى أن الكلالة من لا ولد له، وهى احدى الـروايـتين عـن ابن عبّاس. وأحد القولين عن عبدالله بن عمر. وقال عمر رضي الله عنه: ثـلاث لأن يـكـون الـنبي صلى الله عـلـيـه وسـلم بيّنهنّ لنا أحبُّ إلينا من الدنيا وما فيها: الـكـلالـة، والخـلافـة، وأبـواب الربا. وما نقل عن أبى بكر رضي الله عنه فيها قول جمهور اللغـو يين. و يؤيد ذلك أن الآية نزلت في جابر رضي الله عنه، ولم يكن له يوم أنزلت أبٌ ولا ابـن. وقوله تعالى: «أَوْ امرأَةٌ» تورث كَلالة أي خالية من الوالد والولد، وهى عطف على رجـل «وَلَـهُ» أي لـلـمـورث كـلالـة «أَخٌ أَوْ أُخْـتٌ» أي مـن أم فقط، وقرأ به ابن مسـعـود وغـيـره. وقد احتج بها الشافعى فيا حكاه البو يطى عنه في باب الرضاع. و باب تحريم الجمع، وعليه جمهور أصحابه لأنها منقولة عن النبي صلى الله عليه وسلم. ولا يلزم من انـتـفـاء خصوص قرآنيتها انتفاء خصوص خبريّتها. «فَلِكُلِّ واحدٍ منْهُمَا السُّدُسُ» وقد أجمعوا على أن المراد بـه الأخ والأخـت مـن الأم، هـذا عـند الإنفراد «فإنْ كَانُوا» أي الإخوة والأخوات من الأم «أكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ» أي من واحد «فَهُمْ شُرَكَاءُ فى الثُّلُثِ» يسـتـوى فـيـه ذكـرهـم وأنثاهم ولإدلائهم بمحض الأنوثة ذلك التقسيم «مِنْ بَعْدِ وَصِيَّة يُوصِـى بِـهَـا أَوْ دَيْـنٍ غيْرَ مُضَارٍّ» أي غير مدخل الضرر على الورثة بأن يوصى بأكثر من الـثلث ذلكم «وصيّةً» مصدر مؤكد ليوصيكم الله في أولادكم. أي يوصيكم الله وصيةً كـائنةً «مِنَ اللهِ واللهُ عليمٌ» بما دبّرهُ لخلقه من الفرائض «حَكِيمٌ» أى عادل فيما أعطاه لـكـل وارث مـن الـتركة. وقد خصّت السنّة الشريفة توريث من ذكر بمن لـيس فيه مانع مـن قـتـل أو اخـتـلاف ديـن أو رق. «تِـلْـكَ حُدُودُ اللهِ» أي ما حدّه من شرائع لعباده لـيـعـمـلوا بهـا، ولا يعتدُوها، وفيه إشارة إلى أن حدود الله نوعان: منها ما لا يفعل كالزنا

ونحوه، ومنها ما لا يتعدّى كالمذكورات ونحوها كتزو يج الأربع. وقوله: «**وَمَنْ يُطِعْ اللهَ ورسُولَهُ**» فيا حكم به «**يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تجرى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خالدينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمِ * وَمَنْ يَعْصِ اللهَ ورسُولَهُ و يتعدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَاراً خالِداً فيها ولَهُ**» فيها «**عَذَابٌ مُهِينٌ**» ذو إهانة. هذه الآية ركن من أركان الدين، وعمدة من عمدة الأحكام، وأُمّ من أمهات الآيات، فإن الفرائض عظيمة القدر حتى أنها ثلث العلم، وروى نصف العلم، وهو أوّل علم ينزع من الناس و يُنْسى. روى الدارقطني عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: [تعلَّمُوا الفَرائض وعلِّموهُ النَاس فإنه نصف العلم، وهو أوّل شيء يُنسى من أمتي] وروى أيضاً عن ابن مسْعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [تعلَّموا القرآنَ وعلموه الناس، وتعلموا الفرائض وعلّموها الناس، وتعلموا العلم وعلموه الناس فإني امرؤ مقبوض، وإنَّ العلم سيقبض. وتظهر الفتن حتى يختلف الإثنان في الفريضة لا يجدان من يفصل بينهما] ولذا فقد اهتم الصحابة بهذا العلم، بل كان علم الفرائض أكثر علومهم، بدليل قول ابن عباس رضي الله عنهما: من لم يتعلم الفرائض والطلاق والحج فبمَ يفضل أهل البادية* وقد كثرت المناظرات بين الصحابة في علم الفرائض دون غيره بدليل ما رواه عكرمة، قال: أرسل ابن عباس إلى زيد بن ثابت يسأله عن امرأة تركت زوجها وأبويها. قال: للزوج النصف، وللأم ثلث ما بقي. فقال: تجده في كتاب الله أو تقوله برأى؟ قال: أقوله برأى. لا أفضل أماً على أب* قال أبو سليمان: فهذا من باب تعديل الفريضة إذا لم يكن فيها نصٌ. وذلك أنّه اعتبرها بالمنصوص عليه. وهو قوله تعالى «**وَوَرِثَهُ أبَوَاهُ فلأُمِّهِ الثُّلُث**» فلما وجد نصيب الأم الثلث. وكان باقي المال في الثلثان للأب قاس النصف الفاضل من المال بعد نصيب الزوج على كل المال إذا لم يكن مع الوالدين ابن، أو ذو سهم فقسمه بينهما على ثلاثة، للأم سهم وللأب سهمان وهو الباقي، وكان هذا أولى في القسمة من أن يعطى الأم من النصف الباقي ثلث جميع المال، وللأب ما بقي وهو السدس ففضلها عليه، فيكون لها وهي مفضولة في أصل الموروث أكثر مما للأب وهو المقدّم و المفضل في الأصل. وذلك أعدل مما ذهب إليه ابن عبّاس حيث ردّ الثلث على الأم وردَّ السدس على الأب، فترك قوله، وصار عامّة الفقهاء إلى زيد، ومن حجج زيد على ابن عبّاس أن الأ بويْن إذا اشتركا في الورثة ليس معهما غيرهما كان للأم الثلث، وللأب الثلثان، وكذلك إذا اشترط في

النصف الذي يفضل عن الزوج كانا فيه كذلك ثلث وثلثين، وهذا صحيح في النظر والقياس. وقال: عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في زوج وأبوين. للزوج النصف وللأم ثلث جميع المال وللأب ما بقي. وقال في امرأة وأبوين: للمرأة الربع وللأم ثلث جميع المال والباقي للأب. وتبعه على هذا خلق منهم شريح القاضي ومحمد بن سيرين وداود بن عليّ وغيرهم. فأنت ترى الخلاف بينهما أن زيداً يعطي الأم ثلث ما بقي بعد نصيب الزوج، وعبدالله بن عباس يعطيها ثلث جميع المال. أي قبل أن يأخذ الزوج نصيبه. إذ يبقى ثلثان نصفهما للزوج والباقي للأب أخذاً بظاهر النص «**فإن لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أبَواهُ فلأمِّهِ الثُّلُث**» وهنا يكون نصيبها أكثر من الأب مع أن له ضعفيها لذا رُجح مذهب زيد رضي الله عنه وهو أفرض الصحابة جميعاً* ولا ينسى فضل ابن مسعود في هذا العلم كذلك، فقد روى عن هذيل بن شرحبيل، قال: وسُئل أبوموسى عن (ابنة وابنة ابن وأخت) فقال: للابنة النصف وللأخت النصف، وأُخبر ابن مسعود بقول أبي موسى فقال ابن مسعود: بعد أن سئل عنها: لقد ضللتُ وما أنا من المهتدين. ثم قال: أقضي فيها بقضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم: للإبنة النصف ولإبنة الإبن السدس تكملة الثلثين، وما بقي فللأخت. فأخبر أبوموسى بقول ابن مسعود. فقال: لا تسألونى ما دام هذا الحبر فيكم* أخرجه البخارى. (من القرطبي والخازن والسمين وأبي السعود).

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَحِلُّ لَكُمْ أنْ تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً ولاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْض ما آتيْتُموهُنَّ إلاّ أنْ يأتِينَ بِفَاحِشَة مُبَيِّنَة وعَاشِرُوهُنَّ بالْمَعْرُوفِ فَإنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فيهِ خيْراً كَثيراً» سورة النِّساء (الآية: ١٩)

في الواحدي: قال ابن عباس رضي الله عنهما في سبب نزول هذه الآية: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤهُ أحقُّ بامرأته إن شاء بعضهم تزوّجها، وإن شاؤا زوّجوها، وإن شاؤا لم يزوّجوها، وهم أحقُّ بها من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك رواه البخارى في التّفسير عن محمد بن مقاتل* وقال المفسرون: كان أهل المدينة في الجاهلية وفي أول الاسلام، إذا مات الرجل ولَهُ امرأة جاء ابنه من غيرها، أو قرابته من عصبته فألقى ثوبه

على تلك المرأة فصار أحقّ بها من نفسها ومن غيره، فإن شاء أن يتزوّجها تزوّجها بغير صداق إلا الصّداق الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوّجها غيره. وأخذ صداقها ولم يعطها شيئاً. وإن شاء عضلها وضارّها لتفتدى منه بما ورثت من الميت. أو تموت هي فيرثها، فتوفى أبوقيس ابن الأسلت الأنصارى، وترك امرأته كبيشة بنت معن الأنصارية، فقام ابن له من غيرها يقال له حصن ــ وقال مقاتل: اسمه قيس بن أبى قيس ــ فطرح ثوبه عليها فورث نكاحها. ثم تركها فلم يقربها، ولم ينفق عليها، يضارّها لتفتدى منه بمالها، فأتت كبيشة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله: إنَّ أبا قيس توفى وورث ابنه نكاحى وقد أضرّنى وطوّل عليَّ، فلا هو ينفق عليّ ولا يدخل بى، ولا هو يخلّى سبيلى. فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقعدى في بيتك حتى يأتيَ فيك أمر الله. قال: فانصرفت، وسمعت بذلك النّساء في المدينة، فأتين رسول الله صلى الله عليه وسلم وقلن: ما نحن إلاّ كهيأة كبيشة غير أنَّه لم ينكحنا الأ بناء ونكحنا بنو العم. فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الخطيب: نحو هذا وفيه: فإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يلقى عليها عصبة الميّت ثوبه فهي أحقّ بنفسها* وقال ابن عباس: هذا الرجل يكون له المرأة وهو كارهٌ صحبتها ولا عليه مهر فيضارّها لتفتدى، وتردّ إليه ما ساق إليها من المهر، فنهى الله تعالى عن ذلك* وكذا في الطبرى والقرطبي وغيرهما من التفاسير وقوله تعالى **«يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا يَحِلُ لَكُمْ أن تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهاً»** الخطاب لأقارب الميت ولأ زواج الزوجات أي لا يحلُّ لكم ميراث نكاح النّساء ولا أن ترثوا أموالهن وهن كارهات **«ولاَ»** أن **«تَعْضُلُوهُنَّ»** أي تمنعُوا أزواجكم عن نكاح غيركم إياهُنَّ بإمساكهنَّ ولا رغبة لكم فيهنَّ ضراراً. **«لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مٰا آتَيْتُمُوهُنَّ»** من المهر **«إلاّ أَنْ يأْتينَ بِفَاحِشَة مُبَيِّنَة»** بفتح الباء وكسرها أي زناً بيناً يبينها من يدعيها وأوضحها وأظهرها. أو نشوزاً، فلكُمْ أن تُضَارّوهنَّ حتّى يفتدين منكم ويختلعن. وفي الخطيب: قال عطاء: كان الرجل إذا أصابت امرأته فاحشةً (زنا) أخذ منها ما ساق إليها، وأخرجها فنسخ ذلك بالحدود* ولا يجوز في أي مذهب من المذاهب مضارة الزوجة لأجل أن تفتدى بمالها إذا لم ترتكب فاحشة أو تكون ناشزةً، بل أوجب علينا **«وعَاشِرُوهُنَّ بالْمَعْرُوف»** أي بالإجمال في القول والنفقة والمبيت، وقيل: هو أن يتصنَّعَ لها كما تتصنَّعُ لَهُ. **«فَإنْ كَرِهْتُموهُنَّ»** أي بالطبع من غير أن يكون من قبلهن ما يوجب ذلك فاصبروا **«فَعَسَى**

أنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً ويَجْعَلَ اللهُ فيهِ خيْراً كثِيراً» ولعلّه يجعل فيهن ذلك بأن يرزقكم منهنّ ولداً صالحاً. فتنقلب تلك الكراهة محبّة، وقيل في الآية ندب إلى إمساك المرأة مع الكراهية لها لأنه إذا كره صحبتها وتحمّل ذلك المكروه طلباً للثواب، وأنفق عليها وأحسن صحبتها استحق الثناء الجميل في الدنيا، والثواب الجزيل في العقبى، وقيل: في معنى الآية إنكم إن كرهتموهنَّ، ورغبتُمْ في فراقهنَّ، فربما جعل الله في تلك المفارقة لهن خيراً كثيراً، وذلك بأن تخلص من هذا الزوج الكاره لها وتتزوج غيره خيراً منه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَلاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إنَّه كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وسَاءَ سَبِيلاً» سورة النّساء (الآية: ٢٢)

في الواحدي: نزلت في حصن بن أبي قيس، تزوج امرأة أبيه كبيشة بنت معن، وفي الأسود بن خلف تزوّج امرأة أبيه، وصفوان بن أميّة بن خلف تزوّج امرأة أبيه مليكة بنت خارجة، وقال أشعث بن سوار: توفي أبوقيس وكان من صالحي الأنصار، فخطب ابنه قيس امرأة أبيه، فقالتْ إني أعدك ولداً، ولكن آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم أستأمره. فأتته فأخبرته. فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي القرطبي: وكان في العرب من تزوّج ابنته، وهو حاجب بن زرارة، تمجّس وفعل هذه الفعلة، ذكر ذلك النّضر بن شمّل في كتاب المثالب* وفي الطبرى: عن عكرمة عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يحرّمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، قال: فأنزل الله **«ولاَ تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ ما قد سلف»** **«وأن تجمعوا بين الأختين إلاَّ ما قد سلف»** قال السهيلي: وقد فعل ذلك كنانة بن خزيمة تزوّج بامرأة أبيه فأولدها أبيه النّضر بن كنانة، فأراد أنهم كانُوا يعدُّونه نكاحاً مستساغاً، واستشهد بقوله صلى الله عليه وسلم: [ولدتُ من نكاح لا من سِفاح] وفيا ذكره السهيلي من قصة كنانة تحتاج إلى نظر والله أعلم. قوله تعالى **«ولاَ تَنْكِحُوا مَا»** بمعنى من **«نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ»** لكن **«مَا قَدْ سَلَفَ»** من فعلكم ذلك فإنه معفو عنه.

ومن المعلوم أن المحرمات بالمصاهرة أربعة: زوج الأب، وزوجة الإبن، وأم الزوجة، وبنت الزوجة. وكلها يحصل فيها التحريم بمجرّد العقد، وإن لم يحصل دخول إلاّ الربيبة

فلا يحرم إلا بشرط الدخول بأمّها. وقوله «إنّه» أي نكاحهن «كَانَ فَاحِشَةً» قبيحاً «وَمَقْتاً» سبباً للمقت من الله. وهو أشد البغض. وفي أبي السعود في قوله تعالى «إنّه كان فَاحِشةً ومَقْتاً» تعليل للنهى، و بيان لكون المنهىّ عنه في غاية القبح مبغوضاً أشدّ البغض. وإنه لم يزل في حكم الله تعالى وعلمه موصوفاً بذلك ما رخّص فيه لأمّة من الأمم* وقوله تعالى «وسَاءَ سَبِيلاً» أي بئس طريقاً ذلك أي سبيل هذا النكاح.

قيل: مراتب القبح ثلاث: القبح العقلى، والقبح الشرعى، والقبح العادى، وقد وصف الله تعالى هذا النكاح بكل ذلك، فقوله: فاحشة مرتبة قبحه العقلى، وقوله: ومقتاً مرتبة قبحه الشرعى، وقوله: وساء سبيلاً مرتبة قبحه العادى، وما اجتمعت فيه هذه المراتب فقد بلغ أقصى مراتب القبح. والعرب تُسمّى ولد الرجل من امرأة أبيه مقيتاً، وكان منهم الأشعب بن قيس وأبومعيط بن أبي عمرو بن أميّة. روى البغوى بسنده عن البراء بن عازب قال: مرّ بى خالى ومعه لواء، فقلت: أين تذهب؟ قال: بعثنى النبي صلى الله عليه وسلم إلى رجل تزوّج امرأة أبيه آتيه برأسه. (الخازن).

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«والمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَا مَلَكَتْ أيمَانُكُمْ كِتَابَ اللهِ عَلَيْكُمْ وأُحِلَّ لَكُمْ مَا وراءَ ذَلِكُمْ أنْ تَبْتَغُوا بأمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ولاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إنَّ اللهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً»

سورة النِّساء (الآية: ٢٤)

في الواحدى: قال أبوسعيد الخدرى: أصبنا سبايا يوم أوطاس لهنَّ أزواج، فكرهنا أن نقع عليهنّ فسألنا النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت: «والْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إلاَّ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ» فاستحللناهُنّ* وفي رواية عنه في الخطيب: نزلت في نساء كُنَّ هاجرن إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهنّ أزواج، فتزوّجن بعض المسلمين، ثم قدم أزواجهن مهاجرين. فنهى الله المسلمين عن نكاحهنّ، ثم استثنى فقال: «إلاَّ ما مَلَكَتْ أيْمانُكُمْ» أي من الإماء بالسبى، فلكم وطؤهُنّ، وإن كان لهن أزواج في دار الحرب بعد الاستبراء، لأنَّ بالسبى يرتفع النكاح بينها و بين زوجها، قال أبوسعيد: بعث رسول

الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين جيشاً إلى أوْطاس ..الخ.* وقال الخطيب: وقيل: نزلت في المتعة التي كانت ثلاثة أيام حين فتح الله مكّة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نُسِخَتْ، كان الرجل ينكح المرأة وقتاً معلوماً ليلة أو ليلتين، أو أسبوعاً بثوب أو غير ذلك، و يقضي منها وطره ثم يسرّحها، سميت متعة لاستمتاعه بها، أو لتميعه لها بما يعطيها، وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أباحها، ثم أصبح يقول: [يا أيُّها الناس إنى كنتُ أمرتكم بالاستمتاع من هذه النساء، إلاَّ أنَّ الله حرَّم ذلك إلى يوم القيامة]. وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: لا أوتى برجل تزوّج بامرأة إلى أجل إلاَّ رجمتها بالحجارة* وعن ابن عباس أنه قال: هى محكمة. أي لم تنسخ* وكان يقرأ «**فَمَا اسْتَمْتَعْتُم به إلى أجلٍ مسمّىً**» و يروى أنه رجع عن ذلك عند موته، وقال: اللهم إنى أتوب إليك من قولى بالمتعة* وقيل: إنها أبيحت مرتين وحرّمت مرّتين* وما رواه الواحدى والخطيب رواه الامام أحمد فى مسنده وابن كثير فى تفسيره نقلاً عنه وعن مسلم والترمذى عن أبى سعيد الخدرى* وروى الطبرانى من حديث الضحاك عن أنس أنها نزلت فى سبايا خيبر. وهذه كلها نصوص صحيحة تثبت أن الآية نزلت بسبب تحرّج أصحاب النبىّ صلى الله عليه وسلم عن وطء المسبيات ذوات الأزواج، فأنزل الله فى جوابهم: «**إلاّ مَلَكَتْ أيمانُكُمْ**» أى و به قال مالك وأبو حنيفة وأصحابه والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو ثور. وهو الصحيح. قوله تعالى: «**وَ**» حُرّمت عليكم «**الْمُحصَنَاتُ**» أى ذوات الأزواج «**مِنَ النِّسَاءِ**» أن تنكحوهنّ قبل مفارقة أزواجهن حرائر مسلمات كُنّ أولا. وقد ورد الاحصان فى القرآن لأربعة معان: الأول التزوّج كما فى هذه الآية. وكما فى قوله: مُحصِنين غير مُسَافحينَ. الثانى: الحرية كما فى قوله: «**وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ منكُمْ طَوْلاً أن ينكحَ المُحْصَناتِ**» الثالث: الإسلام كما فى قوله: «**فإذا أُحْصِنَّ**» قيل: فى تفسيره أسلمن. الرابع: العفة كما فى قوله: «**مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافحاتٍ**» وقوله: «**إلاّ ما مَلَكَتْ أيمانُكُمْ**» من الإماء بالسبى فلكم وطؤهن، وإن كان لَهُنَّ أزواج فى دار الحرب بعد الاستبراء. أى فهى حلال لكم، وكان الاستبراء على زمن الصحابة للسبايا بحيضة واحدة. لحديث أبى سعيد الخدرى فى سبايا أوْطاس: (لا تُوطأ حامل حتّى تضع، ولا حائل حتى تحيض). ولم يجعل لفراش الزوج السابق أثراً حتى يقال إن المسبيّة مملوكة، ولكنها لمّا كانت زوجة وزال نكاحها فتعتدّ عدّة الاماء على ما نقل عن الحسن بن

صالح قال: عليها العدّة حيضتان إذا كان لها زوج فى دار الحرب. وكافّة العلماء رأوا استبراءها، واستبراء التى لا زوج لها بحيضةٍ واحدة. والمشهور من مذهب مالك أنه لا فرق بين أن يُسبي الزوجان مجتمعين أو متفرقين، لكن روى عن ابن بكير أنهما إن سُبيا جميعاً، واستبق الرجل أقرَّ على نكاحها* فرأى فى هذه الرواية أنه استبقاء لما يملكه، لأنه قد صار له عهد، وزوجته من جملة ما يملكه فلا يحال بينه و بينها، وهو قول أبى حنيفة والثورى، و به قال ابن القاسم. ورواه عن مالك، والصحيح الأ ول لقوله تعالى: «**إلاَّ مَا مَلَكَتْ أيْمَانُكُمْ**» فأحال الحلّ بالشرط المتقدّم على ملك اليمين، وجعله هو المؤثر فى الإباحة، فيتعلّق الحكم به من حيث العموم إلا ما خُصّ الدليل وقوله: «**كِتَابَ اللهِ**» نصب على المصدر المؤكد لأنه لما قال: حُرّمت عليكم أمهاتكم إلى هنا كتابا وفرضه فرضاً عليكم: «**وأُحِلَّ**» بالبناء للفاعل وللمفعول: «**لَكُمْ مَا وراء ذَلِكُمْ**» أى سوى ما حرم عليكم من النّساء* هذا عام مخصوص فقد دلّت السنّة على تحريم أصناف أخر سوى ما ذكر، فن ذلك أنّه يحرم الجمع بين المرأة وعمتها، و بين المرأة وخالتها، ومن ذلك نكاح المعتدة، ومن ذلك أن من كان فى استطاعته نكاح الحرّة لا يجوز له نكاح الأمة، ومن ذلك من عنده أربع زوجات لا يجوز له نكاح خامسة، ومن ذلك الملاعنة فإنها محرّمة على الملاعن أبداً فهذه أصناف من المحرمات سوى ما ذكر فى الآية* كذا فى الخازن.

قلت: وكذا المطلقة ثلاثاً لا تحلّ لقوله تعالى: «**فَإنْ طَلّقَها فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ**» وكذا الحربيّة والمرتدة حتى يؤمنا لقوله تعالى: «**ولاَ تنكحُوا المشركاتِ حتّى يُؤْمِنَّ**» وقوله تعالى: «**أنْ تبتَغُوا**» أى تطلبُوا النّساءَ: «**بأمْوالِكُمْ**» بصداق أو ثمنٍ، وفيه دليل على أن النكاح لا يكون إلاَّ بمهر، وإنه يجب وإن لم يسم، وإن غير المال لا يصح مهراً، وإن القليل لا يصلح مهراً إذ الحبَّةُ لا تُعدّ مالاً. ذكره الخازن

قلت: قال أبو حنيفة: لا يجوز المهر بأقلّ من عشرة دراهم لأنه تعالى قيد التحليل بالأموال. والدرهم والدرهمان لا يُسمَّى أمْوالاً* وقال الشافعى: يجوز بالقليل والكثير لأن قوله: «**بأمْوَالِكُمْ**» مقابلة الجمع بالجمع فيقتضى توزع الفرد على الفرد، فيتمكن كل واحد من ابتغاء النكاح بما يسمّى مالاً، والقليل والكثير فى هذه الحقيقة سواء. وعن جابر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال [منْ أعْطىَ امرأة فى نكاحٍ كفَّ دقيق أو سويق فقد استحلّ» . وقال أبو حنيفة: لو تزوّج بها على تعليم سورة من القرآن لم يكن ذلك مهراً.

ولها مهر مثلها لأن أبو حنيفة قال: لو تزوّج بها على تعليم سورة من القرآن لم يكن ذلك مهراً. ولها مهر مثلها لأن الابتغاء بالمال شرط، والمال اسم للأعيان لا للمنافع. وكذا قوله: «**وآتوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنّ نِحْلَةً فإنْ طِبْنَ لكُمْ عَنْ شيءٍ مِنْهُ نَفساً فكلُوه**» والإيتاء والأكل من صفة الأعيان* وإن تزوج امرأة على خدمة سنة فإن كان حُرّاً فلها مهر مثلها. وإن كان عبداً فلها خدمة سنة. وقال الشافعي: الآية تدلّ على أنّ الابتغاء بالمال جائز، وليس فيه أن الابتغاء بغيره جائز أولا، وأيضاً قد خرج الخطاب مخرج الأعم الأغلب فلا يدل على نفي ما سواه، وممّا يدل على جواز جعل المنفعة صداقاً قوله تعالى: فى قصة شعيب : «**عَلى أنْ تأجُرَنى ثمانى حِجَج**» والأصل فى شرع من قبلنا البقاء إلى أن يظهر الناسخ* وأيضاً التى وهبت نفسها لمّا لم يجد الرجل الذى أراد التزوّج بها شيئاً قال صلى الله عليه وسلم: [هَلْ معك شيءٌ مِنَ الْقُرْآن..] ومنه يعلم جواز عتق الأمة صداقاً لها لا سيما وقد روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه أعتق صفيّة وجعل عتقها صداقها، وكونه من خواصه ممنوع. وقوله: «**مُحْصِنينَ**» يعنى غير متزوجين وقيل: متعفّفين: «**غَيْرُ مُسَافِحِينَ**» أى غير زانين. وأصل السفح، وهو الصبُّ، وإنما سُمّىَ الزنا سفاحاً لأنّ الزانى لا غرض له إلاّ صبَّ النطفة فقط. وقوله تعالى: «**فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنّ**» فى الخازن: اختلفوا فى معناهُ. فقال الحسن ومجاهد: أراد ما انتفعتم وتلذذتم بالجماع من النساء بنكاح صحيح. لأن أصل الاستمتاع فى اللغة الانتفاع. وكل ما انتفع به فهو متاع* أى فما استمتعتم به من المنكوحات من جماع أو عقد عليهن أو خلوة صحيحة عند أبى حنيفة: «**فَآتُوهُنّ أُجُورَهُنّ**» عليه والمراد بالأجور: المهور لأن المهر ثوابٌ على البضع كما يسمى بدل منافع الدار والدابة أجراً: «**فَرِيضَةً**» حال من الأجور بمعنى مفروضة، وفى الخازن: وقال قومٌ: المراد من حكم الآية هو نكاح المتعة، وهو أن ينكح أمرأة إلى مدة معلومة بشيء معلوم، فإذا انقضت تلك المدة بانت منه بغير طلاق، وستبرىء رحمها. وليس بينهما ميراث. وكان هذا فى ابتداء الإسلام. ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال [أيها الناس إنى كنت أذنتُ لكم فى الاستمتاع فى النساء، وإن الله قد حرَّم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عنده منهن شيء فليخل سبيله، ولا تأخذوا ممّا آتيتموهن شيئاً» قال الخازن: وإلى هذا ذهب جمهور العلماء من الصحابة فمن بعدهم. أى أن نكاح المتعة حرام. والآية منسوخة، واختلفوا فى ناسخها. فقيل: نُسخت بالسنّة، وهو ما تقدم

من حديث سبرة الجهنيّ. وروى الشيخان عن عليّ بن أبى طالب رضى الله عنه قال [نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإنسية] وهذا على مذهب من يقول: إن السنّة تنسخ القرآن. ومذهب الشافعى أن السنّة لا تنسخ القرآن. فعلى هذا يقول: إنّ ناسخ هذه الآية قوله تعالى فى سورة المؤمنون: **«والّذينَ هُمْ لِفرُوجِهِمْ حافِظُونَ إلاّ على أزواجِهِمْ أوْ ما مَلكَتْ أيْمَانُهُمْ فإنّهُمْ غَيْرُ ملُومينَ»** والمنكوحة بالمتعة ليست بزوجة ولا ملك يمين. واختلفت الروايات عن ابن عباس فى المتعة فروى أن الآية محكمة. وكان يرخّص فى المتعة، قال عمارة: سألت ابن عباس عن المتعة: أسفاحٌ هى أم نكاحٌ؟ فقال: لا سفاحٌ ولا نكاحٌ. قلتُ: فما هى؟ قال: متعة قال الله تعالى: **«فمَا استَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنّ»** قلتُ: هل لها عدّة؟ قال: نعم حيْضَةٌ. قلتُ: هل يتوارثان؟ قال: لا. وروى أن الناس لما ذكروا الأشعار فى فتياهم ابن عباس بالمتعة قال: قاتلهم الله أنا ما أفتيتُ بإباحتها على الإطلاق لكن قلت: إنما يحل للمضطر كما تحل الميتة له. وروى أنه رجع عنه وقال بتحريمها. وروى عطاء الخرسانى عن ابن عباس فى قوله: **«فما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنّ»** أنها صارت منسوخة بقوله تعالى: **«يا أيُّها النبىُّ إذَا طَلّقْتُمُ النِّساء فَطَلّقُوهُنّ لِعدّتهِنّ»** وروى سالم بن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب صعد المنبر فَحمِدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: ما بال أقوام ينكحون هذه المتعة، وقد نهى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عنها، لا أجد رجلاً نكحها إلاّ رجمتُه بالحجارة، وقال: هدم المتعة النكاح والطلاق والعدة والميراث. قال الشافعى: لا أعلم فى الإسلام شيئاً أحل ثم حرم، ثم أحل ثم حرم غير المتعة، وقال أبو عبيد السلمانى: اليوم مجمعون على أن متعة النساء قد نسخت بالتحريم نسخها الكتاب والسنة. هذا قول أهل العلم جميعاً من أهل الحجاز والشام والعراق من أصحاب الأثر والرأى، وأنه لا رخصة فيها لمضطر ولا لغيره. قال ابن الجوزى فى تفسيره: وقد تكلف قوم من مفسرى القرآن فقالوا: المراد بهذه الآية نكاح المتعة، ثم نسخت بما روى عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن متعة النساء، وهذا تكلف لا يحتاج اليه لأن النبىّ صلى الله عليه وسلم أجاز المتعة، ثم منع منها فحرّمها، فكان قوله منسوخاً بقول: وأما الآية فإنها لم تتضمن جواز المتعة لأنه تعالى قال فيها: **«أنْ تبتغوا بأموالِكُمْ مُحْصِنينَ غيْرَ مُسَافحينَ»** فدلّ ذلك على النكاح الصحيح. قال الزجاج: ومعنى قوله: **«فمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنّ»** فما نكحتُموه على

الشرائط التى جرت، وهو قوله: «**مُحْصِنِينَ غيرَ مُسَافحينَ**» أى عاقدين التزويج* وقال ابن جرير الطبرى: أولى التأويلين فى ذلك بالصواب، تأويل من تأوّله. فما نكحتموه منهن فجامعتموهُنّ فآتُوهُنّ أجورهنّ يعنى مهورهنّ* قلتُ: وعبارة الزجاج كما فى اللسان: أن هذه الآية آية غلط فيها قوم غلطاً عظيماً لجهلهم باللغة، وذلك أنهم ذهبوا إلى قوله: «**فما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ**» فما نكحتم منهن على الشريطة التى جرى فى الآية أنه الإحصان: «**أنْ تبتَغُوا بأمْوالِكُمْ مُحْصِنينَ**» أى عاقدين التزويج، أى فما استمعتم به منهن على عقد التزويج الذى جرى ذكره. فآتُوهُن أجورهنّ فريضة، أى مهورهن، فإن استمتع بالدخول بها أتى المهر تامّاً، وإن استمتع بعقد النكاح أتى نصف المهر* وقال الأزهرى: ومن زعم أن قوله: «**فما اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ**» التى هى الشرط فى التمتع الذى يفعله الرافضة فقد أخطأ خطأ عظيماً لأن الآية واضحة مبيّنة، قال: فإن احتج محتجٌ من الروافض بما يروى عن ابن عباس أنه كان يراه حلالاً، وأنه كان يقرؤها: فمَا استمتعتم به منهنّ إلى أجل مسمّى، فالثابت عندنا أن ابن عباس كان يراها حلالاً ثم لما وقف على نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم رجع عن إحلالها، قال عطاء: سمعت ابن عباس يقول: ما كانت المتعة إلا رحمة رحم الله بها أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فلولا نهيه عنها ما احتاج إلى الزنا أحد إلا شفىّ والله. ولكنى أسمع قوله: إلاَّ شفىّ، عطاء القائل. قال عطاء: فهى التى فى سورة النساء: «**فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ**» إلى كذا وكذا من الأجل على كذا وكذا شيئاً مسمّى، فإن بدا لهما أن يتراضيا بعد الأجل وإن تفرّقا فهو ليس بنكاح. قال الأزهرى: وهذا حديث صحيح، وهو الذى يبين أن ابن عباس صح له نهى النبىّ صلى الله عليه وسلم عن المتعة الشرطيّة، وأنه رجع عن إحلالها إلى تحريمها* وقوله: إلا شفىّ أى إلاّ أن يُشْفِىَ أى يشرف على الزنا ولا يوافقه.. وإنما بيّنتُ هذا البيان لئلا يَغُرَّ بعض الرافضة غيراً من المسلمين، فيحل له ما حرّمه الله عزّ وجلّ على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن النهى عن المتعة الشرطية صح من جهات لو لم يكن فيه غير ما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه، ونهيه ابن عباس عنها لكان كافياً، وهى المتعة التى كانت ينتفع بها إلى أمد معلوم، وقد كان نكاحها مباحاً فى أوّل الإسلام، ثم حرم. وهو الآن جائز عند الشيعة* وقوله: «**فريضَةً**» يعنى لازمة وواجبة وقوله: «**ولاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ**» قال الخازن: اختلفوا

فيه، فمن حمل ما قبله على نكاح المتعة، قال: أراد أنهما إذا عقدا عقداً إلى أجل على مال، فإذا تم الأجل، فإن شاءت المرأة زادت فى الأجل وزاد الرجل فى الأجر، وإن لم يتراضيا فارقها ــ وقد تقدّم أن ذلك جائز ثم نسخ وحرّم ــ ومن حمل الآية على الاستمتاع بالنكاح الصحيح قال: المراد بقوله: **«ولاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فيمَا تَرَاضيْتُمْ بِهِ»** يعنى من الإبراء من المهر، والافتداء والاعتياض، وقال الزجّاج: معناه لا جناح عليكم أن تهب المرأة للزوج مهرها، وأن يهب الرَّجل للمرأة التى لم يدخل بها نصف المهر الذى لا يجب عليه* وقوله: **«مِنْ بَعْدِ الفريضِةِ»** أى من حطها أو بعضها أو زيادة عليها: **«إنَّ الله كانَ عَليماً»** بخلقه: **«حكيماً»** فيما دبّره لهم، ومن جملته ما شرع لهم من هذه الأحكام رأفةً بحالهم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ الله بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وللنِّسَاءُ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ واسْئلُوا الله مِنْ فَضْلِهِ إنَّ الله كَانَ بِكُلِّ شيءٍ عليماً» سورة النِّساء (الآية: ٣٢)

في الواحدي: عن مجاهد قال : قالت أم سلمة رضي الله عنها يا رسول الله: تغزو الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث فأنزل الله تعالى **«ولاَ تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ الله بِهِ بَعْضَكُمْ عَلى بَعْضٍ»** الآية* وقال قتادة والسّدى: لمَّا نزل قوله تعالى: **«للذكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأنْثَيينِ»** قال الرجال: إنا لنرجوا أن نفضّل عن النساء بحسناتنا في الآخرة كما فضلنا عليهن في الميراث، فيكون أجرنا على الضعف من أجر النساء، وقالت النساء: إنا لنرجوا أن يكون الوزر علينا نصف ما على الرجال في الآخرة كما لنا الميراث على النصف من نصيبهم في الدنيا، فأنزل الله تعالى **«ولا تَتَمَنَّوْا ما فَضَّلَ الله بِهِ بعْضَكُمْ عَلَى بعْضٍ»*** وكذا في القرطبي والخازن وفيه: وقيل: لمَّا جعل الله للذكر مثل حظ الأنثيين من الميراث قالت النساء: نحن أحقّ وأحوج إلى الزيادة من الرجال لأنا ضعفاء، وهم أقوى وأقدر على طلب المعاش فأنزل الله تعالى هذه الآية* ومثله في الطبرى وابن كثير* وفيه عن ابن عباس في الآية قال: أتت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله: للذكر مثل حظّ الأنثيين ، وشهادة امرأتين برجل. أفنحن في العمل هكذا؟ إن فعلت امرأة حسنة كتبت لها نصف حسنة؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية **«ولا**

تَتَمَنَّوْا..» فإنه عدل منى وأنا صنعته* وقال السّدى في الآية: إن رجالاً قالوا: إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء كما لنا في السهام سهمان، وقالت النساء: إنا نريد أن يكون لنا من الأجر مثل أجر الشهداء فإنا لا نستطيع أن نقاتل، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا. فأبى الله ذلك. ولكن قال لهم: سلونى من فضلى: قال: ليس بعرض الدنيا* وقد روى عن قتادة نحو ذلك، وعن ابن عباس في تفسير الآية قال: ولا يتمنّى الرجل فيقول: ليت لو أن لى مال فلان وأهله. فنهى الله عن ذلك، ولكن يسأل الله من فضله* وفي الغرائب: وقيل: أتت وافدة النساء إلى الرسول، وقالت: ربّ الرجال والنساء واحد، وأنت الرسول إلينا وإليهم، وأبونا آدم وأمنا حواء، فما السبب في أنّ الله يذكر الرجال ولا يذكرنا. فنزلت الآية. فقالت: وقد سبقنا الرجال بالجهاد، فما لنا، فقال صلى الله عليه وسلم: [إنَّ للحامل منكنّ أجْرَ الصائم القائم، وإذا ضربها الطلق لم يدر أحدٌ ما لها من الأجر، فإن أرضعت كان لها بكلّ مصّة أجر إحياء نفس] فيكون المعنى لكل فريق جزاء ما اكتسب من الطاعات، فلا ينبغى أن يضيعه بسبب الحسد المذموم. وتلخيصه: لا تضيّع مالك بتمنّى ما لغيرك، فنهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن التّمنى لأن فيه تعلّق البال ونسيان الأجل* وقوله: **«للرِّجَالِ نَصيبٌ ممَّا اكتَسَبُوا»** بسبب قيامهم بالنفقة على النساء **«وللنِّساء نصيبٌ ممَّا اكْتَسَبْنَ»** بحفظ فورجهن وطاعة أزواجهن والقيام بمصالح البيت. **«واسألُوا الله مِنْ فَضْلِهِ»** فعنده من ذخائر الأنعام ما لا ينفده مطالب الأنام فخزائن نعمه لا نفاد لها ولا نقصان **«إنَّ الله كَانَ بِكُلِّ شىءٍ عَليماً»** ومنه محلّ الفضل وسؤالكم، فالله عالم به فيجيبه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِىَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأقْرَبُونَ والَّذِينَ عَقَدَتْ أيْمَانُكُمْ فآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إنَّ الله كانَ عَلى كُلِّ شيءٍ شهيداً»

سورة النِّساء (الآية: ٣٣)

في الواحدي: قال سعيد بن المسيّب: نزلت هذه الآية في الذين كانُوا يتبنَّون أبناء و يورثونهم فأنزل الله فيهم، أن يجعل لهم نصيب في الوصية، وردَّ الله تعالى الميراث إلى الموالى من ذوى الرحم والعصبة، وأبى أن يجعل للمدعين ميراث من ادّعاهم وتبنّاهم.

ولكلٍّ جعلنا نصيباً في الوصيّة* وفي البخارى في كتاب الفرائض من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس «**وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ..**» الآية* قال: كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث الأنصارىّ المهاجرىّ دون ذوى رحمه، للأخوّة التي آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم، فلمّا نزلت «**وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ**» قال: نسختها «**والَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ**» قال أبوالحسن بن بطال: وقع في جميع النسخ «**ولِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ**» قال: نسختها «**والَّذِينَ عاقدتْ أيمانُكُمْ**»* لكن قال الطبرى: والصواب أن الآية الناسخة «**ولِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوالِيَ**» والمنسوخة «**والَّذِينَ عاقدت أيْمَانُكُمْ**»* وعلى التحقيق أنه لا نسخ بين الآيتين ويمكن الجمع بينهما بأن آية «**والَّذِينَ عَقَدَتْ أيمانُكُمْ**» محكم وليس بمنسوخ. وإنما أمر الله المؤمنين أن يعطوا الحلفاء أنصباءهم من النصرة. والرفادة والنصيحة وما أشبه ذلك وهوقول مجاهد والسّدى واختاره النحاس. ورواه عن سعيد بن جبير* وذلك الآية «**وأُولُوا الأَرْحَامَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىَ بِبَعْضٍ**» نزلت في إبطال ميراث المتبنين، وهذا ما رواه الزهرى عن سعيد بن المسيّب قال: أمر الله عز وجل الذين تبنّوْا غير أبنائهم في الجاهلية، وورثوا في الإسلام، أن يجعلوا لهم نصيباً في الوصية، ورد الميراث إلى ذوى الرحم والعصبة* والمعنى: ولكن أيها الناس جعلنا عصبة يرثونه ممّا ترك والده وأقرباؤه من ميراثهم له. ولا يوجد في التفاسير غير ما ذكر. قوله تعالى: «**ولِكُلٍّ**» من الرجال والنّساء «**جَعَلْنَا مَوالِيَ**» عصبة يعطون تركته إرثاً «**مِمَّا تركَ الْوَالِدَانِ والأَقْرَبُونَ**» أي أن الوالدين والأقربين هم الموروثون. وعبارة الخازن: ولكل من الرجال والنساء جعلنا موالى. يعنى ورثة من بنى عمّ وإخوة وسائر العصبات مما ترك يعنى يرثون مما ترك الوالدان والأقربون. فعلى هذا الوالدان والأقربون هم الموروثون. وقيل: معناه: ولكن جعلنا موالى أي ورثة مما ترك، وتكون ما بمعنى تركهم الميت، ثم فسّر الوالى فقال: الوالدان والأقربون فعلى هذا الوالدان والأقربون هم الوارثون. والمعنى ولكل شخص جعلنا ورثة ممن تركهم وهم والداه وأقرباؤه. والقول الأول أصح لأنه مروى عن ابن عباس وغيره* وملخص القولين: بحيث يكون الوالدان والأقربون هم وارثين وبحيث يكونان موروثاً منها. والمولى لفظ مشترك بين معان: منها الْمُعْتِقُ لأنه ولىّ نعمته في عتقه، ومنها العبد المعتَقُ لا تصال ولاية مولاه في إنعامه عليه. وهذا كما يسمى الطالب غريماً لأن له اللزوم والمطالبة بحقّه، و يُسمّى المطلوب غريماً لكون

الـديـن لازماً له، ومنها الحليف لأن الحالف يلي أمره بعقد اليمين. ومنها ابن العمّ لأنه يليه بالنصرة،ومنه المولى للناصر قال تعالى: «**ذلك بأنّ الله مولى الَّذِينَ آمَنُوا**» ومنها العصبة وهـو المـراد في الآيـة. وهـو الألـيـق بها كقوله صلى الله عليه وسلم: [أنا أولى بالمؤمنين منْ مـات وتـرك مـالاً فـالـه لـلـموالى الـعـصـبـة، ومـن تـرك كلاً فأنا وليّه] وقوله «**والَّذِينَ عَاقَدَتْ**» بالألف ودونها، أي قرأ الكوفيُّون عقدت، والباقون عاقدت بألف، وروى عن حمزة: عقّدت بالتشديد. والمفاعلة هنا ظاهرة لأن المراد المحالفة. والمفعول محذوف على كل من الـقـرآآت أي حـلـفـهـم. وقـوله «**أيْمَانُكُمْ**» جمع يمين، بمعنى القسم، أو اليد، أو هما جـمـيـعـاً، أي الحلفاء الذين عاهدتموهم في الجاهلية على النصرة والإرث، وذلك أنهم كانوا إذا تحـالـفـوا أخـذ كـل واحد منهم بيد صاحبه، وتحالفُوا على الوفاء بالعهد والتمسك بذلك الـعـقـد، وكـان الرجل يحالف الرجل في الجاهلية و يعاقده، فيقال: دمى دمك، وهدمى هدمك، وحربى حربك وسلمى سلمك، ترثني وأرثك، وتطلب بى وأطلب بك، وتعقل عني وأعـقـل عـنك، فيكون لكل واحد من الحلفين السدس في مال الآخر، وكان الحكم ثابتاً في الجاهـلية وابتداء الإسلام وذلك قوله تعالى «**فآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ**» يعنى اعطوهم حظهم من المـيـراث، ثم نـسـخ الله هذا الحكم بقوله «**وأولوا الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أوْلى ببعْضٍ في كتـابِ الله**» وقوله تعالى «**إنَّ الله كَانَ عَلَى كُلِّ شيءٍ شَهِيداً**» الشهيد بمعنى الشاهد والمراد منه علمه بجميع الأشياء جزئياًتها وكليّاتها. وقيل الشهيد هو الشاهد على الخلق يوم الـقـيـامـة بـكـل مـا عملوه. فيجازيكم عليها في الدار الآخرة. وفيه وعيد للعاصين ووعيد للمطيعين.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ الله بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أنْفَقُوا مِنْ أمْوالِهِمْ فالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْب بِمَا حَفِظَ الله واللاتى تخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ واهْجُرُوهُنَّ فى الْمَضَاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ فَإنْ أطَعْنَكُمْ فَلاَ تبغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إنَّ الله كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً» سورة النِّساء (الآية: ٣٤)

في الواحدي: قال مقاتل: نزلت هذه الآية في سعد بن الربيع، وكان من النقباء،

وامرأته حبيبة بنت زيد بن أبي زهير، وهما من الأنصار، وذلك أنها نشزت عليه، فلطمها، فانطلق أبوها معها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أفرشته كريمتي فلطمها، فقال صلى الله عليه وسلم: لتقتص من زوجها، وانصرفت مع أبيها لتقتص منه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ارجعوا هذا جبريل عليه السلام أتاني. وأنزل هذه الآية، فقال صلى الله عليه وسلم: أردنا أمراً وأراد الله أمراً، والذى أراد خير، ورفع القصاص* وفي القرطبي: وقال أبوروق: نزلت في جميلة بنت عبدالله بن أبيّ، وفي زوجها ثابت بن قيس بن شمّاس* وقال الكلبيّ: نزلت في عميرة بنت محمد بن مسلمة، وفي زوجها سعد بن الربيع — وقد تقدم أن اسمها في الواحدى حبيبة. كذا في الغرائب وغيره* وقوله تعالى «**الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ**» أي يقومون عليهن قيام الولاة على الرعية من نفقة وذبّ عنهنّ، وعلّل ذلك بأمرين: أحدهما وهبيّ والآخر كسبيٌّ. وقد ذكر الأول بقوله تعالى «**بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**» أي بسبب تفضيله الرجال على النساء بكمال العقل، وحسن التدبير، ومزيد القوة في الأعمال والطاعة، ولذلك خصُّوا بالنُّبوّة والإمامة والولاية، وإقامة الشعائر والشهادة في مجامع القضايا، ووجود الجهاد والجمعة والتعصيب، وزيادة السهم في الميراث والاستبداد بالفراق، والرجعة، وعدد الأزواج، وإليهم الانتساب. وهم أصحاب اللحى والعمائم. بل المرأة يعود أصلها إلى الرجل، وأعنى بذلك حواء وآدم عليهما السلام. ثم ذكر الثاني بقوله «**وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ**» في نكاحهنّ كالمهر والنفقة، وإكرام الضيفان روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: [لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها] وفي الآية دليل على أن الولاية إنما تستحق بالفضل لا بالتغلّب والاستطالة والقهر. وقال العلماء: لا قصاص بين الرجل وامرأته فيما دون النفس. ولو شجّها. ولكن يجب الْعَقْلُ. وقيل: لا قصاص إلاّ في الجرح والقتل، وأمّا اللطمة ونحوها فلا. وقوله تعالى «**فالصّالحات**» منهن «**قانِتَاتٌ**» مطيعات لأزواجهنّ «**حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ**» أي لفروجهنّ وغيرها في غيبة أزواجهنّ «**بِمَا حَفِظَ اللهُ**» حيْثُ أوصى عليهن الأزواج فأنت ترى أن الله تعالى قسّم النّساء قسمين: فوصف الصالحات منهن بأنهن قانتات مطيعات لله وللزوج، حافظات للغيب، قائمات بحقوق الزوج في غيبته، وذلك بأن تحفظ نفسها عن الزنا لئلا يلحق الزوج العار بسبب زناها، ولئلا يلحق به الولد الحاصل من نطفة غيره فيرثه ظلماً وعدواناً. وأن تحفظ أسراره عن الافشاء، وماله

عن الضياع، ومنزلها عما لا ينبغى شرعاً وعرفاً. عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [خيرُ النِّساءِ امرأةٌ إن نظرت إليها سرّتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها وتلا الآية] وما في قوله «بِمَا حَفِظَ اللهُ» موصولة، والعائد محذوف، أي بالذى حفظ الله لهنّ. أي عليهنّ أن يحفظن حقوق الزوج في مقابلة ما حفظ الله حقوقهنّ على أزواجهنّ حيث أمرهم بالعدل فيهنَّ في قوله «فإمْسَاكٌ بمعْرُوفٍ أو تسْرِيحٌ بإحْسَانٍ» فقوله «بِمَا حَفِظَ اللهُ» يجرى مجرى قولهم: هذا بذاك أي هذا في مقابلة ذاك، أو أنها مصدرية، فيكون المعنى: أنهنَّ حافظات للغيب بحفظ الله إيّاهُنَّ، فإنَّهُنَّ لا يتيسر لهنَّ حفظ الغيب إلا بتوفيق الله تعالى. وقوله تعالى «واللاتى تخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ» النشوز العصيان. مأخوذ من النشز. وهو ما ارتفع من الأرض. وعليه انشزوا، أي قومُوا، أي تعلمون وقوع النشوز منهنَّ أولا «فَعِظُوهُنَّ» أي خوِّفوهنَّ، كان يقول لزوجته: اتق الله في الحق الواجب لى عليك، واحذرى العقوبة من الله، و يبين لها أن النشوز يُسقطُ النفقةَ والقسم، فإن لم تُجد هذه العظة بها، فينتقل الزوج إلى التطبيق العملى وهي العقوبة المادية الجسديّة بعد الثانية «واضْرِبُوهُنَّ» ضرباً غير مبرح، وهو الذي لا يخدش وجهاً ولا يكسر عظماً، أو يؤدى إلى التهلكة. والأولى ترك الضرب لما روى أنّه صلى الله عليه وسلم قال: [لاَ تَضْرِبُوا إماءَ الله» فجاء عمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ذئرت النساء على أزواجهن، أي اجترأت، فرخص في ضربهن، فأطاف بآل رسول الله صلى الله عليه وسلم نساء كثير يشكون أزواجهن، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لقد طاف بآل محمد نساء كثير يشكون أزواجهنّ ليس أولئك بخياركم] ومعناه أن الذين ضربوا أزواجهم ليسوخيراً ممن لم يضربوا، وإذا ضربها وجب أن لا يكون مفضياً إلى الهلاك البتة، وأن يكون مفرّقاً على بدنها لا يوالى به في موضع واحد، و يتّق الوجه لأنَّه مجمع المحاسن، وأن يكون دون الأربعين. وقيل: دون العشرين لأنّه حد كما في شرب العبد، ومنهم من لا يرى الضرب، بالسياط ولا بالعصا، و بالجملة فالتّخفيف مرعى في هذا الباب، ولهذا قال علىّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: يعظها بلسانه، فإن انتهت فلا سبيل له عليها، فإن أبت هجر مضجعها: فإن أبت ضربها، فإن لم تتعظ بالضرب بعث الحكمين. وقال آخرون: هذا الترتيب مرعى عند خوف النشوز، فأما عند تحقق النشوز فلا بأس بالجمع بين الكل. وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم: [علّق سَوْطَكَ حيث يراهُ

أهلك] وقوله تعالى «**فإن أطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنّ سَبيلاً**» بالأذى والتوبيخ، واجعلوا ما كان منهن كأن لم يكن. وإطاعتهن فيما يراد منهنّ من طلاقة وجه وطيب كلام وحسن معاشرة.

((ما تدل عليه الآيــة))

دلّت الآية على ما يلي :

١ ــ على الرجال تأديب نساءهم بما يحفظ حقوقهم، فإذا حفظن حقوق الرجال فلا ينبغي أن يساء عشرتهنّ.

٢ ــ القوامة وهي تدبير شؤون الانفاق، وتأديب النساء وإمساكهن في بيوتهنّ ومنعهنّ من البروز كاسيات عاريات كما يفعل بعض نساء اليوم.

٣ ــ على المرأة طاعة زوجها، وقبول أمره ما لم تكن في معصية.

٤ ــ وإذا أعسر الزوج عن النفقة فللزوجة حقّ فسخ العقد، وذلك لزوال المقصود ممّا شرع لأجله النكاح، وهذا مذهب مالك والشافعي لقوله تعالى: «**وَبمَا أنفَقُوا مِنْ أمْوَالِهِمْ**» وخالف أبوحنيفة بقوله: «**وإنْ كانَ ذو عُسْرَةٍ فَنَظْرةٌ إلى مَيْسَرَة**» وقوله: «**إنَّ الله كانَ علياً كَبيراً**» فاحذروه أن يعاقبكم إن ظلمتموهنّ.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«الّــذِينَ يَبْخَلُونَ ويَأمُرُونَ النَّاسَ بالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ ما آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وأعْتَدْنَا لِلْكَافِرِين عَذَاباً مُهِيناً* والّذِينَ يُنْفِقُونَ أمْوَلَهُمْ رئاءَ النَّاسِ ولاَ يُؤْمِنُونَ باللهِ وَلاَ بالْيَومِ الآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فسَاءَ قَرِيناً* وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا باللهِ والْيَومِ الآخِرِ وأنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللهُ وَكَانَ اللهُ بِهِمْ عَلِيماً» سورة النِّساء (الآية: ٣٧ ـ ٣٩)

في الواحدي: قال أكثر المفسّرين: نزلت في اليهود. كتموا صفة النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يُبينوها للناس، وهم يجدونها مكتوبة عندهم في كتبهم* قال ابن عباس وابن زيد: نزلت في جماعة من اليهود، كانوا يأتون رجالاً من الأنصار يخالطونهم، و ينصحونهم، و يقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم فإنا نخشى عليكم الفقر، فأنزل الله تعالى: «**الّذِينَ**

يبْخَلُونَ و يأمُرونَ النَّاسَ بالبخل..» إلى «عَليماً» كما في القرطبي* وفيه وقيل: نزلت في مطعمى يوم بدر، وهم رؤساء مكة. أنفقوا أموالهم على الناس ليخرجوا إلى بدر* قلت: هذا القول أصح من سابقيه لأن اليهود يؤمنون بالله واليوم الآخر، وكفار مكة ليسوا كذلك فيرجح أن تكون الآية نزلت فيهم. أو أن الآية الأولى نزلت في اليهود، والثانية والثالثة في مطعمى بدر. وحدّث وهب عن ابن زيد في قوله «الَّذِينَ يَبْخَلُونَ و يأمُرونَ النَّاسَ بالبخْلِ..» قال: هؤلاء يهود. وقرأ: و يكتمون ما آتاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ. قال: يبخلون بما آتاهم الله من الرزق، و يكتمون ما آتاهم الله من الكتاب إذا سئلُوا عن الشيء، وما أنزل الله كتموه، وقرأ: «أمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فإذاً لا يأتُونَ النَّاسَ نقِيراً» من بخلهم* وفي الطبرى والقرطبي عن ابن عباس ومجاهد: كان النزول إلى قوله «وكانَ الله بِهِمْ عَلِيماً» وفي الخازن بعد أن أورد قول ابن عباس: وقيل: يحتمل أن يكون المراد بالبخل كتمان العلم، ومنع المال لأن البخل في كلام العرب منع السائل من فضل ما لديْه، وإمساك المقنيات، وفي الشرع البخل عبارة عن إمساك الواجب ومنعه. وإذا كان ذلك أمكن حمله على منع المال ومنع العلم. وقوله تعالى «والَّذِينَ يبْخَلُونَ» بما يجب عليهم «و يأمُرونَ النَّاسِ بالبُخْلِ» به «و يكتُمُونَ ما آتَاهُمْ الله مِنْ فَضْله» من العلم والمال، وهم اليهود في قول. أو مطعمى يوم بدر في قول آخر «وأعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ» هيَّئنا للكافرين بذلك و بغيره «عَذَاباً مُهِيناً» ذا إهانة، وهذا دليل على أن من أنكر نعم الله وكفر بها، فله عذاب يهينه كما أهان نعم الله عليه بالبخل والاخفاء وفي الحديث كما رواه أحمد في مسنده [وإذا أنعم الله على عبد نعمة أحبّ أن يظهر أثرها عليه] وعلى هذا فيكون معنى الكافرين هنا الجاحدين نعم الله عليهم ومثلهم «والَّذِينَ» عطف على الذين قبله في صدر الآية، أو على الكافرين بناء على إجراء التغاير الوصفي مجرى التغاير الذاتي. «يُنْفِقُوانَ أمْوَالَهُمْ رِئاءَ النَّاس» مرائين لهم في الانفاق لا يبتغون بها وجه الله، أنفقوها ليقال عنهم: ما أسخاهم وما أجودهم، ومثل هذا الانفاق يدل على أن صاحبهُ كما قال تعالى: «وَلاَ يُؤْمِنُونَ باللهِ ولاَ باليَوِمِ الآخِرِ» لأنه لم ينفق لله ولا لليوم الآخر، ولو كان يؤمن بذلك لكان مخلصاً لله في إنفاقه. «ومَنْ يكُنِ الشيطَانُ لَهُ قَرِيناً» في الدنيا آمراً له بالبخل والفحشاء «فَسَاءَ قريناً» في الآخرة يقرن به في النار، ثم استفهم تعالى على سبيل الانكار فقال: «وماذا عليهم؟» أي أي تبعة و وبال عليهم، أو ماذا عليهم في

باب الإيمان والانفاق في سبيل الله، والمراد بقوله: «وماذا عَلَيْهِمْ لَوْآمَنُوا بالله واليومِ الآخِرِ وأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمَ الله» التوبيخ كما يقال للمنتقم: ما ضرّك لوعفوت، وللعاق: ما كان يرزؤك لو كنت باراً، وقوله «وكَانَ الله بِهِمْ عَليماً» فيجازيهم بما عملوا. وفي هذا حثّ على إصلاح أفعال القلوب التي يطلع عليها علام الغيوب، وردع عن دواعي النفاق والرياء، والسمعة والفخار بل ينبغى أن يكون الانفاق لابتغاء وجه الله تعالى وطلب ثوابه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تقْرَابُوا الصَّلاةَ وأَنْتُمْ سُكَارى حَتّى تعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ولاَ جُنُباً إلاّ عَابري سَبيلٍ حتَّى تَغْتَسِلُوا وإنْ كُنْتُمْ مَرْضى أوعَلى سَفَرٍ أوْ جَاءَ أحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أولاَمَسْتُمُ النِسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وأيْدِيكُمْ إنَّ الله كانَ عَفُوّاً غَفُوراً» سورة النِّساء (الآية: ٤٣)

ورد في سبب نزول الآية سببان: الأول في الواحدي: نزلت الآية في أناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يشربون الخمر ويحضرون الصلاة وهم نشاوى. فلا يدرون كم يصلون ولا ما يقولون في صلاتهم. وقال عطاء: صنع عبدالرحمن بن عوف طعاماً، ودعا أناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فطعموا وشربوا، وحضرت صلاة المغرب، فتقدّم بعضهم، فصلى بهم المغرب فقرأ (قل يا أيها الكافرون ــ أعبد ما تعبدون ــ بحذف لا إلى آخر السورة) فلم يتمها فأنزل الله هذه الآية* والثاني عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفارنا حتى كنا بالبيداء، أو بذات الجيش، انقطع عقد لى، فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه، وأقام الناس معه وليسو على ماء، وليس معهم ماء، فأتى الناس إلى أبي بكر، فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة؟ أقامت برسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالنّاس معه وليس معهم ماء!! فجاء أبوبكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع رأسه على فخذى قد نام أجلست رسول الله صلى الله عليه وسلم والنّاس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء؟ قالت: فعاتبنى أبوبكر: وقال: ما شاء الله أن يقول فجعل يطعن

بيده في خاصرتى فلا يمنعني من التحرّك إلا وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذى، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح على غير ماء. فأنزل الله تعالى آية التيمم فتيمَّمُوا، فقال أسيد بن حضير وهو أحد النقباء: ما هي بأوّل بركتكم يا آل أبي بكر. قالت عائشة: فبعثنا البعير الذي كنت عليه، فوجدنا العقد تحته. رواه البخاري عن اسماعيل بن أبى أويس. وفي رواية ابن عباس عن عمّار بن ياسر قال: فقام المسلمون فضربوا بأيديهم الأرض، ثم رفعوا أيديهم إلى الآباط* قال الزهرى: وبلغنا أنَّ أبا بكر قال لعائشة: والله إنك ما علمت إلاَّ مباركة* وفي السبب الأول جاء في الخطيب: روى أن عبدالرحمن بن عوف صنع طعاماً وشراباً فدعا نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين كان الخمر مباحاً، فأكلوا وشربوا، فلمّا سكروا جاء وقت صلاة المغرب. فقدموا أحدهم يصلى بهم، فقرأ: (قل يا أيُّها الكافرون ــ أعبد ما تعبدون ــ بحذف لا هكذا إلى آخر السورة) فنزلت. فكانوا لا يشربونها في أوقات الصلاة، فإذا صلوا العشاء شربوها، فلا يصبحون إلا وقد ذهب عنهم السكر، وعلموا ما يقولون، ثم نزل تحريمها. وقيل: أراد بالصلاة مواضعها، وهى المساجد، وقيل: أراد بالسكر سكر النوم ــ وهو مروى عن الضحاك. وقال عبيدة السلمانى **«وأَنْتُمْ سُكَارى»** أي حاقنا لحديث [لا يصليَنَّ أحدكم وهو حاقب] كذا في الخطيب* وهذا مخالف لما ورد من سبب نزولها، ففي الخازن: سبب نزول هذه الآية ما روى عن علىّ بن أبى طالب رضي الله عنه قال: صنع لنا ابن عوف طعاماً فدعانا فأكلنا وأسقانا خمراً قبل أن تحرم الخمر فأخذت منّا وحضرت الصلاة أي صلاة المغرب فقدموني فقرأت: (قل يا أيها الكافرون - أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون) قال: فخلطتُ فنزلت: **«ولا تقْرَبُوا الصلاة وأَنْتُمْ سُكارى حتى تعلموا ما تقولون»** أخرجه الترمذي وقال حديث غريب حسن صحيح. والسكر لغة: السدّ. ومنه قيل لما يعرض للمرء من شرب المسكر لأنه يسدُّ ما بين المرء وعقله. وأكثر ما يقال: السكر لازالة العقل بالمسكر. وقد يقال ذلك لازالته بغضب ونحوه من عشق وغيره. والسَّكْرُ: بالفتح وسكون الكاف، حبس الماء، وبالكسر، نفس الموضع المسدود، وأما السَّكَرُ: بفتحتان فما يسكر به من المشروب، ومنه **«سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً»** وقد ردّ على الضحاك ابن جرير كما في ابن كثير بقوله: والصواب أن المراد سكر الشراب، قال: ولم يتوجه النهي إلى السكران الذي لا يفهم الخطاب لأن ذاك في حكم المجنون، وإنما خوطب

بالنهي الثمل الذي يفهم التكليف. وهذا حاصل ما قاله. وقد ذكره غير واحد من الأصوليين وهو أن الخطاب يتوجّه إلى من يفهم الكلام دون السكران الذي لا يدرى ما يقال له: فإن الفهم شرط التكليف. وقد يحتمل أن يكون المراد التعريض بالنهى عن السكر بالكليّة لكونهم مأمورين بالصلاة في الخمسة الأوقات من الليل والنهار، فلا يتمكن شارب الخمر من أداء الصلاة في أوقاتها دائماً؛ وفي القرطبي: روى أبوداود عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لمّا نزل تحريم الخمر قال عمر: اللهمَّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت الآية التي في البقرة «**يسألونك عن الخمر والميسر**» قال: فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهمَّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً. فنزلت الآية التي في النِّساء «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تقربوا الصّلاة وأنتم سكارى**» فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادى: ألا لا يقربن الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه فقال: اللهمَّ بين لنا في الخمر بياناً شافياً فنزلت آية «**إنّما الخمر والميسر والأنصابُ والأ زلام رجسٌ**» إلى قوله: «**فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ**» قال عمر: انتهينا يارب؛ وقال سعيد بن جبير: كان الناس على أمر جاهليتهم حتى يؤمروا أو ينهوا، فكانوا يشربونها أوّل الإسلام حتى نزلت «**يسألونَك عنِ الْخَمْرِ والمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كبيرٌ وَمَنَافِعُ للنَّاس**» قالوا: نشربها للمنفعة لا للإثم، فشربها رجل فتقدم يصلي بهم فقرأ: (قل يا أيها الكافرون ـ أعبد ما تعبدون ـ) فنزلت «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تقرَبُوا الصلاة وأنتُم سُكَارَى**» فقالوا: في غير الصلاة، فقال عمر: اللهمَّ أنزل علينا في الخمر بياناً شافياً فنزلت «**إنّما يُريدُ الشيْطَانُ**» الآية فقال عمر: انتهينا انتهينا، ثم طاف منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألاَ إن الخمر قد حرّمت؛ وعامة المفسرين ذكروا حديث عائشة في آية التيمم، وسبب نزولها. إلا القرطبي قال: آية التيمم نزلت في عبدالرحمن بن عوف أصابته جنابة وهو جريح، فرخص له في أن يتيمم، ثم صارت عامة في جميع الناس. والأول أصحُ لأنه مخرّج في الصحيحين، وأجمع المفسرون على أنها نزلت في الخمر قوله تعالى: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْرَبُوا الصّلاةَ وأنتُم سُكَارى**» في لفظ الصلاة ههنا قولان:

أحدها: أن المراد منه المسجد، وهوقول ابن عباس وابن مسعود والحسن، وإليه يذهب الشافعى، وليس فيه إلا حذف المضاف. أي لا تقربوا مواضع الصلاة.

وثانيها: وعليه الأكثرون أن المراد نفس الصلاة. أي لا تصلُّوا إذا كنتُم سكارى.

ومعنى الآية على القول الأول: لا تقربوا المسجد في حالتين: أحدهما حالة السكر: وذلك أن الإنسان إذا أتى المسجد فإنما يأتيه للصلاة. ولا شك أن الصلاة فيها أقوال مخصوصة يمنع السكر منها، وثانيها حالة الجنابة: واستثنى من هذه الحالة حالة العبور. أي الاجتياز في المسجد بأن كان الطريق إلى الماء فيه، أو كان الماء فيه.

والمعنى على القول الثاني: النهى عن الصلاة في حالتين: الأولى حالة السكر أيضاً إلاّ إذا علموا ما يقولون (وقد علمت أنها حرّمت على التأبيد) ومعنى قربان الصلاة: غشيانها، والقيام إليها، والثانية حالةالجنابة: و يستثنى منها حالة عبور السبيل، و يراد به في هذا القول السفر، أي لا تقربوا الصلاة في حالة الجنابة إلا ومعكم حال أخرى تعذرون فيها، وهي حال السفر.

ويجوز أن يكون إلاّ عابرى سبيل صفة لقوله جنباً: أى لا تقربوها جنباً غيرعابرى سبيل أي جنباً مقيمين غيرمعذورين. والعبور: الجواز «حتى تَغْتَسِلُوا» فلكم أن تصلوا وقوله: «وإنْ كُنْتُم مَرْضى» مرضاً يضره الماء «أوْ عَلى سَفَرٍ» أي مسافرين. وأنتم جنب أو محدثون حدثاً أصغر «أوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» هو المكان المعد لقضاء الحاجة أي أحدث بالخروج «أوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاءَ» وفي قراءة «أو لمَسْتُمْ» وكلاهما بمعنى اللّمس: وهو الجسّ باليد، قاله ابن عمر، وعليه الشافعيّ، وألحق به الجسّ بباقي البشر. وعن ابن عباس هوالجماع وهوقول أبي حنيفة. وهي مسألة خلافية مبسوطة في الفروع. وقوله «فَلَمْ تَجِدُوا ماءً» تتطهرون به للصلاة بعد الطلب والتفتيش، وهو راجع إلى ما عدا المرضى لأنه يباح لهم ذلك في حالة مرضهم «فتَيَمَّمُوا» اقصدُوا بعد دخول الوقت «صَعِيداً طَيِّباً» تراباً طاهراً، فاضربوا به ضربتين «فامْسَحُوا بوجُوهِكُمْ وأيْديكُمْ» مع المرفقين منه «إنَّ الله كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً» وهو كالتعليل للترخيص المستفاد مما قبله. فعلم أن المسافر إذا أجنب ثم لم يجد الماء تيمّم وصلى مع الجنابة حتى يجد الماء، وكذا المقيم المريض الذي يضره الماء يتيمم و يصلى حتى يشفى من مرضه «مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» روى أنَّ بعض الصحابة أصابته جنابة،وكان به جراحة عظيمة فسأل بعضهم فلم يفته بالتيمم فاغتسل فمات. فسمع النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قتلوه قتلهم الله. حتى قال مالك وداود: يجوز له التيمم بجميع أنواع المرض. وفي معنى المرض: البرد المؤدى إلى المرض. وأكثر العلماء ألحقوا بالغائط كل ما يخرج من

السّبيلين من معتاد أو نادر. وعلى مذهب الشافعي قال بعض أهل الظاهر: إنما ينتقض وضوء اللامس دون الملموس لقوله لمستُمْ. والصحيح أنه ينتقض وضوؤهما معاً لاشتراك اللامس والملموس في ابتغاء اللذة. وقيل: عند عدم القصد لا نقض لكليهما. أي بأن يكون اللمس عفوياً لا عن قصد، بأن أراد أن يتناول من المرأة متاعاً فأصاب يدها بيده.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكّي مَنْ يَشَاءُ ولاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً* انْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وكَفَى به إثْماً مُبيناً»

سورة النِّساء (الآية: ٤٩، ٥٠)

في الواحدي: قال الكلبيُّ: نزلت في رجال من اليهود أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأطفالهم وقالوا يا محمد: هل على أولادنا هؤلاء ذنب؟ قال: لا، فقالوا: والذي نحلف به ما نحن إلا كهيئتهم، ما من ذنب نعمله بالنهار إلاَّ كفّر عنّا بالليل. وما من ذنب نعمله بالليل إلاَّ كفرعنّا بالنهار. فهذا الذي زكُّوا به أنفسهم* وكذا في الخطيب: وفي الخازن: وقال ابن عباس: نزلت في رفاعة بن زيد ومالك بن دخشم اليهوديين. كانا إذا تكلّم رسول الله صلى الله عليه وسلم لو يا ألسنتها وعاباهُ. فأنزل الله الآية* وفي الجلال: نزلت في اليهود حيث قالوا: نحن أبناؤ الله وأحباؤه* وقيل: هم النّصارى لأنَّ هذه المقالة لهما* في ابن كثير: قال الحسن وقتادة: نزلت هذه الآية وهي قوله: «**أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ**» في اليهود والنصارى حين قالوا «**نحنُ ابناءُ اللهِ وأَحِبَّاؤُهُ**» وفي قولهم: «**لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُوداً أوْ نَصارى**» وقال مجاهد: كانوا يقدمون الصبيان أمامهم في الدعاء والصلاة يؤمونهم، و يزعمون أنهم لا ذنوب لهم* وكذا قال عكرمة وأبومالك، وروى ذلك ابن جرير* وقال العوفى عن ابن عباس في قوله «**أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ**» وذلك أن اليهود قالوا: إنَّ أبناءنا توفّوْا وهم لنا قربة، و يشفعون لنا. و يزكوننا. فأنزل الله على محمد «**أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ**» الآية ... وفيه أقوال لا زيادة في معناها على ما ذكر. وقوله تعالى: «**أَلَمْ تَرَ إلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ**» الاستفهام تعجّبي، أي ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم تعجب من حالهم المنافية لما هم عليه من الكفر والطغيان، وقد علمت أن المراد بهم اليهود الذي يقولون:

نحن أبناء الله وأحباؤه. أي انظر إليهم فتعجب من ادعائهم أنهم أزكياء عند الله تعالى مع ما هُم عليه من الكفر والإثم العظيم. أو من ادّعائهم التكفير مع استحالة أن يغفر للكافر شيء من كفره، أو معاصيه، وفيه تحذير من اعجاب المرء بنفسه، وقوله تعالى: «**بَلِ اللهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ**» تنبيه على أنَّ تزكيته تعالى هي المعتد بها دون تزكيتهم أنفسهم. وفي صحيح مسلم عن محمد بن عمرو بن عطاء قال: سمّيتُ ابنتي بُرَّة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة، إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن هذا الإسم، وسميتُ برّة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تُزَكُّوا انْفُسَكُمْ، الله أعلم بأهل البرّ منكم» فقالوا: بم نسميها؟ فقال: سمُّوها زينب. قال القرطبي: فقد دل الكتاب والسنة على المنع من تزكية الإنسان نفسه، ويجرى هذا المجرى ما قد كثر في هذه الديار المصرية من نعتم أنفسهم بالنعوت التي تقتضي التزكية، كزكى الدين، ومحى الدين، وما أشبه ذلك. لكن لمّا كثرت قبائح المسلمين بهذه الأسماء ظهر تخلف هذه النعوت عن أهلها فصارت لا تفيد شيئاً، فأما تزكية الغير ومدحه له، فعن البخارى من حديث أبى بكرة أن رجلاً ذكر عند النبي صلى الله عليه وسلم فأثنى عليه رجل خيراً، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [و يْحَكَ قطعتَ عنق صاحبك ــ يقوله مراراً ــ إن كان أحدكم مادحاً لا محالة، فليقل: أحسب كذا وكذا إن كان يرى أنه كذلك، وحسيبه الله، ولا يزكى على الله أحداً] وعلى هذا تأوّل العلماء قوله عليه الصلاة والسلام: [احثُوا التُّراب في وجوه المدَّاحين] أن المراد به، المدّاحون في وجوههم بالباطل، وبما ليس فيهم حتى يجعلوا ذلك بضاعته يستأكلون به الممدوح وَ يَفْتِنُونَهُ، فأما مدح الرجل بما فيه من الفعل الحسن والأمر المحمود ليكون ذلك ترغيباً له فى أمثاله وتحريضاً للناس على الإقتداء به في أشباهه فليس بمدَّاح، وإن كان قد صار مادحاً بما تكلم به من جميل القول فيه، وهذا راجع إلى النيات «**واللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ**» وقد مدح صلى الله عليه وسلم في الشعر والخطب والمخاطبة، ولم يحث التراب في وجوه المدّاحين، وقد مدح أصحابه بقوله: [إنّكم لتقلُّون عند الطمع، وتكثُّرون عند الفزع] وأمّا قوله عليه الصلاة والسلام: [لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، وقولوا: عبد الله ورسوله] فمعناه لا تصفونى بما ليس فيَّ من الصفات تلتمسون بذلك مدحى، كما وصفت النصارى عيسى بما لم يكن فيه، فنسبوه إلى أنه ابن الله. فكفروا بذلك وضلُّوا، وهذا يقتضى أنَّ من رفع امرأ فوق حدّه وتجاوز مقداره بما ليس فيه فمعتدٍ

أثيم، لأن ذلك لو جاز في آحد لكان أولى الخلق بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم*
وقوله «ولاَ يُظْلَمُونَ فَتِيلاً» أي لا ينقصون من أعمالهم الصالحة بقدر قشرة النواة. أو «ولاَ يُظْلَمُونَ» عطف على جملة قد حذفت تعويلاً على دلالة الحال عليها، وإيذاناً بأنها غنية عن الذكر. أي يعاقبون بتلك الفعلة القبيحة ولا يظلمون في ذلك العقاب فتيلاً. أي أدنى ظلم وأصغره، وهو الخيط الذي في شقّ النواة، يضرب به في القلّة، والحقارة. وقيل: التقدير، يثاب المزكون ولا ينقص من ثوابهم شيء أصلاً، ولا يساعده مقام الوعيد. «انْظُرْ» متعجباً «كَيْفَ يَفْتَرُونَ على اللهِ الكَذِبَ» بذلك القول السابق «وكَفَى بِهِ» بالافتراء وحده «إِثْماً مُبيناً» بيناً.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ والطَّاغُوتِ ويقولُونَ للَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلاَءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سبيلاً* أولئكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ ومَن يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً* أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فإذاً لاَ يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً* أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ على ما آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ وآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً»

سورة النّساء (الآية: ٥١ ـ ٥٤)

في الواحدي: قال عكرمة: جاء حييُّ بن أخطب، وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم القديم. فأخبرونا عنّا وعن محمد؟ فقالوا: ما أنتُم وما محمد؟ قالوا: ننحر الكوماء، ونسقي اللبن على الماء، ونفك العانى، ونصل الأرحام، ونسقي الحجيج، وديننا القديم ودين محمد الحديث. قالا: بل أنتُم خير منه وأهدى سبيلاً فأنزل الله تعالى «أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكتاب» إلى قوله تعالى «ومَنْ يَلْعَنِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لهُ نَصيراً» بل كان النزول إلى «ملكاً عظيماً»* وفيه وقال المفسرون: خرج كعب بن الأشرف في سبعين راكباً من اليهود إلى مكة بعد وقعة أحد ليحالفُوا قريشاً على غدر رسول الله صلى الله عليه وسلم و ينقضوا العهد الذي كان

بـينهم، و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزل كعب على أبي سفيان، ونزل اليهود في دور قـريش، فـقـال أهل مكة: إنكم أهل كتاب، ومحمد صاحب كتاب، ولا نأمن أن يـكـون هـذا مـكـراً مـنكم، فإن أردتَ أن نخرج معك فاسجد لهذين الصنمين وآمن بهما. فـذلك قـولـه «**يُؤمِـنونَ بالجُبْتِ والطاغُوتِ**» ثم قال كعب لأهل مكة: ليجيء منكم ثـلا ثون ومنا ثلا ثون فنلزق أكبادنا بالكعبة، فنعاهد ربّ البيت لتجهدن على قتال محمد، فـفعَلُوا ذلك، فلما فرغوا، قال أبوسفيان لكعب: إنك امرؤ تقرأ الكتاب وتعلم ونحن أمِيُّون لا نعلم، فأيُّنَا أهدى طريقاً وأقرب إلى الحق؟ أنحن أم محمد؟ فقال كعب: اعرضوا عليَّ دينـكـم فـقال أبوسفيان: نحن نخرج للحجيج الكوماء، ونسقيهم الماء، ونقرى الضيف، ونـفـك الـعـانى، ونـصـل الـرحم، ونعمرّ بيت ربّنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمد فـارق ديـن آبـائـه، وقطع الرحم، وفارق الحرم، ور بنا القديم، ودين محمد الحديث. فقال كـعـب: أنـتُـم والله أهـدى سبيلاً مما هوعليه. فأنزل الله تعالى «**أَلَمْ تَرَ إلى الَّـذِينَ أُتُوا نَصِيباً مِنَ الكتاب**» يعني كعباً وأصحابه الآيات* وكذا في الخازن: «**يُؤمِنُونَ بالْجِبْتِ والطَّاغُوتِ**» يعني سجودهم للصنمين، قال الخازن: واختلف العلماء فيهما. فقيل: الجبت والـطـاغوت: كل معبود دون الله عزّ وجلّ، وقيل: هما صنمان كانا لقريش، وهما اللذان سجـد اليهود لهما لمرضـاة قـريـش. وقـيـل: الجـبـت اسم للأصنام، والطاغوت شياطين الأصنـام، ولـكـل صنم شيطان يعبّر فيه، و يكلّم النّاس، فيغترروا بذلك. وقيل: الجبت: الـكـاهـن، والـطـاغوت: الساحر* وفي القرطبي: اختلف أهل التأو يل في تأو يل الجبت والـطـاغـوت، فـقـال ابـن عـبّاس وابن جبير وأبوالعالية: الجبت: الساحر بلسان الحبشة، والـطـاغـوت: الـكاهن* وقال الفاروق عمر رضي الله عنه: الجبت: السحر. والطاغوت: الـشـيـطـان* وقـال ابـن مـسعود: الجبت والطاغوت هٰهنا: كعب بن الأشرف وحيي بن أخـطـب. وعـكـس عـكـرمـة فـقـال: الجـبـت حـيي بن أخطب، والطاغوت: كعب بن الأشـرف. ودلـيـلـه قـولـه تـعـالى «**يُرِيدُونَ أن يتحاكموا إلى الطَّاغُوتِ**» أي كعب بن الأشـرف* وروى عن مالك بن أنس: الطاغوت: ما عبد من دون الله* وكلمة جبت في الـلـغـة: تـقـع على الـصـنم والـكـاهـن والسّاحر ونحو ذلك. وقيل: الجبتُ: كل ما حرّم الله، والـطـاغـوت: كـل مـا يـطـغى الإنسان. ومثل ما في الخازن من القول في سبب نزولها في الـطـبـرى. قـال: وأنـزل إلى قـولـه «**وآتـيـنـاهـم مُـلْـكاً عَظيماً**»* وفي الجلال: الجبت

والطاغوت: صنمان لقريش* وفي الغرائب: زيادة على ما ذكر. فلما رجعا ــ إلى كعب بن الأشرف وحيي بن أخطب ــ إلى قومهما. قال لهما قومهما: إنَّ محمداً يزعم أنه قد نزل فيكما كذا وكذا، قالا: صدق والله ما حملنا على ذلك إلا بغضه وحسده* وقوله «ويَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا» أي إلى أبي سفيان وأصحابه حين قالوا لهم: نحن أهدى سبيلاً، ونحن ولاة البيت نسق الحاج ونقرى الضّيفَ..الخ. أي لأجلهم أو في شأنهم. والقائل كعب: لكن لمَّا أقرَّه الباقون صاروا كأنهم قائلون. «هَؤُلَاءِ» أي أنتم فالقول بالمشافهة، والأظهر أنَّه حكاية بالمعنى. «أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً» أقوم طريقاً «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ» يعنى كعب بن الأشرف وأصحابه، وهو استئناف لبيان حالهم وما يصيرون إليه «وَمَنْ يَلْعَنِ اللهُ» أي ومن يلعنه الله «فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً» ما نعاً من عذابه وقوله: «أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ» الاستفهام انكارى بمعنى بلى ليس لهم من الملك شيء البتة، وذلك أن اليهود كانُوا يقولون نحن أولى بالملك والنبوّة فكيف نتبع العرب. فأكذبهم الله تعالى وأبطل دعواهم. وما قالُوا ذلك إلاَّ من حيث أن النبوة كانت في بنى إسرائيل وكان فيهم الملوك فطمعُوا أن تعودَ فيهم النبوّة، وتعود الملوك منهم ولو كان الأمر كما تمنوا «فإذاً لا يأتُونَ النَّاس نَقيراً» أي شيئاً تافها قدر النقرة في ظهر النواة لفرط بخلهم، والمراد بقدر نقرة النواة أي ما يملؤها. فكيف يستحقون ذلك، وهذه الآية كقوله تعالى: «قُلْ لو أنتُمْ تَمِلكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ ربّى إذاً لأَمْسَكْتُمْ خشيَّةَ الانفاق وكانَ الانْسَانُ قتوراً» أي بخيلاً. وقوله تعالى: «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى مَا آتَاهُمَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ» يعنى بذلك حسدهم النبي صلى الله عليه وسلم على ما رزقه الله من النبوة العظيمة، ومَنَعَهُم من تصديقهم إياه حسدهم له لكونه من العرب، وليس من بنى إسرائيل. وأخرج الطبرانى عن ابن عباس في قوله «أَمْ يَحسُدُونَ النَّاسَ» الآية قال: نحن الناس دون الناس. قال الله تعالى: «فقدْ آتينَا آلَ إبراهِيمَ الكِتَابَ والحكمة وآتيناهُم ملكاً عظيماً» الآية أي فقد جعلنا في أسباط بنى إسرائيل الذي هم من ذرية إبراهيم النبوة وأنزلنا عليهم الكتاب وحكموا فيهم بالسنن، وهى الحكمة، وجعلنا منهم الملوك،ومع هذا فنهم من آمن به أي بهذا الإيتاء وهذا الإنعام، ومنهم من صدّ عنه أي كفر به وأعرض عنه، وسعى في صد الناس عنه، وهو منهم ومن جنسهم أي من بنى إسرائيل، فقد اختلفوا عليهم فكيف بك يا محمد ولست من بنى إسرائيل* وقال مجاهد:

فنهم من يؤمن به أي بمحمد صلى الله عليه وسلم، ومنهم من صدّ عنه، فالكفرة منهم أشدُّ تكذيباً لك وأبعد عمّا جئتَهمْ به من الهدى، والحق المبين، ولهذا قال متوعداً لهم «وكفَى بِجَهنَّمَ سَعِيراً» أي وكفى بالنار عقوبة على كفرهم وعنادهم. ومخالفتهم كتبَ الله ورسله* هذا والحسد مذموم، وصاحبه مغرم وهو يأكل الحسنات كما تأكل النّار الحطب، رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال الحسن: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من حاسدٍ، نفس دائم، وحزن لازم. وعبرة لا تنفد* وقال عبدالله بن مسعود: لا تعادوا نعم الله؟ قيل له: ومن يعادى نعم الله؟ قال: الذين يحسُدُون الناس على ما آتاهم الله من فضله* يقول تعالى في بعض الكتب. (الحسود عدوّ نعمتى، متسخّط لقضائى، غير راضى بقسمتى)* ولمنصور الفقيه :

ألا قــل لمــن ظــلَّ لى حــاسـداً	أتــدرى على مــن أسـأتَ الأدبْ
أســأتَ على الله في حكمـــه	إذا أنــت لم تــرضى لى مــا وهــبْ

و يقال : الحسد: أول ذنب عُصى الله به في السماء، وأول ذنب عُصى به في الأرض، فأمّا في السماء: فحسد ابليس لآدم، وأمّا في الأرض : فحسد قابيل لهابيل.
وما أحسن من قال :

أصبر على حســـد الحســو	دِ فــإنَّ صَـبْـرَك قــاتــلــه
فــالـنــار تــأكــل بــعـضـهـا	إن لم تجــدْ مــا تــأكــلــه

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إنَّ الله يأمُرُكُمْ أنْ تُؤدُّوا الأمانَاتِ إلى أهْلِهَا وإذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تَحْكُمُوا بالْعَدْلِ إنَّ الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إنَّ الله كانَ سَمِيعاً بَصِيراً»

سورة النّساء (الآية: ٥٨)

في الواحدي: نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي من بنى عبد الدار سادن الكعبة، فلمَّا دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، أغلق عثمان باب البيت، وصعد السطح فطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم المفتاح، فقيل: إنه مع عثمان، فطلب منه فأبى وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه المفتاح، فلوى على بن أبى طالب يده وأخذ المفتاح وفتح الباب، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت وصلى فيه ركعتيْن،

فلمّا خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ليجمع له بين السِّقاية والسِّدانة، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً أن يردّ المفتاح إلى عثمان و يعتذر إليه، ففعل ذلك عليٌّ فقال عثمان: أكرهت وآذيت، ثم جئت ترفق؟ فقال: لقد أنزل الله تعالى في شأنك، وقرأ عليه هذه الآية، فقال عثمان: أشهد أن محمداً رسول الله، وأسلم. فجاء جبريل عليه السلام، فقال: ما دام هذا البيت فإنَّ المفتاح والسِّدانة في أولاد عثمان، وهو اليوم في أيديهم* وفي رواية مجاهد: فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من البيت وهو يتلو هذه الآية، فدعا عثمان فدفع إليه المفتاح، وقال: خذوها يا بنى أبى طلحة بأمانة الله، لا ينزعها منكم إلاَّ ظالم* وكذا في الخازن لكنه زاد على ما تقدم هو والخطيب: فكان المفتاح معه إلى أن مات فدفعه إلى أخيه شيبة، فالمفتاح والسِّدانة في أولادهم إلى يوم القيامة* قال الخازن: قلت: وفيما ذكره البغوى رحمه الله من إسلام عثمان بن طلحة يوم الفتح، ومنعه المفتاح، وقوله: لو أعلم أنَّه رسول الله لم أمنعه المفتاح. فيه نظر، والصحيح ما حكاه أبوعمر بن عبد البر، وابن منده، وابن الأثير أنَّ عثمان بن طلحة هاجر إلى المدينة في هدنةالحديبة سنة ثمان مع خالد بن الوليد ولقيهما عمرو بن العاص مقبلاً من عند النجاشى، فرافقهما وهاجر معهما، فلمّا رآهم النبي صلى الله عليه وسلم قال: [رمتكم مكة بأفلاذ كبدها] يعنى أنهم وجوه مكة فأسلموا، وسلم عثمان بن طلحة المفتاح للنبي صلى الله عليه وسلم يوم الفتح، فردّه النبي صلى الله عليه وسلم إليه، وقال: [خذوها يا بنى طلحة خالدة مخلدة لا ينزعها منكم إلاَّ ظالم] ولم يذكروا سؤال العباس السِّدانة. والله أعلم* وثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنه قال: أقبل النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح وهو مردف أسامة على القصواء، ومعه بلال وعثمان حتى أناخ عند البيت ثم قال لعثمان: ائتنا بالمفتاح فجاء بالمفتاح ففتح الباب. وذكر الحديث* وكذا ذكر ابن الجوزى في تفسيره ما يفيد تقديم إسلامه على فتح مكة* وكذا في ابن كثير، وعبارته: وقد ذكر كثير من المفسرين أنَّ هذه الآية نزلت في شأن عثمان بن طلحة بن أبى طلحة، واسم أبى طلحة عبدالله بن عبدالعزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصى بن كلاب: القرشي العبدرى: حاجب الكعبة المعظّمة، وهو ابن عم شيبة بن عثمان بن أبى طلحة الذي صارت الحجابة في نسله اليوم. أسلم هذا في الهدنة بين صلح الحديبية وفتح مكة هو وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وأمَّا عمّه عثمان بن

أبي طلحة فكان معه لواء المشركين يوم أحد وقتل يومئذٍ كافراً، قال ابن كثير: وإنما نبّهنا على هذا النسب لأنَّ كثيراً من المفسرين قد يشتبه عليه هذا بهذا، وسبب نزولها فيه لمَّا أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم مفتاح الكعبة يوم الفتح، ثم ردَّهُ عليه قوله تعالى **«إنَّ الله يأمركُمْ أن تُؤدُّوا الأمانات إلى أهْلِها»** ذهب بعض المفسرين إلى أن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم. وورد بصيغة الجمع تشريفاً له، وهو أنَّه تعالى أمره برد مفتاح البيت إلى عثمان بن طلحة. وقيل: هو خطاب لولاة أمور المسلمين من الأمراء والحكام وغيرهم. و يدل عليه سياق الآية وهو قوله **«وإذَا حَكَمْتُمْ بين الناسِ أن تَحْكُموا بالعدل»** والمعنى إن الله تعالى يأمركم يا ولاة الأمور أن تؤدُّوا ما ائتمنتم عليه من أمور رعيتكم، وأن توفوهم حقّهم، وأن تعدلوا بينهم. وقيل إنَّ الآية عامة في جميع الأمانات لأنه لا يمتنع من خصوص السبب عموم الحكم فيدخل في ذلك جميع الأمانات التي يحملها الإنسان، و ينقسم ذلك إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول : رعاية الأمانة في عبادة الله تعالى، وهو فعل المأمورات وترك المنهيات، قال ابن مسعود: الأمانة لازمة في كل شيء حتى في الوضوء والغسل من الجنابة والصلاة والزكاة والصوم، وسائر أنواع العبادات.

القسم الثاني : هو رعاية الأمانة مع نفسه، وهو ما أنعم الله به عليه من سائر أعضائه، فأمانة اللسان حفظه من الكذب، والغيبة والنميمة ونحو ذلك. وأمانة العين غضها عن المحارم، وأمانة السمع ألا يشغله بسماع شيء من اللهو والفحش والأكاذيب ونحوه، ثم سائر الأعضاء على نحو ذلك.

القسم الثالث : وهو رعاية أمانة العبد مع سائر عباد الله تعالى، فيجب عليه ردّ الودائع والعوارى إلى أربابها الذين ائتمنوه عليها ولا يخونهم فيها، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أَدِّ الأمانة إلى من ائتمنكَ، ولا تَخُنْ من خانك] أخرجه أبوداود والترمذي، وقال حديث حسن غريب. و يدخل في ذلك وفاء الكيل والميزان فلا يطفف فيهما، و يدخل في ذلك أيضاً عدل الأمراء والملوك في الرعية ونصح العلماء للعامّة، فكل هذه الأشياء من الأمانة التي أمر الله عز وجل بأدائها إلى أهلها.

روى البغوى بسنده عن أنس قال: قلّما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا

قال: [لا إيمانَ لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له] الخازن* والظاهر أن هذه الآية مرتبطة بقوله سابقاً «**أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً..**» وذلك أن اليهود كانوا يعرفون الحقّ، وأوصاف النبي صلى الله عليه وسلم المذكورة في التوراة، وهي أمانة عندهم، ومع ذلك كتموها وأنكروها، وقالوا لأهل مكة: أنتم أهدى سبيلاً من محمد وأصحابه، فلما خانُوا في هذه الأمانة الخاصة أمر الله تعالى عموم المكلفين بأداء جميع الأمانات بقوله: «**إنَّ الله يأمركم أن تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهْلِها**» أي ما ائتمن عليه من الحقوق «**وإذا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ**» يأمركم «**أنْ تَحكمُوا بالْعَدْلِ**» أي بالسواء بأن تأمروا من وجب عليه الحقّ بأدائه إلى من هو له، فإن ذلك من أعظم الصالحات الموجبة لحسن المقيل في الظلّ الظليل* أخرج الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: [سبعةٌ يظلهم الله في ظله يوم لا ظلّ إلاَّ ظلّه: إمام عادل، وإنَّ أبغض النَّاس إلى الله يوم القيامة، وأشدهم عذاباً إمام جائر] «**إنَّ الله نِعِمَّا**» فيه إدغام ميم نعم في ما النكرة الموصوفة، أي نعم شيئاً «**يعظُكُمْ بِهِ**» تأدية الأمانات والحكم بالعدل «**إنَّ الله كانَ**» ولم يزل ولا يزال «**سَمِيعاً**» لكل ما يقال «**بَصيراً**» بكل ما يفعل. أي إذا حكمتم فهو يسمع حكمكم، وإذا أديتم الأمانات فهو يبصر فعلكم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أطيعُوا الله وأطيعُوا الرَّسُولَ وأُولى الأمْرِ مِنْكُمْ فإنْ تَنَازَعْتُمْ فى شيءٍ فَرُدُّوهُ إلى الله والرَّسُولِ إنْ كُنْتُم تُؤْمِنُونَ بالله واليوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وأحْسَنُ تأويلاً» سورة النِّساء (الآية: ٥٩)

في الواحدي : قال ابن عباس: نزلت في عبدالله بن حذافة بن قيس بن عدىّ بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سريّة، رواه البخارى عن صدقة بن فضل. ورواه مسلم عن زهير بن حرب: كلاهما عن حجاج. وقال ابن عباس في رواية أخرى: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد في سرية إلى حىّ من أحياء العرب، وكان معه عمار بن ياسر، فسار خالد حتى دنا من القوم عرّس لكى يُصبّحهم، فأتاهم النذير، فهربوا عن رجل قد كان أسلم، فأمر أهله أن يتأهبُوا للمسير، ثم انطلق حتى أتى عسكر خالد، ودخل مع عمّار. فقال: يا أبا اليقظان إنى منكم، وإنَّ قومى لمَّا سمعوا بكم

هربوا وأقمت لإسلامى، أفنافعى ذلك، أو أهرب كما هرب قومى؟ فقال: أقم فإنّ ذلك نافعك. وانصرف الرجل إلى أهله، وأمر بالمقام، وأصبح خالد فغار على القوم، فلم يجد غير ذلك الرجل. فأخذه وأخذ ماله. فأتاه عمّار فقال: خلّ سبيل الرجل فإنّه مسلم. وقد كنتُ أمّنتُه وأمرته بالمقام. فقال خالد: أنت تجير عليّ وأنا الأمير!؟ فقال: نعم، أنا أجير عليك وأنت الأمير، فكان في ذلك بينهما كلام، فانصرفوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأخبروه خبر الرجل فأمّنه النبي صلى الله عليه وسلم، وأجاز أمانة عمّار، ونهاه أن يجير بعد ذلك على أمير بغير إذنه، قال: واستبَّ عمّار وخالد بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأغلظ عمار لخالد، فغضب خالد، وقال يا رسول الله: أتدع هذا العبد يشتمنى، فوالله لولا أنت ما شتمنى، وكان عمّار مولى لهاشم بن المغيرة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا خالد: كفّ عن عمار، فإنه من يسبُّ عمّاراً يسبُّ الله، ومن يبغض عمّاراً يبغضه الله، فقام عمار، فتبعه خالد فأخذ بثوبه، وسأله أن يرضى عنه، فرضى عنه، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وأمر بطاعة أولى الأمر» وكذا في الخطيب والخازن نقلا عن السّدى. لكن في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت فى عبدالله بن حُذافة بن قيس بن عدى السهمى إذ بعثه النبي صلى الله عليه وسلم في سريّة» وكذا في ابن كثير. وفي مسند الإمام أحمد عن عليٍّ رضي الله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سريّة، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، فلما خرجوا، وَجَدَ عليهم في شيء، قال: فقال لهم: أليس قد أمَرَكم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تُطيعونى؟ قالوا: بلى، قال: فاجمعوا لى حطباً، ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمت عليكم لتدخلنّها. قال: فقال لهم شابٌّ منهم: إنما فررتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النّار، فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها، قال: فرجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه، فقال لهم: لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً، إنما الطاعة في المعروف. أخرجاه في الصحيحين من حديث الأعمش به. وقوله تعالى: **«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا الله وأطِيعُوا الرّسولَ وأولى»** أصحاب **«الأمر»** أي الولاة منكم إذا أمروكم بطاعة الله ورسوله. والمراد بهم أمراء الحقّ، لأن أمراء الجور، الله ورسوله بريئان منهم، فلا يعطفون على الله ورسوله في وجوب الطاعة لهم كما يدّعى ذلك بعض المرائين. وإنما يجمع بين الله ورسوله والأمراء الموافقين لهما في إيثار العدل، واختيار

الحق، والأمر بها، والنهيُ عن أضدادها كالخلفاء الراشدين، ومن تبعهم بإحسان. وكان الخلفاء يقولون: أطيعوني ما عدلت فيكم، فإن خالفت فلا طاعة لي عليكم. وقيل: هم أمراء السرايا. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: [من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع أميري فقد اطاعني، ومن يعص أميري فقد عصاني] وقيل: هم العلماء الدينيُّون الذين يُعلّمون الناس الدين، و يأمرونهم بالمعروف و ينهونهم عن المنكر كما في قوله تعالى «**ولتكُنْ منكُمْ أمَّةٌ يدعونَ إلى الخير و يأمُرُونَ بالْمَعْروفِ و يَنْهَونَ عَنِ المنكرِ وأولئكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**» وقوله: «**فإن تَنَازَعْتُمْ**» اختلفتم «**في شَيءٍ فردُّوهُ إلى الله**» أي إلى كتابه «**والرَّسُولِ**» مدّة حياته، و بعده إلى سنته أي اكشفوا عليه منها، واحكموا به، وفي الآية إشارة لأدِلّةِ الفقه الأربعة، فقوله: «**أطيعوا الله**» إشارةٌ للكتاب، وقوله: «**وأطيعوا الرسول**» إشارةٌ إلى السنّة، وقوله: «**وأولي الأمر**» إشارة للإجماع. وقوله: «**فإن تنازعتم**» ..الخ. إشارة للقياس. وقوله: «**إنْ كنتُمْ تُؤمِنُونَ بالله واليوم الآخر**» أي فإن الإيمان يوجب هذا «**ذَلِكَ**» الردُّ إليهما «**خَيْرٌ**» لكُمْ من التنازع والقول بالرأي «**وأحْسَنُ تأويلاً**» أي من تأويلكم بلا رَدٍّ.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً* وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً* فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاؤُكَ يَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً* أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِى أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغاً* وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاؤُكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً* فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً»

سورة النِّساء (الآية: ٦٠ ـ ٦٥)

في الواحدي: قال ابن عباس: رضي الله عنهما: كان أبوبردة الأسلميّ كاهِناً يقضى بين اليهود فيما يتنافرون إليه، فتنافر إليه أناسٌ ممن أسلم، فأنزل الله تعالى **«أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ»** إلى قوله: **«و يُسَلِّمُوا تسليماً»*** وحدّث سعيد عن قتادة قال: أنزلت هذه الآية في رجل من الأنصار يقال له قيس، وفي رجل من اليهود في ممارة كانت بينهما في حقّ تنازعا فيه، فتنافرا إلى كاهن بالمدينة ليحكم بينهما، وتركا نبيَّ الله صلى الله عليه وسلم، فعاب الله تعالى ذلك عليهما، وكان اليهوديّ يدعوه إلى نبي الله، وقد علم أنه لن يجور عليه، وجعل الأنصارى يأبى عليه، وهويزعم أنه مسلم، و يدعوه إلى الكاهن، فأنزل الله تعالى ما تسمعون وعاب على الذي يزعم أنه مسلم، وعلى اليهودى الذي هو من أهل الكتاب، فقال: **«أَلَمْ تَرَ إِلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهم آمَنُوا »** إلى قوله: **«يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدوداً»**. والأصح أنها نزلت إلى **«و يُسَلِّمُوا تَسْلِيماً»** وقال الكلبيُّ عن أبى صالح عن ابن عباس: نزلت في رجل من المنافقين كان بينه و بينَ يهوديّ خصومة، فقال اليهوديّ:

انطلق بنا إلى محمد، وقال المنافق: بل نأتى كعب بن الأشرف، وهو الّذِى سمّاه الله تعالى الطاغوت، فأبى اليهودى إلاّ أن يخاصمه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلمّا رأى المنافق ذلك أتى معه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاختصما إليه، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لليهودى، فلمّا خرجا من عنده لزمه المنافق، وقال: ننطلق إلى عمر بن الخطاب، فأقبلا إلى عمر: فقال اليهودى: اختصمنا أنا وهذا إلى محمد فقضى لى عليه فلم يرض بقضائه وزعم أنه مخاصم إليك، وتعلّق بى فجئت إليك معه، فقال عمر للمنافق: أكذلك؟ قال: نعم، فقال لهما: رو يداً حتى أخرج إليكما، فدخل عمر فأخذ السيف فاشتمل عليه، ثم خرج إليهما، وضرب به المنافق حتّى برد، وقال: هكذا أقضى لمن لم يرض بقضاء الله وقضاء رسوله، وهرب اليهودى، ونزلت هذه الآية* وقال جبريل عليه السلام: إنَّ عمر فرق بين الحقّ والباطل، فسمّى الفاروق وكذا في الخازن* وفي الواحدي أقوال أخرى في نفس المعنى. وفي الخطيب اسم المسلم: بشر المنافق. ولكن فى الصحيح أن الآية نزلت في الزبير وخصْم له من الأنصار ــ وقد شهد بدراً ــ في شراج من الحرّة كانا يستقيان بها النّخل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم للزبير: إسق يا زبير، ثم أرسل إلى جارك، فغضب الأنصارىّ، وقال يا رسول الله: أنْ كان ابن عمتك، فتلوّن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: اسق يا زبير، حتى يبلغ الجدر، واستوف حقّك ثم أرسله إلى جارك، فنزلت الآية* وفي الخازن: وقال السّدى: كان ناس من اليهود قد أسلموا ونافق بعضهم، وكانت قريظة والنضير في الجاهلية، وكانت قريظة حلفاء الخزرج، والنضير حلفاء الأوس، وكان إذا قتل رجل من بنى قريظة رجلاً من بنى النضير قتل به، أو أخذت ديته مائة وسق من تمر، وإذا قتل رجل من بنى النضير رجلاً من قريظة لم يقتل به، وأعطى ديته ستين وسقاً، فلما جاء الإسلام وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، فاختصموا في ذلك، فقال بنو النضير: كنا وأنتم قد اصطلحنا على أن نقتل منكم ولا تقتلوا منّا، وديتنا مائة وسق، وديتكم ستون وسقاً، فنحن نعطيكم ذلك، فقالت الخزرج: هذا شيء كنتُم فعلتموه في الجاهلية لكثرتكم وقلتنا فقهرتمونا على ذلك، فاليوم نحن إخوة في الدين، فلا فضل لكم علينا. فقال المنافقون منهم: ننطلق إلى أبى بردة الكاهن الأسلمى، وقال المسلمون من الفريقين: بل ننطلق إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأبى المنافقون: وانطلقوا إلى أبى بردة الكاهن

ليحكم بينهم، فقال: أطعموا اللقمة، يعني الخطر، فقالوا: لك عشرة أوسق، فقال: بل مائة وسق ديتي، فأبوا أن يعطوه إلاّ عشرة أوسق، وأبى أن يحكم بينهم، فأنزل الله عزّ وجلّ آية القصاص، وأنزل هذه الآية «**أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يَزْعِمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إليْكَ ومٰا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ..**»* وعلى كل فالآية أعمّ من ذلك كله فإنها ذامّة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكموا إلى ما سواهما من الباطل، وهوالمراد بالطاغوت هنا. وقوله «**أَلَمْ تَرَ إلى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ..**» الزُّعم بضم الزاى وفتحها لغتان، وأكثر ما يستعمل الزعم بمعنى القول الذي لا يتحقق. وقيل: هو حكاية قول يكون مطيّة للكذب، ولذلك قيل: زعم مطيّة الكذب، والمراد به في هذه الآية الكذب لأن الآ ية نازلة في المنافقين.
وظاهر الآية يدل على أنها نازلة في الذين نافقوا من مؤمني أهل الكتاب، و يدل عليه قوله: «**آمنوا بما أُنزِلَ إليْكَ وما أُنزِلَ مِنْ قَبلكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إلى الطَّاغُوتِ**» يعني كعب بن الأشرف في قول ابن عباس: سمّاه الله طاغوتاً لإفراطه في الطغيان، وعداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيل: هو أبوبردة الكاهن في قول السّدى «**وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا به**» يعني بالطاغوت لأن الكفر بالطاغوت إيمانٌ بالله عزّ وجل «**و يُرِيدُ الشيْطانُ**» بإرادتهم ذلك التحاكم إلى الطاغوت «**أَنْ يُضِلَّهم**» أي المتحاكم إليه «**ضَلالاً بَعيداً**» أي بحيث لا يمكنهم الرجوع إلى الهدى. «**وإذا قِيلَ لَهُمْ تَعَالُوا إلى مٰا أَنزَلَ الله**» في القرآن من الحكم «**رأيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصدُّونَ**» يُعرضونَ عنك إلى غيرك «**صُدُوداً**» أي إعراضاً بالكليّة. فذكر المصدر للتأكيد والمبالغة* والآية سبقت لمادة التعجب ببيان إعراضهم صريحاً عن التحاكم إلى كتاب الله ورسوله إثر بيان إعراضهم عن ذلك في ضمن التحاكم إلى الطاغوت. وقوله تعالى: «**فكيفَ**» يصنعون «**إذا أَصَابتْهُمْ مصِيبةٌ**» عقوبة «**بِمَا قدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**» من الكفر والمعاصى. أي أيقدرون على الاعراض والفرار منها؟ لا «**ثُمَّ جاؤكَ**» معطوف على يصدون «**يَحْلِفُونَ بالله إنْ**» مٰا «**أَرَدْنَا**» بالمحاكمة إلى غيرك «**إلاَّ إحْسَاناً**» صُلْحاً «**وتَوفيقاً**» أي تأليف بين الخصمين. بالتقريب في الحكم، ولم نرد مخالفتك «**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ الله مٰا فى قُلُوبهم**» من النفاق والبغض للإسلام وأهله. وإن اجتهدوا في إخفائه وكذبهم في حلفهم «**فأَعْرِضْ عَنْهُمْ**» أي عن عتابهم بالصفح لأنهم أقلُّ من أن يحسب لهم حساب، وهذه الجملة جواب شرط محذوف دلّ عليه السياق. أي إذا كان حالهم كذلك فأعرض عن

قبول عذرهم. وقوله «وَعِظْهُمْ» خوّفهم الله القادر على استئصالهم، «وَقُلْ لَهُمْ فِى أَنْفُسِهِمْ» أي سرّاً، أو خاليا بهم، فإنّ النصح في السرّ أنجع وقل لهم «قَوْلاً بَلِيغاً» أي مؤثراً فيهم، أي ازجرهم ليرجعُوا عن كفرهم. وقيل: هذا منسوخ بآية القتال، وفي هذه الجملة وجوه:

أحدها : أن في الآية تقديماً وتأخيراً. والمعنى قل لهم قولاً بليغاً في أنفسهم مؤثراً في قلوبهم يغتمُّون به اغتماماً، و يستشعرون منه الخوف.

الثاني : وقل لهم في معنى أنفسهم الخبيثة، وقلوبهم المطوية على النفاق قولاً بلغياً هو أن الله يعلم ما في قلوبكم فلن يغنى عنكم الإخفاء، فطهّروا قلوبكم عن دنس النفاق، وإلا فسينزل الله بكم ما أنزل بالمجاهرين بالشرك، أو شرّاً من ذلك، وأغلظ.

الثالث : الذي ذكرتُ، أي قل لهم في أنفسهم خالياً بهم مُسَاراً لهم بالنصيحة فإن النُّصحَ بين الملأ تقريع وفي السرّ أنفع وأنجع قولاً يؤثر فيهم.

وقيل: القول البليغ يتعلق بالوعظ، وهو أنِ يكون كلاماً حسناً، وجيز المبانى غزير المعانى يدخل الأذن بلا إذْن مشتملاً على الترغيب والترهيب والاعذار والإنذار. وقوله: «وما أرْسَلنَا مِنْ رَسُولٍ إلاّ لِيُطَاعَ» فيما يأمر به ويحكم. وهذه علّة إرسال الرسل فمن لم يطعه، ولم يرضى بحكمه ولم يقبل رسالته، ومن كان كذلك كان كافراً يستوجب القتل «بإذْنِ الله» أي بأمر الله ولا ليُعصى ويخالف. ثم بين رحمته الواسعة بقوله: «وَلَوْ أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ» بتحاكمهم إلى الطاغوت «جَاؤكَ» تائبين «فاسْتَغْفَرُوا الله» أي بالتوبة والاخلاص «واستَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسولُ» أي سأل الله أن يغفر لهم ما تقدم من تكذيبهم، وفي ذلك التفات عن الخطاب تفخيماً لشأنه أي حيث عدل عن خطاب إلى ما هو من عظيم صفاته، فهو على طريقة حَكَمَ الأمير بكذا مكان حكمت بكذا. ووجه التفخيم أن شأن الرسول أن يستغفر لمن عظم ذنبه، وهو مستجاب لا محالة بدليل قوله: «لَوَجَدُوا الله تَوَّاباً» عليهم «رَحِيماً» بهم وقوله: «فلا وربّك» لا زائدة للتأكيد، وهو اختيار الزمخشرى فهي معنى القسم كما زيدت في لئلا يعلم. لتأكيد وجوب العلم «لا يُؤمِنُونَ» جواب القسم «حَتّى يُحَكِّموكَ فِيما شَجَر» أي اختلط «بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِى أنْفُسِهِمْ حَرَجاً» ضيقاً أو شكاً «مِمَّا قَضَيْتَ» به «و يُسَلِّمُوا» ينقادوا لحكمك «تَسْلِيماً» من غير معارضة، أي ينقادُوا لحكمك انقياداً لا شبهة فيه ظاهراً و باطناً وهذا

ينـاسب أن يكون المراد بالإيمان الإيمان الكامل لأن أصل الإيمان المقابل للكفر لا يستلزم الانقياد لظاهر بل هو أمر باطنيٌّ قلبيٌّ.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فأولئكَ مَعَ الّذِينَ أنْعَمَ اللهُ علَيهِمْ مِنَ النّبيّين والصِّدّيقينَ والشُّهَداءِ والصّالحينَ وحَسُنَ أولئكَ رَفيقاً* ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وَكَفَى باللهِ عليماً» سورة النِّساء (الآية: ٦٩، ٧٠)

فى الواحدى : قال الكلبيُّ: نزلت فى ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان شديد الحبّ له، قليل الصّبر عنه، فأتاه ذات يوم، وقد تغيّر لونه، ونحل جسمه، يعرف فى وجهه الحزن، فقال له: يا ثوبان ما غيّر لونك؟ فقال يا رسول الله: ما بى من ضُرٍ ولا وجع غير أنى إذا لم أرك اشتقت إليك، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك، ثم ذكرت الآخرة، وأخاف ألاّ أراك هناك، لأنى أعرف أنك ترفع مع النّبيين، وإنى وإن دخلت الجنة كنت فى منزلة أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنة فذاك أحرى ألاّ أراك أبداً، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وعن مسروق قال: قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ينبغى لنا أن نفارقك فى الدنيا، فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا، فأنزل الله تعالى: **«وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرّسُولَ فأولئكَ مَعَ الذِينَ أنعم اللهُ عليهم...»** * وقالت عائشة رضى الله عنها: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال يا رسول الله: إنك لأحبّ إلى من نفسى وأهلى وولدى، وإنى لأكون فى البيت، فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتى وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإنى إذا دخلت الجنة حيث لا أراك، فلم يرد رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: **«وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فأولئكَ مع الّذِينَ أنْعَمَ اللهُ عليهم...»** وكذا فى الخازن وابن كثير وغيرهما. قوله تعالى: **«وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرّسُولَ»** فيا أمرا به أمر إيجاب، أو ندب. وفيما نهيا عنه نهى تحريم، أو كراهة، فالمراد بالطاعة الانقياد التام لجميع الأوامر والنواهى، و يُطع الرسول فى السنن التى سنها **«فأولئكَ مَعَ الّذِينَ أنْعَمَ اللهُ عَلَيهِمْ»** يعنى بالهداية والتوفيق فى الدنيا، و يدخل الجنة فى الآخرة **«مِنَ النّبيّينَ»** أى أن المطيعين مع النبيين فى الجنة لا تفوتهم رؤية الأنبياء فى

الجنـة، ومجـالـستهـم، لا أنهـم يـكـونـون فى درجتهم فى الجنة لأن ذلك يقتضى التسو ية فى الـدرجـة بين الفاضل والمفْضول «والصِّدِّقينَ» أفاضل أصحاب الأنبياء وسُّموا صديقين لمبالغتهم فى الصدق «والشُّهداءِ» القتلى فى سبيل الله «والصَّالحين» غير من ذكر، وهم الـقـائمـون بحـقـوق الله وحقوق عباده، وإنما قلت غير من ذكر لتحصل المغايرة فى العطف، لأنّ الأصناف الثلاثة صالحون «وحَسُنَ أولئِكَ» أى كل واحد من الأصناف الأربعة «رفـيقاً» أى رفقاء فى الجنة بأن يستمتع فيها برؤيتهم وزيارتهم، والحضور منهم، وإن كان مقـرّهـم فى الـدرجـات العالية بالنسبة إلى غيرهم. وفيه معنى التعجب، وإنما وحد الرفيق وهـو صـفـة جمع لأن العرب تعبّر به عن الواحد والجمع. «ذَلِكَ» أى كونهم مع من ذكر «الـفضْلُ مِنَ الله» أى تفضل به عليهم لا أنّهم نالوه بطاعتهم «وكَفَى بالله عليماً» أى بجزاء مـن أطاعـه، أو بمـقادير الفضل واستحقاق أهله، روى أبو هريرة رضى الله عنه أنّ رسـول الله صلى الله عـليـه وسـلـم قال: [قاربُوا وسدِدُوا، واعلموا أنه لا ينجو أحدٌ منكم بعمله] قالوا: ولا أنت يا رسول الله، قال: [ولاَ أنا إلاَّ أن يتغمدّنى الله برحمةٍ منه وفضل].

((القول فى سبب نزول قوله تعالى :))

ألَـمْ تَـرَ إلى الّـذِينَ قيلَ لَهُمْ كُفُّوا أيْدِيَكُمْ وأقيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكَاةَ فـلمَّا كُتِبَ عليْهِمُ الْقِتَالُ إذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يخْشَوْنَ النّاسَ كَخَشْيَةِ الله أوْ أشَدَّ خـشـيـة وقَـالُوا رَبّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلاَ أخَّرْتَنَا إلىَ أجلٍ قـريب قُلْ مَتَاعُ الدنيا قَليلٌ والآخِرَةُ خيْرٌ لِمَنِ اتّقَى ولاَ تُظْلَمُونَ فتيلاً»

سورة النِّساء (الآية: ٧٧)

فى الواحدى : قال الكلبىُّ : نزلت هذه الآية فى نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: منهم عبدالرحمن بن عوف، والمقداد بن الأسود، وقدامة بن مظعون، وسعد بن أبى وقـاص، فـيـقـول لهـم كفُّوا أيديكم عنهم، فإنى لم أومر بقتالهم، فلمّا هاجر رسول الله صلى الله عـلـيـه وسلم إلى المدينة، وأمرهم الله تعالى بقتال المشركين كرههُ بعضهم، وشق عليهم فأنزل الله تعالى هذه الآية* وقال ابن عباس: إنّ عبدالرحمن وأصحابه أتوا إلى النبى صلى الله عـلـيـه وسلم بمكّة، فقالوا يا نبىَّ الله: كنا فى عز ونحن مشركون، فلمّا آمنّا صرنا أذلـةً، فـقـال: إنى أمـرت بـالـعـفـو فلا تقاتِلوا القوم، فلما حوَّله الله إلى المدينة أمره بالقتال

فكفُّوا، فأنزل الله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إلى الّذِين قيل لَهُمْ كفُّوا أيديكم..» أخرجه النسائى فى سننه* وكذا فى الطبرى والخازن وابن كثير وغيرها. وقوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذِينَ» تعجيب لرسول الله صلى الله عليه وسلم من إحجامهم عن القتال مع أنهم كانوا قبل ذلك راغبين فيه حرصاً عليه بحيث كانوا يباشرونه كما ينبىء عنه الأمر بكف الأيدى «كُفُّوا أيْدِيَكُمْ» فإن ذلك مشعر بكونهم بصدد بسطها إلى العدو، فلما نزلت الآية بعد الهجرة وأمروا بقتال المشركين: كرهوا ذلك، والذى كره إمّا مؤمن وتاب، أو منافق لم يتب وقوله: «وأقيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزكَاةَ» الخطاب لجماعة المسلمين، وفيهم المنافقون والضعفاء، والمعنى. ألم تر إلى أولئك الذين أمرهم الله بحقن الدّماء، وكف الأيدى من الاعتداء، وإقام الصلاة والخشوع لله، وإيتاء الزكاة التى تمكن الإيمان فى القلوب، وتشدّ أواصر التراحم بين الخلق، وقد كانوا من قبل ذلك أصحاب إحنٍ وأحقاد وتخاصم وتلاحم وحروب مستمرة، فلما جاء الإسلام أحبُّوا أن يكتب عليهم القتال ليسيروا على ما تعودوه، ولكن حين كتب عليهم قتال الكفار كرهه الضعفاء منهم، وخافوا إن قاتلوهم أن ينزل بهم الكفار النكال والوبال بدليل قوله: «فلمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَال» أى فرض عليهم «إذَا فرِيقٌ مِنْهُمْ يخشَوْن» يخافون «النّاسَ» كخشية الله مفعول مطلق أى خشية كخشية الله، وأشدّ خشية حال منه، لأن نعت النكرة إذا تقدّم عليها يعتبر حالاً، أى أو أشدّ خوفاً من خوفهم له، وجواب لمّا دلّ عليه إذا وما بعدها أى فاجأتهم الخشية «وقالُوا..» خوفاً من الموت بمقتضى الجبلّة لا اعتراضاً على حكمه تعالى لأنهم من خيار الصحابة. وفى الكرخى: قال الحسن البصرى: وهذا كان منهم لما فى طبع البشر من المخافة لا لكراهتهم أمر الله بالقتال* أو هو سؤال عن وجه الحكمة فى فرض القتال عليهم لا اعتراض لحكمه، بدليل أنهم لم يوبخوا على هذا السؤال، بل أجيبوا بقوله: «قُلْ مَتَاعُ الدنْيَا قَلِيلٌ» آيلٌ إلى الفناء وفى أبى السعود: أى قل لهم تزهيداً لهم فيما يأملونه بالقعود من المتاع الفانى وترغيباً فيما ينالونه بالقتال من النعيم الباقى* «والآخِرةُ» أى الجنّة «خيْرٌ لِمَن اتَّقَى» عقاب الله بترك معصيته «ولاَ تُظلَمُونَ فتيلاً» قدْر قشرة النواة. أى تجزون فيها ولا تظلمون أدنى شىء.

((القول فى سبب نزول قوله تعالى :))

«أيْنَما تكُونُوا يدْرِكْكُمْ الْمَوْتُ ولو كنْتُمْ فى بُرُوج مُشيَّدَة وإنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِه مِنْ عِنْدِ الله وإنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يقُولُوا هذِه من عنْدكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله فَمَالِ هَؤلاءِ الْقُوْم لاَ يكادُونَ يفْقَهُون حَديثاً* ما أصَابَكَ مِنْ حَسَنَة فَمِنَ الله وَمَا أصَابَكَ مِنْ سيئة فَمِنْ نَفْسِكَ وأرْسَلْنَاكَ للنَّاسِ رسُولاً وكَفَى بالله شهِيداً» سورة النِّساء (الآية: ٧٨، ٧٩)

فى الواحدى : قال ابن عباس فى رواية أبى صالح: لما استشهد الله من المسلمين يوم أحد، قال المنافقون: الذين تخلفوا عن الجهاد: لو كان إخواننا الذين قتلوا عندنا ما ماتُوا ولا قُتِلُوا، فأنزل الله تعالى هذه الآية، وكذا فى الخطيب والخازن، وفيه: وقيل: نزلت فى الذين قالوا ربنا لم كتب علينا القتال، فردَّ الله عليهم بقوله تعالى: **«أيْنَمَا تكُونُوا يدرككم الموتُ»** يعنى ينزل بكم الموت* وفى الطبرى عن مجاهد قال: كان فيمن كان قبلكم امرأة، وكان لها أجير، فولدت جارية، فقالت لأجيرها: اقتبس لنا ناراً، فخرج فوجد بالباب رجلاً، فقال له الرجل: ما ولدت هذه المرأة؟ قال: جارية، قال: أما إنّ هذه الجارية لا تموت حتى تبغى بمائة، و يتزوّجها أجيرها، و يكون موتها بالعنكبوت، قال: فقال الأجير فى نفسه: فأنا أريد هذه بعد أن تفجر بمائة، فأخذ شفرة فدخل، فشقّ بطن الصبيّة، وعولجت فبرئت، فشبّت، وكانت تبغى، فأتت ساحلاً من سواحل البحر، فأقامت عليه تبغى، ولبث الرجل ما شاء الله، ثم قدم ذلك الساحل، ومعه مال كثير، فقال لامرأة من أهل الساحل: ابغينى امرأة من أجمل امرأة فى القرية أتزوّجها، فقالت: ههُنا امرأة من أجمل النّاس، ولكنها تبغى. قال: ائتنى بها، فأتتها، فقالت: قد قدم رجلٌ لَهُ مال كثير، وقد قال لى كذا، فقلت له: كذا. فقالت: إنى تركت البغاء، ولكن إن أراد تزوجته، قال: فتزوجها، فوقعت منه موقعاً، فبينما هو يوماً عندها إذ أخبرها بأمره، فقالت: فإنه قال لى يكون موتها بالعنكبوت، قال: فبنى لها برجاً بالصحراء، وشيّده، فبينما هما يوماً فى ذلك البرج إذا عنكبوت فى السّقف، فقالت: هذا يقتلنى، لا يقتله أحدٌ غيرى فحركته فسقط، فأتته فوضعت ابهام رجلها عليه فشدختها، وساخ سّمه بين ظفرها واللحم، فاسودت رجلها فماتت، فنزلت هذه الآية **«أيْنَما تكونُوا يدرككُم الموتُ..»**

وكذا ذكرها ابن كثير نقلاً عن الطبرى ولم يذكره: فماتت فنزلت هذه الآية لأنه لا ارتباط بين عرض القصة ونزول الآية وحكاية مجاهد لها. والأصح أنه خطاب عام للمنافقين وضعفة الإيمان الذين قالوا: **«لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إلىَ أَجَلٍ قريب»** أى **«أيْنَمَا تكونُوا»** أيها النّاس كلكم مطيعكم وعاصيكم.. لأنه كلام مبتدأ مسوق من قبله تعالى بطريق تلوين الخطاب، وصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المخاطبين اعتناء بإلزامهم إثر بيان حقارة الدنيا، وعلو شأن الآخرة، فلا محل له من الاعراب. هذا: ويحتمل أنه فى محل نصب داخل تحت القول المأمور به، والمعنى: قل لهم: أينما تكونوا فى الحضر أو السفر، أو فى القصور المشيدة يُدْركم الموت الذى تكرهون القتل لأجله زعماً منكم أنه من مظانه. وفى لفظ الإدراك إشعارٌ بأنهم آخذون فى الهرب من الموت وهو مُجدٌّ فى طلبهم. كما فى قوله تعالى: **«قُلْ إنَّ الموتَ الّذي تفرُّون مِنْهُ فإنَّهُ مُلاقيكُمْ»** وأين اسم مكان وشرط يجزم فعلين، وما زائدة على سبيل الجواز مؤكدة لها، وتكونوا مجزومٌ بها، و يدرككم جوابه وقوله: **«ولَوْ كنتُمْ فى بروجٍ مشيّدة»** البروج فى كلام العرب الحصون والقلاع كذا فى الخازن، وفى أبى السعود: **«ولو كنتُمْ فى بروجٍ مشيّدة»** فى حصون رفيعة، أو قصور محصنة. وقال السّدى وقتادة: بروج فى السماء. قلت: وهو ضعيف لأن المخاطبين فى الأرض لا فى السماء، ولأنها الكواكب العظام. و يقال: شادَ البناءَ وأشاده وشيّده، أى رفعه، وشيد القصر رفعه، وشيد القصر رفعه، أو طلاهُ بالشيد، وهو الجبس. وجواب لو محذوف اعتماداً على دلالة ما قبله عليه. أى ولو كنتُم فى بروج مشيدة يدرككم الموت. والجملة معطوفة على أخرى مثلها. وقوله: **«وإنْ تُصْبهُمْ حَسَنَةٌ يقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ الله»** نزلت فى المنافقين واليهود، وذلك أن المدينة كانت ذات خير وأرزاق وعند مقدم النبىّ صلى الله عليه وسلم، فلمّا ظهر نفاق المنافقين وعناد اليهود أمسك الله عنهم بعض الإمساك، فقال المنافقون واليهود: ما زلنا نعرف النقص فى ثمارنا ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرجل وأصحابه، فقال الله تعالى: **«وإنْ تُصْبْهُمْ سَيّئَةٌ»** أى جدب فى الثمار وغلاء فى السعر **«يقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ»** يا محمد أى بشؤمك. أى قالوا: هذا بسبب شؤمه وشؤم أصحابه. والشؤم ضد اليُمْنِ وهو البركة، وفى المصباح الشؤم الشّرُّ، ورجلٌ مشئوم غير مبارك، وتشاءم القوم به مثل تطيّروا به **«قُلْ»** أى يا محمدُ لهم: **«كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله»** يعنى الحسنة والسيئة. أى كل واحدة من النعمة والبليّة من جهة الله تعالى

خلقاً وإيجاداً من غير أن يكون له مدخل فى وقوع شيئ منها بوجه من الوجوه كما تزعمون، بل وقوع الأولى منه تعالى بالذات تفضلاً ونعمة، ووقوع الثانية بسبب ذنوب من ابتلى بها عقوبة من قبله تعالى، ابتلاء منه لهم **«فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً»** أى فما شأن هؤلاء القوم المنافقين واليهود الذين قالوا ما قالوا لا يقاربون أن يفهموا معانى القرآن التى بُيّنَ فيها أن الأشياء كلها من الله عزّوجلّ خيرها وشرّها. (ما) من (فمَا) مبتدأ، وتقبيح حالهم، والتعجب من كمال غوايتهم، وقوله: لا يكادون يفقهون حديثاً. هذه الجملة حال من هؤلاء، والعامل فيها ما فى الظرف من معنى الاستقرار، أى وحيث كان الأمر كذلك فأى شيىء حصل لهم حال كونهم بمعزل من أن يفقهوا حديثاً. أو هو استئناف مبنى على سؤال نشأ من الاستفهام، كأنه قيل: ما لهم، وماذا يصنعون حتى يتعجب منه؟! أو حتى يسأل عن سببه؟ فقيل: لا يكادون يفقهون حديثاً من الأحاديث أصلاً، فدعهم يقولون ما يقولون. إذ لو فهموا شيئاً من معانى القرآن لفهموا هذا النّصّ وغيره بأن الكل من عند الله تعالى: **«مَا أَصَابَكَ»** أيها الإنسان. أى جنس الإنسان **«مِن حَسَنَةٍ»** خيرٍ ونعمة **«فَمِنَ اللهِ»** أتتك فضلاً منه **«ومَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ»** بليّة من قحط وجدب وشدّة ومكروه.. **«فَمِنْ نَفْسِكَ»** أتتك، حيث ارتكبت ما يستوجبها من الذنوب، وفى هذا إشارة إلى الجمع بين قوله: ما أصابك من حسنة فمن الله. وبين قوله: قلْ كل من عند الله. الواقع ردّاً لقول المشركين، وإن تصبهم حسنة الآية بأن قوله: **«قُلْ كلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ»** أى ايجاداً. وقوله: وما أصابك من سيئة فمن نفسك. أى كسبك، كما فى قوله تعالى: **«ومَا أَصَبَكُمْ مِنْ مصيبة فبمَا كَسَبْت أيديكُمْ»** فحاصله. انك إذا نظرت إلى الفاعل الحقيقى فالكل منه، وإذا نظرت إلى الأسباب فما هى إلاّ من شؤم ذنب نفسك يوصله الله إليك بسببه مجازاة وعقوبة لا من محمد صلى الله عليه وسلم، وقوله: **«وأَرْسَلْنَاكَ لِلنّاسِ رسُولاً»** أى مقتصراً على تبليغ الرسالة، وليس إليك الحسنة والسيئة **«وكَفَىَ باللهِ شَهِيداً»** بأنك رسوله والآية مسوقة لبيان جلالة منصبه صلى الله عليه وسلم، ومكانته عند الله بعد بيان بطلان زعمهم الفاسد فى حقه صلى الله عليه وسلم بناءً على جهلهم بشأنه الجليل صلوات الله عليه إلى يوم الدين.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«فَمَا لَكُمْ فى الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ واللهُ أرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أتريدُونَ أن تَهْدُوا مَنْ أضَلَّ اللهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبيلاً* ودُّوا لَوْ تَكْفُرونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَواءً فلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجرُوا فى سَبيلِ اللهِ فَإنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُموهُمْ وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِياً ولاَ نَصِيراً* إلاَّ الّذِينَ يَصِلُونَ إلى قوْمٍ بيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أوْ جَاؤكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أنْ يُقَاتِلُوكُمْ أوْيُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ولَوْشَاءَ اللهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فإن اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وألْقَوْا إلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً»

سورة النِّساء (الآية: ٨٨ ـ ٩٠)

في الواحدي: قال عبدالله بن ثابت: إنَّ قوماً خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أُحد فرجعُوا، فاختلف فيهم المسلمون فقالت فرقة: نقتلهم، وقال فرقة لا نقتلهم، فنزلت هذه الآية. رواه البخارى عن بندار، ورواه مسلم عن عبدالله بن معاذ عن أبيه كلاهما عن شعبة* وقال أبوسلمة بن عبدالرحمن: حدثني أبى أن قوماً من العرب أتوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمُوا فأصابُوا وباءً بالمدينة وحماها، فأركسوها، فخرجوا من المدينة فاستقبلهم نفرٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: مالكم رجعتُم؟ فقال: أصبنا وباء المدينة فاجتويناها، فقالوا: ما لكم في رسول الله أسوة حسنة؟ فقال بعضهم: نافقُوا، وقال بعضهم لم ينافقُوا: هم مسلمون. فأنزل الله تعالى **«فَمَا لَكُمْ فى المنافقين فئتين والله أرْكَسهم بما كسبُوا..»** الآية* وقال مجاهد في هذه الآية: هم قوم خرجوُا من مكّة حتى جاؤا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون، ثم ارتدُّوا بعد ذلك، فاستأذنوا النّبي صلى الله عليه وسلم إلى مكّة ليأتُوا ببضائع لهم يتّجرون فيها، فاختلف فيهم المؤمنون، فقائل يقول: هم منافقون، وقائل يقول: هم مؤمنون، فبيّن الله تعالى نفاقهم، وأنزل هذه الآية، وأمر بقتلهم فى قوله: **«فإن تولَّوْا فخُذُوهم واقتلُوهم**

حيث ثقفتموهم» فجاؤا ببضائعهم إلى هلال بن عويمر الأسلمي، و بينه و بين النبي صلى الله عليه وسلم حلف، وهو الذي حصر صدره أن يقاتل المؤمنين، فرفع عنهم القتل بقوله: «إلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إلى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ ميثَاقٌ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أن يُقَاتِلُوكُمْ..» وكذا في الخطيب، وفي القرطبي: روى مسلم عن زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى أحد فرجع ناس ممن كان معه، فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين، فقال بعضهم نقتلهم ..الخ. ما تقدم في الواحدى. والمعنيُّ بالمنافقين هنا عبدالله بن أبيّ وأصحابه الذين خذلُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحد ورجعُوا بعسكرهم بعد أن خرجُوا. وفي القرطبي أيضاً قال ابن عباس: هم قوم بمكة آمنوا وتركوا الهجرة. قال الضحاك: وقالُوا: إن ظهر محمد صلى الله عليه وسلم فقد عرفنا، وإن ظهر قومنا فهو أحبُّ إلينا، فصار المسلمون فيهم فئتين، قوم يتولّوْنهم وقوم يتبرّؤن منهم فقال الله عزّ وجلّ «فَمَا لَكُمْ فى المنافقين فئتين» وعبارة الطبرى: عن زيد بن ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم لمّا خرج إلى أحد رجعت طائفة ممن كان معه، فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم فرقتين: فرقة تقول نقتلهم، وفرقة تقول لا، فنزلت هذه الآية «فَمَا لَكُمْ فى المنافقين فئتين والله أرْكَسَهُمْ بما كَسَبُوا أتريدُون أن تهدوا من أضَلَّ الله..» فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة: إنها طيبة، وإنَّها تنفى خبثها كما تنفى النّار خبث الفضة. قلتُ: فقوله عليه الصلاة والسلام: [إنها طيبة] ..الخ. زيادة للترمذي. وقال حديث حسن صحيح. وهذه الزيادة تتّفق مع قول من قال هم المنافقون الذين جاؤا المدينة يزعمون أنهم مهاجرون، ثم خرجُوا منها مُعْتَلّين بوبائها ..الخ. وفي الغرائب: وعن عكرمة هم قوم أخذوا أموال المشركين وانطلقوا بها إلى اليمامة. وقيل: هم العرنيُّون الذين أغارُوا على السّرح وقتلُوا يساراً: مولى النبي صلى الله عليه وسلم. وقال ابن زيد: نزلت في أهل الإفك. قال الحسن: سمّاهم المنافقين، وإن أظهروا الكفر باعتبار حالهم التي كانُوا عليها. وقوله تعالى: «فَمَا لَكُمْ» أي ما شأنكم صرتم «فى المنافقين فئتين» فرقتين «والله أرْكَسَهُمْ» ردّهم إلى الكفر والجملة حال من المنافقين وهو الظاهر، أو مستأنفة، والركس والإركاس ردُّ الشيء مقلوباً، و يقال للرفث الركس لأنّه ردّ إلى حالة خسيسة، وهي حال النجاسة، و يسمى رجعياً أيضاً لذلك، والمعنى: أنهم ردُّوا إلى أحكام الكفار من الذّل والصغار والسبى والقتل «بِمَا كَسَبُوا» أي

بما أظهروا من الارتداد بعد ما كانوا على النفاق «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ» أي أضله «اللهُ» أي تعدوهم من جملة المهتدين، والاستفهام في الموضعين للإنكار والتوبيخ، أي لا ينبغي لكم أن تختلفوا في قتلهم، ولا ينبغي أن تعدُّوهم في المهتدين، والتوبيخ للفريق القائل للنبي لا تقتلهم. أي ينبغي لكم أن تجمعوا على قتلهم بظهور كفرهم «وَمَنْ يُضْلِلِ» أي يُضلله «اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً» طريقاً إلى الهدى «وَدُّوا» تمنَّوْا «لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ» أنتم وهم «سَوَاءً» في الكفر «فَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ» تُوالونهم وإن أظهروا الإيمان. والمراد النهي عن أن يتّخذ منهم وليٌّ ولو واحداً «حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ» أي الهجرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما يخرج للقتال في سبيله مخلصين صابرين محتسبين. والهجرة على ثلاثة أقسام: هجرة المؤمنين في أول الإسلام، وهي قوله تعالى: «للفقراء المهاجرين» وقوله: «وَمَنْ يَخرج من بيتِهِ مُهَاجِراً إلى الله ورسُولِهِ» ونحوهما من الآيات. وهجرة المنافقين: وهي خروج الشخص مع رسول الله صلى الله عليه وسلم صابراً محتسباً لا لأغراض الدنيا، وهي المرادة هٰهنا. وهجرة من جميع المعاصي قال صلى الله عليه وسلم: [المهاجر من هجر ما نهى الله عنه] «فَإِنْ تَوَلَّوْا» أي أعرضوا عن التوحيد والهجرة. وأقاموا على ما هم عليه من النفاق «فَخُذُوهُمْ» بالأسر «وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» أي في حل أو حرم، فإن حكمهم حكم سائر المشركين قتلاً وأسراً، وهذا مما يدل على أنهم مرتدون عن الدين، وصرّحوا بالكفر علناً حتى أبيح قتلهم «وَلاَ تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِياً» تُوالونه «وَلاَ نَصِيراً» تنتصرون به على عدوكم «إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ» أي يلجئون و يستندون «إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ» أي عهد بالأمان، ولمن وصل إليهم، وهم الأسلميُّون، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وقّتَ خروجه إلى مكة، وكان قد وادع هلال بن عويمر الأسلمي على أن لا يعينه ولا يعين عليه، وعلى أن من وصل إلى هلال ولجأ إليه فله من الجوار مثل الذي لهلال، وقيل: هم بنو بكر بن زيد، وقيل: هم خزاعة، والمعنى: أن من كان دخل في عهدٍ من كان داخلاً في عهدكم فهم أيضاً داخلون في عهدكم «أَوْ جَاؤُكُمْ» عطف على الصلة، أي أو الذين جاؤكم «حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ» أي ضاقت عن «أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ» وهم بنو مدلج جاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم غير مقاتلين «أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ» معكم. أي ممسكين عن قتالكم وقتالهم فلا تتعرّضوا إليهم بأخذ ولا قتل، وهذا وما بعده

منسوخ بآية السيف الآمرة بقتالهم سواء قاتلوا أو لا، وسواء التجاؤا إلى المعاهدين أوْ لا *
وعبارة الخازن: وقال جماعة من المفسرين: معاهدة المشركين وموادعتهم في هذه الآية منسوخة بآية السيف، وذلك لأن الله لمّا أعزّ الإسلام وأهله أمر أن لا يقبل من مشركي العرب إلا الإسلام، أو القتل* ولكن يقال: إن آية السيف عامّة وما من عامّ إلا خصص، وقد خصص عمومها بغير المؤمنين والمعاهدين مثل قوله تعالى: «**إلاّ الّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ المشركين**» وقوله تعالى: «**ولَوْ شاءَ اللهُ**» تسليطهم عليكم «**لَسَلَّطَهُمْ عليكُمْ**» بأن يقوى قلوبهم بإزالة الرعب عنها «**فلقاتَلُوكُمْ**» ولكنه لم يشأه فألقى في قلوبهم الرعب «**فإن اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وأَلْقَوْا إليكُمُ السَّلَمَ**» أي انقادوا للصلح والأمان ورضوا به «**فَمَا جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً**» طريقاً بالأخذ والقتل.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَمَا كَانَ لِمؤمِنٍ أنْ يقْتُلَ مُؤمِناً إلاّ خطأً ومَنْ قَتَلَ مُؤمِناً خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أَهْلِهِ إلاّ أنْ يَصَّدَّقُوا فَإنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لكُمْ وَهُوَ مُؤمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ وإنْ كَانَ مِنْ قوْمٍ بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إلى أهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنْ اللهِ وكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً»

سورة النّساء (الآية: ٩٢)

في الواحدي: حدّث عبدالرحمن بن القاسم عن أبيه أن الحارث بن زيد كان شديداً على النبي صلى الله عليه وسلم فجاء وهويُريد الإسلام فلقيه عياش بن أبي ربيعة والحارث يريد الإسلام وعياش لا يشعر فقلته، فأنزل الله تعالى هذه الآية «**وما كانَ لِمُؤمِنٍ أنْ يَقْتُلَ مُؤمِناً إلاّ خطأً..**» وشرح الكلبي هذه القصّة فقال: إن عياش بن أبي ربيعة المخزومي أسلم، وخاف أن يظهر إسلامه، فخرج هارباً إلى المدينة فقدمها، ثم أتى أطماً من آطامها، فتحصّنَ فيه، فجزعت أمّهُ جزعاً شديداً، وقالت: لابنها أبي جهل والحارث بن هشام، (وهما لأمّه) لا يظلنى سقف بيْت، ولا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى تأتونى به، فخرجا في طلبه. وخرج معهم الحارث بن زيد بن أبي أنيسة حتى أتوا المدينة،

فأتوْا عيّاشاً وهو في الأطم، فقالا له: انزل فإنّ أمك لم يأوها سقف لبيت بعدك، وقد حلفت لا تأكل طعاماً ولا شراباً حتى ترجع إليه، ولك الله علينا ألا نكرهك على شيء، ولا نحول بينك و بين دينك، فلما ذكرا له جزع أمّه، وأوثقا له نزل إليهم، فأخرجوهُ من المدينة، وأوثقوهُ، وجلده كل واحد مائة جلدة، ثم قدمُوا به على أمّه، فقالت: والله لا أحلك من وثاقك حتى تكفر بالذي آمنت به، ثم تركوه موثوقاً في الشمس، وأعطاهم بعض الذي أرادوا، فأتاه الحارث بن زيد، وقال عياش: والله لئن كان الذي كنت عليه هدى لقد تركت الهدى، وإن كان ضلالة لقد كنت عليها، فغضب عياش من مقاله: وقال: والله لا ألقاك خالياً إلاّ قتلتك، ثم أن الحارث أسلم بعد ذلك، وهاجر إلى المدينة، وليس عياش يومئذٍ حاضراً ولم يشعر بإسلامه، فبينما هو يسير بظهر قبا إذ لقي الحارث بن زيد، فلمّا رآهُ حمل عليه فقتله، فقال الناس: أيُّ شيء صنعت؟ إنه قد أسلم، فرجع عياش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال يا رسول الله: كان من أمرى وأمر الحارث ما قد علمت، وإنى لم أشعر بإسلامه حين قتلتُهُ، فنزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى: «**وما كَانَ لمؤمنٍ أنْ يَقْتُلَ مؤمناً إلاّ خطأً..**» الآية* قال نزل هذا في رجل قتله أبو الدرداء كانُوا في سريّة، فعدل أبو الدرداء إلى شعب يريد حاجةً له، فوجد رجلاً من القوم في غنم لَهُ، فحمل عليه بالسيف، فقال: لا إله إلاّ الله، قال: فضربه، ثم جاء بغنمه إلى القوم، ثم وجد في نفسه شيئاً، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر ذلك لَهُ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ألا شققت عن قلبه؟] فقال: ما عسيت أجد، هل هو يا رسول الله إلاّ دمٌ أو ماء، قال: فقد أخبرك بلسانه فلم تصدقه؟ قال: كيف بي يا رسول الله؟ قال: فكيفَ بلا إله إلاّ الله. حتى تمنيتُ أن يكون ذلك ابتداء إسلامي. قال: ونزل القرآن «**وما كَانَ لمؤمنٍ أنْ يَقْتُلَ مؤمناً إلاّ خطأً..**» حتى بلغ «**إلاّ أنْ يَصّدقُوا**» قال: إلاّ أن يضعُوها* وعلى كل فسواءٌ قلنا إنَّ الآية نزلت في عياش بن أبي ربيعة وقتيله، أم في أبي الدرداء وصاحبه، أم غير ذلك فقد أرسلت الآية أحكاماً شرعية على كل من يقتل مؤمناً خطأً إلى يوم الدين، فعليه كفارة، وهي عتق رقبة مؤمنة، فإن عجز، فالصيام، والدية كما سيأتى إيضاحه في الشرح إن شاء الله تعالى. قوله: «**وما كانَ لِمُؤمنٍ أنْ يَقْتُلَ مؤمناً**» أي لا يليق ولا يصحُّ أن يصدر منه قتلٌ له «**إلاّ خطأً**» أي مخطئاً في قتله من غير قصد، ونصب خطأً على الحال. أي وليس من شأن المؤمن أن يقتل

مؤمناً في حالة من الأحوال إلا حال الخطأ، وإما مفعول لأجله أي لا يقتله لعلّةٍ إلاَّ للخطأ، وقيل: إلاَّ: بمعنى ولا ، أي ليس له قتله في حال من الأحوال ولا خطأ. **«وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِناً خطأً»** كأنْ قصد رمي غيره كصيد أو شجر فأصابه، أو لم يعلم بإسلامه فظنه حربياً فقتله **«فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ»** أي فعليه وجوباً تحرير رقبة كاملة الرقّ، فلا يجزى مكاتب كتابة صحيحةٍ، ولا أم ولد، والتحرير الاعتاق، و يعبّر عن النَّسَمَة بالرقبة، كما يعبّر عنها بالرأس على شرط **«مُؤمِنةٍ»** أي محكوم بإسلامها، وإن كانت صغيرة، وكذلك عليه **«وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ»** أي مؤداة **«إِلَى أَهْلِهِ»** أي ورثة المقتول يقتسمونها كسائر المواريث. ومن يختص بها من أب ونحوه دون الورثة فقد عَصَى الله تعالى واستحقّ دخول النار، إذ لا فرق بين هذه الدية، و بين سائر الأموال، وفي أنه يُقْضى منها الدَّيْن، و ينفذ منها الوصيّة، و يقسم الباقي بين الورثة على فرائض الله لما روى أن امرأة جاءت في أيام عمر تطلب نصيبها من دية الزوج، فقال عمر: لا أعلم لك شيئاً، إنما الدية للعصبة الذين يعقلون عنه، فشهد بعض الصحابة بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن تورّث الزوجة من دية زوجها، فقضى عمر بذلك* وعن ابن مسعود: يرث كل وارث من الدية غير القاتل* وعن شريك: لا يُقضى من الدّية ولا تُنفَّذ وَصيّتُه (الغرائب والخازن)* وقوله **«إلاَّ أنْ يَصَّدَّقُوا»** أن يتصدّقوا بها عليه بأن يعفُوا عنه، وسمى العفو عنها صدقة حثاً عليها، وتنبيها على فضله، قال عليه الصلاة والسلام: [كل معروف صدقة] و بيّنت السنة أنَّ دية الخطأ مائة من الإبل: عشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لبون، وعشرون ابن لبون، وعشرون حقّة، وعشرون جذعة، وإن عاقلة القاتل تتحملها عنه، وهم عصبته إلاَّ أصله وفرعه، موزّعة عليهم على ثلاث سنين على الغنيّ منهم نصف دينار، والمتوسط ربع دينار كل سنة، فإن لم يستطيعوا فمن بيت المال، فإن تعذّر فعلى الجاني **«فإن كانَ»** يعني المقتول **«مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهوَ مُؤمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤمِنَةٍ»** أراد أنه إذا كان رجل مسلم في دار الحرب وهو منفرد مع قوم كفار فقتله من لم يعلم بإسلامه، فلا دية عليه، وعليه الكفارة، وقيل: المراد منه أنّه إذا كان المقتول مسلماً في دار الإسلام، وهو من نَسَب قوم كفار وأهله الذين يرثونه في دار الحرب. وهم حرب للمسلمين ففيه الكفارة ولا دية لأهله. وكان الحرث بن زيد من قوم كفار حرب للمسلمين، فكان فيه الكفارة تحرير رقبة مؤمنة دون الدية لأنه لم يكن بين قومه و بين المسلمين عهد* **«وإنْ كانَ مِنْ قَوْمٍ**

بـيْنَـكُـمْ وبَيْنَهُمْ ميثاقٌ» أي عهد «فَدِيَةٌ مُسَلّمَةٌ إلى أهْلِهِ وتحريرُ رقبة مُؤمنَة» أي إذا كـان المقـتـول كافراً معاهداً، أو ذمياً فتجب فيه الدية والكفارة. «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ» يعني الرقبة «فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ متتابعين» أي فعليه صيام شهرين متتابعين بين أيامها وشهريْها بـدلاً عـن الـرقـبـة، حتّى لو أفطر يوماً واحداً لغَيْر حيض أو نفاس، وجب الاستئناف، ولم ينـتـقـل تـعـالى إلى الطعام كالظهار، و به قال الشافعي رضي الله عنه في أظهر قوليْه. أي اقـتـصـاراً منه على الوارد من الاعتاق، ثم الصوم ولم يحمل المطلق هنا على المقيد فيما ذكر، لأنَّ المطلق إنما يحمل على المقيّد في الأ وصاف دون الأصول كما حمل مطلق اليد في التيمّم على تـقـيـيـدهـا بـالمرافـق في الـوضوء، ولم يحمل ترك الرأس والرجلين فيه على ذكرها في الوضوء* وعن مسروق: أن الصوم بدل من مجموع الرقبة والدية «تَوبَةً مِنَ اللهِ» أي شرع لـكـم مـا شـرع مـن أحكام قتل الخطأ، قبولاً من الله ورحمة منه من تاب الله عليه إذا قبل تـوبـتـه. ومعنى التوبة عن الخطأ أنّه لا يخلو من ترك احتياط، من ندم وأسف على ما فرط منـه. ويجوز أن يـكـون المـعنى نـقلكم من الرقبة إلى الصوم توبة منه، أي تخفيفاً منه لأن التـخـفـيف من لوازم التوبة. وتوبةً: نصبت على المصدر. أي وتاب عليكم توبة، أو على المـفـعـول له أي شرع لكم ذلك توبة «وكانَ اللهُ» أي ولم يزل «عَليماً» أي بأحوالكم، وبمـا يـصـلحكم في الدنيا والآخرة «حكيماً» فيما دبّره لكم من نصب الزواجر بالكفارات وغيرها فالزموا أوامره و باعدوا زواجره لتفوزوا برضوانه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))
«وَمَـنْ يَـقْتُلْ مُـؤْمِناً مُتَعَمِّداً فجزاؤهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فيها وغَضِبَ اللهُ عَلَيْه ولَعَنَهُ وأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً» سورة النِّساء (الآية: ٩٣)

حـدَّث الـكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس: أن مقيس بن ضبابة وجد أخاه هشام بـن ضبابة قتيلاً في بني النجار. وكان مسلماً، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر له ذلك، فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معه رسولاً من بني فهد، فقال له: ائت بني الـنـجـار فـأقرئهم السلام، وقل لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم إن عَلمتُمْ قـاتـل هـشـام بن ضبابة أن تدفعوه إلى أخيه فيقتص منه، وإن لم تعلموا له قتيلاً أن تدفعُوا إلـيـه ديـتـه، فـأعـطـوه مائةً من الإبل، ثم انصرفا راجعين نحو المدينة، و بينهما و بين المدينة

قريب، فأتى الشيطان مقيساً فوسوس إليه، فقال: أي شيء صنعت؟ تقبل دية أخيك فيكون عليه سبّةً، اقتل الذي معك، فيكون نفس مكان نفس، وفضل الدية، ففعل مقيس ذلك، فرمى الفهدى بصخرة فشخ رأسه، ثم ركب بعيراً منها، وساق بقيّتها راجعاً إلى مكة كافراً، وجعل يقول في شعره:

قتلتُ به فهراً وحمّلت عقله سُراة بنى النجار أربابَ فارع
حللتُ به وترى وأدركت ثأرتي وكنتُ إلى الأوثان أوّلَ راجع

فنزلت هذه الآية «**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمناً متعمداً..**» الآية. ثم أهدر النبي صلى الله عليه وسلم دمه يوم فتح مكة، فأدركه الناس في السوق فقتلوه* قلت: وقد أجمع الأئمة أنها نزلت في كافر قتل مؤمناً. وكذا في الغرائب والخطيب والخازن والطبرى، و بقية التفاسير قوله تعالى: «**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤمِناً مُتَعَمِداً**» بأن يقصد قتله بما يقتل غالباً عالماً بإيمانه «**فجزَاؤهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فيها**» يعنى بكفره وارتداده وهو الذي استثناه النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة عمّن أمّنَهُ من أهلها، فقتل وهو متعلق بأستار الكعبة، والمراد بالخلود في حق المؤمن المكث الطويل، فإنَّ الدلائل متظاهرة على أن عصاة المسلمين لا يدوم عذابهم، ولهذا لم يذكر في الآية: أبداً، وما روى عن ابن عباس أنه قال: قاتل العمد لا تقبل توبته. كما رواه البخارى أراد به التشديد كما قاله البيضاوى إذ روى عنه خلافه ورواه البيهقى في سننه، و بيّنت آية البقرة، أن قاتل العمد يقتل، وأن عليه الدية من ماله، وقد أجمع العلماء على أن العاقلة لا تحمل شيئاً من دية العمد. و بينت السنة أنَّ بين العمد والخطأ قتلاً يُسمّى شبه العمد. وهو أن يقتله بمالا يقتل غالباً كمن ضربه بعصا خفيفة فقُتل، فلا قصاص فيه، بل فيه ديّة العمد في الصفة والخطأ في التأجيل والحمل* وفي القرطبي: وأنكر مالك قتل شبه العمد، وقال: ليس في كتاب الله إلاّ العمد والخطأ. وذكره الخطابيُّ أيضاً عن مالك وزاد: وأمّا شبه العمد فلا نعرفه، وقال أبوعمر: أنكر مالك والليث بن سعد شبه العمد، فمن قُتل عندهما بمالا يقتُل مثله غالباً كالعضة واللطمة وضربة السوط والقضيب وشبه ذلك فإنه عمد. وفيه القود. قال أبوعمر: وقال يقولهما جماعة من الصحابة والتابعين. وذهب جمهور فقهاء الأمصار إلى أن هذا كله شبه عمد، و يؤيدهم ما روى أبوداود من حديث عبدالله بن عمرو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [ألاَ إنَّ دية الخطأ شبه العمد ما كان بالسوط والعصا مائة من الإبل، منها أربعون

في بطونها أوْلادُهَا] وروى الدارقطني عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [العمد قود اليد، والخطأ عقل، ولا قود فيه، ومن قُتِل فى عِمِّيَّةٍ: بحجرٍ أو عصا، أو سوط فهو دية مُغلّظة فى أسنان الإبل] وروى أيضاً من حديث سليمان بن موسى عن عمروا بن شعيب عن أبيه عن جدّه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [عقل شبه العمد مغلظ مثل قتل العمد. ولا يقتل صاحبه] وهذا نصٌّ في قتل شبه العمد. والدية المغلظة في شبه العمد عند عطاء والشافعي: ثلاثون حقّه، وثلاثون جذعة، وأربعون خلفه. الحقّه: هي النّاقة التي دخلت في السنة الرابعة، والجذعة: هي التي دخلت في الخامسة. وإذا دخل البعير في العاشرة: فهو خلف. قلت: وعند عدم وجود الإبل فهي ألف دينار ذهباً، أو اثنا عشر ألف درهم من الفضة وعليها علماء الأمصار، واختلف العلماء في الجماعة يقتلُون رجلاً واحداً خطأ، فقالت طائفة: على كل واحد منهم كفارة. وهو قول الحسن وعكرمة والنخعي والحارث العكليّ ومالك والثورى والشافعي وأحمد، وإسحاق وأبوثور وأصحاب الرأى* وقالت طائفة: عليهم كلهم كفارة واحدة هكذا قال أبوثور، وحكى ذلك عن الأوزعى، وفرّق الزهرى بين العتق والصوم، فقال في الجماعة يرمون بالمنجنيق فيقتلون رجلاً: عليهم كلهم عتق رقبة، وإن كانُوا لا يجدون فعل كل واحد منهم صوم شهرين متتابعين* قوله: «**وغَضِبَ الله عليهِ ولَعَنهُ**» أبعده من رحمته «**وأعدَّ لَهُ عَذَاباً عظيماً**» في النار، وهذا مؤوّل بمن يستحل القتل بدون حق إذ لا يحل قتل النفس إلاَّ بثلاثة أمور. زنا بعد إحصان، وردةٌ بعد إيمان، والنفس بالنفس. والأحاديث كثيرة في بيان عظم جرم قتل المؤمن. فيها ما روى عن عبدالله بن بريدة عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [قتْلُ المؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا] وقال عبدالله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أوّل ما يُحَاسَبُ به العبد الصلاة، وأوّل ما يُقضى بين الناسِ في الدّماء] وعن عبدالله بن عباس أنه سأله سائل فقال: يا أبا العباس: هل للقاتل توبة؟ قال ابن عباس: ويحك!! أنّى له توبة!! سمعتُ نبيّكم صلى الله عليه وسلم يقول: [يأتى المقتول مُعَلّقاً رأسه بإحدى يديه مُتَلَبِّياً قاتله بيده الأخرى تشخبُ أوداجه دماً حتّى يوقفا، فيقول المقتول لله سبحانه وتعالى: رب، هذا قتلني، فيقول الله تعالى للقاتل: تَعِسْتَ و يُذهب به إلى النّار]* وعن الحسن قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما نازلتُ ربّى في شيء ما نازلتُه ـــ أي راجعتُه وسألته

مـرّة بـعـد أخرى ــ في قتل المؤمن فلم يُجبنى] وأخرج الإمام أحمد عن أبي ادريس، قال: سمعت معاو ية رضي الله عنه يقول: سمعت النبيّ صلى الله عليه وسلم يقول: [كُلُّ ذنب عسى الله أن يـغـفـره إلاّ الـرجـل يمـوت كافراً، أو الرجل يقتل مؤمناً متعمّداً] عصمنى الله وإيّاكم من ذلك برحمته ورضوانه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الّـذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فى سَبيلِ الله فَتَبَيَّنوا ولاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْـقَـى إليْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مـؤْمِناً تَبْـتَـغُونَ عَرَضَ الْحيَاةِ الدُّنيا فَعِنْدَ الله مَـغَـانِـمَ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُـنْـتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ الله عَلَيْكُمْ فَتَبَـيَّـنُوا إنَّ الله كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خبيراً» سورة النّساء (الآية: ٩٤)

في الـواحـدي: قـال ابـن عـبـاس: لحق المسلمون رجلاً في غنيمة له، فقال: السلام عليكم، فقتلوه، وأخذوا الغنيمة، فنزلت هذه الآية **«ولاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَ إليكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مؤمِنـاً تبتغُونَ عرضَ الحياة الدنيا»** تلك الغنيمة رواه البخارى عن عليّ بن عـبـدالله، ورواه مـسـلـم عـن أبى بـكـر بـن شيبة: كلاهما عن سفيان. وقال الحسن: إن أصـحـاب الـنبي صلى الله عـلـيه وسلم خرجُوا يطوفون فلقُوا المشركين فهزموهم، فشذّ منهم رجـلٌ، فـتـبـعه رجل من المسلمين. وأراد متاعه، فلمّا غشيه بالسّنان قال: إنى مسلم: إنى مسـلم، فكذّبه، ثم أوجره بالسّنان فقتله، وأخذ متاعه، وكان قليلاً، فرفع ذلك إلى رسول الله صلى الله عـلـيـه وسلم فقال: قتلته بعدما زعم أنه مسلم؟ فقال يا رسول الله: إنما قالها تـعـوّذاً قـال: فَـهَلاّ شققت عن قلبهِ لتنظر صادق هو أم كاذب؟ قال: فما لبث القاتل أن مـات. فـدفـن فـأصـبـح وقـد وضـع إلى جانب قبره. قال: ثم عادوا فحفروا له، وأمكنُوا، ودفـنـوه، فـأصـبـحوا وقد وضع إلى جانب قبره مرتين أو ثلا ثاً، فلمّا رأوا الأ رض لا تقبله ألـقـوْه في بعض تلك الشعاب، قال: وأنزل الله تعالى هذه الآية• قال الحسن: إنَّ الأ رض تحـبـس من هو شرٌمنه، ولكن وعظ القوم ألاّ يعودوا• وقال السّدى: بعث رسول الله صلى الله عـلـيـه وسـلم أسامة بن زيد على سريّة، فلقى مرداس بن نهيك، فقتله، وكان من أهل فـدك، ولم يُسلم من قومه غيره، وكان يقول: لا إله إلاّ الله محمد رسول الله و يُسلّم عليهم، قـال أسـامـة: فـلمّا قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبرته، فقال: قتلت رجلاً

يقول لا إله إلا الله!! فقلت: يا رسول الله: إنما تعوّذ من القتل. فقال: كيف أنت إذا خاصمك يوم القيامة بلا إله إلا الله؟ قال: فمازال يردّدها عليَّ: أقتلت رجلاً يقول لا إله إلا الله. حتى تمنيتُ لو أن إسلامى كان يومئذٍ ــ فنزلت ــ «**إذا ضربتم في سبيل الله فتبيّنوا..**» الآية» وعبارة الخطيب. روى أن سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم غزت أهل فدك، فهربوا، وبقى رجل يقال له مرداس لأنه كان على دين المسلمين، فلمّا رأى الخيل خاف أن يكونُوا من غَيْر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فألجأ غنمه إلى عاقول من الجبل، وصعد هو إلى الجبل، فلمّا تلاحقت الخيل سمعهم يكبّرون، فلمّا سمع التكبير علم أنهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبّر ونزل، وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. السلام عليكم، فتغشاهُ أسامة بنَ زيد فقتله، واستاق غنمه، فنزلت، ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبروه، فوجَدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وجداً شديداً، وقد كان سبقهم قبل ذلك الخبر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قتلتموه إرادة ما معه!! ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على أسامة بن زيد، فقال يا رسول الله: استغفر لى فقال: وكيف بلا إله إلاَّ الله؟ قال أسامة: فما زال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكررّها عليّ حتى وددت أنى لم أكن أسلمتُ إلا يومئذٍ، ثم إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم استغفر لى ثلاث مرات، وقال: اعتق رقبةً وحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ديته إلى أهله، وردَّ عليه غنيماته على طريق الإئتلاف» وهناك روايات أخرى في التفاسير منثورة بألفاظ متقاربة المعنى، ولعل تلك الأقوال جرت في زمان متقارب فنزلت الآية في الجميع، وقد دلت الآية على أن المسلم إذا لقى الكافر ولا عهد له جاز له قتله، فإن قال لا إله إلا الله لم يجز قتله لقوله عليه الصلاة والسلام: [أمرتُ أن أقاتل الناسّ حتى يقولُوا لا إله إلاَّ الله» وذلك لأنه اعتصم بعصام الإسلام المانع من دمه وماله وأهله، فإن قتله بعد ذلك قُتل به، وإنما سقط القتل عن هؤلاء لأجل أنهم كانوا في صدر الإسلام. وتأوّلُوا أنه قالها متعوّذاً وخوفاً من السلاح. قوله تعالى: «**وَإِذَا ضَرَبْتُمْ**» أي سافرتم للجهاد «**فى سبيل الله فَتَبَيَّنُوا**» أي تثبّتوا. أي اطلبوا التثبت أو البيان من لقيكم «**ولاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إليكُمُ السّلاَمَ**» أي تحية الإسلام. أو الانقياد لكم بقول كلمة الحق، وهى الشهادة التي هى أمارة على الإسلام. واللام في قوله: لمن. لام التبليغ هنا ومن موصولة، أو موصوفة. وألقى هنا ماضى اللفظ إلاَّ

أنّه بمعنى المستقبل. أي لمن يلق، لأن النهى لا يكون عمّا وقع وانقضى، والماضى إذا وقع صلة صلح للمضى والاستقبال. «**لَسْتَ مُؤمِناً**» وإنما قلتَ هذا تقية لنفسك ومالك فتقتلوه. وهو عطف على قوله: ولا تقولوا. أي فلا تقتلوه وهذا هو المقصود بالتوبيخ والنهى «**تَبْتَغُونَ**» تطلبون بذلك «**عَرَضَ الحياة الدنيا**» من الغنيمة. وتبتغون حال من فاعل لا تقُولوا، لكن لا على أن يكون النهى راجعاً للقيد فقط كما في قولك: لا تطلب العلم تبتغى به الجاه. بلى على أنه راجع إليهما جميعاً. أي لا تقولوا له ذلك، ولا تبتغُوا العرض الفانى. «**فَعِنْدَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ**» تغنيكم عن قتل مثله لما له، وقوله: «**فعند الله**» تعليل للنهى المذكور، والمغانم جمع مغنم، وهو يصلح للمصدر والزمان والمكان، ثم يطلق على مايؤخذ من مال العدوّ اطلاقاً للمصدر على اسم المفعول. «**كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ**» تُعصم دماؤكم وأموالكم بمجرد نطقكم بالشهادة. والمقصود: التعريض. أي كنتُم مثل الرجل المذكور في مبادى الإسلام لا يظهر منكم للناس غير ما ظهر منه لكم من تحيّة الإسلام ونحوها «**فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ**» بالاشتهار بالإيمان والاستقامة أي قبل منكم تلك المرتبة ولم يأمر بالتفحص عن سرائركم «**فَتَبَيَّنُوا**» أن تقتلوا مؤمناً، وافعلُوا بالداخل في الإسلام كما فعل بكم، فتبيّنوا: تأكيد لفظى للأول، وقيل: ليس تأكيداً لاختلاف متعلقهما، فإن تقدير الأوّل: فتبيَّنوا فى أمر من تقتلونه، وتقدير الثاني: فتبيّنوا نعمة الله، أو تلبَّثُوا فيها، والسياق يدل على ذلك لأن الأصل عدم التأكيد. «**إنَّ اللهَ كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خبيراً**» فيجازيكم به.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ المؤمنينَ غَيْرُ أُولى الضَّرَرِ والْمُجَاهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهِ بأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدينَ دَرَجَةً وكُلاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدينَ على الْقَاعِدِينَ أجْراً عَظِيماً* دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رحيماً» سورة النّساء (الآية: ٩٥ ـ ٩٦)

في الواحدي: قال زيد بن ثابت كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم حين نزلت «**لا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ المؤمنينَ والمجاهِدُونَ فى سبِيلِ الله**» ولم يذكر أولى الضرر. فقال

ابن مكتوم: كيف وأنا أعمى لا أبصر، قال زيد: فتغشّى النبيَّ صلى الله عليه وسلم في مجلسه الوحيُ، فاتكأ على فخذى، فوالذي نفسى بيده لقد ثقل عليَّ فخذى حتّى خشيتُ أن يرضها، ثم سُرّى عنه، فقال: [اكتب: **«لا يستوى الْقَاعِدُونَ من المؤمنين غير أولى الضرر»** فكتبها] رواه البخارى عن اسماعيل بن عبدالله، عن ابراهيم بن سعد بن صالح عن الزهرى* وفي رواية البراء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [ادع لى زيْداً، وقل له يجىء بالكتف والدواة، أو اللوح، وقال: اكبت لى **«لا يستوى القاعدون من المؤمنين»** (أحسبه قال: والمجاهدون فى سبيل الله) فقال: ابن مكتوم: يا رسول الله: بعيني ضرر، قال: فنزلت قبل أن يبرح **«غير أولى الضرر»**] رواه البخارى عن محمد بن يوسف، عن اسرائيل، عن أبى اسحاق* وهكذا في بقيّة التفاسير مع اختلاف في اللفظ دون المعنى* وقوله: **«لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمؤمِنِينَ»** عن الجهاد، وهذا بيان لتفاوت طبقات المؤمنين بحسب تفاوتهم في الجهاد بعد ما مرَّ من الأمر به وتحريضُ المؤمنين عليه ليأنف القاعدون عنه **«غَيْرُ أولى الضَّرَرِ»** من زمانة أو عمًى، أو نحوه كالعرج. **«والْمُجَاهِدُونَ فى سَبِيلِ الله بأمْوَالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ فَضَّلَ الله المُجَاهِدِينَ بأمْوَالِهِمْ وأنفُسِهِمْ على الْقَاعِدينَ درجةً»** يعنى فضلة في الآخرة قال ابن عباس: أراد بالقاعدين هنا أولى الضرر. أي فضل الله المجاهدين على أولى الضرر درجة لأن المجاهد باشر الجهاد بنفسه وماله مع النيّة، وألوا الضرر كانت لهم نيّة، ولم يباشروا الجهاد فنزلُوا عن المجاهدين درجة **«وَكُلاًّ»** من الفريقين **«وَعَدَ الله الْحُسْنى»** الجنّة بإيمانهم **«وفَضَّلَ الله المجاهدين»** في سبيل الله **«على القاعدينَ»** يعنى الذين لا عذر لهم، ولا ضرر **«أجْراً عَظِيماً»** أي ثواباً جزيلاً، ثم فسّر ذلك الأجر العظيم فقال: **«دَرَجَاتٍ مِنْهُ»** قال قتادة: كان يقال للإسلام درجة، وللهجرة في الإسلام درجة، وللجهاد فى الهجرة درجة، وللقتل في الجهاد درجة* وقال ابن زيد: الدرجات سبعة: وهي التي ذكر الله في سورة براءة حين قال: **«ذَلِكَ بأنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ولاَ نَصَبٌ»** إلى قوله: **«ولا يَقْطَعُونَ وَادِياً إلاَّ كُتِبَ لَهُمْ»*** وقال ابن محيْريز: الدرجات سبعون درجة ما بين كل درجتين سير الفرس الجواد المضمر سبعون سنة، روى مسلم عن أبى سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [من رضِيَ بالله رباً و بالإسلام ديناً وبمحمدٍ رسولاً وجبت له الجنّة. فتعجب لها أبوسعيد: فقال: أعدْها يا رسول الله عليَّ، فأعادها عليه، ثم قال:

وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجةٍ في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله] «دَرَجَاتٍ مِنْهُ» منازل بعضها فوق بعض من الكرامة وفيما ينالونه من الثواب الذي يكرمُهُم الله به «وَمَغْفِرَةً ورحمةً» منصوبان بفعلهما المقدر، بمعين وغفر لهم مغفرة، ورحمهم رحمة، أو أنهما معطوفان على درجات «وكانَ اللهُ غفُوراً» لأ وليائه لما عسى يفرط منهم. قال الرازي: المغفرة والغفران ستر الذنب، ومنه الغافر والغفور والغفّار لستره ذنوب العباد وعيوبهم، يقال: استغفر الله لذنبه. ومن ذنبه بمعنى واحد فغفر له، أي فستره عليه وعفا عنه «رَحِيماً» بأهل طاعته.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إنَّ الّـذِينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمِي أنْفُسِهِمْ قالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فى الأ رضِ قالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَا جِرُوا فِيهَا فأولئكَ مأوَاهُمْ جَهَنَّمُ وسَاءتْ مَصِيراً* إلاّ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والوِلْدَانِ لا يَسْتَطِيعُونَ حيلَةً ولاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً* فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللهُ أنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللهُ عَفُوّاً غَفُوراً»

سورة النّساء (الآية: ٩٧ - ٩٩)

في الواحدي: نزلت الآية في ناس من أهل مكّة تكلّموا بالإسلام ولم يهاجروا، وأظهروا الايمان وأسرُّوا النفاق، فلمّا كان يوم بدر خرجُوا مع المشركين إلى حرب المسلمين، فقُتِلوا، فضربت الملائكة وجوههم وأدبارهم، وقالوا لهم: ما ذكر الله سبحانه وتعالى* وكذا في الخطيب والقرطبي، وعبارته: المراد بها جماعة من أهل مكة كانُوا قد أسلموا وأظهروا للنبيّ صلى الله عليه وسلم الإيمان به، فلمّا هاجر النبي صلى الله عليه وسلم أقامُوا مع قومهم، وفتن منهم جماعة فافتتنُوا، فلمّا كان أمر بدر خرج منهم قوم مع الكفار، فنزلت الآية* وقيل: إنّهم لما استحقروا عود المسلمين. دخلهم شكٌّ في دينهم، فارتدُّوا فقتلُوا على الردّة، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين، وأكرهوا على الخروج، فأستغفروا لهم فنزلت الآية* وروى البخارى عن محمد بن عبدالرحمن قال:

قطع على أهل المدينة بعث ــ أي ألزمُوا بإخراج جيش لقتال أهل الشام في خلافة عبدالله بن الزبير على مكة ــ فاكتتبت فيه، فلقيت عكرمة مولى ابن عباس فأخبرته، فنهانى عن ذلك أشدّ النّهى، ثم قال: أخبرنى ابن عبّاس أن ناساً من المسلمين كانُوا مع المشركين ليكثّرُوا سواد المشركين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، يأتى السهمى فيُرمى به فيصيب أحدهم فيقتله، أو يضرب فيقتل، فأنزل الله تعالى «**إنَّ الّذِينَ توفَّاهُم الملائكة ظالِمِى أنفُسِهِم..**»* وفي الطبرى: عن عكرمة في قوله تعالى: إنَّ الّذِينَ توفَّاهُمُ الملائكة ظَالِمِى أنفسهم قالُوا فيمَ كُنتُم» إلى قوله «**وساءت مصيراً**» قال: نزلت في قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحرث بن زمعة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبى العاص بن منبه بن الحجاج، وعلى بن أميَّة بن خلف، قال: لمّا خرج المشركون من قريش وأتباعهم لمنع أبى سفيان بن حرب وعير قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وأن يطلبُوا ما نيل منهم يوم نخلة، خرجوا معهم بشبان كارهين كانُوا قد أسلموا، واجتمعُوا ببدر على غير موعد، فقُتِلُوا ببدر كفاراً، ورجعوا عن الإسلام، وهم هؤلاء الذين سميناهُم* وأخبر ابن وهب قال: سألته: يعنى ابن زيد عن قول الله: «**إنَّ الّذِينَ تَوفَاهُمُ الملائكةُ ظالمى أنفُسِهم..**» فقرأ حتى بلغ: «**إلاَّ المستضعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّساءِ والولدانِ**» فقال: لمَّا بعث النبيّ صلى الله عليه وسلم وظهر، ونبع الإيمان نبع النفاق معه، فأتى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجالٌ، فقالوا يا رسول الله: لولا أنا نخاف هؤلاء القوم يعذبوننا و يفعلون و يفعلون لأسلمنا، ولكنّا نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فكانوا يقولون ذلك، فلما كان يوم بدر، قام المشركون فقالُوا: لا يتخلّف عنا أحد إلاَّ هدمنا داره واستبحنا ماله، فخرج أولئك الذين كانُوا يقولون ذلك القول للنبي صلى الله عليه وسلم معهم، فقُتِلَتْ طَائفَة منهم، وأسرت طائفة، قال: فأما الذين قُتِلُوا فهم الذين قال الله فيهم «**إنَّ الّذِينَ توفاهُمُ الملائكة ظالمى أنفسهم..**» الآية. والأقوال كلها تكاد تجمع على أن الآية نزلت في جماعة أسلموا ولم يهاجروا فَقُتِلُوا يوم بدر مع الكفار* وقوله: «**إنَّ الّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمِى أنْفُسِهِمْ**» بالمقام مع الكفار وترك الهجرة. قال الجمهور: معنى تتوفاهم: تقبض أرواحهم عند الموت. ولا منافاة بينه و بين قوله: «**الله يتوفَّى الأنفُسَ**» «**قلْ يتوفاكم ملكُ الموتِ**» لأنه تعالى هو المتوفى والفاعل لكل الأشياء بالحقيقة إلاَّ أن الرئيس المفوّض إليه هذا العمل ملك

الموت، وسائر الملائكة أعوانه. وعن الحسن: توفّاهُمُ الملائكة: أي يحشرونهم إلى النار. أما قوله: «**ظالِمِي أنْفُسِهِمْ**» فمنصوب على الحال من مفعول توفى، والإضافة فيه لفظيّة، ولذا لم تفد تعريباً فصح وقوعه حالاً. والظلم قد يراد به الشرك هنا. «**إنَّ الشرك لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**» فالمراد أنهم ظالمون أنفسهم بنفاقهم وكفرهم، وتركهم الهجرة «**قَالُوا**» لهم موبخين «**فِيمَ كُنْتُمْ**» أي في أي حالة كنتُم في أمر دينكم؟ وهو سؤال تقرير وتوبيخ. أي كنتم في أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم أم كنتُم مشركين؟ «**قالُوا**» معتذرين ومواربين في جوابهم «**كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ**» أي عاجزين عن إقامة الدّين «**فى الأرْضِ**» أرض مكة، وهذا اعتذار غير صحيح إذ كانُوا يستطيعون الحيلة ويهتدون السبيل، ثم أوقفتهم الملائكة على دينهم فـ «**قَالُوا**» لهم توبيخاً «**أَلَمْ تَكُنْ أرضُ الله واسِعَةً فتُهَاجِرُوا فيهَا**»؟ من أرض الكفر إلى بلد آخر كما فعل غيركم. ومفاد هذا السؤال والجواب أنهم ماتُوا مسلمين ظالمين أنفسهم في تركهم الهجرة، وإلا فلو ماتُوا كافرين لم يُقل لهم شيء من هذا «**فأولئكَ مَأْواهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءتْ مَصيراً**» هي* وفي الآية الكريمة إشارة إلى وجوب المهاجرة من موضع لا يتمكن الرجل فيه من إقامة الدين بأي سبب كان. وقوله تعالى: «**إلاَّ المُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ والنِّسَاءِ والوِلْدانِ**» الذين صدقُوا في استضعافهم، وهم الذين «**لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلةً**» أي لا قوّة لهم على الهجرة ولا يملكون المال لينفقوه في سبيلها «**فأولئكَ عَسَى الله أنْ يَعْفُوَ عنْهُمُ**» أي عن خطر الهجرة بحيث يحتاج المعذور إلى العفو، وفي البرهان: وعَسَى ولعلَّ في كلام الله واجبتان، وإن كانتا رجاء وطمعاً في كلام المخلوقين، لأنَّ المخلوق هو الذي تعرض له الشكوك والظنون، والبارى سبحانه منزه عن ذلك. «**وكَانَ الله عَفُوّاً غَفُوراً**» أي مبالغاً في المغفرة، فيغفر لهم ما فرط منهم من ذنوبهم التي من جملتها القعود عن الهجرة إلى وقت الخروج، والولدان: كعباس بن ربيعة وسلمة بن هشام وغيرهما من الذين دعا لهم الرسول عليه السلام. قال ابن عباس: كنت أنا وأمي ممَّن عفا الله عنه بهذه الآية* وذلك أنه كان من الولدان إذ ذاك، وأُمّه هي أم الفضل بنت الحرث، واسمها لبابة، وهي أخت ميمونة رضي الله عنها، وأختها الآخرى لبابة الصغرى، وهنَّ تسع أخوات، قال النبيّ صلى الله عليه وسلم فيهنَّ: [الأخوات مؤمنات].

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وَمَنْ يُهَاجِرْ فى سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فى الأَرضِ مُراغَماً كثيراً وسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إلى اللهِ ورسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً»

سورة النّساء (الآية: ٩٩)

في الواحدي: قال ابن عباس في رواية عطاء: كان عبدالرحمن بن عوف يخبر أهل مكّة بما ينزل فيهم من القرآن، فكتب الآية التي نزلت «**إنَّ الَّذِينَ تَوفّاهُمُ الملائكةُ ظَالِمِى أنْفُسِهِمْ..**» فلما قرأها المسلمون، قال خبيب[1] بن ضمرة الليثيّ لبنيه، وكان شيخاً كبيراً: احملوني فإني لستُ مِنَ المستضعفين، وإني لا أهتدى إلى الطريق، فحمله بنوه على سريرٍ متوجّهاً إلى المدينة، فلمّا بلغ التنعيم أشرف على الموت. صفقق يمينه على شماله. وقال: اللهمَّ هذه لك وهذه لرسولك، أبايُعك على ما با يَعَتْكَ يدُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومات حميداً. فبلغ خبره أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: لو وافى المدينة لكان أتمّ أجراً، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي القرطبي: وذكر أبوعمر وأنه قد قيل فيه: خالد بن حزام بن خويلد ابن أخى خديجة رضي الله عنها، وأنّه هاجر إلى أرض الحبشة فنهشتْهُ حيّةٌ في الطريق فماتَ قبل أن يبلغ أرض الحبشة، فنزلت فيه الآية* والقول الأول ذكره الخازن وزاد بعد: أتمَّ أجراً. وضحك المشركون وقالوا: ما أدرك ما طلب، فأنزل الله عز وجلّ قوله: «**وَمَنْ يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ..**» الآية* ومثله في الغرائب، ولم يوجد غير الذي ذكرت في بقية التفاسير.

قوله تعالى «**وَمَنْ يُهَاجِرْ فى سَبِيلِ اللهِ يَجِدْ فى الأرْضِ مُرَاغماً**» أي متحوَلاً ينتقل إليه، فهو اسم مكان. أي مكاناً يهاجر إليه. وعبر عنه بالمراغم للاشعار بأن المهاجر يرغم أنف قومه، أي يذلهم، والرغم الذل والهوان، وأصله لصوق الأنف بالرّعام، وهوالتراب. وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: [بُعِثْتُ مَرْغَمَةً] أي بعثتُ هواناً وذلاً للمشركين.

---

(١) الصحيح أن اسمه جندع بن ضمرة الليثى. كما ذكره الجلال والخازن نقلاً عن ابن عباس رضي الله عنهما. (المؤلف).

وقوله «كثيراً وسَعَةً» في الرزق وإظهار الدين، وهذا ترغيب في الهجرة في سبيل الله لإعلاء دينه «وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إلى اللهِ ورَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ» في الطريق، كما وقع لجندع بن ضمرة «فَقَدْ وَقَعَ» ثَبَتَ «أَجْرُهُ» أي أجر هجرته «عَلَى اللهِ» فإيجابه على نفسه بحكم الوعد والتفضل والكرم، لا وجوب استحقاق، وتحتم. قال بعض العلماء: و يدخل في حكم الآية من قصد فعل طاعة من الطاعات ثم عجز عن اتمامها فيكتب الله لَهُ ثواب تلك الطاعة كاملاً تفضلاً منه ونعمة. وقال بعضهم: إنما يكتب له أجر ذلك القدر الذي عمل وأتى به، أمَّا تمام الأجر فلا، والقول الأوّل أصحُّ لأنَّ الآية إنما نزلت في معرض الترغيب في الهجرة، وأنَّ من قصدها ولم يبلغها بل مات دونها، فقد حصل له ثواب الهجرة كاملاً فكذلك من قصد فعل طاعة ولم يقدر على إتمامها كتب له ثوابها كاملاً. وقد قسم العلماء الذهاب في الأرض قسمين (هرباً وطلباً) فالهرب ينقسم إلى ستة أقسام:

القسم الأول: الهجرة وهي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام كهجرة الصحابة من مكة إلى المدينة، وكانت فرضاً في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وهي باقية إلى يوم القيامة، والتي انقطعت بالفتح هي القصد إلى البني صلى الله عليه وسلم حيث كان أسلم في دار الحرب، وجب عليه الخروج إلى دار الإسلام.

القسم الثاني: الخروج من أرض البدعة، قال مالك: لا يحل لأحدٍ أن يقيم بأرض يُسبُّ فيها السلف و يستدل لقول الإمام مالك بقوله تعالى: «وإذَا رأيْتَ الَّذِينَ يَخُوضونَ في آيَاتِنَا فأعْرِضْ عَنْهُمْ» إلى قوله: «فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالمين».

القسم الثالث : الخروج من أرض غلب عليها الحرام، لأنَّ طلب الحلال فرض على كل مسلم.

القسم الرابع : الفرار من الأذاية في البدن ليخلّص نفسه من التّهلكة اقتداء بإبراهيم عليه السلام، قال لمّا خاف من قومه «إنِّي مُهَاجِرٌ إلىَ رَبِّي» وقال «إنِّي ذَاهِبٌ إلى رَبِّي سيهدين» وقال مخبراً عن موسى عليه السلام «فَخَرجَ مِنْهَا خَائفاً يتَرَقَّبُ» والآيات كثيرة في الموضوع.

القسم الخامس : خوف المرض في البلاد الموبوءة والخروج منها إلى الأرض

الصحيّة، فقد أذن الرسول عليه الصلاة والسلام للرعاة حين استوخمُوا المدينة أن يخرجوا إلى السرح فيكونوا فيه حتّى يصحُّوا وقد استثنى من ذلك الخروج من الطاعون للحديث الصحيح.

القسم السادس : الفرار خوف الأذية في المال. فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه.

أما الطلبُ فينقسم إلى قسمين (طلبُ دينٍ، وطلبُ دنيا) القسم الأول وهو طلب الدين ينقسم إلى تسعة أقسام:

القسم الأول : مندوب وهو السفر للاعتبار في مخلوقات الله. قال تعالى: «**أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الّذِينَ مِنْ قَبْلِهِم**» و يقال: إنَّ ذا القرنين: إنما طاف الأرض ليرى عجائبها وقيل: لينفذ الحقّ فيها.

القسم الثاني : فرض وهو سفر الحج عندما تتوفر الشروط المطلوبة في الشخص والسفر.

القسم الثالث : سفر الجهاد وله أحكـــام.

القسم الرابع : سفر المعاش فقد يتعذّر على الرجل اكتساب معاشه في بلده فيخرج في طلبه، لا يزيد عليه من صيد أو احتطاب، أو احتشاش، وهو فرض في حقه، لأن المسئلة مع القدرة على العمل محرّمة في الشرع.

القسم الخامس : سفر التجارة والكسب الزائد على القوت لقوله تعالى: «**لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تبتَغُوا فَضْلاً من رَبَّكُمْ**» يعنى التجارة، وهي نعمة من الله بها في سفر الحج، فكيف إذا انفردت.

القسم السادس : الخروج لطلب العلم، اطلبوا العلم ولو في الصين.

القسم السابع : قصد البقاع قال عليه الصلاة والسلام: [لاَ تُشد الرحالُ إلاَّ إلى ثلاثة مساجد].

القسم الثامن : الثغور للرباط بها، وتكثير سوادها للذبّ عنها.

القسم التاسع : زيارة الإخوان في الله تعالى قال عليه الصلاة والسلام: [زار رجل أخاً لهُ في قرية، فأرصد الله له ملكاً على مدرجته، فقال: أين تريد؟ فقال: أريد أخاً في هذه القرية، قال: هل لك من نعمة تربُّها عليه، قال: لا، غير أنني أحببته في الله عز وجل: قال: فإني رسول الله إليه بأن الله أحبك كما أحببته فيه] رواه مسلم وغيره. وقوله تعالى في آخر الآية: «**وكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحيماً**» أي بإكمال ثواب هجرته.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وإذَا كُنْتَ فيهِمْ فَأقَمْتَ لَهُمُ الصلاةَ فلتقُمْ طَائِفَةٌ مِنهُمْ مَعَكَ وليَأخُذوا أسْلِحَتَهُمْ فإذَا سَجَدُوا فليكُونُوا مِنْ ورائكُمْ وَلْتَأتِ طَائِفَةٌ أخرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصلُّوا مَعَكَ وليَأخُذُوا حِذْرَهُمْ وأسْلِحَتَهُمْ ودَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغفَلُونَ عَنْ أسْلِحَتِكُمْ وأمْتِعَتِكُمْ فَيمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً واحِدَةً ولاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إنْ كَانَ بِكُمْ أذًى مِّنْ مَطَرٍ أوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أنْ تَضَعُوا أسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إنَّ اللهَ أعَدَّ للكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً» سورة النّساء (الآية: ١٠٢)

في الواحدي والخطيب : قال مجاهد: حدّثنا أبوعياش الزرقي، قال: صلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر، فقال المشركون: قد كانُوا على حال لو كنا أصبناهم غرّة، قالوا: تأتي عليهم صلاة هي أحبّ إليهم من آبائهم، قال: وهي العصر، قال: فنزل جبريل في هذه الآية بيْنَ الأولى والعصر **«وإذا كُنْتَ فيهِمْ فأقمت لَهُمُ الصلاةَ»** وكان بعُسْفَانَ، وعلى المشركين خالد بن الوليد، وهم بيننا و بين القبلة، وذكر صلاة الخوف، وقد فصّل ابن عباس بقوله: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقي المشركين بعُسْفَانَ، فَلمَّا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر، فرأوه يركع و يسجد هو وأصحابه، قال بعضهم لبعض: كان هذا فرصة لكم لو أغرتُم عليهم ما علموا بكم حتى تواقعوهم، فقال قائل منهم: فإن لهم صلاة أخرى هي أحبّ إليهم من أهليهم وأموالهم، استعدُّوا حتّى تُغِيرُوا عليهم فيها فأنزل الله تبارك وتعالى على نبيه **«وإذا كُنْتَ فيهِمْ فأقَمْتَ لهُمُ الصلاةَ..»** إلى آخر الآية. وأعلم ما ائتمر به المشركون، وذكر صلاة الخوف. وكذا في الخازن. وكذا روى الإمام أحمد وأهل السنن كما هو في ابن كثير. وقوله تعالى: **«وإذَا كُنْتَ»** يا محمد حاضراً **«فِيهِمْ»** وأنتم تخافون العدو **«فأقَمْتَ لَهُمُ الصلاة فَلْتَقُمْ طَائفَةٌ منْهُمْ مَعَكَ»** وتتأخر طائفة بإزاء العدو **«وَلْيَأخُذُوا»** أي الطائفة التي قامت معك **«أسْلِحَتَهُمْ»** معهم، في الخازن: اختلفُوا في هؤلاء الذين أمرهم الله بأخذ السلاح ، فقيل: أراد بهم الذين قامُوا معه إلى الصلاة فإنهم يأخذون أسلحتهم في

الصلاة، فعلى هذا القول إنما يأخذون من السلاح ما لا يشغلهم عن الصلاة، ولا يؤذى به من إلى جنبه كالسيف والخنجر، وذلك لأنه أقرب إلى الإحتياط، وأمنع للعدوّ من الإقدام عليهم، فإن كان السلاح يشغل بحركته، وثقله عن الصلاة كالترس الكبير، أو يؤذى من إلى جانبه كالرمح فلا يأخذه* وقيل أراد بهم الطائفة التي بقوا في وجه العدو، فإنهم يأخذون أسلحتهم للحراسة* وقيل: يحتمل أن يكون أمراً لفريقين بحمل السلاح لأن ذلك أقرب للاحتياط* والظاهر أنَّ الأمر بأخذ السلاح للطائفة القائمة مع رسو الله صلى الله عليه وسلم. والمعنى: لا يضعوها ولا يلقوها. وإنما عبّر عن ذلك بالأخذ للإيذان بالاعتناء باستصحابها كأنهم يأخذونها ابتداء. وقوله: «**فإذَا سَجَدُوا**» أي شرعُوا في الصلاة «**فليكُونُوا**» أي الطائفة الأخرى «**مِنْ وَرَائِكُمْ**» يحرسون إلى أن تقضوا الصلاة، وتذهب هذه الطائفة تحرس «**ولتَأْتِ طائفةٌ أخرى لم يُصَلُّوا**» وهى الطائفة التى كانت في وجه العدو «**فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ**» الركعة الثانية التي بقيت عليك، و يتمُوا بقية صلاتهم «**وَلْيأخُذُوا حِذْرَهُمْ وأسْلِحَتَهُمْ**» معهم إلى أن تقضوا الصلاة، وقد فعل صلى الله عليه وسلم ذلك ببطن نخل. رواه الشيخان كذا حملها الجلال على صلاة بطن نخل، وحملها بعض المفسرين على صلاة عُسْفَان كما علمت، وحملها بعض آخر منهم على ذات الرقاع، وقوله: «**وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**» أي تمنَّ الذين كفروا «**لَوْ تَغْفُلُونَ**» إذَا قمتم إلى الصلاة «**عَنْ أسْلِحَتِكُمْ وأمتِعَتِكُمْ**» أي حوائجكم التي بها بلاغكم في أسفاركم فتسهون عنها، والخطاب للفريقين بطريق الالتفات. «**فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً**» أي فيهجمون عليكم هجمة واحدة ليأخذوكم. وهذا علّة الأمر بأخذ السلاح «**ولاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ**» أي لا حرج ولا وزر «**إنْ كانَ بِكُمْ أذًى من مَطَرٍ أوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أنْ تَضَعُوا اسْلِحَتَكُمْ**» فلا تحملوها. وهذا يفيد إيجاب حملها عند عدم العذر، وهو أحد القولين للشافعى، والثاني أنه سنّةٌ، ورجّحه الشيخان «**وَخُذُوا حِذْرَكُمْ**» مِنَ العدوّ أي احترزوا منه ما استطعتم قال ابن عباس: نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم وذلك أنه غزا بني محارب و بنى أنمار. ولا يرون من العدوّ أحداً، فوضع النّاس السّلاح فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته حتى قطع الوادى، والسماء ترش بالمطر، فسال الوادى، فحال السيل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين أصحابه، فجلس تحت شجرة، فبصر به غورث بن الحارث المحاربى، فقال: قتلنى الله إن لم أقتله، ثم انحدر من الجبل،

ومعه السيف ولم يشعر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاَّ وهو قائم على رأسه، وقد سلّ سيْفَهُ من غمده، وقال يا محمد: من يمنعك منّي الآن؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الله، ثم قال: اللهمّ اكفني غورث بن الحارث بما شئتَ، فأهوى غورث بالسيف ليضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم به فأكبَّ لوجهه من زلخة زلخها، فندر السيف من يده، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ السيف، ثم قال يا غورث: من يمنعك منّي الآن؟ فقال: لا أحد. فقال: أتشهد أن لا إلٰه إلاَّ الله وأنَّ محمداً عبده ورسُولُه؟ فقال: لا، ولكن أشهد أن لا أقاتلك، ولا أعين عليك عدوّاً، فأعطاهُ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سيْفه، فقال غورث: أنت خيرٌ منّي. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: أنا أحقّ بذلك منك. فرجع غورث إلى أصحابه، فقالوا له: و يلك يا غورث ما منعك منه؟ فقال: والله لقد أهويت إليه بالسيف لأضرب به، فوالله ما أدرى زلخني بين كتفى، فخررتُ لوجهى. وذكر لهم حاله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: وسكن الوادى، فقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم الوادى إلى أصحابه، وأخبرهم الخبرو وقرأ هذه الآية «**ولاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إنْ كانَ بِكُمْ أذًى..**» الآية* والزلخة: الدفعة، وفي القاموس زلخه بالرمح يزلخه من باب ضرب زجّه* وقوله تعالى: «**إنَّ الله أعدّ**» أي هيأ «**للكافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً**» أي ذا إهانة.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إنا أنزلنا إليْكَ الكِتَابَ بالحقّ لتحكُمَ بيْنَ النَّاسِ بِما أراكَ الله ولاَ تَكُنْ لِلْخَائنينَ خَصِيماً* واسْتَغْفِرِ الله إنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَحيماً* ولاَ تُجَادِلْ عنِ الّذِينَ يَخْتَانُونَ أنْفُسَهُمْ إنَّ الله لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوااناً أثِيماً* يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ولاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ الله وَهُوَ مَعَهُمْ إذْ يُبَيِّتُونَ مٰا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ الله بِمٰا يَعْمَلُونَ مُحيطاً* هٰأنْتُمْ هؤلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فى الحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ الله عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكيلاً* وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أوْيَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ الله يَجِدِ الله غَفُوراً رَحِيماً* وَمَنْ يَكْسِبْ إثْماً فَإنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ الله عَلِيماً حَكِيماً* وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أوْإثْماً ثُمَّ يَرْمِ بِهِ

بَريئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وإثْماً مُبيناً* ولَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ ورَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائفَةٌ مِنْهُمْ أنْ يُضِلُّوكَ ومَا يُضِلُّونَ إلاَّ أنْفُسَهُمْ ومَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيءٍ وأنْزَلَ اللهُ عليكَ الْكِتَابَ والحكمةَ وعَلَّمَكَ مَا لَمْ تكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيماً» سورة النّساء (الآية: ١٠٥ - ١١٢)

هذه الآيات أنزلت كلها في قصّة واحدة وذلك أن رجلاً من الأنصار يقال له: طعمة بن أبيرق، أحد بني ظفر ابن الحارث، سرق درعاً من جار له يقال له: قتادة بن النعمان، وكان الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتثر من خرْق في الجراب حتى انتهى إلى الدار، وفيها أثر الدقيق، ثم خبّأها عند يهودىّ يُقال له: زيد بن السمين، فالتُمست الدرع عند طعمة، فلم توجد عنده، وحلف لهم، والله ما أخذها وماله به علم، فقال أصحاب الدرع: بل والله قد أدلج علنيا فأخذها، وطلبنا أثره حتّى دخل داره، فرأينا أثر الدقيق، فلمّا أن حلف تركوه، واتّبعُوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودى، فأخذوه، فقال اليهودي: دفعها إليَّ طعمة بن أبيرق، وشهد له أناس من اليهود على ذلك، فقال بنوا ظفر، وهم قوم طعمة: انطلقوا بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكلموهُ في ذلك، فسألوهُ أن يجادل عن صاحبهم، وقالُوا: إن لم تفعل هلك صاحبنا، وافتضح و برىء اليهودى، فهمَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل، وكان هواه معهم، وأن يُعاقب اليهودى، فأنزل الله تعالى «إنَّا أنْزَلْنَا إلَيْكَ الْكِتَابَ بالحقِّ..» الآيات كلها. وهذا قول جماعة من المفسرين منهم الخطيب والقرطبي والجلال والخازن والكشاف وابن كثير وابن جرير عن قتادة، زاد وكان طعمة قذف بها بريئاً، فلما بين الله شأن طعمة نافق ولحق بالمشركين بمكة، فأنزل الله فيه «ومَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ» الآية. قرأت في بعض الكتب أنه أراد السرقة بمكة فبينما هوينقب الحائط فإذا به يسقط عليه، فقتله وشخص بصره فأنزل الله تعالى «ولاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظالمونَ إنَّما يؤخّرُهُمْ ليومٍ تَشْخَصُ فيهِ الأبْصَارُ». قوله: «إنَّا أنْزَلْنَا إلَيْكَ الْكِتَابَ» القرآن «بالحقِّ» بالصدق، وهو متعلّق بأنزل، وهو في محل نصب على الحال المؤكدة فيتعلّقُ بمحذوف وصاحب الحال هوالكتاب، أي أنزلناه ملتبساً بالحقّ «لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أرَاكَ اللهُ» أي بما علمك الله وأوحى إليك وإنما سمّى العلم اليقيني رؤية لأنه جرى مجرى الرؤية في قوّة الظهور،

روى عن عمر أنه قال: لا يقولنّ أحدكم قضَيْتُ بما أراني الله فإنَّ الله لم يجعل ذلك إلاّ لنبيّه صلى الله عليه وسلم. ولكن ليجتهد رأيه لأن الرأي من رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مصيباً لأن الله تعالى كان يريه إيّاهُ، وإنَّ رأى أحدنا يكون ظناً ولا يكون علماً. قال المحققون: دلّت هذه الآية على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان يحكم إلاّ بالوحى الإلٰهى، والنص المنزل عليه. كذا في الخازن، وفي النسفى: قال الشيخ أبومنصور رحمه الله: بما ألهمك الله في أصوله المنزلة، وفيه دلالة على جواز الإجتهاد. ولكنَّ المعنى: بما أراك: أعلمك. والعلم لا يكون إلاّ بوحي، والكلام صحيح إذا قصد الوحى الإلهاميّ. وقوله «وَلاَ تَكُنْ للخائِنينَ» كطعمة «خَصِيماً» أي مخاصماً عنهم وهم قوم طعمة بأن تجادل عن طعمة مدافعاً عنه، ومعيناً له، واللام في للخائنين، للتعليل، ومفعول خصيماً محذوف، أي مخاصماً للبرىء من السرقة، وهو اليهودى، أشار إلى هذا البيضاوى «واسْتَغْفِرِ اللهِ» ممّا هممتَ به من القضاء على اليهودى بقطع يده تعويلاً على شهادتهم. «إنَّ الله كَانَ غَفُوراً رَحِيماً» غفوراً لذنوب عباده يسترها عليهم، و يغفرها لهم رحيماً بعباده المؤمنين. قال الخازن: وقد تمسّك بهذه الآية من يرى جواز صدور الذنب من الأنبياء، وقالوا: لولم يقع من الرسول صلى الله عليه وسلم ذنب لما أمر بالإستغفار. والجواب: عمّا تمسكوا به من وجوه:

أحدها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفعل المنهى عنه في قوله «وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً» ولم يخاصم عن طعمة لمّا سأله قومه أن يذبّ عنه وأن يلحق السرقة باليهودى فتوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، وانتظر ما يأتيه من الوحى السماوى والأمر الإلٰهى فنزلت هذه الآية، وأعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن طعمة كذّاب، وأن اليهوديّ برىء من السرقة. وإنما مال صلى الله عليه وسلم إلى نصرة طعمة وهمَّ بذلك بسبب أنه في الظاهر من المسلمين. فأمره الله بالاستغفار لهذا القدر.

الوجه الثانى: أن قوم طعمة لمّا شهدوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ببراءة طعمة من السرقة، ولم يظهر في الحال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما يوجب القدح في شهادتهم همّ بأن يقضى على اليهودى بالسرقة، فلمّا أطلعه الله على كذب قوم طعمة عرف أنه لو وقع ذلك الأمر لكان خطأ في نفس الأمر فأمره الله بالاستغفار منه، وإن كان معذوراً.

الوجه الثالث : يحتمل أن الله تعالى أمره بالاستغفار لقوم طعمة لذبّهم عن طعمة فإنَّ استغفاره صلى الله عليه وسلم يحتمل أن يكون لذنب قد سبق قبل النبوّة. وأن يكون لذنوب أمته.

الوجه الرابع : إنّ درجة النبي صلى الله عليه وسلم أعلى الدرجات ومنصبه أشرف المناصب فلعلوّ درجته وشرف منصبه، وكمال معرفته بالله عزّ وجلّ، فما يقع منه على وجه التأويل أو السهو المقربين، وذلك بالنسبة إلى منازلهم ودرجاتهم. انتهى* ولماذا لا يقال هو من باب أن للسيد أن يخاطب عبده بما شاء. كما أن النهى عن الشيء لا يقتضى كون المنهى مرتكباً للمنهى عنه.

وقوله: «**وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ**» يعنى طعمة ومن عاونه من قومه ممن علموا كونه سارقاً والاختيان كالخيانة يقال: خانه واختانه، والعاصي خائن نفسه لأنه يحرم نفسه الثواب و يوصلها إلى العقاب «**إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً**» قال المفسرون: إنَّ طعمة خان في الدرع أولاً، ثم في نسبة اليهودى إلى تلك السرقة، وخوّاناً فعّالاً وأثيماً فعيلاً بُنِيَا على المبالغة والعموم ليتناول طعمة وكل من يخون خيانة. أي فلا تخاصم لخائن قط، ولا تجادل عنه لأن الله لا يُحِبُه، وأيضاً كان الله عالماً من طعمة بالافراط في الخيانة وركوب الإثم، وقد تقدم أنه هرب إلى مكة مرتداً ونقب حائطاً بمكة ليسرق أهله فسقط الحائط عليه فمات، ومن كانت تلك خاتمة أمره لا يشك في حاله. قال العقلاء: إذا عثرت من رجل على سيئة فاعلم أن لها أخوات* وعن عمر أنَّه أمر بقطع يد سارق فجاءت أُمّه تبكي وتقول: هذه أول سرقة سرقها فاعف عنه، فقال: كذبت إنَّ الله لا يؤاخذ عبده في أول مرّة* وفي الآية دليل على أنَّ من كان قليل الخيانة والإثم لم يكن في معرض السخط من الله تعالى. وقوله «**يَسْتَخْفُونَ**» يستترون «**مِنَ النَّاسِ**» حياءً منهم، وخوفاً من ضررهم «**وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ**» أي لا يستحيون منه لأن الاستخفاء لازم الإستحياء. «**وهو مَعَهُمْ**» بالعلم والقدرة والرؤية فلا يخفى عليه شيء من حالهم لأنه تعالى لا تخفى عليه خافية، وكفى بذلك زاجراً للإنسان عن المعاصى وقوله: «**إِذْ يُبَيِّتُونَ**» يدبرون «**مَا لاَ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ**» وهو تدبير طعمة أن يرمى الدرع في دار اليهودى: زيد فى السمين. ليسرق دونه ويحلف ببراءته. أو لعلهم اجتمعوا في الليل ورتبّوا كيفية المكر فسمى الله تعالى كلامهم ذلك بالقول المبيّت الذي لا يرضاهُ الله، أو المراد

بالقول الحلف الكاذب الذي حلف به بعد أن بيّت الدرع عند اليهودى. «**وَكَانَ اللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً**» أي لا يخفى عليه شيء من أسرار عباده، وهو مطلع عليهم ومحيط بهم لا تخفى عليه خافية «**هٰا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ**» ها للتنبيه في أنتم وما بعدها مبتدأ وخبر. و يعنى يا هؤلاء الذين هو خطاب لقوم من المؤمنين كانوا يذبون عن طعمة، وعن قومه «**جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ**» جملة موضحة للأولى. أي هَبُوا أنكم خاصمتُم عن طعمة وقومه في الدنيا «**فَمَنْ يُجَادِلُ اللهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ**» أي فمن الذي يخاصم عنهم في الآخرة إذا أخذه الله بعذابه فهو استفهام بمعنى التوبيخ والتقريع. «**أَمْ مَّنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وكيلاً**» حافظاً ومحامياً عن عذاب الله إذا نزل بهم، وهذا الاستفهام معطوف على الأ ول، وكلاهما للإنكار والتقريع ثم أردف الوعيد والتهديد بذكر التوبة فقال تعالى: «**وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ**» نزلت هذه الآية في ترغيب طعمة في التوبة وعرضها عليه، وقيل: نزلت في قومه الذي جادلوا عنه. وقيل: هي عامة في كل مسيء ومذنب لأن خصوص السبب لا يمنع من إطلاق الحكم. ومعنى الآية: ومن يعمل سوأ يسيء به إلى غيره كما فعل طعمة بالسرقة من قتادة واليهودى، أو يظلم نفسه بما يجازى به كالحلف الكاذب «**ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ**» يعنى من ذنوبه. وقد يستدل بالآية على أن التوبة مقبولة عن جميع الذنوب وإن كان كفراً أو قتلاً عمداً، أو غصباً للأموال، بلى على أن مجرّد الاستغفار كافٍ. وعن بعضهم أنَّ الاستغفار لا ينفع مع الإصرار فلابد من اقترانه بالتوبة. وإنما قلت الذي ذكرت لأن الاثم يشمل كل ما يأثم بفعله الإنسان. والظلم يشمل الشرك فما دونه، أي ثم يستغفر الله من ذنوبه «**يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً**» ولهذا قال الخازن: في هذه الآية دليل على حكمين:

أحدها : أن التوبة مقبولة عن جميع الذنوب الكبائر والصغائر لأن قوله «**وَمَنْ يَعْمَلْ سوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ**» عمَّ الكل.

والحكم الثاني: أن ظاهر الآية يقتضي أن مجرد الإستغفار كافٍ. وقال بعضهم إنه مقيد بالتوبة لأنّه لا ينفع الاستغفار مع الإصرار على الذنوب* قلت: بل لابد من أن يصدق في التوبة فليس المراد مجرّد الاستغفار باللسان.

قال الكرخى : وهذه الآية دلت على أن التوبة مقبولة من جميع الذنوب سواء كانت كفراً أو قتلاً عمداً أو غصباً للأموال، لأن السوء والظلم يَعُمُّ الكل* وفي الطبرى: قال عبدالله: كانت بنوا اسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح قد كتب كفارة ذلك الذنب

على بابه، وإذا أصاب البول شيء منه قرضه بالمقارض، فقال: رجل: لقد آتى الله بني إسرائيل خيراً. فقال عبدالله: ما آتاكم الله خيراً مما آتاهم: جعل الله الماء لكم طهوراً، وقال: «والَّذِينَ إذا فَعَلوا فاحِشةً أو ظَلَموا أنفُسَهُمْ ذَكَرُوا الله فاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهم» وقال: «وَمَنْ يَعْمَلْ سوءًا أويَظْلِمْ نَفْسَهُ ثم يَسْتَغْفِرِ الله يَجد الله غَفُوراً رَحيماً»* قال محمد بن جرير الطبري: حدثني يعقوب، قال: ثنا هشيم، قال: ثنا ابن عوْف عن حبيب بن أبي ثابت قال: جاءت امرأة إلى عبدالله بن مغفل، فسألته عن امرأة فجرت فحبلت، فلمّا ولدت قتلت ولدها، فقال ابن مغفل: ما لها إلاَّ النار، فانصرفت وهي تبكي فدعاها، ثم قال: ما أرى أمرك إلاَّ أحد أمرين «مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أويظلم نفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ الله يجد الله غَفُوراً رَحيماً» قال: فمسحت عينها ثم مضت* وقال: حدثني المثنى قال: ثنا عبدالله بن صالح، قال: ثني معاو ية عن عليّ عن ابن عبّاس قوله «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أوْيَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ الله يَجِدِ الله غَفُوراً رَحِيماً» قال: أخبر الله عباده بحلمه وعفوه وكرمه وسعة رحمته ومغفرته، فمن أذنب ذنباً صغيراً كان أو كبيراً، ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً* قال: ولو كانت ذنوبه أعظم من السّمٰوات والأرض والجبال* وكذا ذكره ابن كثير في التفسير* وروى الإمام أحمد عن عليّ رضي الله عنه قال: كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً نفعني الله فيه بما شاء أن ينفعني منه. وحدّثني أبوبكر وصدق أبوبكر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما من مسلم يذنب ذنباً، ثم يُصلي ركعتين، ثم يستغفر الله لذلك الذنب إلاَّ غفر له] وقرأ هاتين الآيتين «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أويَظْلم نَفْسَهُ» الآية «والَّذِينَ إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفُسَهُم..» الآية. وروى أحاديث في الموضع بعضها صحيحهة الأسناد، وبعضها لا يصح. وقوله تعالى: «وَمَنْ يَكْسِبْ إثْماً» ذنباً «فإنَّما يكسبُه عَلَى نَفْسِهِ» لأنَّ وباله عليها ولا يضر غيره «ولا تزرُ وازِرةٌ وزرأخرى» يعني لا يغني أحدٌ عن أحد، وإنما على كل نفس ماعملت لا يحمل عنها لغيرها «وَكانَ الله عَليماً حَكِيماً» في صنعه لا يظلم أحداً، يعني إذا حكم عليه بالقطع، وقيل: معناه عليماً بما في قلب عبده عند إقدامه على التوبة إذا كان صادقاً. حكيماً: تقتضي حكمته أن يتجاوزعن التائب، و يغفر له، و يقبل توبته «وَمَنْ يَكْسِبَ خَطِيئةً أوْإثْماً» قيل: إن الخطيئة: هي الصغيرة من الذنوب، والاثم: هو الكبيرة، وقيل: الخطيئة هي الذنب المختص بفاعله، والإثم

الذنب المتعدّى إلى الغير، وقيل: إن الخطيئة هى سرقة الدرع والاثم هو يمينه الكاذبة* وقوله: «ثُمَّ يَرْمِ بِهِ» أي بالخطيئة والإثم، وتوحيد الضمير مع تعدد المرجع لمكان أو تذكيره لتغليب الإثم على الخطيئة كأنه قيل: ثم يرم بأحدهما «بريئاً» منه كاليهودى: زيد فى السمين في واقعة طعمة «فَقَد احْتَمَلَ» تحمّل «بهْتَاناً» برميه. البهتان: من البهت وهو الكذب الذي يتميّز في عِظَمه «وإثْماً مُبيناً» بيّناً بكسبه، أي فله عقوبتان لأنه جامع بين الأمرين، فلا جرم يلحقه الذم في الدارين وقوله: «وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عليْكَ وَرَحْمَتُهُ» أي لولا أن خصك الله بالفضل وهو التوبة، الرحمة، وهي العصمة، وما أوحى إليك من الاطلاع على أسرار قوم طعمة فهو خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصّة «لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُم» يعنى من بنى ظفر وهم قوم طعمة «أنْ يُضِلّوكَ» يعنى عن القضاء بالحق، وتوخى طريق العدل. وقيل: معناه يخطؤك في الحكم، و يلبّسُوا عليك الأمر حتى تدفع عن طعمة، وذلك لأنَّ قوم طعمة عرفوا أنه سارق، ثم سألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يدافع عنه و ينزهه عن السرقة، و يرمى بها اليهودى «وَما يُضِلّونَ إلاّ أنفُسَهُمْ وما يَضُرّونك مِنْ» زائدة في المفعول المطلق. أي شيئاً من الضرر لا قليلاً ولا كثيراً لأنَّ و بال إضلالهم عليهم «وأنْزَلَ الله عَلَيْكَ الْكِتَابَ» القرآن «وَالْحِكْمَةَ» السنّة بما فيها من الأحكام لتقضى بها «وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ» من الأحكام والغيب «وَكَانَ فَضْلُ الله عَلَيْكَ» بذلك وغيره «عَظِيماً» فلا فضل أعظم من النبوّة العامة والرسالة التّامة. ففي هذه الآية تنبيه من الله عزَّ وجل لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم على ما حباهُ من ألطافه، وما شمله من فضله وإحسانه ليقوم بواجب حقه، وقد قام به صلى الله عليه وسلم حقّ القيام شاكراً مولاه على ما حباهُ به من الفضل والإحسان.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَيْسَ بأمَانيِّكُمْ ولاَ أمَانِيِّ أهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ الله وَلِيّاً ولاَ نَصِيراً» سورة النّساء (الآية: ١٢٣)

في الواحدي: قال أبوصالح: جلس أهل الكتاب: أهل التوراة، وأهل الإنجيل، وأهل الأديان. كل صنف يقول لصاحبه: نحن خيرٌ منكم، فنزلت هذه الآية* وقال مسروق وقتادة: احتج المسلمون وأهل الكتاب: فقال أهل الكتاب: نحن أهدى منكم،

نبّينا قبل نبيّكم، وكتابنا قبل كتابكم، ونحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون: نحن أهدى منكم، وأوْلى بالله، نبينا خاتم الأنبياء، وكتابنا يقضي على الكتب التي قبله، فأنزل الله تعالى هذه الآية* ثم أفلج الله حجة المسلمين على من ناوأهم من أهل الأديان بقوله تعالى «**وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ**» و بقوله «**وَمَنْ أحسنُ ديناً ممن أسلم وجهه لله**» الآيتين وكذا في الخطيب* وفي القرطبي: ومن أحسن ما روى في نزولها ما رواه الحكم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: قالت اليهود والنصارى: لن يدخل الجنّة إلاّ من كان منّا، وقالت قريش: ليس نبعث، فأنزل الله «**لَيس بأمانيّكُمْ ولا أمانيِّ أهل الكتاب..**» ومال إليه الطبرى: وعلل ذلك بأن المسلمين لم يجر لأمانيّهم ذكر فيا نصّ من الآى قبل قوله: «**لَيْسَ بأمانيكم..**» وقال: حدث الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق قال: لمّا نزلت «**ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب..**» قال أهل الكتاب: نحن وأنتم سواء فنزلت هذه الآية «**وَمَنْ يَعْملْ مِنَ الصّالِحَاتِ منْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وهو مؤمنٌ..**» وهكذا بقية الأقوال في مفاخرة أهل الكتاب والمسلمين.. كان أهم السبب في نزل الآية* وقوله تعالى: «**لَيْسَ**» الأمر مرتبطاً «**بأَمَانِيِّكُمْ ولاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ**» بل بالعمل الصالح، والخطاب للمسلمين لأنه لا يؤمن بوعد الله إلاّ من آمن به* وقيل: قالت اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أصحاب الجنة، وكذلك النصارى، وقالت قريش: لا نُبْعث. فنزلت: أيْ ليس ما ادعيتموه يا كفار قريش بأمانيكم، والأماني جمع أمنية مأخُوذة من التمّني وهو تقدير الشيء في النفس وإرادته، فالأمنية ما يقدره الإنسان في نفسه و يصوره فيها كأن يتصور أنّه يثاب أو يعاقب، أوْ أنه يفعل كذا وكذا، فيؤل المعنى إلى أنها نوع من الشهوة والمحبّة والإرادة* «**مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ**» المؤمن والكافر، لأن السوء يشمل الكفر، والجزاء إمّا في الآخرة، أو في الدنيا بالبلاء والمحن كما ورد في الحديث المخرج في الترمذي وغيره أنَّ أبا بكر لمّا نزلت قال يا رسول الله: وأينا لم يعمل السوء، وإنا لمجزيون بكل سوء عملناه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: أما أنت وأصحابك المؤمنون فتجزن بذلك في الدنيا حتى تلْقُوا الله وليس عليكم ذنوب. وأما الآخرون فيجتمع لهم ذلك حتى يجزوا به يوم القيامة* وكذا في الكرخي وأسد الغابة وغيرها* وفي الخازن: قال الضحاك: يقول ليس لكم ما تمنيتُم وليس لأهل الكتاب ما تمنّوْا، ولكن من عمل سوءًا يعنى شركا فات عليه

يجز به النَّار» وقال الحسن: هذا في حق الكفار خاصة لأنهم يجازون بالعقاب على الصغير والكبير ولا يجزى المؤمن بسيء عمله يوم القيامة، ولكن يجزى بأحسن عمله و يتجاوز عن سيآته. قال الخازن: و يدل على صحة هذا القول سياق الآية وهو قوله: «**ولاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ الله وليـاً ولاَ نَـصيراً**» وهذا هو الكافر. فأمّا المؤمن فله وليٌّ ونصير» وقال آخرون: هذه الآية في حقّ كل من عمل سوءاً من مسلم ونصرانى وكافر. قال ابن عباس في رواية أبي صالح عنه: لما نزلت هذه الآية شقّتْ على المسلمين مشقّة شديدة، وقالوا يا رسول الله: وأيُّنـا مـن لم يعمل سوءاً غيرك، فكيف الجزاء؟ قال: [منه ما يكون في الدنيا، فمن يعمل حسنة فله عشر حسنات، ومن جوزى بالسيئة نقصت واحدة من عشر حسناته، و بقيت له تسع حسنـات، فو يل لمن غلبت آحاده أعشاره. وأما من كان جزاؤه في الآخرة فيقابل بين حسنـاته وسيّآته، فيلقى مكان كل سيئة حسنة، و ينظر في الفضل، فيعطى الجزاء في الجنـة، فيؤتى كل ذى فضل فضله]. و يدل على صحة هذا القول ما روى عن أبي هريرة قـال: لما نزلت «**من يعمل سوءًا يجزى به**» بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [قاربُوا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى النكبة ينكبها، والشوكة يشاكها] أخرجه مسلم.

فـإن قـلنا: إن هذه الآية خاصة في حق الكفار فتأو يلها ظاهر، وإن قلنا: إنها في حق كـل عـامـل سوء من مسلم وكافر، فإنَّه لا وليَّ لأحدٍ من دون الله يوم القيامة، ولا ناصر، فـالمؤمـن لا وليَّ لهم غير الله وشفاعة الشافعين تكون بإذن الله، فليس يمنع أحدٌ أحداً عن الله، قـلـت: وإذا كـانـت شـفاعة الملائكة والأنبياء بإذن الله صدق أنه لا وليَّ لأحدٍ ولا نصيراً إلاَّ الله.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))
«وَمَنْ أحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ ابْرَاهِيمَ حَنِيفاً واتَّخَذَ الله ابْرَاهِيمَ خَليلاً» سورة النِّساء (الآية: ١٢٥)

في الـواحـدي: قـال عـمـر رضي الله عـنـه قـال رسـول الله صلى الله عـليه وسلم: [يا جـبـريـل: لـمَ اتـخذَ الله إبراهيم خليلاً؟ قال: لاطعامه الطعام يا محمد] وقال عبدالله بن عـبـدالـرحمن بـن البزى: دخل إبراهيم فجاءه ملك الموت في صورة شاب لا يعرفه، قال له

إبراهيم: بإذن من دخلت؟ فقال: بإذن رب المنزل؟ فعرفه إبراهيم عليه السلام: فقال له ملك الموت: إنَّ ربك اتّخذَ من عباده خليلاً، قال ابراهيم: ومن ذلك؟ قال: وما تصنع به؟ قال: أكون خادماً لَهُ حتى أموت. قال: فإنه أنت* وفي رواية أبى أمامة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، وإن لم يكن نبىٌّ إلاَّ له خليل ألا وإنَّ خليلى أبوبكر] وفي رواية أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [اتخذ الله ابراهيم خليلاً، وموسى نجياً، واتخذنى حبيباً، ثم قال: وعزتى لأ وثرنَّ حبيبي على خليلى ونجيي]» قوله تعالى: «**وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وهُوَ مُحْسِنٌ**» أي ومن أحكم ديناً ممن أسلم نفسه (وعبر بالوجه لأنه أشرف الأعضاء) وهو موّحد لله عزّوجلّ لا يشرك به شيئاً. قاله ابن عباس في تفسيره. وإنما صار دين الإسلام أحسن الأديان لأن فيه طاعة الله ورضاه وهما أحسن الأعمال. «**واتَّبَعَ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ**» الموافقة لملة الإسلام وقوله: «**حَنيفاً**» حال أي مائلاً عن الأديان كلها إلاَّ الدين القيّم. «**واتَّخذَ الله إبْرَاهِيمَ خَلِيلاً**» أي صفياً خالص المحبّة. وإنما أعاد ذكره ولم يضمره تفيخماً لَهُ، وتنصيصاً على أنه الممدوح. والخلّة: من الخلال. فإنه ودٌّ تخلل النفس وخالطها. قال الزجاج: الخليل الذي ليس في محبته خَلَلٌ. والخلّه: الصداقة، فسمى خليلاً لأنَّ الله تعالى أحبّه واصطفاه. روى أن إبراهيم عليه السلام كان يسمى أبا الضيفان. وكان منزله على ظهر الطريق يُضيف من مرّبه من النّاس، فأصاب الناسَ سنةٌ، فحشروا إلى باب إبراهيم يطلبون الطعام، وكانت الميرة له كل سنة من صديق له بمصر، فبعث غلمانه بالإبل إلى الخليل الذي بمصر، فقال خليله لغلمانه: لو كان إبراهيم يريد لنفسه لفعلتُ، ولكن يريد للأضياف، وقد أصابنا ما أصاب النّاس من الشدّة. فرجع غلمانه فمرُّوا ببطحاء، أي بأرض ذات حصى، فقالُوا: لو أنا حملنا من هذه البطحاء ليرى النَّاسُ أنّا قد جئنا بميرة، فإنَّا نستحى أن نمرّبهم وإبلنا فارغة، فملؤا الغرائز، ثم أتوا ابراهيم، فلمّا أخبروه بذلك، وسارّة (زوجته) نائمة ساءه الخبر، فغلبت عيناه فنام، واستيقظت سارّة، وقد ارتفع النهار فقالت سبحان الله!! ما جاءَ الغلمان؟ قالوا: بلى، فقامت إلى الغرائز ففتحتها فإذا هو أجود حُوَّارى (بضم الحاء المهملة وتشديد الواو وفتح الراء) الدقيق الذي نخل مرّة بعد أخرى، فأمرت الخبّازين فخبزوا وأطعموا الناس، فاستيقظ إبراهيم فوجد رائحة الخبز، فقال: من أين هذا لكم؟ فقالت: مِنْ خليلك

المصرى، فقال: بل من عند خليلى: الله عزّ وجلّ فسمّاهُ خليلاً* وما ورد في القرطبى في سبب تسميته خليلاً: قيل: إنه أضاف رؤساء الكفار، وأهدى لهم هدايا، وأحسن إليهم، فقالوا له: ما حاجتك؟ قال: حاجتى أن تسجدوا سجدة، فسجدوا فدعا الله تعالى وقال: اللهم إنى قد فعلت ما أمكننى فأفعل، اللهم فأنت أهل لذلك. فوفقهم الله تعالى للإسلام، فاتخذه الله خليلاً لذلك* و يقال: لما دخلت عليه الملائكة بشبه الآدمين، وجاء بعجل سمين. فلم يأكلوا منه، وقالوا: إنَّا لا نأكل شيئاً بغير ثمن. فقال لهم: اعطوا ثمنه وكلوا. قالوا: وما ثمنه؟ قال: أن تقولُوا فى أوّله بسم الله، وفي آخره الحمد لله، فقالُوا فيا بينهم: حقٌ على الله أن يتخذه خليلاً، فاتخذه الله خليلاً* وروى جابر بن عبدالله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [اتَّخذَ الله ابراهيم خليلاً لإطعامه الطعام، وإفشائه السلام، وصلاته بالليل والناس نيام] كذا في القرطبي والخازن. وقيل: لمّا أراه الله ملكوت السموات والأرض وحاجّ قومه في الله ودعاهم إلى توحيده ومنعهم من عبادة النجوم والشمس والقمر والأوثان و بذل نفسه للإلقاء في النيران. و بذل ولده للقربان، وماله للضيفان اتخذه الله خليلاً وجعله إماماً للناس يقتدى به، وجعل النبوّة فيه وفي ذريّته. وقيل: إن إبراهيم عليه السلام لمّا كسر الأصنام وعادى قومه في الله عزّ وجلّ. اتَّخذه الله خليلاً* وقد ثبتت الخلّة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد ثبت في الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [لو كنتُ متّخذاً خليلاً غير ربى لاتخذت أبا بكر خليلاً] وعن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم: [لو كنتُ متخذاً خليلاً لاتخذتُ أبا بكر خليلاً ولكنه أخى وصاحبى، وقد اتخذ الله صاحبكم خليلاً] أخرجه مسلم وقد رواه الترمذي بلفظ أطول وفيه ألا وأنا حبيب الله ولا فخر.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«ويَسْتَفْتُونَكَ فى النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ومَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فى الكِتَابِ فى يَتَامَى النِّسَاءِ اللاَّتِى لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ لَهُنَّ وتَرْغَبُونَ أنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وأنْ تقُوموا للِيَتَامَى بالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فإنَّ اللهَ كانَ بِهِ عَليماً»

سورة النِّساء (الآية: ١٢٧)

في الواحدى: قالت عائشة رضي الله عنها: ثم إنَّ الناس استفتُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية **«ويستفتونَك في النساء»** الآية، قالت: والذي يتلى عليهم في الكتاب الآية الأولى التي قال فيها **«وإن خِفْتُمْ ألا تُقْسِطوا فى اليتامى»** قالت عائشة رضي الله عنها: وقال الله تعالى في الآية الأخرى **«وترغَبُونَ أنْ تَنكِحُوهُنَّ»** رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال. فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من باقى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن. رواه مسلم بهذا اللفظ عن حرملة بن وهب* وفي القرطبي: نزلت بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النّساء وأحكامهنّ في الميراث وغير ذلك، فأمر الله نبيّهُ عليه السلام أن يقول لهم: الله يفتيكم فيهنَّ. أي يبيّن لكم حكم ما سألتم عنه. روى أشهب عن مالك قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يُسأل فلا يجيب حتى ينزل عليه الوحى. وذلك في كتاب الله **«وَيَسْتَفْتُونَكَ فى النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فيهن» «ويَسْألُونَكَ عنِ الْيَتَامَى» «ويَسْألُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ والْمَيْسِرِ» «ويَسْألُونَكَ عن الجبال»*** وفي الطبرى عن ابن جريج قال: أخبرنى عبدالله بن كثير أنَّه سمع سعيد بن جبير يقول في قوله **«ويَسْتَفْتُونَكَ فى النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فى الكتاب فى يتَامى النِّساءِ قُلْ الله يفتيكم فيهن..»** الآية قال: كان لا يرث إلا الرجل الذي قد بلغ، ولا يرث الرجل الصغير ولا المرأة، فلمّا نزلت آية المواريث في سورة النساء، شقّ ذلك على الناس، وقالوا: يرث الصغير الذي لا يعمل في المال ولا يقوم فيه، والمرأة التي هي كذلك، فيرثان كما يرث الرجل الذي يعمل في المال. فرجوا أن يأتى في ذلك حدث من السماء، فانتظروا فلمّا رأوا أنّه لا يأتى حدث، قالوا: لئن تمَّ هذا إنه الواجب ما منه بدّ، ثم قالوا: سلُوا فسألُوا

النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله «**و يَسْتَفْتُونَكَ فى النِّسَاءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فيهنَّ..**»
قال سعيد بن جبير. وكان الوليُّ إذا كانت المرأة ذات جمال ومال انكحها ولم ينكحها*
وحدث عن أسباط عن السد في قوله تعالى: «**وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فى الكتابِ فى يَتامى النِّساءِ..**» إلى قوله «**بالقسط**» قال: كان جابر بن عبدالله الأنصارى،ثم السلمى له ابنة عمّ عمياء، وكانت دميمة، وكانت ورثت عن أبيها مالاً، فكان جابر يرغب عن نكاحها، ولا ينكحها رهبة أن يذهب الزوج بمالها، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك وكان ناس في حجورهم جوَارٍ أيضاً مثل ذلك، فجعل جابر يسأل النبي صلى الله عليه وسلم: أترثُ الجارية إذا كانت قبيحة عمياء، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول: نعم، فأنزل الله فيهنَّ هذا* وفي الخازن: «**وَيَسْتَفْتُونَكَ فى النِّساءِ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ**» الآية. قال ابن عباس: نزلت في بنات أم كحة. وقد تقدمت قصتهن فى أول السورة. وفي رواية عن عائشة رضي الله عنها قالت: هي اليتيمة تكون في حجر الرجل، وقد شركته في ماله فيرغب عنها فلا يتزوّجها لدمامتها، و يكره أن يزوجها غيره، فيدخل عليه و يشركه في ماله، فيحبسها حتى تموت، فنهاهم الله عن ذلك، وأنزل هذه الآية* قال المفسرون: والذي استفتُوه فيه هو ميراث النساء، وذلك أنهم كانُوا لا يورثون النساء ولا الصغار من الأولاد، فلما نزلت آية المواريث قالوا يا رسول الله: كيف ترث المرأة والصغير؟ فأجابهم بهذه الآية: «**قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ**» يعنى قل يا محمد: الله يفتيكم في شأن النساء وحالهن «**ومَا يتلَى عليكُمْ فى الكتابِ**» أي اللوح المحفوظ، والغرض تعظيم حال هذه الآية. وأن المخل بها وبمقتضاها من رعاية حقوق اليتامى ظالم متهاون بما عظمه الله، ونظيره في تعظيم القرآن «**وإنَّهُ فى أمّ الكتابِ لدينا لعليٌّ حكيم**» والمعنى: أنَّ الله يفتيكم في النساء بما أنزل في كتابه عليكم المثبت أصله في اللوح المحفوظ بأن العدل والإنصاف في حقوق اليتامى من أعظم الأمور عند الله تعالى التي تجب مراعاتها، وأن المخلّ بها ظالم «**فى يَتامَى النِّساء**» أي في النساء اليتامى وقيل: في اليتامى أولاد النساء، وفيه خمسة أوجه:

أحدها: أنه بدل من في الكتاب، وهوبدل اشتمال، ولابدّ من حذف مضاف. أي في حكم يتامى النساء، ولا شك أن الكتاب مشتمل على ذكر أحكامهنّ.

والثاني: أن يتعلق بيتلى، فإن قيل كيف يجوز تعلق حرف جرّ بلفظ واحد ومعناه

واحد. فالجواب: إنَّ معناهما مختلف لأن الأ ولى للظرفية على بابها والثانية بمعنى السببيّة مجازاً أو حقيقة عند من يقول بالاشتراك، قال أبوالبقاء: كما تقول: جئتك في يوم الجمعة في أمر زيْد.

والثالث: إنه بدل من فيهنَّ بإعادة العامل، و يكون هذا بدل بعض من كل.

والرابع: أن يتعلق بنفس الكتاب. أي فيما كتب في حكم اليتامى.

والخامس: أنه حال، فيتعلّق بمحذوف. وصاحب الحال هو المرفوع بيتلى، أي كائناً في حكم يتامى النساء، وإضافة يتامى إلى النساء من إضافة الصفة إلى الموصوف إذ الأصل في النساء اليتامى.

«**اللاّتِي لا تُؤْتُونَهُنَّ ما كُتِبَ**» فرض «**لَهُنَّ**» وهي صفة لليتامى، وذلك أنهم كانوا يورثون الرجال دون النساء والكبار دون الصغار «**وَتَرْغَبُونَ أنْ تنكِحُوهُنَّ**» أي لما لهن وجمالهن بأقل من صداقهن، وقيل: معناه تَرْغَبُونَ عن نكاحهنَّ لقبحهنَّ ودمامتهن، وتمسكوهن رغبة في مالهنَّ، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: هذه اليتيمة تكون في حجر وليّها فيرغب في جمالها ومالها و يريد أن ينقص صداقها فنهوا عن نكاحهنَّ إلاَّ أن يقسِطُوا لهنَّ في اكمال الصداق، وأمروا بنكاح من سواهُنَّ. قالت عائشة رضي الله عنها: فاستفتى الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك فأنزل الله عز وجلّ «**و يَسْتَفْتُونَكَ فى النِّساءِ**» إلى قوله «**وترغبون أن تنكحوهُنَّ**» فبينَّ لهم أن اليتيمة إذا كانت ذات جمال ومال رغبوا في نكاحها. ولم يلحقوها بسنتها في اكمال الصداق. وإذا كانت مرغوبة عنها في قلة المال والجمال تركوها والتمسُوا غيرها، قال: فكما يتركونها حين يرغبون عنها، فليس لهم أن ينكحوها إذا رغبوا فيها إلاَّ أن يقسطوا لها، يعطوها حقها، الأ وْفى من الصداق. الخازن‍« «**وَ**» في «**المستَضْعَفِينَ**» الصغار «**مِنَ الوِلْدانِ**» أن تعطوهم حقوقهم، كانوا يقولون في الجاهلية لا نورث إلا من يحمى الحوزة و يذب عن الحرم، فيحرمون المرأة والصغير فنزلت «**وَ**» يأمركم «**أنْ تَقُومُوا لِلْيَتامى بالْقِسْطِ**» بالعدل في الميراث والمهر «**وَمَا تفْعَلُوا من خيرٍ فإنَّ الله كانَ بِهِ عَليماً**» فيجازيكم به.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وإنْ امْـرأةٌ خَـافَـتْ مِـنْ بَـعْـلِهَـا نُـشُـوزاً أوْ إعْـراضـاً فَـلاَ جُـنَـاحَ عَـلَـيـهِـمَـا أنْ يُـصْـلِـحَـا بَيْنَهُـمَا صُلْحاً والصُّلْحُ خَيْرٌ وأُحْضِرَتِ الأنْفُسُ الـشُّـحَ وإنْ تُـحْـسِـنُـوا وتَـتَّـقُـوا فَـإنَّ الله كَـانَ بِـمَـا تَـعْـمَـلُـونَ خَـبِـيراً»

سورة النّساء (الآية: ١٢٨)

قـالـت عائشة رضي الله عنها: نزلت الآية في المرأة تكون عند الرجل فلا يستكثر منها، و يـريـد فـراقـهـا، ولـعـلها أن تكون لها صحبة و يكون لها ولد فيكره فراقها،وتقول له: لا تـطلقنى وأمسكنى وأنت في حلّ من شأنى. فأنزلت هذه الآية رواه البخارى عن محمد بن مقـاتـل، عـن ابن المبارك، ورواه مسلم عن أبى كريب وأبى أسامة: كلاهما عن هشام* وحدّث الـزهـرى عن المسيب، أنَّ بنت محمد بن مسلمة كانت عند رافع بن صبيح فكره منهـا أمـراً، إمّا كبراً وإمّا غيره، فأراد طلاقها، فقالت: لا تطلقنى وأمسكنى، وأقسم لى ما بـدا لـك، فـأنـزل الله تـعالى **«وإنْ امرأةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أوإعْرَاضاً..»** الآية* كـذا في الواحدي* وفي الخطيب: قال سعيد بن جبير: كان رجل له امرأة قد كبرت، وله منهـا أولاد فـأراد أن يـطـلـقـهـا، و يتزوّج غيرها، فقالت له: لا تطلقنى ودعنى على ولدى، وأقسم لى من كل شهرين إن شئتَ، وإن شئتَ فلا تقسم لى، فقال: إن كان يصلح ذلك فـهـو أحـبُّ إلـيَّ، فـأتى رسـول الله صلى الله عـليه وسلم فأنزل الله تعالى **«وإن امرأة..»** الآيـة* وفي الـقرطبي: نزلت بسبب سودة بنت زمعة. روى الترمذي عن ابن عباس قال: خَشِيَت سودة أن يطلقها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت: لا تطلقنى. وأمسكنى، واجـعـل يومى منك لعائشة، ففعل، فنزلت **«فلا جناحَ عَلَيْهِمَا أن يُصلحا بيْنَها صُلْحاً والـصُّـلْـحُ خَـيرٌ»** فما اصطلحا عليه من شيء فهو جائز، قال: هذا حديث حسنٌ غريب* وفي الطبرى: عن سعيد بن المسيّب وسليمان بن يسار: أن رافع بن خديج كان تحته امرأة قـد خـلا مـن سنّها، فتزوّج عليها شابة فآثر الشابّة عليها، فأبت امرأته الأ ولى أن تقيم على ذلـك، فـطـلـقـهـا تطليقة حتى إذا بقى من أجلها يسير قال: إن شئت راجعتك وصبرتِ على الأ ثرة، وإن شئتِ تركتك حتى يخلوا أجلك؟ قالت: راجعنى وأصبر على الأ ثرة، فراجعها. ثم آثـر عـليهـا فـلم تصبر على الأ ثرة. فطلقها أخرى، وآثر عليها الشابة، قال: فذلك الصلح

الذي بلغنا أنَّ الله أنزل فيه «وإن امرأةٌ خافت مِنْ بعْلِهَا نُشُوزاً أوْ إعْراضاً فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أن يُصْلِحَا بيْنَهُما صلحاً» وفي زيادة عن عبيدة على حديث الزهرى: فإن أضرّبها الثالثة فإن عليه أن يوفيها حقها أو يطلقها» وفي ابن كثير: عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت له: يا ابن أخى: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفضل بعضنا على بعض في مكثه عندنا، وكان قلّ يوم إلاَّ وهو يطوف علينا، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى من هو يومها، فيبيت عندها، ولقد قالت سودة بنت زمعة رضي الله عنها حين أسنّت وفرقَتْ أن يفارقها رسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله: يومى هذا لعائشة، فقبل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت عائشة رضي الله عنها: فى ذلك، أنزل الله «وإن امرأةٌ خافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشوزاً أوْ إعْراضاً» رواه أبوداود عن أحمد بن يونس به، والحاكم في مستدركه، ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وهكذا الألفاظ والمعانى متقاربة في بقية الأقوال لدى المفسرين. وقوله تعالى: «وإن امْرأةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزاً أو إعْرَاضاً» البعل: هو السيد، وسمى البعل زوجاً لأنه سيد المرأة. وفي حديث الإيمان [وأن تلد الأمة بعلها] المراد بالبعل هنا الملك يعنى كثرة السبي والتّسرّى. والنُّشُوز: أصله من النّشز، وهو المرتفع من الأرض. قال أبواسحاق: النشوز يكون بين الزوجين، وهو كراهة كل واحد منهما صاحبه، ونشزت المرأة بزوجها وعلى زوجها: ارتفعت عليه واستعصت عليه، وأبغضته، وخرجت عن طاعته وفركتهُ. قال:

سَرَتْ تَحت أقطاعٍ من الليل حتَّى ... لِخَمَّانِ بيتٍ فهى لا شكَّ ناشزُ

ونشز هو عليها نشوزاً كذلك، وضربها وجفاها وأضرّبها، أي أن نشوز الزوج هو كما قال تعالى «أوْ اعْراضاً» يعنى بوجهه عنها، أو يعبس في وجهها، أو يترك مضاجعتها، أو يسيء عشرتها، أو يشتغل بغيرها، وقيل: المراد من النشوز إظهار الخشونة في القول والفعل، والمراد من الإعراض السكوت عن الخير والشرّ والايذاء، بل يعرض عنها بوجهه أو يشتغل بغيرها. «فَلاَ جُنَاح» أي لا إثم على الزوج والمرأة «أنْ يُصْلِحَا» فيه ادغام التاء في الأصل في الصاد، وفي قراءة يُصْلِحَا من أصلح «بَيْنَهُمَا صُلْحاً» في القسم والنفقة بأن تترك له شيئاً طلباً لبقاء الصحبة، فإن رضيت بذلك، وإلاَّ فعلى الزوج أن يوفيها حقها، أو يفارقها، ونفى الجناح عن الزوج ظاهر لأنه يأخذ شيئاً من قِبَلِها، والأخذ مظنة الجناح،

ومظنة أن يكون من قبيل الرشوة المحرمة، وأما نفى الجناح عنها، مع أن الذي من قبلها هو الدافع لا الأخذ فلبيان أن هذا الصلح ليس من قبيل الرشوة المحرمة للمعطى والآخذ، وذلك بأن يقول الزوج لها: إنك قد دخلت في السن، وأنا أريد أن أتزوّج امرأة شابة جميلة أوثرها عليك في القسم ليلاً ونهاراً، فإن رضيتى بهذا فأقيمى، وإن كرهت خليتُ سبيلك، فإن رضيتْ كانت هي المحسنة، وإن لم ترضى بدون حقها كان على الزوج أن يوفيها حقها من القسم والنفقة أو يُسرّحها بإحسان، فإن أمسكها ووفاها حقها مع كراهته فهو المحسن* «والصُّلْحُ» بأن يترك كل منهما حقَّه أو بعضه «خَيْرٌ» من الفرقة والنشوز والإعراض كما فعلت سودة بنت زمعة زوجة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال تعالى في بيان ما جبل عليه الإنسان «وأُحْضِرَتِ الأَنْفُسُ الشُّحَ» أي شدة البخل. أي جبلت عليه، فكأنها حاضرته لا تغيب عنه، والشُّحَ مفعول ثان لأحضرت. والمعنى: أنَّ المرأة لا تكاد تسمح بنصيبها من زوجها، والرجل لا يكاد يسمح عليها بنفسه إذا أحبَّ غيرها أو كرهها. والشّحُ: أقبح البخل، وحقيقته الحرص على منع الخير. لذا حثَّ المولى جلّ وعلا على الإحسان والتقوى وحسم مادة الخصومة رأساً فقال: «وإنْ تُحْسِنُوا» عشرة النساء بالاقامة على ما كنتم عليه من الإحسان إليهنَّ «وتَتَّقُوا» الجور عليهنّ «فإنَّ الله كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبيراً» فيثيبكم على ذلك، وعلى هذا فالخطاب للأزواج وقيل للزوجين أن يحسن كل منهما إلى صاحبه، ويحترز عن الظلم، وقيل: لغيرهما أن يحسنُوا في المصالحة بينهما، و يتقُوا الميل إلى واحد منهما* يحكى أن عمران بن خطاب الخارجى كان من أدمّ بنى آدم، وامرأته من أجملهم، فأجالت يوماً نظرها في وجهه، ثم قالت الحمد لله. فقال مالك؟ فقالت: حمدت الله على أنى وإياك من أهل الجنة لأنك رزقت مثلى فشكرتَ ورزقتُ مثلك فصبرت. والشاكرين والصابرين من أهل الجنة* قلت: وفي الآية دليل على أن كل صلح يقع بين الزوجين مباح بلا استثناء* ذكر ابن خويْز منْداد فى أحكامه عن عائشة رضي الله عنها قالت: وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على صفية في شيء. فقالت لى صفيّة: هل لَكِ أن ترضين رسول الله صلى الله عليه وسلم عنّى ولكِ يومى، قالت: فلبستُ خماراً كان عندى مصبوغاً بزعفران، ونضحتُه، ثم جئتُ فجلست إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إليكِ عنى فإنّه ليس بيومك. فقلت: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وأخبرته الخبر، فرضى عنها. وفي الآية دليل على أنَّ ترك التسوية بين النساء، وتفضيل بعضهن على بعض لا يجوز إلا بإذن المفضولة ورضاها.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يـا أيُّـهـا الَّـذِينَ آمَـنُـوا كُـونُـوا قـوَّامـيـنَ بـالْـقِـسْـطِ شُـهَـداءَ لله ولَـوْ عَـلَـى أنْـفُـسِـكُـمْ أو الْـوَالِـديْـنِ والأقْـربـيـنَ إنْ يَكُنْ غَنِياً أو فقِيراً فـالله أوْلى بِـهِـمَـا فَـلاَ تَـتّـبِـعُـوا الْـهُـوَى أنْ تَـعْـدِلُوا وإنْ تلْوُوا أو تُعْرِضُوا فـإنَّ الله كَـانَ بِـمَا تَـعْـمَـلُـونَ خَـبِـيـراً» سـورة الـنِّـسـاء (الآيـة: ١٣٥)

في الـواحـدي: روى أسـبـاط عـن الـسـدى قال: نزلت في النبي صلى الله عليه وسلم اخـتـصـم إلـيـه غـنيٌّ وفقير، وكان ضلعهُ مع الفقير، فقال: «**يا أيُّها الَّـذِينَ آمَنُوا كُونُوا قـوّامـيـنَ بـالـقـسط**» حتى بلغ «**إن يكن غَنياً أو فقيراً فالله أولى بهما**» إلى «**خبيراً**»* وعـبـارة الخـازن عـن السّدى: إنَّ فقيراً وغنياً اختصما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فكان صغوه مع الفقير، يرى أن الفقير لا يظلم الغنيَّ، فأنزل الله هذه الآية، وأمر بالقيام بالقسط مع الـغني والفقير* وقيل: إنَّ هذه الآية متعلقة بقصّة طعمة بن أبيرق، فهي خطاب لقومه الـذيـن جـادلـوا عـنـه، وشـهـدوا لـه بالباطل، فأمرهم الله تعالى أن يكونُوا قائمين بالقسط شـاهدين لله على كل حال، ولو على أنفسهم وأقاربهم. وما في الواحدي في الطبرى، ولم أر في التفاسير زيادة على ما ذكرت* قوله «**يا أيُّها الَّـذِينَ آمنُوا كُونُوا قوَّامِينَ**» أي قائمين قياماً بليغاً مواظباً عليه مجتهداً فيه* في الكرخي: أي مديمين القيام ومن عدل مرة أو مرتين لا يـكـون في الحـقـيـقـة **قوّاماً*** وقوله «**بالْقِسْطِ**» بالعدل «**شُهَداءَ**» أي شاهدين بالحقِّ «**لله ولَـوْ**» كـانت الشهادة «**على أنْفُسِكَمْ**» ومعنى: شهادة الشخص على نفسه: بالتزام الحقّ ولا يكتمه. وعبارة السمين: قوله «**ولَوْ على أنْفُسِكُمْ**» لو هذه يحتمل أن تكون على بـابهـا مـن كونها حرفاً لما كان سيقع بوقوع غيره وجوابها محذوف، أي ولو كنتم شهداء على أنفسكم لـوجب عـلـيـكـم أن تشهدوا عليها، وأجاز الشيخ أن تكون بمعنى إن الشرطية و يـتـعـلّق قـولـه: على أنـفـسـكم. بمحذوف تقديره وإن كنتم شهداء على أنفسكم فكونوا شهداء لله. هذا تقدير الكلام. وحذف كان بعد لو كثير. تقول ائتنى بتمر ولو حشفاً. أي وإن كـان التمـر حـشـفـاً فأتني به* والمعنى فأشهدوا عليها بأن تقرُّوا بالحق ولا تكتموه «**أو الـوالِـدَيْـنِ والأقْـرَبـيـنَ**» أي ولـو كانت الشهادة على والديكم وأقاربكم «**إنْ يَكُنْ**» المـشـهـود عـلـيه من الوالدين والأقربين وغيرهم من الأجانب «**غَنياً أو فَقِيراً**» فلا تمتنعوا

من الشهادة عليهما طلباً لرضى الغنىّ أو ترحماً على الفقير «**فالله أَوْلَى بِهِمَا**» أي أولى بجنس الغنى والفقير المدلول عليهما بما ذكر، ولولا أنَّ الشهادة عليهما فيها مصلحة لهما لما شرعها لذا «**فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوىٰ**» في شهادتكم بأن تحابُوا الغنى لرضاه والفقير رحمة له «**أن تَعْدِلُوا**» أي إرادة أن تعدلُوا، فقد بان لكم أن لا عدل في ذلك، أو لئلا تعدلُوا: أي تميلوا عن الحق. أي فهو من العدول عن الحق ولا مقدرة فيكون علّةً للنّهى. أن نهيتكُم لئلا تميلُوا* وفي الكرخي: قوله: لأن لا تعدلُوا: أشار إلى أنْ تعدلوا مفعول لأجله كما اختاره القاضى على أنه من العدول لا من العدل. وقيل: كراهة أن تعدلوا على أنه من العدل. وهو القسط. وهذا ما اختاره صاحب الكشاف. «**وإن تَلْوُوا**» أي ألسنتكم لتحرّفوا الشهادة «**أَوْ تُعْرِضُوا**» عن أدائها «**فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خبيراً**» فيجازيكم به.

((حكم شهـــادة الأقرباء بعضهم على بعض))

قال ابن شهاب الزهرى: كان من مضى من السلف الصالح يجيزون شهادة الوالدين والأخ، و يتأوّلون في ذلك قول الله تعالى: «**كونُوا قوَّامِينَ بالْقِسْطِ شُهَداءَ لله**» فلم يكن أحد يُتَّهم في ذلك من السلف الصالح رضوان الله عليهم، ثم ظهرت من الناس أمور حملت الولاة على اتهامهم، فتركت شهادة من يُتَّهم، وصار ذلك لا يجوز في الوالد والولد، والأخ والزوج والزوجة، وهو مذهب الحسن والنخعى، والشعبى وشريح ومالك والثورى والشافعى وابن حنبل، وقد أجاز قوم شهادة بعضهم لبعض إذا كانُوا عدولاً، وروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنَّه أجازه، وكذلك روى عن عمر بن عبدالعزيز، قال اسحاق والثورى والمزنى. وفي رواية عن مالك أنه جوّز شهادة الأخ على أخيه إذا كان عدلاً إلاَّ في النَّسب، وروى عنه ابن وهب أنها لا تجوز إذا كان في عياله، أو في نصيب مال يرثه، وقال مالك وأبوحنيفة: شهادة الزوج والزوجة لا تقبل لتواصل منافع الأملاك بينهما. وهى محل الشهادة. وقال الشافعى: تجوز شهادة الزوجين بعضهما على بعض لأنهما أجنبيان، وإنما بينهما عقد الزوجيّة وهو معرّض للزوال والأصل قبول الشهادة إلاَّ حيث خصّ فيا عدا المخصوص فيبقى على الأصل* كذا في القرطبي: لكنه ضعف هذا القول معللاً ذلك بأن الزوجية توجب الحنان والمواصلة والألفة والمحبة، فالتّهمة قويّة ظاهرة. وقد روى أبوداود من حديث سليمان بن موسى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [شهادة الخائن والخائنة، وذى الغِمْرِ على أخيه، وردّ

شهادة القانع لأهل البيت، وأجازها لغيرهم]. قال الخطابيُّ: ذو الغِمْرِ هو الذي بينه وبين المشهود عليه عداوة ظاهرة فتردّ شهادته عليه للتّهمة. والقانع: السائل والمستطعم، وأصل القنوع السؤال. و يقال في القانع: إنه المنقطع إلى القوم يخدمهم، و يكون في حوائجهم وذلك مثل الأجير، أو الوكيل ونحوه. ومعنى ردّ هذه الشهادة التهمة في جرّ المنفعة إلى نفسه. لأن القانع لأهل البيت ينتفع بما يصير إليهم من نفع. وكل من جرّ إلى نفسه بشهادته نفعاً فشهادته مردودة كمن شهد لرجل على دارٍ هو شفيعها، أو كمن حكم له على رجل مدين وهو مفلس، فشهد المفلس على رجل بديْن ونحوه. قال الخطابى بعد هذا: ومن ردّ شهادة القانع لأهل البيت بسبب جرّ المنفعة فقياس قوله: أن يرد شهادة الزوج لزوجته لأن ما بينهما من التهمة، في جرّ المنفعة أكثر وإلى هذا ذهب أبوحنيفة* كما علمت* قلت: وإذا قبلها الله تعالى في الملاعنة، وهى أخطر شهادة، بها يهدم بيت الزوجية ووقوع في التهمة، وانتهاك للعرض، وحرمة على التأبيد أفلا تقبل في عرض من الدنيا؟.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّـذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بالله ورسُولِهِ والكتاب الَّذِى نزّلَ على رَسُولِهِ والْكِتَاب الَّـذِى أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بالله ومَلائكتِهِ وكُتِبِهِ ورُسُلِهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً»

سورة النِّساء (الآية: ١٣٦)

قال الكلبيُّ: نزلت في عبدالله بن سلام، وأسد وأسيد ابنى كعب، وثعلبة بن قيس وجماعة من مؤمنى أهل الكتاب، قالُوا يا رسول الله: إنا نؤمن بك و بكتابك وبموسى والتوراة وعزير، ونكفر بما سواه من الكتب والرسل، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الخازن: زيادة على ما ذكره الواحدى عن الكلبيّ، فقال لهم النبيّ صلى الله عليه وسلم: بل آمِنُوا بالله و برسوله محمد والقرآن و بكل كتاب كان قبله فأنزل الله تعالى هذه الآية* وكذا في الخطيب والغرائب، وقيل الخطاب للمسلمين كما في القرطبي. والظاهر أن الخطاب لأهل الكتاب الذين آمنوا بموسى والتوراة و بعيسى والانجيل. أي آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن وبجميع الكتب المنزلة من قبل لا ببعضها فقط لأنَّ طريق العلم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم هو المعجز، وإنه حاصل في الكل، فالخطاب لليهود

والنصارى أو «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا» باللسان «آمِنُوا» بالقلب، فهم المنافقون. أو يا أيها الذين آمنوا باللاتِ والعزى آمنُوا بالله، فهم المشركون «آمِنُوا بالله ورسُولِهِ» أي داوموا على الإيمان بهما «وَ» داومُوا على الايمان بـ «الكتابِ» القرآن «الذى نزّلَ على رسُولِهِ» محمد صلى الله عليه وسلم «والكتَابِ الَّذِى أُنْزَلَ مِنْ قَبْلُ» على الرسل: أي جنس الكتاب. بمعنى الكتب «ومَنْ يَكْفُرْ بالله» ..الخ. الآية. فقد ضلّ عن الحق ضلالاً بعيداً بحيث يعسر العود منه إلى سواء الطريق. وزيادة الملائكة واليوم الآخر في جانب الكفر لما أنه بالكفر بأحدهما لا يتحقق الإيمان أصلاً، وجميع الكتب والرسل لما أن الكفر بكتاب أو رسول كفر بالكل* وعبارة صاحب الغرائب: فإن قيل: لمَ ذكر في مراتب الإيمان أموراً ثلاثة: الإيمان بالله و بالرسل و بالكتب، وذكر في مراتب الكفر أموراً خمسه؟ أجيب بأن الإيمان بالثلاثة يلزم منه الإيمان بالملائكة واليوم الآخر لكنَّه ربّما ادعى الانسان أنَّه يؤمن بالثلاثة. ثم إنه ينكر الملائكة واليوم الآخر لتأويلات فاسدة، فلمَّا كان هذا الاحتمال قائماً نصَّ على أن منكر الملائكة والقيامة كافر بالله. فإن قيل: لمَ قدّم في مراتب الإيمان الرسول على ذكر الكتاب وفي مراتب الكفر عكس الأمر، فالجواب: أنَّ الكتاب مقدّم على الرسول في مرتبة المنزول من الخالق إلى الخلق، وأمَّا في العروج فالرسول مقدّم على الكتاب* و بوجه آخر الرسول الأول هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، والرسل عامّ له ولغيره. فلمّا خصّ ذكره أولاً للتشريف جعل ذكره تالياً لذكر الله لمزيد التشريف، ولبيان أفضليته صلى الله عليه وسلم.

* ((القول فى سبب نزول قوله تعالى :)) *

«لاَ يُحِبُّ الله الْجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ القوْلِ إلاَ مَنْ ظُلِمَ وكَانَ الله سَمِيعاً عَلِيماً* إنْ تُبْدُوا خَيْراً أوْ تُخْفُوهُ أوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فإنَّ الله كَانَ عَفُوّاً قديراً» سورة النّساء (الآية: ١٤٨، ١٤٩)

فى الواحدى : قال مجاهد : إن ضيفاً تضيف قوماً فأساؤا قراه فاشتكاهم، فنزلت هذه الآية رخصة في أن يشكو* وكذا في الخطيب والخازن. وفيه، وقال مقاتل نزلت فى أبي بكر الصديق، وذلك أن رجلاً نال منه، والنبيّ صلى الله عليه وسلم حاضر، فسكت عنه أبو بكر مراراً، ثم ردّ عليه، فقام النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقال أبو بكر يا رسول

الله: شتمني فلم تَقُلْ له شيئاً حتى إذا رددتُ عليه قمتَ؟ قال [إن مَلَكاً كان يجيب عنك، فلمّا رددت عليه ذهب الملك، وجاء الشيطان فقمتُ] ونزلت هذه الآية. وليس فى التفاسير أقوال غير ما ذكرت قوله تعالى: «**لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بالسُّوءِ**» أي رفع الصوت بالسوء أىّ بأحوال النّاس المكتومة كغيبة ونميمة، فإن العاقل من اشتغل بعيوبه، والجهر ليس قيداً، بل مثله الاسرار بذلك، وإنما خص الجهر لأنه الذى كان سبباً للنزول فهو بيان للواقع فلا مفهوم له، والسبب (كما علمتَ) أن رجلاً أضاف قوماً فلم يحسنوا ضيافته، فلمّا خرج تكلم فيهم جهراً، وخصّهم، وقوله: «**مِنَ الْقَوْلِ**» حال من السوء، وهو غير قيد أى من أحد فيعاقبه عليه. أى أنّ عدم المحبة منه تعالى كناية عن العقاب الذى هو غاية عدم المحبة لاستحالة المحبة التى هى الميل القلبى عليه تعالى. وقوله: «**إلاَّ مَنْ ظُلِمَ**» أى فلا يؤاخذه بالجهر به بأن يخبر عن ظلم ظالمه، و يدعو عليه دعاء جائزاً بأن يكون بقدر ظلمه فلا يدعو عليه بخراب دياره لأجل أخذ ماله منه. ولا يسبُّ والده وإن كان هو فعل كذلك ولا يدعو عليه لأجل ذلك بالهلاك. بل يقول: اللهم خلّص حقى منه، أو اللهمّ جازه، أو كافئه، ولا يجوز أن يدعو عليه بسوء الخاتمة، أو الفتنة فى الدين، فإن بعضهم منعه مطلقاً وهو الظاهر، وأجازه بعضهم إذا كان ظالماً متمرداً. وفى الخازن قال ابن عباس: لا يحبُّ الله أن يدعو أحد على أحدٍ إلاّ أن يكون مظلوماً، فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه وذلك قوله: «**إلاَّ مَنْ ظُلِمَ**» وإن صبر فهو خير له* وهذا مما يدل على أن الاستثناء منقطعٌ. ومعناه لكن المظلوم يجوز أن يجهر بظلم الظالم. وقوله: «**وكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً**» فليتق الله ولا يقل إلا الحقّ ولا يقذف مستوراً، ثم حث على العفو بقوله: «**إنْ تُبْدُوا خيْراً أوْ تُخْفُوهُ**» وهو إشارة إلى إيصال النفع «**أوْ تعفُوا عَنْ سُوءٍ**» وهذا إشارة إلى دفع الضرر. وعلى هذين تدور المعاشرة مع الخلق: «**فإن اللهَ كَانَ عَفُوّاً قديراً**» قال الحسن: أى يعفو عن الجانى مع قدرته على الانتقام فعليكم أن تقتدُوا بسنة الله، وقيل: عفوٌّ لمن عفا، قديرٌ على إيصال الثواب إليه، قال الكلبيُّ معناهُ إن الله أقدر على عفو ذنوبك منك على عفو صاحبك* وقوله: إنْ تبدوا خيراً الخ.. قد ذكر فى حيز الشرط ثلاثة أشياء. وقوله: فإن الله كان عَفوّاً قديراً إنما يظهر كونه جزاءً للثالث. وقد أشار البيضاوى إلى الجواب عن ذلك بما حاصله. أن المقصود هو الثالث، والأوّلان ذكرا توطئة له، ونصُّه. إن تبدوا خيراً: طاعة و برّاً. أو تخفوه: أى تفعلوه سرّاً. أو تعفوا عن

سوءٍ. لكم المؤاخذة عليه، وهو المقصود، وذكر ابداء الحيّز وإخفائه توطئة له، ولذلك رتب عليه قوله. فإن الله كان عفواً قديراً* أى ولم يزل ذا عفو مع قدرته على الانتقام، فاعفوا أنتم عمّن ظلمكم يَعْفُ عنكم يوم القيامة لأنه أهل للتجاوز والعفو عنكم* «**وَمَنْ عَفَا وأَصْلَحَ فأَجْرُهُ عَلى الله**».

* ((القول فى سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يسألُكَ أَهْلُ الكِتَاب أَنْ تُنَزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا الله جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البيّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مبيناً* وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وقُلْنَا لَهُمْ لاَ تَعْدُوا فى السَّبْتِ وأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غليظاً* فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وكُفْرِهِمْ بآيَاتِ الله وقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حقٍّ وقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قليلاً* وَبِكُفْرِهِمْ وقَوْلِهِمْ عَلى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً»

سورة النّساء (الآية: ١٥٣ - ١٥٦)

فى الواحدى : نزلت في اليهود قالو للنبيّ صلى الله عليه وسلم: إن كنت نبيّاً فأتنا الكتاب جملة من السماء كما أوتى به موسى. فأنزل الله تعالى هذه الآية* بل الآيات كما ذكره الطبرى عن محمد بن كعب القرظى. قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن موسى جاء بالألواح من عند الله فأتنا بالألواح من عند الله حتى نصدقك، فأنزل الله تعالى: يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء. إلى قوله: وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً* وما فى الواحدى قريباً منه فى ابن كثير وأبى السعود. وعبارة الخازن: يعنى يسألك يا محمد أهل الكتاب وهم اليهود، وذلك أن كعب بن الأشرف، وفنحاص بن عازوراء من اليهود قالا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كنت نبيّاً فأتنا بكتاب جملة واحدة من السماء كما أوتى موسى بالتوراة، وقيل: سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينزل عليهم كتاباً مختصاً بهم، وقيل: سألوه أن ينزل

عليهم كتاباً إلى فلان وكتاباً إلى فلان ليشهدا لك بأنك رسول الله، وكان هذا السؤال من اليهود سؤال تعنّت واقتراح لا سؤال استرشاد وانقياد. والله تعالى لا ينزل الآيات على اقتراح العباد، ولأن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت قد تقدمت وظهرت، فكان طلب الزيادة من باب التعنّت* وفى أبى السعود: ولو سألوه لكى يبيّن الحق لأعطاهم* قوله تعالى: «**يسألكَ أهْلُ الْكِتَابِ**» أى يسألك يا محمد اليهود: «**أنْ تُنزّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ**» جملة كما أنزل على موسى تعنتاً لا استرشاداً، وإلا لنزل كما طلبوا، فعاقبهم على هذا الوصف القائم به، والتعنّت طلب الوقوع فى العنت أى المشقة، وفى المختار: والْعَنَتُ بفتحتين، الاثم. فإن استكثرت يا محمد ذلك فلا تبال بسؤالهم وتشطيطهم فإنها عادتهم «**فَقَدْ سألُوا**» أى آباؤهم «**موسَى أكْبَرَ**» أعظم «**مِنْ ذلِكَ فَقَالُوا أرِنا الله جَهْرَةً**» عياناً أى معاينين له، وذلك أن سبعين رجلاً من بنى إسرائيل خرجوا مع موسى عليه السلام إلى الجبل، فبعد أن سمعوا كلام الله يخاطب به موسى قالوا: نريد أن نراه «**فَأخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ**» الموت عقاباً لهم «**بِظُلْمِهِمْ**» حيث تعنتوا بالسؤال، وإنما كان سؤال الرؤية أكبر من سؤال تنزيل الكتاب جملة واحدة لأن تنزيله على ما ذكروا أمرٌ ممكن فى ذاته، بخلاف رؤية الله عياناً فإنها ممتنعة فى الدنيا: «**ثُمَّ اتّخذُوا الْعِجْلَ**» أى إلهاً لهم، وهم الذين خلفهم موسى مع أخيه هارون حين خرج إلى ميقات ربه. وثم تفيد الترتيب للأخبار. أى ثم كان من أمرهم أن اتخذوا العجل. «**مِنْ بَعْدِ ما جَاءتْهُمُ البيّنَاتُ**» فى البينات وجوه. أحدهما: أن البينات الصاعقة لأنها تدل على قدرة الله تعالى وعلى علمه وعلى قدمه، وعلى كونه مخالفاً للأجسام والأعراض، وعلى صدق موسى عليه السلام فى دعوى النبوّة. وثانيها: أنها إنزال الصاعقة وإحياؤهم بعد اماتتهم. وثالثها: أنها الآيات التسع من العصا واليد وفلق البحر. وغيرها. وفحوى الكلام: أن هؤلاء يطلبون منك يا محمد أن تنزل عليهم كتاباً من السماء، فاعلم أنهم لا يطلبون منك، إلاّ عناداً ولجاجاً، فإن موسى عليه السلام قد أنزل عليه هذا الكتاب، وأنزل عليه سائر المعجزات الباهرة، ثم إنهم طلبوا الرؤية على سبيل العناد، وأقبلوا على عبادة العجل وكل ذلك يدل على أنهم مجبولون على اللجاج والعناد والبعد عن طريق الحق «**فَعَفَوْنا عَنْ ذَلِكَ**» حيث لم نستأصل عَبَدَة العجل. أى أن أولئك الذين أجرموا من آبائهم لما تابوا عفونا عنهم كل ما سلف من ذنوبهم فتوبوا أنتم نعف عنكم وقوله: «**وآتَيْنَا**

مُوسَى سُلْطَاناً مبيناً» تسلطاً بيّناً ظاهراً عليهم حيث أمرهم بقتل أنفسهم توبة فأطاعوه. ففي المختار: السلاطة: . يقال سَلُط لكرم وسمع سَلاَطة وسُلُوطة بالضم، وقد سلّطَهُ الله تسليطاً فتسلّط عليهم، والسلطان: الوالى، والسلطان أيضاً الحجة والبرهان، ولا يثنى ولا يجمع لأن مجراه مجرى المصدر، أو المراد: قوة أمره وكمال حاله وانكسار خصومه ففيه بشارة للنبىّ صلى الله عليه وسلم بأن هؤلاء الكفار وإن كانوا يعاندونه فإنه بالآخرة يستولى عليهم و يقهرهم، ثم حكى عنهم سائر جهالاتهم وإصرارهم على أباطيلهم منها: **«وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِيثَاقِهِمْ»** أى جبل الطور المعروف بفلسطين العربية، وذلك بسبب أخذ الميثاق عليهم ليخافوا فيقبلوه، وذلك أنهم امتنعوا من قبول شريعة التوراة، فرفع الله عليهم الطور فقبلوها. ومنها: **وقُلْنَا لَهُمُ ادْخلُوا الْبَابَ سُجّداً»** أى دخولهم بيت المقدس ساجدين سجود انحناء. أى مطأطئين الرؤوس فهو سجود تواضع وخضوع، فخالفوا ودخلوا زحفاً على أستاهم. ومنها: **«وقُلْنَا لَهُمْ لاَ تعدُوا فى السَّبْتِ»** باصطياد الحيتان. **«وأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَليظاً»** أى العهد المؤكدة غاية التوكيد على أن يتمسكوا بالتوراة و يعملوا بما فيها. وفى أبى السعود: قيل: إنهم أعطوا الميثاق على أنهم إن هموا بالرجوع عن الدين فالله يعذبهم بأى أنواع العذاب أراد: **«فَبِمَا نَقْضِهِمْ»** ما مزيدة للتوكيد أى فبنقضهم: **«مِيثَاقَهُمْ وكُفْرِهِمْ بآيَاتِ الله وقتْلِهِمُ الأنبيَاء بِغَيْرِ حقّ، وقَولِهِمْ»** للنبىّ صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم: **«قُلُوبُنا غُلْفٌ»** لا تعى كلامك: **«بَلْ طَبَعَ»** ختم: **«الله عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ»** فلهذا لا يصل أثر الدعوة والبيان إليها: **«فَلاَ يُؤمِنُونَ»** منهم: **«إلاّ قَليلاً»** كعبد الله بن سلاّم وأصحابه: **«وبكُفْرِهِمْ»** ثانياً بعيسى عليه السلام. وتكرير ذكر الكفر إيذانا بتكرر كفرهم، فإنهم كفروا بعيسى، ثم بمحمد عليه الصلاة والسلام، فكأنه قيل: فبجمعهم بين نقض الميثاق، والكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقولهم قلوبنا غلف، وجمعهم بين كفرهم: **«وقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عظيماً»** حيث رموْها بالزنا، فأنكروا قدرة الله تعالى على خلق الولد من غير أب، ومنكر قدرة الله تعالى على ذلك كافر لأنه يلزمه أن يقول كل ولد مسبوق بوالد لا إلى مبدأ، وذلك يوجب القول بقدم العالم والدهر والقدح فى وجود الصانع المختار. فقد ظهر لهم عند ولادة عيسى من الكرامات والمعجزات ما دلّهم على براءتها من كل سوء. وذلك كما قصّه الله علينا فى سورة مريم عليها السلام* ولذلك فقد سمى الله رميها بالزنا بهتانا عظيماً.

* ((القول فى سبب نزول قوله تعالى :)) *
«لِكِنِ اللّٰهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّٰهِ شَهِيداً» سورة النّساء (الآية: ١٦٦)

فى الواحدى : قال الكلبيُّ فى رواية عن ابن عباس: إنّ رؤساء أهل مكّة أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا: سألنا عنك اليهود فزعموا أنهم لا يعرفونك، فأتنا بمن يشهد لك أن الله بعثك إلينا رسولاً، فنزلت هذه الآية: **«لكِنِ الله يشهدُ بمٰا أنزل إليك..»** الآية. وكذا فى الخطيب. وفى الطبرى عن ابن عباس قال: دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة من يهود، فقال لهم: إنى والله أعلم أنكم لتعلمون أنى رسول الله. فقالوا: ما نعلم ذلك، فأنزل الله: **«لكِنِ الله يَشْهَدُ بمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ والملائِكةُ يَشْهَدُون ...»** الآية، قال قتادة فى والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيداً: شهود والله غير متهمة. وكذا فى ابن كثير، والخازن، وفيه : فى رواية عن ابن عباس أن رؤساء مكة أتو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد: إنا سألنا عنك اليهود، وعن صفتك فى كتابهم فزعموا أنهم لا يعرفونك، فأنزل الله عزّ وجلّ : **«لكن الله يَشْهَدُ بِمَا أَنزلَ إليك ..»** يعنى إن جحد هؤلاء اليهود يا محمد وكفروا بما أوحينا إليك، وقالوا: ما أنزل الله على بشر من شىء فقد كذبُوا فيما ادعوا فإن الله يشهد لك بالنبوّة، و يشهد بما أنزل إليك من كتابه ووحيه، وقوله: **«لكِنِ الله يَشْهَدُ»** لا بد له من مستدرك لأن لكن لا يبتدأ به، وفى ذلك المستدرك وجهان: أحدهما أن هذه الآيات بأسرها جواب عن قول اليهود: لو كان نبياً لنزل عليه الكتاب جملة .. وكزعمهم ذلك يتضمن أن هذا القرآن ليس كتاباً نازلاً عليه من السماء. فلا جرم قيل: لكن الله يشهد بأنه نازل عليه من السماء. الثانى: أنه تعالى لما قال: إنا أوحينا إليك، قال القوم: نحن لا نشهد لك بذلك فنزل: **«لكِن الله يَشْهَدُ»** ومعنى شهادة الله انزال القرآن بحيث عجز عن معارضته الأولون والآخرون أى يشهد لك بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذى أنزله إليك، ثم فسر ذلك وأوضح بقوله: **«أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ»** أى أنزله متلبساً بعلمه ..الخ. الذى لا يعلمه غيره، أو بسبب علمه الكامل: **«والملائِكةُ يَشْهَدُون»** لأنهم لا يسبقونه بالقول، فشهادته تستتبع شهادتهم، ومن صدقه ربّ العالمين وملائكة السموات والأرضين لم يلتفت إلى

تكذيب أحسن الناس إياه : «**وكَفَى باللهِ شَهِيداً**» أى على صحة نبوتك حيث نصب لها معجزات باهرة، وحججاً ظاهرة مغنية عن الاستشهاد بغيرها. ففيه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وسلم عن شهادة أهل الكتاب له، فإن الله يشهد له وملائكته كذلك.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فى دِينِكُمْ ولاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ الحقَّ إنَّمَا الْمَسِيحُ عيسَى ابنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَرْيَمَ ورُوحٌ مِنْهُ فآمِنُوا باللهِ ورُسُلِهِ ولاَ تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خيراً لَكُمْ إنَّمَا اللهُ إلَهٌ وَاحِدٌ سبحَانَهُ أنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ ما فى السَّمٰـوَاتِ وما فى الأرْضِ وكَفَى باللهِ وَكيلاً» سورة النِّساء (الآية: ١٧١)

في الواحدي: نزلت في طوائف من النصارى حين قالوا: عيسى ابن الله، فأنزل الله تعالى «**لا تَغْلُوا فى دينكم..**» الآية وكذا في الخازن ونحوهما في بقية التفاسير. وقوله تعالى: «**يا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا**» أي تجاوزوا الحدّ «**فى دينكُمْ**» الخطاب للفريقين: غلّت اليهود فى حق عيسى حتّى رموه بالزنا. والنصارى في رفعه حتّى اتخذوه إلٰهاً. وقيل: الخطاب للنصارى خاصّةً، والمراد بالكتاب الإنجيل فإنّه أوفق، وهذا ما جرى عليه الجلال، أي فالكتاب عام مراد به خاصٌ، وكذا أهل الكتاب المراد بهم النصارى، فكل منها عامٌ مراد به خاص. وذلك لأن ما بعْدَهُ يدل لذلك «**ولاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إلاَّ**» الْقَوْل «**الحقّ**» من تنزيه عن الشريك والولد. «**إنَّما الْمَسِيحُ عيسَى ابنُ مَرْيَمَ رسُولُ اللهِ وَكلِمَتُه**» أي أنه تكوّن بكلمته وأمره الذي هو كن من غير واسطة أب ولا نطفة «**أَلْقَاهَا**» أوصلها «**إلىَ مَرْيَمَ وَرُوحٌ**» أي ذو روح «**مِنْهُ**» أضيف إليه تعالى تشريفاً لَهُ، وليس كما زعمتم ابن الله، أوْ إلٰهاً معه، أو ثالث ثلاثة لأنَّ ذا الروح مركّب والإلٰه منزَّه عن التركيب، وعن نسبة المركب إليه، وإنما سمى روحاً لأنَّه حصل من الريح الحاصل من نفخ جبريل عليه السلام في جيب درع مريم عليها السلام فوصل النفخ إلى فرجها فحملت به. ومن ابتدائية لا تبعيضيّة كما زعمت النَّصارى، وهى متعلقة بمحذوف وقع صفة لروح، أي كائنة من جهته تعالى. وجعلت منه، وإن كانت بنفخ جبريل عليه السلام لكون النفخ بأمره تعالى. حكى أن طبيباً حاذقاً نصرانياً جاء للرشيد، فناظره عليٌّ

بن الحسين الواقدى ذات يوم، فقال له: إنَّ في كتابكم ما يدلّ على أنَّ عيسى جزء من الله، وتلا هذه الآية، فقرأ لَهُ الواقديُّ: «**وسخَّرَ لكُمْ ما فى السّمٰواتِ وما فى الأرْضِ جميعاً مِنْهُ**» فقال: إذاً يلزم أن تكون جميع تلك الأشياء جزءاً منه سبحانه!! فانقطع النصرانيُّ، وأسلم وفرح الرشيد فرحاً شديداً وأعطى للواقدى حلةً فاخرة. «**آمِنُوا باللهِ ورَسُولِهِ**» كما آمن النَّاس «**ولاَ تَقُولُوا**» الآلهة «**ثَلاَثَةٌ**» الله وعيسى وأُمّهُ. واعلم أنَّ أصناف النصارى أربعة: اليعقوبيّة، والملكانيّة، والنسطوريّة، والمرقوسيّة:

فأمَّا اليعقوبيّة والملكانيّة: فقالوا فى عيسى: إنَّه الله!!.

وقالت النسطوريّة: إنّه ابن الله!!.

وقالت المرقوسيّة: ثالث ثلاثة!! وقيل إنهم يقولون: إنَّ عيسى جوهر واحد. ثلاثة أقانيم: اقنوم الأب، وأقنوم الابن. وأقنوم روح القدس. وأنهم يريدون بأقنوم الأب: الذات. و بأقنوم الابن: عيسى. و بأقنوم روح القدس: الحياة الحالة فيه فتقديره عندهم. الإلٰــه ثلاثةٌ. وقيل: إنهم يقولون في عيسى ناسوتيّة وألوهيّة: فناسوتيتهُ: من قبل الأم. وألوهيته: من قبل الأب. **تعالى الله عمّا يقولون علوّاً كبيراً**.

يقال: إن الذى أظهر هذا للنصارى رجل من اليهود يقال له: بولص. تنصّرَ ودسّ هذا في دين النّصارى ليضلّهم بذلك ولذا قال لهم: «**انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ**» أي ليكن الانتهاء عن هذا القول خيراً لكم من القول بالتّثليث المبدَع «**إنَّما اللهُ إلٰهٌ واحدٌ**» فهو سبحانه وتعالى منزه عن التثليث وعن الولد «**سُبْحَانَهُ أنْ يَكُونَ لَهُ ولدٌ**»!!! أي لا ينبغى أن يكون له ولد لأن الولد جزء من الأب، وتعالى الله عن التجزئة، وعن صفات الحدوث «**لَهُ مٰا فى السَّمٰواتِ وَمٰا فى الأرْضِ**» خلقاً وملكاً وعبيداً وعيسى ومريم من جملة من فيها، فهما عبيده وملكه. فإذا كانا عبدين لَهُ فكيف يعقل مع هذا أن له ولداً وزوجةً!!! ومن الذى يقول إنَّ الْمُلْكَ جزء من المالك؟ كما أن التجزئة إنما تصح في الأجسام والله تعالى منزّه عن صفات الأعراض والأجسام «**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصيرُ**» «**وكَفَىٰ باللهِ وَكِيلاً**» أي شهيداً على ذلك، ومستقلاً بتدبير خلقه فلا حاجة لَهُ إلى ولد يُعينُه. ثم ساق الله تعالى الآيات مبيناً فيها عبوديّة عيسى عليه السلام. وكذا غيره من المخلوقين ومنهم الملائكة الكرام فقال: «**لن يستنكف الْمَسِيحُ أنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ ولاَ الملاَئِكَةُ المُقرّبُون..**» الآية.. التى نحن في صدد بيان نزولها.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً لله ولاَ الْمَلائِكَةُ المقرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إلَيْهِ جَمِيعاً»

سورة النِّساء (الآية: ١٧٢)

فى الواحدي: قال الكلبيُّ: إن وفد نجران قالوا يا محمد: لِمَ تَعِبْ صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم؟ قالوا: عيسى. قال: وأي شيءٍ أقول فيه؟ قالوا: إنه عبد الله ورسوله. فقال لهم: إنه ليس بعار لعيسى أن يكون عبداً لله. قالوا: بلى. فنزلت «**لَنْ يَسْتَنْكِفَ المسيحُ أَنْ يَكُونَ عبْداً لله..**» الآية وكذا فى الخازن. وما عداهما لا يوجد فيها شيء زائداً على ما ذكرا. قوله: «**لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ**» الاستنكاف الأنفة والترفع من نكفت الدمع إذا نحيته عن وجهك بالأصبع، والنَّكْفُ: العدول والامتناع عن الشيء أنفة كبراً. والمفسرون يقولون: الاستنكاف والاستكبار واحد، والاستكبار أن يتكبّر و يتعظّم: أي ليس يستنكف الذي يزعمون أنَّه إله أن يكون عبداً لله. «**ولاَ الملائكَةُ المقرَّبُونَ**» وهم أكبر من البشر، لا يستنكفون أن يكونُوا عبيداً، وهذا من أحسن الاستطراد ذكر للردّ على من زعم أنها آلهة، أو بنات الله، ولا يخفى أن الاستطراد هو الانتقال من معنًى إلى معنًى آخر متصلاً به، ولم يقصد بذكر الأول التوصل إلى ذكر الثانى. وعليه قوله تعالى: «**يا بنى آدَمَ قَدْ أنزلنا عَلَيكُمْ لِبَاساً..**» الآية هذا أصله. وقد يكون هوالمقصود فيذكر الأول قبله ليتوصل إليه كما هنا، فيكون من الإستطراد الحسن. «**وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فسيحْشُرُهُمْ إليه جميعاً**» فى الآخرة وجميعاً حال من الهاء في يحشرهم أو توكيدٌ له. والفاء في قوله: «**فَسَيَحْشُرُهُمْ**» يجوز أن تكون جواباً للشرط في قوله: «**وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ**» أي ومن يستنكف عن عبادته و يستكبر فيعذبه عند حشره إليه ومن لم يستنكف ولم يستكبر فيثيبه. والضمير في فسيحشرهم يرجع إلى عموم الناس، ومنهُم عيسى وأمّه، فلوا كانا إلهين لما حسن حشرهما مع الناس، فتبيّن أنهما مخلوقان لله وأنهما من جنس البشر يقع عليهما ما يقع على البشر من الصحة والمرض، والغنى والفقر، والحشر والنشر والحساب والثواب.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ»

سورة النّساء (الآية: ١٧٦)

في الواحدي: حدّث الزبير عن جابر قال: اشتكيتُ، فدخل عليّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندى سبع أخوات، فنفخ في وجهى، فأفقت، فقلت يا رسول الله: أوصى لأخواتى بالثلثين؟ قال: اجلس، فقُلتُ: الشطر، قال: اجلس. ثم خرج فتركنى. قال: ثم دخل عليَّ وقال: يا جابر إنى لا أراك تموت فى وجعك هذا. إنَّ الله قد أنزل فبيّن الذي لأخواتك الثلثين. وكان جابر يقول: نزلت فيّ «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُم..» الآية. وفى الخازن: روى الشيخان عن جابر بن عبدالله قال: مرضتُ فأتانى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوبكر رضي الله عنه يعودان ماشيين، فأغمى عليَّ، فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم صبَّ عليَّ من وضوئه، فأفقتُ، فإذا النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، كيف أصنع فى مالى؟ كيف أقضى في مالى؟ فلم يرد عليَّ شيئاً حتى نزلت آية المواريث «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فى الكلالة..»* وفى الطبرى: عن قتادة: أن الصحابة أهمهم شأن الكلالة فسألوا عنها النبيَّ صلى الله عليه وسلم فأنزل الله هذه الآية* وهكذ الأقوال في بقية التفاسير* قوله: «يَسْتَفْتُونَكَ» فى الكلالة والمستفتى في الكلالة هو جابر لما عاده النبيُّ صلى الله عليه وسلم في مرضه كما علمت «قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فى الكَلَالَةِ» متعلّق بيفتيكم على إعمال الثاني. تقدم في البقرة أن الكلالة ما عدا الوالد والولد من القرابة وقيل الإخوة من الأم. والمعنى: يطلبون منك أيها النبي الفتيا فيمن يُوّرث كلالة كجابر بن عبدالله ليس له والد ولا ولد، وله أخوات من العصبة لم يفرض لَهُنَّ شيء في التركة من قبل، والآية حجة لأبى بكر الصديق رضي الله عنه القائل فيها: الكلالة ما عدا الوالد والولد. وإنما فرض للأخوة من الأم السدس للواحد منهم، والثلث لما زاد على الواحد. وهم شركاء فيه مهما كثروا لأنَّ ميراث أمهم ليس لها سواه.

فقل لهم جواباً عمّا سألتم عنه: «**إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ**» أي ان امرؤ مات غير ذي ولد، وترك أختاً شقيقة أو من أبيه فقط فلها نصف التركة «**وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ**» أي يأخذ جميع تركتها إذا لم يكن لها ولد ذكرٌ ولا أنثى. ولا والد يحجبه عن إرثها. «**فإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ**» أي فإن كان للأخ الميت أختان فما فوق فيأخذن ثلثيْ التركة «**وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ**» أي وإن كان من يرث بالأخوة كلالة: ذكوراً وإناثاً. فتقسم التركة بين الجميع للذكر مثلُ حظّ الأنثيين كما هي القاعدة في كل صنف اجتمع منه أفراد في درجة واحدة. إلاّ أولاد الأمّ فإنهم شركاء في سُدُسِ أمهم لحلولهم محلّها. ولولا ذلك لم يرثوا. إذ هم ليسوا من عصبة الميت. «**يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا**» أي يبين الله لكم أمور دينكم كراهة أن تضلّوا. أي لتتقوا بمعرفتها الضلال في قسمة التركات وغيرها. «**واللهُ بِكُلِّ شيءٍ عَليمٌ**» فهو لم يشرع لكم من الأحكام إلا ما علم أن فيه الخير لكم. وذلك شأنه جل جلاله في كل ما شرع من أحكام، فكلها موافقة للحكمة. دالة على واسع العلم، وعظيم الرحمة، فيكون بيانه حقاً وتعريفه صدقاً. ختم هذه السورة ببيان كمال العلم كما أنّه ابتدأها بكمال القدرة فبهما تتم الإلٰهية، ويحصل الترهيب والترغيب للعاصي والمطيع، والحمد لله في الإبتداء والانتهاء. آخر سورة النِّساء.

((سورة المائدة وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها))

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«بسم الله الرحمٰن الرحيم»

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ الله ولاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلائِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْواناً وإذَا حَلَلْتُمْ فاصْطَادُوا ولاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ والتَّقْوى ولا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوانِ واتَّقُوا الله إنَّ الله شَدِيدُ الْعِقَابِ»

سورة المائدة (الآية: ٢)

في الواحدي: قال ابن عباس: نزلت في الحطيم، واسمه شريح بن ضبيع الكندى، أتى النبي صلى الله عليه وسلم من اليمامة إلى المدينة فخلّف خيله خارج المدينة، ودخل وحده على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إلامَ تدعو الناس؟ قال: إلى شهادة أن لا إلٰه إلاّ الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، فقال: حسنٌ إلاّ أنّ لى أمراء لا نقطع أمراً دونهم. ولعلّى أسلم وآتى بهم. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: يدخل عليكم رجلٌ يتكلّم بلسان شيطان؟؟ ثم خرج من عنده، فلما خرج قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقدْ دَخلَ بوجه كافر وخرج بعقبى غادر، وما الرجل مسلم. فمرّ بسرح المدينة فاستاقه، فطلبوه فعجزوا عنه، فلمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عام القضيّة سمع تلبية حجاج اليمامة، فقال لأصحابه: هذا الحطيم وأصحابه وكان قد قلّد هدياً من سرح المدينة، وأهدى إلى الكعبة، فلمّا توجّهُوا فى طلبه أنزل الله تعالى **«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحلُّوا شَعَائِرَ الله»** يريد ما أشعر الله وإن كانوا على غير دين الإسلام* وكذا في الغرائب والخازن. وفيه: لقد دخل بوجْهٍ كافرٍ وخرج بقفا غادر، وما الرجل بمسلم، فمرَّ بسرح من سرح المدينة، فاستاقه وانطلق به، وهو يرتجز و يقول:

قد لفّها بالليل سوّاقٌ حطم — ليس براعى إبل ولا غنم

ولا بجزّار على ظهر وضم — باتُو نياماً وابن هند لم ينم

بات يقاسيها غلام كالزلم — خدلج السّاقيْن ممسوح القدم

يجب أن يكون مخدلج حتى لا ينكسر البيت، فتبعوه فلم يدركوه. فلمّا كان العام القابل خرج شريح حاجاً مع حجاج بكر بن وائل من اليمامة ومعه تجارة عظيمة، وقد قلّد الهدى، فقال المسلمون يا رسول الله: هذا الحطم قد خرج حاجاً فخلّ بيننا و بينه فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنَّه قلّد الهدى. فقالوا: يا رسول الله هذا شيء كنا نفعله في الجاهلية، فأبى النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله **«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحلوُّا شَعَائرَ الله..»** قال ابن عباس: هي المناسك. كان المشركون يحجون ويهدون فأراد المسلمون أن يغيروا عليهم فنهاهم الله عن ذلك* وفى الغرائب والواحدى: وقال زيد بن أسلم كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالحديبية حين صدهم المشركون. وقد اشتد ذلك عليهم، فمرّبهم ناس من المشركين يريدون العمرة. فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: نصدُّ هؤلاء عن البيت كما صدنا أصحابهم فأنزل الله **«لا تَحلوُّا شعائر الله وَلاَ الشَّهْرَ الحرام..»** الآية. أي لا تعتدوا على هؤلاء العمار إن صدكم أصحابهم. قوله تعالى: **«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَحِلوُّا شَعَائرَ الله»** جمع شعيرة. وقد علمتَ أنَّ ابن عباس قال فى الشعائر: هي المناسك. وقيل: الشعائر الهدايا المشعرة، وإشعارها أن يطعن في صفحة سنام البعير بحديدة حتى يسيل دمه. فيكون ذلك علامة على أنّه هدىٌ، وهو سنّة في الإبل والبقر دون الغنم. وعند أبى حنيفة لا يجوز إشعار الهدى. بل وفى رواية عن ابن عباس قال في معنى الآية: **«لا تُحِلوُّا شَعَائِرَ الله»** هى أن تصيد وأنت محرم* وقيل: شعائر الله. شرائع الله، ومعالم دينه. والمعنى: لا تُحِلُّوا شيئاً من فرائضه التى فرضها عليكم. ولا من نواهيه التى نهاكم عنها. قال أبوحيّان: والشعائر هى ما حرم الله مطلقاً سواء كان في الإحرام، أو في غيره، والمعطوفات الأربعة (ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام) بعده مندرجة في عموم قوله: **«لا تُحِلوُّا شعائر الله»** فكان ذلك تخصيصاً بعد تعميم* فالشهر الحرام: شهر الحج، أعنى ذا الحجة، أو المراد رجب وذوالقعدة، وذوالحجة والمحرّم، وعبّر عنها بلفظ الواحد اكتفاء باسم الجنس. أي لا تحلُّوا القتال في هذه الأشهر. والهدى: ما أهدى إلى بيت الله، وتقرب به إلى الله من النسائك. جمع هدية. والقلائد: جمع قلادة وهي ما قلد به الهدي من نعل أو عروةِ مزادة، أو لحاء شجر الحرم، والمراد لا تحلُّوا ذوات القلائد من الهدى. ولا آمين: قاصدين البيت أى ولا تحلُّوا قتال قوم. أو ذى قوم قاصدين البيت للحجّ أو العمرة* وفي الخازن:

وقيل: أراد أصحاب القلائد: وذلك العرب في الجاهلية كانوا إذا أرادوا الخروج من الحرم قلّدوا أنفسهم وإبلهم من لحاء شجر الحرم. فكانوا يأمنون بذلك فلا يتعرض لهم أحد، فنهى الله المؤمنين عن ذلك الفعل، ونهاهم عن استحلال نزع شيء من شجر الحرم* فالمعنى: على هذا: لا تحلُّوا أخذها من شجر الحرم* وفي القرطبي: والقلائد: ما كان الناس يقلّدُونه أمنةً لهم. فهو على حذف مضاف أي ولا أصحاب القلائد. وقيل: أراد بالقلائد نفس القلائد، فهو نهى عن أخذ لحاء شجر الحرم حتى يتقلد به طلباً للأمن قاله مجاهد وعطاء وغيرهما* وللمفسرين خلاف في الآية. فذهب كثير منهم كابن عباس ومجاهد والحسن والشعبي وقتادة إلى أنها منسوخة. وذلك أن المسلمين والمشركين كانُوا يحجُّون جميعاً، فنهى المسلمون أن يمنعُوا أحداً عن حج البيت بقوله: «لا تُحلوًّا» ثم نزل بعد ذلك «إنَّما المشركُونَ نَجَسٌ» «ما كَانَ للمُشْرِكِينَ أنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله» وهؤلاء فسرّوا ابتغاء الفضل بالتجارة، وابتغاء الرضوان بأن المشركين كانوا يظنُّون فى أنفسهم أنهم على شيء من الدين وأن الحج يقربهم إلى الله بظنهم «يَبْتَغُونَ فَضْلاً» رزقاً «مِنَ رَبِهِمْ» بالتجارة «ورضْواناً مِنْهُ» بقصده بزعمهم الفاسد. وقال آخرون: إنها محكمة: وأنه تعالى أمرنا أن لا نخيف من يقصد بيته من المسلمين بدليل قوله تعالى: «يبتغُونَ فضْلاً من ربهم» أي ثواباً «وَرِضْواناً» أي يرضى عنهم. وهذا إنما يليق بالمسلم لا بالكافر. وقال أبومسلم: المراد بالآية الكفار الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلمّا زال العهد بسورة براءة زال ذاك الخطر. قلت: وفي ابن كثير: وقد حكى ابن جرير الاجماع على أنَّ المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمانٌ، وإن أمَّ البيت الحرام، أو بيت المقدس، وأن هذا الحكم منسوخ في حقهم، والله أعلم. فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به فهذا يمنع قال تعالى: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنَّما المشركُونَ نَجَسٌ فلاَ يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرامَ بَعْدَ عَامِهِمَ هَذَا» ولهذا بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تسع لمّا أمرّ الصديق على الحجيج علياً وأمره أن ينادى على سبيل النيابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ببراءة، وأن لا يحجَّ بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان. وقوله: «وإذَا حَلَلْتُمْ فاصْطَادُوا» ظاهر الأمر للوجوب. إلاَّ أنه يفيد هٰهنا الإباحة لأنه لمّا كان المانع من حل الاصطياد هو الإحرام رجع إلى أصل الإباحة. أي إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتم منه فقد أبحنا لكم ما كان محرّماً عليكم في حال الإحرام

من الصيد. وقال علماء الأصول: إنَّ هذا الأمر يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهى. فإن كان واجباً ردّه واجباً، وإن كان مستحباً فمستحب. أو مباحاً فمباح. وقوله «**ولا يجْرِمَنَّكُمْ**» معطوف على لا تحلُّوا. وجرم بمعنى كسب من حيث المعنى. ومن حيث تعد يه إلى مفعول واحد تارة وإلى مفعولين أخرى. تقول: جرم ذنباً نحو كسبه، وجرمته ذنباً كسبتُه إيّاه. وهذا هو المذكور في الآية. وعبارة المفسرين: أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل، فإن العدل واجب في كل أحد. وقال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، والعدل به قامت السموات والأ رض. وعلى القول الأ ول: «**ولا يجْرِمنّكم**» يكسبنّكم «**شَنَآنَ**» بغض «**قَوْمٍ**» لأجل «**أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الحرامِ أن تعْتَدُوا**» عليهم بالقتل وغيره. وقوله «**ولا يجرمنّكُمْ**» نهى. فإن الذين يصدون المسلمين عن دخول مكة كانوا كفاراً حر بيين. فكيف ينهى عن التعرض لهم وعن مقاتلتهم الله إلاَّ إذا كان هذا النهى منسوخاً أو يقال: إن النهي عن التعرض لهم بسبب عقد الصلح الذي وقع في الحديبية فصاروا به مؤمّنين، وعلى هذا الأساس لا يجوز التعرض لهم. وشنآن مأخوذ من شنىء المتعدّى كعلم. يقال: شنئت الرجل أشنئه أي بغضته، وهذا المصدر سماعى مخالف للقياس من وجهين: تعدى فعله وكسر عينه لأنه لا ينقاس إلا في مفتوحها اللازم كما قال في الخلاصة. وفعل اللازم مثل قعد* «**وتَعَاوَنُوا على البرِّ**» أي فعل ما أمرتم به «**والتقْوى**» على العفو والاغضاء أو على كل ما يعدُّ برّاً وتقوى. أي بترك ما نهيتم عنه «**ولا تَعَاوَنُوا على الإثم**» المعاصى «**والعدْوانِ**» الانتقام والتّشفى، أو على كل ما يورث الاثم والتجاوز عن الحدّ. والحاصل: إن الباطل والاثم لا يصلح لأن يقتدى به، و يعان عليه، وإنما اللائق بالاقتداء به والتعاون عليه هو الخير والبر وما فيه تقوى الله سبحانه وتعالى، ثم بالغ في هذا المعنى بقوله: «**واتّقُوا اللهَ**» أي في استحلال محارمه «**إنَّ اللهَ شديدُ الْعِقَابِ**» لمن خالفه في أوامره ففيه وعيد وتهديد عظيم

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة المائدة (الآية: ٣)

في الواحدى: والخطيب: قال المفسرون: نزلت هذه الآية يوم الجمعة. وكان يوم عرفة بعد العصر في حجّة الوداع سنة عشر، والنبي صلى الله عليه وسلم بعرفات على ناقته العضباء فكادت عضد الناقة تندق من ثقلها فبركت. قال طارق بن شهاب: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يا أمير المؤمنين: إنكم تقرؤن آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً فقال: أيُّ آية هى؟ قال: «**اليوم أكملتُ لكم دينكُمْ وأتمَمْتُ عليكم نعمتى**» فقال عمر: والله إنى لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله صلى الله عليه وسلم والساعة التي نزلت فيها على رسول الله صلى الله عليه وسلم: عشية يوم عرفة، في يوم عرفة، في يوم جمعة. رواه البخارى عن الحسن بن صباح. ورواه مسلم عن عبدالله بن حيمد، كلاهما عن جعفر بن عوف* وحدَّث حماد عن عباد بن أبي عمّار قال: قرأ ابن عباس هذه الآية، ومعه يهوديّ: «**اليوم أكملتُ لكُمْ دِينكُمْ وأتْمَمْتُ عَليْكُمْ نعمتى ورضيتُ لكم الإسلامَ ديناً**» فقال اليهودى: لو نزلت هذه علينا في يوم لاتخذناه عيداً. فقال ابن عباس: فإنها نزلت في عيدين اتفقا في يوم واحد، يوم جمعة وافق ذلك يوم عرفة. انتهى الواحدى. وفي أبي السعود: لمَّا نزلت هذه الآية بكى عمر رضي الله عنه: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما يبكيك ياعمر؟ قال أبكانى أنا كنا في زيادة من ديننا، فإذاً قد كمل، وأنَّه لا يكمل شيء إلاَّ نقص. فقال عليه الصلاة والسلام: صدقت. فكانت هذه الآية نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما لبث بعد ذلك إلاَّ أحداً وثمانين يوماً* قلت: وانتقل عليه الصلاة والسلام إلى الدار الآخرة إلى جوار ربّه عز وجل يوم الإثنين بعد ما زاغت الشمس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة. وقيل: في يوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول وكانت هجرته في الثاني عشر منه* وفي القرطبي: وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حين كان بمكة لم تكن إلاّ فريضة الصلاة وحدها، فلما قدم المدينة

أنزل الله عليه الحلال والحرام إلى أن حج، فلما حج وكمل الدين نزلت هذه الآية: «اليوم أكمتُ لكُمْ دينكم..» الآية. وفي الخازن: قال ابن عباس: إن في ذلك اليوم خمسة أعياد: يوم جمعة، و يوم عرفة، وعيد لليهود، وعيد للنصارى، وعيد للمجوس. ولم تجتمع أعياد لأهل الملل في يوم واحد قبله ولا بعده* وأمّا تفسير الآية: فقوله تعالى: «اليَوْمَ أكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» يعني بالفرائض والسنن والحدود والأحكام والحلال والحرام، ولم ينزل بعد هذه الآية حلال ولا حرام، ولا شيء من الفرائض. هذا معنى قول ابن عباس: وقال سعيد بن جبير وقتادة: معنى أكملت لكم دينكم، أي حيث لم يحج معكم مشرك. وخلا الموسم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمسليمن. فيكون المعنى: بأن كفيتكم خوف عدوكم وأظهرتكم عليهم. كما يقول الملوك: اليوم كمل لنا الملك. أي كفينا من كنا نخافه. وقيل: اكمال الدين لهذه الأمة أنه لا يزول ولا ينسخ. وأن شريعتهم باقية إلى يوم القيامة، وقال ابن الأنبارى: اليوم أكملت لكم شرائع الإسلام على غير نقصان كان قبل هذا الوقت، وذلك أن الله تعالى كان يتعبد خلقه بالشيء في وقت، ثم يزيد عليه في وقت آخر، فيكون الوقت الأ ول تاماً في وقته، وكذلك الوقت الثاني تاماً في وقته، فهو كما يقول القائل: عندى عشرة كاملة، ومعلوم أن العشرين أكمل منها، والشرائع التي تعبد الله بها عبادهُ في الأ وقات المختلفة مختلفة، وكل شريعة منها كاملة في وقت التعبد بها، فكمّل الله عزّ وجلّ الشرائع في اليوم الذي ذكره، وهو يوم عرفه، ولم يوجب ذلك أنَّ الدين كان ناقصاً البتة، بل كان أبداً كاملاً إلاَّ أن الأ ول كمال إلى يوم مخصوص، والثاني كمال إلى يوم القيامة، فلأجل هذا المعنى قال: «اليوم أكملتُ لكُمْ دينكُمْ»* و يقال أيضاً: أرأيت نقصان الشهر هل يكون عيباً؟ ونقصان صلاة المسافر أهو عيب لها؟ ونقصان العمر الذي أراده الله بقوله «ومَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمرٍ ولاَ يُنْقصُ مِنْ عُمُرِهِ» أهو عيب له؟ ونقصان أيام الحيض عن المعهود، ونقصان أيام الحمل... لما أنكرت أن نقصان أجزاء الدين في الشرع قبل أن تلحق به الأجزاء الباقية في علم الله تعالى؟ هذه ليست بشيء ولا عيب، روى ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال: أخبر الله نبيه والمؤمنين أنَّه قد أكمل لهم الايمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبداً. وقد أتمه فلا ينقص أبداً. وقد رضيه فلا يسخط أبداً. وقوله «وأتمَمْتُ عَلَيكُمْ نعْمَتِي» بفتح مكة ودخولها آمنين ظاهرين، وهدم منار الجاهلية وإبطال منا سكها، وأن لم يحج

معكم مشرك، ولم يطف بالبيت عريان. «وَرَضِيتُ» اخترت لكم الإسلام دينا من بين الأديان، وهو الذى عند الله لا غيره ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه» وقوله تعالى: «فَمَنِ اضطُرَّ» متصل بذكر المحرمات. أى فى قوله تعالى: «حُرِّمَت عليكُمُ الميْتَةُ..» وما بينهما اعتراض بما يوجب التجنب عنها، وهو أن تناوله فسوق وحرمتها من جملة الدين الكامل، والنعمة التامة، والإسلام المرضى. يعنى فمن اضطر إلى تناول شيء من هذه المحرمات وكان «فى مَخْمَصة» أى مجاعة حال كونه «غيرَ مُتجانِف» أى مائل متعمد «الإثم» معصية «فإنَّ الله غفورٌ» له لما أكل ممّا حرم عليه فى الآية المتقدمة: «رَحيمٌ» به فى إباحته له بخلاف المائل لاثم أى المتلبّس به كقاطع الطريق والباغى مثلا فلا يحل له الأكل. أى إذا كانا مسافرين. أما إذا كانا مقيمين فلهما الأكل منها عند الاضطرار. «فَمَنِ اضْطُرَّ غيرَ باغ ولا عَادٍ فلا إثْم عليه».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يَسْألُونَكَ ماذا أحِلَّ لَهُمْ قُلْ أحل لَكُمُ الطيّبات وما عَلَّمْتُم مِنَ الْجَوارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا علَّمَكُمُ الله فَكُلُوا مِمَّا أمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ واذكُرُوا اسْمَ الله عَلَيْهِ واتَّقُوا الله إنَّ الله سَرِيعُ الْحِسَابِ»

سورة المائدة (الآية: ٤)

في الواحدي: قال أبورافع: أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب. فقال الناسُ يا رسول الله: ما أُحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية: وهي «يسألُونَكَ ماذا أُحِلَّ لَهُمْ» رواه الحاكم أبوعبدالله في صحيحه عن أبي بكرة بن بالويه عن محمد بن ساذان، عن يعلى بن منصور، عن ابن أبي زائدة. وذكر المفسرون شرح هذه القصّة فقالوا: قال أبورافع: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي صلى الله عليه وسلم واستأذن عليه، فأذن له فلم يدخل، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: قد أذنا لك يا رسول الله. فقال: أجل يا رسول الله، ولكنا لن ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب. فنظروا فإذا في بعض بيوتهم جرو، قال أبورافع: فأمرني ألا أدع كلباً بالمدينة إلاّ قتلته حتى بلغت العوالى، فإذا امرأة عندها كلب يحرسها فرحمتها فتركته، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأمرني بقتله، فرجعت إلى الكلب فقتلته، فلمّا أمر رسول الله

صلى الله عليه وسلم بقتل الكلاب جاء ناسٌ فقالُوا يا رسول الله: ماذا يحلُّ لنا من هذه الأمّة التي تقتلها؟ فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى هذه الآية، فلمّا نزلت أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في اقتناء الكلاب التي ينتفع بها. ونهى عن إمساك ما لا ينفع فيه منها. وأمر بقتل الكلب الْكَلِبِ والعقور، وما يضرُّ و يؤذى، ورفع القتل عمَّا سواهما وما لا ضرر فيه* وقال سعيد بن جبير: نزلت هذه الآية في عدى بن حاتم وزيد بن المهلهل: الطائيين، وهو زيد الخيل: الذي سمّاه الرسول صلى الله عليه وسلم زيد الخير. فقالا يا رسول الله: إنَّا قوم نصيد بالكلاب والبزاة، فإن كلاب آل درع وآل حوريّة تأخذ البقر والحمر والظباء والضبّ، فمنه ما يدرك زكاته، ومنه ما يقتل فلا يدرك زكاته، وقد حرّم الله الميتة، فماذا يحلُّ لنا منها؟ فنزت هذه الآية **«يسألُونَك ماذا أحِلَّ لَهُم»**؟ **«قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطيبات»** يعنى الذبائح **«ومَا علمْتُمْ من الجوارح»** يعني وصيد ما علمتُم من الجوارح، وهي الكواسب من الكلاب وسباع الطير. انتهى الواحدي* وما في الواحدي في الغرائب بحروفه، وقريب من ذلك في الخازن، وذكر اسماء الناس بقوله: فدخل عاصم وسعد بن أبي خيثمة وعويم بن ساعدة على النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: ماذا أحلّ لنا؟ فنزلت **«يَسْألُونَكَ مَاذا أُحلّ لَهُمْ..»** ومثله في الطبرى مع عدم ذكر لأسماء. أمَّا التفسير: فقوله تعالى: **«يَسْألُونَكَ»** أي يسألك أصحابك يا محمد ما الذي أحل لهم أكله من المطاعم والمآكل، كأنهم لمَّا تلا عليهم من خبائث المآكل ما تلا، سألُوا عمّا أحل لهم: تلك عبارة الخازن. أي كأنهم حين تلى عليهم ما حرم عليهم من خبيثات المآكل سألُوا عمّا أحل لهم، والسؤال في معنى القول، وإنما لم يقل ماذا أحل لنا على حكاية قولهم نظراً إلى ضمير الغائب في يسألونك، ومثل هذا يجوز فيه الوجهان. تقول: أقسم زيد ليفعلن، أو لأفعلن. والسؤال من المؤمنين **«مَاذا أُحلَّ لَهُمْ»** من الطعام **«قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ»** المستلذات عند أصحاب الطباع السليمة، وهذا مقيد بما لم يرد نص بتحريمه من كتاب أو سنة أو إجماع ولا قياس كذلك، والمراد ما ذبح على اسم الله عزّ وجلّ فالآية الكريمة نصاً فيما يحل ويحرم من الأطعمة* وأعلم أن الأصل في الأعيان الحلّ لأنها خلقت لمنافع العباد : **«هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعاً»** واستثنى من ذلك أصول: الأول: تنصيص الكتاب على تحريمه كالميتة والدّم.. وغيرهما كما هو منصوص عليه في الكتاب العزيز. الثاني: تنصيص السنة كما روى عن جمع من الصحابة

أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عام خيبر عن نكاح المتعة وعن لحوم الحمر الأهلية والبغال كالحمير. ولا تحرم الخيل عند الشافعي لما روى عن جابر أنه قال: نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البغال والحمير ولم ينهنا عن الخيل. الثالث: ما هو في معنى المنصوص كالنبيذ فإنه مسكر كالخمر فيشاركها في التحريم. الرابع: كل ذى ناب من السباع وذى مخلب من الطيور، فيدخل تحت هذا الأصل الكلب والأسد والذئب والنمر والفهد والدب والقرد والفيل لأنها تعدو بأنيابها، ولا يحل من الطيور البازى والشاهين والصقر والعقاب وجميع جوارح الطير. الخامس: ما أمر بقتله من الحيوانات فهو حرام لأن الأمر بقتله إسقاط لحرمته ومنع من اقتنائه ولو كان مأكولاً لجاز اقتناؤه للتسمين وإعداده للأكل وقت الحاجة. ومنه الفواسق الخمس، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: [خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والفأرة والغراب الأ بقع والكلب والحدأة]. السادس: ما ورد النهي عن قتله فهو حرام لأنه لو كان مأكولاً لجاز ذبحه ليؤكل كما روى أنه صلى الله عليه وسلم نهى عن قتل الخطاطيف، وكذا الصرد والنملة والنحلة والهدهد والخفاش. السابع: الاستطابة والاستخباث لقوله تعالى: «**قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ**» قال العلماء: فيبعد الرجوع إلى طبقات الناس، وتنزيل كل قوم على ما يستطيبون و يستخبثون لأن ذلك يوجب اختلاف الأحكام في الحلّ والحرمة. وذلك يخالف موضوع الشرع، فالعرب أولى أمّة بالاعتبار لأن الدين عربى وهم المخاطبون أولاً، وليس لهم ترفّه وتنعم يورث تضييق المطاعم على الناس، ولكن المعتبر استطابة سكان القرى، والبلاد دون أجلاف البوادى الذين لا تميز لهم. وأيضاً يعتبر أصحاب اليسار والترفه دون أصحاب الضرورات والحاجات. وأيضاً المعتبر حال الخصب والرفاهية دون حال الجدب والشدّة. والحشرات بأسرها مستخبثة كالذباب والخنفساء والجعلان وحمار قبان إلاّ الضبّ فإنه صلى الله عليه وسلم قال: [لا آكله ولا أحرّمه] وفي رواية [لكن نفسى تعافه]. وقوله: «**وَ**» أحل لكم صيد «**مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الجَوَارِحِ**» الكواسب من الكلاب والسباع والطير إذا كنتم «**مُكَلِّبِينَ**» لها. حال من كلَّبْتَ الكلب إذا علمته على الصيد، وهو مراد في الكلام لدلالة الباقى عليه ولأنهم سألوا عن الصيد. والجوارح جمع جارحة، وهى الكواسب من السباع والطير كالفهد إلى آخر ماقدّمته لك، وسميت جوارح من الجرح لأنها تجرح الصيد عند امساكه وقوله: «**تُعَلِّمُونَهُنَّ**» أي تؤدبونَهُنَّ «**مِمَّا عَلَّمَكُمُ**

الله» من عِلْمِ التكليب لأن بعضه إلهام من الله تعالى، أو مما عرفكم أن تعلموه من اتباع الصيد بإرسال صاحبه وانزجاره بزجره، واعلم أنه يعتبر في صيرورة الكلب معلماً أمور. منها: أن ينزجر بزجر صاحبه في ابتداء الأمر، وكذا إذا انطلق واشتد عدوه وحدّته يشترط أن ينزجر بزجره أيضاً على الأشبه فيه يظهر التأدب. ومنها أن يسترسل باسترسال صاحبه. أي إذا أُغرى بالصيد هاج. ومنها: أن يمسك الصيد لقوله: «**فكُلُوا ممَّا أمْسَكنَ عَليكُمْ**» وفي هذا اعتبار وصفين أحدهما أن يخطفه ولا يخليه. والثاني: أن لا يأكل منه لقوله عليه الصلاة والسلام لعدي بن حاتم: [فإن أكل فلا تأكل منه، فإنما أمسكه على نفسه] وجوارح الطير يشترط فيها أن تهيج عند الاغراء، وأن تترك الأكل، ولكن لا مطمع في انزجارها بعد الطيران. و يشترط عند الشافعي تكرر هذه الأمور بحيث يغلب على الظن تأديب الجارحة بها، وأقله ثلاث مرات، ولم يقدر الأكثرون عدة المرات، كأنهم رأوا العرف مضطرباً وطباع الجوارح مختلفة فيرجع إلى أهل الخبرة بطباعها، وعن سلمان الفارسي وسعد بن أبي وقاص وابن عمر وأبي هريرة: أنه يحلّ، وإن أكل. فعندهم الإمساك هو أن يحفظه ولا يتركه. ومعنى الآية: كلوا ما تبق لكم الجوارح، وإن كان بعد أكلها منه. ومن في ممّا أمسكن. قيل زائدة: نحو كلوا من ثمره، وقيل: مفيدة وذلك أنَّ بعض الصيد لا يؤكل كالعظم والدم والريش. وقال سعيد بن جبير وأبوحنيفة والمزنى: يؤكل ما بقى من جوارح الطير، ولا يؤكل ما بقى من الكلب. والفرق تأديب الكلب بالضرب على الأكل ممكن، وتأديب الطير عليه غير ممكن، ولا خلاف أنه إذا كانت الجارحة معلمة، ثم تصيد صيداً وجرحته وقتلته وأدركه الصائد ميتاً فهو حلال. وجرح الجارحة كالذبح. وإن قتلته بالفم من غير جرح ففي حلّه خلاف. الغرائب* وقوله: «**واذْكُرُوا اسْمَ الله عَلَيْهِ**» قال ابن عباس: يعني إذا أرسلت جارحك فقل بسم الله. وإن نسيت فلا حرج. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لعدىّ: [إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله عليه فكل] فعلى هذا يكون الضمير في عليه عائداً على ما علّمْتم من الجوارح، أي سمُّوا الله عليه عند إرساله. وقيل: الضمير عائداً إلى ما أمسكن عليكم. والمعنى: سمُّوا الله عليه إذا أدركتم ذكاته. وقيل: يحتمل أن يكون الضمير عائدُاً إلى الأكل. يعنى واذكروا اسم الله عليه عند الأكل، فعلى هذا تكون التسمية شرطاً عند إرسال الجوارح، وعند الذبيحة وعند الأكل. الخازن* وعلى الأول فالتسمية محمولة على

الندب عند الشافعي. وعلى الوجوب عند أبي حنيفة* وقوله: «**واتّقُوا الله**» يعنى واحذروا مخالفة الله. يعنى فيما أحلّ لكم وحرّم عليكم* «**إنَّ الله سَريعُ الحِسَاب**» إذا حاسب عباده يوم القيامة، ففيه تخويف لمن خالف أمره وفعل ما نهاه عنه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذكُرُوا نِعْمَتَ الله عَلَيْكُمْ إذْ هَمَّ قَوْمٌ أنْ يَبْسُطُوا إلَيْكُمْ أيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ واتّقُوا الله وعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمِنُونَ» سورة المائدة (الآية: ١١)

في الواحدى: حدّث جابر بن عبدالله الأنصارى رضي الله عنه: أنَّ رجلاً من محارب يقال له غورث بن الحارث، قال: لقومه من غطفان ومحارب: ألا أقتُل لكم محمداً؟ قالوا: نعم، وكيف تقتله؟ قال: أفتك به، قال: فأقبل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس وسيفه في حجره، فقال يا محمد: أنظر سيفك هذا؟ قال: نعم، فأخذه فاستلّه، ثم جعل يهزه ويهمّ به، فكبته الله عزّ وجلّ، ثم قال يا محمد: ما تخافنى؟ قال: لا. قال: ألا تخافنى وفي يدى السيف؟ قال: يمنعنى الله منك، ثم أغمد السيف. وردّه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأنزل الله تعالى هذه الآية «**إذكروا**» نصر الله عليكم «**إذْ هَمَّ قَوْمٌ أنْ يَبْسُطُوا إلَيْكِم أيْدِيَهُمْ..**» وفي رواية لجابر أيضاً أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل منزلاً. وتفرق الناس في العضاة يستظلُّونَ تحتها، فعلّق النبيُّ صلى الله عليه وسلم سلاحه على شجرةٍ، فجاء أعرابى إلى سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قام عليه. فقال: من يمنعك منّى؟ قال: الله. قال ذلك الأعرابى: مرتين أو ثلاثاً، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: الله، فأغمد الأعرابى السيف. فدعا النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه. فأخبرهم خبر الأعرابى، وهو جالسٌ إلى جانبه لم يعاقبه. وقال مجاهد والكلبي وعكرمة: قتل رجلان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من بنى سليم، وبين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قومهما موادعة فجاء قومهما يطلبون الدية، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبوبكر وعمر وعثمان وعليّ وغيرهم، فدخلوا على كعب بن الأشرف وبنى النضير يستقرضهم في عقلهما، فقالوا: نعم، يا أبا القاسم. قد آن لك أن تأتينا وتسألنا حاجة، اجلس حتى نطعمك ونعطيك الذي تسألنا، فجلس هو وأصحابه، فخلا

بعضهم ببعض، وقالوا: إنكم لن تجدوا محمداً أقرب من الآن فمن يظهر إلى هذا البيت فيطرح عليه صخرة فيرحنا منه؟ فقال عمرو بن جحاش بن كعب: أنا، فجاء إلى رحا عظيمة ليطرحها عليه، فأمسك الله يدَهُ، فجاء جبريل عليه السلام وأخبره بذلك فخرج النبي صلى الله عليه وسلم وأنزل الله هذه الآية* كذا في الواحدى والغرائب بحروفه وألفاظه* وفي الغرائب: وقيل: نزلت في قصة عُسفَانَ حين همّ الأعداء أن يواقعوهم فنزلت صلاة الخوف* وفيل: إنها لم تنزل في واقعة خاصة، ولكن المراد أن الكفار أبداً كانوا يريدون إيقاع البلاء والنهب والقتل بالمسلمين فأعزّ الله المسلمين، وفلّ شوكة الكفار، وقوى دين الإسلام، وأظهره على الأديان* وقد أورد الخطيب قصة عُسْفان بقوله: روى أن المشركين رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه قاموا إلى صلاة الظهر، يصلون معاً وذلك بعسفان (وهو وادٍ بينه و بين مكة مرحلتان) فى غزوة ذى أنمار، فلمّا صلُّوا ندموا أن لا كانُوا أكبُّوا عليهم، فقالوا: إنَّ لهم بعدها صلاة هى أحب إليهم من آبائهم، وأبنائهم يعنون صلاة العصر، وهمُّوا أن يوقعُوا بهم إذا قامُوا إليها، فنزل جبريل عليه السلام بصلاة الخوف. رواه مسلم وغيره. والآية أشارت إلى ذلك. وفي الطبرى زيادة على ما ذكرت لك من الأقوال عن مجاهد في: «**اذكروا نعمة الله عليكُمْ إذْ همَّ قومٌ أن يبْسطُوا إليكُمْ أيديَهُمْ فكفَّ أيديَهُمْ عنكم**» يهود حين دخل النبي صلى الله عليه وسلم حائطاً لهم، وأصحابه من وراء جدار لهم، فأستعانهم في مغرم في دية غرمها، ثم قام من عندهم فأتمروا بينهم بقتله، فخرج يمشى معترضاً ينظر إليهم خيفتهم، ثم دعا أصحابه رجلاً رجلاً حتى تتامُّوا إليه، قال الله عز وجل: «**فكفّ أيديَهُمْ عنكُمْ واتّقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون**» وهكذا بقيّة الأقوال في نفس المعنى.

أما التفسير: «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عليْكُمْ**» النعمة في الحقيقة هي قوله تعالى: «**فكفّ أيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ**» وهو المراد بقوله: «**إذْ**» حين «**همّ قَوْمٌ**» في الجلال: هم قريش وقد علمتَ منهم من قال اليهود ومنهم من قال قريش، ولا مانع من حمل الآية على العموم «**أنْ يَبْسُطُوا إليكُمْ أيْدِيَهُمْ**» أي بالقتل والبطش بكم فصرفهم عنكم، وحال بينكم و بين ما أرادوهُ بكم «**فكفَّ أيْدِيَهم عنكُمْ**» أي منعهم مما أرادوه بكم «**واتّقُوا الله**» يعنى فيما أمركم به ونهاكم عنه «**وعلى الله فَلْيَتوكّل الْمُؤمِنُون**» أمر الله المؤمنين بالتوكل عليه لأنه هو الكافى عباده جميع أمورهم، فإذا فَعَلُوا ذلك وتوكلوا عليه

حفظهم ورعاهم ممن أرادهم بسوء كما كف أيدى اليهود وقريش عنهم لمّا أرادُوا أن يفتكون به، ومن قال إن المراد بالقوم في قوله «إذْ هَمَّ قَوْمٌ» هم اليهود فهو أولى بالصواب لأنه عقبَ الآية بذم اليهود، وذكر قبح أفعالهم وخيانتهم* وذلك قوله تعالى: «ولقدْ أخذْنا ميثاقَ بنى إسرائيل..» الآيات.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إنمَّا جَزاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ ورسُولَهُ و يَسْعَوْنَ فى الأَرْضِ فَسَاداً أنْ يُقَتَّلُوا أوْيُصَلَّبُوا أوْتُقَطَّعَ أيْدِيهِمْ وأرْجُلُهُمْ مِنْ خلافٍ أوْيُنْفَوْا مِنَ الأرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ في الدنْيا ولَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ* إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فاعْلَمُوا أنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة المائدة (الآية: ٣٣، ٣٤)

في الغرائب: عن قتادة، عن أنس أنَّ الآية نزلت في العرنيّين الذين قتلُوا راعى رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستاقُوا الذود، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثرهم وأمر بقطع أيديهم وأرجلهم ثم سمل أعينهم، وتركهم حتى ماتوا* وقيل: نزلت في قوم أبى برزة الأسلمى، وكان بينه و بين رسول الله صلى الله عليه وسلم عهدٌ، فمرَّ بهم قوم من كنانة يريدون الإسلام، وأبوبرزة غائب، فقتلُوهم وأخذوا أموالهم* وقيل: إنها في بنى اسرائيل الذي حكى الله عنهم أنهم مسرفون في القتل* وقيل: فى قطاع الطريق من المسلمين.. وهذا قول أكثر الفقهاء. قالوا: ولا يجوز حمل الآية على المرتدين لأن قتل المرتد لا يتوقّف على المحاربة وإظهار الفساد في الأرض، ولأنه لا يجوز الاقتصار في المرتد على قطع اليد أو النفى، ولأنَّ حدّه يسقط بالتوبة قبل القدرة عليه و بعدها. ولأنّ الطلب غير مشروع في حقه، ولأن اللفظ عام* والأول أصح لما رواه الواحدى: عن أنس رضي الله عنه: أن رهطاً من عُكل وعُرَيْنَةَ أتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله: إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف فاستوخمنا المدينة، فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذوْدٍ أن يخرجُوا فيها فليشربُوا من ألبانها وأبوالها، فقتَلُوا راعى رسول صلى الله عليه وسلم، واستقاوا الذود فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى آثارهم فأتى بهم

فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينهم، فتركوا في الحرّة حتى ماتُوا على حالهم. فنزلت الآية «**إنما جَزاءُ الّذِينَ يُحَاربُونَ الله ورسُولَهُ..**» الآية. رواه مسلم عن عبيد الأعلى عن سعيد إلى قول قتادة عن أنس ورواه عنه أحمد والبخارى. زاد البخارى أن قتادة الذي روى الحديث عن أنس. وروى أبوداود والنسائى عن أبى الزناد: أن رسول الله لمّا قطع الذين سرقُوا لقاحه، وسَمَلَ أعينهم بالنار، عاتبه الله في ذلك وأنزل «**إنَّما جَزاءُ الّذِينَ يُحَاربُونَ الله ورسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فى الأرْضِ فَسَاداً أن يُقَتَّلوا أويُصَلَّبُوا**» الآية. وفي رواية للبخارى قال أبوقلابة: وأتى شيء أشد مما صنع هؤلاء، ارتدُّوا عن الإسلام وقتلوا وسرقُوا* قلت: ولذا قال مالك والشافعى وأبوثور نزلت الآية فيمن خرج من المسلمين يقطع السبيل و يسعى في الأرض بالفساد* وفي رواية لأبى قلابة: فهؤلاء قومٌ سرقُوا وقتلُوا وكفَرُوا بعد إيمانهم وحاربوا الله ورسوله. زاد في رواية له: وأنزل الله عز وجلّ «**إنَّما جزاءُ الّذِينَ يُحَاربونَ الله ورسُولَه..**» الآية.

أما تفسير الآية: «**إنَّما جزاءُ الّذِينَ يُحَاربُونَ الله ورسُولَه**» بمحاربة المسلمين على حذف مضاف. أي أولياء الله وأولياء رسوله. وهم المسلمون، وفيه إشارة إلى أن ذكر الله تمهيد لرسول الله، فإن محاربة المسلمين في حكم محاربة الرسول، لأنَّ ما ذكر فيها من حكم قطع الطريق شامل للقطاع على المسلمين ولو بعد الرسول بأعصار لأنهم يحاربونه حيث يحاربون من هو على طريقته وأهل شريعته «**ويَسْعَوْنَ فى الأرْضِ فَسَاداً**» بقطع الطريق، هذا هو معنى محاربة المسلمين. وفى نصب فساداً ثلاثة أوجه: الأول: أنه مفعول لأجله أي يحاربون و يسعون لأجل الفساد. والثاني: أنه مصدر واقع موقع الحال. أي و يسعون في الأرض مفسدين. والثالث: أنه منصوب على المصدر أي يفسدون في الأرض بسعيهم إفساداً «**أنْ يُقَتّلوا أوْيُصَلَّبُوا أوْ تُقَطَّعَ أيْدِيهُمْ وأرْجُلَهُمْ مِنْ خِلافٍ**» أي أيديهم اليمنى وأرجلهم اليسرى «**أوْيُنْفَوْا مِنَ الأرْضِ**» أوْ. لترتيب الأحوال. فالقتل لمن قتل فقط والصلب لمن قتل وأخذ المال. والقطع لمن أخذ المال ولم يقتل. والنفى لمن أخاف فقط قاله ابن عباس وعليه الشافعى وأصح قوليْه. فتقدير الآية أن يقْتلُوا إن قتلُوا..الخ. والنفى مقيّد بأن أخافوا السبيل فقط. وكانُوا ينفونهم إلى دهلك وهو بلد فى أقصى تهامة، وناصع وهو بلد من بلاد الحبشة. الكشاف* وعن جماعة منهم الحسن والنخعى: أنَّ الإمام مخيّر بين هذه العقوبات في كل قاطع طريق من غير تفصيل، وذلك فيما يرى فيه المصلحة

للمسلمين «**ذَلِكَ لَهُمْ خزىٌ فى الدُّنْيا**» ذلّ وفضيحةٌ، وذلك إشارة إلى الجزاء المتقدّم «**فى الدنيا وَلَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**» هوعذاب النَّار. استحقاق الأمرين إنما هو للكافر، وأمَّا المسلم فإنه إذا أقيم عليه الحد في الدنيا سقطت عنه عقوبة الآخرة، فالآية محمولة على الكافر، أو أنَّ فيها تقديراً في قوله: وَلَهُمْ فى الآخرة ..الخ. أي إن لم تقع عليه الحدود المذكورة في الدنيا «**إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا**» من المحاربين والقطاع* «**مِنْ قَبْلِ أنْ تَقْدِروا عَلَيْهِمْ فاعْلَمُوا أنَّ الله غَفُورٌ**» لهم ما أتوهُ «**رَحِيمٌ**» بهم. عبر بذلك دون فلا تحدُّوهم ليفيد أنه لا يسقط عنه بتوبته إلا حدود الله، دون حقوق الآدميين. وعبارة المنهج مع شرحها وتسقط عنه بتوبته قبل أن تقدروا عليهم. فلا يسقط عنه ولا عن غيره بها قول ولا مال. ولا باقى الحدود من حدّ زنا وسرقة وشرب وقذف لأن العمومات الواردة فيها لم تفصل بين ما قبل التوبة وما بعدها، بخلاف قاطع الطريق. ومحل عدم سقوط باقى الحدود بالتوبة في الظاهر، أمَّا بينه و بين الله تعالى فتسقط* وقال الشافعى إذا تاب بعد القدرة عليه لم يسقط عنه ما يختص بقطع الطريق من العقوبات لأنَّه متّهم حينئذٍ بدفع العذاب عنه، وفي سائر الحدود بعد القدرة عليه* قيل: يكفى في التوبة إظهارها كما يكفى إظهار الإسلام تحت ظلال السيوف، والأصح أنَّه لابد مع التوبة من إصلاح العمل لقوله تعالى في الزنا «**فان تابا وأصلحا فأعرضُوا عنهما**» وفي السرقة «**فَمَنْ تَابَ من بَعْدِ ظُلْمِهِ وأَصْلَحَ**».

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ فاقْطَعُوا أيْدِيَهُمَا جَزاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ الله والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ* فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وأَصْلَحَ فإنّ الله يَتُوب عليه إنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ» سورة المائدة (الآية: ٣٨، ٣٩)

فى الواحدى : قال الكلبىّ: نزلت فى طعمة بن أبيرق سارق الدرع. وقد مضت قصته. وكذا فى الخازن قال ابن السائب: نزلت فى طعمة بن أبيرق. أى الذى تقدمت قصته فى سورة النساء. ولم يذكر المفسرون غير ما ذكره الواحدى والخازن. قوله تعالى: «**والسَّارِقُ والسَّارِقَةُ**» أل فيهما موصولة مبتدأ ولشبهه بالشرط دخلت الفاء فى خبره وهو: «**فاقْطَعُوا أيْدِيَهُمَا**» أى يمين كل واحدٍ منهما من الكوع، و بيّنت السنة أنّ الذى يقطع

فيه ربع دينار فصاعداً، وأنه إذا عاد قطعت رجله اليسرى من مفصل القدم، ثم اليد اليسرى، ثم الرجل اليمنى، وبعد ذلك يعزّر. وإنما سمى السارق سارقاً لأنه يأخذ الشيء الذى ليس له أخذه فى خفاء. ومن حرز مثله. ومنه استرق السمع مستخفيا. وقد قطع السارق فى الجاهلية، وأول من حكم بقطع يده فى الجاهلية. الوليد بن المغيرة، وأقرّ الله قطعه فى الاسلام، فكان أول سارق قطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الإسلام من الرجال: الخيار بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، ومن النساء مرّة بنت سفيان بن عبد الأسد من بنى مخزوم، وقطع أبو بكر اليمنىَّ الذى سرق عقداً لأسماء بنت عميس: زوج أبى بكر الصديق رضى الله عنه، فقطع يده اليسرى. وقطع عمر يد ابن سمرة. أخى عبدالرحمن بن سمرة. ولا خلاف فيه، ولا حجّة قاطعة لمن قال: تقطع يد السارق بأقل من ربع دينار، وما ورد فى أقل من ذلك، فإنه خرج مخرج التحذير بالقليل عن الكثير كما جاء فى معرض الترغيب بالقليل مجرى الكثير فى قوله عليه الصلاة والسلام [من بنى لله مسجداً ولو مثل مَفْحَصِ قطاة بنى الله له بيتاً فى الجنّة] والمراد بسرقة البيضة أنها بيضة الحديد كما فسّرها البخارى: لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده، والحبل فتقطع يده. ولا قطع على المختلس والمنتهب والمعتمد على القوة، ولا على المودع إذا جحد خلافاً لأحمد. وأما السارق فيشترط فيه التكليف والتزام الأحكام والاختيار. فيقطع الذمى والمعاهد، ولا يقطع المكره. وإنما تثبت السرقة بثلاث حجج باليمين المردودة، أو بالاقرار، أو بشهادة رجلين. و يتعلّق بها حكمان: الضمان والقطع. وقال أبو حنيفة: القطع والغرم لا يجتمعان. وهو خلاف ما قاله الشافعى. دليله قوله عليه الصلاة والسلام [على اليد ما أخذت حتى تؤدى] يوجب الضمان. وقد اجتمع فى هذه السرقة أمران، وحق الله لا يمنع حق العباد، ولهذا يجتمع الجزاء والقيمة فى الصيد المملوك، ولو كان المسروق باقياً وجب ردّه بالاتفاق، وحجة أبى حنيفة: قوله تعالى: «**جَزَاءً بِمَا كَسبَا نكالاً**» أى عقوبة لهم. والجزاء هو الكافى، فهذا القطع كاف فى جناية السرقة، وردّ بلزوم ردّ المسروق عند كونه قائماً، ولأن القطع علة لفعل السرقة لا لعلة المسروق. أمّا كيفيّة القطع، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم أتى بسارق فقطع يمينه. قال الشافعى: فإن سرق ثانياً قطعت رجله اليسرى، فإن سرق ثالثاً فيده اليسرى، فإن سرق رابعاً فرجله اليمنى و به قال مالك، وروى ذلك عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم. وعن أبى حنيفة وأحمد: لا

يقطع فى الثانية وما بعدها لما روى عن ابن مسعود أنه قرأ فاقطعُوا أيْمانهما. وضعّفه الشافعى. بأن القراءة الشاذة لا تعارض ظاهر القرآن المقتضى لتكرر القطع بتكرر السرقة. مكان القطع: اتفقوا على أنه تُقطع اليد من الكوع والرجل من المفصل بين الساق والقدم. والسيد يملك إقامة الحد على مماليكه لعموم قوله: «**فاقطعُوا**» ولم يجوزه أبو حنيفة، واحتج المتكلّمون بالآية فى أنه يجب على الأمة نصب الإمام لأن هذا التكليف لا يتم إلاّ به. وما لا يتم الواجب إلاّ به ــ وكان مقدوراً للمكلف فهو واجب ــ وانتصاب جزاء ونكالاً على أنه مفعول لهما. والعامل اقطعوا أى جازوهم ونكلوا بهم جزاء بما كسبا نكالاً من الله. «**فَمَنْ تَابَ**» من السرقة «**مِنْ بعْدِ ظُلْمِهِ**» أى سرقته فرجع عنها بعد أن ظلم غيره بها «**وأصْلَحَ**» عمله، ومن جملة الاصلاح ردّ ما سرقه، أو بَدَلَهُ لصاحبه: «**فإنَّ الله يتُوبُ عَلَيْهِ**» بشروط التوبة المعروفة. وهى الندم على ما مضى، والعزم على تركه فى المستقبل. عن أبى أميّة المخزومى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [ما أخالك سرقت] فقال: بلٰى، فأعاد عليه مرتين أو ثلاثاً. كل ذلك يعترف، فأمر به فقطع، ثم جىء به فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: [اسْتغفر الله وتب إليه] فقال الرجل: أستغفر الله وأتوب إليه، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: [اللهمّ تب عليه] أخرجه أبو داود والنسائى بمعناه. «**إنَّ الله غفورٌ**» له «**رحيمٌ**» به.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الّذينَ يُسَارِعُونَ فى الكُفْرِ من الّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بأفْواهِهِمْ وَلَمْ تؤمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الّذِينَ هادُوا سَمَّاعُونَ لِلكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يأتُوكَ يُحرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مواضِعِهِ يَقُولُونَ إنْ أوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وإنْ لَمْ تُؤتَوْهُ فاحْذَرُوا ومَنْ يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شيْئاً أولئكَ الّذِينَ لَمْ يُرِدِ الله أنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فى الدّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فى الآخِرَةِ عَذَابٌ عظيمٌ» سورة المائدة (الآية: ٤١)

فى الواحدى : قال البراء بن عازب: مرّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم يهودى مُحمَّماً مجلوداً فدعاهم. فقال [أهكذا تجدون هذا الزانى فى كتابكم]؟ قالوا: نعم، قال: فدعا رجلاً من علمائهم فقال [أنشدك الله الذى أنزل التوراة على موسى عليه السلام:

هـكـذا تجـدون حـدَّ الزانى فى كتابكم]؟ قال: لا، ولولا أنك نشدتنى لم أخبرك، نجد حدّ الـزانى فى كـتـابـنـا الرجم، ولكنه كثر فى أشرافنا، فكنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخـذنـا الـوضـيـع أقـمـنـا عـلـيـه الحدّ، فـقلنا: تعالوا نجتمع على شيء نقيمه على الشريف والـوضـيـع، فـاجتمعنا على التحميم، والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتُوه، فأمر به فرجم. فأنزل الله تعالى: **«يا أيُّها الـرَّسُـولُ لا يـحْـزُنْـكَ الّـذِيـنَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفرِ»** ـــ إلى قوله ـــ: **«إنْ أوتيتُمْ هذا فـخـذُوه»** ـــ يـقـولـون أئـتـوا محـمداً فإن أفتاكم بالتَّحميم والجلد فخذُوا به، وإن أفتاكم بـالرجم فاحذروا ـــ قوله تعالى: **«وَمَن لم يحكُمْ بِمَا أنْزَلَ الله فأولئكَ هُمُ الظالمونَ»** ـــ قـال فى اليهود إلى قـولـه: **«ومـنْ لَـمْ يَـحْـكُـمْ بِمَا أنْزَل الله فأولئكَ هُمُ الكَافرون»** ـــ :**«وَمَنْ لم يحـكُـمْ بِـمَـا أنزل الله فأولِئكَ هُمْ الفَاسِقُون»** قال: نزلت كلها فى الكفار. رواه مـسـلـم عـن أبى بـكـر بـن أبى شيبة* وعبارة الخطيب: روى أن شريفاً فى خيبر زنى بـشـريـفـة، وكانا محصنيْن، وحدهما الرجم فى التوراة، فكرهُوا رجمهما لشرفهما، وقالوا: إن هـذا الرجل الذى بيثرب ليس فى كتابه الرّجْم، ولكن الضرب، فأرسلوهما مع رهط منهم إلى بنى قـريـظـة لـيـسـألـوا رسـول الله صلى الله عـليه وسلم عنه. وقالوا: إن أمركم بالجلد والـتحميم ـــ أى تسويد الوجه من الحمة وهى السواد ـــ فاقبلوا، وإنْ أمركم بالرجم فلا، فـأتـوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالوا يا محمد: أخبرنا عن الزنا والزانية إذا أحصنا مـا حـدّهـمـا فى كـتـابك؟ فقال: هل ترضون بقضائى؟ فقالوا: نعم، فنزل جبريل بالرجم، فـأخـبـرهـم بـذلك، فأبوْا أن يأخذوا به، فقال له جبريل: اجعل بينك و بينهم ابن صوريا ووصـفـه. فـقـال لهـم رسـول الله صلى الله عـليه وسلم: هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يـسـكـن فـدك يقال له ابن صوريا؟ قالوا: نعم فقال هو أيُّ رجل فيكم؟ فقالُوا: هو أعلم يهوديّ بقى على وجـه الأرض بمـا أنـزل الله على موسى بن عمران فى التوراة، قال: فأرسلوا إلـيـه، فـفـعلوا فأتاهم، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم: أنت ابن صوريا؟ قال: نعم، قـال: أعـلمُ اليهود؟ قال: كذلك يزعمون. قال: تجعلونه بينى و بينكم؟ قالوا: نعم، فقال رسـول الله صلى الله عـلـيـه وسلم [أنْشُدُكَ الله الذى لا إله إلاَّ هو الذى فلق البحر لموسى، ورفع فوقهم الطور، وأنجاكم وأغرق آل فرعون، والذى أنزل عليكم كتابه وحلاله وحرامه هـل تجـدون فـيه الرجم عمن أحصن؟] قال: نعم، فوثب عليه سفلةُ اليهود، فقال: خفت

إن كذبت أن ينزل علينا العذاب، ثم سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أشياء كان يعرفها من أعلامه، فقال: أشهد ألا إلٰه إلاّ الله وأنك رسول الله النبىّ الأمىّ العربىّ الذى بشّر به المرسلون، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالزانيين فرجما عند باب مسجده، وقال [اللهم إنى أول من أحيا أمرك إذ أماتوه] فأنزل الله عزّ وجلّ: **«يا أيّها الرسُولُ لا يَحْزُنْكَ الّذِينَ يُسَارِعُونَ فى الكفر..»** الآية* وروى أن اليهود جاؤا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكروا له أن رجلاً منهم وأمرأة زنيا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟ قالوا: نفضحهم ويجلدون، فقال عبدالله بن سلاّم: كذبتم إن فيها آية الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، وقرأ ما بعدها، فقال له عبدالله: ارفع يدك، فرفع يده فإذا فيها آية الرجم. قالوا: صدقت يا محمد، فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما، قال عبدالله بن عمر رضى الله عنهما: فرأيت الرجل يقى بيده عن المرأة الحجارة. رواه مسلم عن ابن عمر: قلت: وقد كانت آية الرجم فى القرآن فنسخت تلاوتها و بقى حكمها. روى البيهقى عن ابن عباس وابن عمر رضى الله عنهم أنه قال فى خطبته: إن الله بعث محمداً وأنزل عليه كتاباً. وكان فيما أنزل آية الرجم فتلوْناها ووعيناها: الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم* وفى ابن كثير: قيل نزلت فى أقوام من اليهود قتلوا قتيلاً، وقالوا: تعالوا نتحاكم إلى محمد. فإن حكم بالدية فاقبلوه، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه* والصحيح أنها نزلت فى اليهوديْين اللذين زنيا.. وعليه علماء التفسير وعبارة الخازن: قال علماء التفسير: إن رجلاً وامرأة من أشراف يهود خيبر زنيا وكانا محصنين، كان حدهم الرجم عندهم فى حكم التوراة، فكرهت اليهود رجمهما لشرفهما، فقالوا: إن هذا الرجل بيثرب يعنون محمداً صلى الله عليه وسلم، وليس فى كتابه الرجم. ولكن الضرب، فأرسلوا إلى اخوانكم بنى قريظة، فإنهم جيرانه، وصلح معه فليسألوه عن ذلك، فبعثوا رهطا منهم مستخفين، وقالوا لهم: اسألوا محمداً عن الزانيين إذا أحصنا ما حدّهما، فإن أمركم بالحد فاقبلوا منه. وإن أمركم بالرجم فاحذروه، ولا تقبلوا منه، وأرسلوا معهم الزانيين، فقدم الرهط حتى نزلوا على بنى قريظة والنضير، وقالوا لهم: إنكم جيران هذا الرجل، ومعه فى بلده، وقد حدث فينا حدث، وذلك أن فلاناً وفلانة قد زنيا، وقد أحصنا، فَنُحِبُّ أن تسألوه عن قضائه فى ذلك، فقال لهم بنو قريظة والنضير: إذاً

والله يأمركم بما تكرهون، ثم انطلق قوم منهم فيهم كعب بن الأشرف وكعب بن أسد، وسعيد بن عمرو، ومالك بن الصيف. وكنانة بن أبى الحقيق وغيرهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقالوا يا محمد: أخبرنا عن الزانى والزانية إذا أحصنا ما حدهما فى كتابك؟ فقال هل ترضون بقضائى؟ قالوا: نعم، فنزل جبريل عليه السلام بآية الرجم. فأخبرهم بذلك. فأبوا أن يأخذوا به، فقال جبريل للنبىّ صلى الله عليه وسلم: اجعل بينك وبينهم ابن صوريا، ووصفه له. فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم: هل تعرفون شاباً أمرد أبيض أعور يسكن فدك يقال له ابن صوريا؟ قالوا: نعم، قال: فأىُّ رجل هو فيكم؟ فقالوا: هو أعلم يهودى بقى على وجه الأرض بما أنزل على موسى عليه السلام فى التوراة، قال: فأرسلوا إليه، ففعلوا، فلما جاء قال له النبىّ صلى الله عليه وسلم: أنت ابن صوريا؟ قال: نعم، فقال النبىّ صلى الله عليه وسلم لابن صوريا: ناشدتك بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى، وأخرجكم من مصر، وفلق لكم البحر، وأنجاكم وأغرق آل فرعون، وبالذى ظلل عليكم الغمام، وأنزل عليكم المنّ والسلوى، وأنزل عليكم كتابه فى حلاله وحرامه، تجدون فى كتابكم الرجم على المحصن؟ فقال ابن صوريا: اللهم نعم، والذى ذكرتنى به لولا خشيتى أن ينزل علينا العذاب إن كذبت أو غيرت ما اعترفت لك، ولكن كيف هى فى كتابك يا محمد؟ قال: إذا شهد أربعة رهط عدول أنه أدخله فيها كما يدخل الميل فى المكحلة وجب عليهما الرجم، فقال ابن صوريا: والذى أنزل التوراة على موسى. هكذا أنزل الله فى التوراة على موسى، فقال له النبىّ صلى الله عليه وسلم، فما كان أول ما رُخصتم به فى أمر الله تعالى: فقال ابن صوريا: كنا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحدّ، فكثر الزنا فى أشرافنا حتى زنى ابن عم ملك لنا فلم نرجمه، ثم زنى رجل آخر فى أمرأة من قومه، فأراد الملك رجمه، فقام قومه دونه، وقالوا: والله لانرجمه حتى ترجم فلاناً لابن عم الملك، فقلنا: تعالوا نجتمع فلنصنع شيئاً دون الرجم يكون على الشريف والوضيع، فوضعنا الجلد والتحميم، وهو أن يجلد أربعون جلدة بحبل مطوىّ بقار، ثم تسود وجوههما، ثم يحملان على حمارين، ووجوهما من قبل دبر الحمار، ويطاف بهما، فجعلوا ذلك مكان الرجم. فقالت اليهود لابن صوريا: ما أسرع ما أخبرته، وما كنت لما أثنينا عليك بأهل، ولكنك كنت غائباً فكرهنا أن نغتابك، فقال لهم ابن صوريا: إنه قد ناشدنى بالتوراة، ولولا خشيتى أن ينزل علينا

العذاب ما أخبرته، فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بهما فرجما عند باب المسجد، وقال: [اللهم إنى أوّل من أحيا أمرك إذ أماتوه] فأنزل الله تعالى هذه الآية* أما التفسير: قوله تعالى: «**يا أيها الرّسولُ لا يَحْزُنْك**» صنع «**الّذِينَ يُسَارِعُون فى الكفر**» يقيمون فيه بسرعة. أى يظهرونه إذا وجدوا فرصة: «**مِنَ الّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بأفْواهِهِمْ ولَمْ تُؤمِنْ قُلُوبُهُمْ**» يعنى المنافقين لأنهم أظهروا الإيمان بالقول وكتموا الكفر وهذه صفة المنافقين: «**وَمِنَ الّذِينَ هَادُوا**» أى وطائفة من اليهود: «**سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ**» الذى افترته أحبارهم سماع قبول. وهو المراد لأنك تقول: تسمع من فلان لا تقبل منه. وقيل: سماعون لأجل أن يكذبوا عليك، وذلك أنهم كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يخرجون من عنده، و يقولون سمعنا منه كذا وكذا. ولم يسمعوا ذلك منه بل كذبوا عليه. وقوله: «**سمَّاعون**» منك: «**لِقَوْمٍ**» لأجل قوم: «**آخَرِينَ**» من اليهود: «**لَمْ يأتُوكَ**» وهم أهل خيبر زنى فيهم محصنان فكرهوا رجمها فبعثوا قريظة ليسألوا النبيّ صلى الله عليه وسلم عن حكمهما الخ ..: «**يحرِفُونَ الْكَلِمَ**» الذى فى التوراة. كآية الرجم: «**مِنْ بَعْدِ مواضِعِهِ**» التى وضعها الله عليها. أى يبدلونه وذلك إما تحريفاً لفظياً بإبدال كلمة بكلمة أو بإخفائه وكتمانه، أو بالزيادة فيه، أو بالنقص منه، وإما تحريفاً معنوياً بحمل اللفظ على غير ما وضع له: «**يقُولُونَ**» لمن أرسلوهم: «**إنْ أوتيتُمْ هذا**» الحكم المحرّف المزال عن مواضعه: «**فَخُذُوهُ**» فهو الحق واعملوا به: «**وإنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ**» بل أفتاكم بخلافه: «**فاحذروا**» أن تقبلوه: «**وَمَنْ يُرِدِ الله فِتْنَتَهُ**» إضلاله: «**فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ الله شيئاً**» فى دفع الفتنة عنهم: «**أولئِكَ الّذِينَ لَمْ يُرِدِ الله أنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ**» من الكفر، وهو إشارة إلى المذكورين من المنافقين واليهود، وما فى اسم الاشارة من معنى البعد للإيذان ببعد منزلتهم فى الفساد: «**لَهُمْ فى الدُّنْيا خِزْيٌ**» ذلٌ بالفضيحة بإظهار نفاقهم، و بيان تحريفهم. وضرب الجزية على المحاربين من أهل الكتاب: «**ولَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظيمٌ**» يعنى الخلود فى النار للمنافقين واليهود.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فإنْ جَاؤكَ فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وإنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وإنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ* وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوراةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولئكَ بالمؤمِنينَ»

سورة المائدة (الآية: ٤٢، ٤٣)

في الخازن: نزلت في حُكَّام اليهود مثل كعب بن الأشرف ونظرائه، كانُوا يرتشون و يقضون لمن رشاهم. قال الحسن: كان الحاكم منهم إذا أتاهُ أحدهم برشوة جعلها في كمّه، ثم يريها إيّاهُ، و يتكلّم بحاجته، فيسمع منه، ولا ينظر إلى خصمه، فيسمع الكذب، و يأكل الرشوة، وهي السحت* وفي الغرائب: وقيل: كان فقراؤهم يأخذون من أغنيائهم مالا ليقيموا على ما هم عليه من اليهودية، فكانُوا يسمعُونَ أكاذيب الأغنياء و يأكلون السّحت* وقيل: إنّه في أمر خاصّ. وهو رجم المحصن قاله ابن عباس ومجاهد والزهرى* وقيل: في قتيل قُتل من اليهود في بنى قريظة والنضير، وكان في بنى النضير شرف، وكانت ديتهم كاملة، وفي قريظة نصف دية، فتحاكموا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فجعل الدية سواء* وعن النخعى والشعبى وقتادة وعطاء وأبى بكر الأصم وأبى مسلم أن الآية عامّة في كل من جاء من الكفار. وأن الحكم ثابت في سائر الأحكام غير منسوخ* قلت: والحقُّ إنَّ الآية متصلة بما قبلها، و يتضح ذلك من أقوال العلماء في تفسيرها. قوله فى آخر الآية السالفة الذكر: «**وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**» هم «**سَمَّعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ للسُّحْتِ**» الحرام كالرشا وأصل السُّحت الاستئصال. يقال سحته: إذا استأصله، وسميت الرشوة في الحكم سُحت: لأنها تستأصل دين المرتشى، والسحت كله حرام يحمل عليه شدّة الشره، وهو يرجع إلى الحرام الخسيس الذي لا تكون له بركة، ولا لآخذه مروأة، و يكون في حصوله عار بحيث يخفيه لا محالة، فهو كالآخذ المال خفيةً، ولذلك حرمت الرشوة على الحكام. أخرج الترمذي وأبوداود عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الراشي والمرتشي في الحكم* قال الحسن: إنما ذلك في الحاكم إذا رشوته ليحق لك باطلاً أو يبطل عنك حقاً*

وقال ابن مسعود: الرشوة في كل شيء فمن شفع شفاعة ليردّ بها حقاً، أو يدفع بها ظلماً، فأهدى بها إليه فقبل فهو سحت. فقيل له يا أبا عبدالرحمن: ما كنا نرى ذلك إلاّ الآخذ على الحكم. فقال: الأخذ على الحكم كفر قال تعالى: «**وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فأولئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**»* والسحت الرشوة في الحكم. ومهر البغي وعسب الفحل. وكسب الحجام وثمن الكلب وثمن الخمر وثمن الميتة، وحلوان الكاهن والاستكساب في المعصية. روى ذلك عن عليّ رضي الله عنه وعمر وعثمان وابن عباس وأبى هريرة ومجاهد. كذا في الغرائب* وكل ذلك يرجع إلى الحرام الخسيس الذي لا يكون فيه بركة «**فإنْ جَاؤكَ**» لتحكم بينهم. لمّا بيّن تفاصيل أحوالهم المختلفة الموجبة لعدم المبالاة بهم خواطب ببعض ما ينبغي عليه من الأحكام. أي فإن جاؤك متحاكمين إليك «**فاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أو أعْرِضْ عَنْهُمْ**» فانت مخيّر بين الحكم بينهم والاعراض عنهم وتركهم إلى رؤسائهم. وأوْ هنا للتّخيير فهي خاصّة بالمعاهدين دون أهل الذّمة. فلا يجب على حكام المسلمين أن يحكمُوا بين الأجانب الذين هم في بلادهم وإن تحاكموا إليهم، بل هم مخيّرُون يرجحون في كل حال ما يرونه من المصلحة. وأمّا أهل الذمة فيجب الحكم بينهم إذا تحاكموا إلينا، لأن من أخذت منه الجزية تجرى عليه أحكام الإسلام في البيوع والمواريث، وسائر العقود إلا في بيع الخمر والخنزير فإنهم يقرّون عليه، بشرط عدم الاعلان بشر به في الأسواق، ويمنعون من الزنا كالمسلمين لأنهم نهو عنه لكن لا يرجمون لأنّ من شرط الرجم الإسلام. «**وإنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شيئاً**» فالله حافظك من ضررهم إذا أخترت الاعراض عنهم ولم تحكم بينهم «**وَإنْ حَكَمْتَ**» أي اخترت الحكم بينهم «**فاحْكُم بَيْنَهُمْ بالْقِسْطِ**» أي بالعدل الذي أمرت به في القرآن الكريم «**إن اللهَ يُحِبُّ المقْسِطِينَ**» العادلين في الحكم أي يثيبهم عليه «**وكَيْفَ يُحَكّمُونَكَ**» !!؟ تعجب من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم من تحكيمهم من وجوه. منها: «**وَعِنْدَهُمُ التوراة فِيهَا حُكْمُ اللهِ**» ومنها رجُوعهم إلى حكم من كانُوا يعتقدونه مبطلاً. ومنها: إعراضهم عن حكمه بعد أن حكموه، وهذا غاية الجهالة ونهاية العناد. وما سبب ذلك إلا أنهم ليسوا مؤمنين «**ثُمّ يتولّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وما أُولئكَ بالمؤمنين**» بك ولا بالتوراة من قبلك إيماناً صحيحاً لأن المؤمن بشرع لا يرغب عنه إلى غيره، اللهم إلاّ إذا آمن بنسخه لحكمة اقتضت ذلك وقد جاء في سِفرِ التّثنية بعد بيان أن من تزوّج عذراء فوجدها ثيباً

ترجم عند باب أبيها، وإذا وُجِد رجل مضطجع مع امرأة زوج بعل يقتل الإثنان. الرجل المضطجع مع المرأة والمرأة، فتنزع الشرَّ من إسرائيل. وإذا كانت فتاة عذراء مخطوبة لرجل فوجدها رجل في المدينة. فاضطجع معها فأخرجوهما كليهما إلى باب المدينة وأرجموهما بالحجارة حتى يموتا، الفتاة من أجل أنها لم تصرخ في المدينة، والرجل من أجل أنَّه أذلَّ امرأة صاحبه فتزيل الشرَّ من وسطك. المراغي.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ»

سورة المائدة (الآية: ٤٤)

في الواحدي: قال أبوهريرة رضي الله عنه: زنى رجل من اليهود وامرأة. قال بعضهم لبعض، اذهبوا بنا إلى هذا النبي فإنه نبيٌّ مبعوث للتخفيف، فإذا أفتانا بفتيا دون الرجم قبلناها، واحتججنا عند الله، وقلنا: فتيا نبيّ من أنبيائك، فاتَوا النبيّ صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد مع أصحابه. فقالوا يا أبا القاسم: ما ترى في رجل وأمرأة زنيا؟ فلم يكلمها حتى أتى بيت مدراستهم، فقام على الباب فقال: أنشُدُكم الله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحصن؟ قالوا: يحمَّم ويجبّه ويجلد. والتجبية أن يحمل الزانيان على الحمار و يقابل أفقيهما و يطاف بهما. قال: وسكت شابّ منهم، فلمّا رآه النبي صلى الله عليه وسلم ألحّ عليه في النشدة، فقال: اللهم إذا أنشدتنا فإنا نجد في التوراة الرجم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فما أوّل ما أرخصتم أمر الله عزّ وجل؟ قال: زنى رجل ذو قرابة من ملك من ملوكنا، فأخّرعنه الرجم، ثم زنى رجل من سراة النّاس، فأراد رجمه، فأحال قومه دونه، فقالوا: لا يرجم صاحبنا حتى يجيء بصاحبكم فيرجمه. فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فإني أحكم بما في التوراة، فأمر بهما فرجما. قال الزهريُّ: فبلغنا أنَّ هذه الآية نزلت فيهم: «**إنّا أنزلنا التوراة..**» الآية» وكذا في الطبرى. والخازن، وفي ابن كثير: عن الإمام أحمد

عن ابن عباس في «**ومن لَمْ يَحْكُمْ بما أنزل الله فأولئِكَ هُمُ الكافرون**» «**وأولئك هُمُ الظالمونَ**» «**وأولئكَ هُمُ الفاسِقُون**» أنزلها الله في الطائفتين من اليهود. وكانت إحداهما قد قهرت الأخرى في الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أنَّ كل قتيل قتلته العزيزة من الذليلة فديته خمسون وسقاً، وكل قتيل قتلته الذليلة من العزيزة فديته مائة وسق (الوسْقُ: حِمْلُ بعير) فكانوا على ذلك حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم. فقتلت الذليلة من العزيزة قتيلاً، فأرسلت العزيزة إلى الذليلة أن ابعثُوا لنا بمائة وسق. فقالت الذليلة: وهل كان في حيّيْن دينهما واحد، ونسبهما واحد، وبلدهما واحد دية بعضهم نصف دية بعض، إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا، وفرقاً منكم (خوفاً) فأما إذا قدم محمد فلا نعطيكم، فكادت الحرب تهيج بينهما، ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم، ثم ذكرت العزيزة، فقالت: والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ولقد صدقوا ما أعطونا هذا إلاَّ ضيماً منا، وقهراً لهم، فدسُوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حكَّمتموهُ، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه، فدسُّوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما جاؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأمرهم كله، وما أرادوا، فأنزل الله تعالى «**يا أيُّها الرّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الّذِينَ يُسَارِعُونَ فى الكُفْرِ**» إلى قوله «**الفاسقون**» ففيهم. والله أنزل. وإيَّاهم عنى عز وجلّ. رواه أبوداود من حديث أبي الزناد عن أبيه بنحوه. قلت: والآية التي بعد هذه الآية: «**وكتبنا عَلَيْهِمْ فيها أنَّ النَّفسَ بالنّفسِ والْعَيْنَ بالعينِ..**» يؤيد أنها في قضية القصاص، ولا مانع من أن يجتمع لنزول الآية سببان فأكثر في وقت واحد لأن الأمر بالحكم بما أنزل الله يشمل الجميع، أي استفتاء اليهود في أمر الزانيين والقصاص في القتلى.

أما التفسير: «**إنّا أنزلنا التوراة**» على موسى عليه السلام وهو كلام مستأنف سيق لبيان علوّ شأن التوراة، ووجوب مراعاة أحكامها، وأنها لم تزل مرعية من الأنبياء ومن يقتدى بهم كابراً عن كابر مقبولة لكل أحد من الحكام والمتحاكمين، محفوظة عن المخالفة والتبديل تحقيقاً لما وصف به المحرفون من عدم إيمانهم بها وتقريراً لكفرهم وظلمهم. «**فيهَا هُدًى**» من الضلالة «**ونُورٌ**» ببيان الأحكام. وقيل: الهدى بيان الأحكام. والنور بيان التوحيد والنبوّة، والمعاد. قال الزجاج: الهدى: بيان الحكم الذي جاؤا يستفتُون فيه،

والنور بيان أمر النبي صلى الله عليه وسلم حقٌّ* وقيل: فيها هدى يهدى للحقّ والعدل، ونورٌ يبيّن ما استبهم من الأحكام. فهما عباراتان عن معبر واحد، وقد يستدل بالآية على أن شرع من قبلنا يلزمنا لأنَّ الهدى والنور لابد أن يكون أحدهما يتعلّق بالفروع والآخر بالأصول. وإلا كان تكراراًو أيضاً أنها نزلت في الرجم، ومورد الآية لابد أن يكون داخلاً فيما سواه. قال صاحب الغرائب: إن غيره داخل أو خارج، ويمكن أن يجاب بأن التكرار بعبارتين غير محذور، أو بأن في الكلام تقديماً وتأخيراً، والمراد فيها هدى ونور للذين هادُوا «**يَحْكُم بها النَّبِيُّونَ**» وقوله: «**الَّذِينَ أَسْلَمُوا**» فأورد عليه أن كل نبيّ مسلم فما الفائدة في هذا الوصف؟ وأجيب بأنها صفة جارية على سبيل المدح لا التوضيح والكشف، وفيه تعريض باليهود أنهم بعداء عن ملة الإسلام التي هي دين الأنبياء قديماً وحديثاً، لأن غرض الأنبياء الانقياد لتكاليف الله، وغرضكم من ادعاء الحكم بالتوراة أخذ الرشا من العوام، فالفريقان متباينان ولهذا أردفه بقوله: «**لِلَّذِينَ هَادُوا**» أي يحكمون لأجلهم* وهادوا متعلق بيحكم أي يحكمون بها فيما بينهم. كأنَّه قال أنزلنا التوراة فيها هدًى ونور لأجل أن يحكموا بها، ففيه تعريض بالمحرّفين، أو متعلّق بأنزلنا، وقيل: يهدى ونور. وفيه الفصل بين المصدر ومعموله، وقيل: متعلق بمحذوف وقع صفة لهما. أي هدى ونور كائنان للذين هادوا. أبوالسعود* وفي الخازن: أراد بالنَّبيين الذين بعثُوا بإقامة التوراة وأحكامها. ومعنى أسلمُوا: أي انقادُوا لأمر الله تعالى، والعمل بكتابه، وهذا على سبيل المدح لهم، وفيه تعريض باليهود لأنهم بعدوا عن الإسلام الذي هو دين الأنبياء عليهم السلام. قال الحسن والزّهرى وعكرمة وقتادة والسّدى: يحتمل أن يكون المراد بالنبيين الذين أسلموا هو محمد صلى الله عليه وسلم. وإنما ذكره بلفظ الجمع تعظيماً وتشريفاً له صلى الله عليه وسلم لأن النبي صلى الله عليه وسلم حكم على اليهود بالرجم، وكانَ هذا الحكم في التوراة* قال ابن الأنبارى: هذا ردٌّ على اليهود والنصارى لأن الأنبياء عليه السّلام ما كانوا موصوفين باليهودية والنصرانية بل كانوا مسلمين لله تعالى منقادين لأمره ونهيه* وقوله: «**والرَّبَّانِيُّونَ والأَحْبَارُ**» أي الزهاد والعلماء من ولد هٰرون عليه السلام: الذين التزمُوا طريقة النبيين، وجانبُوا دين اليهود* وعن ابن عباس: الربَّانيُّون: الذين يسوسون النَّاس بالعلم، و يربونهم بصغاره قبل كباره. والأحبار: هم الفقهاء، والأحبار: واحد حَبْرٌ بالفتح والكسر، والثانى أفصح، وهو رأي الفراء مأخود من

التحبير والتّحسين. فإنهم يحبّرونه و يزيّنونه، أي هم أيضاً يحكمون بأحكامها، فهم خلفاء ونواب عن الأنبياء في تطبيق أحكامها «بِمَا» أي بسبب الذي «اسْتُحفِظُوا» أي استحفظهم الله إياهُ «مِنْ كتاب الله» أن يحرفوه أو يبدلُوه «وكَانُوا عَلَيْهِ شُهداءَ» أنّه حقٌ «فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ» أيُّها اليهود في إظهار ما عندكم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم والرجم وغيرهما «واخْشَوْنِ» خافوا عقابي العظيم في كتمانها «وَلاَ تَشْتَرُوا» تستبدلوا «بآياتي ثَمَناً قليلاً» من الدنيا تأخذونه على كتمانها «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ الله فأولئكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» يعني أن اليهود لما أنكروا حكم الله تعالى المنصوص عليه في التوراة. وقالوا إنه غير واجب عليهم فهم كافرون على الإطلاق بموسى والتوراة وبمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن.

((اختلاف العلماء فيمن نزلت آيات الحكم بما أنزل الله))

الآيات هي قوله تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أنزل الله فأولئكَ هُمُ الكَافِرُونَ» «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فاأولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» «ومَنْ لَمْ يَحْكُمُ بِمَا أَنْزَلَ الله فأولئكَ هُمُ الفاسِقُونَ» ورد عن جماعة من المفسرين أنَّ الآيات الثلاث نزلت في الكفار. ومن غيَّر حكم الله من اليهود لأن المسلم وإن ارتكب كبيرة لا يقال إنَّه كافر، وهذا قول ابن عباس وقتادة والضحّاك* قال الخازن: و يدل على صحة هذا القول ما روى عن البراء بن عازب قال: أنزل الله تبارك وتعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فأولئكَ هُمُ الكافِرونَ» «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ الله فأولئكَ هُمُ الظالمون» «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمٰا أَنْزَلَ الله فأولئكَ هُمُ الفاسِقُونَ» في الكفار كلها. أخرجه مسلم* وعن ابن عباس قال: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله فأولئكَ هُمُ الكافرونَ» إلى «الفاسِقونَ» هذه الآيات الثلاث في اليهود خاصة: قريظة والنضير أخرجه أبوداود* وقال مجاهد في هذه الآيات الثلاث: من ترك الحكم بما أنزل الله ردّاً لكتاب الله فهو كافر ظالم فاسق* وقال عكرمة: ومن لَمْ يحكم بما أنزل الله جاحداً به فقد كفر، ومن أقرّ به، ولم يحكم به فهو ظالم فاسق* وهذا قول ابن عباس أيضاً، واختيار الزجاج لأنّه قال: من زعم أن حكماً من أحكام الله تعالى التي أتت بها الأنبياء باطلٌ فهو كافر* وقال طاوس: قلت لابن عباس: أكافرٌ من لم يحكم بما أنزل الله؟ فقال: به كفر، وليس بكفر

ينقل عن الملّة كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. ونحو هذا. روى عن عطاء قال: هو كفر دون الكفر* وقال ابن مسعود والحسن والنخعي: هذه الآيات الثلاث عامة في اليهود وفي هذه الأمة، فكلُّ من ارتشى، و بدل الحكم فحكم بغير حكم الله فقد كفر وظلم وفسق، وإليه ذهب السّدى لأنَّه ظاهر الخطاب* وقيل: هذا فيمن علم نص حكم الله ثم ردّه عياناً عمداً، وحكم بغيره، وأمّا من خفي عليه النصُّ، أو أخطأ في التأويل فلا يدخل في هذا الوعيد. الخازن* قال الرازى نقلاً عن عكرمة: إن الحكم بالكفر على من حكم بغير ما أنزل الله إنما يكون فيمن أنكر بقلبه وجحد بلسانه أمّا من عرف بقلبه كونه حكم الله وأقرَّ بلسانه كونه حكم الله إلاَّ أنَّه أتى بما يضاده فهو حاكم بما أنزل الله ولكنه تارك له فلا يدخل تحت هذه الآية* وعن الشعبي أنه قال: الثلاث الآيات التي في المائدة أولها: في هذه الأمة،والثانية: في اليهود، والثالثة: في النصارى. وخلاصة المعنى: ومن لم يحكم بما أنزل الله مستهيناً به، منكراً له، وأن حكم غير ما أنزل أفضل منه كان كافراً لجحوده به واستخفافه بأمره وحكمه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وأنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أنْزَلَ اللهُ ولاَ تَتَّبِعْ أهْواءَهُمْ واحْذَرْهُمْ أنْ يفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ ما أنْزَلَ اللهُ إليْكَ فإنْ تَوَلَّوْا فاعْلَمْ أنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذنُوبِهِمْ وإنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ لفاسِقُونَ* أفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أحْسَنُ من اللهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ»

سورة المائدة (الآية: ٤٩، ٥٠)

في الواحدى: قال ابن عباس: إن جماعة من اليهود منهم كعب بن أسيد، وعبدالله بن صوريا، وشاس بن قيس، قال بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد عليه الصلاة والسلام لعلنا نفتنه عن دينه، فأتوه، فقالوا يا محمد: قد عرفت أنا أحبار اليهود وأشرافهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا اليهود ولن يخالفونا، وإنَّ بيننا و بين قوم خصومة ونحاكمهم إليك فتقضى لنا عليهم، ونحن نؤمن بك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى فيهم **«واحْذَرْهُمْ أنْ يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك..»** الآية* وكذا في الخطيب والخازن قيل: ولعلهم طلبوا من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يحكم بما كان

يحكم به الجاهليون من التفاضل بين القتلى. أي بيّن ديات بعضهم على بعض، وكذا في بقية التفاسير. وقوله: «**وأنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ الله**» في محل نصب على الكتاب، والتقدير: وأنزلنا إليك الكتاب، وأن تحكم به بينهم أي والحكم بينهم. كذا في السمين» أوْ وأنزلنا إليك أن احكم على أنَّ أنْ المصدرية وصلت بالأمر لأنه فعل كسائر الأفعال، أو على قوله بالحقّ، أي أنزلناه بالحقّ و بأن احكم، ويحتمل أن تكون أن مفسرة، وفعل الأمر محذوف أي وأمرناك أن احكم. وتكرار الأمر بالحكم إمّا للتأكيد، وإمّا لأنها حكمان لأنهم احتكموا إليه في زنا المحصنين، ثم احتكموا في قتيل كان بينهم «**ولاَ تَتَّبِع أَهْوَاءَهُمْ**» ميولاتهم الفاسدة «**وَاحْذَرْهُمْ أن**» لا «**يفتنُوك**» يُضلُّوك «**عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ الله إلَيْكَ**» أي احذر أن يصرفوك عن بعضه ولو كان أقل قليل بتصوير الباطل بصورة الحق «**فإنْ تَوَلَّوْا**» عن الحكم المنزل وأرادُوا غيره «**فاعْلَمْ أنَّما يُرِيدُ الله أنْ يُصِيبَهُم**» بالعقوبة في الدنيا «**ببعض ذُنُوبِهِمْ**» لا بجميعها، وذلك كما عاقبهم بالقتل والسّبي والجلاء، وأما في الآخرة فيجازيهم على الجميع، وفي ذلك إشارة إلى أن مجازاتهم ببعض الذنوب كافية في إهلاكهم وتدميرهم وإذلالهم، وأراد بالبعض ذنب التولى عن حكم الله، وفيه أن لهم ذنوباً جمّة، وأن هذا الذنب عظيم جداً «**وإنَّ كثيراً من النَّاسِ لفَاسِقُونَ**» يعنى اليهود لأنهم ردُّوا حكم الله تعالى «**أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ**» أي أفحكم الجاهلية يطلب هؤلاء اليهود قال ابن عباس: يعنى بحكم الجاهلية ما كانُوا عليه من الضلال والجور في الأحكام، وتحريفهم أيّاها عما أمر الله» وفي أبى السعود: والمراد بالجاهلية إما الملّة الجاهليّة التي هي متابعة الهوى الموجبة للميل والمداهنة في الأحكام، وقد جرى المفسرون على هذا، وإما أهل الجاهليّة وحكمهم، وهوما كانُوا عليه من المفاضلة بين القتلى من النضير وقريظة. قوله: «**وَمَنْ أحْسَنُ مِنَ الله حُكْماً**» انكار لأن يكون أحد حكمه أحسن من حكم الله تعالى، أو مساوٍ له؟! روى أن بنى النضير تحاكموا إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام في خصومة كانت بينهم و بين بنى قريظة، وطلب بعضهم من النبي صلى الله عليه وسلم أن يحكم بينهم بما كان عليه أهل الجاهلية من التفاضل، وجعل دية القُرظي ضعفى دية النضيرى لمكان القوّة والضعف، فقال عليه الصلاة والسلام: القتلى بَوَاء ــ سواء ــ فقال بنو النضير: نحن لا نرضى بذلك فنزلت الآية. وخلاصة المعنى: توبيخهم والتعجب من حالهم كيف لا وهم أهل كتاب وعلم،

ومع ذلك فهم لا يرضون بحكم الله تعالى العادل، بل يريدون حكم الجاهلية القائم على محض الجهل والمداهنة وصريح الهوى. أي لا أحد أحسن حكماً من حكم الله تعالى «لِقَومٍ يُوقِنُونَ» بدينه و يذعنون لشرعه لأنه حكم جامع بين منتهى العدل والحقّ من الحاكم، والقبول والاذعان من المحكوم لَهُ والمحكوم عليه. فهو جلّ جلاله منزّه عن الهوى أو الميل إلى هذا أو ذاك، فالكل خلقه وملكه وعبيده، ومن أجلّ استتباب الأمن بينهم، وطمأنينة الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، وللمحافظة على كرامتهم أنزل حكمه العادل ليشعر كل منهم بالهدوء وراحة الضمير* «أَلَيْسَ اللهُ بأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ» ؟ بلىَ.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ والنَّصارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ* فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخشى أَنْ تُصِيبنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يأتِىَ بالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِى أَنْفُسِهِمْ نادمينَ» سورة المائدة(الآية: ٥١، ٥٢)

في الواحدي: قال عطاء العوفى: جاء عبادة بن الصامت فقال يا رسول الله: إنَّ لى موالى من اليهود، كثيرٌ عددهم، حاضرٌ نصرهم، وإنّى أبُوءُ إلى الله ورسوله من ولاية اليهود، وآوى إلى الله ورسوله، فقال عبدالله بن أبيّ: إنّى رجل أخاف الدوائر ولا أبرأ من ولاية اليهود، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا أبا الحباب، ما تجلب به من ولاية اليهود على عبادة بن الصامت، فهو لك دونه. فقال: قد قبلتُ، فأنزل الله تعالى فيها «يا أيُّهَا الَّذِينَ آمِنُوا لا تتّخِذُوا الْيَهُودَ والنَّصَارَى أوْلياءَ» وقد فصّل الخطيب ما أجلمه الواحدى بقوله: احتلف في سبب نزول هذه الآية* فقال قوم: نزلت في عبادة بن الصامت، وعبدالله بن أبى سلول المنافق، وذلك أنها اختصما، فقال عبادة: إنَّ لى أولياء من اليهود كثير عددهم، شديدة شوكتهم، وإنى أبرأ إلى الله وإلى رسوله من موالاتهم، ولا مولى لى إلاَّ الله ورسوله، فقال عبدالله: لكنّى لا أبرأ من ولاية اليهود لأنى أخاف الدوائر ولا بد لى منهُم. فأنزل الله تعالى هذه الآية* وقال السّدى: لمّا كانت وقعة أحد اشتدت

على طائفة من الناس، وتخوّفوا أن توالى عليهم الكفار، فقال رجل من المسلمين: أنا ألحقُ بفلان اليهودى آخذ منه أماناً، إنى أخاف أن تدال علينا اليهود، وقال الآخر: أما أنا فألحق بفلان النصرانى من أهل الشام، وآخذ منه أماناً، فأنزل الله تعالى هذه الآية* وقال عكرمة: نزلت في أبي لبابة بن المنذر بعثه النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى بنى قريظة حين حاصرهم، فاستشاروه في النزول، وقالوا: ماذا يصنع بنا إذا نزلنا؟ فجعل أصبعه على حلقه، يعنى إنه الذبح. أي يقتلكم. فنزلت «**فترى الّذِينَ فى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ..**» وفي أبي السعود. قوله: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا**» خطاب يعمُّ حكمه كافة المؤمنين من المخلصين وغيرهم، وقوله: آمنوا ولو ظاهراً، وإن كان سبب نزولها في غير المخلصين فقط، وهم المنافقين كعبد الله بن أبيّ وأضرابه الذين كانُوا يسارعون في موالاة اليهود ونصارى نجران، وكانُوا يعتذرون إلى المؤمنين بأنهم لا يأمنون أن تصيبهم ظروف الزمان كما قال تعالى: «**يقُولُونَ نَخْشى أنْ تُصِيبنا دائرةٌ..**» وهكذا بقيّة الأقوال التي في التفاسير. وأولى الأقوال بالصواب كما قال الطبرى: أن يقال إنَّ الله تعالى ذكره. نهى المؤمنين جميعاً أن يتخذوا اليهود والنصارى أنصاراً وحلفاء على أهل الإيمان بالله ورسوله، وأخبر أن من اتخذهم نصيراً وحليفاً ووليّاً من دون الله ورسوله والمؤمنين فإنه منهم في التحزّب على الله ورسوله والمؤمنين. وإن الله ورسولَه والمؤمنين منه بريئان. وقد تكون الآية قد نزلت في شأن عبادة بن الصامت وعبدالله بن أبى سلول وحلفائهما من اليهود، ويجوز أن تكون نزلت في أبى لبابة بسبب فعله في بنى قريظة، ويجوز أن تكون نزلت في شأن الرجلين اللذين ذكر السّدى أنَّ أحدهما همّ باللحاق بيهودى والآخر بنصرانى، ولم يصح بواحد من هذه الأقوال الثلاثة خبر يثبت بمثله حجّة فالصواب أن يحكم لظاهر التنزيل بالعموم* أي قصده يقول: وإن كان حكمها عاماً لجميع المؤمنين إلاّ أنَّ خصوص السبب الوارد في المنافقين لا يمنع من نهى جميع المؤمنين من موالاة الكافرين. وقوله: «**لاَ تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ والنّصَارَى أوْلِيَاءَ**» أي لا يتخذ أحدٌ منكم أحداً منهم وليّاً تعاهدونه على التناصر من دون المؤمنين رجاء أن يحتاج إلى نصره إذا خُذِل المسلمون وغُلِبُوا على أمرهم، ثم ذكر جل جلاله علّة هذا النهي فقال: «**بَعْضُهُمْ أوْلِيَاءُ بَعْضٍ**» أي إن اليهود بعضهم أنصار بعض، والنصارى بعضهم أنصار بعض، ولم يكن للمؤمنين منهم وليٌّ ولا نصير إذ كان اليهود قد نقضوا ما عقده الرسول معهم من العهد من غير أن يبدأهم بقتال ولا عدوان فصار الجميع

حـربـاً للـرسـول ومـن معه من المؤمنين. ومن ضرورة موالاة بعضهم لبعض اجتماع الكل على مضـارّتـكـم فـكـيـف يتصوّر بينكم و بينهم موالاة، ولذلك توعّد من يفعل ذلك بقوله «**وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فإِنَّهُ مِنْهُمْ**» أي ومن ينصرهم أو يستنصر بهم من دون المؤمنين وهم في الحقيقة أعداء الله ورسوله والمؤمنين فهو لا شكّ منهم، ومن أهل دينهم لأنه لا يوالى أحدٌ أحداً إلاّ وهو عنه راضٍ، فإذا رضي عنه رضي دينه، فصار من أهل ملّته، وهذا على سبيل المبالغة في الزجر، ومن هذا تعلم أنّه إذا وقعت الموالاة والمحالفة والمناصرة بين المختلفين في الدين لمصالح دنيويّة لا تدخل في النهى الذي في الآية. كما إذا حالف المسلمون أمّةً غير مسلمة على أمّة مثلها لا تفّاق مصلحة المسلمين مع مصلحتها فليس يكون محظوراً، بل لا بأس به «**إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**» بموالاتهم الكفار، وهو تعليل لكون من يواليهم منهم. أي لا يهديهم إلى الايمان بل يخليهم وشأنهم فيقعُونَ في الكفر والضلال، ثم أخبر تعالى أن فريقاً من ضعاف الايمان يفعل ذلك فقال: «**فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فيهِمْ**» أي فترى المنافقين الذين اعتلّ إيمانُهم ولم يصل إلى درجة الايمان الكامل أو اليقين كعبدالله بن أبيّ وغيره من المنافقين يُسارعُونَ في موالاتهم «**يَقُولُونَ**» للمؤمنين معتذرين عنها «**نخشى أَنْ تُصِيبنَا دائرةٌ**» يدور بها الدهر علينا من جدب، أو غلبة الكفار على المؤمنين، ولا يتمّ أمر محمد فلا يميرونا، أي لا يعطون الميرة: بكسر الميم، وهى الطعام. قال تعالى: «**فَعَسَى اللهُ أَنْ يأتِىَ بالْفَتْحِ**» بالنصر لنبيّه لإظهار دينه. وفي هذا ردٌّ على أوليك المنافقين، وقطع لِعلَلِهِمْ الباطلة وأطماعهم الفارغة. وتبشير للمؤمنين بالظفر الواقع لا محالة لأن عسى منه تعالى وَعْدٌ محتوم لا يتخلف «**أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ**» بهتك ستر المنافقين وافتضاحهم، وقد هتكوا وافتضحوا «**فَيُصْبِحُوا**» أي المنافقون المتعلّلون بما مر «**عَلَى مَا أَسَرُّوا فِى أَنْفُسِهِمْ**» من الشّك وموالاة الكفار «**نادمينَ**» على ما فعلوا من اتخاذ الأولياء من اليهود والنصارى على المؤمنين وتقع الدوائر عليهم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«إنـمَّا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُه والَّـذِينَ آمَنُوا الَّـذِينَ يُقِمُونَ الصَّلاةَ و يُؤْتُونَ الـزَّكـاةَ وهُـمْ راكِـعُـونَ* وَمَـنْ يـتـولَّـى اللهَ ورسُـولَـه والَّــذِيـنَ آمَـنُـوا فإنَّ حِزْبَ اللهِ هُمَ الْغَالِبُونَ» سورة المائدة (الآية: ٥٥، ٥٦)

في الواحدي: قال جابر رضي الله عنه: جاء عبدالله بن سلاّم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله: إنَّ قوماً من بنى قريظة والنضير قد هاجرونا وفارقونا وأقسمُوا ألاَّ يجالسونا، ولا نستطيع مجالسة أصحابك لبعد المنازل، وشكى ما يلقى من اليهود فنزلت هذه الآيـة، فـقرأها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: رضينا بالله ورسُولِهِ و بالمؤمنين أولـيـاء* ونحو هذا قال الكلبيّ: وزاد في آخر الآية أنها في عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه لأنَّه أعطى خاتمه سائلاً وهو راكع في الصلاة* وذكر الأ ول الجلال، وعبارة الخازن: قـال ابـن عـباس: نزلت هذ الآية في عبادة بن الصّامت حين تبرأ من موالاة اليهود، قال: أتـولّـى الله ورسـولـه والمـؤمنين. يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، وذكر قول جابر المتقدّم لكنه قال: رضينا بالله رباً و برسوله نبياً و بالمؤمنين أولياء* وفي رواية ابن عباس عـن أبي صـالـح قـال: أقبل عبدالله بن سلاَّم، ومعه نفر من قومه قد آمنُوا، فقالوا يا رسول الله: إنَّ مـنـازلـنـا بـعـيـدة، ولـيـس لـنـا مجلس ولا متحدّث، وإن قومنا لما رأوْنا آمنَّا بالله ورسـولـه، وصـدّقناه رفضونا وآلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا ولا يناكحونا، ولا يكلمونا، فشقّ ذلك علينا، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: **«إنّما وليّكُمُ الله ورسُولُهُ والَّـذِينَ آمـنوا»** الآية.ثم إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراكع، فـنـظـر سـائـلاً، فـقـال: هـل أعـطـاك أحدٌ شيئاً؟ قال: نعم، خاتم من ذهب. قال: من أعطاكه؟ قال: ذلك القائم، وأومأ بيده إلى عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: علَى أيِّ حـال أعـطـاك؟ قـال: أعطاني وهو راكع، فكبّر رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قرأ **«وَمن يـتـولّـى الله ورسُـولَـهُ والَّـذِينَ آمَنُوا فإنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْغَالِبونَ»*** إذاً فنزول الآيـة كـان مـتـعلقاً بسببين كما علمت ولا مانع من ذلك، وعلى القول بأن الآية نزلت في علـيّ كـرم الله وجـهـه حين تـصـدّق بخاتمه وهو راكع فيكون العمل القليل في الصلاة لا يُـفـسـدهـا. وقـد اختلف العلماء في المراد من الركوع في الآية، فنهم من قال: إن المراد به

الخضوع والمعنى أن المؤمنين يصلّون و يزكون، وهم منقادون خاضعون لأ وامره ونواهيه* ومنهم من قال إنَّ المراد منه أن من شأن المؤمنين إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وإنما خصّ الركوع بالذكر تشريفاً له* ومنهم من قال: إنَّ الآية نزلت وهم ركوع. ومنهم من قال اعتماداً على ما حكاه السّدى أنها نزلت في شخص واحد معين وهو على بن أبي طالب، روى عن عبدالملك بن سليمان قال: سألت أبا جعفر: محمد بن على الباقر رضي الله عنهما عن هذه الآية «إنّما وليكُمُ الله ورسُولُه والّذِينَ آمَنُوا» من هم؟ فقال: المؤمنون، فقلت: إن ناساً يقولون هو عليٌّ. فقال: عليٌّ من الذين آمَنُوا* والقول بالعموم أولى ففى ابن كثير: «إنما وليّكم الله ورسُولُهُ» نزلت في المؤمنين وعلى ابن أبي طالب أوَّلُهُمْ* وقال أسباط عن السّدى: نزلت هذه الآية في جميع المؤمنين، ولكن عليَّ بن أبي طالب مرّ به سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه، وقد تقدّم أن هذه الآيات نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه حين تبرأ من حلف اليهود ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين، ولهذا قال تعالى: «وَمَنْ يتولّى الله ورسُولَه وَالّذِينَ آمَنُوا فإنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْغَالِبُونَ»* فالآية نزلت على وفق ما مر من قصة عبادة بن الصامت* وفي الغرائب: روى عن ابى ذرّ أنه قال: صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً صلاة الظهر، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد، فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللهم أشهد أنى سألت في مسجد الرسول فما أعطانى أحدٌ شيئاً، وعليٌّ كرم الله وجه كان راكعاً، فأومأ إليه بخنصره اليمنى، وكان فيها خاتم، فأقبل السائل حتّى أخذ الخاتم فرآه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: اللهم إن أخى موسى سألك، فقال: «ربِّ اشْرح لى صَدْرِى» إلى قوله: «وأشركْهُ فى أمْرِي» فأنزلت قرآناً ناطقاً «سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيك ونجْعَلْ لكما سُلْطَاناً» اللهمَّ، وأنا محمد نبيّك وصفيك، فاشرح لى صدرى و يسر لى أمرى، واجعل وزيراً من أهلى عليّاً أشدد به أزرى. قال أبوذر: فوالله ما أتمَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الكلمة حتى نزل جبريل عليه السلام فقال يا محمد: اقرأ «إنّما وليكم الله..» الآية.

أمّا التفسير: «إنّما وَلِيُّكُمُ الله ورسُولُهُ والّذِينَ آمَنُوا» أي لا وليَّ لكم أيُّها المؤمنون، ولا ناصر ينصركم إلا الله ورسوله والمؤمنون الصادقون الذين اتّصفوا بتلك الصفات الآيتة وهي: «الّذِينَ يُقِيمُونَ الصّلاةَ و يُؤْتُونَ الزّكَاةَ وهُمْ راكِعُونَ»

خاشعون، أو يصلّون صلاة التطوع، وعبارة أبي السعود: وهم راكعون حال فاعل الفعلين، أي يعملون ما ذكر من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وهم خاشعون ومتواضعون لله تعالى* وقيل: هو حال مخصوصة بإيتاء الزكاة والركوع. ركوع الصلاة. والمراد بيان كمال رغبتهم في الإحسان ومسارعتهم إليه. أي إن المؤمنين الذين يقيمون بحقّ الولاية والنصرة لكم هم الذين يقيمون الصلاة و يؤدُونها حقّ الأداء باشتمالها على الآداب الظاهرة والباطنة، و يعطون الزكاة مُستحقيها، وهم خاضعون لأ وامر الله مع طيب نفس وهدوء بال لا خوفاً ولا رياء ولا سمعةً، دون المنافقين الذين يقولون: آمنا بأفواهِهِم ولم تؤمن قلوبهم. و يأتون بصورة الصلاة لا بروحها ومعناها المقصود منها، فإذا هم قامُوا إليها قامُوا كسالى يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلاّ قليلاً. وقوله: «**وَمَنْ يَتَوَلّى الله ورسُولَهُ والَّـذِينَ آمَنُوا**» فيعينهم و ينصرهم «**فإنَّ حِزْبَ الله هُمُ الْغَالِبُونَ**» بالحجة والبرهان فإنها مستمرة أبداً لا بالدولة والصولة، وإلا فقد غلب حزب الله غير مرة حتى في زمن النبي صلى الله عليه وسلم. الكرخي* وعبارة الخازن: «**وَمَنْ يتولىّ الله ورسُولَهُ والّـذِينَ آمَنُوا**» يعني ومن يتولى القيام بطاعة الله ونصر رسوله والمؤمنين. قال ابن عباس: يريد المهاجرين والأنصار ومن يأتي بعدهم. «**فإنَّ حِزْبَ الله**» يعني أنصار دين الله «**هُمُ الْغَالِبُونَ**» لأنَّ الله ناصرهم على عدوّهم* أي في أغلب الأحوال إذا أخلصوا نصرتهم لدين الله قال تعالى: «**إن تنصُرُوا الله ينصرُكم و يُثَبِّتْ أقْدامَكُمْ**»* وقال: «**كَتَبَ الله لأغْلِبَنَّ أنا ورُسُلي إنَّ الله قويٌّ عَزيزٌ**» «**لا تجِدُ قَوْماً يُؤمِنُونَ بالله والْيَومِ الآخِرِ يُوادُّونَ مَنْ حَادَّ الله ورسُولَه..**» إلى قوله: «**ألاَ إنَّ حِزْبَ الله هُمُ المُفْلِحُونَ**» فكل من رضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين، فهو من جند الله وحزبه، وهم المفلحون في الدنيا والآخرة، ومنصورون في الدنيا والآخرة، ولا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على عدوّهم، وفي رواية قائمة على الحقّ حتى يأتي أمر الله، أي نصرهُ. «**ألاَ إنَّ نَصْرَ الله قَريب**» بلى.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً من الَّذِينَ أوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ والكُفَّارَ أوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إنْ كُنْتُم مؤمنينَ» سورة المائدة (الآية: ٥٧)

في الواحدى والخازن والنسفي والغرائب وغيرها قال ابن عباس: كان رفاعة بن زيد، وسويد بن الحارث قد أظهرا الإسلام، ثم نافقا، وكان رجال من المسلمين يوادُّونهما، فأنزل الله تعالى هذه الآية* ومعنى اتّخذوا دينكم هزواً ولعباً هو إظهارهم الإسلام بألسنتهم قولاً، وهم مع ذلك يبطنون الكفر و يسرونه وقوله: «**مِنَ الَّذِينَ أوتُوا الكِتَابَ من قبلِكُمْ**» أي اليهود «**والكُفّارَ**» أي عبدة الأصنام* قال الخازن: وإنما فصل بين أهل الكتاب والكفار، وإن كان أهل الكتاب من الكفار لأن كفر المشركين من عبدة الأصنام أغلظ وأفحش من كفر أهل الكتاب «**أوْلِياء**» أي لا تتّخذوا أهل الكتاب والكفار الذين يسخرون من دينكم أولياء وأنصاراً «**واتّقُوا الله**» بترك موالاتهم «**إنْ كُنْتُمْ مُؤمنينَ**» صادقين في إيمانكم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«وإذَا نَادَيْتُمْ إلى الصَّلاةِ اتّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بأنّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ» سورة المائدة (الآية: ٥٨)

في الواحدي: قال الكلبي: كان منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نادى إلى الصلاة فقام المسلمون عليها، قالت اليهود: قومُوا صلُّوا اركعوا على طريق الاستهزاء، والضحك فأنزل الله تعالى هذه الآية* قال السّدى: نزلت في رجل من نصارى المدينة كان إذا سمع المؤذن يقول: أشهدُ أنَّ محمداً رسول الله، قال: حُرّق الكاذب. فدخل خادمه بنار ذات ليلة، وهو نائم وأهله نيام، فطارت منها شرارة في البيت فاحترق هو وأهلُه* وقال آخرون: إنَّ الكفار لما سمعُوا الأذان حضروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون على ذلك، وقالوا يا محمد: لقد أبدعت شيئاً لم نسمع به فيا مضى من الأمم، فإن كنت تدّعى النبوّة، فقد خالفت فيا أحدثت من هذا الأذان الأنبياء من

قبلك، ولو كان في هذا خير كان أولى الناس به الأنبياء والرسل من قبلك. من أين لك صياح كصياح البعير، فما أقبح من صوت، ولا أسمج من كفر، فأنزل الله تعالى هذه الآية. وأنزل «**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إلى اللهِ وَعَمِلَ صالحاً**» كذا في الغرائب والخازن والطبري. قوله تعالى: «**وإذَا ناديتُمْ إلى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً**» أي ومن شدّة عداوتهم لدينكم أن إذا أذّن مؤذنكم داعياً إلى الصلاة سخروا من دعوتكم إليها واستهزؤا بكم واعتبروا صلاتكم لعباً «**ذلِكَ بأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ**» أنَّ هزوهم ولعبهم من أفعال السفهاء والجهال الذين لا عقل لهم. أو ذلك الاتخاذ بأنهم قوم لا يعقلون ما في الصلاة من المنافع لأنها التوجّه إلى الخالق والاشتغال بخدمة المعبود، أو لا يعلمون ما في اللعب والهزء من السفه والجهل. قال بعض الحكماء: أشرف الحركات الصلاة وأنفع السّكتات الصيام.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ والْخَنَازِيرَ وعَبَدَ الطَّاغوتَ أولئك شَرٌّ مَكاناً وأَضَلُّ عن سَوَاءِ السَّبِيل» سورة المائدة (الآية: ٦٠)

في الواحدي: قال ابن عباس: أتى نفرٌ من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عمّن يؤمن به من الرسل، فقال: أومن بالله وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل إلى قوله ونحن له مسلمون. فلمّا ذكر عيسى جحدوا نبوّته، وقالوا: والله ما نعلم أهل دين أقلّ حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم. فأنزل الله تعالى «**قُلْ هَلْ أنبئُكُمْ بشرٍّ مِنْ ذلكَ مثوبةً عند الله..**» الآية. وكذا في الغرائب والكشاف. قوله «**قُلْ هَلْ أنبِّئُكُمْ**» أخبركم «**بشرٍّ مِنْ**» أهل «**ذَلِكَ**» الذي تنقمونه وهو ديننا «**مَثُوبَةً**» ثواباً بمعنى عقوبةً، واستعملت المثوبة هنا التي هي بمعنى الإحسان بمعنى العقوبة تهكّماً مثل. فبشرْهم بعذاب أليم. «**عِنْدَ اللهِ**» هو «**مَنْ لَعَنَهُ اللهُ**» أبعده عن رحمته «**وَغَضِبَ عَلَيْهِ**» أي وانتقم منه لأن الغضب إرادة الانتقام من العصاة «**وجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ والْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ**» الشيطان. وفي هذا انتقال بهم من تبكيت لهم بإقامة الحجة على هزئهم ولعبهم بما ذكر (إلى ما هو أشدُّ منه تبكيتاً وتشنيعاً عليهم،

ذلك هو التذكير بسوء حال آبائهم مع أنبيائهم، وما كان من جزاء الله لهم على فسقهم وتمرّدهم بأشدّ ما جازى به الفاسقين الذين ظلموا أنفسهم) من اللّعن والغضب والمسخ وعبادة الطاغوت «**أولئك**» يعنى الملعونين والمغضوب عليهم والممسوخين «**شرٌّ مكاناً**» يعنى من غيرهم، ونسب الشرّ إلى المكان والمراد به أهله، فهو من باب الكناية. وقيل: أراد مكانهم سقر في جهنّم ولا مكان أشدّ شراً منه «**وأضلّ عن سَواءِ السَّبيل**» أي وأخطأ عن قصد طريق الحقّ ووسطه الذي لا إفراط فيه ولا تفريط. ومثل هؤلاء يحملهم على الاستهزاء بدين المسلمين و بصلاتهم وأذانهم إلاّ الجهل وعمى البصيرة.

((أقوال العلماء في ماهية المسخ وسببه))

قال ابن جرير الطبرى: حدّثنا ابن حميد، قال: ثنا سلمة بن الفضل، عن ابن اسحاق عن عمرو بن كثير بن أفلح مولى أبي أيوب الأنصارى قال: حدّثت أن المسخ في بنى إسرائيل من الخنازير كان أنّ امرأة من بنى اسرائيل كانت في قرية من قرى بنى اسرائيل، وكان فيها ملك بنى اسرائيل، وكانوا قد استجمعُوا على الهلكة إلاّ أن تلك المرأة كانت على بقيّة من الإسلام، متمسّكة به فجعلت تدعو إلى الله حتى إذا اجتمع إليها ناسٌ، فتابعوها على أمرها. قالت لهم: إنه لا بد لكم من أن تجاهدوا عن دين الله. وأن تُنادُوا قومكم بذلك، فاخرجوا إنّي خارجة، فخرجت، وخرج إليها ذلك الْمَلِكُ في الناس، فقتل أصحابها جميعاً. وانفلتت من بينهم، قال: ودعت إلى الله حتى تجمّع الناس إليها حتى إذا رضيت منهم، أمرتهم بالخروج فخرجوا وخرجت معهم، وأصيبُوا جميعاً، وانفلتت من بينهم، ثم دعت إلى الله حتى إذا اجتمع إليها رجال واستجابُوا لها أمرتهم بالخروج فخرجُوا وخرجت معهم فأصيبُوا جميعاً، وانفلتت من بينهم فرجعت وقد أيست، وهي تقول سبحان الله!! لو كان لهذا الدين وليٌّ وناصر لقد أظهره بعد. قال: فباتت محزونة، وأصبح أهل القرية يسعون في نواحيها خنازير قد مسخهم الله في ليلتهم تلك. فقالت حين أصبحت ورأت ما رأت اليوم: أعلم أنَّ الله قد أعزّ دينه. وأمر دينه، قال: فما كان مسخ الخنازير في بنى اسرائيل إلاّ على يد تلك المرأة* وفي الخازن: قال ابن عباس: إن الممسوخين كلاهما أصحاب السبت، فشبّانهم مسخوا قردة ومشايخهم مسخوا خنازير* وقيل: إنَّ مسخ القردة كان في أصحاب السبت من اليهود، ومسخ الخنازير كان في الذين

كفروا بعد نزول المائدة في زمن عيسى عليه السلام. ولمّا نزلت هذه الآية عيّر المسلمون اليهود. وقالوا لهم: يا إخوان القردة والخنازير، وافتضحُوا بذلك» وفي ابن كثير: في تفسير قوله تعالى «**كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**» البقرة. قال ابن عباس: إنَّ الله إنما افترض على بنى اسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم (يوم الجمعة) فخالفوا إلى السبت فعظمُوهُ، وتركُوا ما أمروا به، فلمّا أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه فحرّم عليهم ما أحل لهم في غيره، وكانوا في قرية بين أيلة والطور يقال لها مَدْيَنُ، فحرّم الله عليهم في السّبت الحيتان: صيدها وأكلها، وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرعاً إلى ساحل بحرهم حتّى إذا ذهب السبت ذهبْن، فلم يروْا حوتاً صغيراً ولا كبيراً حتّى إذا كان يوم السبت أتين شرعاً حتى إذا ذهب السبت ذهبْن، فكانوا كذلك حتى طال عليهم الأمد. وقرموا إلى الحيتان. عمد رجل منهم فأخذ حوتاً سراً يوم السبت، فحزمه بخيط ثم أرسله في الماء وأوْتَدَ له وتداً في الساحل، فأوثقه ثم تركه، حتى إذا كان الغد جاء فأخذه وقال: إني لم آخذه في يوم السبت (فانطلق به فأكله حتّى إذا كان يوم السبت الآخر عاد لمثل ذلك، ووجد الناس ريح الحيتان، فقال أهل القرية: والله لقد وجدنا ريح الحيتان، ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل، قال: ففعَلُوا كما فعل، وصنعُوا سراً زماناً طويلاً لم يعجل الله عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها في الأسواق. فقالت طائفة منهم من أهل البقيّة: ويحكم اتقّوا الله، ونهوهم عمّا كانُوا يصنعون. فقالت طائفة أخرى: لم تأكل الحيتان ولم تنه القوم عمّا صنعُوا: لِمَ تَعِظونَ قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً؟ قالوا معذرة إلى ربكم. بسخطنا أعمالهم ولعلهم يتقون. قال ابن عباس: فبينا هم على ذلك أصبحت تلك البقيّة في أنديتهم ومساجدهم. ففقدوا الناس فلم يروهم. قال: فقال بعضهم لبعض: إنَّ للناس شأناً فانظروا ما هو؟ فذهبُوا ينظرون في دورهم فوجدوها مغلقة عليهم قد دخلوها ليلاً فغلقوها على أنفسهم كما يغلق الناس على أنفسهم. فأصبحوا فيها قردة، وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد. والمرأة بعينها وإنها لقردة. والصبيُّ بعينه وإنه لقرد. قال: قال ابن عباس: فلولا ما ذكر الله أنَّه نجى الذين نهوا عن السوء لقد أهلك الله الجميع منهم. قال: وهي القرية التي قال جل ثناؤه لمحمد صلى الله عليه وسلم: «**واسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةَ التى كانت حاضرة البَحْر**» الآية» وقال السّدى في قوله تعالى «**وَلَقَدْ عَلِمْتُمَ الّذِينَ اعْتَدَوا مِنْكُمْ في السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خاسئينَ**»

قال: هم أهل أيلة. وهي القرية التي كانت حاضرة البحر، فكانت الحيتان إذا كان يوم السبت (وقد حرّم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئاً) لم يبق في البحر حوت إلاّ خرج حتى يخرجن خراطيمهنَّ من الماء. و يوم الأحد لزمن سفل البحر فلم يُر منهنَّ شيء حتى يكون يوم السبت فذلك قوله تعالى **«واسْأَلْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ التي كانت حَاضِرَةَ البحر إذْ يَعْدُون في السَّبْتِ إذ تأتيهم حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً و يومَ لا يَسْبِتُونَ لاَ تأتيَهُمْ»** فاشتهى بعضهم السمك، فجعل الرجل يحفر الحفرة ويجعل لها نهراً إلى البحر. فإذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفرة، فيرد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر، فيمكث فيها، فإذا كان يوم الأحد جاء فأخذه، فجعل الرجل يشوى السمك فيجد جاره روائحه فيسأله فيخبره فيصنع مثل ما صنع جاره حتى فشا فيهم أكل السمك، فقال لهم علماؤهم: ويحكم إنما تصطادون يوم السبت وهو لا يحل لكم. فقالوا: إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه فقال الفقهاء: لا ولكنكم صدتموه يوم فتحتُم له الماء فدخل، قال: وغلبُوا أن ينتهُوا. فقال بعض الذين نهوهم لبعض **«لِمَ تَعِظُونَ قوْماً الله مُهْلِكُهُمُ أو مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شديداً»** يقول: لم تعظوهم وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم. فقال بعضهم **«مَعْذِرَةً إلى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يتَّقُون»** فلمّا أبوْا قال المسلمون: والله لا نساكنكم في قرية واحدة، فقسموا القرية بجدار ففتح المسلمون باباً، والمعتدون في السبت باباً، ولعنهم داود عليه السلام. فجعل المسلمون يخرجون من بابهم، والكفار من بابهم، فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم، فلمّا أبطئوا عليهم تسوّر المسلمون عليهم الحائط فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض، ففتحوا عنهم فذهبوا في الأرض. فذلك قول الله تعالى: **«فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ»** وذلك حين يقول: **«لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا من بنى اسرائيل على لِسَانِ داودَ وعيسى ابن مريمَ»** الآية. فهم القردة» (قلت): والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ما ذهب إليه مجاهد رحمه الله من أن مسخهم إنما كان معنوياً لا صورياً. بل الصحيح أنّه معنوى صوريٌّ. قاله ابن كثير: وهو الحق. فلفظ **«مَثُوبَةً»** في آية المائدة. عقوبة يدل عليه وأن المسلمين يعيرونهم بعد نزول الآية باخوان القردة والخنازير فينكسون رؤسَهُمْ. ولعن داود من أحد الأسباب الموجبة لمسخهم، ولعله كان قد طلب ذلك من الله تعالى فاستجاب الله دعاءه. وعن ابن مسعود قال: سئل

رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير: أهي ممّا مسخ الله؟ فقال: إنَّ الله لم يَـهْلِكَ قوْماً، أو قال: لم يمسخ قوماً فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً. وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك* وقد رواه مسلم من حديث سفيان الثورى ومسعر كلاهما عن مغيرة بن عبدالله اليشكرى به* وعن ابن مسعود أيضاً قال: سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القردة والخنازير: أهي من نسل اليهود؟ فقال: [لا، إنَّ الله لم يلعن قوماً قط فيمسخهم فكان لهم نسل، ولكن هذا خلق كان، فلمّا غضب الله على اليهود فسخهم جعلهم مثلهم] رواه أحمد من حديث داود بن أبي الفرات به. ولم يقل صلى الله عليه وسلم: أنه مسخ معنوى لأنه لو وقع كذلك لكان الجواب إيضاحاً له. وهذه كلها دلائل وقرائن تثبت صحة مسخهم معنوياً وصورياً. وممّا يدل عليه قوله تعالى: «**وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِى السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**» وقوله «**فلمَّا عَتَوْا عمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**» وجمهرة العلماء على أنهم مسخوا قردة وخنازير على الحقيقة الصوريّة وانقرضوا لأنَّ الممسوخ لا يكون له نسلٌ كما علمت. وما نقله ابن جرير عن مجاهد أنه قال: مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردةً لا دليل له لا من كتاب ولا سنّة، وهو معارض بما ذكرناه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ واللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إنَّ اللهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»

سورةالمائدة (الآية: ٦٧)

في الواحدى: قال الحسن: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لما بعثنى الله تعالى برسالاتى ضقتُ بها ذرْعاً، وعرفت أنَّ من النّاس من يكذبنى. وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يهيب قريشاً واليهود والنصّارى. فأنزل الله تعالى هذه الآية* وفي الطبرى: عن محمد بن كعب القرظى وغيره قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرة ظليلة فيقيل تحتها، فأتاه أعرابيٌّ فاخترط سيفه ثم قال: من يمنعك منى؟ قال: الله، فرعدت يد الأعرابى وسقط السيف منه، قال: وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله «**والله يعصمك من الناس**»* وعن ابن جريج قال: كان

النبي صلى الله عليه وسلم يهاب قريشاً فلما، نزلت هذه الآية: «**والله يعصمك من الناس**» استلق. ثم قال من شاء فليخذلني مرتين أو ثلاثاً» وفي الغرائب: «**يا أيُّها الرسولُ بلّغ**» عن أبي سعيد الخدرى رضي الله عنه أن هذه الآية نزلت في فضل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم الله وجهه يوم غدير خم، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، وقال: من كنت مولاه فهذا عليٌّ مولاه: اللهمّ وال من والاهُ، وعادِ مَن عاداه، فلقيه عمر، وقال: هنيئاً لك يا ابن أبي طالب، أصبحت مولاىَ ومولى كل مؤمن ومؤمنة، وهو قول ابن عباس والبراء بن عازب ومحمد بن عليّ» وقيل: لمّا نزلت آية التخيير: «**يا أيُّها النبي قُل لأ زواجك**» فلم يعرضها عليهنَّ خوفاً من اختيارهم الدنيا. نزلت: «**يا أيُّها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك**» وقيل: نزلت في أمر زيد وزينبَ بنت جحش» وقيل: لمّا نزل: «**ولا تسبُّوا الذينَ يدعونَ من دون الله**» سكت النبي صلى الله عليه وسلم عن عيب آلهتهم، فنزلت. أي بلغ معايب آلهتهم ولا تخفها» وقيل: إنه صلى الله عليه وسلم لمّا بيَّن الشرائع والمناسك في حجة الوداع. قال: هل بلغت؟ قالوا: نعم. فقال صلى الله عليه وسلم: اللهم اشهد فنزلت» وعبارة القرطبي قالت عائشة: سهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة، فقلت يا رسول الله: ما شأنك؟ قال: ألا رجل صالح يحرسني الليلة، قالت: فبينما نحن في ذلك سمعت صوت السلاح، فقال: من هذا؟ قال: سعد وحذيفة جئنا لنحرسك. فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى سمعت غطيطه فنزلت هذه الآية. فأخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه من قُبة أدم. فقال: انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله، وفي رواية ابن عباس: قد عصمني من الجن والإنس» وفي الخازن وقيل: نزلت في اليهود، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم دعاهم إلى الإسلام، فقالوا: أسلمنا قبلك وجعلوا يستهزؤون، و يقولون: تريد أن نتخذك حنانا كما اتخذت النصارى عيسى حناناً، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم ذلك منهم سكت، فأنزل الله هذه الآية، وأمره أن يقول لهم: «**يا أهل الكتاب لستُمْ على شيء**»» وقيل: نزلت هذه الآية في أمر الجهاد لمّا علم من كراهية بعضهم له، فأنزل الله هذه الآية» وقيل: نزلت في قصّة الرجم والقصاص وما سأل عنه اليهود» وأصح الأقوال (والله أعلم): ما ذكر من أنها نزلت في أمر زينب بنت جحش. أي بلغ ما أنزل إليك في أمر زينب بنت جحش، وهومذكور في البخارى. وقريب من الصّحة أيضاً: بلغ ما أنزل

إليـك في أمر نـسائك، أو من حقوق المسلمين في حجة الوداع. وعند الجوزى بلغ ما أنزل الله إليـك مـن الرجـم والقـصـاص. وفي البخارى عن عائشة رضي الله عنها قالت: من حدّثك أنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم كتم شيئاً مما أنزل عليه فقد كذب» والله يقول: «**يا أيُّها الرسولُ بلغ ما أنزل إليك من ربّك**» الآية. أي يا أيها الرسول بلّغ إلى الخلق جميع مـا أنـزل إلـيـك مـن ربـك مالك أمرك، ولا تخشى في ذلك أحداً، ولا تخف أن ينالك من الـناس مكروه، «**وإنْ لَمْ تَفْعَلْ**» أي لم تبلغ جميع ما أنزل إليك، «**فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ**» بـالافـراد والجـمـع ــ رسـالا ته ــ لأن كتمان بعضها ككتمان كلها، وظاهر التركيب: وإن لم تـفـعـل فـما بـلغت رسالته، اتحاد الشرط والجزاء لأنه يؤل ظاهراً إلى وإن لم تفعل فما فعلـت مع أنـه لابـد أن يكون الجواب مغايراً للشرط لتحصيل الفائدة ومتى اتّحدا اختل الـكـلام. وأجـاب عن ذلك ابن عطيّة بقوله: وإن تركت شيئاً فقد تركت الكل وصار ما بـلغته غير معتد به، فصار المعنى وإن لم تستوف ما أمرت بتبليغه فحكمك في العصيان وعدم الامتثال حكم من لم يبلغ شيئاً أصلاً، وقد أشار الجلال إلى هذا بقوله: أي لم تبلّغ جميع ما أنزل إليك لأن كتمان بعضها ككتمان كلها. السمين» أي أن التركيب جارٍ على طريق التهديد، والمراد إن لم تبلّغ منها أدنى شيء فأنت كمن لم يبلغ شيئاً لأن أداء بعضها ليس أولى مـن أداء الـبـعـض الآخر. كما أنَّ من لم يؤمن ببعضها كان كمن لم يؤمن بكلها. أو المراد إن لم تـفـعـل فـلـك مـا يـوجـبـه كتمان الوحى كله، فوضع السبب موضع المسبب، و يـعـضـده مـا روى أنه صلى الله عليه وسلم قال: [بعثنى الله برسالا ته وضقتُ بها ذرعاً، فـأوحـى الله إلـيّ إن لم تـبـلّـغ رسـالاتى عـذبـتـك، وضمن لى العصمة، فقويت] كذا في الـغـرائـب» وقـولـه: «**والله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ**» المراد بالعصمة هنا القتل. أي والله يـعـصـمـك مـن الـناس أن يقتلوك. وقد علمت أنه صلى الله عليه وسلم كان يُحرس حتى نـزلت فقال: انصرفوا فقد عصمنى الله. رواه الحاكم في مستدركه وقال: صحيح الاسناد ولم يخرجـاه. وروى الـترمذي وأبوالشيخ والحاكم وأبونعيم والبيهقي عن بضعة رجال من الـصحـابة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُحرس في مكة قبل نزول هذه الآية، وكان الـعباس ممَّن يحرسه، فلما نزلت ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الحرس» وروى: أن أبـا طـالـب كـان يـبعث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من يحرسه إذا خرج حتى نزل «**والله يـعـصمك من الناس**» فذهب ليبعث معه، فقال ياعم: إنَّ الله حفظنى لا حاجة

لى إلى من تبعث. وهذه دلائل وقرائن تفيد أن الآية مكيّة، ولا صحة لقول من قال إنها مدنيّة بعد أحد. نعم، ادرجت الآية في سياق تبليغ أهل الكتاب وهو مدنّي لتدلّ على أنّ النبي صلى الله عليه وسلم كان عُرضةً لإيذاء أهل الكتاب ورصدهم له أكثر من غيرهم، ولذا فقد حاولوا اغتياله أكثر من مرة فعصمه الله منهم. ثم ذكر ما هو كالسبب في العصمة فقال: «**إنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**» أي إنه تعالى يصرف وجوه أولئك الكافرين الذين هم بصدد قتلك وإيذائك إلى أن يكونوا دائماً خائبين لتبلّغ رسالات ربك التي يتمّ بها إكمال الدين، وقد فعل الله ما أراد، وهدى به من شاء من العباد.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ* وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» سورة المائدة (الآية: ٨٢، ٨٣)

قال الواحدى: نزلت في النجاشي وأصحابه. قال ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بمكة يخاف على أصحابه من المشركين، فبعث جعفر بن أبي طالب، وابن مسعود في رهط من أصحابه إلى النجاشي، وقال: إنّه مَلِك صالح لا يظلم ولا يُظلمُ عنده أحد، فاخرجُوا إليه حتى يجعل الله للمسلمين فرجاً. فلما وردوا عليه أكرمهم. وقال لهم: تعرفون شيئاً ممّا أنزل عليكم؟ قالوا: نعم، قال: اقرؤا فقرؤا وحوله القسّيسُونَ والرهبان. فلمّا قرأ آية انحدرت دموعهم ممّا عرفُوا من الحقّ. قال الله تعالى: «**ذلك بأنّ منهم قسّيسِينَ ورهباناً وأنهم لا يستكبرون* وإذا سمعُوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع**» الآية* وفي رواية عروة والزبير وغيرهما فقرأ سورة مريم عليها السلام، فآمنوا بالقرآن، وأفاضت أعينهم من الدمع. وهم الذين أنزل فيهم «**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نصارَى**» إلى قوله «**واكتبنا مع الشاهدين**» قال السيوطى في لبابه. أخرج هذا ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيّب وأبي بكر عن عبد البر، وعروة بن الزبير* وقال الجلال: إنها نزلت في وفد النجاشي القادمين

عليهم من الحبشة قرأ صلى الله عليه وسلم عليهم سورة يٰس فبكوا وأسلموا، وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى* وعبارة الخازن قال ابن عباس وغيره من المفسرّين في قوله تعالى **«وَلَتَجِدَنَّ أقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إنَّا نصارى»** قالُوا: إن قريشاً ائتمرت أن يفتنوا المؤمنين عن دينهم، فوثب كل قبيلة على من آمن منهم، فآذوهم وعذبُوهم، فافتُتن من افتتن منهم، وعصم الله من شاء منهم، ومنع الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعمه أبي طالب، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نزل بأصحابه ولم يقدر أن يمنعهم من المشركين، ولم يكن قد أمر بالجها. أمر أصحابه بالخروج إلى أرض الحبشة. وساق الهجرة الحبشيّة بكاملها، وهي مطولة جداً* وقيل: نزلت في ثمانين رجلاً: أربعين من نصارَى نجران من بني الحرث بن كعب، واثنين وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم* وقال قتادة: نزلت في ناس من أهل الكتاب كانُوا على شريعة من الحقّ ممّا جاء بها عيسى عليه السلام* فلمّا بعث صلى الله عليه وسلم آمَنُوا به وصدّقُوه، فأثنى الله عليهم بقوله **«ولَتَجِدَنَّ أقربَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إنَّا نصارَى ذلك بأنَّ منهم قسِّيسينَ وَرُهْبَاناً وأنَّهُمْ لا يسْتَكبِرُونَ»** يعني لا يتعاظمون عن الإيمان والإذعان للحق. كذا مجمل ما في الخازن والقرطبي وجميع الأقوال في بقيةالتفاسير تدور في فلك الذي ذكرناه.

أما التفسير: قوله تعالى: **«لَتَجِدَنَّ»** يا محَمَّدُ. اللام للقسم. وهذا كلام مستأنف لتقرير ما قبله من قبائح اليهود. **«أشَدَّ النَّاس عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا»** المسلمين **«اليهُودَ والَّذِينَ أشركوا»** من أهل مكة عباد الأوثان الذين اتّخذوها آلهة يعبدُونها لتقربهم إلى الله، وقد ذكر أصحاب التواريخ والسير أن أشدّ ما لاقى المصطفى صلى الله عليه وسلم من العداوة والإيذاء كان من يهود الحجاز في المدينة وما حولها، ومن مشركى العرب ولا سيمّا بمكة وما قرب منها، وقد كان يجمع بين اليهود والمشركين الكثير من قبيح الصفات التي جعلتهم مقترنين بعضهم ببعض كالكبر والعتوّ والبغي والمكر والكذب والاستهزاء والسخرية، وغلبة الحياة المادّية المترفة، والأثرة، وحبّ الذات، والقسوة على الضعفاء، والعصبة الجنسية والحميّة القوميّة، وإن كان مشركوا العرب أرق من اليهود قلوباً وأعظم سخاءً وإيثاراً ونجدة، وأكثر استقلالاً في الرأي وحريّة الفكر، و يدل على هذا تقديم ذكر اليهود على المشركين إيذاناً بتفوقهم على مشركى العرب بالصفات الذميمة فضلاً عمّا

امتازوا به من مخالفة الله وقتل الأنبياء، واستحلال أكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك من الجرائم الجمّة، وكذلك فعل تعالى في تقديمهم في قوله: «**وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا**» في الكشاف عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [ما خلا يهوديان بمسلم إلاّ همّا بقتله] وذلك لبيان عتوّ بنى إسرائيل وشدّة عداوتهم وتمردهم، وقد علل سبحانه وتعالى سهولة مأخذ النصارى وقرب مودّتهم للمؤمنين فقال: «**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ**» أي أنصار دين الله. وموادُّون لأهل الحقّ، وقد صدق من قال: مذهب اليهود يوجب عليهم إيصال الشرّ والأذى إلى من خالفهم في الدين. ومذهب النصارى تحريم الأذى مطلقاً. وكذا يقال: إن اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا وطلب الملك والرياسة والعلوّ ومن كان كذلك كان شديد العداوة لغيره. أما النّصارى فإن فيهم من هو معرض عن الدنيا ولذاتها، وترك طلب الملك والرياسة والعلوّ على الخلق، ومن كان كذلك فإنه لا يحسد أحداً ولا يعاديه بل يكون ألْين عريكة في طلب الحق والمودة لأهله فلذا قال جلّ جلاله: «**ذَٰلِكَ**» أي قرب مودتهم للمؤمنين «**بِأَنَّ**» بسبب أنَّ «**مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ**» علماء «**وَرُهْبَانًا**» عُبَّاداً «**وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ**» عن اتباع الحق كما يستكبر اليهود وأهل مكة. وقسّيسِينَ جمع قسّيس على فعيل، وهو مثال مبالغة كصديق، وهو هنا رئيس النّصارى وعالمهم، وأصله من تقسّس الشيء إذا اتبعه وتطلبّه بالليل، يقال: تقسّسْتُ أصواتهم، أي تتبعتها بالليل. قال الراغب: وقال غيره: القَسُّ بفتح القاف: تتبع الشيء، ومنه سمى عالم النّصارى قسّيساً لتتبعه العلم. وزعم ابن عطية أنه أعجميّ معرّب. وقال عروة بن الزبير: ضيّعت النصارى الإنجيل وما فيه، و بقى منهم رجل يقال له قسّيس* يعنى بقى على دينه لم يبدله، فمن بقى على هديه ودينه يقال له قسّيس. وقسّ بن ساعدة كان أعلم أهل زمانه، وهو الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام: [يبعث أمّةً وحده] وقوله: «**وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ**» الضمير في سمعوا يعود على النصارى المتقدّمين بعمومهم. وقيل: إنما يعود لبعضهم، وهو من جاء من الحبشة إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال ابن عطية: لأن كل النصارى ليسُوا كذلك* وفي الخازن: قال ابن عباس: يريد النجاشي وأصحابه لمّا قرأ عليهم جعفر بن أبي طالب سورة مريم، قال: فما زالُوا يبكون حتى فرغ جعفر من القراءة. وهذا معنى قوله «**تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ**» أي كان فيض

الدمع من أجل سماع الحق و بسببه هذا على القول بأن من الأ ولى لابتداء الغاية أي أن الدمع ابتدىء ونشأ من معرفة الحق، والثانية لبيان الموصول الذي هو ما عرفوا، ويجوز أن تكون للتبعيض أي عرفوا بعض الحقّ ففاضت أعينهم، وهو أنَّ عيسى عبدالله ورسوله* «يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا» صدقنا بنبيك وكتابه. وهذه الجملة استئنافية لأنها مبنيّة على سؤال كأنه قيل فاذا يقولون بعد أن عرفوا الحق قال: يقولون ربّنا.. «فاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ» المقربين بتصديقها. أي أمّة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يشهدون على الناس يوم القيامة بالحق كما في قوله تعالى: «لتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النّاسِ» قالوا ذلك: لأنهم وجدُوا ذكرهم في الإنجيل كذلك.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لَكُمْ ولاَ تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ* وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلالاً طَيِّباً واتَّقُوا اللهَ الَّذِى أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ» سورةالمائدة (الآية: ٨٧، ٨٨)

في الواحدى: قال المفسرون: جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فذّكر الناس، ووصف القيامة، ولم يزدْهم على التخويف، فرّق الناس و بكوا، فاجتمع عشرة من الصحابة في بيت عثمان بن مظعون الجمحى، وهم أبوبكر الصديق وعلى بن أبى طالب، وعبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عمرو وأبوذر الغفارى، وسالم مولى أبى حذيفة، والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسى ومعقل بن مضر. واتفقوا على أن يصومُوا النهار، و يقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش ولا يأكلوا اللحوم ولا الْوَدَكَ (دسم اللحم والشحم) و يترهبُوا، ويجبُّوا المذاكير. فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجمعهم فقال: ألم أنبأ بأنكم اتّفقتُم على كذا وكذا، فقالوا: بلى يا رسول الله، وما أردنا إلا الخير، فقال: إنى لم أومر بذلك، إنَّ لأنفسكم عليكم حقاً، فَصُومُوا وأفطروا وقوموا وناموا، فإنى أقوم وأنام وأصوم وأفطر، وآكل اللحم والدسم، ومن رغب عن سنتى فليس منّى، ثم خرج إلى النّاس ، وخطبهم فقال: ما بال أقوام حرّموا النساء والطعام والطيب والنوم، وشهوات الدنيا، أما إنى لست آمركم أن تكونُوا قسّيسِين ولا رهباناً، فإنه ليس في دينى ترك اللحم والنساء ولا اتّخاذ الصوامع، وإن سياحة أمتى الصوم ورهبانيتها الجهاد، واعبدوا الله ولا

تشركوا به شيئاً، وحجُّوا واعتمروا وأقيموا الصلاة وآتُوا الزكاة، وصوموا رمضان فإنما هلك من قبلكم بالتشديد، شدَّدُوا على أنفسهم فشدّد الله عليهم. فأولئك بقايا في الدّيارات والصوامع، فأنزل الله تعالى هذه الآية، فقالوا يا رسول الله: كيف نصنع بأيماننا التي حلفنا عليها؟ وكانوا حَلَفُوا على ما عليه اتفقُوا، فأنزل الله تعالى **«لاَ يؤاخِذُكُمُ الله باللّغْوِ في أيْمٰانِكُمْ..»** الآية وكذا في الغرائب. زاد السيوطى في لبابه: وروى بن أبى حاتم عن زيد بن أسلم أنَّ عبدالله بن رواحة أضافه ضيف من أهله. وهو عند النبي صلى الله عليه وسلم ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يطعموا ضيفه انتظاراً له، فقال لامرأته: حبست ضيفى من أجل هو حرام عليّ، فقالت امرأته: هو عليّ حرام. فقال الضيف: هو عليّ حرام، فلمّا رأى ذلك، وضع يده وقال: كلوا بسم الله، ثم ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر الذى كان منهم، ثم أنزل الله **«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تُحرّمُوا طيباتِ ما أحلَّ الله لكم..»** وروى بن جرير وابن أبى حاتم وابن مردو يه عن عباس في قوله: **«يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرّمُوا طيباتِ ما أحَلَّ الله لكم..»** الآية قال: نزلت هذه الآية في رهط من الصحابة. قالوا: نقطع مذاكيرنا ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأ رض كما تفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: [لَكنّى أصوم وأفطر، أصلى وأنام وأنكح النساء فمن أخذ بسنتى فهو منى ومن لم يأخذ بسنّتى فليس منى» وهكذا بقيّة الأقوال في التفاسير. قوله: **«يا أيُّهاالّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرّمُوا طَيِّبَاتِ مٰا أحَلَّ الله لكُمْ»** أي ما طاب ولذّمنه، مثل قوله: **«فانكِحُوا مٰا طَابَ لكُمْ مِنْ النّساءِ»** أي ما تستطيبه نفوسكم من المطاعم والمشراب والمناكح. وكأنه تعالى لمّا تضمّن ما سلف ذكره من مدح النصارى على الترهيب، وترغيب المؤمنين في كسر النفس، ورفض الشهوات عقّب ذلك النهي عن الافراط في الباب. أي لا تمنعُوها أنفسكم كمنع التحريم، أو لا تقولوا حرّمنا على أنفسنا مبالغة منكم في العزم على تركها تزهداً منكم وتقشفاً ومن اعتقد تحريم شيء أحلّه الله للمؤمنين من الطيبات فقد كفر، أمّا ترك لذات الدنيا وشهواتها والانقطاع إلى الله والتفرغ لعبادته من غير حرمان النفس حقها فهذا لا شيء فيه لقوله تعالى: **«ولاَ تَعْتَدُوا»** أي بالاسراف في الطيبات **«إنَّ الله لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ»** المتجاوزين الحلال إلى الحرام **«وَكُلُوا مِمّا رَزَقَكُمُ الله»** أي تمتّعوا بأنواع الرزق، وخصّ الأكل لأنه أغلب

الانتفاع بالرزق «حَلالاً طَيّباً» مفعول. أي كلوا شيئاً حلالاً مما رزقكم الله إياه «واتّقُوا الله» في كسبه «الّذِى أنْتُمْ بِهِ مؤمِنُونَ» مصدقون. والمعروف من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم أنّه كان يأكل ما وجده فتارة يأكل أطيب الطعام كلحوم الأنعام والطير والدجاج، وتارة يأكل أخشنه كخبز الشعير بالملح، أو الزيت أو الخلّ، وحيناً يجوع وأخرى يشبع، فكان في ذلك قدوة للموسر والمعسر، وما كان يهمه أمر الطعام لكنه يُعْنَى بأمر الشراب. ففي حديث عائشة رضي الله عنها [كان أحبَّ الشراب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحلو البارد] قال المحدثون: و يدخل في ذلك الماء القراح، والماء المحلّى بالعسل، أو نقيع التمر أو الزّبيب].

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«لاَ يُؤاخِذُكُمُ الله باللّغْوِ فى أيْمانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤاخِذُوكُمْ بِما عَقّدْتُمُ الأ يْمَانَ فَكَفّارَتُهُ إطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أوْسَطِ مَاتُطْعِمُونَ أهْلِكُمْ أو كِسْوَتُهُمْ أوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أيّامٍ ذَلِكَ كَفّارَةُ أيْمَانِكُمْ إذَا حَلَفْتُمْ واحْفَظُوا أيْمَانكُمْ كَذَلِكَ يُبَيّنُ الله لَكُمْ آياتِهِ لَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ» سورةالمائدة (الآية: ٨٩)

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: لما نزلت «يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ مَا أحلّ الله لكُمْ» في القوم الذين كانو حرموا النساء واللحم على أنفسهم، قالوا يا رسول الله: كيف نصنعُ بأيماننا التي حلفنا عليها؟ فأنزل الله تعالى «لا يؤاخِذُكُمْ الله باللّغوِ فى أيْمَانِكُمْ» وأخرج أبوالشيخ عن يعلى بن مسلم قال: سألت سعيد بن جبير عن هذه الآية. قال: اقرأ ما قبلها فقرأت «يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا تحرّمُوا طيباتِ ما أحلّ الله لكُمْ» إلى قوله: «لاَ يُؤاخِذُكُمُ الله باللغوِ فى أيْمَانِكُمْ» وكذا في الخازن: قوله تعالى «لا يُؤاخِذُكُمُ الله باللّغوِ» الكائن «فى أيْمَانِكُمْ» هو ما يسبق إليه اللسان من قصد الحلف كقول الانسان لا والله، و بلى والله، وهذا اللغو في اليمين يسمى اليمين الساقط الذي لا يتعلق به حكم، وهو أن يحلف على شيء يظنّ أنّه كذلك، وليس كما يظن وهو قول مجاهد. قيل: كانوا حلفوا على تحريم الطيبات على ظن أنّه قربة فلمّا نزل النهى قالُوا: كيف بأيماننا فنزلت* وعند الشافعي رحمه الله: ما يبدو من المرء غير قصد

كقوله: لا والله، و بلى والله، وهو قول عائشة رضي الله عنها، وفى بمعنى من كما قاله القرطبيّ: والمعنى لا يؤخذكم الله بالأيمان التي تحلفونها بلا قصد، فلا كفارة عليها في الدنيا ولا عقوبة في الآخرة «**ولَكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأ يمَانَ**» أي بما صممتُم عليه من الأيمان وقصدتموهُ إذا أنتم حنثتُم فيه. وهذه المؤاخذة بينها سبحانه بقوله «**فكفّارتُهُ إطعامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أوْسَطِ مَا تطعِمُونَ أهْلِيكُمْ أو كِسْوَتُهم أو تحرير رقبةٍ**» فإذا حنث الحالف في يمينه عليه أن يكفر عنها على التّخيير بإحدى هذه المكفرات الثلاث:

١ ــ أن يطعم عشرة مساكين وجْبَةً واحدةً من غالب الطعام الذي يأكله أهله في البيت. لا من أردئه ولا من أعلاه. وأجاز أبوحنيفة إطعام مسكين واحد عشرة أيّام.

٢ ــ أو كسوة عشرة مساكين إذا لم يطعمهم كالجلابيّة ونحوها ممّا يستر البدن كله، ولا يجزيء ما يوضع على الرأس من طربوش أو عمامة فلا يقال لها كسوة.

٣ ــ أو اعتاق رقيق ولا يشترط إيمانها عند أبي حنيفة خلافاً للأئمة الثلاثة فقد اشترطوا إيمانها

«**فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِع**» ذلك «**فَصِيَامُ ثلاثة أيّام**» متتابعات. فإن كان مريضاً صام عند القدرة، فإن لم يقدر يرجى له عفو الله ورحمته. «**ذَلِكَ كَفَّارَةُ أيْمَانِكُمْ إذَا حَلَفْتُمْ**» بالله أو بأحد أسمائه وحنثتُم «**واحْفَظُوا أيْمَانكُمْ**» فلا تبذلُوها في أتفه الأمور وأحقرها، ولا تكثروا من الأيمان الصادقة فضلاً عن الأيمان الكاذبة قال تعالى «**ولاَ تَجْعَلُوا الله عُرْضَةً لأ يْمَانِكُمْ**» وإذا حلفتُم فلا تنسَوْا ما حلفتم عليه ولا تحنثُوا فيه إلا لضرورة تعرض، أو مصلحة تجعل الحنث راجحاً. «**كَذَلِكَ يُبَيّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَكُمْ تَشْكُرونَ**» أي بيّن الله لكم أعلام شريعته، وأحكامَ دينه ليعدّكم بذلك إلى شكر نعمه على الوجه الذي يحبّه و يرضاهُ.

((مسائل تتعلّق بالأ يمـــان لابُدّ من معرفتها))

١ ــ لا يجوز الحلف بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته. قال عليه الصلاة والسلام: [من كان حالفاً فلا يحلف إلا بالله] رواه البخارى ومسلم عن ابن عمر. وفي رواية عنه لأحمد والبخارى [من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت] و يدخل في النهى الحلف

بالنبي والكعبة وسائر ما هو معظم شرعاً تعظيما يليق به فالتعظيم لا يجوز إلاَّ لله تعالى في هذا الأمر. ولقد كان غلوّ الناس في تعظيم الأنبياء والصالحين منهم سبباً لهدم الدين.

٢ ــ يجوز الحنث في اليمين لمصلحة راجحة مع التكفير. روى أحمد والشيخان عن عبدالرحمن بن سَمُرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فائت الذي هو خير وكفّرْ عن يمينك] وفي لفظ عن أبى داود والنسائى [فَكَفِّرْ عن يمينك ثم ائتِ الذي هو خير] دلّ اختلاف الرواية في تقديم الأمر بالكفارة أو تأخيره على جواز الأمرين.

((الحلف باعتبار المحلوف عليه على أقسام))

أولاً : أن يكون الحلف على فعل واجب أو ترك حرام. وهذا تأكيد لما كلف الله به الحنث و يكون الاثم مضاعفاً.

ثانياً : أن يكون على ترك واجب أو فعل حرام. ويجب في هذا الحنث لأن اليمين معصية، ومن ذلك الحلف على إيذاء الوالدين وعقوقهما، أو منع ذى حقّ حقّه الواجب له، والحلف على ترك المباح كالطيب من الطعام، فإن ذلك تشريعاً بتحريم ما أحلَّ الله كما فعلت الجاهلية في تحريم بعض الطيبات.

ثالثا : أو يكون على فعل مندوب أو ترك مكروه. وهذه طاعة يندب له الوفاء به، و يكره الحنث ومن ذلك الحلف على ترك طعام معيّن كالطعام الذي في هذه الصحفة مثلاً كما فعل عبدالله بن رواحة في تحريمه الطعام على نفسه، ثم أكل منه لأجل الضيف، وقد تقدم ذلك من قريب في آية «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحرّمُوا طيبات ما أحلّ الله لكُمْ..**».

((الأيمــان ثلاثةُ أقْسام.))

الأول : ما ليس من أيمان المسلمين كالحلف بالمخلوقات نحو الكعبة والملائكة والمشايخ والملوك والآباء. وهذه يمين غير منعقدة ولا كفارة فيها، وهي منهى عنها، وتعمدّها إثم، ويخشى أن تكون كفراً لما روى [من حَلَفَ بغير الله فقد كفر].

الثاني : يمين بالله تعالى كقوله: والله لأفعلنَّ كذا، وهذه يمين منعقدة فيها كفارة عند الحنث.

الثالث : أيمان في معنى الحلف بالله يريد بها الحلف تعظيم الخالق كالحلف بالنذر والحرام والطلاق والعتاق. كقوله: إن فعلت كذا فعليّ صيام شهر، أو الحج إلى بيت الله، أو على الحرام لا أفعل كذا. أو الطلاق يلزمني لا أفعل كذا. أو إن فعلتُه فزوجتي طالق فيجزئه كفارة يمين. لأنها واردة في صيغة اليمين نيّةً وقصداً.

((اليمين الغموس))

هي التي يُهضَمْ بها الحقّ، أو يقصد بها الخيانة والغش، لا يكفرها عتق ولا صدقة، ولا صيام، بل لابُدّ من التوبة وأداء الحقوق لأربابها والاستقامة، قال تعالى: **«ولاَ تتَّخِذُوا أيْمَانكُمْ دَخَلاً بينَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتَهَا وتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عن سبيل الله وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ»** وقال صلى الله عليه وسلم: [مَنْ حَلَفَ عَلى يمينٍ صُبُرٍ وهو فيها فاجرٌ يقتطع بها مال امرىء مسلم لقي الله وهو عليه غضبان] رواه البخاري ومسلم. وسميت غموساً لأنها تغمس صاحبها في الإثم لأنه حلف كاذباً على علم منه.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«ياأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنَّما الْخَمْرُ والْمَيْسِرُ والأنْصَابُ والأزلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ* إنَّما يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ العَدَاوةَ والْبَغْضَاءَ فِى الْخَمْرِ والْمَيْسِرِ ويَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أنتُمْ مُنْتَهُونَ » سورةالمائدة (الآية: ٩٠، ٩١)

في الواحدي: روى مسلم عن أبي خيثمة قال: حدثنا حسن أبوموسى قال: حدَّثنا الزبير قال: حدثنا سماك بن حرب، قال: حدثني مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: أتيت على نفر من المهاجرين، فقالوا: تعال نطعمك ونسقيك خمراً، وذلك قبل أن يحرم الخمر، فأتيتهم في حشٍ، والحشّ: البستان، وإذا رأس جزور مشوياً عندهم ودنّ خمر، فأكلت وشربت معهم، وذكرت الأنصار والمهاجرين، فقلت: المهاجرون خير من الأنصار، فأخذ رجل لحى الرأس، فجذع أنفي بذلك، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأنزل الله تعالى في شأن الخمر **«إنما الخمرُ والميسرُ..»** إلى قوله **«فهل أنتُمْ منتهون»** كذا في كثير من الروايات* وفي رواية أبي ميسر عن عمر بن الخطاب قال:

اللهمّ بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت الآية التي في البقرة «**يسألونَك عن الخَمْرِ والْمَيْسِرِ**» فدعى فقرئت عليه. فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافيا، فنزلت الآية التي في النساء «**يا أيها الّذِينَ آمَنُوا لا تقربُوا الصلاةَ وأنتُمْ سُكارى**» فكان منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أقام الصلاة ينادى: لا يقربنَّ الصلاة سكران. فدعى عمر فقرئت عليه. فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بياناً شافياً، فنزلت هذه الآية «**إنما الخَمر والميسر..**» فدعى عمر فقرئت عليه، فلمّا بلغ «**فهل أنتُمْ مُنْتَهُونَ**» قال عمر: انتهينا يارب كما في بعض الروايات. وقال عليٌّ رضي الله عنه: كانت لى شارف (ناقة) من نصيبي من المغنم يوم بدر، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانى شارفاً من الخمس، ولما أردت أن أبتنى بفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأعدتُ رجلاً صوّاغاً من بنى قينُقَاع أن يرتحل معى فنأتى بأذخر، أردت أن أبيعه من الصوّاغين فأستعين به في وليمة عرسى، فبينما أنا أجمع لشارفى من الأقتاب، والغرائر والحبال، وشارفى مناخان إلى جنب حجرة رجل من الأنصار، فإذا أنا بشارفيّ قد أجبت أسنتهما، وبُقرت خواصرهما، وأخذ من أكبادهما، فلم أملك عيْنيَّ حين رأيتُ ذلك المنظر!! من فعل هذا؟ فقالوا: فعله حمزه، وهو في البيت في شرب الأنصار، عنده قيّنة وأصحابه، فقالت في غنائها:

ألا يا حمزة للشرف النواء	**وهن معقلات بالفناء**
فرّج المسكين في اللبات منها	**فضرجهنَّ حمزة بالدماء**
فأطعم من شرائحها كبابا	**ملهوجة على رهج الصلاء**
فأنت أبا عمارة المرجى	**لكشف الضر عنا والبلاء**
فوثب إلى السيف	**فأجبّ أسنَّتها**
وبقر خواصرها	**وأخذ من أكبادها**

قال عليّ رضي الله عنه: فانطلقت حتى أدخل على النبي صلى الله عليه وسلم وعنده زيد بن حارثة، قال: فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لقيت، فقال: ما لك به؟ فقلت يا رسول الله: ما رأيتُ كاليوم!! عدا حمزة على ناقتى، وجبّ أسنتها، وبقر خواصرهما، هوذا في بيتٍ، معه شرب. قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بردائه، ثم انطلق يمشى، فاتّبعت أثره أنا وزيد بن حارثة حتى جاء البيت الذي هو فيه، فاستأذن

فأذن له، فإذا هم شرب، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم لوم حمزة فيما فعل، فإذا حمزة ثمل محمرَّة عيناهُ، فنظر حمزة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صعد النظر فنظر إلى وجهه، ثم قال: وهل أنتم إلا عبيد أبى، فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه ثمل، فنكص على عقبيه القهقرى، فخرج وخرجنا. رواه البخارى عن أحمد بن صالح.

كذا ذكره الواحدى، وصاحب الغرائب* وفي لباب السيوطى: روى أحمد عن أبى هريرة قال: قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وهم يشربون الخمر و يأكلون الميسر، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهما: فأنزل الله **«يسألونك عن الخمر والميسر..»** فقال الناس: ما حرّم علينا إنما قال إثمٌ كبير، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام صلى رجل من المهاجرين: أمّ أصحابه في المغرب، فخلط في قراءته. فأنزل الله آية أشد منها **«يا أيُّها الَّذِينَ آمنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأنتُمْ سكارى حتى تعلموا ما تقولون»** ثم نزلت آية أشدّ من ذلك **«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنما الخمر والميسر»** إلى قولِه **«فهل أنتُمْ منتهون»** قالوا: انتهينا يا رب. فقال الناس يا رسول الله: ناس قُتلُوا في سبيل الله، وماتوا على فراشهم وكانوا يشربون الخمر و يأكلون الميسر، وقد جعله الله رجساً من عمل الشيطان، فأنزل الله **«ليس على الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالحات جُناحٌ فيمَا طَعِمُوا»** وفي اللّباب: وروى النسائى والبيهقى عن ابن عباس قال: إنما نزل تحريم الخمر في قبيلتين من قبائل الأنصار شربُوا، فلمَّا ثمل القوم عبث بعضهم ببعض. فلما صحوا جعل الرجل يرى الأثر في وجهه ورأسه ولحيته، فيقول: صنع بى هذا أخى فلان وكانوا إخوة ليس في قلوبهم ضغان، فيقول: والله لو كان بى رؤفاً رحيماً ما صنع بى هذا، حتّى وقعت الضغائن في قلوبهم، فأنزل الله هذه الآية **«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إنَّما الخَمرُ والميسر..»** الآية. فقال ناس من المتكلّفين: هي رجسٌ وهي في بطن فلان، وقد قتل يوم أحد. فأنزل الله **«ليْسَ على الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالحاتِ جُنَاحٌ..»** وفي رواية حماد عن أنس (كما في الواحدي) قال: كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبى طلحة، وما شرابهم إلا الفضيخ والبسر والتمر، وإذا منادي ينادي: إنَّ الخمر قد حرّمت، قال: فأريقت في سكك المدينة، فقال أبوطلحة: اخرج فأرقها، قال: فأرقتها، فقال بعضهم: قتل فلان وقتل فلان، وهى في بطونهم قال: فأنزل الله تعالى **«ليس على الَّذِينَ آمَنُوا وعملوا الصالحات جناح..»** رواه مسلم عن أبى الربيع،ورواه البخارى عن النعمان

كلاهما عن حماد، وفي البخارى قال أنس بن مالك رضي الله عنه: ما كان لنا خمرٌ غير فضيخكم هذا الذي تسمُّونه الفضخ (شراب يتخذ من البسر وحده من غير أن تمسّه النار) فإني لقائم أسقى أبا طلحة وفلاناً وفلاناً إذ جاء رجل، فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: حُرِّمت الخمر. فقالوا: أهرق هذه القِلاّلَ (جرار) يا أنس قال: فما سألُوا عنها، ولا راجعوها بَعْدَ خبر الرجل* وفي رواية له وفي آخرها: قال: فجرت في سكك المدينة. قال: وكانت خمرهم يومئذٍ الفضيخَ، فقال بعض القوم قتل قوم وهي في بطونهم، قال: فأنزل الله «**ليسَ على الّذِينَ آمَنُوا وعملوا الصّالحاتِ جُناحٌ فيما طَعِمُوا**» وهنا رواياتٌ كثيرة في التفاسير جميعها متقاربة اللفظ و المعنى فيما ذكرت.

أما التفسير: «**يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا إنَّما الخَمْرُ**» المسكر الذي يخامر العقل أي يستره و يغطيه. روى البخارى عن ابن عمر قال: سمعت عمر رضي الله عنه على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أما بعد أيها الناس، إنَّه نزل تحريم الخرم، وهي من خمسةٍ: من العنب والتمر والعسل والحنطة، والشعير، والخمرُ ما خامر العقل. أي ستره وغطاه، وصار عليه كالخمار، وهو بعمومه يتناول كل ما أزال العقل. سواء كان متخذاً من العنب والزبيب والحبوب بأنواعها، أو نباتاً كجوز الهند والحشيش ولبن الخشخاش،وكل ذلك إذا أسكر حرم، وما ورد في رواية مسلم عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم [الخمر من هاتين الشجرتين النخلة والعنب] لا تعارض بين هذا و بين الذي ذكرناه، لأن كل واحد من الرواة حفظ ما سمعه من الأصناف وأنَّ مفهوم العدد ليس بحجّة على الصحيح وعليه الجمهور. وقوله «**والْمَيْسِرُ**» القمار هو اللعب بالملاهي كالطاب والمنقلة والطاولة. وسميّ القمار. أي اللعب ميسراً لأن فيه أخذ المال بيسر. «**والأنْصَابُ**» الأصنام «**والأزْلاَمُ**» قداح الاستقسام. أي قطع رقيقة من الخشب بهيئة السهام كانُوا يستقسمون بها في الجاهلية لأجل التفاؤل أو التّشاؤم «**رِجْسٌ**» في السمين قال الزجاج: الرجس اسم لكل ما استقذر من عمل قبيح، يقال: رَجِسَ ورجَسَ (بكسر الجيم وفتحها) يرجس رجساً إذا عمل عملاً قبيحاً، وأصله من الرَّجس، وهو شدّة صوت الرعد، وفرّق ابن دريد بين الرجس والرجز والركس، فجعل الرجس: الشرَّ، والرجز: العذاب، والركس: القذرة والنّتن* وفي القاموس: ورجس كفرح، وكرم إذا عمل عملاً قبيحاً، والرجس: المستقذر حساً أو معنى، يقال رجل رجس. ورجال أرجاس، والرجس على

أوجه: إمَّا من جهة الطبع، وإمَّا من جهة العقل، وإمَّا من جهة الشرع كالخمر والميسر، وإما من كل ذلك كالميتة لأنها تُعاف طبعاً وعقلاً وشرعاً «**مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**» الذي يزينه من الأمور للنفس، فليس المراد بعمله ما يعمله بيده «**فاجتنبوهُ**» أي الرجس المعبر به عن هذه الأشياء أن تفعلوه «**لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**» أي رجاء أن تفلحوا وتفوزوا بما فرض عليكم من تزكية أنفسكم، وسلامة أبدانكم، والتّوادّ فيما بينكم. و بعد أن أمر الله باجتناب الخمر والميسر ذكر أنَّ فيهما مفسدتين: احداهما: دنيو ية، وثانيتُهما: دينيّة، وقد أشار إليهما بقوله «**إنَّما يُرِيدُ الشيطانُ أنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ والبغضَاءَ فى الْخَمْرِ والْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكرِ الله وعَنْ الصَّلاةِ**» أي إنه الشيطان يريد لكم شراب الخمر ومباشرتكم بالقداح ليعادى بعضكم بعْضاً، و يبغض بعضكم إلى بعض عند الشراب والمباشرة، فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم باخوّة الإسلام، و يصرفكم بالسكر والاشتغال بالميسر عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم، وعن الصلاة التي فرضها عليكم، تزكية لنفوسكم، وتطهيراً لقلوبكم.

* ((ما هى الدلائل على تحريم الخمر)) *

قال العلماء : هذه الآية تدلُّ على تحريمها من وجوه. منها تصدير الجملة بإنما الدالة على الحصر، معناه ليست الخمر إلاَّ الرجس وعمل الشيطان* ومنها أنه قرنها بعبادة الأصنام. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: [شارِبُ الخمر كعابد الوثن]* ومنها أنه جعلها رجساً كما قال فى موضع آخر [فاجتنبوا الرّجس مِن الأ وثان] ، وأصل الرجس العمل القبيح، والقذر ــ كما علمت ــ قال تعالى: «**ويجعل الرجْسَ على الّذينَ لاَ يعْقِلُون**» أى العقاب والغضب* ومنها أنه جعلها من عمل الشيطان، ومن المعلوم أنه لا يصدر منه إلا الشـرّ البحت* ومنها أنه أمر بالاجتناب، وظاهر الأمر للوجوب* ومنها أنه جعل الاجتناب من الفلاح فيكون القرب منه خيبة* ومنها أنها شرُّ أنواع المفاسد المنتجة. منها التعادى والتباغض والصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة خصوصاً، وفيه أن غرض الشرب من الاجتماع تأكيد الألفة والمودة، ثم إنها تورث نقيض المقصود لأن العقل إذا زال استولت الشهوة والغضب، و يؤدى إلى التنازع واللجاج وكذا القمار يفضى إلى افناء المال، وإلى أن يقامر على خليلته وأهله وولده، وكل ذ لك يورث العداوة والفتن، وهذان

من مكايد الشيطان، ومضادّان لمصالح الإنسان. وأيضاً الخمر يسبّب تهييج اللذة الجسمية، والقمار يورث لذة الغلبة الحالية، وكلتاهما توجب الاشتغال عن اللذات الحقيقية الحاصلة من الاستغراق فى طاعة المعبود، وإنما أفرد ذكر الخمر والميسر ثانيا لأن الخطاب مع المؤمنين، فقرنهما أولاً بذكر الأنصاب والأزلام تنبيها على أنها جميعاً من أعمال الجاهلية وأهل الشرك، ثم أفردهما لأن الكلام مسوق لتحريمهما على المخاطبين حيث إنهم كانو لا يتعاطون سوى هذين* ومنها سوق الكلام بطريق الاستفهام فى قوله: **«فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ»** كأنه قيل: قد تلى عليكم ما هو كافٍ فى باب المنع، فهل أنتم منتهون، أم أنتمُ على ما كنتم عليه فى الجاهلية.. وكأنكم لم تزجروا. ولهذا قالُوا قد انتهينا يارب. لأنهم فهموا التحريم المؤكد* ومنها أنه قال بعد: **«مُنْتَهُونَ»** : **«وأطيعُوا الله وأطيعُوا الرَّسُولَ واحْذَرُوا»** والمراد بالطاعة الاجتناب والحذر عن المخالفة، وقوله: **«فإنْ تَوَلَّيتُمْ ..»** الآية أى إن أعرضتم فالحجة قد قامت عليكم، والرسول قد خرج عن عهدة البلاغ، وقد أعذر من أنذر، وجزاء المخالف إلى الله المقتدر* وقد ورد الوعيد من الرسول عليه الصلاة والسلام لشاربها فى كثير من الأحاديث منه [لعنت الخمر على عشرة أوجه: لعنت الخمر بعينها وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة إليه وآكل ثمنها] رواه أبو داود وابن ماجه من حديث وكيع به. وفى رواية عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال [مَنْ تَرَكَ الصَّلاة سُكْراً مَرَّةًواحدةً فكأنّما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها، ومن ترك الصلاة سُكراً أربع مرّات كان حقا على الله أن يسقيه من طينة الخبال] قيل: وما طينة الخبال؟ قال: [عصارة أهل جهنّم] رواه أحمد من طريق عمرو بن شعيب، وفى رواية ابن عبارس عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال: [كلُّ مخمّر خمر. وكل مسكر حرام، ومن شرب مسكراً بخست صلاته أربعين صباحاً، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال. قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال: [صديد أهل النار، ومن سقاه صغيراً لايعرف حلاله من حرامه كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال] تفرد به أبو داود، وفى رواية للشيخين عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [مَنْ شرب الخمر فى الدنيا ثم لم يَتُبْ منها حرمها فى الآخرة] ، وفى رواية النّسائى عن عمرو بن على قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاقّ لوالدَيه، والمدمن الخمر والمنّانُ بما أعطى] والأحاديثِ فى الموضوع كثيراً جداً.(*)

وكان يؤتى بالشارب في عهد النبي صلى الله عليه وسلم فيضرب بالأ يدى والجريد والثياب والنعال* وفي حديث أنس [أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم أتى برجل قد شرب الخمر فجلده بجريدتين نحو أربعين] وفعل ذلك خليفته أبوبكر الصديق، وفي صحيح مسلم أن عثمان أتى بالوليد وقد صلى الصبح ركعتين، وقال: أزيدكم وشهد عليه الشهود أنه شرب الخمر فأمر بجلده وعليٌّ كرم الله وجهه يعد حتى بلغ الأ ربعين، فقال: أمْسِك. ثم جلد النبي وأبوبكر أربعين وعمر ثمانين وكُلٌّ سُنَّةٌ. وهذا أحبُّ إلى ـــ يريد الأ ربعين جلدة ـــ وقوله: وكُلٌّ سُنَّةٌ أي إنه جرى العمل به فعلاً. وقد روى الدارقطنى عن علىّ كرم الله وجهه: إذا شرب سَكِرَ، وإذا سَكِرَ هذى، وإذا هذى افترى، وعلى المفترى ثمانون جلدة.

* ((القول فى سبب نزول قوله تعالى :)) *
«قُلْ لاَ يَسْتَوِى الْخَبِيثُ والطَّيّبُ ولَوْ أعجبكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ* فاتّقُوا الله يا أولى الألْبَابِ لعلّكُمْ تُفْلِحُونَ» سورة المائدة (الآية: ١٠٠)

فى الواحدى : حدّث محمد بن المنكدر عن جابر قال: قال إن الخمر لُعن شاربها وعاصرها وساقيها، و بائعها وآكل ثمنها، فقام إليه أعرابى، فقال يا رسول الله: إنى كنت رجلاً كانت هذه تجارتى، فاقتنيْتُ من بيع الخمر مالاً فهل ينفعنى ذلك المال إن عملت فيه بطاعة الله؟ فقال النبىُّ صلى الله عليه وسلم: [إن أنفقته فى حجّ أو جهاد أو صدقة لم يعدل عند الله جناح بعوضه فيه، إن الله لا يقبل إلاَّ الطيّب] فأنزل الله تعالى تصديقاً لقوله عليه الصلاة والسلام: **«قُلْ لا يَسْتَوِى الْخَبيثُ والطيّبُ ولَوْ أعجبكَ كثرةُ الخبيث ..»** الحرام كالزنا والكسب الحرام، ومنه الخبائث، وهى التى كانت العرب تستخبثها مثل الحيّة والعقرب ... والأخبثان: البول والغائط. وشىء خبيث بخس* **«والطيّب»** الكسب الحلال وهو نقيض الحرام، يعنى لا يستوى الحلال ولا الطالح، ولا الضّار ولا النافع، ولا الظالم ولا العادل الخ ... فلكُلٍ منها حكم يليق به عند الله الذى يضع كل شىء فى موضعه بحسب علمه: **«ولَوْ أعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبيث»** أى ولو أعجبك أيها السامع كثرة الخبيث من الناس أو من الأموال المحرمة لسهولة تناولها، والتوسع فى التمتع بها كأكل الربا وتجارة الخمر والرشوة والخيانة، أى لا يستويان لا فى أنفسهما ولا

عنـد الله، ولـو فـرض أن كـثـرة الخبيث أعجبتك وغرّتك، فصرت بعيداً عن إدراك تلك الحقيقة ــ وهـى أن القليل من الكسب الحلال خير من الكثير من الكسب الحرام. ألا تـرى أنّ الـقـلـيـل الجيد من الغذاء أو المتاع خير من الكثير الرّىء الذى لا يغنى غناءه ولا يـفـيـد فـائـدته بل ربما يضرُّ و يؤذى صاحبه، فكذلك الحلال بالنسبة إلى الناس. فالقليل الـطـيـب منهم خير مـن الـكـثـير الخبيث، فطائفة قليلة من شجعان المؤمنين تغلب الطائفة الـكثير من الجبناء المتخاذلين، وجماعة قليلة من ذوى البصيرة والرأي تأتى من الأعمال ما يـعـجـز عـنه الكثير من أهل الحمق والبلاهه، فالعبرة بالصفة لا بالعدد، والكثرة لا تكون خـيـراً إلاّ بعد التساوى فى الصفات الفاضلة: «**فاتّقُوا الله**» يعنى فيما أمركم به أو نهاكم عنه، ولا تعتدُوه: «**يَا أُولى الألْبَابِ**» يعنى يا ذوى العقول السليمة: «**لعلّكُمْ تُفلِحونَ**» تفوز ون برضوان الله.

* ((القول فى سبب نزول قوله تعالى :)) *

«يــا أيُّــهَــا الّـــــذِيــنَ آمَــنُــوا لاَ تَــسْــألُــوا عَــنْ أشْــيَــاءَ إنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤكُمْ وإنْ تَسْألُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزّلُ الْقرآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللهُ عنْـهَـا واللهُ غـفـورٌ حَـلـيـمٌ* قَـدْ سَـألَـهَـا قوْمٌ مِنْ قبْلِكُمْ ثُمّ أصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ»

سورة المائدة (الآية: ١٠١، ١٠٢)

فى الـواحـدى : قـال ابن عباس نزلت هذه الآية فى قوم كانوا يسألون النبىَّ صلى الله عـلـيـه وسـلـم استهـزاءً، فـيقول الرجل تضل ناقته. أين ناقتى؟ فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآيـة* وفى اللـبـاب. روى البخارى عن أنس بن مالك قال: خطب النبىُّ صلى الله عليه وسلـم خـطـبـة، فـقـال رجلٌ: من أبى؟ فأنزل الله تعالى فيهم هذه الآية: «**يا أيُّها الّذِين آمنُوا لا تسألُوا...**» حتى فرغ من الآية كلها. وروى أحمد والترمذى والحاكم عن علىّ قـال: لما نـزلـت ولله على الـنـاس حجّ البيت، قالوا يارسول الله: أفى كل عام؟ فسكت. قـالـوا يـا رسـول الله: أفى كـل عام؟ قال: لا، ولو قلت: نعم، لوجبت، فأنزل الله تعالى: «**لاَ تَـسْـألُوا عَنْ أشْيَاءَ إنْ تُبْدَ لَكُمْ..**» قال الحافظ ابن حجر: لا مانع أن تكون نزلت فى الأمـريـن قـلـت: رواية البخارى عن أنس رضى الله عنه قال: [خطب رسول الله صلى

الله عليه وسلم خطبة ما سَمِعْتُ مِثْلَها قط، قال: لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، قال: فغطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وُجُوهَهُم لهم حنينٌ، فقال رجل من أبى؟ قال: فلانٌ فنزلت هذه الآية «**لا تسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**» وأخرجه مسلم فى فضائل النبىّ صلى الله عليه وسلم عن محمد بن معمر وغيره، وأخرجه الترمذى فى التفسير عن محمد بن معمر، وأخرجه النسائى فى الرقاق عن محمود بن غيلان مختصراً. قال الخطابى: الحنين بكاء دون الانتحاب* وأصله من حنين المرأة، وهو نزاعها إلى ولدها وإن لم يكن لها صوت عند ذلك* وفى رواية أخرى كما فى الخازن: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج حين زاغت الشمس، فصلى الظهر، فقام على المنبر فذكر السّاعة، فذكر فيها أموراً عظاماً، ثم قال: من أحب أن يسألنى عن شيء فليسأل، فلا تسألونى عن شيء إلاّ أخبرتكم به ما دمت فى مقامى، فأكثر النساء البكاء، وأكثر أن يقول سلونى فقام عبدالله بن حذافة السهمى، فقال: من أبى؟ فقال: أبوك حذافة، ثم أكثر أن يقول سلونى، فبرك عمر على ركبتيه فقال: رضينا بالله ربّاً و بالإسلام ديناً، وبمحمّد نبياً، فسكت، ثم قال: عرضت علىَّ الجنّة والنّار آنفاً فى عرض هذا الحائط، فلم أرَ كاليوم فى الخير والشر، قال ابن شهاب: فأخبرنى عبيد الله بن عبدالله بن عتبة، قال: [قالت أم عبدالله بن حذافة لعبدالله بن حذافة: ما سمعت بابن قط أعقّ منك، أمنت أن تكون أمك فارقت بعض ما تفارق أهل الجاهلية فتفضحها على أعين الناس، فقال عبدالله بن حذافة: لو ألحقتنى ببعبد أسود للحقته] أخرجاه فى الصحيحين* وروى مجاهد عن ابن عباس: لا تسألوا عن أشياء، قال: هي البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، ألا ترى أنه يقول بعد ذلك ما جعل الله من بحيرة ولا كذا وكذا ولا كذا* وقال عكرمة: إنهم كانوا يسألون عن الآيات فنهوا عن ذلك، ثم قال: «**قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بها كَافِرِينَ**».

أما تفسير الآيات: «**يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**» أي لا تسألوا عن أشياء: جميع شيء، إن تُبد لك: تظهر لكم، وتبيّن لكم تسؤكم. يعنى إن أمرتُم بالعمل بها، فإن من سأل عن الحج لم يأمن أن يؤمر به. فلا يقدر عليه فيسوؤه ذلك، ومن سأل عن نَسَبِهِ لم يأمن أن يلحقه النبي صلى الله عليه وسلم بغير أبيه فيفتضح و يسوؤه ذلك، وهذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهى لهم عن أن

يسألوا عن أشياء مما لا فائدة لهم في السؤال والتنقيب عنها* في الطبرى: عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سألوه حتى أحفوه بالمسألة فخرج عليهم ذات يوم، فصعد المنبر، فقال: [لا تسألونى اليوم عن شيء إلاَّ بينته لكم..]. **«وإنْ تَسْألُوا عنها حِينَ يُنزّل القُرآنُ تُبْدَ لَكُمْ»** أي وإن تسألوا عن جنس تلك الأشياء التي من شأنها أن يكون إبداؤها مِمَّا يسوءكم حين ينزّل القرآن في شأنها أو حكمها لأجل فهم ما نزل إليكم فإنَّ الله يبديه لكم على لسان رسوله. قال الحافظ بن كثير: لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها فلعلّه ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق. وقد ورد في الحديث [أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته] ولكن إذا نزل القرآن بها مجملةً فسألتُم عن بيانها بُيِّنت لكم حينئذٍ لاحتياجكم إليها **«عَفَا اللهُ عنها»** أي ما لم يذكره في كتابه فهو ممَّا عفا عنها، فاسكتوا أنتم عنها كما سكت عنها، وفي الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [ذرونى ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم] وفي الحديث الصحيح أيضاً [إنَّ الله تعالى فرض فرائض فلا تُضيّعُوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها]. **«قَدْ سَألَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أصْبَحُوا بِهَا كَافرينَ»** أي قد سأل أمثال هذه المسائل قوم من قبلكم من الأمم، ثم أصبحوا بعد ابدائها كافرين بها. فإنّ من أكثر الأسئلة عن الأحكام الشرعية من الأمم السالفة لم يعملوا بها، بل عتوا عن أمر ربّهم استثقالاً للعمل بها، وذلك هو الكفران المبين، فاستحقوا بسبب ذلك الهلاك في الدنيا قبل عذاب الآخرة كقوم صالح وغيرهم من الأمم.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أنْفُسَكُمْ لاَ يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذَا اهْتَدَيْتُمْ إلى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»

سورة المائدة (الآية: ١٠٥)

في الواحدي: قال الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عباس قال: كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أهل هجر، وعليهم منذر بن ساوى يدعوهم إلى الإسلام، فإن أبوا

فليؤدوا الجزية، فلمّا أتاهُ الكتاب عرضه على من عنده من العرب واليهود والنصارى والصابئين والمجوس، فأقرُّوا بالجزية وكرهُوا الإسلام، وكتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أما العرب فلا تقبل منهم إلاَّ الإسلام أو السيف، وأما أهل الكتاب والمجوس فأقبل منهم الجزية، فلمّا قرأ عليهم كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أسلمت العرب، وأما أهل الكتاب والمجوس فأعطوا الجزية، فقال منافقوا العرب: عجباً من محمد يزعم أنَّ الله بعثه ليقاتل الناس كافة حتى يُسلموا، ولا يقبل الجزية إلاَّ من أهل الكتاب، فلا نراه إلا قبل من مشركى أهل هجر مارَدّ على مشركى العرب. فأنزل الله تعالى «**عَلَيْكُمْ أنفسكُمْ لا يضركم من ضلَّ إذا اهتديْتُمْ..**» يعنى من ضلّ من أهل الكتاب* وفي الخازن: قال سعيد بن جبير ومجاهد: نزلت هذه الآية في أهل الكتاب: اليهود والنصارى. يعنى عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ من أهل الكتاب فخذوا منهم الجزية واتركوهم. وقيل: لـمّا قبلت الجزية من أهل الكتاب قال بعض الكفار: كيف تقبل الجزية من بعض دون بعض فنزلت هذه الآية. وقيل: إنَّ المؤمنين كان يشتد عليهم بقاء الكفار على كفرهم، فقيل لهم عليكم أنفسكم واجتهدوا في صلاحها لا يضركم ضلال الضالين ولا جهل الجاهلين إذا كنتُمْ أنتم مهتدين* وفي الطبرى: قال ابن زيد في قوله: «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عليكُمْ أنفسكُمْ..**» قال كان الرجل إذا أسلم قالوا له: سفهت آباءك وضللتهم وفعلت وفعلت، وجعلت آباءك كذا وكذا كان ينبغى لك أن تنصرهم وتفعل فقال الله تعالى: «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ**»* روى ابن كثير: أن أبا بكر رضي الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنكم تقرؤن هذه الآية «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عليكم أنفسكم**» وإنكم تضعُونها على غير موضعها، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [إنّ النّاسَ إذا رأوا المنكر ولم يغيّروه يوشك أن يعمهم الله بعقاب]* وروى الترمذي عن أبي أمية الشيبانى قال: أتيْتُ أبا ثعلبة الخشنى، فقلت: ما تصنع في هذه الآية؟ قال: أيَّةُ آية؟ قلت: قول الله تعالى: «**يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أنفسكُمْ لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتمُ**» قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر حتى إذا رأيت شُحّاً مطاعاً، وهوى متّبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك ودع عنك العوامّ، فإن من

ورائكم أياماً الصابر فيهنّ مثل القابض على الجمر، للعامل فيهنّ أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم]ه وروى ابن جرير عن ابن عقال قال: قيل لابن عمر: لوجلستَ في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه فإن الله قال «عَلَيْكُمْ أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم» فقال ابن عمر رضي الله عنهما: إنها ليست لي ولا لأصحابي لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [ألا ليبلغ الشاهد الغائب] فكنا نحن الشهود، وأنتم الْغُيّب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهمه وفي الكرخي: أن الآية ليست نازلة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل جاء عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: تعدُّونها رخصة، والله ما نزل آية أشدّ منها، وإنما المراد لا يضركم من ضلّ من أهل الكتاب كما جاء عن مجاهد وابن جبير. هي في اليهود والنصارى خذوا منهم الجزية واتركوهمه وفي أبي السعود: ولا يتوهم أنّ في هذه الآية رخصة في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع استطاعتها، كيف لا، ومن جملة الاهتداء أن ينكر على المنكر حسبما تفي به الطاقة، قال صلى الله عليه وسلم: [منْ رأى منكم منكراً فاستطاع أن يغيّرهُ فليغيرهُ بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه] وقد روى أن الصديّق رضي الله عنه قال يوماً على المنبر: يا أيُّها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها غير موضعها، ولا تدرون ما هي، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [إنّ الناس إذا رأوْا منكراً فلم يغيّروه عمهم الله بعقاب] فأمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، ولا تغتروا بقول الله عز وجل «يا أيُّها الّذِينَ آمَنُوا عليكُمْ انفسكُمْ» فيقول أحدكم عليّ نفس، والله لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر، أو ليستعملن الله عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب، ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لهم. وعنه صلى الله عليه وسلم: [ما من قوم عمل فيهم منكر، وسنّ فيهم قبيح، فلم يُغيروه ولم ينكروه إلا وحقّ على الله أن يعمهم بالعقوبة جميعاً. ثم لا يستجاب لهم]. والآية نزلت لمّا كان المؤمنون يتحسّرون على الكفرة، وكانُوا يتمنّون إيمانهم، وهم من الضلال بحيث لا يكادون يرعون عنه بالأمر والنهيه قوله تعالى: «عَليكُمْ أنفُسَكُمْ» الجمهور على نصب أنفسكم وهو منصوب على الإغراء بعليكم لأن عليكم هنا اسم فعل إذ التقدير الزمُوا أنفسكم: أي هدايتها وحفظها مما يؤذيها، وقرأ نافع بن أبي نعيم «أنْفُسُكُمْ» رفعاً فيا حكاه عنه صاحب الكشاف أي ورفعه إما على الابتداء وعليكم خبره مقدّم. وهو إغراء أيضاً. ومنه قراءة بعضهم «ناقةُ

الله وسقياها» وهذا تحذير نظير الاغراء. وإما أن يكون توكيداً للضمير المستتر في عليكم، والمفعول محذوف أي عليكم أنتُمْ أنفسكم: صلاح حالكم وهدايتكم* أي عليكم أنفسكم وما كلفتم به من إصلاحها والمشى بها في طريق الهدى **«لا يَضُرُّكُمْ»** الضلال عن دينكم إذا كنتم مهتدين كما قال عز وجلّ لنبيه عليه الصلاة والسلام: **«فلاَ تَذْهب نفسك عليهم حَسَرَات»** وكذلك من يتأسف على ما فيه الفسقة من الفجور والمعاصى ولا يزال يذكر معايبهم ومناكيرهم فهو مخاطب به. وقوله: **«إذا اهتَدَيْتُمْ»** قيل: المراد لا يضركم من ضلّ من أهل الكتاب وعلى هذا القول تكون الآية ليست نازلة في ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقد علمت ما ذكره أبو السعود **«إلى الله مَرْجِعَكُمْ جميعاً»** أي أيها المؤمنون الطائعون ومرجع الضالين في الآية اكتفاء على حدّ: سرابيل تقيكم الحرب* وفي هذا وعد ووعيد للفريقين، وتنبيه على أنّ أحداً لا يؤاخذ بعمل غيره **«فينبئكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ»** فيجازيكم به.

((القول في سبب نزول قوله تعالى :))

«يا أيُّها الَّـذِينَ آمَنُوا شَهَادةُ بينِكُمْ إذَا حَضَرَ أحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوا عَدْلٍ مِنْكُمْ أوْ آخَرَانِ مِنْ غيرِكُمْ إنْ أنْتُمْ ضَرَبْتُمْ في الأرْض فَأصابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ باللهِ إنِ ارْتَبْتُمْ لاَ نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً ولَوْ كَانَ ذا قُرْبَى ولاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ إنَّا إذاً لَمِنَ الآثِمينَ» سورة المائدة (الآية: ١٠٦)

في الواحدي: قال ابن عباس: كان تميم الدارى وعدى بن زايد يختلفان إلى مكة، فصحبهما رجل من قريش من بنى سهم، فمات بأرض ليس بها أحد من المسلمين، فأوصى إليهما بتركة، فلمّا قدما دفعاها إلى أهله، وكتما جاماً كان معه من فضة كان مخوّصاً بالذهب، فقالا: لم نره، فأتى بهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فاستحلفهما بالله ما كتما ولا اطلعا، وخلى سبيلهما، ثم إن الجام وجد عند قوم من أهل مكة فقالوا: ابتعناهُ من تميم الدارى وعدىّ بن زيد. فقام أولياء السهمى فأخذوا الجام، حلف رجلان منهم بالله إنّ هذا الجام جام صاحبنا، وشهادتنا أحقّ من شهادتهما وما اعتدينا فنزلت هذه الآية والتي تليها* وعبارة السيوطى في لبابه: روى الترمذي (وضعفه غيره) عن ابن عباس عن تميم

الداري في هذه الآية «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بينكم» قال: بريء الناس منها غيري وغير عديّ بن زيد، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما وقدم عليهما مولى لبني سهم يقال له: بديل بن أبي مريم بتجارة، ومعه جام من فضة فرض فأوصى إليهما، وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله. قال تميم: فلمّا مات أخذنا ذلك الجام فبعتُه بألف درهم، ثم اقتسمناهُ أنا وعدي، فلمّا قدمنا أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدُوا الجام فسألونا عنه، فقلنا: ما ترك غير هذا، وما دفع غيره، فلمّا أسلمتُ تأثمتُ من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، ودفعت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبي مثلها فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسألهم البيّنة فلم يجدُوا، فأمرهم أن يستحلفوه، فحلف فأنزل الله «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا شهادة بينكم» إلى قوله «أن تُردّ أيمانٌ بعد أيمانهم» فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا، فنزعت الخمسمائة درهم من عدي بن بدّاء» وعبارة ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال: كان تميم الداري وعدي بن بدّاء رجلين نصرانيين يتّجران إلى مكة في الجاهلية، و يطيلان الاقامة بها، فلمّا هاجر النبي صلى الله عليه وسلم حوّلا متجرهما إلى المدينة، فخرج بُدَيل مولى عمرو بن العاص تاجراً حتى قدم المدينة، فخرجُوا جميعاً تجّاراً إلى الشام حتى إذا كانُوا ببعض الطريق اشتكى بديل، فكتب وصيّة بيده، ثم دسّها في متاعه، وأوصى إليهما، فلمّا مات فتحا متاعه فأخذا منه شيئاً، ثم حجراه كما كان، وقدما المدينة على أهله، فدفعا متاعه، ففتح أهله متاعه فوجدُوا كتابه وعهده وما خرج به، وفقدُوا شيئاً فسألوهما عنه، فقالوا: هذا الذي قبضنا له ودُفع إلينا، فقالوا لهُما: هذا كتابه بيده، قالوا: ما كتمنا له شيئاً، فترافعُوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية «يا أيُّها الَّـذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إذا حَضَرَ أحدكم الموتُ» إلى قوله: «إنَّا إذاً لَمِنَ الآثِمِينَ» فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يستحلفوهما في دُبُر صلاة العصر بالله الذي لا إله إلا هو ما قبضنا غير هذا ولا كتمنا. فمكثا ما شاء الله أن يمكثا. ثم ظهر معهما إناء من فضة منقوش مُمَوَّه بالذهب. فقال أهله: هذا من متاعه، قالا: نعم ولكنا اشتريناه منه، ونسينا أن نذكره حين حلفنا فكرهنا أن نكذّب نفوسنا، فترافعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت الآية «فإنْ عُثِرَ عَلَى أنَّهُما اسْتَحَقَّا إثماً..» فأمر النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من أهل البيت أن يحلفا على ما كتما وغيّبا و يستحقانه» ثم إن تميماً

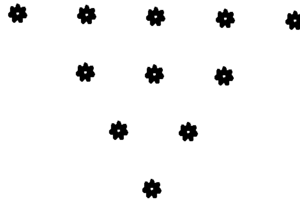
الداري أسلم وبايع النبي صلى الله عليه وسلم وكان يقول: صدق الله ورسوله. أنا أخذتُ الإناءَ، ثم قال يا رسول الله: إن الله يظهرك على أهل الأرض كلها فهب لي قرية عبنون من بيت لحم. وهي القرية التي ولد فيها عيسى، فكتب له بها كتاباً، فلمّا قدم عمر الشام أتاهُ تميم بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر: أنا حاضر ذلك فدفعها إليه* وعبارة الخطيب: فلمّا قدمُوا الشأم مرض بديل، فدوّن ما معه في صحيفة وصرها في متاعه ولم يخبرهما بها، وأوصى إليها بأن يدفعا متاعه إلى أهله، ومات ففتشاه وأخذا منه إناء من فضةٍ وزنه ثلاثمائة مثقال منقوشاً بالذهب. وكان بديل أراد به ملك الشام. ثم قضيا حاجتهما، وانصرفا إلى المدينة، ودفعا المتاع إلى أهل الميت، ففتّشوا فأصابوا الصحيفة فيها تسمية ما كان معه، فجاؤا تميماً وعدياً فقالوا: هل باع صاحبنا شيئاً؟ قالا: لا. قالوا: فهل إتّجر تجارة؟ قالا: لا. قالوا: فهل طالب مرضه فأنفق علي نفسه؟ قالا: لا. قالوا: فإنا وجدنا في متاعه صحيفة فيها تسمية ما معه، وإنا فقدنا منها إناءً من فضة مموَّهاً بالذّهب. وزنه ثلاثمائة مثقال من فضّة. قالا: ما ندرى إنما أوصى لنا بشيء. وأمرنا أن ندفعه لكم فدفعناه، وما لنا علمٌ بالإناء، فاختصموا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصرّوا على الإنكار وحلفا فأنزل الله «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا..» الآية* وذكر الجلال رواية البخاري: وهي أن رجلاً من بني سهم خرج مع تيم الداري وعدى بن بداء: أي وهما نصرانيّان، فمات السهمي بأرض ليس فيها مُسْلِمٌ، فلما قدما بتركته فقدوا جَاماً من فضة مخوّصاً بالذهب. فرفعا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت، فأحلفهما، ثم وجد الجام بمكة، فقال: ابتعناه من تميم وعدى، فنزلت الآية الثانية، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا* قلت: والذي ذكره البغوى وغيره من المفسرين أنَّه إناء من فضة منقوش بالذهب كما هي عبارة الخطيب، وابن جرير عن عكرمة.

أمّا التفسير: «يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُوا» استئناف مسوق لبيان الأحكام المتعلقة بأمور دنياهم أثر بيان الأحوال المتعلقة بأمور دينهم «شَهَادَةُ بينكُمْ» اختلف في هذه الشهادة: فقيل: هي الشهادة المعروفة: التى هي الإخبار بحق للغير على الغير. وقيل: هي حضور وصية المحتضر. وعبارة الخطيب: المعنى أن المحتضر إذا أراد الوصيّة ينبغى أن يُشهد عدلين من أهل دينه على وصيته، أو ما يوصى إليهما احتياطاً، فإن لم يجدهما فآخران من غيرهم. «إذَا حَضَرَ أحَدَكُمُ المَوْتُ» أي أسبابه من غيبوبة ونزع «حِينَ الوَصِيَّة اثْنَانِ ذَوَا

عَدْلٍ مِنكُمْ» خبر بمعنى الأمر أي هذه الجملة وهي قوله: شهادة بينكم ..الخ. خبرية ومعناها الطلب: أي ليشهد، وإضافة شهادة بينكم على الاتساع والتجوز. أي وحقّ الشهادة أن تضاف إلى المشهود به كأن يقال شهادة الحقوق المشروعة بينكم وهي شهادة اثنين من المسلمين ذوى العدل والاستقامة يُشهدهما الموصي على وصيته، فيشهدان بذلك عند الحاجة «**أَوْ آخران مِنْ غَيْرِكُم**» أي غير ملتكم «**إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى الأَرْضِ**» أي سافرتم للتجارة ونحوها «**فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ**» أي أو شهادة اثنين آخرين من غير المسلمين إن كنتم مسافرين، ونزلت بكم مقدّمات الموت، وأردتم الايصاء، «**تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ**» أي صلاة العصر لأنها وقت اجتماع الناس وتصادم ملائكة الليل وملائكة النهار، ولأن جميع الملل يعظمون هذا الوقت، ويجتنبون فيه الحلف الكاذب. وقال الحسن: صلاة الظهر، وقيل: أيّ صلاة كانت، وقيل: من بعد صلاتهما لأنهما كافران (القرطبي). والأصح أنها صلاة العصر لأن النبي صلى الله عليه وسلم حلّف عدياً وتميماً بعدها، ولأن العمل قد جرى عليه، فكان التحليف فيه هو المعروف، وروى عن ابن عباس أنّ الشهيدين إذا كانا غير مسلمين فالمراد بالصلاة صلاة أهل دينهما «**فَيُقْسِمَانِ بِاللهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ**» أي وتستقسمون الشاهدين وتطلبون حلفهما على الوصية، إن شككتُمْ في صدقهما فيقسمان: أما الأمين فيصدّق بلا يمين. لأن التقدير: إن ارتبتم فحلّفوهما. هذا ما جرى عليه الأكثر، وهو جواب إن ارتبتم «**لاَ نَشْتَرِى بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً**» أي يقسمان بقولهما: لا نشترى بيمين ثمناً، ولو كان الْمُقْسَم له من أقاربنا. أي لا نجعل يمين الله كالسلعة التي تبذل لأجل ثم ينتفع به في الدنيا «**وَلاَ نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللهِ**» التي أمرنا بها كما قال «**وأقِيمُوا الشَّهَادَةَ للهِ**» «**إِنَّا إِذاً**» إن كتمناها «**لَمِنَ الآثمينَ**» أي متحملين للإثم الذي نستحق الجزاء عليه من الله تعالى «**فإِنْ عُثِرَ**» اطلع بعد حلفهما «**عَلَى أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً**» أي فعلا ما يوجبه من خيانة، أو كذب في الشهادة بأن وجد عندهما مثلاً ما اتّهما به، وادّعيا أنهما ابتاعاهُ من الميت، أو وصّى لهما به. أو دفعه إلى شخص زاعماً أن الميت أوصى له به كما ورد في ادعائهما في الأقوال المنقولة في القصّة في سبب نزول الآية «**فَآخَرانِ يَقُومَانِ مَقامَهُما**» أي فالواجب حينئذٍ أن تُردّ اليمين إلى الورثة بأن يقوم رجلان آخران مقامهما من أولياء الميت الوارثين له المفهوم من قوله «**مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقّ عَلَيْهِمْ**» الوصية، وهم الورثة «**الأَوْلَيَانِ**» بالميت. أي الأقربان إليه فيحلفان

«فَيُقْسِمَانِ بالله» على خيانة الشاهدين، و يقولان «لَشَهَادَتُنَا» يميناً «أَحَقُّ» أصدق «مِنْ شَهَادَتِهِمَ» يمينهما «وَمَا اعْتَدَيْنَا» تجاوزنا الحق في اليمين «إنَّا إذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ» أي و يقولان في يمينهما إنا إذا اعتدينا الحقّ فحلفنا مبطلين كاذبين لنكونن من الظالمين لأنفسهم بتعريضها لسخط الله وانتقامه. «ذَلِكَ أدْنَى أنْ يأتُوا بالشهادة» أي أدنى الطرق وأقربها إلى أن يؤدى الشهداء الشهادة «على وَجْهِهَا» بلا تبديل ولا تغيير، تعظيماً لله ورهبة من عذابه ورغبة في ثوابه. أو خوفاً من الفضيحة بين الناس «أوْ» أقرب إلى أن «يَخَافُوا أنْ تُرَدَّ أيْمَانٌ بَعْدَ أيْمَانِهِمْ» على الورثة المدّعين، فيحلفوا على خيانتهم وكذبهم فيفتضحون و يغرمون فلا يكذبوا باليمين، وعبارة أبي السعود. فلا يحلفوا على موجب شهادتهم إن لم يأتُوا بها على وجهها فيظهر كذبهم بنكولهم «واتَّقُوا الله» بترك الخيانة والكذب «واسْمَعُوا» ما تُؤمرون به سماع قبول «والله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» الخارجين عن طاعته إلى سبيل الخير.

إلى هنا تم بعون الله الجزء الأول و يليه الجزء الثاني أوله سورة الأنعام وبيان ما فيها من أسباب نزول آياتها من قوله تعالى: «وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً في قِرْطَاسٍ..»



الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

مطـــابع الاشـــعاع

الرياض ت : ٤٤٨٦٣٥٨ ـــ ٤٠٤١٣٦٦

الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٠	٨	يَعِظُكَمْ	يَعِظُكُمْ
٤٧	٢٥	يَشْعُرُنَ	يشعرون
٤٩	١٥	الصفاهات	السفاهات
٦٧	٤	فعطم	فعظم
٧٠	٢١	كبيرت	كبريت
٨٩	١	الشيطن	الشيطان
٩٦	٢٦	الوحدى	الواحدى
١٤٦	٢٢	عليه	عليها
١٥٤	٨	ألئك (وأينما وجدت)	أولئك
١٦١	٦	الّدى	الّذى
١٦٢	١٤	الصّبع	الصبغ
١٦٩	٢٢	وكا	وكان
٢٠٤	٦	بالمساوة	بالمساواة
٢١١	٤	المسليمن	المسلمين
٢٣٧	٤	فكانو	فكانوا
٢٣٩	٩	وليسو	وليسوا
٢٧٦	الأخير	بن	بنت
٢٩١	٦	بعضه	بغضه
٢٩٣	١٧	لحميع	لجميع
٢٩٦	٢٢	الخبث	الخَبِيثَ (حيثما وجدت)
٢٩٨	١٥	تُبْدُا	تُبدُوا
٣٠٥	٢٥	الطرفية	الظرفية
٣٠٨	١	المخصوصو	المخصوص
٣١٤	١٥	الدينا	الدنيا
٣٢١	٢١	للتقال	للتقاتل
٣٢١	٢٣	المسليمن	المسلمين (حيثما وجدت)
٣٣٠	١٠	موسوى	موسى
٣٣٢	٢٠	سلماً	سلمان
٣٥٤	١٠	باستبعاد	باستعباد
٣٨٠	١٢	ثففوا	ثُقِفُوا (حيثما وجدت)
٤٠١	١٣	رتداده	ارتداده

الصفحة	السطر	الخطـــأ	الصـــواب
٤٠٨	١٨	الشيطانْ	الشيطانُ
٤٢٣	١٢	فإنَّ	فإنْ
٤٢٤	٢٣	فقَدَ	فَقَدْ
٤٢٨	٢	تَحْسَبَنَنَّ	تَحْسَبَنَّ
٤٢٩	٢٠	قريس	قريش
٤٣١	١١	تَحْتَهَا	تَحْتِهَا
٤٣٧	٣، ٨	تَتَبَدَّلُوا	تَتَبَدَّلُوا
٤٣٧	الأخير	تُخالِطُهُمْ	تخالِطُوهم
٤٤٩	١٧، ٢٤	يُوصِكُمْ	يُوصِيكُمُ
٤٥٨	١٩	طَوْلاً	طَوْلاً
٤٧٥	٦	يُزَكُّونَ	يُزَكُّونَ
٤٩٣	٢	يدْرِكْكُمْ	يدْرِكْكُمُ
٤٩٣	٢	تُصِبْهُمْ	تُصِبْهُمْ
٥٠١	١٥	يَصَدُّقُوا	يَصَّدَّقُوا
٥٠٥	٧	إليْكُمْ	إليْكُمُ
٥٠٥	٨	مَغَانِمَ	مَغَانِمُ
٥٠٧	٢٠، ٢١	فَضَّلَ	فَضَّلَ
٥٣٩	١٢	غَلْفٌ	غُلْفٌ
٥٥٤	١٢	لَكُمْ	لَكُمُ
٥٩٦	١١	أهْلِكُمْ	أهْلِيكُمْ
٦٠٢	٧	حُناحٌ	جُنَاحٌ
٦١٥	٢	شهَادَتِهِمَ	شهَادَتِهِمَا

جامع النقول في أسباب النزول

صـدر الإذن بطباعة هذا الكتاب من :

١ ــ الإدارة العامة لشئون المصاحف ومراقبة المطبوعات برئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد برقم ٥/٧٩١٠ وتاريخ ١٤٠٤/٥/٧هـ.

٢ ــ ومن المديرية العامة للمطبوعات بوزارة الاعلام برقم ٥٥٨٠م وتاريخ ١٤٠٤/٨/١٤هـ.